بين الناظم "ابن مالك" والشارح ابنه "بدر الدين"

للدكتور إبراهيم الإذكاوى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله الطيبين الأطهار ، وأصحابه الهادين الأبرار ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد . .

لقد آثرت دراسة بعض تعقيبات بدر الدين « فى كتابه شرح ألفية ابن مالك » ، لوالده ابن مالك (الناظم) لأن بدر الدين (ابن الناظم) تعقب أباه كثيرا دون هوادة فى بعض المسائل النحوية ، وربما حمله التعقيب على الإتيان ببيت بدل بيت الناظم (ابن مالك) ، وسنوضح ذلك إن شاء الله فى هذا البحث .

ولقد عاشا فى عصر واحد من الزمن (القرن السابع الهجرى) ، وكل منهما أحب العلم ، وأكب على الدراسة المتعمقة ، خاصة فى ميادين النحو واللغة ومما ساعد على ذلك ، ذكاء نادر ، وعقلية واعية ، ونفس صافية .

وقد تعرفت على هذه التعقيبات عن طريق كتاب شرح الألفية لابن الناظم (بدر الدين) الذى يعتبر بحق من المراجع الأساسية لشراح الألفية ويغلب على الظن أنه أول شرح عليها حتى امتاز أن يصير علما بالغلبة للشارح إذا أطلق فى هذه المصنفات .

وعن طريق مؤلفات ابن مالك التى تيسر اطلاعى عليها كالتسهيل وشرحه وشرح عمدة الحافظ ، وعدة اللافظ وشواهد التوضيح والتصحيح على مشكلات الجامع الصحيح استطعت بحمد الله أن أتعرف على بعض

مسائل الاختلاف بين العالمين الجليلين وقد استأنست بكتب أخرى لهذا ، الغرض كهمع الهوامع للسيوطى ، وشرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى والجنى الدانى للمرادى ، وبعض شراح الألفية كابن عقيل والأشمونى .

وقد مهدت لكل تعقيب بتمهيد موجز ، عرضت فيه رأى كل منهما (ابن مالك وابنه بدر الدين) ثم ذكرت أقوالهما من واقع مؤلفاتهما ، وبعد ذلك عرضت آراء بعض العلماء ممن وافقت أقوالهم كلا من العالمين ، ثم رجحت ما ظهر لى رجحانه مؤيدا ما أقول بالدليل ما أمكن .

فإذا كنت قد وفقت فى بحثى هذا فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن كانت الأخرى فحسبى أنى اجتهدت « وَما تَوْفِيقى إلاَّ باللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْت وَإِلَيْهِ أُنِيب » .

وقبل أن أتعرض لهذه التعقيبات أردت أن أذكر طرفا يسيرا عن حياتهما ومكانتهما العلمية .

ابن مالك « الناظم » :

اسمه ونسبه : هو جمال الدين محمد ابن عبد الله بن عبد الله بن مالك الجيانى الطائى الشافعى النحوى نزيل دمشق[1] .

مولده :

ولد ابن مالك بجيان مدينة ، بالأندلس سنة ٦٠٠ هـ على أكثر الروايات واقتصر عليها ابن شاكر فى فوات الوفيات[2] ، وابن كثير فى البداية والنهاية[3] .

أخلاقه :

أجمع الذين ترجموا لابن مالك على أنه يمتاز برقة القلب ، وكمال الفعل والدين المتين ، وأنه كان حريصاً على العلم وحفظه ، حتى إنه حفظ يوم وفاته ثمانية شواهد[4] .

---

(١) انظر ترجمته فى نفح الطيب ٢ / ٢٢٢ وما بعدها ، وبغية الوعاة ١/١٣٠ وما بعدها وشذرات الذهب ٥/٣٣٩ ، ومفتاح السعادة ١/١٩٣ وما بعدها .

(٢) فوات الوفيات ٢/٤٥٢ وما بعدها .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢٦٧

(٤) نفح الطيب ٧/٢٥٧ وما بعدها .

مذهبه الفقهى :

يكاد يجمع كل من تعرض لمذهب المصنف على أنه كان مالكيا بالمغرب شافعيا بالمشرق ، وليس من المستبعد أن يكون مرد هذا إلى أن ابن مالك نشأ بالأندلس ، وكان المذهب المالكى سائدا على عهده فلما حل بالمشرق ورأى المذهب الشافعى فى مقدمة المذاهب وبخاصة فى مصر والشام ، أتيحت له فرصة الموازنة ، وحرية الاختيار بين المذهبين . وذكر الصفدى فى الوافى بالوفيات[1] ، والسيوطى فى بغيـة الوعاة[2] أن ابن مالك قـد انفرد عن المغاربة بشيئين : الكرم ، ومذهب الشافعى

مذهبه الاعتقادى :

يبدو لى من مؤلفات ابن مالك أنه كان سنيا معتدلا لا معتزلا ولا شيعيا يظهر ذلك بوضوح عند شرحه لقوله فى الكافية :

وَالْتَزَمُوا تَأْخِيرَهِ فِى نَحْوِ لَنْ
يَفُوزَ فَذا بِالْمُنَى إِلاَّ الحَسَنْ

قال : « والإشارة إلى الحسن بن على — رضى الله عنهما — وإلى ما فاز به من الثواب الجزيل والثناء الجميل ، إذ أذعن لمصالحة معاوية — رضى الله عنه — فاغمد الله بفعله سيف الفتن تصديقا لقول رسول الله صلى الله عليه سلم « إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[3] ففى الوقت يثنى فيه المصنف على الحسن ابن على — رضى الله عنهما — يقول عن معاوية (رضى الله عنه) ومما يؤيد القول بأن ابن مالك — رحمه الله — ينتمى إلى مذهب أهل السنة والجماعة أنه كان يهدم آراء المعتزلة .ففى باب إعراب الفعل يقول : « ثم أشرت إلى ضعف قول من رأى تأبيد النفى بلن وهـو الزمخشرى فى أنموذجه ،

---

(١) انظر وافى الوفيات ٣ / ٣٦٠ .

(٢) بغية الوعاء ١ / ١٣٤ ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٥ / ٢٨ .

(٣) شرح الكافية الشافية مخطوطة ص ٧٢ .

وحامله على ذلك اعتقاده أن الله – تعالى لا يُرَى وهو اعتقاد باطل بصحة ذلك عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أعنى ثبوت الرؤية ،جعلنا الله من أهلها وأعاذنا من عدم الإيمان بها »[1]

فابن مالك رد على قول الزمخشرى بنفى الرؤية لأنها من مبادئ المعتزلة قال الشهرستانى فى الملل والنحل حين تحدث عن المعتزلة .

« واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار فى دار القرار »[2]

منزلته العلمية :

نشأ ابن مالك محبا للعلم ،مقبلا على مؤلفات من سبقوه وكان – رحمه الله له باع طويل فى اللغة قال الصفدى ، « جلس ابن مالك يوما وذكر ما انفرد به صاحب المحكم – ابن سيده – ت ٤٥٨ هـ عن الأزهرى فى اللغة »[3] .

أما النحو والصرف فكان فيه بحرا لا يشق لجه[4] وفى هذا المجال عجب الفضلاء من فرط ذكائه ، وقوة حافظته واستحضاره لكل ما مر به حتى أصبحوا فى حيرة من أمره ، وانبرى من بينهم من يقول : « إن ابن مالك ما خلى للنحو حرمة »[5] .

وبمثل هذه العقلية الفذة ، استطاع ابن مالك أن يربى على متقدميه ، ويظهر على معاصريه ، حتى صار يضرب به المثل فى دقائق النحو وغوامض الصرف[6] .

مذهبه النحوى :

لم يكن ابن مالك متعصبا لمذهب أى من المدرستين البصرة والكوفة ، من هنا رأينا المصنف يؤيد البصريين إن سار الحق فى ركابهم ، ويوافق الكوفيين إن رأى الصواب معهم ، ويفند آراء

---

(١) المرجع السابق ١٧١ .

(٢) الملل والنحل ت فتح الله بدران ٦٢ .

(٣) السوافى بالوفيات ٣ / ٣٥٩ ، ونفح الطيب ٢ / ٢٢٣ .

(٤) فوات الوفيات ٢ / ٢٢٧ دائرة معارف البستانى ١/٦٧٤

(٥) نفح الطيب ٧ / ٢٧٢ ، بغية الوعاة ١ / ١٣٠ .

(٦) دائرة معارف القرن العشرين ٩ / ٤٧١ ، دائرة معارف البستانى ١ / ٦٧٥ .

هؤلاء وهؤلاء إن كان رأيه يخالفهم فقد ذهب ابن مالك – تبعا – لجمهور البصريين إلى أن الفعل ينقسم إلى ماضٍ ومضارع ، وأمر ، والكوفيون يرون أن القسمة ثنائية ، وأن الفعل ماض ومضارع فقط ، أما الأمر – فى نظرهم – فإنه مقتطع من المضارع وليس أصلا برأسه ، وهو معرب مجزوم بلام الأمر التى حذفت حذفا مستمرا[1] .

كما وافق البصريين فى أن (كى) تأتى حرف جر ، كما تأتى ناصبة للمضارع ، وذهب الكوفيون إلى أنها ناصبة دائما ، ومذهب الأخفش أنها حرف جر دائما[2] .

ومن المسائل التى وافق فيها الكوفيين : امتناع تقديم خبر ليس عليها قياسا على فعل التعجب وعسى ونعم وبئس بجامع عدم التصرف وأجاز البصريون تقديم خبر ليس عليها[3]

كما وافق الكوفيين فى جواز نيابة غير المفعول به عن الفاعل مع وجوده ، ومنع ذلك البصريون إلا الأخفش[4] .

مؤلفاته :

حاز المصنف (ابن مالك) قصب السبق فى جميع الفنون ، ومؤلفاته خير شاهد على ذلك ، وأشهر كتبه ما يلى :

١ – الكافية الشافية
٢ – شرح الكافية الشافية .
٣ – الخلاصة المشهورة بالألفية
٤ – تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد
٥ – شرح التسهيل .
٦ – شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ .
٧ – شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح
٨ – شرح الاعتضاد فى الفرق بين الظاء والضاد .
٩ – اللامية فى القراءات .
١٠ – كتاب فى العروض .

---

(١) انظر شرح التسهيل لابن مالك ١٥ .
(٢) انظر عمدة الحافظ وعدة اللافظ ١٦١ .
(٣) الإنصاف فى مسائل الخلاف ٩٢ مسألة ١٨ ، وشرح المفصل ٧ / ١١٤ .
(٤) تسهيل الفوائد ٧٧ .

١١ – تحفة المودود في المقصور والممدود .

١٢ – الدالية فى القراءات[١] .

توفى – رحمه الله – بدمشق سنة ٦٧٢ هـ[٢] .

ابن الناظم « الشارح » :

هو محمد بدر الدين بن محمد بن عبد الله بن مالك ولد بدمشق ، ويغلب على الظن أنه ولد بعد سنة ٦٤٠ هـ لأنه قد توفى كهلا سنة ٦٨٦ هـ[٣]

أخذ عن والده ، ونشأ حاد الذهن ووقع بينه وبين أبيه خلاف ، فسكن لأجلها بعلبك ، فقرأ عليه بها جماعة ، ولما مات أبوه ذهب إلى دمشق وولى وظيفة والده ، وتصدى للاشتغال والتصنيف[٤] .

وكان – رحمه الله – إماما ، فهما ذكيا ، وإماما فى النحو ، والمعانى والبيان ، والبديع ، والعروض ، والمنطق .

ومن مؤلفاته :

١ – شرح ألفية والده .

٢ – شرح كافية والده أيضاً .

٣ – شرح لاميته .

٤ – شرح الملحة .

٥ – شرح التسهيل ولم يتمه

٦ – شرح الحاجبية .

٧ – مقدمة فى العروض .

٨ – مقدمة فى المنطق[٥] .

وقد تعقب والده فى نظمه دون هوادة فى بعض المسائل التى نحن بصددها فى هذا البحث إن شاء الله ، وهذا مما يدل على أمانته العلمية وقوة ذكائه وغزارة علمه ، نفع الله بهما وجزاهما عن العربية خير الجزاء .

---

(١) انظر مؤلفاته – مفتاح السعادة ١ – ١٩٣

(٢) انظر نشأة النحو ٢٢٢ .

(٣) ترجمته فى الوافى بالوفيات ١ / ١٢٩ ، ١٣٠ ، وبغية الوعاة ١ / ٢٢٥ وشذرات الذهب ٥ / ٣٩٨

(٤) انظر نشأة النحو ٢٣٠ .

(٥) انظر المراجع السابقة .

بين الناظم « ابن مالك » والشارح بدر الدين ابنه » :

يغلب على الظن أن أول شرح على ألفية ابن مالك ، هو شرح ابن الناظم. والشرح – فى الحقيقة – يميل إلى دقة العبارة وصعوبة المأخذ أحيانا ويغلب عليه الاختصار ، مع الوفاء بمطالب الشرح والبيان .

وهذا الشرح كان الضياء الذى استنار به الشراح لألفية والده ، والمنار الذى اهتدى بهديه من تصدى لشرح الخلاصة (الألفية) لهذا كله امتاز هذا الشرح أن يصير علما بالغلبة « للشارح » إذا أطلق فى هذه المصنفات[1] .

ولقد أصبح هذا الشرح من المراجع الأساسية لشراح الألفية – كما ذكرت لدرجة أن شرح ابن الناظم وردت فيه بعض شواهد محرفة نقلها عنه من أتى بعده .

من ذلك على سبيل المثال : استشهاده فى أول باب نعم وبئس للكوفيين على اسميتها بقول الراجز :

صَبَّحَكَ اللهُ بِخَيْرٍ بَاكِرِ
بِنِعْمِ طَيرٍ وشَبَابٍ فَاخِرِ[2]

وصحة الشطر الثانى « بِنُعْمِ عَيْنٍ ... لخ » كما فى لسان العرب[3] ، وعلى هذا ضاع الاستشهاد بالبيت مع أنه اقتفاه فى هذا الاستشهاد الأشمونى[4] .

ويلاحظ على ابن الناظم أنه ربما ساق شعر المحدثين استدلالا ، فقد جوز ذكر الخبر بعد لولا إن دل عليه دليل واستشهد على ذلك بقول أبى العلاء المعرى .

يُذِيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ
فلَولاَ الغِمْدُ يُمسِكُهُ لَسَالاَ[5]

---

(١) انظر نشأة النحو ٢٣١ .

(٢) هذا بيت من الرجز ، ولم أقف له على نسبة إلى قائل معين ، والشاهد فيه قوله بنعم فان الكوفيين إلا الكسائى قد ذهبوا إلى أن «نعم» وبئس اسمان بمعنى المدح والذم ، واستدلوا على اسميتها بأمور منها دخول حرف الجر عليهما والبيت من شواهد العينى ٤ / ٢ وهمع الهوامع ٢ / ٨٤ ، والدرر اللوامع ٥ / ١٩٥ .

(٣) لسان العرب مادة (ن ع م)

(٤) شرح الأشمونى ٣ / ٢٧ .

(٥) من شواهد شذور الذهب ٣٦ ، والمغنى ٢٧٣ ، ٥٤٢ ، وشرح التصريح ١ / ١٧٩ ، والعينى ١/ ٥٤٠ وهمع الهوامع ١ / ١٠٤ والدرر اللوامع ٢ / ٢٧ والأشمونى ١ / ٢١٥ .

واقتفاه فى الاستشهاد بهذا البيت ابن هشام فى شذور الذهب والمغنى . والشيخ خالد الأزهرى . فى شرح التصريح ، والعينى فى شرح شواهد الألفية . والسيوطى همع الهوامع والشنقيطى فى درراللوامع والأشمونى فى شرحه .

ولقد كثرت الحواشى على شرح ابن الناظم . فكتب عليه ابن جماعة والعينى والسيوطى وزكريا الأنصارى وابن قاسم العبادى وغيرهم(1)

ولقد تعقب ابن الناظم أباه كثيرا كما ذكرت — دون هوادة فى بعض المسائل ، وربما حمله التعقب على الإتيان ببيت بدل بيت الناظم ، ففى باب التنازع رأى أن قول والده :

بلْ حَذْفَهُ الزم إنْ يَكُنْ غَيْرَ خَبَرْ
وَأَخِّرَنْهُ إنْ يَكُنْ هُوَ الخَبَرْ(2)

يفيد أن ضمير المتنازع فيه إن كان المفعول الأول فى باب ظن يجب حذفه مع أنه لا فرق بين المفعولين فاستصوب أن يقول بدله :

وَاحْذِفْهُ إنْ لَم يَكُ مَفعُول حسب
وَإنْ يَكُن ذَاكَ فَأَخِّرْه تُصِبْ(3)

إلا أن الشراح بعده من ابن هشام وابن عقيل والأشمونى وغيرهم تصدوا للرد عليه .

فالمرادى قال : قوله مفعول حسب يوهم أن غير مفعول (حسب) يجب حذفه وإن كان خبرا وليس كذلك لأن خبر كان لا يحذف أيضاً ، بل يؤخر كمفعول حسب نحو زيد كان وكنتُ قائماً إياه وهذا مندرج تحت قول المصنف « غير خبر » .

ولو قال .

بَلْ حَذْفُهُ إنْ كَانَ فضْلَةً حُتِم
وَغَيْرُهَا تَأْخِيرُه قَدِ الْتُزِمْ

لأجاد(4) .

واعترض الأشمونى أيضاً على كلام المرادى فقال : « وعلى هذا أيضاً من

(1) انظر نشأة النحو ٢٣٢ .
(2) ألفية ابن مالك ٦٦ .
(3) شرح الألفية لابن الناظم ٢٥٩ .
(4) شرح الألفية للمرادى ٢ / ٧٣ .

[المؤاخذة ما على بيت الأصل من عدم اشتراطه من اللبس. . . فكان الأحسن أن يقول :

وَاحذِفْهُ لاَ إنْ خِيفَ لَبْسٌ ، أَوِيُرَى
لِعُمْدَةٍ فجئْ بهِ مُؤخّرا[1]

ولهذا قال العلامة الملوى على شرحه للمكودى مهاجما ابن الناظم وردا عليه فى بعض مواقفه مع أبيه :

وَابنُ اللّبُونِ إذَا مَـا لُزّ فى قَرَنٍ
لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيس[2]

ومواضع التعقيبات بين الناظم والشارح كثيرة ، ونكتفى بما يصور أهم هذه التعقيبات .

وأعنى بها : الموافقة الصريحة أو المخالفة أو الاستدراكات من الشارح على الناظم (ابن مالك) فى ألفيته ، ونكتفى بما يصور أهم هذه التعقيبات على سبيل المثال لا الحصر ، فمن ذلك :

١ - ابن مالك قسم المعرفة فى ألفيته إلى ستة أقسام ، وهى : الضمير ، واسم الإشارة ، والعلم ، والمضاف إلى معرفة ، والمعرف بالألف واللام واسم الموصول وأهمل المعرف بالنداء ، فقال ،

وَغَيْرُهُ مَعْرِفَةٌ كَهُم وَذِى
وَهِنْد وابنِى وَالغُلامَ والذى[3]

لهذا قال ابنه : « وواحد أهمله المصنف وهو المعرف بالنداء نحو يارجل[4] .

وكلام ابن مالك هنا - أى فى الألفية - لا يشمل ذلك ، وقد نبه على المعرف بالنداء فى شرحه لعمدة الحافظ وعدة اللافظ فقال :

« وإما معرف بالنداء كيارجل[5] .

٢ - إذا كان خبر كان وأخواتها ضميرا ، فإنه يجوز اتصاله وانفصاله ، واختلف فى المختار منهما ، فاختار ابن مالك الاتصال نحو كنته

---

(١) شرح الألفية للأشمونى ٢ / ١٠٧ .
(٢) حاشية الملوى على شرح المكودى لألفية ابن مالك ٧٣ .
(٣) ألفية ابن مالك ١٥
(٤) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٥٥ .
(٥) شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ لابن مالك ٤٩ .

فيقول :

وَصِلْ أَو افْصِلْ هَاءَ سَلْنِيهِ وَمَا
أَشْبَهَهُ فِى كُنْتُهُ الخُلْفُ انْتَمَى
كَذَاكَ خِلْتَنِيهِ واتصالاَ
أخْتَارُ ، غَيْرِى اخْتَارَ الانفِصالاَ[1]

واختار سيبويه الانفصال نحو كنت إياه

ولقد ورد الأمران كثيرا فى كلام العرب ، فمن الاتصال قول أبى الأسود الدؤلى يخاطب غلاماً له كان يشرب النبيذ فيضطرب شأنه وتسوء حالته .

فَإنْ لاَ يَكُنْهَا أَو تكُنْهُ فَإنَّه
أَخُوهَا غذتْهُ أُمُّهُ بِلبَانِهَا[2] .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب فى شأن ابن الصياد : إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإلا يكنه فلا خير لك فى قتله » .

ومن الانفصال قول عمر بن أبى ربيعة المخزومى .

لَئِن كَانَ إِيَّاهُ لَقَدْ حَالَ بَعْدَنَا
عَنِ العَهْدِ ، والإنسانُ قَدْ يَتَغَيَّرُ[3] .

وقول الآخر :

لَيْسَ إِيَّاى وإيَّا
كَ ، وَ لاَ نَخْشَى رَقِيبا[4]

وابن عقيل يرى أن مذهب سيبويه أرجح فيقول : « ومذهب سيبويه أرجح لأنه هو الكثير فى لسان العرب على ما حكاه سيبويه عنهم وهو المشافه لهم »[5] .

وابن الناظم أيد والده فى هذه المسألة فقال : « والصحيح اختيار الاتصال لكثرته فى النظم والنثر الفصيح »[6]

وأما نحو خلتنيه وهو كل فعل تعدى إلى مفعولين : الثانى منهما خبر

---

(١) ألفية ابن مالك ١٧ .

(٢) البيت فى الكتاب لسيبويه ١/ ٤٦ ، والمقتضب للمبرد ٣/ ٩٨ ، والمقرب لابن عصفور ١/ ٩٥

(٣) البيت فى شرح المفصل لابن يعيش ٣ / ١٠٧ ، وخزانة الأدب للبغدادى ٥ / ٣١٢ وشرح التصريح ١/ ١٠٨ .

(٤) البيت فى المنصف لابن جنى ٣/ ٦٢ ، وهمع الهوامع للسيوطى ١ / ٦٤ ، وخزانة الأدب للبغدادى ٥/ ٣٢٢ .

(٥) شرح ابن عقيل ١/ ١٠٤ .

(٦) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٦٣ .

فى الأصل وهما ضميران ، فابن مالك اختار الاتصال أيضاً تقول خلتنيه لأنه أخصر ومذهب سيبويه الانفصال .

ولقد ورد الأمران فى فصيح الكلام أيضاً ، فمن الاتصال قوله تعالى : « إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً ، وَلَوْ أَرَاكَهُم كَثِيراً »[1] .

وقول الشاعر :

بُلِّغْتُ صُنْعَ امْرِئٍ بَرٍّ إِخَالُكَهُ[2]

إِذْ لَمْ تَزَلْ لاكْتِسَابِ الحَمْدِ مُبْتَدِرا[3]

وابن الناظم خالف والده فى ذلك فقال : ثم ذكر — ابن مالك — أنه يختار الاتصال ، وأن منهم من يختار الانفصال نظرا إلى أنه خبر فى الأصل وليس بمرضى ، لأن الاتصال قد جاء فى الكتاب العزيز فى قوله تعالى (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً ، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُم) .

والانفصال لا يكاد يعثر عليه إلا فى الشعر كقوله[3] :

أَخِى حَسِبْتُكَ إِيَّاهُ وَقَدْ مُلِئَتْ

أَرْجَاءُ صَدْرِكَ بِالأَضْغَانِ وَالإِحَنِ[4]

وما ذهب إليه ابن مالك والرمانى وابن الطراوة هو الراجح عندى ، لأن الاتصال أرجح فى خبر كان ، وفى المفعول الثانى من مفعولى ظن وأخواتها وذلك من قبيل أن الاتصال فى البابين أكثر ورودا عن العرب .

وقد ورد الاتصال فى خبر « كان » فى الحديث الذى رويناه سابقاً ، وورد الاتصال فى المفعول الثانى من باب ظن فى القرآن الكريم فيما قد ذكرناه ولم يرد فى القرآن الانفصال فى أحد البابين أصلًا وبحسبك أن يكون ، الاتصال هو الطريق الذى استعمله القرآن الكريم باطراد .

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الأنفال .

(٢) البيت فى كتاب المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية للعينى ١/ ٢٨٧ وشرح التصريح ١ / ١٠٨ شرح الأشمونى ١ / ١١٩ .

(٣) لم يعرف قائله ، واستشهد به العينى ١/ ٢٧٦ ، وشرح التصريح ١/ ١٠٧ ، وشرح الأشمونى ١/ ١١٩ .

(٤) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٦٥ .

٣ ـ إذا اجتمع الاسم واللقب فإن كانا مفردين ، وجب عند البصريين الإضافة نحو: هذا سعيد كرز ، ورأيت سعيدَ كرزٍ ، ومررت بسعيد كرزٍ .

وابن مالك اختار هذا الرأى فقال

وَإِنْ يَكُونَا مُفْرَدَيْنِ فَأَضِفْ
حَتْماً وَإِلاَّ أَتْبِعِ الَّذِى رَدِفْ[١]

وأجاز الكوفيون إتباع الثانى للأول على أنه بدل منه أو عطف بيان نحو هذا سعيدٌ كرزٌ ، ورأيت سعيدًا كرزًا ومررت بسعيدٍ كرزٍ ، ويجوز أيضاً القطع إلى النصب بإضمار فعل ، وإلى الرفع بإضمار مبتدأ نحو مررت بسعيد كرزًا ، وكرزٌ أى أعنى كرزا ، وهو كرزٌ .

وابن الناظم اختار رأى الكوفيين ، وخالف والده فقال : « وما قاله الكوفيون فى ذلك لا يأباه القياس »[٢] .

وماذهب إليه الكوفيون عندى هو الحق ولهذا جرى عليه ابن مالك فى شرح التسهيل فقال : « فالمفردان يشاركان فى الإتباع والقطع وينفردان بالإضافة كسعيد كرز ، ولم يذكر فيها سيبويه إلا الإضافة[٣] » .

٤ ـ اختلف النحاة فى جواز تقديم خبر ليس عليها ، فذهب الكوفيون والمبرد والزجاج وابن السراج وابن مالك إلى المنع[٤] .

وذهب الزمخشرى تبعا لجمهور البصريين وأبو على الفارسى وابن برهان إلى الجواز فتقول : قائما ليس زيد[٥] .

فابن مالك نهج منهج الكوفيين ولهذا قال :

وَقَدِّم إِنْ شِئْتَ عَلَى الفِعْلِ الخَبَرْ
مَا لَمْ يَكُنْ دَامَ وَفِى لَيْسَ نَظَرْ

(١) ألفية ابن مالك ٢٠ .

(٢) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٧٣ .

(٣) شرح التسهيل ١ / ١٩٣ .

(٤) انظر الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى ٩٢ مسألة رقم ١٨ .

(٥) انظر شرح اللمع لابن برهان ٥٨ ، ٥٩ ، وشرح المفصل ٧/ ١١٤ .

وَمَنْعَ تَقْدِيم عَلَيْهَا أَمْثَلُ
عِنْدِى وَقَوْمٌ الجَوازَ فَضَّلُوا[1]

وابن الناظم خالف والده فى هذه المسألة واختار الجواز فقال : « فلا يلزم من امتناع التقديم على هذه الأفعال امتناع تقديم خبر ليس عليها »[2]

وما ذهب إليه ابن مالك والكوفيون من عدم جواز تقديم خبر (ليس) عليها هو الراجح عندى ، وذلك بسبب ضعفها بعدم التصرف ، ولأن (عسى) لا يتقدم خبرها إجماعا لعدم تصرفها .

٥ ـ المصدر المؤكد ـ مثل قولك فهمت فهما ـ لا يجوز حذف عامله ، لأنه مسوق لتقرير عامله وتقويته ، والحذف مناف لذلك[3] .

وأمـا غير المؤكد فيحذف عامله للدلالة عليه مثل ما ضربتَ ، فتقول بلى ضرباً مولماً ، أو بلى ضربتين وهذا ما يراه ابن مالك فقال :

وَحَذْفُ عَامِلِ المُؤَكِّدِ امْتَنَعْ
وَفِى سِوَاهُ لِدَلِيلٍ مُتَّسَعْ[4]

والشارح « ابن الناظم » خالف رأى والده ، ورد عليه فقال : « فإنهم يحذفون عامل المؤكد حذفاً جائزا ، وإذا كان خبرا عن اسم عين فى غير تكرير ولا حصر نحو أنت سيرا ، وميرا ، وحذفا واجبا فى مواضع يأتى ذكرها نحو سقيا ، ورعيا ، وحمدا ، وشكرا ، لا كفرا .

فمنع مثل هذا : إما لسهو عن وروده ، وإما للبناء على أن المسوغ لحذف العامل منه نية التخصيص ، وهو دعوى على خلاف الأصل ، ولا يقتضيها فحوى الكلام »[5]

وابن عقيل رد على ابن الناظم فى هذه المسألة فقال : « وقول ابن المصنف إن قوله : وحذف عامل المؤكد امتنع

(١) متن الكافية الشافية فى علم العربية لابن مالك ١٧ .
(٢) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ١٣٦ .
(٣) انظر شرح ابن عقيل ٢/ ١٧٥ ، وحاشية الصبان ٢ـ١١٥ .
(٤) ألفية ابن مالك ٦٨ .
(٥) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٢٦٦ .

سهو فيه ، لأن قولك ضَرْباً زيدا مصدر مؤكد ، وعامله محذوف وجوبا ليس بصحيح »(1)

ويعجبني ما استأنس به العلامة الملوي(2) على شرح المكودي تعليقاً على ما تقدم ودفعا للاعتراض .

وابْنُ اللَّبُون إذَا مَا لزَّ في قَرنٍ
لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البزْلِ القَنَاعِيس(2)

والراجح عندى فى هذه المسألة ما ذهب إليه ابن مالك ، وأن الأمثلة التى ساقها ابن الناظم ليست من باب التوكيد فى شىء ، لأن المصدر فيها نائب مناب العامل، دال على ما يدل عليه ، وهو عوض منه ، ويدل على ذلك عدم جواز الجمع بينهما لأنه لا يجمع بين العوض والمعوض .

٦ - سوى ، مذهب الخليل وسيبويه والفراء ومن تبعهم فيها ، أنها لا تكون إلا ظرفا ، فإذا قلت قام القول سوى زيد « فسوى » عندهم منصوبة على الظرفية(3) .

ومذهب الكوفيين ، وتبعهم ابن مالك أنها تأتى ظرفاً ، وتأتى اسما متأثرا بالعوامل من غير ضرورة ولا شذوذ ، وأنها كغير ، فتعامل بما تعامل به غير وإلى هذا أشار بقوله

ولِسِوىً سُوىً سَواءٍ اجْعَلا
عَلَى الأَصَحِّ ما لِغَيْرٍ جُعِلا(4)

واستدل الكوفيون بورود ذلك فى كلام العرب نثرا و نظما .

فمن وقوعها مرفوعة قول محمد بن عبد الله بن مسلم .

وَإذَا تُبَاعُ كَرِيمَةٌ أَوْ تُشْتَرى
فَسِوَاكَ بَائِعُهَا وأَنْت المشْتَرى(5)

---

(١) شرح ابن عقيل ٢ / ١٧٥ ، ١٧٦ ويراجع الرد عن ابن الناظم فى المرجع السابق .

(٢) حاشية الملوى على شرح المكودى لألفية ابن مالك ٧٣ .

(٣) انظر توضيح المقاصد للمرادى ٢/ ١١٦ وشرح الأشمونى ٢ / ١٥٨ .

(٤) ألفية ابن مالك ٧٥ .

(٥) استشهد به السيوطى فى كتابه همع الهوامع ١ / ٢٠٢ ، والشنقيطى فى كتابه درر اللوامع ٣/ ٩٢ ، والأشمونى ٢/ ١٥٩ .

ومن استعمالها منصوبة على غير الظرفية قول الشاعر :

لَدَيْكَ كَفِيلٌ بِالْمُنَى لِمُؤَمِّلٍ
وإِنَّ سِوَاكَ مَنْ يُؤَمِّلُهُ يَشْقَى (١)

من استعمالها مجرورة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « دعَوْتُ رَبِّى أَلا يُسلِّط عَلَى أُمَّتى عَدُوا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهَا » .

ومذهب الرمانى وأبى البقاء العكبرى أنها تستعمل ظرفا منصوبا على الظرفية وتستعمل غير ظرف ؛ ولكن استعمالها ظرفا أكثر من استعمالها غير ظرف (٢) وقد اختار ابن هشام هذا الرأى وقال : « وإلى مذهبها أذهب » (٣) وابن الناظم وافق أباه فى ذلك فقال : « فليس الأمر فى سوى كما قال سيبويه ، فلذلك جعل الشيخ (رحمه الله) خلافه هو الأصح » (٤) .

وما ذهب إليه الكوفيون وابن مالك هو الراجح عندى لكثرة الشواهد ، الواردة عن العرب التى تؤيد رأيهم . وتمنعنا من أن نتمحل لتأويلها ، أو أن ندعى أنها ضرورة من ضرورات الشعر .

٧ــ صاحب الحال قد يكون مجرورا بحرف جر أصلى مثل : مررت بهند جالسة . وقد يكون مجرورا بحرف جر زائد كقولك : ما جاء من أحد راكبا .

ولا خلاف بين النحاة فى أن صاحب الحال إذا كان مجرورا بحرف جر زائد يجوز تقديم الحال عليه وتأخيره عنه كقولك : ما جاء من أحد راكبا وما جاء راكبا من أحد .

والخلاف منحصر بينهم فى تقديم الحال على صاحبها المجرور بحرف جر أصلى ، فذهب الفارسى ، وابن كيسان وابن برهان ، وتابعهم ابن مالك

---

(١) البيت لم يعرف قائله ، انظر شرح العينى ٣/ ١٢٥ ، وشرح الأشمونى ٢/ ١٥٩ .

(٢) انظر شرح الأشمونى ٢/ ١٦٠ .

(٣) انظر هامش شرح ابن عقيل ٢/ ٢٣١ .

(٤) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٣٠٥

إلى جواز ذلك لورود السماع [1] ، واستدلوا بقول الشاعر :

لَئِنْ كَانَ بَرْدُ المَاءِ هَيْمَانَ صَادِياً
إلَيَّ حَبِيباً ، إنَّها لَحَبِيبُ [2]

وقول الآخر :

مَشْغُوفَةً بِكَ قَدْ شُغِفْتُ وإنَّما
حُمَّ الفِرَاقُ فَمَا إلَيْكَ سَبِيلُ [3]

وأكثر النحاة لايجوزون تقديم الحال على صاحبها المجرور بحرف جر أصلى فلا يجوز عندهم مررت جالسة بهند . والشارح ابن الناظم وافق على رأى أبيه فقال : « وخالفهم الشيخ (رحمه الله) فى هذه المسألة ، وأجاز تقديم الحال على صاحبها للمجرور بحرف » [4] وذكر بدر الدين ما يؤيد مذهب والده . وأرى : أن الرأى الذى يجوز تقدم الحال على صاحبها المجرور بحرف جر أصلى هو الأصوب لكثرة ورود الشعر العربى فى ذلك .

٨ـ اختلاف النحاة فى معنى الإضافة المحضة .

فذهب سيبويه والجمهور وتبعهم أبو على الفارسى والإمام عبد القاهر الجرجانى إلى أن الإضافة لا تعدو أن تكون بمعنى اللام أو من » [5] .

فيتعين تقدير « من » إن كان المضاف إليه جنسا للمضاف مثل هذا ثوب حرير وخاتم ذهب أى هـذا ثوب من حرير ، وخاتم من ذهب .

فإن لم يتعين تقدير « من » فالإضافة بمعنى اللام مثل هذا غلام محمد ، وهذه

---

(١) انظر شرح الأشمونى ٣/ ١٧٦ ، ١٧٣ ، وشرح ابن عقيل ٢/ ٢٦٤ .

(٢) البيت لكثير عزة انظر العينى ٣/ ١٥٦ ، وشرح الأشمونى ٢/ ١٧٧ .
والشاهد فى هيمان حيث وقع حالا عن الياء فى إلى وتقدمت عليه مع كونه مجرورا .

(٣) البيت لم يعرف قائله :انظر العينى ٣/١٦٢ ، وشرح الأشمونى ٢/١٧٧ والشاهد فى مشغوفة حيث وقع حالا من المجرور وهو الكاف فى بك .

(٤) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٣٢٣ .

(٥) انظر كتاب المقتصد فى شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجانى ٢ / ٨٧٠ ، ٨٧١ وانظر الأصول لابن السراج ٢/ ٥ ، وشرح ابن عقيل ٣/ ٤٣ ، ٤٤ .

دار عبد الله أى غلام لمحمد ، ودار لعبد الله[1] .

وذهب بعض النحاة إلى أن الإضافة تكون بمعنى اللام فقط ، وعللوا ذلك بأن كلا من الظرف والتبعيض يصح فيه اعتبار معنى اللام[2] .

ومن العلماء من ذهب إلى أن الإضافة كما تكون بمعنى « مِنْ » و « اللاَّم » تكون أيضاً بمعنى « فى » إن كان المضاف إليه ظرفاً واقعاً فيه المضاف واستدلوا على رأيهم بشواهد من القرآن الكريم والشعر العربى ،من ذلك : قوله تعالى « لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِم تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ[3] .

وقوله تعالى : «بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ والنَّهَارِ[4]

وقول حسان بن ثابت .

تُسَائِلُ عَنْ قِومٍ هِجَانٍ سَمَيدَعٍ
لَدَى الْبَأْسِ مِغْوارَ الصباحِ جَسُورِ[5]

وابن مالك وافق على ذلك .

يقول الشارح « ابن الناظم » : واختار الشيخ (رحمه الله) هذا المذهب فلذلك قال :

والثَّانِىَ اجْرُرْ وَانْوِ «من »أَوْ «فى » إذَا
لَمْ يَصْلُحِ الاَّ ذَاكَ ، واللاَّمَ خُذَا[6]

وابن الناظم خالف والده فى هذا الرأى فقال :

« والإضافة بمعنى « فى » مختلف فيها والحمل على المتفق عليه أولى من الحمل على المختلف فيه »[7] .

وقال أيضاً : « إن دعوى كون الإضافـة بمعنى « فى » يستلزم دعوى كثرة الاشتراك فى معناها ، وهو على خلاف الأصل ، فيجب اجتنابها »[8]

وذكر ابن الناظم أدلة على ضعف ما رآه والده فى هذه المسألة .

---

(۱) المراجع السابقة .
(۲) انظر حاشية الصبان ۲/۲۳۸ .
(۳) من الآية ۲۲٦ من سورة البقرة .
(٤) من الآية ۳۳ من سورة سبأ .
(٥) البيت من شواهد العينى ۳/۳٥۸ .
(٦) ألفية ابن مالك
(۷) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ۳۸۳ .
(۸) المرجع السابق ۳۸۲ .

وما ذهب إليه سيبويه وجمهور النحاة من أن الإضافة المحضة تكون بمعنى «اللام» أو «من» هو الراجح عندى وذلك لقوة أدلتهم .

٩ ـ لا خلاف فى امتناع تقديم معمول فعل التعجب عليه ، لأن الفعل الجامد ضعيف فى ذاته ، فلا يتصرف فى معموله بتغيير موضعه ، لا بتقديمه عليه ، ولا بالفصل بينه وبينه ، فلا يجوز أن نقول : محمدا ما أَحْسَنَ ، ولا ما محمدا أَحْسَنَ ، ولا بمحمدٍ أَحْسِنْ.[1]

ولا خلاف أيضاً فى امتناع الفصل بين فعل التعجب وبين المتعجب منه ـ كما ذكرت ـ بغير الظرف والجار والمجرور ، كالحال والمنادى مثلا فلا يجوز أن تقول : ما أحسن ضاحكا محمدا ولا ما أحسن يا عبد الله عليا .

وأما الفصل بالظرف والجار والمجرور ففيه خلاف مشهور ؛ فذهب سيبويه والأخفش والمبرد والزمخشرى ومن وافقهم إلى منع الفصل[2] .

بين فعل التعجب ومعموله بالظرف والجار والمجرور ، فلا يقال : ما أحسن فى الدار محمدا ، ولا أكرِم اليوم بعلى ؛ واحتجوا بأن التعجب جرى مجرى الأمثال والأمثال لا تتغير .

ويرى أكثر النحاة جواز الفصل بين فعل التعجب ومعموله بالظرف والجار والمجرور ، وهو اختيار ابن مالك والشارح.

يقول ابن الناظم : « والصواب أن ذلك جائز وهو المشهور والمنصور[3] » وما ذهب إليه أكثر النحاة وابن مالك وابن الناظم هو الذى أميل إليه ، لورود الفصل فى النثر وفى الشعر العربى ، بكثرة ، ولأنهم يتوسعون فى الظرف والجار والمجرور .

وما ورد فيه الفصل قول الشاعر :

وَقَالَ نَبِىُّ الْمُسْلِمِينَ تَقَدَّمُوا
وَأَحْبِبْ إِلَيْنَا أَنْ تَكُونَ الْمُقَدَّمَا[4]

---

(١) انظر شرح الأشمونى ٣/ ٢٤ ، ٢٥ ، وابن عقيل ٣/ ١٥٦ ، ١٥٧ وشرح المفصل ٧/ ١٥٠ .

(٢) المراجع السابقة .

(٣) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٤٦٤ .

(٤) قاله الشاعر : العباس بن مرداس ، البيت من شواهد العينى ٣ / ٦٥٦ والتصريح ٢/٣٥٣ ، وهمع الهوامع ٢ / ٩٠ ، ٩١ ، ودرر اللوامع ٥ / ٢٣٤ . والشاهد قوله « إلينا » فقد فصل بين فعل التعجب وهو « أحبب وفاعله الذى انسبك من الحرف المصدرى ومعموله ، وذلك جائز فى الأصح على مذهب النحاة .

وقول الآخر :

خَلِيلَىَّ مَا أَحْرَى بِذِى اللُّبِّ أَنْ يُرَى
صَبُورا وَلَكِنْ لاَ سَبِيلَ إِلَى الصَّبْرِ [1]

ومن النثر قول عمرو [*] بن معد يكرب :

« مَاأَحْسَنَ فِى الهَيْجَاءِ لِقَاءَهَا وَأَكْثر فِى اللَّزْبَات عَطَاءَهَا ، وَأَثبت فِى المَكْرُمَات بَقَاءَهَا » .

ولذا قال ابن مالك :

وَفِعْل هَذَا البَابِ لَنْ يُقَدما
مَعْمُولُهُ وَوَصْلُهُ بِهِ الْزَمَا
وَفَصْلُهُ بِظَرْفٍ اوْ بِحَرْفِ جَرّ
مُسْتَعْمَلٌ وَالْخُلْفُ فِى ذَاكَ اسْتَقَر [2]

١٠ – منع سيبويه والسيرافى وابن جنى ومن تبعهم الجمع بين الفاعل الظاهر والتمييز فى باب نعم وبئس . فلا يجوز أن تقول على رأيهم : نعم الرجل رجلا محمد . لأن الإبهام قد ارتفع بظهور الفاعل فلا حاجة إلى تمييز [3] وأجاز ذلك المبرد وابن السراج . وأبو على الفارسى وابن مالك وابن الناظم [4] يقول ابن مالك :

وَجَمْعُ تَمْيِيزٍ ، وفَاعِلٍ ظَهَرْ
فِيهِ خِلاَفٌ عَنْهُمُ قَدِ اشْتَهَرْ [5]

وما ذهب إليه ابن مالك من جواز الجمع بين الفاعل الظاهر ، والتمييز فى نعم وبئس هو الذى أميل إليه لكثرة ورود ذلك نظما ونثرا

فمن النظم قول الشاعر

تَزَوَّدْ مِثْلَ زَادِ أَبِيكَ فِينَا
فَنِعْمَ الزَّادُ زَادُ أَبِيكَ زادا [6]

---

(١) البيت لم يعرف قائله ، واستشهد به العينى ٣ / ٦٦٢ ، والهمع ٢ / ٩١ والدرر ٥ / ٢٤٢ ، وحاشية يس ٢ / ٩٠ ، والأشمونى ٣ / ٢٤ والشاهد قوله : « بذى اللب » حيث فصل بين فعل التعجب وهو « أحرى » ومعموله وهو المصدر المنسبك من الحرف المصدرى وذلك جائز فى الأصح على مذهب النحاة .

(٢) ألفية ابن مالك ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) انظر الكتاب لسيبويه ١/٣٠١ ، والخصائص لابن جنى ١/٣٩٥ واللمع لابن جنى ٢٢٢ .

(٤) انظر المقتضب ٢–١٤٢ ، والأصول لابن السراج ١–١١٤ ، وشرح الألفية لابن الناظم ٤٧٠، ٤٧١ والمقتصد فى شرح الإيضاح ١/ ٣٧٢ .

(٥) ألفية ابن مالك ١٠٤ .

(٦) البيت لجرير (من قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز) وهو من شواهد المقرب لابن عصفور ١/٦٩ ، ومغنى اللبيب ٤٦٣ ، وشرح شواهد المغنى للبغدادى ١/٦٣ .

وقول الشاعر :

التَّغْلبيُّونَ بِئْسَ الفَحْلُ فَحْلُهُمُ
فَحْلاً وَأُمُّهُمُ زَلَّاءُ مِنْطِيقُ [1]

ومن النثر ما حكى من كلامهم : نعم القتيل قتيلا أصلح بين بكر وتغلب .

لهذا قال ابن الناظم : « وما ذهب إليه المبرد هو الأصح ، فإن التمييز كما يجئ لرفع الإبهام ، كذلك يجئ للتوكيد » [2] .

١١ – مذهب الكوفيين – واختاره ابن مالك – جواز توكيد النكرة ، المحدودة لحصول الفائدة مثل : صمت شهرا كله ، ولا يجوز عندهم توكيد النكرة غير المحدودة مثل حين ، ووقت وزمان ، لأنه لا فائدة في توكيدها .

ومنع البصريون توكيد النكرة سواء كانت محدودة أو غير محدودة [3] وابن الناظم وافق والده في ذلك . يقول : وقول الكوفيين أولى بالصواب لصحة السماع بذلك ، ولأن في توكيد النكرة المحدودة فائدة كالتي في توكيد المعرفة ، فإن من قال : صمت شهرا ، قد يريد جميع الشهر ، وقد يراد أكثره ، ففي قوله احتمال ، فإذا قال : « صمت شهرا كله » ارتفع الاحتمال وصار كلامه نصا على مقصوده فلو لم يسمع من العرب لكان جديرا بأن يجوز قياسا ، فكيف به واستعماله ثابت » [4] .

والرأى عندى هو ما قاله الكوفيون لوجود السماع بذلك شعرا ومن ذلك قول عبد الله بن مسلم الهذلى :

لَكِنَّه شَاقَه أَنْ قِيلَ ذَا رَجَب
يَالَيْتَ عِدَّة حَوْلٍ كُلِّه رَجَبُ [5]

---

(١) البيت لجرير وهو من شواهد المقرب ١/ ٦٨ وشرح العينى ٤ / ٧ ، وهمع الهوامع ٢/ ٨٦ ودرر اللوامع ٥/ ٢٠٨ .

(٢) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٤٧١ .

(٣) انظر الإنصاف فى مسائل الخلاف ٢٣٩ مسألة ٦٣ .

(٤) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

(٥) البيت من شواهد الإنصاف ٢٤٠ وابن يعيش ٣/ ٣٥ والأشمونى ٣/ ٧٧ .

وإلى هذا يشير ابن مالك بقوله :

وَإِنْ يُفِدْ تَوْكِيدُ مَنْكُورٍ قُبِل
وَعَنْ نُحَاةِ البَصْرَةِ المَنْعُ شَمِل[1]

١٢ – لا يؤكد المثنى – فيما سمع من العرب – إلا بالنفس ، أو بالعين ، أو بكلا في التذكير ، أو بكلتا في التأنيث .

ومذهب البصريين أنه لا يؤكد بغير ذلك .

ولا يثنى « أجمع » ولا « جمعاء » ، وهذا ما ذهب إليه ابن مالك[2] وأجاز الكوفيون في القياس أن يؤكد المثنى في التذكير بأجمعين ، وفي التأنيث بجمعاوين تقول : جاء الجيشان أجمعان وجاءت القبيلتان جمعاوان ، استغناء بكلا وكلتا .

وأشار ابن خروف إلى أن ذلك لا مانع منه .

وابن الناظم خالف والده في هذه المسألة ، واختار رأي الكوفيين فقال : « وعندي أن ثم ما يمنع منه . . . فلو قلت جاء الجيشان أجمعان لم يأبه القياس[3] .

وما ذهب إليه البصريون هو الراجح عندي ، لأن ما قاله الكوفيون لم ينقل عن العرب ، وإلى هذا يشير ابن مالك بقوله :

وَأَغْنِ « بِكِلْتَا » فِي مُثَنًّى « وَكِلَا »
عَنْ وَزْنِ فَعْلَاءَ وَوَزْنِ أَفْعَلَا[4]

١٣ – الحكم إن كان المعطوف عليه ضميرا مجرورا ، ذهب جمهور البصريين والزجاج والزمخشري إلى وجوب إعادة الجار ، إن كان المعطوف عليه ضميرا مجرورا ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى :

« قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ »[5]

---

(١) ألفية ابن مالك ١١٢ .
(٢) التسهيل لابن مالك ١٦٥ .
(٣) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٥٠٨ .
(٤) ألفية ابن مالك ١١٣ .
(٥) من الآية ٦٤ من سورة الأنعام .

وقوله تعالى : « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحمَلُونَ »[1] وقوله تعالى : « فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا[2] »

وذهب يونس والفراء والأخفش والكوفيون وتبعهم ابن مالك إلى جواز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجر[3] .

يقول الشارح « ابن الناظم » وهو اختيار الشيخ »[4]

ويقول ابن مالك فى هذه المسألة

وَعَوْدُ خَافِضٍ لَدَى عَطْفٍ عَلَى
ضَمِيرِ خَفْضٍ لَازِماً قَدْ جُعِلاَ
وَلَيْسَ عِنْدِى لَازِماً إِذ قَدْ أَتَى
فِى النَّظْمِ والنَّثْرِ الصَّحِيحِ مُثْبَتاً[5]

فابن مالك جوز العطف على الضمير بدون إعادة الجر لورود السماع نظما ونشرا .

من ذلك قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ والأرْحَامِ »[6] بخفض الأرحام ، وهى قراءة ابن عباس .
ومنه قول الشاعر

فَالْيَومَ قَرَّبْتَ تَهْجُونَا وَتَشْتِمُنَا
فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ والأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ[7]

ومذهب الجرمى والزبادى : أنه إذا أكد الضمير جاز العطف بدون إعادة الجار مثل قولك : مررت بك أنت وزيد[8] .

وابن الناظم خالف والده « ابن مالك » فى ذلك فقال : « والدليل على أن العطف المذكور – العطف على الضمير

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢٣ .
(٢) من الآية ١١ من سورة فصلت .
(٣) انظر الإنصاف ٢٤٦ مسألة ٦٥ .
(٤) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٥٤٤ .
(٥) ألفية ابن مالك ١٢٠ .
(٦) من الآية ١ من سورة النساء .
(٧) البيت لم يعرف قائله وهو من شواهد الكتاب ١/ ٣٩٢ ، والكامل ٣/ ٣٩ وشرح أبيات سيبويه للسيرا فى ٢/ ٢٠٧ ، والخزانة ٥/ ١٢٣ .
(٨) شرح الأشمونى ٣/١١٥ ، ١١٦

المخفوض بدون إعادة حرف الجر – لايجوز فى القياس من وجهين .

أحدهما : أن الضمير المجرور شبيه بالتنوين لمعاقبته له ، وكونه على حرف واحد ، فلا يجوز العطف عليه ، كما لم يجز العطف على التنوين .

الثانى : أن الضمير المتصل متصل كاسمه ، والجار والمجرور كشىء واحد فإذا اجتمع على الضمير الاتصالان أشبه العطف عليه العطف على بعض الكلمة ، فلم يجز ، ووجب إما تكرير الجار ، وإما النصب بإضمار فعل [1] وماذهب إليه ابن مالك – تبعاً للكوفيين من جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار – هو الراجح عندى لورود الشواهد التى تؤيد ذلك من القرآن الكريم والشعر العربى ، وقد تقدم ذكرها .

١٤ – لا يجوز حذف حرف النداء من اسم الجنس واسم الإشارة إلا فيما ندر من نحو قولهم : « أَطْرِقْ كَرَا » [2] و « أَفْتَدِ مَخْنُوق » [3] و « أَصْبِحْ لَيْل » [4] وقول الله سبحانه وتعالى : « ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ » [5] وهذا ماذهب إليه البصريون ، فيقصرون حذف حرف النداء فى ذلك على السماع .

وعند الكوفيين : أن حذف حرف النداء من اسم الجنس والمشار إليه قياس مطرد ومنه قول الشاعر

إِذَا هَمَلَتْ عَيْنِى لَهَا قَالَ صَاحِبِى
بِمِثْلِكَ هَــذا لَوْعَةٌ وَغَرَامُ [6]

وابن مالك اختار مذهب الكوفيين ولهذا قال :

وَذَاكَ فِى اسْمِ الجِنْسِ والمُشَارِلَهْ
قَلَّ وَمَنْ يَمْنَعْهُ فانْصُرْ عَاذِلَهْ [7]

---

(١) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٥٤٦ .
(٢) جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى ١/ ١٩٤ ، والمستقصى للزمخشرى ١ / ٢٢١ .
(٣) المستقصى للزمخشرى ١/ ٢٦٥ .
(٤) مجمع الأمثال للميدانى ١/ ٢٧٣ ، وجمهرة الأمثال ١/ ١٩٢ .
(٥) من الآية ٨٥ من سورة البقرة .
(٦) قاله ذو الرمة ، والبيت من شواهد العينى ٤ / ٢٣٥ ، التصريح ٢ / ١٦٥ وشرح الأشمونى ٣ / ١٣٦ والشاهد فى هذا حيث حذف منه حرف النداء .
(٧) ألفية ابن مالك ١٢٣ .

وقد صرح ابن مالك فى شرح الكافية بموافقته للكوفيين فى اسم الجنس فقال « وقولهم فى هذا أصح »[١] .

وابن الناظم خالف ابن مالك فى ذلك فقال : « وأما اسم الجنس ، واسم الإشارة فلا يحذف منهما حرف النداء . . . وذلك لأن حرف النداء فى اسم الجنس كالعوض من أداة التعريف ، فحقه ألا يحذف كما لم تحذف الأداة ، واسم الإشارة فى معنى اسم الجنس ، فجرى مجراه[٢] .

وأرى أن الإنصاف فى هذه المسألة هو الراجح عندى ، فالحذف يكون قياسا فى اسم الجنس لكثرة وقوعه نظما ونثرا ، ويكون حذف حرف النداء سماعيا فى اسم الإشارة إذ لم يرد إلا فى الشعر .

١٥ ـ انفردت « لو » الشرطية من بين أخواتها بمباشرة (أن) كقوله تعالى :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ »[٣] .

واختلف فى موضع « أن » وصلتها بعد « لو » .

فذهب الكوفيون والمبرد والزجاج والزمخشرى إلى أنها فاعل لفعل محذوف والتقدير « ولو ثبت أنهم صبروا »[٤]

ولهذا قال الزمخشرى فى كشافه « أنهم صبروا فى موضع رفع على الفاعلية لأن المعنى ولو ثبت صبرهم »[٥]

ويرى سيبويه ووافقه ابن مالك أنها فى موضع رفع بالابتداء[٦] .

وابن الناظم خالف رأى والده فقال : « و (لو) مثل (أن) فى أن شرطها لايكون إلا فعلا »[٧]

---

(١) شرح الأشمونى ٣/١٣٧ .
(٢) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٥٦٦ .
(٣) من الآية ٥ من سورة الحجرات .
(٤) انظر المقتضب للمبرد ٣/ ٧٧ ، والكشاف للزمخشرى ٣/ ٥٥٩ .
(٥) الكشاف للزمخشرى ٣/٥٥٩ .
(٦) انظر شرح الأشمونى ٤/٤٠ .
(٧) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٧١١ .

والراجح عندى ماذهب إليه الكوفيون ومن تبعهم ، لأنه أقيس لاختصاص لو بالأفعال ولذلك قال ابن يعيش « ولاقتضاء (لو) الفعل إذا وقع بعدها (أنَّ) المشددة لم يكن بد من فعل فى خبرها نحو قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا) [1] ونحو قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ) [2][3]

واختلف النحاة أيضاً فى خبر (أنّ) الواقعة بعد (لو) ، فأوجب الزمخشرى أن يكون فعلا ، ولم يجز كونه اسما مشتقاً .

وخالفه ابن مالك واعترض عليه . ورأى أن ما منعه الزمخشرى شائع ذائع فى كلام العرب ، كقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ » [4] فالشاهد فى الآية وقوع خبر أن بعد لو اسما جامدا وهو قوله « أقلام »

وكقول الشاعر :

وَلَوْ أنها عُصْفُورَةٌ لَحَسِبْتَهَا
مُسَوَّمَةً تَدْعُو عُبَيْدًا وَأَزْنَمَا [5]

وقول الشاعر :

وَلَوْ أَنَّ حَيًّا فَائِتُ المَوْتِ فَاتَهُ
أَخُو الحَرْبِ فَوْقَ القَارِحِ العَدَوَانِ [6]

وقول الراجز :

لَوْ أَنَّ حَيًّا مُدْرِكُ الفَلَاحِ
أَدْرَكَهُ مُلَاعِبُ الرِّمَاحِ [7]

إلى هذا أشار ابن مالك بقوله

وَهْىَ فِى الاخْتِصَاصِ بِالفِعْلِ كَإِنْ
وَبَاشَرَتْ أَنَّ (كَلَوْ) أَنِّى فَطِنْ

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٣١ من سورة الرعد .

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٩/ ١١ .

(٤) من الآية ٢٧ من سورة لقمان .

(٥) البيت للعوام بن شوذب أو لجرير ، وهو من شواهد المغنى ٢٧٠ .وشرح شواهد المغنى للبغدادى ٥ / ٩٧ والجنى الدانى ٢٨١ .

(٦) البيت لصخر بن عمرو السلمى ،وهو من شواهد العينى ٤ / ٤٥٦ ، ولسان العرب مادة (عدا) ، وشرح الأشمونى ٤/ ٤٢ .

(٧) قاله لبيد ،والبيت من شواهد المغنى ٢٧٠ ، وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٦٦٣ وشرح الأشمونى ٤٢/٤

وَلَيْسَ حَتْمًا كَوْنُ فِعْلٍ خَبَرَا
مِنْ بَعْدِ لَوْ أَنَّ وَمِمَّا أُثِرَا
لَوْ أَنَّ حَيًّا مُدْرِكُ الفَلَاحِ
أَدْرَكَهُ مَلَاعِبُ الرِّمَاحِ [1]

وابن الناظم وافق أباه فى هذا الرأى وبهذه الأبيات السابقة رد ابن الناظم على الزمخشرى ومن تبعه فقال

« وزعم الزمخشرى : أن خبر (أن) بعد (لو) لايكون إلا فعلا وهو باطل » [2] .

والراجح عندى ماذهب إليه ابن مالك ، لأن مازعمه الزمخشرى يتعارض مع الشواهد السابقة التى وقع فيها الاسم المشتق خبر (إن) الواقعة بعد (لو)

ولهذا قال ابن هشام فى المغنى : « وقد وجدت آية فى التنزيل وقع فيها الخبر اسما مشتقاً ، ولم يتنبه لها الزمخشرى ... وهى قوله تعالى : « يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِى الأَعْرَابِ » [3]

وصفوة القول : أن الزمخشرى منع أن يكون الخبر اسما مشتقاً ، أما إن كان اسما جامدا كما فى قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ مَافِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ » فجائز عنده لتعذر صوغ الفعل منه

هذه هى أهم التعقيبات التى تراءت لى بين العالمين الجليلين الناظم (ابن مالك) والشارح (ابن الناظم بدر الدين) .

وبعد :

فالله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

---

(١) متن الكافية لابن مالك ٩١ .

(٢) شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٧١٢ .

(٣) مغنى اللبيب لابن هشام ١/ ٢٧٠ ، ٢٧١ ، وانظر الأشمونى ٤/١ ٤ والجنى الدانى للمرادى ٢٨٢

أهم مصادر ومراجع البحث

١ - الأصول في النحو لابن السراج تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٢ - الأعلام لخير الدين الزركلي ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

٣ - ألفية ابن مالك في النحو والصرف ، المطبعة النموذجية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤

٤ - الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة ، الطبعة الثالثة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

٥ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الأولى ، عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

٦ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد تحقيق محمد كامل بركات ، دار الكاتب العربي بجمهورية مصر ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

٧ - تفسير الكشاف للزمخشري تحقيق ، محمد الصادق قمحاوي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

٨ - توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي سليمان ، الطبعة الثانية ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون تاريخ .

٩ - جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري تحقيق الأستاذين محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش مطبعة المؤسسة العربية الحديثة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

١٠ - الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي .
تحقيق الأستاذين : فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل ، منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

١١ ــ حاشية الصبان على شرح الأشموني ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ، بدون تاريخ .

١٢ ــ حاشية يس العليمي على شرح التصريح ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ

١٣ ــ خزانة الأدب للبغدادي تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م .

١٤ ــ الخصائص لابن جني تحقيق محمد على النجار ، دار الهدى ببيروت ، الطبعة الثانية بدون تاريخ .

١٥ ــ الدرر اللوامع للشنقيطي تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم دار البحوث العلمية بالكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م .

١٦ ــ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .

١٧ ــ شرح أبيات سيبويه للسيرافي ، تحقيق الدكتور محمد على سلطاني ، مطبعة الحجاز بدمشق ١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م .

١٨ ــ شرح أبيات المغني للبغدادي ، تحقيق الأستاذين عبد العزيز رباح ، وأحمد يوسف دقاق ، ط زيد بن ثابت بدمشق ، ط الأولى ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م .

١٩ ــ شرح الأشموني ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي . بدون تاريخ .

٢٠ ــ شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ، تحقيق الدكتور عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد ، دار الجيل ببيروت ، بدون تاريخ .

٢١ ـ شرح التسهيل لابن مالك تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون تاريخ .

٢٢ ـ شرح شواهد الألفية للعيني ، مطبعة إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي بدون تاريخ .

٢٣ ـ شرح شواهد المغني للسيوطي ، لجنة التراث العربي ، بدون تاريخ .

٢٤ ـ شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ لابن مالك ، تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي ، الطبعة الأولى ، مطبعة الأمانة بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٢٥ ـ شرح المفصل لابن يعيش ، مكتبة المتنبي بالقاهرة ، عالم الكتب ببيروت بدون تاريخ .

٢٦ ـ الكامل للمبرد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار نهضة مصر بدون تاريخ .

٢٧ ـ الكتاب لسيبويه ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، ١٣١٦ هـ .

٢٨ ـ لسان العرب لابن منظور ، مطبعة دار المعارف بدون تاريخ .

٢٩ ـ اللمع لابن جني ، تحقيق الدكتور حسين محمد شرف ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨ م .

٣٠ ـ متن الكافية الشافية في علم العربية لابن مالك ، مطبعة الهلال ، بالفجالة مصر ، بدون تاريخ .

٣١ ـ مجمع الأمثال للميداني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .

٣٢ - المستقصى فى أمثال العرب للزمخشرى ، دار الكتب العلمية ببيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٣٣ - مغنى اللبيب لابن هشام ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة المدنى بدون تاريخ .

٣٤ - المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية للعينى على خزانة الأدب المطبعة الأميرية ببولاق ، بدون تاريخ .

٣٥ - المقتصد فى شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجانى . تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان ، دار الرشيد بالعراق ١٩٨٢ م .

٣٦ - المقتضب للمبرد تحقيق الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ، مطبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٩ هـ .

٣٧ - المقرب لابن عصفور تحقيق الأستاذين أحمد الجوارى وعبد الله الجبورى ، مطبعة العانى ببغداد الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

٣٨ - همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطى ، دار المعرفة ببيروت بدون تاريخ .

ابراهيم محمد أحمد الاذكاوى
المدرس بكلية التربية بجامعة المنوفية

إضمار «أن» قبل المضارع والقول فيه

للأستاذ عبد العليم فوده

إضمار أن وجوبًا فى المواضع الآتية :

١ - بعد لام الجحود التى تفيد تأكيد النفى ، وهى حرف جر وتسبق يكون ماض لفظا أو معنى منفى بما مثل «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» أو لم « لم يكن الله ليغفر لهم » .

٢ - بعد كى التعليلية عند البصريين وهى حرف جر بمعنى اللام مثل جئت كى تكرمنى إذا قدرت النصب بأن

٣ - بعد حتى الجارة التى تفيد التعليل وذلك إذا كان ما قبلها علة لما بعدها مثل أسلم حتى تدخل الجنة ، أو تفيد الغاية « إذا كان ما بعدها غاية لما قبلها مثل : سرت حتى أدخل المدينة أو التى تفيد معنى « الا » مثل « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وكقول الشاعر :

ليس العطاء من الفضول سماحة
حتى تجود وما لديك قليل

٤ - بعد أو بمعنى حتى التى تفيد (إلى أن) وهى التى يسبقها فعل ينقضى شيئاً فشيئاً مثل :

لاستسهلن الصعب أو ادرك المنى
فما انقادت الآمال الا لصابر

أو تفيد معنى (الا أن) وذلك إذا كان الفعل قبلها لا ينقضى شيئا فشيئاً مثل

وكنت إذا غمزت قناة قوم
كسرت كعوبها أو تستقيما

٥ - بعد فاء السببية فى جواب النفى المحض « لا يقضى عليهم فيموتوا » .

أو جواب الطلب ، أمرا مثل

يا ناق سيرى عنقاً فسيحا
إلى سليمان فنستريحا

أو نهيًا مثل « لا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي » .

أو دعاء مثل (رب انصرني فلا أخذل)

أو استفهاما مثل « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا » .

أو عرضاً (ألا تنزل عندنا فتصيب خيرا) .

أو تحضيضا مثل (لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق) .

أو تمنيا مثل (يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) .

أو ترجيا (عند الكوفيين) مثل (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات)

٦ - بعد واو المعية فى جواب النفى مثل (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) أو الطلب ، أمرا مثل :

فقلت أدعى وأدعو إن أندى

لصوت أن ينادى داعيان

أو نهيا مثل :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار

عليك إذا فعلت عظيم أو استفهاما مثل :

ألم أك جاركم ويكون بينى

وبينكم المودة والإخاء

٧ - إذا وقع المضارع بعد الفاء أو الواو أو ثم أو بين الشرط والجزاء فان من وجوه إعرابه أن ينصب بأن مضمرة وجوبا .

مثل إن تأتنى فتحدثنى أحسن إليك ، ومن يأتنى ويحدثنى أحسن إليه. « ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » . فى قراءة من نصب (يدرك) .

وان تزرنى أو تحسن إلى أحسن إليك .

٨ - المضارع السابق الواقع بعد تمام الشرط والجزاء .

فان من وجوه إعرابه أن ينصب بأن مضمرة وجوبا .

مثل : (وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء وكذا (وان تخفوها وتؤتوها

الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم
قرء (بالجزم والرفع والنصب) فى
(يغفر ويكفر)

مواضع اضمارها جوازا :

١-بعد لام التعليل التى لم تعقبها (لا) مثل (جئتك لأراك أو لأن أراك)
٢ - ٣ - ٤ - ٥ بعد عطف بالواو أو الفاء أو ثم أو أو على اسم خالص أى غير مقصود به معنى الفعل .

وامثلتها على الترتيب السابق

ألبس عباءة وتقر عينى
أحب إلى من لبس الشفوف

لولا توقع معتر فأرضيه
ما كنت أوثر أترابا على ترب

انى وقتلى سليكا ثم أعقله
كالثور يضرب لما عافت البقر

وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا)
ومثله :

ولولا رجال من رزام أعزة
وآل سبيع أو أسوءك علقما

استعمال أن فى خبر أفعال المقاربة :

أفعال هذا الباب أربعة أقسام :

(أ) ما يجب اقتران خبره بأن وهو حرى واخلولق

مثل : فحرى أن يكون ذاك وكانا
أخلو لقت السماء أن تمطر

(ب) ما يغلب اقترانه بها وهو عسى وأوشك

مثل : «فعسى الله أن يأتى بالفتح».

وقول الشاعر :

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا
إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

وذلك أن عسى طمع ؛ وهو لا يكون الا فيما يستقبل فناسب الخبر أن يدل على الاستقبال فلزمته أن التى تخلص المضارع للاستقبال .

وقد تشبه عسى بكاد فتسقط أن من الخبر ويرفع الفعل كما هو مع كاد . وبعض المستقبل أقرب إلى الحال من بعض ، فاذا قال عيسى زيد أيقوم فكأنه قرب حتى أشبه قرب كاد مثل :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه

يكون وراءه فـرج قـريب

وكذا أوشك فى :

يوشك من فر من منيته

فى بعض غراته يوافقها

(ج) وما يجب تجرد خبره من أن وهو أفعال الشروع لأنها للأخذ فى الفعل فخبرها فى المعنى حال ، وأن تخلص للاستقبال ، فوجودها ينافى معنى الفعل مثل : أنشأت أعرب عدا كان مكنونا .

أخذت أسأل والرسوم تجيبنى .

(د) وما يغلب تجرده وهو كاد وكرب

وجرد خبر كاد من أن لانهم أرادوا قرب وقوعه فى الحال وأن تصرف المعنى إلى الاستقبال ، فلم يأتوا بها لتدافع المعنيين

مثل (فذ بحوها وما كادوا يفعلون)

(يكاد زيتها يضىء)

كرب القلب من جواه يذوب

حين قال الوشاة هند غضوب

وقد تشبه كاد بعسى فيقرن خبرها بأن مثل

قد كاد من طول البلى أن يمصحا .

وفى الحديث كاد الفقر أن يكون كفرا

وقد كربت أعناقها أن تقطعا

قال ابن يعيش وإذا أدخلوا أن فى خبر كاد فكأنه بعد عن الحال حتى أشبه عسى

حذف أن :

١ – حذف أن فى غير مواضع اضمارها وجوباً وجوازا – وقد سبقت – مع نصب المضارع شاذ لايقبل منه إلا ما نقله العدول من مثل :

قراءة الحسن بنصب (أعبد) فى (قل افغير الله تأمرونى أعبد)

وفى قراءة بنصب (يدمغه) فى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) .

وفى قراءة الأعرج بنصب (يسفك) فى (ويسفك الدماء) .

وفى قول طرفة :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

وقول الشاعر :

وهم رجال يشفعوا لى فلم أجــد

شــفيعاً إليه غير جمود يعادله

خــذ اللص قبــل يأخــذك

تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ،

ومن يحفرها .

ونهنهت نفسى بعد ماكدت أفعله .

ولايجوز القياس على النصب مع حذف أن ، واجاز ذلك الكوفيون ومن وافقهم ، وذهب أبوالعباس إلى أنه إذا حذفت أن بقى عملها لأن الأضمار لايزيل العمل كما فى رب وأكثر العوامل .

قال أبو حيان والصحيح قصره على السماع لأنه لم يرد منه إلا ما ذكرناه وهو نزر فلا ينبغى أن يجعل ذلك قانوناً كليا يقاس عليه .

وحذف أن فى غير مواضع اضمارها مع رفع الفعل بعدها ليس بشاذ وذلك مذهب أبي الحسن ، وهو ظاهر كلام ابن مالك فى شرح التسهيل فانه جعل منه (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعا) فيريكم صلة لأن الواو حذفت وبقى يريكم مرفوعاً وهذا هو القياس لأن الحرف عامل ضعيف فإذا حذف بطل عمله

وقد روى ذلك فى مواضع النصب من الأمثلة السابقة .

وبناء على ذلك وتأييدا له قال ابن يعيش فى شرح المفصل (١١٧/٧) .

إن الفعل فى خبر عسى إذا تجرد من أن كان مرفوعاً وإنما يرفع الفعل بوقوعه موقع الاسم مثل :

عسى الله يغنى عن بلاد ابن قادر

بمنهمر جون الرباب سكوب

واشباهه كثير .

٣ – وذهب قوم إلى أن حذف أن مقصور على السماع مطلقاً فلا يرفع ولا ينصب بعد الحذف إلا ما سمع وإلى ذلك ذهب متأخرو المغاربه قيل وهو الصحيح .

حذف أن قبل المضارع فى الاستعمال اللغوى

أولا : بعد قبل ، وقبيل جاء فى المثل (خذ اللص قبل يأخذك) .

وقال المتنبي يرثي أبا الهيجاء عبد الله ابن سيف الدولة وقد مات طفلا سنة ٣٣٨ه

أيفطمه التوراب قبل فطامه
ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل
وقبل يرى من جوده ما رأيته
ويسمع فيه ما سمعت من العذل

وقال أيضاً :

فما جلست حتى انثنت توسع الخطا
كفاطمة عن درها قبل ترضع

وقال تميم بن المعز الفاطمي :

ويمنعني من الشكوى إلى الله علمه
بجملة ما ألقاه قبل أقول

وقال أيضاً

لا أدعى الفضل قبل يشهد لى
به أداني الدنا وأقصاها

وقال الشريف العقيلي (من أشراف الطالبيين في مصر (القرن الرابع والخامس الهجرى)

فكن لداعى التقى مجيبا
من قبل تدعى فلا تجيبا

وقال أيضاً

فاسبق الشمس قبل تبدد بشمس
سرها في غمامة الكأس جهر

وقال أيضاً

فاشرب على مذهب أزهاره
سن ذهب في فضة تجرى
قبل يريك الصبح بلوره
يلمع في فيروزج الفجر

وقال ابن حيوس الدمشقي (٤٧٣ ه) :

لازلت تحكم في الأنام مخولا
ملكاً يزول الدهر قبل يزول

وقال ظافر الحداد الإسكندرى (القرن السادس)

من قبل يبين أو تنهل عيناه

ومن أساليب الرسالة للإمام الشافعى تحقيق الأستاذ أحمد شاكر .

قبل تكمل الصلاة
قبل يحل عليك

وجاء في شعر المحدثين إيليا أبي ماضى

تشتاق عيني قبل يغمضها الردى
لو أنها اكتحلت ولو برمالها

وفى قول الشاعر المهجرى (زكى قنصل) :

ما كنت أعلم قبل يجمعنا الهوى
أن النعيم على مدى خطوات

ومثال قُبَيْل قول المتنبى

يا حاى عيرهـا واحسبنى
أوجد ميتا قبيل أفقدها

ثانياً : فى غير أسلوب قبل :

من الحديث :

قوله عليه السلام لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على ميت فوق ثلاث [1]

وقوله : لايحل لامرأة تسأل طلاق أختها [2]

وحديث عوف بن مالك : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فمايسأل أحداً يناوله إياه [3] .

وحديث أبى ذر : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أسأل الناس شيئاً [4]

وحديث معاذ : لوكنت آمراً بشراً يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها [5]

وحديث أنس : .. إنما بقى من حاجتى يسير وأخاف أنساها [6] .

وحديث هشام بن عامر (لايحل لمسلم يصارم مسلماً فوق ثلاث ليال [7]) .

وحديث حرملة (قلت يا رسول الله ما تأمرنى أعمل [8]) .

وحديث جابر : لا ينبغى لأحد يدخل الجنة ، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمه

ولا ينبغى لأحد من أهل النار يدخل النار ، واحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة [9] .

وحديث عمر بن الخطاب لسعد

---

(١) البخارى : باب أحد المرأة على غير ازوجها (الفتح ٣ : ١١٧) .
(٢) البخارى : باب الشروط التى لا تحل فى النكاح (الفتح ٩ : ١٩٠) .
(٣) تهذيب الآثار الخبر ٣٩ .
(٤) تهذيب الآثار الخبر ٤٩ .
(٥) سند أحمد ٥ / ٢٨٨ .
(٦) الأدب المفرد رقم ٢٧٨ .
(٧) الأدب المفرد رقم ٤٠٧ .
(٨) الأدب المفرد رقم ٢٢٢ .
(٩) الأدب المفرد رقم ٩٧٠ .

ابن أبي وقاص : لقد شكاك أهل الكوفة في كل شيء حتى زعموا أنك لا تحسن تصلي بهم [1] .

وفي مسند أحمد . ليس يحسن يكتب [2] من الشعر والنثر .

مع فعل الادارة :

أريد أخاطب الأمير [3] .

وقال ابن الرومي :

وهو عيب يكاد يسقط فيه

كل حر يريد يظهر حاله

وقال ابن حيوس يمدح أكبر الجيوش

أراد يرينا الله جاهك عنده

ومن منك أولى بالمحبة والزلفى..

تريـــد . . . في كل وقت

وذلك عند أمثالي عزيز .

وقال محمود أبو الوفا :

أريد أضحك للدنيا فيمنعني

أن عاقبتني على بعض ابتساماتي

وبعد أفعال متعدية غير فعل الإرادة :

أحب تقطن عندي ، أتحسن تتوضأ ، ما يحسن يتوضأ ، نكتب تتذممه [4] ، ما أحسن أصف [5] ، أحتاج أحفظ ، أخاف لايقبل مني [6] لاشتهيت تصفع نفسك [7] .

وبعد أفعال لازمة :

فما قدرنانقابله ( )تتجرأتشهدعندي [1]

ومره يحفرها ( )فكيف تلومني أعجب بنفسي [1] .

فعقد على أبيه لا يعمل الصرف موقع المصدر المجرور بحرف الجر أو الإضافة .

لابد من تبعها [0] .

فتهاربت منه خوف يطوف عليه [0] .

... على شريطة تعطيني [0] .

---

(١) مسند الحميري ١ / ٣٨ .

(٢) سند أحمد ٤ / ٢٩٨ .

(٣) سيرة أحمد بن طولون تحقيق الأستاذ كرد علي .

(٤) من أخبار الفقهاء للقاضي وكيع .

(٥) للريخ بغداد .

(٦) أخبار سيبويه المصري لابن زولاق (القرن الرابع) .

(٧) المغرب لابن عصفور .

وفى موقع المصدر المرفوع :

عليه يتعلم الصلاة .

ومن آياته يريكم البرق .

وقد تحذف أن والمضارع معاً كما فى

قول المتنبى :

ولو أنى استطعت خفضت طرفى

فلم أبصر به حتى أراكا

أى لو استطعت (أن أخفض) .

– وقوله تعالى :

قل لو شاء الله ما تلوته عليكم .

أى لو شاء الله (أن أتلوه) .

ولو شاء ربك ما فعلوه .

ولو شاء ربك ألا يفعلوه ما فعلوه .

التخريج النحوى لتلك الأساليب :

نلحظ فى المواضع التى حذفت فيها أن أنها كلها فى مقام يتطلب المصدر .إما فاعلا فى مثل (لايحل لامرأة تحد على ميت ، أى لايحل لامرأة حدها على ميت) .

ومثله لايحل لامرأة سؤال طلاق أختها لايحل لمسلم مصارحة أخيه ،لاينبغى لأحد دخول

وإما مفعولا به :

بعد الفعل المتعدى ولاسيا فعل الإرادة.

أريد مخاطبة الأمير ،كل حر يريد إظهار حاله .

أريد الضحك للدنيا ، ما أحسن وصف ... الخ .

لا تحسن الصلاة ، يحسن الكتابة وأخاف نسيانها .

وإما منصوباً على نزع الخافض إذا كان الفعل لازماً .

فى مثل فما قدرنا على أن نقابله ، تتجرأ على أن تشهد ، تلومنى على أن أعجب ومره بان يحفرها ، أوصانى بعدم السؤال .

وإما مجرورا بحرف الجر :

فى لابد من (أن تبعها)

أو بالإضافة بعد قبل ، قبيل (قبل يرى) قبل رؤيته ... الخ

ويظاهر ذلك استعمالها القرآنى فقد وردت مضافة للمصدر موولا وصريحاً

الرسالة للشافعى : تحقيق أحمد شاكر .

ثلاثين مرة من جملة استعمالاتها مضافة (٣٩) مرة

وإما مرفوعاً على أنه مبتدأ فى

عليه تعلم الصلاة (أى تعلم الصلاة)

ومن آياته يريكم البرق (أى إراءتكم البرق من آياته)

أو خبر ، فى « تسمع بالمعيدى » خير من أن تراه

وخلاصة القول أن الاستعمال اللغوى

جوز حذف أن فى نصوص كثيرة

وبخاصة إذا قامت أدلة على حذفها من

وجود أن) أخرى كما فى تسمع بالمعيدى خبر من أن تراه :

إلا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

أو أن يقتضى المقام المصدر الذى يعرب فاعلاً أو مفعولاً به أومنصوباً بنزع الخافض أومجرورا بمن أو الإضافة أو مرفوعاً مبتدأ أو خبرًا

– وحق هذا الفعل أن يكون مرفوعاً بعد حذف أن

– يسوغ فى الاستعمال

بعض المراجع

ابن عقيل وحاشية الخضرى

حاشية الصبان على الأشمونى

التصريح

همع الهوامع

المفصل لابن يعيش

مذكرة للأستاذ شوقى أمين عضو المجمع

مذكرة للأستاذ محمود شاكر عضوالمجمع

ديوان المتنبى من بحوث موتمر الدورة ٤٥

عبد العليم السيد فودة

خبير لجنة الأصول بالمجمع

" أقائم أخواك " وطريقة تفسيره عند سيبويه والرضى
بالاعتماد على مفهومى الموضع والمثال
(أعظم فارق يفترق فيه النحو العربى الأصيل عن اللسانيات الغربية الحديثة)

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

يكثر فى كلام النحاة الأولين مجىء مثل هذه العبارات : " هذا موضع لا يدخله ..." . (الكتاب . 226/1" وموضعه موضع اسم منون " (276) " وفى موضع ابتداء " (354) " . ولا يكاد فصل من فصول كتاب سيبويه يخلو من لفظة موضع أو ما يشتق منها وما يرادفها (بل لا تكاد صفحة من هذا الكتاب تخلو من هذا المفهوم ولو ضمنيا) . وكذلك هو الأمر بالنسبة لمفهوم المثال وما يقوم مقام المصطلح مثل الحدّ أو الباب ويعتقد الكثير من المحدثين أن هذه الألفاظ إنما معناها القاعدة النحوية ليس إلا . فهذه المصطلحات وإن كانت تحتمل هذا المعنى إذا نظرنا إليها بمنظار معلم العربية إلا أنها تشتمل على معان علمية دقيقة تتجاوز هذا التأويل المدرسى إلى أبعد حد كما سنراه .

فالكثير من النحو أو الأنحاء العربية - أى الضروب من الكلام (1) - التى سمعت من أفواه فصحاء العرب ودوّنها اللغويون يعتمد النحويون فى تفسيرها على مفهوم الموضع فما هو الموضع عندهم وهل مجرد موقع الوحدة اللغوية فى مدرج الكلام أو هو شىء أكثر من ذلك تجريدا وهل يوجد الآن فى علوم اللسان الحديثة (أو اللسانيات) شىء يماثل هذا المفهوم العربى الهام أو يقاربه ؟ ثم إن كان فى هذه العلوم الحديثة تصور قريب من هذا ففى ماذا يلتقيان وفى ماذا يختلفان ؟ وسنحاول فى الوقت نفسه أن تبين الأهمية العظيمة التى يكتسبها مفهوم الموضع فى تفسير بنية اللغة ونمثّل لذلك ، إن شاء الله ، باعتمادنا على العبارة المشهورة : " أقائم أخواك " التى شغلت عقول النحاة مدة طويلة .

---

*ألقى هذا البحث فى الجلسة الثالثة عشرة يوم الأربعاء ٨ من ذى القعدة سنة ١٤١٦ هـ الموافق ٢٧ من مارس (آزار) سنة ١٩٩٦ م .

(١) ومن ثم جاء لقب " النحويون " الذى يكثر مجيؤه فى كتاب سيبويه وهو نسبة هؤلاء إلى ما كانوا يتدارسونه من " أنحاء " الكلام والجدير بالملاحظة أنه لا يوجد فى كتاب سيبويه لفظة " نحو " بمعنى علم النحو . ظهرت لأول مرة عند تلميذه الأخفش فى " معانى القرآن " : " أهل النحو " (375/1 ، مرة واحدة) وعند معاصره الفراء فى معانى القرآن : " قياس النحو (161/1، مرة واحدة أيضا) . فاختصر الأخفش عبارة " النحويين " ثم جاء الفراء وأضاف إليها كلمة القياس فصارت كلمة النحو تدل على العلم نفسه (وسَبْق كلمة النحويين (فى الزمان وعدم استقلال كلمة " نحو " قبل الأخفش يرجّح ما قلناه .

1) استعمال النحويين الأولين لهذا المصطلح ومحاولة اكتشاف أغراضهم منه

الموضع كمقياس لمعرفة جنس العنصر اللغوى وحكمه .

(1) الموضع فى مستوى التركيب

جاء فى كتاب سيبويه : " ويبين لك أنها ليست بأسماء إنك لو وضعتها مواضع الأسماء لم يجز ذلك . ألا ترى أنك لو قلت : إن يضرب يأتينا لم يكن كلاما " (1/3) .

ويقول المبرد فى هذا المعنى : " فمن ذلك الأسماء كم وأين وكيف وما ومتى وهذا وهؤلاء وجميع المبهمة ومنها الذى والتى ومنها حيث. واعلم أن الدليل على أن ما ذكر أسماء وقوعها فى مواضع الأسماء وتأديتها ما تؤديه سائر الأسماء " (المقتضب (٣/١٧٢) .

وجاء فى الكتاب : " ولو كان صفة لم يجز أن يدخل عليها اللام لأنك لا تدخلها فى ذا الموضع على الصفة " (375/1) . وأيضا : " وليس (المفعول له) فى موضع ابتداء ولا موضعا يبنى على مبتدأ(186/1)

و " لكنه موضع لا تدخله الألف واللام " .(224/1).

ويقول سيبويه أيضا : " وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ فى غير موضعه نحو. قولك قد زيدا رأيت وكى زيدا يأتيك " (8/1).

عرفنا بما سبق أن للوحدات اللغوية مواضع خاصة فى تركيب الكلام فإذا وضعت فى غير موضعها فإما أن يقبح ذلك فى غير الشعر وإما أن يكون لحنا لم تتكلم به العرب . والموضع تعرف به أجناس هذه الوحدات فكل وحدة تستطيع أن تدخل فى موضع الأسماء أو موضع الأفعال أو موضع حروف المعانى فمعنى ذلك أنها تتدرج تحت أحد هذه الأجناس ويكون مجراها وحكمها (= مسلكها وأحوالها) مثل مجراها وحكمها . هذا، كما يقولون، حدّ الكلام وأصله . وقد يكون للعنصر الواحد أكثر من موضع فيتحوّل حكمه ومجراه بحسب الموضع فيجرى مجرى الباب الذى ينتمى إلى ذلك الموضع .

يقول المبرد : " أما (مَنْ) فتكون فاعلة ومفعولة وغير ذلك ... وموقعها فى الكلام فى ثلاثة مواضع :تكون خبرا معرفة إذا وصلت ونكرة إذا انكرت وتكون استفهامًا وجزاء " (172/3)، وقد يقع الاسم موضع الحرف فيبنى ولا سيما إذا لزم هذا الموضع وهذا هو سرّ بناء كل الأسماء التى تقع فى موضع الحرف ويقتضى

ذلك أنها تضمن معناه ــ دون أن يخرجها من كونها أسماء لأنها ــ وهذا شيء امتاز العرب باكتشافه ــ قد يقع الشيء في موضعين أو أكثر في نفس العبارة ومعنى ذلك أنه يستطيع أن يغطى أكثر من موضع في عبارة واحدة وذلك مثل "مَنْ" (التي هي الأصل في الاستفهام (1) وما الاستفهامتين والظروف التي تستعمل في الاستفهام فإنها تقع في موضع الحرف تكون بمنزلة الهمزة (كما رأينا) فتقدم وجوبا وتكون في نفس التركيب في موضع خبر في مثل " أين زيد " فلا يكون هذا الخبر إلا مقدّما . وليس من الضروري أن يكون مجرى الشيء مما ثلا تماما لمجرى الباب المنقول إليه وموضعه . وقد ألح النحويون على ذلك كثيرا : " وقد يقع الشيء موقع الشيء وليس إعرابه كإعرابه وذلك قولك مررت برجل يقول " ذاك " فيقول في موضع قائل وليس إعرابه كإعرابه " الكتاب (280/1)و : "زيد في قولك : يا زيد بن عمرو موضع نصب كما أن أم في موضع جرّ في قولك : يا ابن أم ولكنه لفظ كما ذكرت وهو على الأصل " (314/1).

فالموضع على هذا الأساس شيء ومحتواه أي ما يدخل فيه ، شيء آخر . ونستنتج من هذا أمرا مهما جدّا (قد فات الكثير من اللسانيين الغربيين وأتباعهم من العرب) وهو أن موقع الوحدة اللغوية في مدرج الكلام غير موضعها. فالاهتمام بما ظهر في اللفظ وموقعه أي الموقع الذى تقع فيه في كلام محصّل (actualised=) في مكان محسوس من كلام ملفوظ بالفعل هو جوهر المذهب الذى اختص به المنتمون إلى المدرسة الاستغراقية أو القرائنية الأمريكية فالـ Distribution (2) عندهم هو استغراق القرائن التي يمكن أن تكتنف بها الوحدة أي جميع مواقعها الممكنة في الكلام أو كما يقول عنها الرماني : قسمة مواقعها (فقد جاء في شرحه : " ما قسمة المواقع إن المكسورة وأن " المفتوحة " (شرحه 165/5) .

والدليل على عدم تطابق الموقع المحصّل المحسوس للوحدة والموضع عند النحاة العرب هو تمييزهم بين حالة الوحدة التي هي عليه في اللفظ وما ينبغي أن تكون عليه بحسب ما يقتضيه القياس أو الباب وقد يتطابق اللفظ والموضع وقد يفترقان

---

1)والأصل هو الملازم لمجرى واحد مستمر لا يفارقه ولا يحتاج الى علامة تدل عليه مثل الفروع .

(٢) لا أدرى لماذا يختار بعض الناس معنى التوزيع في ترجمة هذه الكلمة فهذا المعنى غير مقصود أبدا وأقرب كلمة عربية إلى مقصودهم هي القسمة كما سنراه عند ذكرنا لقول الرماني ويسمى موقع الوحدة عند القرائنيين Slot.

فإذا جاء اللفظ مخالفا للموضع بحث النحاة عن العلة أى عن العارض الذى أخرجه عن أصله ووجهه .

وإذا جاء الموضع وخالف ظاهره قيل إنه ردّ إلى أصله . ويبين ذلك قول سيبويه فى (قبلُ وبعدُ) مضمومتين: "قد يكونان فى موضع نصب وجر ولفظهما مرفوع فإذا أضفتهما رددتهما إلى الأصل"(311/1) وقال أيضا :" عملت (لا) فيما بعدها وإن كان موضع ابتداء كما عملت (مِنْ) فى الغلام وان كان موضع ابتداء (فى : هل مِنْ غلام ؟) (354) وقال الخليل فى نحو " لا أم لى ... ولا أب " كما أن الشاعر ممن قال فلسنا بالجبال ولا الحديدا " أجراه على الموضع (1) (352/1) .

فالحمل على الموضع كثير فى كلام العرب. ولا ينبغى أن نذهب بعيدا فالموضع لا يمكن أن يكون الموقع الظاهر فى اللفظ، وباللفظ أى بظهور لفظة محسوسة فى مكان معين من الكلام كما هو الشأن عند القرائنيين الأمريكيين (Slot) لسبب بسيط وهو أولا اعتبار النحاة الموضع الذى تظهر فيه الوحدة فى مستوى التراكيب واحدا سواء قدمت أم أخرت وذلك مثل " ضربت زيد أو زيدا ضربت" فهذا يدل على أن الموضع المقصود عندهم غير الموقع اللفظى . وثانيا إطلاقهم كلمة الموضع على الخالى من كل وحدة وبعبارة أوضح على الموقع الذى كان يمكن أن تظهر فيه وحدة تنتمى إلى الباب من الوحدات التى تدخل عادة فى هذا الموضع. فبالنسبة الى جملة مثل " كتاب " كجواب للسؤال : ما هذا ؟ أو ما بيدك ؟ ففيها ثلاثة مواضع وهى: موضع الابتداء، وموضع المبتدأ، وموضع الخبر، ولم يظهر فى اللفظ إلا عنصر واحد فى موضع الخبر وكان يمكن أن تأتى كلمة " هذا " فى موضع المبتدأ بل وحرف التوكيد " إن " مع " هذا " إن رأى المتكلم أن التوكيد ههنا ضرورى (بحسب مقتضى الحال) .

فبهذا يتضح أن الموضع هو موقع تقديرى واعتبارى أى مجرد تقتضيه بنية الجملة فى مستوى التراكيب وقد يكون خاليا فلا يظهر له أثر فى اللفظ المسموع فهو وضع معين يجب أن يكون عليه كل واحد من مكونات الجملة لفظا أو تقديرا فقد تخلو الجملة من بعض أجزائها إلا أن مواضعها موجودة متصورة مرسومة فى مثال الجملة أى نمطها وقياسها . وما يقال عن الموضع ههنا يمكن أن يقال عن الموضع فى مستويات أدنى منها .

ب) الموضع فى مستوى ما نسميه فى النظرية الخليلية الحديثة باللفظة:

---

(1) لا على الحرف الذى عمل فى الاسم " كما قال سيبويه قبل ذلك .

إن الاسم أو الفعل عند النحاة الأولين لا ينحصران فى مثل : كتاب ورجُل وفهرس وضرب وجلس وأمثلتهما أى لا يكون مثل كتاب هو الوضع الوحيد لما يسميه النحاة اسما وكذلك ضرب أو ضربت أو ضربوا لا تكون أفعالا هى وحدها . وذلك لأن فى مثل " كتاب " يمكن أن تدخل عليه أشياء خاصة بالاسم يمتاز بها وحده فتدخل عليه وتخرج كما يقول الخليل (ولا تدخل على غير الاسم) فهى منه إذن (كثيرا ما يقول سيبويه : " هو منَ اسمه " (45-44/1 أو داخل فى الاسم : 28,89,84/) مشيرا إلى هذه الأشياء الداخلة عليه وقد ينفى ذلك بالنسبة إلى أشياء لا تدخل عليه فيقول " ليست من اسمه " أو منفصل عنه " (208.202). وعلى هذا فعبارة " كتاب " تقتضى كاسم كامل الاسمية عددا من المواضع يكون كل واحد منها موضعا خاصا لإحدى الزوائد التى تدخل على الاسم ففى الاسم فى تصور الخليل وسيبويه أى كبنية ومثال ستة مواضع يمكن أن تخلو كلها مما تدخل فيها إلا الموضع المركزى وهو " الاسم المفرد " كما يقول سيبويه، وكل عبارة تتكون من هذه النواة مع زيادة خاصة فهى بمنزلة اسم مفرد أو اسم واحد (45-44.229-228/1) وكل هذه الدواخل يقول عنها النحاة إنها من تمام الاسم (الكتاب 323.306.128.45-44/1 وشرح الرماني 133/2.91/3) .

"فكتاب" هو بمنزلة " الكتاب " لأنه يأتى فى موضعه فى مستوى الجملة وبمنزلة " كتاب زيد " و " الكتاب الذى قرأته أمس " وبمنزلة " بالكتاب " فى موضع المعمول الثانى فلكل هذه الزوائد موضع فى بنية الاسم . فإذا قلنا " بكتاب " فهناك موضع تقديرى بين الباء وكتاب وهو موضع الألف واللام . وها هى ذى المواضع الستة :

حرف الجر	أداة التعريف	النواة الاسمية	علامة الإعراب	التنوين(1) أو المضاف إليه	الصفة
→ 2	→ 1	↔ 0	← 1	← 2	← 3

فكل هذه المواضع تكوّن مثال الاسم وحتى لا يقع التباس بين الاسم ككلمة مفردة (أى مجردة مما يدخل عليها) وبين الاسم مع الزوائد الداخلة عليه أطلقنا على هذا الأخير مصطلحا استعمله الرضى وابن يعيش وهو اللفظة (الاسمية أو الفعلية) (انظر مقالاتنا عن اللسانيات الخليلية الحديثة) .

(1) وليست كل الأسماء تحتمل كل هذه الزوائد فهناك الممنوع من الصرف لا يحتمل التنوين والكسر — إلا فى حالات معينة — وهناك العلم المعرف بنفسه لا تدخل عليه ال وهناك المبنى لا يدخل عليه الإعراب وغير ذلك .

ج) الموضع فى مستوى الكلم :

إن الكلمة (1)هى كل ما يمكن أن يدخل فى إحدى المواضع الخاصة باللفظة أو المواضع الخاصة بالوحدات التركيبية (الجملة المفيدة) (2) . فالكلمة التى يمكن أن تحلل إلى مكونات أصلية وزوائد هى الاسم المفرد المعرب والفعل المتصرف . ومن المعروف أن الكلمة المفردة المتصرفة تنحل إلى مادة أصلية ومثال أو وزن . فلكل واحد من هذين المكونين مواضع. فالأصل التقديرى يتكون من ثلاثة أو أربعة أحرف مرتبة ترتيبا مثل الكاف والتاء والباء فى كتب وكتاب وكاتب ومكتب فلكل حرف موضع هو رتبته . وأما مثال الكلمة وهو كما حدده الرضى (بدقة عجيبة جدا) : " عدد حروفها المرتبة وحركاتها المعينة وسكونها مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية كل فى موضعه " (شرح الشافية 2/1) : ففيه مواضع الفاء والعين واللام (فى الثلاثى) وهى متغيرات ومواضع الزوائد وهى الثوابت بالنسبة للوزن . وههنا أيضا يعتبر الموضع اعتباريا وذلك لأن موضع الفاء أو العين أو اللام مثلا قد يكون خاليا وذلك مثل " فِ " أمر من " وفى " فموضع الفاء وموضع اللام خاليان والفرق بين هذا المستوى وما فوقه من المستويات هو أن الخلو هنا هو قسرى واضطرارى وهو لعارض صوتى.أما فى مستوى اللفظة وما فوقها فهو من محض اختيار المتكلم (بحسب غرضه ومقتضى الحال). ثم هناك فرق آخر بين مستوى التراكيب وما تحته وهو أن العناصر الداخلة فى اللفظة والداخلة فى الكلمة لا يمكن أن يحصل فيها تقديم وتأخير أما المستوى الأعلى فيمكن ذلك فى بعض الأوضاع لكن بشروط معينة .

إن الموضع فى كل هذه المستويات هو كما قلنا عبارة عن موقع اعتبارى تدخل فيه مجموعة من العناصر تختص به فى الأصل . ونضيف شيئا مهمّا هنا يخص كيفية اكتشاف المواضع أو استنباط البنى والمثل عند النحاة الأولين وهو كالتالى :(لا ننسى أن الخليل كان من أبرز الرياضيين): يتولّد الموضع (بهذا المعنى) عن عمليتين اثنتين :

1) بحمل عبارة على عبارات أخرى من جنسها لبيان تكافئها (على المحور التركيبى) إن كان هناك تكافؤ .

(1)قد تكون الكلمة مورفيما أى وحدة دالّة وقد تكون أكثر من مورفيم

(2)الفرق بين الأولى والثانية أن مواضع الجملة المفيدة وهى موضع العامل وموضع المعمول الأول وموضع المعمول الثانى ومواضع المخصصات الزائدة قد يدخل فيها ــ خلافا لمواضع اللفظة ــ الاسم المفرد / أو بزوائده أو الفعل مع فاعله وحده أو بزوائده (اللفظة الاسمية والفعلية) وحتى التراكيب (جمل تقع فى موضع المفرد) انظر كتابنا : علم العربية وعلم اللسان العام .

2) بمقارنة ترتيب عناصر كل عبارة لاكتشاف الترتيب المشترك بينها (على المحور التصريفى الاستبدالى (1)). والتركيب بين هاتين العمليتين — وهو القياس التمثيلى العربى — ينتج منه المثال أو البنية المجردة التى تجمع بين هذه العبارات من حيث بنيتها ليس إلا. وهذا هو " الجامع " الذى به يتعادل الحكم .

د) الموضع فى مستوى الخطاب (وله علاقة بحكم الكلام من استفهام وخبر وأمر ونهى وشرط وغير ذلك):

يستعمل النحاة العرب الموضع فى هذا المستوى كلما أضافوه إلى الكلام بحرف "من " : " وموضعها من الكلام (كلهم أن يعمّ ببعضها ويؤكد ببعضها بعد ما يذكر الاسم (الكتاب 274/1)أى موضعها بالنسبة إلى معانى الخطاب . و " واعلم أن لكم موضعين : أحدهما الاستفهام ... والموضع الآخر(2) (291/1) . ويقول المبرد : " وإنما تنظر فى هذه المصادر إلى معانيها فإن كان الموضع بعدها أمرا أو دعاء لم يكن إلا نصبًا " (المقتضب (221/3) .ويقول الرمانى : " لأن التحذير مما يخاف منه وقوع المخوف فهو موضع إعجال لا يحتمل تطويل الكلام (الأشباه ، 298/1) .

ومما سبق نستنتج أن المثال عند النحاة العرب هو مجموعة من المواضع الاعتبارية مرتبة ترتيبا معينا تدخل فى بعضها ،وقد تخلو منها العناصر الأصلية وفى بعضها الآخر الزائدة . ولا ينحصر المثال فى مستوى الكلم (الأوزان) بل يوجد فى كل مستويات اللغة بما فيها التراكيب وما فوقها .

فمثال التركيب فى مستوى الجملة المفيدة يتكون من موضع الفعل والابتداء والنواسخ وهو موضع العامل ومن موضع الفاعل وهو موضع المعمول الأول (المبتدأ والفاعل وما يقوم مقامها) وموضع المعمول الثانى (الخبر والمفعول به وما يقوم مقامهما) وهى النواة وتدخل على هذه النواة مواضع للعناصر المخصصة (الحال والتمييز والمفاعيل الأخرى) .

ومثال اللفظة قد مضى تمثيله. وهناك مثال واحد للاسم وثلاثة مثل للفعل أما مثل الكلم أو أوزانها وأبنيتها (الاسم المفرد والفعل المفرد) فقال النحلة بأنها تبلغ ألفا وثلاثمائة مثالا . وقد أحصى منها سيبويه ثلاثمائة تقريبا وهى أشهرها .

2)" أقائم أخواك " كمثال لا يمكن أن تفسر بنيته إلا بالاعتماد على مفهوم الموضع.

1-ما قاله الخليل وسيبويه

جاء فى الكتاب : " وزعم الخليل رحمه الله أنه يستقبح أن يقول : " قائم زيد " وذاك

(١) كما يقول اللسانيون المحدثون .

(2)الخبر هنا يقابل الإنشاء لا المبتدأ (والإنشاء كلمة أحدثت كمصطلح بعد سيبويه ويقابل الخبر بهذا المعنى عند سيبويه كل ما ليس بواجب ، كما يقول إلا النفى .

إذا لم تجعل قائما مقدما مبنيا على المبتدأ ... فإذا لم يريدوا هذا المعنى وأرادوا أن يجعلوه فعلا كقوله : يقول زيد وقام زيد قبح لأنه اسم . وإنما حسن عندهم أن يجرى مجرى الفعل إذا كان صفة جرى على موصوف أو جرى على اسم قد عمل فيه كما أنه لا يكون مفعولا فى "ضارب " حتى يكون محمولا على غيره فيقول : " هذا ضارب زيدًا " ... ولا يكون " ضارب زيدا " على " ضربت زيدا " فكما لم يجز هذا كذلك استقبحوا أن يجرى مجرى الفعل المبتدأ " (278/1).

ذكر سيبويه هنا المواضع التى يحسن مجىء الصفة العاملة عمل الفعل فيها إلا موضعا واحدا وهو أهمها :أى موضع الفعل وذلك عند كلامه عن مواضع الاسم التى يمكن أن يقع فيها الفعل وخاصة المضارع ليبين علة رفعه . فقال " اعلم أنها إذا كانت فى موضع اسم مبتدأ ... فأما ما كان فى موضع مبتدأ فقولك : يقول زيد ذاك ... ومن ذلك أيضا : هلا يقول زيد ذاك " فيقول فى موضع ابتداء " (409-410).

فى هذا الكلام شىء من الغموض وذلك بسبب استعمال سيبويه لعبارة " موضع مبتدأ ". فنتج عن ذلك أن التبس الأمر على كل من جاء بعده فاعتقدوا أن سيبويه أراد بهذا الموضع الاسم الذى يعمل فيه الابتداء .

2-ما قاله الأخفش وابن السراج:

يقول ابن السراج : " وحسن عندهم : " أقائم أبوك " " وأخارج أخوك " تشبيها بهذا إذا اعتمد قائم على شىء قبله ... فإذا قلت : (أقائم أبوك) فقائم مرتفع بالابتداء و(أبوك) رفع بفعلها وهما قد سدّ مسّد الخبر " (الأصول 32/1-33). وتبعه أصحابه فى ذلك بالحرف مثل أبى على الفارسى (الإيضاح 34/1-35) والرماني (شرح الكتاب ، 136/2)وكذلك كل من جاء بعده . فمن أين لهم هذا التفسير ؟ والإجابة عن هذا السؤال توجد فى كتاب الأصول لابن السراج فقد ذكر أقوال الأخفش تلميذ سيبويه فى هذا النحو بالذات . قال : قال الأخفش : أقول : " إن فى الدار جالسا أخواك " فأنصب جالسا بإن وأرفع الأخوين بفعلهما وأستغنى بهما عن خبر إن كما أقول : أذاهب أخواك فأرفع أذاهب بالابتداء وأخواك بفعلهما وأستغنى بهما عن خبر الابتداء لأن خبر الابتداء جىء به ليتم الكلام ... وتقول : إن فيها قائما أخواك

وإن شئت قائمين أخويك فتنصب أخويك بإن وقائمين على الحال وفيها خبر إن وهو خبر مقدم ".انتهى كلام الأخفش ويواصل ابن السراج:وأجاز الفراء:إن قائما الزيدان وإن قائما الزيدون على معنى: إن من قام الزيدان ..(الأصول 286-287).

يظهر من هذا جليا أن الأخفش فهم من عبارة سيبويه " فى موضع اسم مبتدأ أو موضع مبتدأ " أن اسم الفاعل العامل عمل فعله هو مبتدأ وأن الابتداء وبالتالى ، هو الذى رفعه، وكونه مرفوعا يقتضى أن يكون له رافع مع علمه — وهو واضح — أن لهذه الصفة فاعل فلجأ إلى وجود هذا الفاعل ليفسر عدم وجود خبر بهذا المبتدأ مع أنه كلام تام .

3 - ما قاله الرضى:

وأول من انتبه، فى علمنا ، إلى ضعف هذا التأويل هو الرضى الاسترابادى . وقد ميّز قبله ابن الحاجب صاحب النص الذى شرحه ، بين المبتدأ الذى يلزمه خبر وهذا الذى يسميه مبتدأ أيضا لكن من نوع آخر وهو شىء يحتاج إلى توضيح. وامتاز الرضى هو وحده بأن قال:" وهذا ليس بشىء بل لم يكن لهذا المبتدأ أصل من خبر حتى يحذف ويسدّ غيره مسده ولو تكلفت تقدير خبر لم يتأت إذ هو فى المعنى كالفعل والفعل لا خبر له . فمن ثم تم بفاعله كلاما ...ولهذا أيضا لا يصغّر ولا يوصف ولا يعرّف ولا يثنى ولا يجمع إلا على لغة أكلونى البراغيث " (شرح الكافية 86/1) وقال أيضا : " فهذه كلها مبتدآت لا أخبار لها لما فيها من معنى الفعل ولا يدخل نواسخ المبتدأ عليها لما فيها من معنى النفى فيلزم الصدر ... ويجوز عند الأخفش والفراء : "إن قائما الزيدان وسوغ الكوفيون هذا الاستعمال فى ظن أيضا نحو : ظننت قائما الزيدان وكلاهما بعيد عن القياس (1) لأن الصفة لا تصير فاعلها جملة كالفعل إلا مع دخول معنى يناسب الفعل عليها كمعنى النفى والاستفهام أو دخول مالا بد من تقديرها فعلا بعده كالام الموصله . وأما إنّ وظنّ فليسا من ذينك فى شىء بل هما يطلبان الاسمية فلا يصح تقديرها فعلا بعدهما(المرجع نفسه ، 87) .

كلام رجل عبقرى ! وعهدنا به يهجم بذهنه مثل الخليل على أدق المعانى العلمية وأعمقها . أما فيما يخص كلام سيبويه فلم يدرك الأخفش ومن تبعه فى ذلك أن عبارة الكتاب :" فى موضع اسم مبتدأ " هى مساوية لـ " فى موضع الفعل

(1)ولم يأت زيادة على ذلك أى سماع يؤيده .

المبتدأ " الكتاب) 278/1). فالفعل المبتـــدأ عنده هو الفعل الذى وقـــع فى موضعـــه الأصلى (إذ قد يقع فى موضع الاســـم) أى موضع العامل فى الاسم غير الجار وهو الفعل والنواسخ والابتداء والدليل علـــى ذلك أن سيبويه قال بالنص الصريـــح: إن اسم الفاعل هنا فى موضع ابتداء ثم إنـــه يسمى كل ما يغطى هذا الموضع مبتـــدأ وذلك مثل الفعل كمـــا قلنـــا (كتـــاب 458,410,278/1) . وقال عن " أنّ " إنهـــا لا تكون إلا مبتدأة (461/1). فالاسم المبتـــدأ ليس عنده ههنا الاسم الذى عمـــل فيـــه الابتداء كما فهمه الأخفش بـــل الاســـم الذى يقع فى موضع الابتداء نفسه الـــذى هو موضع العامل فى الاسم لأنه يعمـــل عمل الفعـــل تماما ويتم به الكلام ويقوم مقامه فى موضعه وليس فى موضع الاســـم الذى يعمل فيه الابتداء والدليل على ذلك ينحصر فى هاتين الحقيقتين :

1- لا يتصرف اسم الفاعل(هنا فقط) تصرف الاسم (التعريف والتمييز والتثنية والجمع والوصف)

2-لا يمكن أن يحذف فى هذه الحالة الفاعل وغيره مما يعمل فيه ويجوز هـــذا أو ذاك فى الصفة العاملة عمل الفعل فى غـــير هذا الموضع : يقال : هنّ حواجّ بيتَ الله " بالنصب (الكتـــاب 57/1) . والصفـــة العاملة هنا فى موضع خبر (معمـــول 2) كما يجوز حذف معمول الصفة فـــاعلا أو مفعولا فى غير موضع العامل يجوز: مررت برجل ضارب أخوه عمرا وبرجل ضـــلوب وهذا متعذر إذا جاءت الصفة العاملـــة فى موضع العامل فلا يحذف الفاعل لأنه بـــه يتم الكلام . ويمكن أن يرسم هذا هكذا :

أنظر الجدول فى الصفحة التالية

مثال (أو حدّ إجرائي) لهذه الأنحاء

ص	ع	م(1)	م(2)
موضع ماله الصدارة	موضع العامل (الابتداء أو النواسخ أو الفعل)	موضع المعمول الأول أول مايشغل العامل الفاعل والمبتدأ واسم النواسخ	موضع المعمول الثاني (المفعول به أو الخبر)
ϕ (1) أ ما أ وما	يقوم قائمٌ قائمٌ ضارب	أخواك أخواك أخواك أخواك	المعمول 2هنا قد يكون معدوما (وجوبا أو جوازاً) زيدًا
ϕ(2)	ϕ (الابتداء)	أخواك	قائمان
إنّ	(3)	أخويْك	قائمان
ϕ (2)	كان	أخواك	قائمَيْن
ϕ (2)	ظننتُ	أخويْك	قائمَيْن

القياس العربي(4) (استنباط البنية الجامعة من عدة أنحاء)

جملة فعلية وما يقوم مقامها

وبالقلب : قائمان أخواك المعمول هنا ضروري

(1)هذه علامة الخُلُوّ فالفعل جاء في موضعه الأصلي (الفعل المبتدأ) فلا يحتاج إلى نفي أو استفهام بخلاف اسمَي الفاعل والمفعول .

(2)هذا الموضع يمكن أن يظهر فيه كل ماله الصدارة (نفي ، استفهام وعدم دخول أي شيء = ϕ)

(3)إنّ وحدها تُغطي موضع الصدارة وموضع العامل في الاسم في الوقت نفسه .

(4)قارن بقول ابن السراج : " قياس ظننت وإن وكان والابتداء واحد (الأصول (78/2).

وبهذا الرسم تتضح أهمية الموضع (فى داخل المثال) العظيمة كما تتضح أهمية العملية الاستنباطية التى هى القياس التمثيلى (حمل شىء على شىء لجامع بينهما) ويستحيل فى هذا القياس الممثل بهذا الرسم أن تدخل إن أو ظننت على أقائم وسيبويه(مع شيخه الخليل والرضى) هُم الذين تنبهوا إلى ذلك .

أما إعراب هذه الصفة فهذا راجع إلى اصلها وهى الاسمية وكونها فى موضع الفعل لا يمنعها من هاتين الميزتين الاسميتين: دخول التنوين والإعراب . ويمكن أن تكون مجرورة (مثل : غير قائم أخواك) أو مرفوعة . أما الرفع فهو لتجردها وجوبا من العامل اللفظى رافعا أو ناصبا إذ هى فى موضعها وفى نفس الوقت لتجردها من الجار (الذى قد يدخل عليها والجار من حدّ الاسم أى داخل فيه) .

وهذا يفسر أيضا أن سيبويه يجعل عامل الرفع فى الفعل المضارع وقوعه فى موضع الاسم وهذا الاسم هو هذه الصفة لا أى اسم فلا يمكن أن يقال إن تجرّده من الناصب والجازم كما ذهب إلى ذلك الكوفيون ثم ابن مالك هو عامل الرفع فيه لأن ما يعمل — كما قال سيبويه — فى الاسم — وهو هنا التجرّد — لا يعمل فى الفعل (الكتاب 409/1)وهذا تفسير خليلى لم يتفطن له ابن مالك كعادته .

إن هذه الطريقة فى تحليل الكلام واكتشاف البنية الجامعة للعدد الكبير من الأنحاء قد بناها النحاة الأولون ، كما رأينا ، على عدد من المفاهيم والتصورات وعدد من الأساليب فى علاج الكلام . فأما مفهوم الموضع ، كما وصفناه ، وكذلك المثال (والوزن بالنسبة للكلمة) فلا يوجد مثلها فى اللسانيات الغربية إطلاقا . والسبب فى ذلك أن النحاة لايقتضى التحليل عندهم فقط على ظاهر الكلام أى على اللفظ المسموع وحده كما هو الشأن عند اللسانيين المنتمين إلى مذهب البنية . فالنحاة العرب ينطلقون هم أيضا من اللفظ فى ظاهره ولكن لا يتناولون الكلام جملة جملة والقطعة بعد القطعة فيقابلوا بينها لاظهار الفوارق بينها من حيث صفاتها الذاتية بل يحملون هذا النحو على ذاك أى يجعلون الأنحاء الكثيرة من تلك التى تنتمى إلى باب واحد (إلى مجموعة بالمعنى الرياضى) بعضها بإزاء بعض حتى يظهر الترتيب والنظم (لا الصفات الذاتية فقط) والمثال الذى يجمعها ويجعل منها بابا ويؤديهم هذا العمل القياسى الاستنباطى إلى استخراج مواضع أو أوضاع فى داخل المثال وهى العناصر المجرّدة التى يتكوّن منها المثال أو

الاستئناف النحوي ودوره في التركيب

للدكتور مصطفى النحاس

الملخص

يتعرض البحث لموضوع الاستئناف فى النحو ، وتأثيره فى التركيب ، سواء من ناحية الاعراب ، أو من ناحية بناء التركيب نفسه ، وما يتبع ذلك من حذف أو تقدير او توليد جمل جديدة ، أو تقنين للقواعد فى بعض الجمل .

ويبين البحث أن من الاستئناف ما هو ظاهر ، تنبىء عنه الحركة الاعرابية وحرف العطف الذى يتحول الى معنى وظيفى جديد ، ومنه ماهو خفى ، يحتاج فى معرفته الى ادراك وفهم عميق للأساليب .

ويشير البحث الى اهمية الاستئناف فى تخريج بعض القراءات أو الضرورات او تعليل بعض اللهجات ، ويفرق بين الاستئناف البيانى والاستئناف النحوى .

مدخل :

يجدر أن نفرق هنا بين نوعين من الاستئناف

الاستئناف البيانى

والاستئناف النحوى .

فالأول : ما كان جوابا لسؤال مقدر نحو قوله تعالى (٥١ / ٢٤ ، ٢٥) :

«هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين : إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون » :

« فإن جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدر ، تقديره : فماذا قال لهم ؟ ولهذا فصلت عن الأولى : فلم تعطف عليها » (ابن هشام ٢ / ٣٨٣) .

ومثله قوله تعالى (١٥ / ٥١ ، ٥٢) :

« ونبئهم عن ضيف إبراهيم : إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما . قال إنا منكم وجلون » .

فجملة « قال » جواب لسؤال مقدر ، هو : فماذا قال لهم ؟

ومعنى هذا أن الاستئناف البيانى يلزمه أمران :

سؤال مقدر ← فماذا قال لهم ؟

فعل مأخوذ من السؤال المقدر ← قال : . .

والثانى : وهو ما يعنينا هنا : يقصد به عدم تعلق الجملة نحويا بما قبلها ، تعلق إتباع أو إخبار أو وصف أو حال أو صلة ؛ أى أنه يؤدى إلى انفصال الجملة المستأنفة عن الجملة السابقة عليها إعرابيا . وقيام حركة إعرابية جديدة تعبر عن معنى الاستئناف كما سيأتى . وقد اجتمع النوعان فى قول الشاعر :

زعم العواذل أننى فى غمرة
صدقوا ، ولكن غمرتى لاتنجلى

فجملة « صدقوا » استئناف بيانى ؛ لأنها جواب لسؤال مقدر : أصدقوا أم كذبوا ؟ فقيل صدقوا (ابن هشام ٢ / ٣٨٣) وجملة « غمرتى لاتنجلى » استئناف نحوى بـ « ولكن ».

وقد قالوا : إن كل استئناف بيانى هو نحوى : وليس العكس .

والمتتبع لمفهوم الاستئناف فى كتب النحو يلحظ أنه يأتى بألفاظ مختلفة : وبأسماء متعددة . فسيبويه — مثلا — يطلق عليه : « الابتداء والقطع » جاء فى الكتاب (١ / ٦٠) :

« وتقول : ما عبد الله خارجا ولا معْنٌ ذاهب : ترفعه على ألا تشرك الاسم الآخر فى « ما » ولكن تبتدئه » وفى موضع آخر يقول (١ / ٦١) : « فترفعه على الابتداء والقطع من الأول ».

والكسائى يطلق عليه « القطع والمخالفة » فكلمة (ظريفا) فى جملة : رأيت زيدا ظريفا ، منصوبة عنده على القطع : ثم يعرّف القطع قائلا : « أن يكون أراد النعت فلما كان ماقبله معرفة : وهو نكرة : انقطع منه وخالفه » (ابن السراج أ — ١ / ٢٦١)

والفراء (٢ / ١٨٧) يطلق عليه : الاستئناف ؛ فقوله تعالى : « لاتخاف دركا ولا تخشى » (٢٠ / ٧٧) ورد فى قراءة حمزة : « لاتخف دركا ولاتخشى » بجزم (تخف) على الجزاء . ورفع (ولاتخشى) على الاستئناف .

فالمصطلحات — إذن — أربعة : الابتداء — القطع — المخالفة — الاستئناف .

وقد يطلق عليه : الفصل .

والذى يبدو أن سيبويه يساوى بين القطع والابتداء : كما أن الكسائى يساوى بين القطع والمخالفة ، وكلاهما بمعنى الاستئناف

وقد جمع ابن هشام بين الجملة الابتدائية والجملة الاستئنافية فقال (٢ / ٣٨٢) : « . . الابتدائية ، وتسمى أيضا المستأنفة وهو أوضح ؛ لأن الجملة الابتدائية تطلق أيضا على الجملة المصدرة بالمبتدأ ، ولو كان لهـا محل » . ويبدو أن ابن هشام اعتمد على المعنى اللغوى للاستئناف ، ففى اللسان (مادة أنف) الاستئناف : الابتداء ، . . . يقال :

استأنفت الشيء إذا ابتدأته . والابتداء بهذا المفهوم يشمل الجمل الاسمية والجمل الفعلية الواقعة في بدء الكلام . وهذه الجمل لا محل لها من الإعراب . لأنها لاتحل محل المفرد . ويرى ابن هشام أن مصطلح «الاستئناف» أوضح ؛ لأن الجملة الابتدائية تطلق أيضا على الجملة المصدرة بالمبتدأ ، ولو كان لها محل . وأيضا الابتدائية يتوهم قصرها على المفتتح بها النطق » (ابن هشام ٢/٣٨٢، الأمير ٢/٤٦) .

والحق أن يفصل بين المفهومين ؛ فالاستئنافية هي الجملة التي تأتي في أثناء الكلام منقطعة عما قبلها صناعياً ، أي أن الاستئناف يؤدي إلى انفصال الجملة المستأنفة عن الجمل السابقة عليها . ولا يضر الارتباط معنى بين الجملتين في هذه الحالة : لأن الارتباط المعنوي لا يستلزم محلية الإعراب ، كما ذكر الأمير في حاشيته (٢/٤٦) .

وإذا نظرنا إلى ماذكره سيبويه في هذه المسألة نجد أن مفهوم الابتداء لديه كان مرتبطاً دائما بقطع الكلام عما قبله ؛ ولم يتعرض لما سماه ابن هشام «الجملة الابتدائية» فالاستئناف عند سيبويه يعني : قطع الجمل عما قبلها نحوياً ، كما يفهم من كلامه .

وهذا هو ما يهمنا في الاستئناف النحوي ؛ لأنه هو الذي يترتب عليه تغيير في حركة الإعراب ، وقد يؤدي إلى إنتاج جمل جديدة كما سنرى .

تأثير الاستئناف في الحركة الاعرابية :

إن دراسة الاستئناف تهدينا إلى جوانب مهمة في التركيب ؛ بعضها يتعلق بالحركة الإعرابية ؛ وبعضها الآخر يتعلق بالتركيب نفسه .

فمما يتعلق بالحركة الإعرابية نجد أن الكلمة التي نحكم عليها بأنها بداية الجملة المستأنفة تخرج عن حركتها التي كانت عليها إلى الضمة حسب ، فإذا كانت مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة أو مجزومة : فإنها لاتخرج إلا إلى الرفع .

ومن امثلة ذلك :

١ – قوله تعالى في سورة الحج (٢٢/٥) :

«لنبينَ لكم ونقرُّ في الأرحام ما نشاء» .

وقوله (٧/١٨٦) :

« من يضلل الله فلا هادي له ويذرُهم في طغيانهم يعمهون» .

وقوله (٢/٢٨٢) :

«واتقوا الله ويعلّمُكم الله» .

بالرفع على الاستئناف في ذلك كله ، إذ لو كانت الواو للعطف لانتصب (نقرّ) ، ولجزم (يذر) وللزم عطف الخبر على الأمر في الآية الأخيرة .

٢ – قول الشاعر :

على الحَكَم المأتىّ يوماً إذا قضَى
قضيته ألا يجورَ ويَقْصدُ
(ابن هشام ١/٣٥٩)

قالوا وخرجت عن معناها النحوى ، وهو العطف : وركبت تركيباً جديداً ، ورفع الفعل بعدها . ولم ينصب عطفاً على ما قبله ، وصارت جملة (ويقصد) لامحل لها من الإعراب . يقول ابن هشام (١/٣٥٩) : « وهذا متعين للاستئناف ، لأن العطف يجعله شريكاً فى النفى ، فيلزم التناقض » .

٣ – « كذلك قولهم : دعنى ولا أعودُ : لأنه لو نصب كان المعنى : ليجتمع تركك لعقوبتى وتركى لما تنهانى عنه ، وهذا باطل ؛ لأن طلبه ترك العقوبة إنما هو فى الحال ، فإذا تقيد ترك المنهى عنه بالحال لم يحصل غرض المؤدب » . (ابن هشام ١ / ٣٥٩) ولذا فالضمة هى الحركة المناسبة للمعنى المراد ، أما الفتحة من حيث هى علامة النصب على المعية بعد الواو فتؤدى إلى فساد المعنى ، ويكون الاستئناف هو المعول عليه فى تغيير الحركة الإعرابية من : دعنى ولا أعودَ إلى : دعنى ولا أعودُ :

٤ – وقول جميل بثينة :

ألم تسأل الربع القَواءَ فينطقُ
وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بيداء سَمْلَقُ
(البغدادى ٣ / ٦٠١)

« أى : فهو ينطق ؛ لأنها لو كانت عاطفة لجزم ما بعدها ، ولو كانت للسببية لنصب ، ومثله : « فإنما يقول له كن فيكونُ » بالرفع . أى : فهو يكون حينئذ .

وقول الحطيئة :

الشعر صعب وطويل سلّمه
إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمُه
يريد أن يُعربَه فيُعْجِمُه

أى : فهو يعجمه ؛ ولا يجوز نصبه بالعطف لأنه لا يريد أن يعجمه « ابن هشام ١/١٦٨ » .

٥ – ومن أمثلة الفراء فى الاستئناف :

« أعطيتك ألفاً ثم أعطيتك قبل ذلك مالا ، فيكون ... » .

فـ « ثم » هنا حرف استئناف ؛ إذ لا يصح العطف ، لفقدان الترتيب .

ومنه ما ذكره ابن هشام (١ : ١١٨) : « أعجبنى ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس أعجب » وذلك لأن ما صنعه أمس لا يمكن أن يكون فى الترتيب بعد ما صنعه اليوم :

ومن ذلك قول الشاعر :

إن من ساد ، ثم ساد أبوه

ثم قد ساد ، قبل ذلك ، جده(١)

(المرادى : ٤٢٨)

وقال ابن عصفور : ما ذكره الفراء من أن المقصود بـ « ثم » ترتيب الإخبار لا ترتيب الشيء فى نفسه ، وكأنه قال : اسمع منى هذا الذى هو : بلغنى ما صنعت اليوم ، ثم اسمع منى هذا الخبر الآخر الذى هو : ما صنعت أمس أعجب – ليس بشيء ؛ لأن « ثم » تقتضى تأخر الثانى عن الأول بمهلة ، ولا مهلة بين الإخبارين » (المرادى : ٤٢٨) .

٦ – ومن هذا القبيل قول جرير :

فمازالت القتلى تمج دماءها

بدجلة ، حتى ماء دجلة أشكل

(ابن هشام ١٢٨/١)

وقول الفرزدق :

فواعجبا ، حتى كليب تسبنى

كأن أباها نهشل أو مجاشع

(ابن هشام ١٢٩/١)

يقول ابن هشام (١ / ١٢٩) : « ولا بد من تقدير محذوف قبل (حتى) فى هذا البيت يكون ما بعد (حتى) غاية له ، أى : فواعجبا ، يسبنى الناس ، حتى كليب تسبنى » .

وتدخل (حتى) على الجملة الفعلية ، سواء كان فعلها ماضياً ، نحو قوله تعالى (٩٥/٧) :

« ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة . حتى عفوا وقالوا .. » .

أو مضارعاً ، نحو قول حسان .

يغشون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

(ابن هشام ١٢٩/١)

ومن التعبيرات الشائعة فى اللغة المعاصرة : حتى أنت (يا فلان) ويؤخذ على هذا التعبير أنه لم يرد قبله كلام ؛ لكن يمكن حمله على تقدير محذوف قبل حتى ، مثل : يقسو على الناس حتى أنت يا (فلان) .. أو يعيرنى الناس حتى أنت .. أو نحو ذلك ، بحسب ما يمليه المقام .

تأثير الاستئناف فى التركيب :

عرضنا فيما سبق نماذج من تأثير الاستئناف فى الحركة الإعرابية ، ورأينا كيف تخرج الكلمة الواقعة فى بداية الجملة المستأنفة عن

---

(١) البيت لأبى نواس ، وروايته ، كما ذكر السيوطى (٥ / ٢٣٦) :

قل لمن ساد ثم ساد أبوه قبله ، ثم قبل ذلك جده

حركتها التي كانت عليها إلى الضم . وهذا النوع من الاستئناف يعتمد فيه غالباً على ظاهر العبارة : وما فيها من روابط لغوية (مثل الواو – الفاء – ثم – حتى ..) حيث تخرج عن معناها الوظيفي وهو العطف ، إلى معنى نحوي جديد . هو الاستئناف .

وقد أشرنا في صدر هذا البحث إلى أن تأثير الاستئناف لايقتصر على الحركة الإعرابية ، بل قد يمتد إلى التركيب نفسه ، وطريقة تأليف الكلام ونظمه ، وهذا النوع من الاستئناف لاينبغي الاعتماد فيه على ظاهر العبارة . وما فيها من روابط لغوية ؛ بل يحتاج – مع ذلك – إلى قوة إدراك ، وفهم للأساليب العربية ، واحتكام إلى المعنى الذي يتضمنه التركيب .

وقد أشار ابن هشام إلى هذا النوع من الاستئناف ، وقال (٢ / ٣٨٣) : « ومن الاستئناف ما قد يخفى » وله أمثلة كثيرة ، منها

١ – قوله تعالى (٨،٧/٣٧) : « وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . . . » فإن الذي يتبادر إلى الذهن أن جملة (لا يسمعون) صفة لكل شيطان أو حال منه ، وكلاهما باطل ؛ إذا لامعنى للحفظ من شيطان لايسّمّع . وإنما هي للاستئناف النحوي .

« وإذا توهمت أنها حال مقدرة فلتعلم أنك مخطئ أيضا ، لأن الحال المقدرة تعني أن صاحبها هو الذي يقدر ما تتضمنه ، والشيطان في هذه الآيات ليس هو المقدر لعدم التسمّع ؛ بل الله هو الذي حجبه ومنعه »(قباوة : ٣٧) فجملة (لا يسّمعون) لا يصح أن تعرب صفة أو حالا ؛ لأن هذا لا يتسق مع المعنى المقصود من الآية الكريمة . وهنا يؤدي النحو وظيفة مهمة ، تتمثل في الحكم على تلك الجملة بأنها مستأنفة ، فالكلام قد استؤنف بعد توقف .

٢ – ومن يقف عند الآية الكريمة : « فلا يحزنك قولهم ؛ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون» (٧٦/٣٧) فإنه ربما يتبادر إلى ذهنه أن جملة « إنا نعلم . . . » مقول القول ، وليس كذلك ؛ لأن القول ليس للكفار ، وإنما هو لله عز وجلّ ، فهي في الحقيقة جملة استئنافية .

كذاقوله تعالى (٦٠ / ٦٥) : «ولا يحزنك قولهم ؛ إن العزة لله جميعا » قال ابن هشام (١ / ٣٨٤) : « وهي كالتي قبلها » لأنهاليست من قول الكافرين ولا يعقل أن تصدر عنهم وهم الذين يحاربون الله ورسوله ، وإنما هي استئنافية يثبت الله بها قلب النبي ﷺ ومن معه ، ولذا لابد من إحداث سكتة لطيفة قبل الجملة المستأنفة .

٣ – وزعم أبو حاتم السجستاني أن من الاستئناف (تثير الأرض) في قوله تعالى (٧١/٢) « قال إنه يقول : إنها بقرة ، لاذلول ، تثير الأرض ولا تسقى الحرث

مسلّمة لاشية فيها » وادعى أن ذلك من عجائب هذه البقرة ، فهى ليست مذللة للحراثة والسقى ، ولكنها تثير الأرض كالمذللة والحق أن الأخبار لم تأت بأن تلك البقرة كان فيها عجائب ، وإنما جاءت بأنهم كلّفوا بأمر ممكن وجوده ، لابأمر خارق للعادة ولهذا فإن جملة (تثير) ليست استئنافية : وإنما هى فى محل رفع صفة لـ « ذلول » وجملة (تسقى) معطوفة على « لاذلول » ؛ والتقدير لاذلول مثيرة الأرض ، ولا ساقية للحرث . ولو كانت كما زعم أبو حاتم لوجب تكرار

(لا) بعد (لاذلول) لأن القياس يقتضى ذلك ،خلافا للكوفيين والمبرد «(قباوة : ٣٨)

إذ لايقال « مررت برجل لاشاعر » حتى تقول « ولا كاتب »(ابن هشام ٣٨٤/٢) . وقد يقال إن (لا) تكررت بقوله تعالى (ولا تسقى الحرث) والرد : أن ذلك إنما وقع بعد الاستئناف على زعم أبى حاتم .

ولكن إذا قصد بالاستئناف الاعتراض جاز فى الصناعة ما ذهب إليه أبو حاتم وإن كان المعنى يدفعه وينكره .

٤ — ومن هذا النوع من الاستئناف : « جملة العامل الملغى لتأخره ، نحو :« زيد قائم أظن » فأما العامل الملغى لتوسطه، نحو « زيد أظن قائم » فجملته أيضا لا محل لها إلا أنها من باب جمل الاعتراض» (ابن هشام ٣٨٢/٢).

وعند التحليل النحوى للجمل فى هذه المسألة نجد أن الجملة الأساسية « قد أصابها التقدير الذى أدى إلى إلغاء بعضها ، والحكم على بعضها الآخر بالاستئناف ؛ فالجملتان :

(أ) زيد قائم أظن

(ب) زيد أظن قائم

مأخوذتان من جملة أساسية ، هى :

(ج) أظن زيدا قائما

وتلك الجملة الأساسية قد أصابتها عدة « عمليات نحوية» على النحو التالى :

(د) زيدا قائما أظن : تأخير (أظن) بوضعها فى آخر الجملة .

(هـ) زيد قائم أظن : إلغاء العمل النحوى للفعل (أظن) .

(و) زيدا أظن قائما : توسط (أظن) بين معموليها .

(ز) زيد أظن قائم : إلغاء العمل النحوى للفعل (أظن) .

والجملتان (أ) ، (ب) أصلهما المقدر هو الذى نجده فى (ج) ، ومن هنا فإن التقدير متصل فيما بينه : وعند ابن هشام أن الجملة (ب) تندرج تحت قضية تقديرية أخرى تخص إلغاء العامل النحوى لتوسطه . أما الجملة (أ) فيمكن أن تكون (أظن) جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب » (ياقوت : ٧٤، ٧٥) .

٥ – وتعد الجملة الواقعة بعد « أم » المنقطعة من الجمل الاستئنافية ؛ لاستقلالها عما قبلها . وقد وقع خلاف بين النحاة حول المواقع التركيبية لـ « أم » المنقطعة فقالوا :

– تقع بعد الأخبار المحضة : نحو قوله تعالى (٣٢/٢، ٣) .

« تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين : أم يقولون افتراه »

– وتقع بعد همزة لغير الاستفهام : نحو قوله تعالى (١٩٥/٧) :

«ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها»

– أو الاستفهام بغير الهمزة ، نحو قوله سبحانه (١٦/١٣) :

« هل يستوى الأعمى والبصير : أم هل تستوى الظلمات والنور»

« واختلف في معناها ، فقال البصريون هي بمعنى « بل » ؛ أى للإضراب ، وبمعنى الهمزة مطلقاً . وقال الكسائى وهشام : هى كـ « بل» وتاليها . أى ما بعدها كمتلوها أى كما قبلها ؛ فإذا قلت : قام زيد أم عمرو فالمعنى : بل قام عمرو . وإذا قلت : هل قام زيد أم عمرو . فالمعنى : بل هل قام عمرو . . »

(السيوطى ٥ / ٢٤٢) .

ورد بقوله تعالى (٣٨/٢٧ ، ٢٨) :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ؛ ذلك ظن الذين كفروا ؛ فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »

« فأم» لم يتقدمها استفهام ، وقد استؤنفت بـ « أم» السؤال على جهة الإنكار والرد . ولا يمكن أن يكون ما بعدها موجبا ؛ فليس مثل ما قبلها .

وقال الفراء : هى كـ « بل» إذا وقعت بعد استفهام ، كقوله :

فو الله ما أدرى أسَلْمَى تغوّلتْ

أم النوم أم كلٌّ إلىّ حبيبُ

أى : بل كُلٌّ (السيوطى ٥/٢٤٣) .

ورد بأن المعنى على الاستفهام : أى : بل أكُلٌّ إلى حبيب ؛ لأنها لما تمثلت لعينه لم يدر أذلك فى النوم أم صارت من الغول ؛ لأن العرب تزعم أنها تبدو متزينة لتفتن ، ثم لما جوز أن تكون تغولت داخله الشك ، فقال بل أكُلٌّ إلىّ حبيب؛ أى الغول وسلمى كلٌّ منهما إلى حبيب ؟

« وقال أبو عبيدة : هى كالهمزة مطلقا قال : ومنه قوله تعالى (١٠٨/٢) : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » وجاء فى الهمع (٢٤٣/٥) : « هى كالهمزة إن لم يتقدم عليها استفهام »

ويتضح من عرض الآراء السابقة أن الاتفاق قائم على معنى الاستئناف في «أم» المنقطعة. لكن الخلاف في مواقعها التركيبية؛ فأكثر النحاة على أن «أم» المنقطعة هي الواقعة بين جملتين غير مسبوقتين بالهمزتين؛ أي همزة الاستفهام وهمزة التسوية المختصتين «بأم» المتصلة. أو هي الواقعة بعد الخبر أو أداة استفهام غير الهمزة أو بعد همزة لغير استفهام.

ويمكن رسم الصور التركيبية لـ «أم» المنقطعة على الوجه الآتي:

الشكل الظاهري للتركيب		البناء الداخلي للتركيب
قام زيد أم عمرو	←	قام زيد بل قام عمرو (خبر).
هل قام زيد أم عمرو؟	←	هل قام زيد بل هل قام عمرو؟ (استفهام بغير الهمزة).
أزيد قائم أم عمرو	←	أزيد قائم بل أقائم عمرو (إنكار)
أزيد قائم أم عمرو؟	←	أزيد قائم بل أقائم عمرو؟ (استفهام بالهمزة)

وفي جميع الحالات وقعت «أم» بين جملتين. وتظهر قيمة هذا الاختلاف في إعطاء صور تركيبية متعددة للجملة المستأنفة بـ «أم». هذا إلى جانب ما تضيفه هذه التراكيب من توسعة في الاستعمال..

ويلاحظ أن الصور الثلاث الأولى تكاد تكون موضع اتفاق؛ أما الصورة الأخيرة فموضع خلاف واضح؛ ويظهر الفرق بين الصورة الثالثة والصورة الرابعة من وضع علامة الاستفهام (؟) في حالة السؤال. أما في الإنكار فلا حاجة إلى هذه العلامة. ويقوم التنغيم مقام العلامة في حالة النطق.

٦ – ويبلغ هذا النوع من الاستئناف قمته في قول سيبويه (١/٦١):

«وتقول: ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو لأنك لو قلت: ما زيد عاقلا عمرو. لم يكن كلاما؛ لأنه ليس من سببه. فترفعه على الابتداء والقطع من الأول؛ كأنك قلت وما عاقل عمرو».

فالواو في: ما زيد ذاهبا ولاعاقل عمرو ليست عاطفة، وإنما هي للقطع من الأول ولذا يرفع ما بعدها على الابتداء «ولم يجز نصبه على «ما» لأنك لو ذكرت «ما» ثم قدمت الخبر لم يكن إلا رفعا» (سيبويه ١/٦١).

ويمكن توضيح ما جاء فى هذا النص بالشكل الآتى :

ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو (الجملة الأساسية)

↓

مازيد عاقلا عمرو (جملة غير نحوية)

↓

ما عاقل عمرو (جملة نحوية)

فالتركيب الأول تركيب نحوى ، بنى عليه سيبويه تغيير الحركة الإعرابية من النصب عطفا ؛ إذ لا توجد علاقة تربط ما بعد الواو بما قبلها — إلى الرفع ابتداء ؛ والتركيب الثانى فاسد لأنه بنى على النصب ؛ والنصب لا يجوز لما ذكرنا من عدم وجود علاقة تجعل ما بعد الواو يشترك فى «ما» ؛ أما التركيب الثالث فهو نتيجة لما تبين من فساد التركيب الثانى . ومعنى هذا أن القطع يؤدى إلى إنتاج بعض الجمل النحوية من تلك التى تكون غير نحوية ؛ كما يفهم من كلام سيبويه .

والأصل فى هذه المسألة أن الاسم الظاهر متى احتيج إلى تكريره فى جملة واحدة كان الاختيار ذكر ضميره ؛ نحو : ما زيد ذاهبا ولا محسنا ، أى هو . أما إذا أعدت لفظه فقلت : ما زيد ذاهبا ولا محسنا زيد فذلك جائز أيضا ، لكن رفع « محسن» أجود من نصبه فى هذه الحالة ؛ حتى يكون التركيب مكونا من جملتين ؛ وإن كان المراد بالاسم فى الجملة الثانية نفس الاسم فى الجملة الأولى . أما إذ جئنا بأجنبى كما فى المسألة التى معنا (ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو) فعمرو أجنبى من زيد ، فإن الرفع واجب : على القطع والابتداء .

وفى هذا يقول سيبويه (١ / ٦٢) : « وتقول : مازيد ذاهبا ولا محسن زيد ، الرفع أجود ، وإن كنت تريد الأول ؛ لأنك لو قلت : مازيد منطلقا زيد(١) ، لم يكن حد الكلام ، وكان ههنا ضعيفا ، ولم يكن كقولك : مازيد منطلقا هو ؛ لأنك قد استغنيت عن إظهاره ، وإنما

---

(١) مازيد منطلقا زيد = ما زيد ذاهبا زيد ؛ وهى مأخوذة من المثال الأساسى : مازيد ذاهبا ولا محسن زيد. وهذه طريقة سيبويه فى الكتاب : يستخدم النموذج اللغوى من خلال أمثلة مختلفة ؛ فمرة يقول : ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو ، ومرة يقول : ما زيد منطلقا ؛ ولا قائم عمرو . فالمهم عنده النموذج ؛ وذلك دليل على أن النحو عنده تراكيب .

ينبغي لك أن تضمره ؛ ألا ترى أنك لوقلت: مازيد منطلقا أبوزيد ، لم يكن كقولك : مازيد منطلقا أبوه ؛ لأنك قد استغنيت عن الإظهار : فلما كان هذا كذلك أجرى مجرى الأجنبي ، واستؤنف على حاله . . . » .

ويختلف الأمر لو كانت الأداة المصدر بها التركيب : «كان» أو «ليس» حيث «يجوز فيهما النصب وإن قدمت الخبر ، ولم يكن ملتبسا ؛ لأنك لو ذكرتهما كان الخبر فيهما مقدما مثله مؤخرا ، وذلك قولك: ماكان زيد ذاهبا ولاقائما عمرو » (سيبويه ١ / ٦١) .

ويرجع ذلك إلى أن «كان» و «ليس» كل منهما أصل في بابه . ويجوز تقديم الخبر على الاسم معهما . أما «ما» الحجازية ، فمن شروط إعمالها : ألا يتقدم ؛ ى اسمها » وذلك بشبه العمل ، فلا تتصرف في العمل بأن تعمل النصب قبل الرفع » (الرضى ١ / ٢٦٧) .

وبالمقارنة بين التركيبين :

مازيد ذاهبا ولاعاقل عمرو

ماكان زيد ذاهبا ولاقائما عمرو

يظهر لنا التحليل الآتي :

(أ)

مازيد ذاهبا ولاعاقل عمرو

↓

مازيد عاقلا عمرو (غير نحوى)

↓

ماعاقل عمرو (نحوى)

(ب)

ماكان زيد ذاهبا ولاقائما عمرو

↓

ماكان قائما عمرو (نحوى)

ومن هنا وقع الاستئناف في النموذج (أ) وأدى إلى إنتاج جملة نحوية من تركيب غير نحوى ، كما أدى إلى تغيير الحركة الإعرابية من النصب إلى الرفع .

الاستئناف والتقعيد :

للاستئناف أهميته في تقنين بعض القواعد الخاصة بالتركيب ، أو تخريج بعض القراءات أو الضرورات : أو تقدير بعض أجزاء الجملة .

ومن ذلك — مثلا — :

١ — تخريج (لاتخشى) في قوله تعالى (٢٠ / ٧٧) :

« لاتخاف دركا ولاتخشى »

على الاستئناف فى قراءة حمزة : « لا تَخفْ دركا ولاتخشى » حيث جزم (لاتخف) على الجزاء فى جواب الأمر : « فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا » ؛ ورفع (لاتخشى) على الاستئناف . كما قال سبحانه (٣/١١١) : « لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لاينصرون » « فاستأنف بـ « ثم » فهذا مثله » (الفراء ٢ / ١٨٧) .

« فالواو » و « ثم » فى الآيتين السابقتين ليستا للعطف ، وإنما هما للاستئناف ، وإلا لجزم مابعدهما عطفا على الجزاء .

٢ — تأويل معانى بعض الحروف ، مما يؤدى إلى الاستئناف ، ويتبع ذلك الاختلاف فى تقدير حركة الإعراب ، فقول الشاعر :

ألقَى الصحيفة كى يُخفّفَ رحلَه
والزادَ حتّى نعله ألقاها

فكلمة (نعله) تحتمل :

(أ) الرفع على أساس أنها مستأنفة مرفوعة :

(ب) الجرّ إذا قدرنا (حتّى) مثل (إلى) فهى تعمل الجرّ .

(ج) النصب بالفعل . (ابن السرّاج ب / ٥٧) .

والنصب بالفعل هنا يقصد به : النصب على الاشتغال ؛ أى بفعل محذوف وجوبا يفسره الفعل المذكور .

٣ — تخريج بعض الضرورات الشعرية ، مثل :

(أ) قول الأخطل :

وقال رائدهم ارسوا نزاولها
فكل حتف امرىء يمضى لمقدار

فالمعنى على الاستئناف : أى : ارسوا ، نحن نزاولها :

(سيبويه ٣ / ٩٦)

(ب) قول عمرو بن الإطنابة :

يامال والحق عنده فقفوا
تُؤْتَوْن فيه الوفاء معترفا

فكأنه قال : قفوا ، إنكم تؤتون فيه الوفاء معترفا .

(سيبويه ٣ / ٩٦)

(ج) قول معروف الدبيرى :

كونوا كمن واسى أخاه بنفسه
نعيشُ جمعا أو نموتُ كلانا

أى : كونوا هكذا ، إنا نعيش جميعا أو نموت كلانا إن كان هذا أمرنا

(سيبويه ٣ / ٩٦)

ولكي يفهم السامع معنى الاستئناف في هذه النصوص لابد من إحداث سكتة خفيفة قبل النطق بالجملة المستأنفة : وعمل التنغيم المناسب .

٤ – تقنين بعض القواعد الخاصة بالجملة : ومن ذلك :

« لا يفصل : بين الموصوف وصفته بإلا » .

فلا يقال : « جاءني رجل إلا راكب » لأنهما كشيء واحد ، فلا يفصل بينهما بها ، كما لا يفصل بين الصلة والموصول ، ولا بين المضاف والمضاف إليه . ولأن « إلا » وما بعدها في حكم جملة مستأنفة ، والصفة لا تستأنف ، ولا تكون في حكم المستأنف (السيوطي ٣ / ٢٧٥) .

ومن هنا كانت جملة : جاءني رجل إلا راكب ، لا تجوز عند النحاة . .

وتكون جملة الاستثناء في مثل : حضر القوم إلا زيدا ، ذات بنيتين :

بنية خارجية : حضر القوم إلا زيدا

وبنية داخلية : حضر القوم واستثنى زيدا .

ولذلك يمكن اعتبار (إلا زيدا) جملة مستأنفة : على تقدير « إلا » بـ « استثنى »

٥ – وقد يقتضي الاستئناف تقدير ضمير . يعرب مبتدأ في بعض الجمل . وبعده جملة خبر : نحو قوله تعالى (٤٨ ، ١٦) :

« ستُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد . تقاتلونهم أو يسلمون » .

أي : أو هم يسلمون : على رأي ابن يعيش (٧ / ٢٣)

وتحليل هذه الجملة يكون على الشكل الآتي :

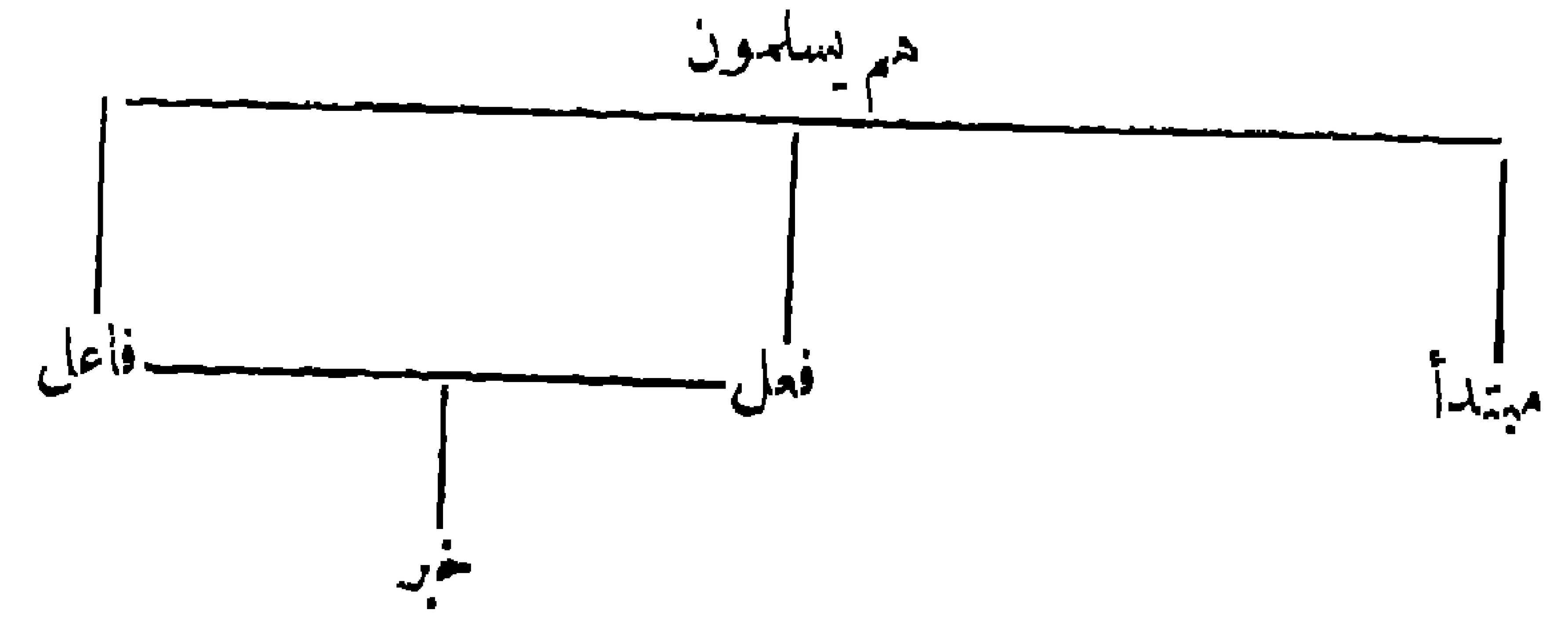

ومن ذلك قطع النعت إلى الرفع ، على تقدير ضمير يعرب مبتدأ ، بعده خبر مفرد ، نحو قولنا :

اللهم ارحم عبدك المسكينُ

أى : هو المسكين ، على الاستئناف والقطع .

أما النعت المقطوع إلى النصب : نحو قول الشاعر :

ويأوى إلى نسوة عطّل
وشُعثا مراضيعَ مثل السعالى

فقد أجاز بعض النحويين قطع النعت بالواو ، مستدلا بهذا البيت ، حيث أتبع النعت الأول ، وهو « عطل » وقطع الثانى وهو « شعثا » فنصبه بفعل محذوف تقديره : أخصّ أو أذمّ .

يقول الرضى : (١ / ٣١٦) :
« والأعرف مجئ نعت النكرة المقطوع بالواو الدالة على القطع والفصل ؛ إذ ظاهر النكرة محتاج إلى الوصف ، فأكد القطع بحرف هو نص فى القطع ، أعنى الواو .. »

ويجوز فى المعرفة القطع أيضا بالواو : نحو :

لايَبْعَدَنْ قومى الذين هم
سمُّ العُداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك
والطيبون معاقد الأزر

بنصب الأول (النازلين) بإضمار « أمدح أو أذكر » ورفع الثانى (والطيبون) بإضمار « هم » على القطع فيهما . ويجوز العكس بإتباع الأول لقومى على الرفع ، وقطع الثانى بإضمار « أمدح أو أذكر » ، كما يجوز رفعهما معا ، ونصبهما معا .

(الأزهرى ٢ / ١١٦)

ويمكن وضع الصور الممكنة فى هذين البيتين على النحو التالى :

لايبعدن قومى .... النازلين والطيبون — على القطع فيهما

لايبعدن قومى .... النازلون والطيبون — على الإتباع فيهما لقومى

لايبعدن قومى .... النازلون — على الإتباع لقومى ، والطيبين — على القطع

لا يبعدن قومى . . . . النازلين والطيبين
على القطع فيهما

هذا بناء على أن مفهوم الاستئناف قطع الجملة المستأنفة وفصلها عما قبلها نحويا ؛ بمعنى عدم تعلقها مما قبلها تعلق إتباع أو إخبار أو وصف أو حال أو صلة . كما ذكر الأمير فى حاشيته (٢ / ٤٦) .

وبذلك يدخل مفهوم القطع أو المخالفة عند الكسائى الذى أشرنا إليه فى صدر هذا البحث فى الاستئناف . فقد مثل الكسائى للقطع بقوله : رأيت زيدا ظريفا . ثم عرف القطع قائلا : « أن يكون أراد النعت ، فإذا كان ما قبله معرفة ، وهو نكرة ، انقطع منه وخالفه »[1] (ابن السراج أ — ١ / ٢٦١) .

مسائل خلافية :

ذكر ابن هشام فى المغنى (٢ / ٣٨٥ ، ٣٨٦) أن من الجمل ما جرى فيه خلاف بين النحويين ؛ أهو مستأنف أم لا ؟ ومن أمثلة ذلك :

١ — جملة « أقوم » من نحو قولنا : « إن قام زيد أقوم » .

أ — فالمبرد يرى أنه على إضمار الفاء ، وأن الكلام فيه حذف ، والأصل المقدر هو :

إن قام زيد فأنا أقوم

وهذا يؤدى إلى تقدير أمرين :

(أ) الفاء .

(ب) مبتدأ محذوف « أنا » .

— وسيبويه يرى أن « أقوم » فى جملة « إن قام زيد أقوم » مؤخر من تقديم ؛ فكأن :

إن قام زيد أقوم

أصلها :

أقوم إن قام زيد

وجواب الشرط محذوف ، ويؤيده التزامهم فى مثل ذلك كون الشرط ماضياً ، وعليه تكون جملة « أقوم » مستأنفة ؛ لعدم تعلقها بما قبلها .

وينبنى على هذا الخلاف مسألتان :

أ إحداهما : هل يجوز : زيدا إن أتانى أكرمُه ، بنصب (زيدا) ؟

---

(١) الصفة فى المثال : رأيت زيدا ظريفا ، جعلها الكسائى على القطع ، ولم يجعلها « حالا » لأن الصفة المشبهة فيها معنى الثبوت واللزوم ، والحال وصف منتقل غالبا . قد تقع الحال لازمة، لكن فى مواضع معينة ، كأن تدل على خلقة ، و « فجاءت به سبط العظام . . . » أو تكون مسموعة (دعوت الله سميعا) . . إلخ :

فسيبويه يجيزه ، كما يجيز : زيدا أكرمه إن أتانى ؛ لعدم ارتباط (أكرمه) بالشرط قبلها ، فيمكن أن تفسرّ عاملا يعمل النصب فى « زيدا » . والمبرد يمنعه ؛ لأنه فى سياق أداة الشرط ، فلا يعمل فيما تقدم على الشرط ، ولا يفسرّ عاملا فيه .

والثانية : إذا جيء بعد هذا الفعل المرفوع بفعل معطوف ، هل يجزم أم لا ؟ فعلى رأى سيبويه لا يجوز الجزم ؛ وعلى قول المبرد ينبغى أن يجوز الرفع بالعطف على لفظ الفعل ، والجزم بالعطف على محل الجملة المقدرة بعد الفاء .

ويمكن تصوّر ذلك على النحو الآتى :

إن قام زيد أقوم

↓

إن قام زيد أقوم وأكرمُه (على رأى سيبويه)

↓

إن قام زيد أقوم وأكرمْه (على رأى المبرد)

لأن الأصل عند سيبويه :

أقوم وأكرم زيدا إن قام

وعند المبرد :

إن قام زيد فأنا أقومُ وأكرمُه

ولذلك جاز عنده الرفع على اللفظ ، والجزم على المحل .

٢ — « منذ ومذ » ومابعدهما ، فى نحو : « مارأيته مذ يومان »

— فالسيرافى يرى أن « مذ » ومابعدها فى موضع نصب على الحال ، يقول ابن هشام (٢/ ٣٨٦) : « وليس بشيء لعدم الرابط » .

— ويرى الجمهور أن الجملة مستأنفة جوابا لسؤال :

(أ) تقديره عند من قدر (مذ) مبتدأ : ما أمدُ ذلك ؟

(ب) وعند من قدر (مذ) خبرا :

مابينك وبين لقائه ؟

وذلك على النحو الآتى :

مارأيته مذ يومان

↓ ↓

مبتدأ خبر (جوابا لسؤال مقدر : ما أمد ذلك ؟)

مارأيته مذ يومان

↓ ↓

خبر مبتدأ (جوابا لسؤال مقدر : مابينك وبين لقائه ؟)

ويكون المعنى على الأول : الأمد يومان .

وعلى الثانى : يومان بينى وبين لقائه .

٣ – ومن مسائل الخلاف التى ذكرها ابن هشام (٢ / ٣٨٦) : جملة أفعال الاستثناء (ليس ولايكون وخلا وعدا وحاشا)

– فالسيرافى يرى أنها حال ؛ إذ معنى :

« قام القوم ليس زيدا » قام القوم خالين عن زيد

وجوز السيرافى مع ذلك الاستئناف .

– وأوجب ابن عصفور الاستئناف فى هذه الجملة . فإن تغير تركيب الجملة ، بأن قلنا : جاءنى رجال ليسوا زيدا –

بتنكير المستثنى منه ، وظهور الضمير مع ليس ، خرجت الجملة عن الاستثناء ، ولامانع من إعرابها صفة ؛ لاستيفاء الجانب الشكلى لجملة الصفة .

الاستئناف النحوى والاستئناف البيانى :

تقدم أن كل استئناف بيانى هو نحوى ، وليس العكس ، وذلك لأن الاستئناف البيانى يقوم على عنصرين مهمين :

(أ) سؤال مقدّر .

(ب) فعل مأخوذ من السؤال المقدّر .

ولايتحقق هذان فى الاستئناف النحوى :

– فمثلا فى قوله تعالى (١١ / ٦٩) :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام » .

سؤال مقدّر : فماذا قال لهم ؟

والفعل المأخوذ من هذا السؤال : قال . .

وجملتا القول استئناف نحوى .

– وفى قوله تعالى (٢٤ / ٣٦ ، ٣٧) :

« يسبَّح له فيها بالغدو والآصال ، رجال »

بفتح باء « يسبح » على قراءة بعضهم .

السؤال المقدر : من يسبَّح ؟

والفعل المأخوذ منه : يسبَّح (وهو غير مذكور) .

والجملتان استئناف نحوى .

من هنا خص البيانيون الاستئناف بما كان جوابا لسؤال مقدّر ، ويعدّه النحويون استئنافا نحويا ، لأنه منفصل ومقطوع عما قبله إعرابيا ، ولاتضرّ العلاقة المعنوية ؛ « لأن الارتباط المعنوى لايستلزم محلية الإعراب » (الأمير ٢ / ٤٦) .

ومما تقدم يتضح :

١ – أن الاستئناف النحوى نوعان :

(أ) نوع يتضمن الجمل المقطوعة عما قبلها بوساطة حرف من أحرف العطف الآتية : أو – الواو – الفاء – ثم – حتى – أم المنقطعة – بل – لكن .

ويمكن تسميتها : أحرف القطع ؛ لأنها تقطع الجملة عما قبلها ؛ بمعنى أنها يستأنف بها كلام جديد ، وإن كانت فى الأصل للعطف .

وهذا المعنى قريب من المعنى الذى قصده أبو جعفر النحاس من كتابه : « القطع والائتناف » فهو يقصد بالقطع : الوقف . وبالائتناف : الابتداء . وذلك لأن أحرف القطع تقطع الكلام عما قبله صناعيا (نحويا) فهى تقوم مقام (السكت) فى الوقف الاختيارى ، الذى سماه أبو جعفر القطع . فالواو – مثلا – فى حالة الكتابة تقوم مقام السكت فى حالة النطق . وقد تعرضنا لهذا الموضوع فى مكان آخر(1).

(ب) ونوع يحتاج إلى فهم وإدراك وتعمق ؛ سواء تضمن حرف عطف أو لم يتضمن .

وقد أشار إليه ابن هشام بقوله (٢ / ٣٨٣) :

«من الاستئناف ما قد يخفى» وله أمثلة كثيرة ».

٢ – أن للاستئناف دورا كبيرا فى تخريج بعض القراءات القرآنية مثل قراءة :

« يسبَّح له فيها بالغدو والآصال رجال »

ومثل قراءة : « لا تخفْ دركا ولا تخشى »

وفى تخريج بعض الضرورات الشعرية . كما سبق .

بل قد تخرج عليه بعض اللهجات ، مثل لهجة « أكلونى البراغيث » التى جاء عليها قوله تعالى (٢١ / ٣) :

« وأسرّوا النجوى الذين ظلموا » فيعرب « الذين » على الاستئناف كما ذكر الفراء (٢ / ١٩٨) .

٣ – أن للاستئناف دورا فى تقنين بعض القواعد الخاصة بالجملة : مثل قاعدة « عدم الفصل بين الموصوف وصفته بـ إلاّ » . وأن « إلا » ومابعدها تعد فى حكم الجملة المستأنفة . كما بينا . وكذا قواعد النعت المقطوع .

٤ – أن الاستئناف قد يقتضى تقدير ضمير يعرب مبتدأ فى بعض الجمل ؛ كما قد يقتضى توليد أو إنتاج بعض الجمل النحوية ؛ وقد وضحنا ذلك فى الأمثلة التى ذكرها سيبويه وغيره .

٥ – وقد يكون الاستئناف النحوى جملتى قول : إحداهما سؤال مقدر ، والثانية جواب هذا السؤال . وهذا مايعرف عند البيانيين بالاستئناف البيانى .

---

(١) ينظر : .

(أ) الفواصل الصوتية فى الكلام وأثرها على المواقع النحوية : المجلة العربية للعلوم الإنسانية – الكويت العدد ٢٤ .

(ب) الدلالات النحوية للحروف المصاحبة لبعض التراكيب : مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة – العدد ٦٤ .

المراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – الأمير (الشيخ محمد الأمير) .

حاشية الأمير على مغني اللبيب لابن هشام – القاهرة د . ت

٣ – البغدادي (عبد القادر بن عمر) :

خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٧ .

٤ – الرضي (محمد بن الحسن ، ت : ٦٨٦ هـ) :

شرح الكافية – حيدر آباد ، د . ت

٥ – ابن السراج (أبو بكر بن السراج ، ت : ٣١٦ هـ) :

(أ) الأصول في النحو ، تحقيق عبد الحسين الفتلي – بغداد ١٩٧٣ .

(ب) الموجز في النحو ، تحقيق مصطفى الشويمي ، وبن سالم دامرجي – بيروت ١٩٦٥ .

٦ – سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر . ت : ١٨٠ هـ) :

كتاب سيبويه ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٦ .

٧ – السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ، ت : ٩١١ هـ) :

همع الهوامع ، تحقيق وشرح عبد العال سالم مكرم – الكويت ١٩٧٩ .

٨ – الفراء (أبو زكريا يحيى ، ت : ٢٠٧ هـ) :

معاني القرآن ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار – القاهرة ١٩٥٥ .

٩ – قباوة (فخر الدين) :

إعراب الجمل وأشباه الجمل – دمشق ١٩٧٢ .

١٠ – المرادي (الحسن بن قاسم ، ت : ٧٤٩ هـ) :

الجنى الداني في حروف المعاني ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ، دمشق ١٩٧٣

١١ – ابن هشام (جمال الدين بن يوسف . ت : ٧٦١ هـ) :

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – القاهرة ، د . ت

١٢ – ياقوت (محمود سليمان) :

قضايا التقدير النحوي بين القدماء والمحدثين – القاهرة ١٩٨٥ .

الإفادة والعلاقات البيانية

للدكتور تمام حسان

عرف ابن مالك الكلام بأنه « لفظ مفيد »، وعرفه صاحب الأجرومية ونقل عنه الجزولى فى القانون بقوله : « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » ، فأضاف قيد التركيب إلى « اللفظ » وقيد الوضع إلى « المفيد » . ولكل من هذين القيدين ما يجعله ضروريا للتعريف. فأما التقييد بلفظ « المركب » فتأتى ضرورته من أن اللفظ إذا لم يكن مركبا فهو مفرد والمعروف أن اللفظ المفرد معناه مفرد لاتستفاد منه نسبة ، وذلك شأن كل الألفاظ المفردة فى معجم اللغة ، فكل من هذه الألفاظ «كلمة » لا «كلام» . وهذا ماسنعود إليه عند تناولنا للعلاقات البيانية . وأما قيد « الوضع » فقد يفهم منه أحد أمرين :

(ا) أن يكون المقصود بالوضع نمط تركيب الجملة (أيا كان هذا النمط خبراً أو شرطا أو إنشاءً) فصورة كل تركيب من هذه التراكيب « وضع » من أوضاع الكلام وشرط من شروط تركيبه . ومن ثم لايعد من الكلام أن يقال: (عَلَى وَقَفَ الأمرِ زيدٌ جليةِ) ولكن من الكلام أن يقال: « وقف زيد على جلية الأمر » ، لمطابقة ذلك لأحد أوضاع الكلام (وضع الجملة الخبرية) .

وليس من الكلام أيضا أن يقال (الحمد لله الذى أبلغ محمد عقيدة الإسلام للناس) وذلك لعدم وجود الرابط من ضمير ونحوه . ولكن من الكلام أن يقال: « الحمد لله الذى أبلغ محمد عقيدة الإسلام له إلى الناس » . ومنه على رغم اللبس أن يقال : « الحمد لله الذى أبلغ محمد شريعته إلى الناس » إذ تفتقر إعادة الضمير إلى قرينة ، فإذا قامت القرينة صح الكلام وأفاد.

(ب) أن يكون المقصود يفيد « الوضع » اشتمال الجملة على كلمات عربية الأصل الوضع ، فينصرف القيد إلى المفردات التى فى الجملة لا إلى نمط التركيب . فإذا كان الأمر كذلك فليس من الكلام (على رغم صحة النمط) أن يقال :

« حنكف الحعبور بقعاصة الكلابيص الفيفانة » .

لأن « مفردات الجملة » ليست كلمات عربية الوضع ، أما نمط التركيب فطابق لشروط الصناعة إلى درجة يمكن معها إعرابه .

ويدخل تحت هذا القيد أيضا أن تتسم العلاقة بين ألفاظ الجملة ، بالمناسبة المعجمية ، ولذلك لايعد من الكلام أن يقال .

« غضب الهواء على ضمير القمر »

لأن الهواء لاوجدان له ، ولأن القمر لاضمير له ، ولانقطاع الصلة بين الهواء والقمر . فكل ذلك يجعل العلاقة بين ألفاظ الجملة علاقة « المفارقة المعجمية » ولا يجعلها « مناسبة معجمية » وذلك يعود بنا إلى مخالفة أصل الوضع الاستعمالى للمفردات .

وقد يتحقق الوضع بالمعنيين السابقين فى كلام لاوجود فيه للعلامات الإعرابية كما فى المثال التالى (الذى نعتذر عنه للآية القرآنية الكريمة) :

(أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى أقصى المدى لأحتنكنه) .

وقد يختلف النمط التركيبى للجملة من حيث الالتزام ، أو عدم الالتزام بشروط الافتقار والاختصاص والرتبة الخ فيسمى ذلك اختلافا فى « السبك » مع وصف السبك بالقوة حينا وبالضعف حينا آخر فيرتبط ذلك بالإفادة طرداً وعكساً . بهذا نفهم لماذا كان قول الشاعر يتسم بضعف السبك حين قال :

وما مثله فى الناس إلا مملك
أبو أمه حى أبوه يقاربه

وقد جاء ضعف السبك هنا للأسباب التالية :

١ – الفصل بأجنبى بين المبتدأ (أبو أمه) والخبر (أبوه) على عكس مطالب التضام (بالوصل) .

٢ – الفصل بين الموصوف (حى) وصفته الجملة (يقاربه) على عكس مطالب التضام أيضا .

٣ – تأخير المستثنى منه (حى) على المستثنى (مملك) على عكس مطالب الرتبة .

لكل هذا ضعف السبك وتعثرت الإفادة فاحتاج فهم البيت إلى إمعان التأمل .

بعد هذه المقدمة التى أرجو أن يكون مفهوم الإفادة قد اتضح بها أود أن أعرض تخطيطا يكشف عن ارتباط الإفادة بالقرائن ويمكننا من نقد التعريفين السابقين للكلام المفيد .

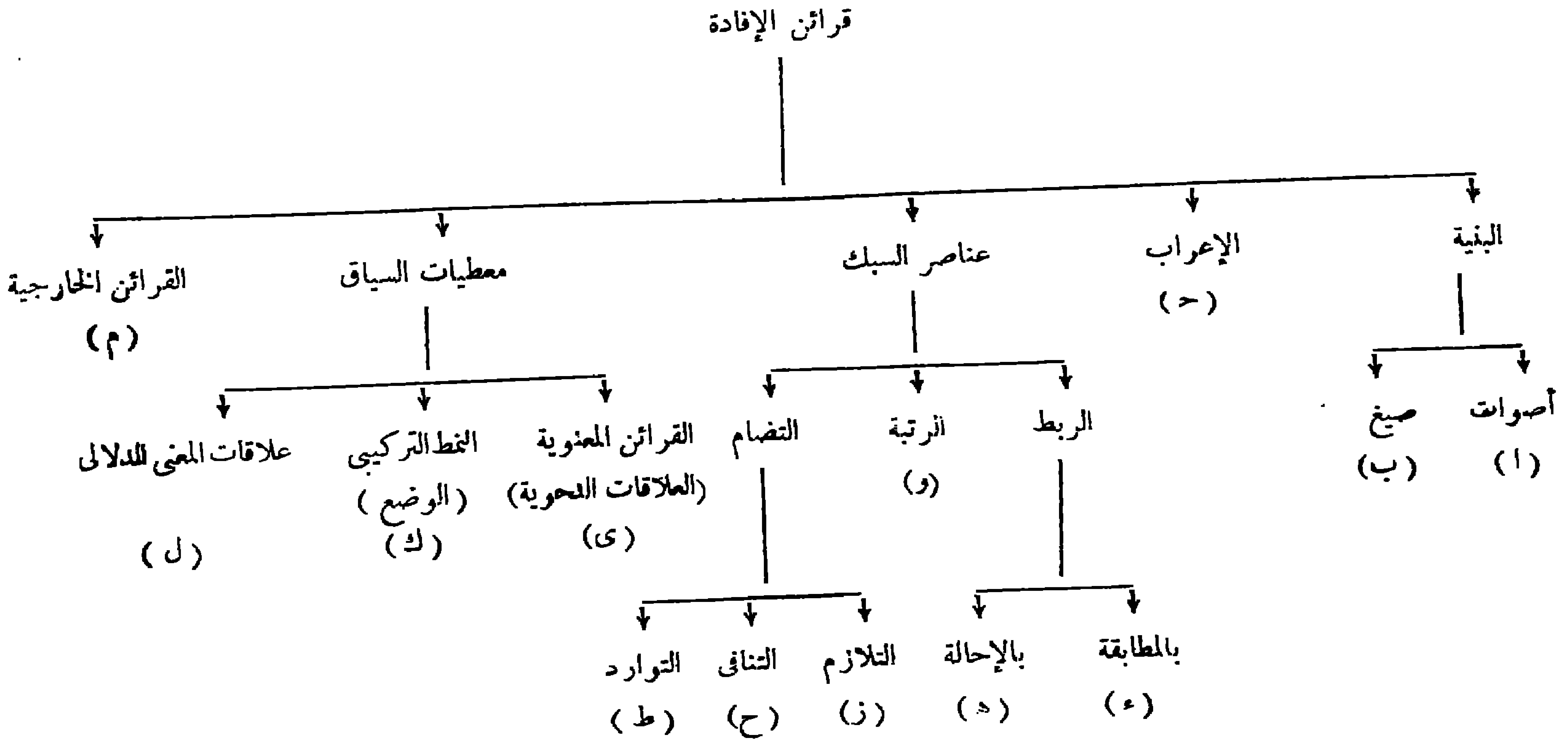
قرائن الإفادة
البنية
أصوات
(ا)
صيغ
(ب)
الإعراب
(حـ)
عناصر السبك
الربط
بالمطابقة
(ء)
بالإحالة
(هـ)
الرتبة
(و)
التضام
التلازم
(ز)
التنافى
(ح)
التوارد
(ط)
معطيات السياق
القرائن المعنوية
(العلاقات النحوية)
(ى)
النمط التركيبى
(الوضع)
(ك)
علاقات المعنى الدلالى
(ل)
القرائن الخارجية
(م)

والتضام أخطر عناصر السبك ، وهو يتفرع إلى ثلاثة أفرع هى التلازم والتنافى والتوارد . فالمقصود بالتلازم افتقار أحد العنصرين فى الكلام إلى الآخر أو اختصاصه به وإذا ذكر النحاة « المتلازمين » فالمقصود المفتقر وما افتقر إليه ، والمختص وما اختص به : وأما التنافى فيتمثل فى قول النحاة : « لا يجتمع كذا وكذا » و « لايدخل كذا على كذا » وقولهم : « إذا انتفى شرط من الشروط امتنع كذا » . وهكذا تدل أقوال النحاة على أن العنصرين المذكورين متنافيان.

أما التوارد وهو الثالث من فروع التضام فسنعود إليه بعد قليل .

يتضح مما سبق أن قيد التركيب فى تعريف الأجرمية والجزولى يتناول البنية والإعراب وعناصر السبك وفروعها ، وأن قيد الوضع يرمى إما إلى أصل وضع الكلمة أو إلى نمط تركيب الجملة وإما إلى كليهما .

ولكنه يقصر دون شمول أمور أخرى مما يتعلق بالتوارد ومعطيات السياق ، كالعلاقات المعنوية من الإسناد إلى التعدية إلى الغائية إلى الظرفية والملابسة..الخ . وكمعطيات السياق وعلاقاته المنطقية وإشارة بعض أجزائه إلى بعضه كما فى قول الشاعر .

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك

وإنْ مالك كانت كرام المعادن

إذ يمتنع فى (إنْ) أن تكون نافية لئلا يقع البيت فى التناقض ، ولاشرطية لئلا يقع فى تحصيل الحاصل إذ لايقال : زيد كريم وإن كان جواداً ، فلم يبق إلا أن تكون (إنْ) مخففة من الثقيلة ويستقيم المعنى .

وهذه المعطيات نفسها تمنع أن يكون قوله تعالى: «وما أعجلك عن قومك ياموسى» تعجبا وتؤكد أنه من قبيل الأستفهام لورود الجواب بعد ذلك ، وتمنع أيضا عطف الملائكة على الضمير فى قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة » وتحتم عطف الملائكة على لفظ الجلالة لقوله بعد ذلك مباشرة : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فعلى الرغم من ضرورة ذلك للإفادة لم تشتمل قيود الجزولى على مايتصل بذلك .

أما القرائن الخارجية فليست من اللغة وإن أعانت على الإفادة أو توقفت الإفادة عليها أحيانا . وتأتى أهميتها من ارتباطها بالموقف الذى حدث فيه التكلم سواء أكان هذا الإرتباط تاريخيا أم جغرافيا أم اجتماعيا الخ وقديما رد على بن أبى طالب كرم الله وجهه قول الخوارج : « لاحكم إلا لله » بإرجاع العبارة إلى قرائنها الخارجية المتمثلة فى الصراع العسكرى والفكرى ورغبة كل من المتصارعين فى إحراز النصر على خصمه . ففصل على بين ما اشتملت عليه

هذه العبارة من معنى حرفي مطلق ومعنى مقامي مقيد بظرف الصراع . فأما من حيث معناها الحرفي فهي في رأيه ورأي خصومه «كلمة حق» وأما معناها المقامي فقد «أريد بها باطل» ولقد صاغ على عبارته هذه في ضوء ما عنّ له من قرائن خارجية . وهكذا اختلفت «إفادة» القول عن «إفادة» القرائن الخارجية .

ندخل بعد ذلك إلى الرابطة بين الإفادة والعلاقات البيانية ونمهد لذلك بالتخطيط التالي :

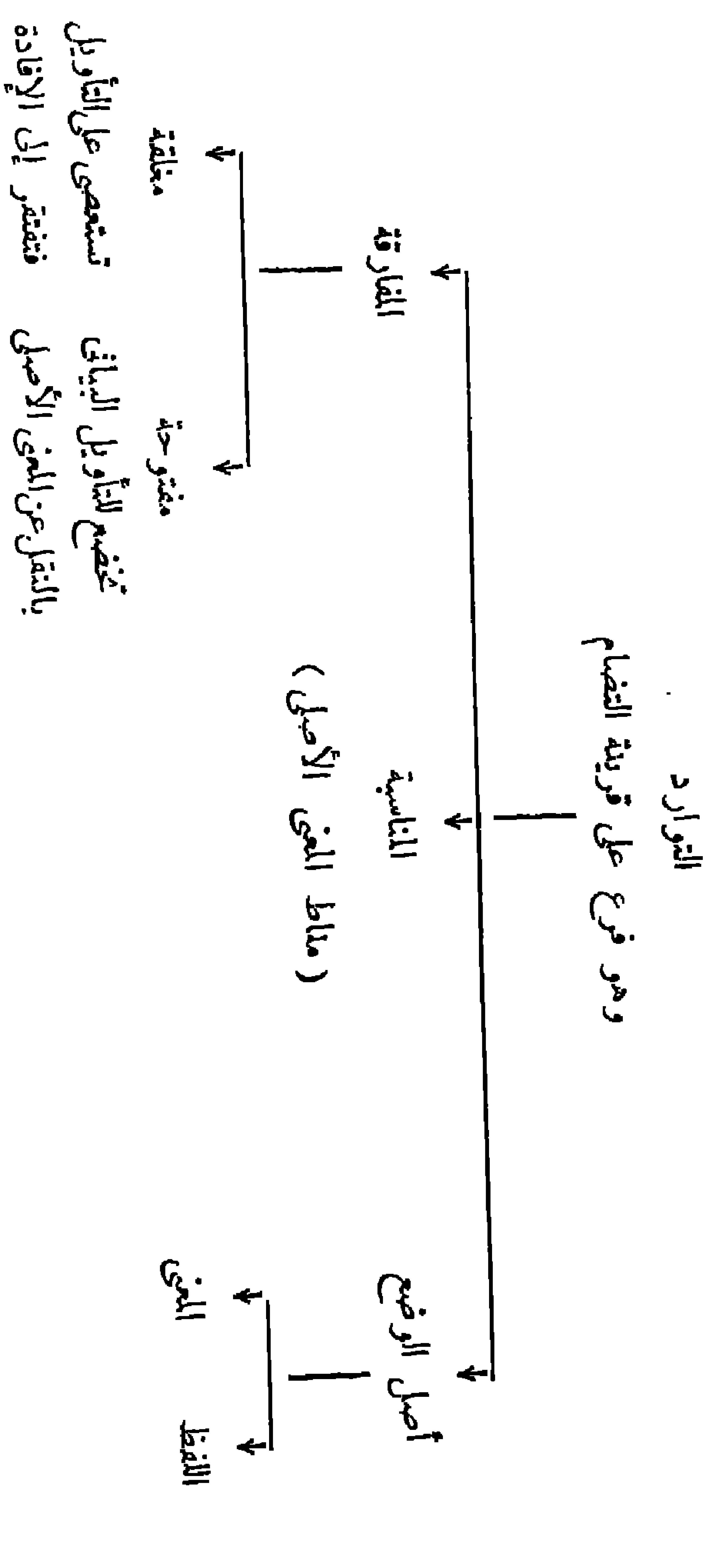

نصل عند هذه النقطة إلى ما أرجأناه سابقا من القول فى التوارد الذى هو فرع على قرينة التضام . ولقد رأينا من قبل أن التركيب لا يمكن وصفه بأنه « عربى » إلا إذا تحقق فى مفرداته أن تكون عربية بأصل الوضع وتحقق نمطه التركيبى أن يكون ذا سبك مقبول موافق لشروط الصياغة النحوية . ومن الواضح أن النمط ينتمى إلى النحو ولكن أصل الوضع ينتمى إلى المعجم . والكلمات المعجمية طائفتان عظيمتان أولاهما طائفة الكلمات التركيبية التى لا تخضع لأصل اشتقاق ولا لصيغة صرفية وتدل على معان وظيفية عامة (وهى الحروف والضمائر ونحوها) ولا يتضح مدلولها إلا فى السياق فهى غير صالحة الإفراد . والطائفة الثانية هى طائفة الكلمات المعجمية ذوات الأصل الاشتقاقى والصيغة الصرفية وهى تصلح للإفراد فتدل عند الإفراد على معنى مفرد (وهى الأسماء والأوصاف والأفعال) . وهذه الطائفة الأخيرة هى التى تنسب فى هذا المقال إلى « أصل الوضع » وإلى « المعنى الأصلى » أى الذى لها بأصل الوضع . ولكن هذه الكلمات قد يكون لها معانى أخرى ليست بأصل الوضع جاءت بطريق التوسع . قارن :

التركيب	الكلمة المقصودة	معناها
ضرب زيد عمرا	ضرب	صفع
ضرب الله مثلا	ضرب	ذكر
ضرب لضيفه خيمة	ضرب	أقام
ضرب له موعداً	ضرب	حدد
ضرب فى الأرض	ضرب	سعى
ضرب ٥×٦	ضرب	حسب
ضرب أخماسا فى أسداس	ضرب	ارتبك
ضرب النقود	ضرب	سك
ضرب عليهم ضريبة	ضرب	فرض
هذا ضَرْب من التخمين	ضَرْب	نوع

وليس معنى ذلك أن الضرب مشترك لفظى ؛ لأن هناك فارقا بين تعدد المعنى المعجمى كما وضحته الأمثلة السابقة وبين الأشتراك اللفظى . ويتضح هذا الفارق عند إفراد اللفظ . فإن نسبت إلى اللفظ المفرد معنى أصليا واحدا ونسبت غير هذا المعنى إلى تقلبات السياق فجملة المعانى فى تلك الحال من قبيل تعدد المعنى المعجمى : أما إذا تبادر إلى ذهنك عند إفراد اللفظ معنيان أو أكثر فى وقت معاً فذلك مشترك لفظى نشأ الاشتراك فيه إما عن طول العهد بمجاز ما بحيث أصبح اللفظ لاصقا بهذا المعنى المجازى لصوقه بمعناه الأصلى ، وإما من أختلاف معانى اللفظ الواحد بأختلاف القبائل ، فحين قيده علماء الرحلة إلى البادية أثبتوا له كل المعانى المختلفة دون تمييز أو تخصيص بقبيلة ما ، وهكذا عرف المتأخرون اللفظ وله أكثر من معنى وقدوه مشتركا تبعا لما رآه علماء الرحلة .

والنقطة الثانية التى تستدعى النظر هى نوع العلاقة بين الكلمة المفردة وما ينسب إليها من معنى (وهذا هو المقصود بالعلاقات البيانية التى فى عنوان هذا المقال) . ولقد أشتغل علماء العلامات أو السمات أو كما يسمونها : «السيميولوجيا» بهذه العلاقة بين اللفظ وما ينسب إليه من معنى ، فكانت نظرتهم أوسع من النظرة اللغوية المحضة ، لأنهم نظروا فى السمات أو العلاقات فى جملتها أيا كانت طبيعتها (عرفية أم عقلية أم طبيعية أم صناعية) وتناولوا العلاقة بين العلامة ومعناها . ويحسن أن نشير هنا إلى أن مصطلحى العلامة والسمة من المصطلحات المستعمله فى التراث العربى. فكلنا يتكلم عن «العلامات» الإعرابية وابن مالك يستعمل «السمة» فى قوله عن نون الرفع : «وحذفها للنصب والجزم سمة» ولعل قرب الحروف أو اتحادها فى لفظى «السمة» و «السيميولوجيا» يبرر تعريب اسم هذا العلم إلى «علم السمات» و«علم الوسم» . ولقد يكون من المجدى أن نعرض تخطيطا لمجمل أنواع العلاقات هكذا:

العلاقة بين السمة والموسوم

- عرفية: كعلاقات كلمات اللغة بمدلولاتها والزى القومى والعلم والنشيد بما يدل عليه.
- عقلية: كعلاقات المعالم والبراهين والاستنباط والاستنتاج .. الخ
- طبيعية: كدرجة حرارة المريض وتأثير النغمة الموسيقية وحكاية الصوت للمعنى وأثر الإيقاع فى النفس .. الخ
- صناعية: كأضواء المرور والكاريكاتير وكتابة بريل للعميان وطرق الاتصال بالصم البكم وصور الإعلان

وهذه الأنواع جميعا توجد بين الكلمات ومعانيها فى حدود تطبيقات علم البيان كما يبدو فى التخطيط التالى :

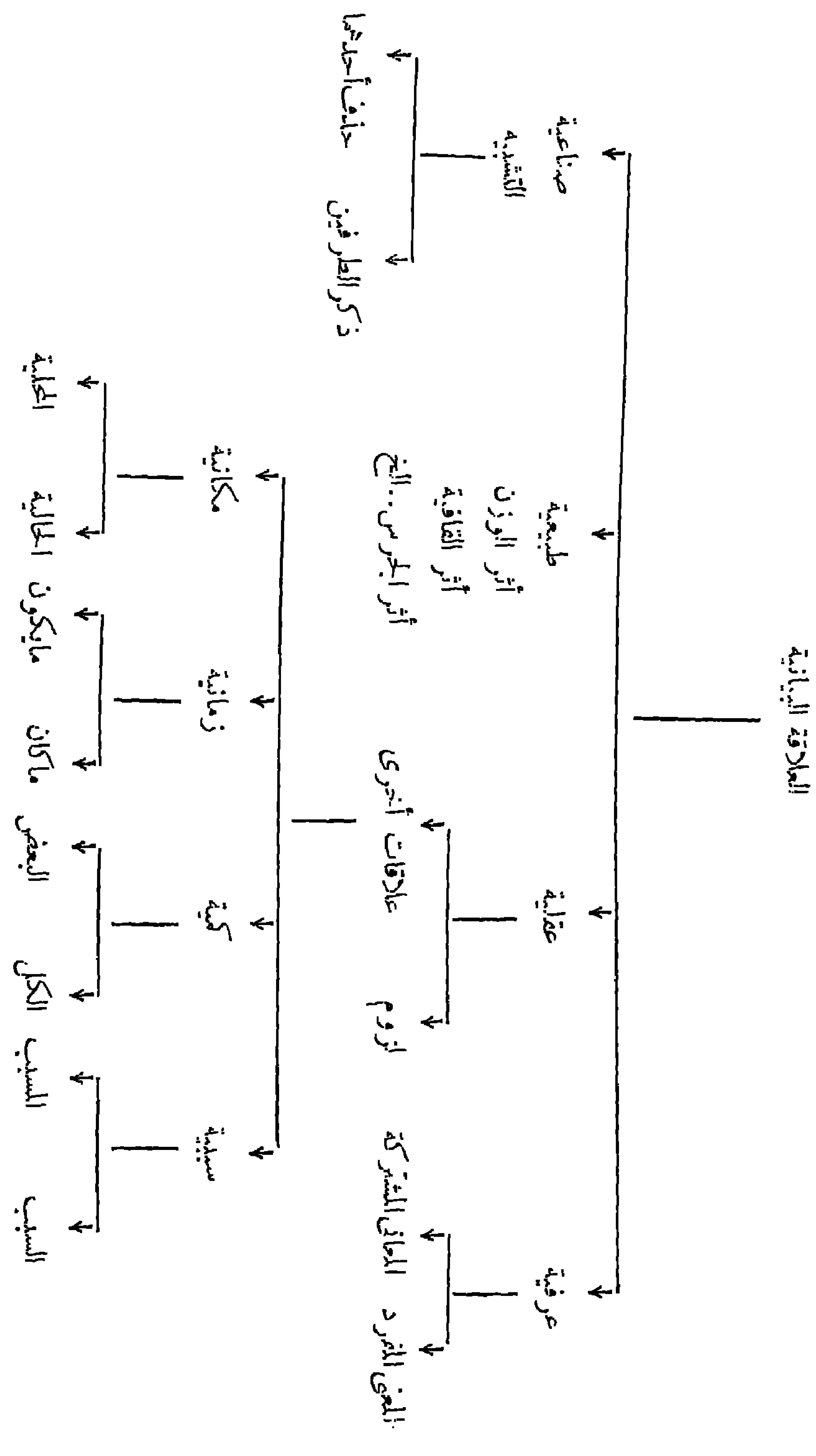

والنقطة الثالثة التى تستوجب النظر فى هذا الصدد هى مايسمى باسم « الحقول المعجمية » ؛ وقد أشرنا عند التعليق على عبارة « غضب الهواء على ضمير القمر » إلى أن كل لفظ من ألفاظ هذا التركيب قد تعلق بغير ماهو له من الألفاظ ؛ فكان ذلك إرهاصا بفكرة الحقول المعجمية .

ولقد توحى عبارة البيانيين فى وصفهم للمجاز العقلى بأنه « إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى غير من هو له » بأن المسند إليه إما أن يكون ذا علاقة من نوع معين بالفعل أو ما فى معناه ؛ أو لاتكون له بها علاقة . ومعنى ذلك أن ألفاظ المعجم تقع فى طوائف ينسجم بعضها مع بعض فى نطاق التركيب أو لاينسجم أو بعبارة أخرى هناك مايعرف باسم « الحقول المعجمية » . ومعنى أن يكون اللفظ فى حقل معجمى معين أن يتطلب مع الألفاظ المشاركة له فى الحقل نفسه شروطا خاصة فيما يرد معه فى التركيب من الألفاظ . فقد يتطلب الفعل فى فاعله أو مفعوله شروطا خاصة من حيث المعنى كما يتطلب ذلك كل مبتدأ فيما يخبر به عنه . فإذا تحققت هذه الشروط كان الإسناد إلى من هو له أما إذا لم تتحقق فالإسناد عندئذ إلى غير من هو له . فالفعل « فهم » مثلا يتطلب فاعلا يصح منه الفهم ومفعولا صالحا لأن يستوعبه الفهم كما فى (فهم التلميذ الدرس) . فإذا قلنا (فهم الحجر) أو (فهمت الريح) أو (فهم السحاب) فقد أسندنا الفعل إلى غير من هو له . والعلاقة بين ألفاظ التركيب الأول (فهم التلميذ الدرس) علاقة « مناسبة معجمية » ؛ أما فى الأمثلة الأخرى فالعلاقة « مفارقة معجمية » .

إذا رجعنا إلى ماسبق من تخطيط فكرة التوارد والتفريع عليها ألفينا المفارقة المعجمية تتفرع إلى فرعين سمينا أحدهما « المفارقة المفتوحة » وسمينا الآخر « المفارقة المغلقة » .

ويلزمنا الآن أن نفرق بين نوعى المفارقة لنكشف عن صلة كل منهما بموضوع هذا المقال (الإفادة والعلاقات البيانية) .

لقد سبق أن أشرنا عند الكلام عن العلاقات البيانية إلى أن العلاقة بين اللفظ ومعناه الأصلى (المعجمى) علاقة عرفية . فإذا سمع المرء لفظ « كتاب » أدرك فور سماعه ما اتفق الناس على قصده بهذا اللفظ . وكذلك الأمر بالنسبة لألفاظ أخرى مثل : بيت — رجل — امرأة — أب — أم — أخ — أخت الخ ، فلا خلاف بين الناس على فهم المقصود بكل من هذه الألفاظ . ولكن هذا المعنى المعجمى صالح أن يتعدد بسبب التوسع فى استعماله . فلا يمكن تحديد معناه عند تعدده إلا بواسطة التركيب الذى هو فيه ، أى بواسطة معطيات السياق ، أو كما أحب أن أسميها : « قرينة السياق » .

ولقد بدا هذا واضحا عندما عددنا معانى الفعل « ضرب » فى تراكيب مختلفة : واستنبطنا معناه فى كل حالة من قرينة سياق الكلام . وهكذا يصبح السياق عونا على الإفادة .

وهذه العلاقة العرفية تنعدم عند المفارقة المعجمية مغلقة كانت هذه المفارقة أم مفتوحة. فأما المفارقة المغلقة فتدخل فيما أطلق عليه سيبويه مصطلح « الإحالة » : وكذلك فيما يسميه تشومسكى فى أيامنا هذه : non-grammaticality . وذلك لعدم انسجام بعض ألفاظ التركيب مع البعض الآخر ، كالذى نراه فى عبارة : (سأزورك بالأمس) أو (فخر عليهم السقف من تحتهم).

وبهذا النوع من المفارقة تنتفى الإفادة تماما : من حيث لانستطيع إجراء أى مصالحة بين ألفاظ التركيب بأى نوع من أنواع التأويل.

نصل عند هذه النقطة إلى ما أطلقنا عليه : المفارقة المعجمية المفتوحة ، لنرى كيف تتحقق الإفادة على رغم المفارقة بين ألفاظ التركيب . وإذا كانت المناسبة المعجمية تفترض التقاء المعنى الأصلى ذى العلاقة العرفية بمعنى لفظ آخر ، فإن هذا الالتقاء يمكن التعبير عنه بأن أحد اللفظين قد أسند إلى من هو له . فإذا قلنا : قرأ زيد الصحيفة ، فلا أعتراض على وقوع القراءة من زيد ولا على وقوعها على ما اشتملت عليه الصحيفة ؛ لأن من شأن زيد أن يتعلم القراءة فيحذقها . ومن شأن الصحيفة أن تشتمل على نص يقرأ. وهكذا تتحقق المناسبة المعجمية بين الألفاظ الثلاثة التى تكونت منها الجملة . فما الذى يحدث لو أردنا أن نحول هذه الجملة إلى صورة أخرى مثل : قرأ زيد أفكار عمرو ، ثم قصدنا بالأفكار مايدور فى خلد عمرو من تأمل وتدبير ؟ من الواضح عندئذ أن أفكار عمرو ليست مكتوبة فتقرأ : وإذا كان الأمر كذلك فإن بين لفظى « القراءة » و « الأفكار » مفارقة معجمية مفتوحة تستدعى التأويل . وإنما استدعت التأويل لأننا لم نجد فيها مايدعو إلى المسارعة بالرفض بتهمة الإحالة كما فعلنا بتركيب : غضب الهواء على ضمير القمر . أما كيف يتم التأويل فى هذه الحالة بالذات فذلك بأن نستبدل بالعلاقة العرفية بين « قرأ » ومعناها الذى يفهم منها على مستوى المعجم علاقة أخرى صناعية فردية غير عرفية ينشئها المتكلم ولايفهمها السامع إلا بقرينة ترصد للدلالة على إرادتها دون غيرها . تلك هى مانعرفه باسم علاقة المشابهة . ويمكن إيضاح ذلك على النحو التالى :

شبه المتكلم مطلق التبين بالقراءة التى هى تبين من نوع خاص ، ثم حذف المشبه (مطلق التبين) وأقام المشبه به مقامه . ثم اشتق من القراءة « قرأ » بمعنى « تبين » على طريقة الاستعارة التبعية وقرينة إرادة المجاز مايترتب على إرادة الحقيقة من مفارقة بين لفظى « قرأ » و « الأفكار » .

ولكن العلاقة البديلة ليست صناعية دائما . بل إنها تكون عقلية في بعض الأحوال كما في الكناية والمجاز المرسل . هذه العلاقة العقلية يدركها العقل بحكم تكوينه ، لأنها من قبيل البديهيات . فإذا قلنا : « فلان كثير الرماد » كان على الذهن أن يجيب على سؤال ضمني وارد هو : لم كثر الرماد ؟ عندئذ يكون الجواب : لكثرة الإحراق . فيرد على الذهن سؤال آخر : ولم كثر الإحراق ؟ والجواب أنه كثر ضرورة كثرة الطبخ . فينتقل الذهن إلى سؤال غيره : ولم كثر الطبخ ؟ والجواب : لكثرة الآكلين . وأخيرا يرد سؤال يقول : ولم كثر الآكلون ؟ والجواب : لأن فلانا وسعهم بكرمه ، فهو كريم . فإذا عبرنا عن علاقة اللزوم برموز السهام هكذا (←) حصلنا على الصورة الآتية :

كثرة الرماد ← كثرة الإحراق ← كثرة الطبخ ← كثرة الآكلين ← الكرم

ولكن المرء يفضل دائما أن يضع المسألة في صورة معادلة طرفها الأول كل حالات اللزوم بالتفصيل السابق وطرفها الثاني (أي بعد علامة=) هو : كثير الرماد ← كريم . وهكذا تختصر معادلة اللزوم فيقال : «كثير الرماد أي كريم » . على أن ذلك إنما هو أقوى الاحتمالين في الكناية . أما الاحتمال الآخر فهو إرادة المعنى الأصلي (القريب) فيتحول المعنى إلى نطاق الحقيقة ويخرج من مجال الكناية ، وإدراك علاقة اللزوم لايفتقر إلى قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي وسبب ذلك أن علاقة اللزوم عقلية والعلاقات العقلية مستغنية بنفسها عن القرائن . وإذا كان تحقق الإفادة هنا بالعقل (لا بالوضع) فقد حق لنا أن نعترض على إطلاق قول الجزولي : « المفيد بالوضع ».

وكذلك الحال بالنسبة إلى علاقات المجاز المرسل . فهي إما غائية (سببية أو مسببية) وإما كمية (كلية أو بعضية) وإما زمانية (ماكان أو مايكون) وإما مكانية (حالية أو محلية) . ومعنى أن هذه العلاقات عقلية أنها يمكن ردها إلى المقولات العشر المنطقية التي هي جزء من تركيب العقل . فالغائية يمكن ردها إلى مقولة « الإضافة » والكمية إلى مقولة (الكم) والزمانية إلى مقولة (الزمان) والمكانية إلى مقولة (المكان) . وهنا أيضا نعترض على عبارة : « المفيد بالوضع » .

ومع أن العلاقات العقلية تدرك دون حاجة إلى قرينة صارفة عن إرادة العلاقة العرفية (وقد مضت الإشارة إلى ذلك عند الكلام عن علاقة اللزوم ؛ نجد العلاقات في المجاز المرسل مدعومة على نحو ما بواسطة « المفارقة المعجمية المفتوحة » كما لو كانت هذه العلاقة صناعية . فإذا قلنا مثلا : « بنى الأمير المدينة » فليس من المقبول أن يشمر الأمير عن ساعديه في بناء المدينة (وهذه هي المفارقة بين « بنى » و « الأمير ») ولكن المتبادر إلى الذهن أن

يأمر الأمير عماله ببنائها (وهذه هي العلاقة العقلية أو علاقة السببية) . وإذا قلنا للسدن التي تعتمد على تحلية ماء البحر : « إن الناس شربوا ماء البحر » فلا يتصور من الناس أنهم استنفدوا ماء البحر (وتلك هي نقطة المفارقة) ولكنهم شربوا بعضه (وتلك هي العلاقة) . وإذا قلنا لطالب الطب : « يادكتور » فنحن نعلم أنه غير حامل لهذا اللقب (وتلك هي المفارقة) ولكننا نأمل أن يحصل على اللقب في المستقبل (وتلك هي العلاقة) . وإذا قلناه إن القصر العيني يقدم العلاج بالمجان » فالقصر بناء من أحجار لا يقدم علاجاً (وهذه هي المفارقة) وإنما يقدمه الأطباء الذين يتخذون من القصر مقراً لعملهم (وتلك هي العلاقة) . كل هذه المفارقات المعجمية واضحة في الذهن ترفد العلاقات العقلية وتجعلها أسرع إلى الفهم ، وإن كانت العلاقات العقلية كما سبقت الإشارة ليست بحاجة إلى قرينة .

والملاحظ الاعتراف للفظ بمعنيين أحدهما قريب والآخر بعيد إنما يكون في موضعين أحدهما الكناية والآخر التورية . فإذا قلنا : فلان مبسوط الكف فذلك كناية عن كرم فلان ؛ أما إذا أردنا بالكف « المنع » فإن العبارة تتحول إلى تورية عن البخل . والفرق بين الحالتين :

١ — أن لفظ الكف في الكناية قصد به راحة اليد لاغير . أما مع التورية فقد تحول إلى مشترك لفظي يمكن أن يراد به راحة اليد أو المنع .

٢ — أن الكناية تقوم على نسبة البسط إلى الكف (بواسطة التركيب الإضافي) وأن التورية تقوم على لفظ « الكف » فقط مع إمكان استبدال لفظ آخر بلفظ مبسوط مثل « طويل » مثلا .

٣ — أن الكناية يحكمها اللزوم العقلي فلا تحتاج إلى قرينة ولكن التورية يحكمها الاشتراك اللفظي ومن ثم تفتقر إلى القرينة .

نخرج مما تقدم بالحقائق الآتية :

أولا : أن تعريف الإفادة عند النحاة ليس جامعاً ولا مانعاً لأنه يربط الإفادة بعناصر غير عناصرها الحقيقية .

ثانياً : أن الإفادة لا تعتمد على « الوضع » فقط (أيا كان معنى الوضع) وإنما ترتبط بظواهر معجمية كالمناسبة والمفارقة لم ينتبه لها المتقدمون .

ثالثاً : أن الإفادة ذات درجات منها :

(أ) امتناعها بامتناع النمط نحو :

(على وقف الأمر زيد حلية) .

(ب) امتناعها بامتناع أصل الوضع نحو :
(حنكف الحعبور بقعاصة الكلابيص القيفانة) .

(ج) امتناعها بسبب المفارقة المغلقة نحو :
(غضب الهواء على ضمير القمر) .

(د) نقصها دون امتناع بسبب رداءة السبك
نحو:

وما مثله فى الناس إلا مملك
أبو أمـه حى أبوه يقاربه

ويقول الشاعر :

لن ما رأيت أبا يزيد مقاتلا
أدعَ القتال وأترك الهيجاء

للفصل بين (لن) و (أدع) بتركيب مصدرى ظرفى ولأن (لن ما) تسمع على صورة (لمّا) .

رابعاً : أن الإفادة يمكن أن تتم بغير المعنى الأصلى (الذى بأصل الوضع) للكلمات :

(أ) إما بواسطة علاقة عقلية لا تتطلب قرينة كما فى الكناية .

(ب) وإما بواسطة علاقة صناعية (المشابهة) تعتمد على قرينة تحل مشكلة اشتمال التركيب على مفارقة معجمية مفتوحة ، أو تحول بين التركيب وبين اللبس .

إذا أخذنا فى الحسبان كل ذلك أمكننا أن نقول مع ابن مالك : « كلامنا لفظ مفيد » أما إذا غفلنا عن هذه الأمور فإن الإفادة قد لا تتحقق فى الكلام .

والله ولى التوفيق .

تمـام حسان

عضـو المجمع

فى التركيب اللغوى

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

(١)

يجد الباحثون كثيرا من النصوص اللغوية مبثوثة في كتب التراث النحوي واللغوي والبلاغي والأصولي والفقهي وكلها تؤكد عناية العربي بالتركيب وتحليلاته واستكناه أسراره للغوص وراء أعماقه ، من ذلك ما ذكره ابن جني [1] «من أن حال الوصل أعلى رتبة من حال الوقف ، وذلك أن الكلام إنما وضع للفائدة ، والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة ، وإنما تجنى من الجمل ومدارج القول» كما أن الاسم لا يستحق الإعراب إلا إذا ركب مع غيره ، وهذا معنى قول بهاء الدين بن النحاس من أن الأعراب ، دخل الأسماء لطريان المعاني عليها عند التركيب [2] ، ويرتبط بالحالة الإعرابية معرفة مواقع المفردات في التراكيب وترتيب المفردات في الجملة العربية ترتيبا يجوِّز تقديم الكلمات وتأخيرها في المواقع المختلفة ، كما أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها كما يقول ابن الأثير [3] ، لأن التركيب أعسر وأشق ، ألا ترى أن ألفاظ القرآن الكريم - من حيث انفرادها - قد استعملتها العرب ومن بعدهم ، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه ؟ وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب ، وهذا يتفق وما قاله المحدثون من أن شخصية اللغة تكمن في تراكيبها ، وطرق وصف كلماتها في جمل ، وهذا أمر يوصف بالثبات والرسوخ [4] ، يؤكده ما جاء في

---

(١) الخصائص : ٢٣١/٢

(٢) الأشباه والنظائر ١٥٥/٢ فما بعدها . حيدر آباد ١٣١٦ / ١٣١٧ هـ .

(٣) المثل السائر : ٢١٣/١ مكتبة النهضة . القاهرة .

(٤) التركيب ومدى عناية اللغويين العرب بدراسته :اللسان العربي ١٠٨ مقال د. محمود عبد السلام شرف الدين: عام ١٩٧٦، ط.أولى .

كتابات اللغويين الأوربيين من قولهم : الإنسان ينسج جملا ، أو قولهم : إن معنى (خيط) الكلمات ليس في حدّ ذاتها. ولكن في تراكيبها في جمل [1]

ولهذا أطلق المعاصرون على التركيب مصطلح (النسج) وعلى مفرداته لفظة (خيوط) كذلك أطلق على التركيب (التصرف) و(النظم) [2] و(التأليف) و(الترتيب) و(الترصيف) و(التعليق) [3] .

ومن مظاهر التركيب: الحذف والذكر والتقديم و التأخير والقصر وأساليب التعجب والمطابقة وترتيب المواقع بين الأجزاء داخل الجملة و هو ما عرف باسم (الرتبة) وهي : مالا ينبغي مخالفتها وتسمى (الرتبة المحفوظة) أو ما يكمن مخالفتها وتسمى (الرتبة غير المحفوظة) وفيها يتمثل قواعد النظام النحوي ، وأي خروج عنه يؤدي إلى عدم الصحة نحويا .

وكما تحدث علماء العربية عن نظام الجملة : أجزائها وترتيب هذه الأجزاء ، مما رتبته التأخير ، كما أن التقديم قد يكون بالنسبة لأجزاء معينة ، كذلك تحدثوا عن (التضام) والأجزاء التي تتلازم فلا يجوز الفصل بينها ، وما يمكن أن يفصل ، كما حددوا ما يكون أساسيا من أجزاء الجملة وما يكون ثانويا يستغنى عنه ، وعن قواعد الحذف والأجزاء التي يجوز حذفها ، وتلك التي لا يجوز ، وشروط هذا الحذف [4] ، ومعنى ما سبق أن التراكيب صوّرتْ مجالا تعبيريا واسعا ، فبعضها كان في الأمر والنهي وبعضها في الخبر ، فهي قد مثلتْ الأسلوب العربي كاملا غير منقوص ، كما أن قوانينها في التركيب تعرضت للتجاوز في المباحث اللغوية والبلاغية ، فحوّل كل من ضمير المتكلم والمخاطب والغائب إلى سواه ، وعبّر بكل منها عما كان يجب أن يعبر عنه بغيره ، كما حلّ المفرد والمثنى والجمع كل محلّ

---

(١) المرجع السابق .
(٢) استعمال عبد القاهر
(٣) استعمال سيبويه . انظر : الكتاب ١/٦ فما بعدها . ط. بولاق .
وانظر مقالي (علامات الإعراب بين النظر والتطبيق) مجلة معهد اللغة بمكة المكرمة عدد : ١٤٠٣/٢هـ /١٩٨٤
(٤) مجلة معهد اللغة بمكة المكرمة عدد ١٤٠٤/٢ بحث للدكتور عبد اللحكيم راضي .

الآخر ، وخوطب كلّ بما يستحقه غيره ، كما جاء خبر المذكر وصفته مؤنثين ، وبالعكس جاء خبر المؤنث وصفته مذكرين ، وعدّ ذلك من شجاعة العربية ، كما أن التركيب يمكن أن يتجاوز بهذه الانحرافات حدود اللغة القياسية ليدخل في حدود لغة القبائل العربية ، وقد ظهر مصطلحات تشير إلى ذلك مثل مصطلح (العدول) أو (الحمل على المعنى) أو (الخروج على خلاف مقتضى الظاهر) ومعنى هذا : عدول هذه التراكيب عن (معتاد حالها) ومخالفة وجه الاستعمال المطرد فيها .

ومن الذين تناولوا الأسلوب من وجهة نظر تحويلية : ريتشارد أهمان P.ohman حيث ذهب إلى أن من الإمكانات التي يمكن أن يقدمها النحو التوليدي لدراسة الأسلوب ما ذهب إليه من تصويره لمستويين من تحقق اللغة هما : البنية التركيبية السطحية والبنية العميقة ؛ وأنه في ضوء هذا الإطار النظري يمكن القول بأن استغلال الكاتب لأنواع بعينها من التحويلات .. هذا الاستغلال يشكل أسلوبه التركيبي حيث يكون في مقدوره مع وجود عدد من القوالب التحويلية المتاحة للتعبير عن بنية عميقة ما – أن يفضّل قوالب بعينها على قوالب أخرى (١) ، وهذه التراكيب وإن بدت متباعدة سطحا ، فإنها متقاربة عمقا ، لأن هناك خيطا داخليا يربط بينها حتى إنه يمكن الحديث عن نصب وجرّ لشيء واحد ، أو عن تركيب اسمي فعلي معا (٢) ، لأن العبرة للمعنى ، وإذا تغايرت الأشكال فالبنية العميقة ثابتة مما يجعل بين السطح والعمق مودة ورحمة ونسبًا وقربى ، وذلك يحقق التلوين التركيبي والتنوع الأدائي ، وهذا يعود إلى ما بين التراكيب من غِنًى في البدائل والمواقع والمقابلات مما يسهل عملية التحول حتى يصل بك في النهاية إلى روح التركيب وعمقه .

ومن الظواهر التي تتعلق بتقوية

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الإعراب والتركيب : ص ٢٦٦ وص (ف) من المقدمة . د. محمود شرف الدين ، ط. أولى

التركيب وهي من داخل التركيب : «التعريف» ويكون بالعلمية أو الموصول أو الإشارة أو الإضافة . «والتنكير» وقد يكون للتعظيم أو التكثير.

و«التكرير» سواء أكان تكريراً للفظ أم كان تكريرا للمعنى ، ويدخل في تكرير الجملة ما يستفاد من أسلوب القصر ؛ لأن المنفي فيه يتضمن إثبات مقابله . كما أن المثبت فيه يتضمن نفي مقابله ، فقول العباس بن الأحنف :

أنا لم أرزق مودتكم

إنما للعبد ما رزقا

قوله : إنما للعبد ما رزقا جملة واحدة تفيد معنى جملتين : الأولى مثبتة «للعبد ما رزقا» والأخرى منفية «ليس للعبد مالم يرزقه» .

«والزيادة»(١) وتشمل : إضافة المؤكدات إلى الجمل والاعتراض والإيغال ، والتتميم .

«والعدول عن الأصل» كوضع الإنشاء موضع الخبر ، ومن أغراضه إظهار العناية بالشيء كقوله تعالى : (قل أمر ربّي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد» الأعراف ١٩ ، لم يقل : وإقامة وجوهكم ، إشعارا بالعناية بأمر الصلاة لعظم شأنها .

«والصمت» ويعدّ زمن الصمت جزءا من صوت اللحن ، ولا يقلّ أهمية عن غيره في التركيب تعبيرا أو تأثيرا .

ففي قول الحق : «كلاّ إذا بلغت التّراقيَ وقيل مَنْ(٢). راق «فالقرآن يصور مشهد الاحتضار ، وحين تبلغ الروح

---

(١) وقد تكون الزيادة أو الإضافة – جزءا من الوزن أو اللحن الموسيقي وتلعب دورا في الأداء معنى ومبنىً لا يقل عن دور الكلمات ، وفي قصة يوسف آية ٩٦ : «فلما أنْ جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيرا» فـ (أن) ضرورية وهي جزء من التركيب وأداة في التصوير إلى جانب الإيقاع الذي يصور نوعا من القلق الذي يعيشه الأب ،. كما أن وجودها يمنح العبارة امتداداً في الزمان والمكان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه إلى أبيه، ولو قرأنا التركيب من غير (أن) لأحسسنا نوعا من الكسر واضطرابا في النغم وتلاشي في الإيقاع المتوازن بين المدات الثلاث المتعاقبة وهي (لما ، جاء ، ألقاه) فهي جزء لا ينفصل عن التركيب وسلامة أدائه ، وذلك على الرغم من قول النحاة . بأنها زائدة (انظر : مجلة التراث العربي عدد: إبريل – يوليو ١٩٨٤ قواعد تشكل النغم د، نعيم اليافي).

(٢) القيامة ٢٦ و ٢٧ .

التـراقي يكون النزع الأخـيـر ، عندها يشعر الإنسان بالغصّة ، والغصة عقبة أمام الصـوت ، وقفة وسكتة .، فكان لابد من لحظة صمت ، واللحن يعزف والنغمة تنساب ، فالصمت لحاجة معنوية وحاجة إيقاعية في التركيب ، سكتة في المشهد واللحن تعبر عن الحقيقة والواقع (١) .

ومن المؤسف حـقـا أن البـاحث لا يملك نصوصا للهجات العربية القديمة على مستوى التركيب ، لأن الزمن قد ضنّ بها ، وضاعت في غيابات التاريخ ، ودراستنا لها - والتي أقوم بها الآن - هي من خـلال النصـوص في اللغـة الفصحى ، ولا أستطيع أن أضع يدي على الأسـاليب نفسـهـا التي كـان يصطنعها هؤلاء في لهجاتهم اليومية ؛ لأن مـا وصلنا منهـا مـا هو إلا مـجـرد ألفاظ وكلمات - يصفها اللغويون بأنها لهجة لتميم أو لقيس أو الحجاز ... ولم يحـتـفظ لنا الرواة بوصف دقـيق لهـذه اللهـجـات ، وإنما الأمـر لا يزيد عن نتف قليلة نلتـمسـهـا هنا وهناك في كـتـبـهم ومـصـادرهم لا تهدي البـاحث ولا تروي غلته (٢) - ولهذا كله كانت دراساتنا لها مبنية على التخمين والاستنتاج ولكننا قـوّينا هذا التـخـمين في دراسـة هذه اللهجات - بدراسة الفصحى النموذجية، فإنها كانت معوانا طالما أنار الطريق في شكوك البحث ومشكلاته ، وقد لمحنا فيها انعكاسـا للغـات العـرب إذ ذاك ، وهذه اللمحات اللهجية قليلة فيها ، لأن لغتها هي الفصحى النموذجية ، تلك التي طغت على جميع اللهجات ، وأصبحت مثلا أعلى للاحـتـذاء بهـا ، ومع كل هذا لا يستطيع الباحث أن يعيد بناء أسلوب كامل للهجة من اللهجات القديمة على مـسـتـوى التـركـيب ، ومـا وصلنا من أساليبها - على ضـحـالتـهـا - لم يأت بأسلوب العربي الشعبي ، وإنما صيغ وركّب على أيدي النحاة العرب من مـثـل

---

(١) مجلة التراث العربي " السابق .

(٢) ولهذا يرى ركندورف Ruckendorf في مقدمة كتابه عن العلاقات النحوية في اللغة العربية الفصحى - أن دراسة هذا الجانب من المهام الملحة التي ينبغي أن ينهض به النحاة واللغويون المعاصرون . الفصحى ولهجاتها ص ١٧٧ ، د. البركاوي

قولهم «أما علما فعالم» أو «أمّا علم «فعالم» على لسان الحجاز وتميم ، فعربية لهجات القبائل لم تصلنا كما يتكلمها أهلها ، بل وصلتنا وهي في طريق تلاشيها تتعاقب عليها الصيغ والتراكيب والأساليب بسرعة لكي تنصهر في الفصحى .

وكم كنت أحبّ أن تكون هذه التراكيب منطوقة أو مسجلة - لا مكتوبة - لأن الكتابة ضيعت سمات هذه اللهجات وأخفت الكثير من نتوآتها ، ولو تيسر ذلك لخاض البحث في أمور كان لابد من دراستها و الكشف عنها وذلك مثل : القواعد العامة التي تشكل النظام الأساسي للتراكيب عند القبائل ، كتركيب الجملة الاسمية والفعلية والمضاف والمضاف إليه .. ونسبة التراكيب المعبرة عن الحدث بالتراكيب المعبرة عن الصفات ، واختلاف التركيب عند الصبيان والشباب والشيوخ والنساء، واختلافه كذلك في اللغة المنطوقة عنه في اللغة المكتوبة ، كما تكشف التراكيب عن الكثير من المميزات المزاجية لأصحابها سواء أكانوا بدوا أم حضرا ، حتى يمكن من خلال التركيب أن نحدد الشخصية . وصدق أحد النقاد حين قال « **إن الأسلوب هو الرجل نفسه** » .

كما أن أكثر نصوص التراكيب اللغوية التي جاءتنا عن القبائل وردت بعيدة عن صلتها بالمتكلمين والسامعين ، وذلك فقدت دلالتها بفقدان النص الحيّ ، وخطر وجود هذه الأشكال التركيبية منعزلة عن السياق أدى إلى تفسيرات متعسفة ، من ذلك قولهم :

١ - ما أغفله عنك ! شيئا .

قالوا إنه مثل يضرب للشديد الغفلة(١)، إذ المعنى : انظر . أو تفكر شيئا ، لكنه حذف للكثرة ، وقال السيرافي على سيبويه (٢) : ما فسّره مَنْ مضَى إلى أن مات المبرد ، وفسره الزجاج فقال : معناه على كلام قد تقدم

(١) المستقصى في أمثال العرب ٢/٣١٣ للزمخشري ، ط. حيد رآباد ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م .
(٢) ٢/١٢٩ تحقيق : هارون .

كأن قائلا قال : زيد ليس بغافل عني ، فقال المجيب: بل ما أغفله عنك ! وأراد أن يبعثه على أن يعرف صحة كلامه ، فقال : انظر شيئا - فإنك تعرف ما أقول لك ، كما تقول : انظر قليلا وتفكر شيئا أي : تفكر قليلا (١) .

وفي اللسان (٢) : وقال بكر المازني : سألت أبا زيد والأصمعي وأبا مالك والأخفش عن هذا الحرف فقالوا جميعا : ما ندري ما هو ، وقال الأخفش : أنا منذ خلقت أسأل عن هذا (٣) .

٢ - وفي جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٤) يقول في شرح «بعينٍ ما أرينَّكَ» إن معناه : أعجل ، وهو من الكلام الذي قد عرف معناه سماعا من غير أن يدل عليه لفظه ، وهذا يؤكد أن لغة العرب لم ترد علينا بكما لها ، وأن فيها أشياء غابت أوغامتْ حتى عن العلماء و الرواة .

وهذه التراكيب ذات العبارة المحذوفة أو المقدرة هي من قبيل اللغة الانفعالية التي تعتمد على القرائن ، فإذا غابت القرينة غاب المعنى أو غام في التركيب ، ومن القرائن التي تحدد المعنى: التنغيم في اللغة المنطوقة والترقيم في اللغة المكتوبة .

٣ - ورد في التكملة والذيل (٥) . أن أبا الهميسع - وهو من أعراب مدين - كانوا لا يكادون يفهمون كلامه .

٤ - ويروى عنهم «دَه دُرَّيْنِ سعد القَيْنِ» ورواية أخرى «دُهدرين وطرطبين» وهو مثل لمن يأتي الباطل استهزاء به ، ويقول عنه أبو هلال العسكري (٦) : إنه كلمة لا معنى لها ، كما أن الأصمعي لا يعرف أصله ، واختلف الرواة في حكاية لفظ المثل فيروبه (٧) ابن العلاء كما سبق

(١) أنظر الأمالي الشجرية : ٢/٢١٣ .
(٢) مادة (عقل)
(٣) أنظر : شرح لباب الإعراب للفالي ، مخطوط بدار الكتب المصرية : ١٥١ .
(٤)١/٢٣٦ .
(٥) للصغاني : ٤، ٢٢٧
(٦) جمهرة الامثال : ١/ ٢٩٥ .
(٧) أنظر : كتاب الأمثال ٨٣ لأبي عبيد . تحقيق د. قطامش. ط١ .

ويقول : نصبوا دهدرين بإضمار فعل ينصبه ، وتركوا تنوين سعد استخفافا. ورواه أبو عبيدة «دهدرين وسعدَ القين» بالواو ونصب سعد القين .

ورواه آخرون «دهدرّي سعد القين» بالقصر وبغير نون الإثنين ، ورواه ابن اسكيت «دهدرين ساعد القين» ورواه أبو زياد الكلابي[1] «دُهْدُرِّيهِ سعد القين» بالهاء وربما كان هذا التركيب لهجة حجازية بائدة ، وكان للحجاز لهجات ضاعت لا نعرف عنها شيئا يذكر ، وهي تمثل مرحلة سابقة على الطور الأدبي[2] .

ولهذا نجد كثيرا من الأساليب يختلف حولها النحاة : أترفع أو تجزم ، حيث يقدرون ويوجهون ويعللون ويحذفون[3] ، ولو درست التراكيب متصلة بسياقها لما وقع ما وقع من خلاف بين علماء العربية (٤) .

ويرجع ذلك إلى أن في اللغة تراكيب مغرقة في القدم لم تجر استعمالها في عصر النحاة ، وإنما أخذت من شواهد قديمة جاهلية ، ولكنها رزقت طول العمر حيث صادفها النحاة في زوايا النسيان، زد على ذلك أن هذه الشواهد وغيرها جاءت مكتوبة ، والكتابة لا تظهر الخلافات اللهجية غالبا كما كان ينطقها أهلها ، ولهذا كثيرا ما يقع سوء الفهم واللبس في اللهجات على عاتق الكتابة ، ومثلها في ذلك مثل الشعر حيث يختفي فيه كثير من الميول اللهجية ، لأن الشعر نظم باللغة الأدبية وإذا تأثر الشاعر بلغته فإن هذا التأثر يكون محدودا جدا، أما الرجز فإنه يصور لهجة القبيلة بأمانة؛ لأنه يعتمد على الارتجال فهو أقرب إلى السليقة من غيره ، وعلى أي

---

(١) وانظر روايات كثيرة لهذا المثل في . الدرة الفاخرة ٥٠٦/٢ فما بعدها ، حمزة الأصبهاني . تحقيق د. قطامش ، دار المعارف مصر .

(٢) الأمثال في النثر العربي القديم ٦٧ د. عبد المجيد عابدين . دار مصر للطباعة ط ١ .

(٣) الكتاب ٩٦/٣ هارون وانظر الحذف في المثل العربي د. عبد الفتاح الحموز . ط عمان .

(٤) الكتاب ٣ / ١٩٨٢ .

حال فالجانب التركيبي في لغات القبائل معقد[1] ، ومن الصعب فهمه والوقوف عليه بالتفصيل ، لأننا لم نعش في جوه وبيئته ، بعكس الجوانب الأخرى كالجانب الصوتي أو الصرفي فإننا نستطيع أن نلمس التغير في أطوار حياته، بل نقيس ذلك بالأجهزة العلمية والمختبرات، كما أنه أقل ارتباطا بالمعنى، ولهذا كان أيسر من فهم التركيب الذي يعتمد على المعنى كما سبق .

---

(١) لمن يتصدى لدراسة التركيب عند القبائل أن يكون على علم بالعرب وأحوال مجتمعاتها وظعنها وإقامتها ومياهها وجبالها ، وتهائمها وأنجادها ، وبدوها وحضرها ، وجميع ما في بيئاتهم الطبيعية ، لأن التراكيب كثيرا ما تحمل إشارات تشير إلى ذلك ، كما تعتمد على عناصر تراثية مثل : سفينة نوح ، وكلب أصحاب الكهف ، وصبر أيوب بمعنى شدة الاحتمال ، وكنز قارون ، وقميص عثمان بمعنى التعلل بالأسباب ، وشعرة معاوية بمعنى الكياسة في المعاملة ، وجزاء سنمار يعني الغدر ، أو على عناصر طبيعية مثل : نقش الحجر ، وسحابة صيف بمعنى الشيء الذي يزول سريعا ، أو على الطير مثل : بيضة الديك بمعنى الشئ النادر ، فلابد من الإحاطة بالبيئة التي عاش فيها هذا العربي ، لتساعد على الكشف في دلالات التركيب انظر «التعبير الاصطلاحي ، د. كريم حسام الدين . الأنجلو المصرية . ط. أولى .

وعلى الباحث أن يعرف أن الكلمات لا تنحصر داخل المعجم والكتب وحدها ، وإنما تتفاعل خارجها وتجري على ألسنة المتكلمين ، وعلى الباحث أن يلم بالاستعمالات المحظورة والمحسنة التي حلت محلها من خلال الجانبين الاجتماعي واللغوي لدى الجماعة القبلية ، عارفا بالمجال الدلالي الخاص بحياة العرب معتقدا وعادة وتصريحا وتعريضا ، فقد يعدل المتكلم عن النطق بكلمة في التركيب تحدث نوعا من اللبس أو الحرج إلى كلمة أخرى محسنة ومثال ذلك : ما روى عن الخليفة المأمون أنه كان بيده (مساويك) فسأل الحسن بن سهل : ما هذه ؟ فقال : ضد محاسنك يا أمير المؤمنين ، وكره أن يقول : «مساويك» المحظورات اللغوية ٦٨ ، د. كريم حسام الدين . ط. أولى .

ومن هذا القبيل ما ذكر عن الخليفة المنصور أنه كان في بستان ومعه الربيع فقال له : ما هذه الشجرة ؟ قال: شجر الوفاق يا أمير المؤمنين ، وكانت شجرة (الخلاف) فتفاءل المنصور بذلك «المرجع السابق» .

(٢)

وفي مجال التركيب لا يكاد يعثر المرء على دراسة واحدة للنحاة أو اللغويين تتناول بالتحديد ما كان بين لهجات القبائل من فروق تركيبية وإنما هي نتف وأمشاج تتخلل الدرس النحوي، وهذه الأمشاج وإن كانت نادرة فإنها كافية للدلالة على وجود فروق تركيبية بين لهجات القبائل من جهة ، ثم بين لهجات القبائل والفصحى من جهة أخرى ، يقول د. علي أبو المكارم [١] : يبدو مما في النحو من إشارات أن اللهجات قد خضعت لظاهرة التصرف الإعرابي ، وإن كان خضوعا مغايرا – إلى حد ما – عن النمط الذي خضعت له اللغة الفصحى ، ويظهر هذا من الخلاف بين الأدوات (متى ، لعل ، إن النافية ، أن المصدرية ، لم الجازمة) فعملها يختلف في الفصحى عنها في لغات القبائل ، وظاهرة هذا الخلاف قديمة جدا ، ولعله يوغل في القدم إلى درجة يصعب – إن لم يستحل – إدراك أوليته .

فالإعراب وهو من سمات الفصحى – لم تكن تستطيعه كل العرب ، ولم يكن في متناول جميع قبائلها يوضح ذلك قول أبي العيناء (أبو عبد الله محمد بن القاسم الضرير ، ت ٢٨٢ هـ) : ما رأيت مثل الأصمعي قط ، أنشد بيتا من الشعر فاختلس الإعراب ، ثم قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كلام العرب الدرج. وحدثني عبد الله بن سوار أن أباه قال : العرب تجتاز بالإعراب اجتيازا . وحدثني عيسى بن عمر أن ابن أبي إسحاق قال : العرب ترفرف على الإعراف ولا تتفيهق فيه ، وسمعت يونس يقول : العرب تشام الإعراب ولا تحققه ، وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول : العرب تقع بالإعراب وكأنها لم ترد .

---

(١) الظواهر اللغوية في التراث النحوي ٤١ د . علي أبو المكارم ط. القاهرة الحديثة .

وسمعت أبا الخطاب يقول : إعراب العرب الخطف والحذف، فتعجب كل مَن حضر منه .

يقول د. محمد البنا : وهذه الرويات المتعددة من الدرج والاجتياز والرفرفة والمشامة والخطف والحذف (١) ، تعني اختلاس الحركة والإسراع في أدائها وعدم تحقيقها أو إشباعها أو إبرازها .. فهذا أداء العرب في لغة الخطاب أو أداء بعضهم ، أما اللغة الأدبية فهي التي كانت تحقق الحركات الإعرابية ولا تسرع في أدائها بل تعطي الحرف حقه من الوفاء والكمال وهذا سمة العربية الفصحى .

فإذا رجعنا إلى التركيب وجدناه قد ينحرف أحيانا لعدم التطابق وأبرزه التذكير والتأنيث ويسوق له الجاحظ(٢) شاهدا من قول شاعر في جاريته :

أول ما أسمع منها في السحر
تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر
والسوءَة السوَّاء في ذكر القمر

ثم يليه : الترتيب ، وقد أشار ابن جني إلى ذلك (٣) ، وسأشير إلى جانب من أمثلته :

١) – ضرب يحيى بشري :

وهنا يلزم الترتيب من تقديم الفاعل وتأخير المفعلول ، حيث لا قرينة وانتفاء الحركة الإعرابية ، إذ لو ظهرت لكنتَ حرًّا في التقديم والتأخير .

٢) أكل يحيى كمثرى :

الفاعل هو (يحيى) تقدم أو تأخر لوجود قرينة معنوية .

---

(١) الإدراج = الطيّ واللّف فكأنك إذا وصلت الحرف فقد طويته ولم تنشره ولم تبرزه . الاجتياز = الإسراع . الاختلاس = الأخذ في خفية . الرفرفة = حركة جناح الطائر شبه بها أداء المتكلم . والمشامة = مفاعلة من شم، والإشمام : أن يشم الحرف الساكن حرفا ، كقولك في الضمة (هذا عمل) وتسكت ، فتجد في فيك إشماما للا لم يبلغ أن يكون واوا ولا تحريكا يعتدّ به ، والإشمام لا تدركه الأذن وإنما العين .
أنظر الخصائص ٢/٣٢٨ وسر الصناعة ١/٦٤ و٦٧–٦٨ ، والخطف = جذب ، الشيء وأخذه بسرعة . وحذف الشيء = قطعه من طرفه . أنظر: الإعراب سمة العربية الفصحى ٢٩ هامش . د. محمد البنا .
(٢) البيان والتبين : ١/٧٣ هارون . وكانت إذا أرادت أن تقول القمر : قالت : الكَمَر .
(٣) الخصائص : ١/٣٥ .

٣) ضربت هذا هذه :

إلحاق تاء التأنيث قرينة لفظية على أن الفاعل مؤنث فلك أن تقدم وأن تؤخر.

٤) ولدتْ هذه هذه :

يجوز التقديم والتأخير ، لأن حال الأم مختلف عن حال البنت .

٥) ضرب يحى نفسَه بشرى :

يجوز التقديم والتأخير لوجود التابع.

فالترتيب في التراكيب كما سبق – يراه ابن جني مرتبطا بظهور علامة الإعراب وبالقرائن اللفظية والمعنوية ، لأنها تعين الموقع ، تقدم الكلام أو تأخر فإذا لم تظهر الحركة الإعرابية أو القرائن لفظية أو معنوية – امتنع التقديم والتأخير .

ولما كان هدف التركيب هو المعنى ، كان لابد من وجود عوامل مساعدة في تحديد هذا المعنى ، وأهمها :

أ) السياق اللغوي .

ب) التنغيم .

جـ) الموقف .

د) الترقيم في اللغات المكتوبة .

فتعدد معاني التركيب الواحد أمر قائم ومحتمل في ظل انعدام وجود السياق ، كما أن الترقيم وهو استعمال الفواصل والإشارات الكتابية وما شابهها – له دور في تحديد المعنى المقصود حين تتعدد المعاني المحتملة ، والتنغيم كذلك بما يحمل من نبرات ولون وتثبت وإسراع وتطعم (١) .

وإليك شاهدا مما روى أن أبا هريرة سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : من قال لا إله إلا الله فقد دخل الجنة ، فذهب يبشرّ المسلمين ذات اليمين وذات الشمال ، فلقى عمر بن الخطاب وهو على تلك الحالة فدفعه إلى خلفه فوقع على إسْته ، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر ، فاستحضر

---

(١) انظر : النبر في نطق العربية الفصحى : د/ عبد الله ربيع ، وكذلك : التزمين في نطق العربية الفصحى د.عبدالعزيز علام . رسالتان مخطوطتان – بكلية اللغة العربية بالأزهر .

عمر وكلمه في ذلك ، فقال : « يا رسول الله : إن الناس إذا سمعوا ذلك يَتّكلون ، **فخلّهم يعملون** ». فاستحسن كلامه وقال: **خلّهم يعملون** .

فانظر إلى جملة : خلّهم يعملون ، فإنها في كلامه صلى الله عليه وسلم غيرها في كلام عمر رضى الله عنه من حيث المراد ، وإن كانت هي من حيث اللفظ (١) .

فالمعنى في التركيبين السابقين قد اختلف للاختلاف في هيئة النطق وإن كانت العبارة في التركيبين واحدة ، والاختلاف في الهيئة يكون بالشدة والرخاوة والسرعة والبطء والتفخيم والترقيق والوصل والقطع والنبر والتزمين. . والمعاجم العربية وكتب التراث لم تنقل لنا الهيئات التي كان عليها العربي حين النطق ، بل لم تضع في الكتابة إشارات تدل عليها ، من هنا التبست التراكيب لعدم الوقوف على الهيئة التي صدرت من المتكلم عليها ولهذا يقول بعض المحققين : إن نقل الأخبار في الحوادث التاريخية بالطريقة التي عليها المؤرخون لا يفيد القطع ولا يحمل على اليقين ، وإنما يفيد الظن(٢) .

وهناك عوامل مساعدة أخرى لفهم التراكيب تتجلي في :

أ) الاختيار الدقيق .

ب) الموقعية .

ج) المطابقة .

د) الإعراب .

هـ) الأداء .

واليك بيان لبعض ما سبق .

أولا : في قولك «صعدت علوّا» يختلف معاني المنصوب على النحو التالي :

١) المفعول به، إذا فهمنا من المقام (تعدية) ويكون المعنى:صعدت مكانا عاليا.

٢) نائب المفعول المطلق . إذا فهمنا من المقام (توكيدا) والمعنى حينئذ : علوت علوّا .

---

(١) مميزات لغات العرب ٢٤ حفني ناصف . ط٢. ط جامعة القاهرة : ١٩٥٧ .

(٢) المرجع السابق ٣٥ .

٣) المفعول لأجله : إذا فهمنا من المقام (سببيه) والمعنى حينئذ : صعدت لأعلو .

فالجملة السابقة واحدة ، ولكنها ، متعددة المعنى ؛ لأن لها أكثر من بنية عميقة .

ثانيا : والتنغيم له دلالة على معاني التركيب مثل كلمة : لا ، نعم ، يا سلام ، الله .. حين تقال بنغمات متعددة ، ويتغير معناها النحوي والدلالي مع كل نغمة بين الاستفهام والتوكيد والإثبات لمعان مثل : الحزن والفرح والشك والتأنيب والتحقير حيث تكون النغمة هي العنصر الوحيد الذي تسبب عنه تباين هذه المعاني مع ما يصاحبها من قرائن حالية (١) ومن ذلك ما يقوله ابن جني : وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها ، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سير عليه ليل ، وهم يريدون : ليل طويل وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها وذلك أنك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل أو نحو ذلك . وأنت تحسّ هنا من نفسك إذا تأملته ، وذلك أن تكون في مدح إنسان و الثناء عليه ، فتقول كان والله رجلا ! فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة ، وتتمكن في تمطيط (اللام) وإطالة الصوت بها وعليها أي : رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك. وكذلك تقول : سألناه فوجدناه إنسانا ! وتمكّن الصوت (بإنسان) وتفخمه أو نحو ذلك (٢) .

وكذلك إن ذممته بالضيق قلت : سألناه وكان إنسانا . ! وتزوي وجهك وتقطبه فيغني ذلك عن قولك : إنسانا لئيما ، أو لحزا أو مبخّلا أو نحو ذلك .

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ٢٢ و ٣٥٤ د. تمام حسان .
(٢) الخصائص : ٢/٣٧٠ فما بعدها .

فالتنغيم والنبر السياقي وتعبيرات الوجه واعتبار المقام والمقال وجميعها من القرائن اللفظية أو المقالية التي تعين على تحديد دلالة التركيب ، كما أن المثال الذي أتى به ابن جني يختلف في سرعة أدائه وبطئه فهو يستغرق زمنا أطول في حالة البطء ، على حين يستغرق زمنا أقصر في حالة السرعة ، كما لوحظ أن لجملة الاستفهام نظاما خاصا للنغمات يختلف عن نظام جملة الشرط أو التقريع أو الإخبار (١) .

ثالثا : نعرف في الفصحى أن الفعل يجب إفراده دائما حتى إن كان فاعله مثنى أو مجموعا ، أما قبيلة طيىء فقد روى عنها أنها كانت تلحق الفعل علامة تثنية للفاعل وعلامة جمع للفاعل المجموع ، وتعرف هذه الظاهرة عند النحاة بلغة (أكلوني البراغيث) أو لغة (يتعاقبون) وقد أشرت إلى ذلك في ثنايا الكتاب في (التركيب) وإنما أردت هنا أن أوضح أمرين :

أولهما :أن الاستاذ سعيد الأفغاني ذكر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة قوله (٢) :

ولا تظنن سيبويه والخليل يجوزان ذلك ، ولا يقول هذا عربي عاقل البتة .

والحقيقة أن سيبويه والخليل يجوزان ذلك ، ولا يقول هذا عربي عاقل البتة ، والحقيقة أن سيبويه أشار إلى ذلك في كتابه وسماها لغة (أكلوني البراغيث) (٣) ، كما أن هذه اللغة وردت في العبرية والآرامية والحبشية ، كما

---

(١) النغمة تختلف باختلاف التركيب ، فالتركيب التقريري نغمته هابطة والتركيب الاستفهامي نغمته صاعدة وهناك نغمة مسطحة ، كما تختلف النغمة في الوقف عنها في الوصل (اقرأ عن النغمة المسطحة : اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان ٢٣٠ – ٢٣١ واقرأ كذلك عن النغمة قرينة من قرائن التعليق ٢٢٦ من المرجع السابق .

(٢) ج ٤٨ / ٢١٧ .

(٣) انظر الكتاب ١ / ٥ ، ٢٣٦ فما بعدها .

وردت في القرآن والحديث والشعر القديم والحديث وفي لهجاتنا العامية كذلك .

أما الآخر : وهو ما قصدت إليه ، فقد لحظه د. أحمد كشك [1] حين قال : إن تفسير النحاة لهذه الظاهرة يثبت أن هناك اتصالا نطقيا بين الفعل المطابق في العدد وبين فاعله الظاهر ، على حين أن الواقع النطقي الاستعمالي في رأيي يوحي بوجود سكتة بينهما ، توحي هذه السكتة بسؤال مفهوم من المقام والمقال فحين نقول على سبيل المثال : أكلوني البراغيث . أو ظلموني الناس ، فإن هناك سكتة و اردة بعد الفعلين أكلوني وظلموني ، توحي بسؤال مؤداه : مَنْ أكلك؟ مَنْ ظلمك ؟

وهنا يكون الجواب استئنافا تمامه مع التقدير : أكلني البراغيث ، ظلمني الناس .. والسكتة توحي بالقطع في موقف انفعالي لإنسان أحسّ إحساسا بالغا بالظلم ، فلم يعد باستطاعته أن يرتب جملته د فعة واحدة بل قسملها لا شعوريا التقسيم الذي يوحي بتردده وانقسامه هو ، ولعل الورود الكثير لهذه الظاهرة في أسلوب الشعر المعتمد على التوتر النفسي الانفعالي يؤكد ما قلناه ، ناهيك عن أن التنغيم والضغط (النبر) على الأفعال مع ضمائرها . يعطي إيحاء بالتكثير في بابه .

كما أرى أن هذا التركيب يقال في سياق موقفي ، ومن أبرز عناصر السياق الموقفي عنصر الزمان والمكان .

والسياق الموقفي يساعد في تحديد المعنى حين تتعدد احتمالات معنى التركيب .

رابعا : كما قد يكون التركيب محتملا معنيين وذلك في قوله تعالى : (ويستفْتونَكَ في النساء قل اللهُ يُفْتيكم فيهنّ وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تُؤْتُونَهنّ ما كُتِب لهن وترغبونَ أنْ تنكحوهنّ) النساء

---

(1) أنظر كتابه من وظائف الصوت اللغوي ٩٩ ط أولى .

١٢٧، فيحتمل التركيب أن يكون المحذوف حرف الجر (في) أن تنكحوهن لجمالهن ، و(عن) أن تنكحوهن لدمامتهن، فيصبح المعنى محتملا للشقين معا، **ووقع فيه الغموض بسبب المحذوف الذي لا يظهر إلا في البنية العميقة**، ولكن إذا عرفنا المقام والموقف زمانا ومكانا ساعدنا في تحديد المعنى حين تتعدد الاحتمالات في التركيب ، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا جاءه وليُّ اليتيمة نظر؛ فإن كانت جميلة غنية قال : زوِّجها غيرك والتمس لها من هو خير منك، وإن كانت دميمة ولا مال لها قال : تزوجها فأنت أحق بها.

ولهذا اختلف الفقهاء في الحكم المستنبط من الآية (١) ، فالمعنى هو الذي يعين المحذوف في التركيب ، والعربية عندما تحذف لهدف ، **وليس الحذف في التركيب فوضى وإنما يقرر في ضوء موقف اجتماعي.**

خامسا : وجدنا في لهجات القبائل أن تراكيبها تختلف إلى حدّ عن تراكيب الفصحى ، لأن لهجات القبائل بعيدة عن الاطراد والثبات والاستقرار، فهي تمثل عنصر التحول والتغير ، ولذلك نجد فيها التراكيب الناقصة ، والتراكيب التي عدل صاحبها عن إكمالها ، والتركيب الذي تطوع السامع بإكماله ، والجملة التي أغنت الإشارة عن ذكرها(٢) .

وفي غيبة السياق والنبر وهيئة النطق في لغات القبائل علينا أن نفزع إلى لغات العامة في الوطن العربي الكبير ، فإذا رأينا في لهجة قوم من العامة خصاص تركيبية تشبه خصائص لغة قبيلة من العرب ، حكمنا أولا بأن أولئك القوم ينتسبون لتلك

---

(١) انظر كتب التفسير : الطبري والكشاف وغيرها .
(٢) الأصول ٨٨ د. تمام . ط الدار البيضاء .

القبيلة ، وثانيا بأن هيئة نطقهم الموجودة الآن لابد أن تكون موروثة عنهم ، وحينئذ يمكننا أن ننسب إلى المُوَرِّث ما تحققناه في الوارث ، يؤكد هذا أن بعض زملائي (١) وكان يدرس في الرياض من زمن طويل - أخبرني أنه ما سمع مؤذنا في مسجد من مساجد الرياض إلا هو ينصب خبر (إنّ) في الأذان عند قوله : أشهد أن محمدا رسولَ الله . ولقد حاول أن يسأل العلماء في الرياض عن ذلك فلم يجيبوا بأكثر من أن الأذان في بلاد نجد عامة وقْفٌ على قسم من الناس لا يشركهم فيه سواهم ، ويتساءل أفلا يجوز أن يكون إجماع المؤذنين على هذه الرواية - وهم جلدة واحدة - دليلا على أن نصب الجزأين لغة لبعض العرب وأن هؤلاء من سلالة القبائل النجدية التميمية القديمة ؟ فقد روى أن عامة تميم ، ورؤبة وقومه كانوا ينصبون الجزأين ، ولا غرابة حيث سار الأحفاد على لغة الأجداد ، هذا ، وقد سمعت كثيرا من المؤذنين السعوديين ممن ينتمون إلى أصل بدوي ينطقون هذا النطق ، وسمعت في ربيع الأول سنة ١٤٠٢ هـ في صلاة الظهر مؤذنا في مسجد القبلتين بالمدينة المنورة - على صاحبها أفضل والسلام - ينصب خبر (أن) وهو (رسولَ الله) في الأذان .

---

(١) هو الدكتور يوسف الضبع .

(٢)

وكما أشار المحدثون إلى دراسة : المقام والنبر والتزمين والسياق - أشار إليها أيضا علماؤنا الأقدمون ، فها هو شيخ النحاة يفزع إلى السياق والمقام والموقف الاجتماعي (١) ، كما تنبه إلى أثر المتغيرات الخارجية على التركيب في اختيار أحد وجهين جائزين في مقياس النحو ، واعتبر الموقف فيصلا في الحكم لصحة التراكيب وخطئها ، واختلف التركيب عنده وفقا لحالة الانفراد والاجتماع في حالة المخاطب في الإقبال والإدبار (٢) ويعتبر الموقف الكلامي كلاً واحدا فيغتفر حذف أحد العناصر من التركيب إذا كان في سياقه الكلامي دليل عليه (٣) ، كما جمع سيبويه بين التفسير اللغوي والسياق في الترتيب واتّسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية وما يلابس التركيب من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام .. وقد هداه هذا الاتساع إلى استكناه (البنية الجوانيه) للتركيب (٤) كما كان ينظر إلى ما يكون من علاقات الكلمات داخل التركيب في ضوء ما يمكن من علاقات الأفراد في مجتمع يقوم على اعتبار الأنساب ورعاية روابط الدم ، واستعان على تحليل بعض التراكيب والكشف عن بنيتها (الجوانية) بمفاتيح من فهم المواصفات الاجتماعية مع مراعاة العلاقات الخاصة التي تربط بين الناس (٥) . أما لغات القبائل فكان يتناول التركيب فيها - مع اختلافها على أنها موادّ نظام لغوي واحد ، أو طبقات صرح لغوي واحد ، مع لمّ شواردها وضبطها بأصل اللغة المشتركة فلا يفهمها على

---

(١) الكتاب ١/٨٣ و ٢٩٦ ، ٣٤٣ تحقيق هارون .

(٢) الكتاب ١ / ٢٤٤ هارون .

(٣) الكتاب ١ / ٢٩٦ فما بعدها ، هارون .

(٤) نظرية النحو العربي ٨٧ - ٩٧ د . نهاد الموسى . ط. أولى .

(٥) الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه : د. نهاد الموسى ونشر في مجلة حضارة الإسلام القسم الثالث ١٣٩٤ - ١٩٧٤ دمشق .

حدتها وفق قواعد مستقلة بل يسلكها في النظام اللغوي الفصيح ، ونظر لذلك بأمثلة لهجية قبلية من بني يربوع وطهيّه (من تميم) والحجاز وتميم ولغة (أكلوني البراغيث) (١) .

وقد رصد عملية التوحد اللغوي في التركيب التي تمثلت في تنازل بعض القبائل عن بعض سماتها اللهجية امتثالا للغة القرآن واستجابة للتوحيد اللغوي الجديد ، فقد استشهد على (ما) الحجازية بقوله تعالى : «ماهذا بشرا» في لغة أهل الحجاز ، أما بنو تميم فيرفعونها إلا من دري كيف هي في المصحف (٢) ، وبهذا ترى كل قبيلة سماتها اللغوية الخاصة بها تسهم في إشادة الصرح العربي الموحد ، حيث ربطها بالفصحى ، لأن هذه موصولة النسب بتلك ، وكان سيبويه يرى أحيانا أن ما يجوز في لهجة قد لا يجوز في أخرى قال : وتقول : «ما فيها إلا زيد ، وما علمت أن فيها إلا زيدا فإن قلبته فجعلته يلى (أنّ) و (ما) في لغة أهل الحجاز قبح ولم يجز لأنهما ليس بفعل فيحتمل قلبهما . كما لم يجز فيهما التقديم والتأخير ، ولم يجز ، ما أنت إلا ذاهبا ، ولكنه لما طال الكلام قوي واحتمل ذلك كأشياء تجوز في الكلام إذا طال وتزداد حسنا » (٣) .

إن التراكيب تشكلها أمور متعددة لابد من فحصها ، **تتمثل في الدلالة والصيغة والموقع والأداء والسياق والنسق الصوتي ، كما يشكلها الحذف والتقدير والإضمار والحمل على المعنى** ، وهي جميعا وسائل منهجية لتصحيح اللفظ المنطوق ليطابق المعنى المراد ، والتركيب لا يفهم إلا بملاحظة هذه القيم ، ولولاها لوقعنا في كثير من اللبس والغموض وإليك إشارات لذلك :

١) سمع بعضهم شيخا يعرب لتلاميذه (قيمًا) (٤) من قوله تعالى : «ولم

---

(١) الكتاب ٢/ ٤٠ .

(٢) المرجع السابق وانظر الكتاب ١ / ٥٩ .

(٣) سيبويه ٢/ ٣١٧ تحقيق هارون .

(٤) المغني ٢ / ٥٨٩ تحقيق مازن المبارك وزميله . لبنان .

يجعل له عوجا قيما» الكهف ١و٢ – صفة لـ (عوجا) فقال له : كيف يكون العوج قيما ؟ وإنما هي حال من اسم محذوف هو وعامله أي : أنزله قيما. ورحم الله القراء حيث وقفوا على ألف التنوين في (عوجا) وقفة لطيفة دفعا لهذا التوهم ، وهذا أثر من آثار السكتة الصوتية في التحليل النحوي (١) .

٢) أخذ عبد الملك بن مروان رجلا كان يرى رأي الخوارج ، فقال له ألست القائل :

ومنّا سويدٌ والبطين وقَعْنبٌ
ومنا أميرُ المؤمنين شبيبُ

فقال الخارجي : إنما قلت أميرَ المؤمنين . أي يا أمير المؤمنين ، فأمر بتخلية سبيله .

٣) وقول عبد الله بن قيس الرقيات "

لن تراها ولو تأملت إلاّ
ولها في مفارق الرأس طيبا

والوجه : الرفع على معنى : ولها طيب في مفارق الرأس ، وذهب سيبويه(٢) إلى أنه منصوب على المعنى ، لأن الطيب داخل في الرؤية فنصب على هذا التأويل ، ويقول ابن جني(٣) : الرؤية ليس لها طريق إلى الطيب في مفارقها ، اللهم إلا أن تكون حاسرة الرأس غير مقنعة ، وهي بِذْلة لا توصف وتطرّح به الخفرات . فابن جني يرى أن المقدر (ترى) القلبية لا (ترى) البصرية وهذا معنى قوله : فوجب أن يكون الفعل المقدر لنصب الطيب مما يصحب الرؤية لا الرؤية نفسها ، فكأنه قال : لن تراها إلا وتعلم لها أو تتحقق لها في مفارق الرأس طيبا(٤) .

فالحكم النحوي يركز على المجتمع : متكلما أو مخاطبا ، ويجعله فيصلا في التركيب جوازا ومنعا .

٤) وفي قوله تعالى : «وآتينا ثمود الناقة مبصرة» ٥٩/الإسراء ، فالنظرة

---

(١) وانظر في هذه السكتات : سورة يس ٥٢ ، وسورة المطففين ١٤ وسورة القيامة ٢٧ .
(٢) الكتاب : ١ / ١٤٤ بولاق .
(٣) الخصائص ٢/٤٢٩ .
(٤) وانظر : شرح المفصل ١ / ١٢٥ لابن يعيش .

الأولى ترى (مبصرة) حال من الناقة ، والفهم السديد ينظر إلى السياق العام ، وأن قبلها : وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذّب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها» فمبصرة صفة لموصوف محذوف تقديره : آية ، إذ الكلام في الآيات لا في النوق ، والناقة حين ذكرت هنا ذكرت لأنها آية ، لا لأنها ناقة وكفى .

والعربي لا يحذف إلا إذا كان الحذف أبين لمراده ، وأنطق بحجته من الذكر ، والنحاة عندما يحذفون أو يقدرون – كانوا علىٰ أصول مقررة فقاسوا النظير ، واستدلوا بالحاضر على الغائب ، حكى ابن جني في المحتسب قال : «وسمعت سنة خمس وخمسين (من القرن الرابع الهجري) غلاما حدثا من عقيل ومعه سيف في يده ، فقال له بعض الحاضرين – وكنا مصحرين [1] : يا أعرابي ، سيفك هذا يقطع البطيخ ؟ فقال: إى = والله = وغوارب الرجال . فنصب الغوارب على ذلك . أي : ويقطع غوارب الرجال » [2] .

٥) ويقول سيبويه في قولهم «له علمٌ علمُ الفقهاء ، وله رأي رأي الأصلاء . وإنما كان الرفع في هذا الوجه ، لأن هذه خصال تذكرها في الرجل كالحكم والعلم والفضل – ولم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل في حال تعلم ولا تفهم ، ولكنك أردت أن تذكر الرجل بفضل فيه ، وأن ذلك خصلة قد استكملها ، كقولك له: حسب حسب الصالحين ، لأن هذه الأشياء وما يشابهها صارت تحلية عند الناس وعلامات .. ثم أردف (وإن شئت نصبت فقلت : له علْم علمَ الفقهاء، كأنك مررت به في حال تعلم وتفقه ، وكأنه لم يستكمل أن يقال له : عالم» [3] .

٦) ويقول سيبويه «لا يجوز لك أن تقول : الحمدُ لزيد ، في مقام التعظيم فإنه ليس كل شيء من الكلام يكون تعظيما لله عز وجل يكون تعظيما لغيره

(١) أصحر القوم : برزوا في الصحراء .
(٢) الاعراب سمة العربية الفصحى ١٧ د . محمد البنا . نقلا عن محتسب بن جني : ١/٢١٠ .
(٣) الوجهة الاجتماعية في منهج سيبوية في كتابه ٦٧ د. نهاد الموسى وانظر الكتاب ١/٣٦١ فما بعدها هارون .

من المخلوقين (١) ، فسيبويه خصص تركيبا معلوما وربطه بموقف خاص (٢) .

٧) والحمل الكلام على المعنى لا على اللفظ باب واسع وكثير ، ظهر عند سيبويه (٣) ، وابن جني (٤)، وقد مثل له بقول الشاعر :

أ - يا ليت زوجك قد غدا

متقلدا سيفا ورمحا

أي : وحاملا رمحا ، فهو محمول على المعنى الأول لا لفظه .

ب- علفتها تبنا وماء باردا

حتى شتتْ همالة عيناها

أي : وسقيتها ماء .

ج- إذا ما الغانيات برزن يوما

وزجّجْنَ الحواجبَ والعيونا

أي : وكحلْنَ .

يقول د. محمد حماسة عبد اللطيف: والغاية من الكلام معناه ولابد أن يستقيم مع غايته في اللفظ وإلا ففي التقدير ، وقد كان الحمل على المعنى وسيلة دلالية بارعة ربطت بين بناء الجملة وبنيتها أو بين سطحها وعمقها في منهج النحاة العرب ، كما أن الحمل على المعنى علاج لكل مخالفة بين ظاهر اللفظ والتقدير ، أو بين العبارة المنطوقة والقواعد ، وهو يشير - كما يرى هنري فليش - إلى أن علم التراكيب كان بالأحرى تفسيرا للعلاقات الدلالية الكامنة وراء القول (٥) ، فلم يكتف النحاة بمظهر التركيب أو وصفه بل فسروا هذا المظهر بأن أرجعوه إلى الأصل الذي أخذ منه وأوضحوا التغييرات اللغوية التي تعرض لها في جميع المجالات .

ولم يكن النحاة وحدهم هم الذين تنبهوا إلى إدراك أهمية السياق بشقيه اللغوي والاجتماعي أو المقامي والمقالي على التركيب ، فعلماء القراءات اهتموا

---

(١) الكتاب : ٣٩٢/١ هارون .

(٢) الكتاب : ٦٥/٢ تحقيق : هارون .

(٣) المتاب : ١٨٠/٢ تحقيق هارون .

(٤) المحتسب ١ / ٢٣٦ والخصائص : ٤٣١/٢ فما بعدها .

(٥) النحو والدلالة ١٦٠ فما بعدها . د. محمد حماسة عبد اللطيف ط ١ القاهرة .

بمواضع الوصل والوقف – وهما دلالتان تنغيميتان – وأثرهما على التركيب والنص القرآني يتميز عن سائر النصوص المكتوبة بهذه الخصوصية الصوتية التي حفظت لنا طرق أدائه .

كما عرف **المفسرون** أسباب نزول الآيات وهي الأحداث والوقائع الملابسة للنص القرآني، كما تنبه **علماء البلاغة إلى** ذلك، ويظهر هذا من قولهم : لكل مقام مقال ، وكيف يتغير التركيب بتغيير المقام (الموقف الكلامي) ، كما أنهم اهتموا بدراسة التراكيب اللغوية أو (النظم) على النحو الذي بينه عبد القاهر الجرجاني.

واهتم الأصوليون أيضا بعناصر السياق اللفظية والاجتماعية والموقف الكلامي وأثرها على المعنى والتركيب اللغوي وصدق ابن القيم حين قال «والسياق يرشد إلى تبيين المجمل ، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظره ، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى : «ذق إنك أنت العزيز الكريم» كيف تجد سياقه يدل أنه الذليل الحقير (١).

أحمد علم الدين الجندي

الخبير بالمجمع

---

(١) دراسة المعنى عند الأصوليين ٢٣١ د. طاهر حمودة . الدار الجامعية اسكندرية .

التعاقب والمعاقبة
من الجانب الصوتي الصرفي

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

مقدمة :

علم الأصوات Phonetics قديم ضارب فى القدم ، عرفه الهنود والإغريق والرومان والعرب ، وبذلوا فيه جهودا مشكورة ، ثم أهملت بعد ذلك تلك الدراسات حتى أشرق العصر الحديث فهيأ للدارسين وسائل البحث من التجارب العملية والآلية ، كما يسّر الاستعانة بعلم وظائف الأعضاء والتشريح والفيزياء . وربما كان من أسباب إهمال تلك الدراسات فى الفترة الوسطى عدم إقبال الباحثين عليها ؛ لأن جل اهتمامهم كان منصبا على الدراسات النحوية والصرفية ، وهما محور أسرار اللغة (١) ، كما يظنون ، أما الدرس الصوتى فكان نافلة وترفا ، وعلماء القراءات القرآنية فى العالم الإسلامى هم الذين حملوا على أكتافهم عبء هذه الدراسات الصوتية ، وكانت جهودهم موفقة ، ونتائج بحوثهم دقيقة على الرغم من نقص وسائلها ، وإن كانوا لم يقصدوا تلك الدراسات لذاتها ، وإنما أوحى إليهم ضبط القرآن وترتيله بهذه الأبحاث . ونحن نؤمن الان أن أن كل دراسة صرفية أو نحوية لاتقوم على أساس صوتى مصيرها الفشل ، لأن العلاقة وثيقة بين علم وظائف الأصوات Phonology وبين الدرس الصرفى والنحوى. ومن أخطر المزالق ما وقع فيه علماء العربية حيث اهتموا بالأصوات الصامتة وبنوا عليها دراسة التصريف

---

(١) انظر أمثلة لذلك فى : علم اللغة العام القسم الثانى ٢٤٤ . د . كمال بشر . دار المعارف . القاهرة .

والاشتقاق دون ذكر للحركات ،وأعانهم على ذلك وجود رموز للحروف العربية مستقلة دون الحركات التى لم تظهر إلا على يد الخليل بن أحمد الفراهيدى ، مع أن للحركات خطورتها فى تنويع أصل كل معنى ، وعن طريق الحركات يتحقق تغاير المعنى الصرفى ، والدور البنائى الوظيفى ، فهم عنوا بالمكتوب ولم يعنوا بالمنطوق ، ولهذا وقعوا فى أخطاء لا حصر لها فى الدرس الصوتى الصرفى والنحوى ، فالكتابة هى التى صرفت علماء العربية عن أهمية أصوات اللين ، فضاعت دراسة المقاطع من بين أيديهم ، إذ الحركة القصيرة تكوّن مع الحرف الساكن مقطعا مستقلا فهى تكوّن قمم المقاطع العربية ، ولما أهملوا الحركات ، أهملوا كذلك حروف المدّ واللين ، فكانت إشارتهم إليها سطحية وكثيرا ما أهملوها فى الكتابة ، إلا أننا يجب أن نذكر ابن جنى عالم العربية الفذ حيث أشار إلى هذه الحركات وعلاقتها بحروف المد واللين وإن كانت إشارته يحيطها بعض الغموض ، فقال « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد ، وهى الألف والواو والياء ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث ؛ وهى : الكسرة والفتحة والضمة ، فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة : الألف الصغيرة والكسرة : الياء الصغيرة ، والضمة : الواو الصغيرة ، وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة [1] » فابن جنى لحظ بأنه لا فرق بين الحركات وأصوات المد واللين إلا فى الكم وإن كان لم يحدد الفرق بين الحركة والمدّ فى قوله «الحركات أبعاض حروف المد » .

فالحركة الطويلة تساوى حركتين قصيرتين ، عند علماء اللغة المحدثين . فإذا أضفنا إلى ذلك أن حروف المدّ أوضح فى السمع ، وهى مجهورة ، والمجهور أقوى جرساً ظهر لنا مقدار مكانها فى الحقل الصوتى ، كما لحظ العروضيون أهميتها فى موازين الشعر

---

(١) سر صناعة الإعراب ١/١٩ لابن جنى . ط أولى ١٩٥٤

وموسيقاه، ثم هى تمثل علامة الإعراب فى كل من : المثنى وجمع المذكر السالم وملحقاته ، والأسماء الخمسة ، وأخيرًا « تعتبر من العناصر الضرورية فى بناء نظامى النبر فى الصرف ، والتنغيم فى النحو »[(١)]

وهذا البحث يتصدى لأصوات العلل ، ويختار من بينها : الواو والياء ليحدد زاوية واحدة يقوم بفحصها ودرسها ، وحسبه ذلك .

تلك الزاوية محل الدراسة ، هى تعاقب[(٢)] الواو والياء على الصيغة ، وحرف العلة إذا كان متحركاً سمى علة لاغير مثل : عوَض ، حيَل ، سوَر ، وإذا كان ساكناً وقبله حركة مجانسة سمى علة ومدا مثل : نُور . عِيد . دار وإن سكن وانفتح ماقبله سمى : ليناً مثل توْب ، سيْف . وقد رمز علماء العربية لحروف العلة والمد واللين برمز واحد ، وهو إما الواو ، وإما الياء ، وإما الألف ، وكان هذا من الأسباب التى أوقعت فى اللبس والخلط . فلا فرق عندهم بين : وَجد ، ويُوجد فيرمزون لهما بالواو ، ويرمزون بالياء فى يلد ، ويَرْمى . على الرغم من الفرق بينهما ، أما المصطلحات العلمية فقد فرقت بينهما : الواو الحرف : w والواو الحركة : o والياء الحرف : y والياء الحركة : i وبهذا يكون لكل من الواو والياء مدلولان مختلفان فى الأبجدية ، وقيمتان صوتيتان . كونهما صوتين صامتين ، وكونهما حركتين[(٣)] . وقد تسمى الواو والياء فى الحالة الأولى (بأنصاف الحركات) أو تسمى (أشباه أصوات اللين) ، ذلك لأن لهما جانباً يشبه أصوات اللين ، وجانباً آخر يشبه صفات الأصوات الصامتة . والمعروف أن هذه الأصوات تتأثر بما يجاورها من أصوات فتتغير صفاتها لتصبح مفخمة أو مرققة ، أو بين التفخيم والترقيق .

وهناك مشابه بين صوتى المد واللين — الواو والياء جمعتها من التراث — عدا

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ٧٢ دكتور تمام حسان . الهيئة العامة للكتاب .

(٢) لابن جنى كتاب سماه (التعاقب) وهو مفقود حتى الآن ، وقد أشار إليه ياقوت فى كتابه . معجم الأدباء ، ترجمة أبى الفتح عثمان بن جنى ج ١٢ص ١١٠ وأرجح أن ياقوتا رآه بدليل قوله« وأطرف به ! وحجمه مائتا ورقة) وأنظر الأشباه والنظائر للسيوطى ١٢٩/١ حيث أشار أيضا إلى هذا الكتاب ونسبه لابن جنى .

(٣) دراسات فى علم اللغة ١٣٠ . القسم الأول . د . كمال بشر . ط الثانية . دار المعارف

ماسجله علماء التصريف من قلب أحد الصوتين إلى الآخر ، وذلك فى بابى الإبدال والإعلال ، وإليك جوانب منها :

١ - أن كلا من الواو والياء من أصوات اللين الضيقة ، بخلاف الألف .

٢ - أن الواو امتداد للضم مع فرق يسير فى وضع اللسان ، والياء امتداد للكسر مع نفس الفرق فى وضع اللسان

٣ - الواو أخت الياء ، والضم أخو الكسر ، والدليل على ذلك أنهما - يجتمعان فى الردف . يقول زهير :

ولا تكثر على ذى الضغن عتباً
ولا ذكرَ التجرّم للذنوب
ولا تسأله عما سوف يبدى
ولا عن عيبه لك بالمغيب
متى تك فى صديق أو عدوٍّ
تخبرك العيونُ عن القلوب[١]

فجاء : بالمغيب مع القلوب .

وقول أبى نواس[٢] :

أجارةَ بيتينا أبوك غيورُ
وميسور مايرجى لديك عسيرُ

فجاء بغيور مع عسير .

وكقول الشاعر :

دع الأطلال تسفيها الجنوب
وتُبلى عهد جدّتها الخطوبُ
وخلّ لراكب الوجناء أرضاً
تخبّ بها النجيبة والنّجيبُ

ويقول ابن جنى : ألا تعلم كيف استجازوا الجمع بين الواو والياء ردفين نحو : سعيد ، وعمود[٣] ، وأرجح أن تلك الظاهرة كانت موجودة فى الشعر البدوى القديم كقول امرىء القيس :

قد أشهدُ الغارة الشعواء تحملنى
جرداءُ معروقةُ اللَّحْيَيْن سُرْحوبُ

ثم قال فيها :

كالدلوِ بُتّتْ عراها وهى مثقلةٌ
وخانها وَذَمٌ منها وتكريبُ

فقد استعمل امرؤُ القيس كلمة (سرحوب) ثمّ (تكريب) . ولكن هذه الظاهرة تقل أو تمحى فى البيئات المتحضرة ، يؤكد ذلك أننا لانجد

---

(١) أسرار العربية ٣١٦ لابن الأنبارى . ط دمشق .
(٢) ديوانه ٤٨٠ مطبعة مصر .
(٣) الخصائص ١/٨٦ الهلال .

+ ثر مطلقاً فى شعر شاعر كابن الرومى مثلا .

٤ ـ كما سلكت الواو والياء مسلكاً واحداً فى حالة الوقف ، حيث تحذف الكسرة والضمة وتبقى الفتحة فتقول : هذا زيدْ . ومررت بزيدْ ، ثم تقول : رأيت زيداً .

٥ ـ أن قبيلة طيىء كانت تقف على الألف المتطرفة بالواو حينا وبالياء حينا آخر فكانوا يقولون فى : أفعَى : أفعوْ . وأفعىْ . ولعل السبب فى هذا أنك إذا وقفت على الألف خفيت غاية الخفاء . فأبدلوا منها ياء أو واوا ؛ لا خفى أن الواو والياء أظهر من الألف.

٦ ـ إبدال التنوين واوا بعد الضمة ، وياء بعد الكسرة ، وذلك أن أزد السّراة كانوا يقولون : جاء زيدو ، ومررت بزيدى(٢) ولعلهم فعلوا ذلك حرصاً على بيان الإعراب حتى فى الوقف ؛ إذ الإعراب غالباً مايزول فى حالة الوقف .

٧ ـ أن العرب تسقط الياء اكتفاءً بالكسرة ، كما تحذف الواو اكتفاءً بالضمة قبلها ، فمثال حذف الياء قول الشاعر :

كفَّاكَ كفٌّ ما يليق درهما
جودا وأُخرى (تعط) بالسيف الدما(٣)

وهى لهجة هذيل .

وأن الياءات المتطرفة كقوله تعالى : « الداع . . و . . . الجوار ، و . . . يأت ، والليل إذا يسْر .

ـ من القراء من يحذف هذه الياءات ، وهى لغة هذيل(٤) .

ومثال حذف الواو ما أنشده الكسائى :

متى (تقولُ) خلتْ من أهلها الدار
كأنهم بجناحىْ طائرٍ طاروا

وهذه الظاهرة فى هوازن وقيس .

كما كانت مناطق جغرافية شاسعة يسكنها قبائل قيس وأسد ـ تحذف الواو

(١) شرح الحماسة ٢/٨٢٩ للمرزوقى ، والهمع ٢/٢٠٦ للسيوطى .
(٢) أمالى الشجرية ١/٣٨٠ . وشرح الشافية ٢/٢٧٤ ، وانظر : كتابنا : اللهجات العربية فى التراث ٣٩٢ الهيئة العامة للكتاب . القاهرة .
(٣) البحر المحيط ٥/٢٦١
(٤) إتحاف فضلاء البشر ١١٣

والياء وهما علامة المضمر ، فقد سمع سيبويه بعضهم ينشد :

١ – طافت بأعلاقه خودٌ يمانيةٌ
تدعو العرانين من بكر وماجمع

٢ – وقول عنترة :

(يادار عبلة بالجواء تكلمْ)[١].

والأصل فى البيت الأول : وما جمعوا . والثانى : تكلمى .

وظاهرة الحذف السابقة أكدتها قراءات قرآنية ، حتى لا يظن ظان أن هذا الحذف للضرورة الشعرية[٢] .

فهذه الأشياء السابقة شركة بين الواو والياء وهى تؤكد التشابه بينهما وذلك يزكّى انتقال وتعاقب كل منهما ، من مخرجه إلى مخرج الآخر .

— ٢ —

وقد أمدتنا المصادر العربية بأمثلة للتعاقب ، التقطناها ، وقمنا بتنظيمها ، واستنتجنا منها قضايا ومسائل :

١ – فى الأفعال : « قد دّوخوا الرجل وديخوه ، وقد تحيزت إلى فئة ، وقد تحوزت ، وساغ الرجل طعامه يسيغه ، وبعضهم يقول : يسوغه[٣] » .

٢ – فى العين : « إن فلانا سريع الأوبة والأيبة[٤] » . والموائق والميائق .

٣ – وتكون المعاقبة (*) فى اللام : «كنوت الرجل وكنيته ، وعزوت الرجل – وعزيته[٥] – إذا نسبته إلى أبيه .

٤ – وتكون المعاقبة فى التثنية : نسيان ونسوان ، ورحوان ورحيان[٦] .

٥ – وتكون المعاقبة فى الجمع : هو ذو دغيات ودغوات [أى أخلاق رديئة] .

٦ – وتكون المعاقبة فى صيغة فعول : هو الكذاب الأثوم والأثيم[٧] .

٧ – وقد تعتقب الياء والواو زائدتين من بنات الأربع ، روى ابن السكيت :

(١) سيبويه ٢/٣٠٢ ط بولاق .
(٢) اللهجات العربية فى التراث ٥٥٨ .
(٣) أدب الكاتب ٣٦٥ لابن قتيبه ط السعادة . تحقيق محيى الدين ، والمخصص ١٤/٢٠
(٤) أدب الكاتب ٤٥٩ واللسان ٢/٣٢٥
(٥) المزهر للسيوطى ٢/٢٧٩ ، أدب الكاتب ٣٦٤
(٦) المخصص ١٤/٢٥
(٧) المخصص ١٤/٢٥
(*) تقول المعاجم : عاقبته فى الراحلة إذا ركبت أنت مرة وركب هو مرة . وهما يتعاقبان كالليل والنهار . وقال ابن فارس : الباب كله يرجع إلى أصل واحد هو : أن يجىء الشىء بعقب الشىء ، أى : متأخرا عنه . وفى المعاجم أيضا : نخل معاقبة : تحمل عاما وتخلف آخر . والتعاقب والاعتقاب : التداول (اللسان والمصباح ومختار الصحاح) فمعنى المعاقبة عند علماء اللغة يرتبط بمعناها الخاص وهو قلب الحجازيين الواو ياء .

« جعلته على حنديرة عينى وحندورة عينى . أى نصب عينى[1] .

وقد يرد سؤال مؤداه . هل يمكن أن نضع نظامًا للقبائل تسير عليه فى هذه الظاهرة ؟ كأن ندعى مثلا أن قبيلة عربية ، أو مساحة جغرافية من البشر تؤثر نظامًا من المعاقبة تتخالف به مع غيرها .

أرى أنه لايمكن أن نحسم برأى ، حتى نعرض لنصوص لغوية من شأنها أن تساعدنا فى استنباط حكم ، وإليك بعضها :

١ ـ ما روى عن الأصمعى من قوله : سألت المفضل عن قول الأعشى :

لعمرى لمن أمسى من القوم شاخصًا
لقد نال خيصًا من عفيرة خائصا

فقلت : ما معنى خيصًا خائصا ؟ فقال : أراه من قولهم : فلان يخوص العطاء فى بنى فلان ـ أى يقلّله فكأن خيصا شىءٌ يسير ، ثم بالغ بقوله : خائصا ـ قلت له : فكان يجب أن يقول : لقد نال خوْصًا ، إذ هو من قولهم : هو يخوِّص العطاء . فقال : هو على المعاقبة ، وهى لغة لأهل الحجاز[2] » . وزاد اللسان « وأهل الحجاز يسمون : الصوّاغ = الصّياغ ، ويقولون :الصيّام :للصوّام ، ومثله كثير[3] . كماعزا الفراء الصيغة اليائية إلى الحجاز[4] ، ومثل ذلك فعل ابن جنى فى محتسبه[5] ، وابن خالويه فى شواذّه[6] ، وابن السكيت فى إصلاحه[7] ، وابن سيده فى مخصصه[8] ، وابن جرير الطبرى فى تفسيره[9] ، وأبو الطيب اللغوى فى إبداله[10] .

وأرجح أصالة الصيغة الواوية لسببين :

أولهما : كثرة استعمال الصيغة الواوية .

ثانيهما : أن اشتقاق الصيغ من الواوية[11] .

(١) المخصص ٢٥/١٤
(٢) المخصص ١٩/١٤
(٣) اللسان ٣٠٠/٨
(٤) معانى القرآن ١٩٠/١ للفراء .
(٥) المحتسب فى شواذ القراءات ١٧٥/١ مخطوط بالتيمورية بدار الكتب المصرية .
(٦) مختصر شواذ القرآن ١٩ لابن خالويه .
(٧) إصلاح المنطق ١٣٧ لابن السكيت
(٨) المخصص ٣١/١٢ ، ٢٢/٣ ، ٦٢/٨
(٩) تفسير الطبرى ١٦٠/٦ ط دار المعارف .
(١٠) الإبدال ٤٧٨/٢ / لأبى الطيب . ط دمشق .
(١١) يؤكد ذلك ما جاء فى اللسان ٣٢٥/٢ من قول الشاعر يدعو الإبل إلى الماء (جاوتها فهاجها جواته) ورواه بعضهم : جايتها . وهذا إنما هو على المعاقبة . أصلها : جاوتها ؛ لأنه فاعلها من : حوت جوت . وطلب الخفة فقلب الواو ياء ، ألا تراه رجع فى قوله : فهاجها جواته ـ إلى الأصل الذى هو الواو .

٢ ـ ما جاء عن أبي علي :

ليثٌ عليه من البردى هبريةٌ

كالمزبرانيّ عيّار بأوصال[1]

ويروى : عيّال وعوّال ، فأما : عوال فمن عال عولا ، وأما عيال ـ فلا أعرف ما هى : إلا أن يكون على المعاقبة التى بين الياء والواو بغير علة ـ وهى حجازية[2] .

٣ ـ كما روى عن تميم أنهم يقولون : القنوة ، والحجاز تقول : القنية[3] .

٤ ـ وفى اللسان : أن (حوث) بالواو لغة تميم[4] .

٥ ـ وأن تميما تقول : قلنسوة ، على حين تنطقها الحجاز : قلنسية[5] » « ويقال : قنوت وقنيت :عزيت الأولى الواوية لتميم ، واليائية للحجاز[6] .

ومن هذا العرض نقترح أن الحجاز آثرت الياء ، وأن تميما آثرت الواو .

ولكن قد تقف بعض الشواهد لتحول بين نتيجتنا السابقة ـ وأهمها :

١ ـ ما رواه أبو هريرة أن قوما يتعادون فقال مالهم ، فقالوا : خرج الدجال : فقال : كذبة كذبها الصيّاغون . وروى الصواغون : أى اختلقها الكذابون[7] .

٢ ـ جاء عن ابن منظور فى حديث على ـ رضى الله عنه ـ : « واعدت صوّاغا من بنى قينقاع[8] .

والمعروف أن المتكلم فى النص الأول هو الرسول صلى الله عليه وسلم . والشاهد الثانى علىّ ، وكلاهما قرشيان . وكان يجب أن تكون الرواية بالياء فى «صواغا» و« الصواغون » حتى يستقيم ما سبق أن قررناه ، وأرجح أن رواية الحديث الأولى بالياء ، بدليل ما جاء من رواية أخرى بالياء فيه ، وإنما جاءت رواية الواو ؛ لأن الحديث ربما روى على لهجة رجل من لغته إيثار الواو على الياء ، وأما ما جاء عن ابن

---

(١) المزبرانى ـ شعر مجتمع على موضع الكاهل . المخصص ٨/٦٢

(٢) المخصص ٨/٦٢ (٣) المزهر ٢/٢٧٦ للسيوطى

(٤) اللسان ٢/٤٤٥ (٥) المزهر ٢/٢٧٦

(٦) المزهر ٢/٢٧٦ وقارنه بما جاء فى قصيدة ابن مالك فى الأفعال الواوية واليائية . فى المزهر ٢ / ٢٧٩ .

(٧) اللسان : ١٠/٣٢٥

(٨) المرجع السابق

منظور فإننى أشك فيه ، والروايات اللغوية كثيرا ما حرفت وصحفت ، ومنها جاء البلاء .

٣ـ جاء عن ابن السكيت قوله : يقال فلان ذو دغوات ودغيات ، ولم يسمع دغيات إلا فى بيت رؤبة فإنهم زعموا أنه قال « نحن نقول : دغية وغيرنا يقول دغوة . وأنشد : (ذا دغيات قلبا لأخلاق[1]) ورؤبة هذا من تميم ، وآثر الياء على الواو - والجواب على هذا الإشكال : أن شاهد رؤبة السابق روى فى إبدال أبى الطيب[2] بالواو وكذلك فى اللسان[3] ، وبالرجوع إلى ديوانه وجدتها بالواو أيضا « ديوان رؤبة ١٨٠ » فيكون هذا مما يؤيد رأينا ، وثانيا : أن قول ابن السكيت السابق حاكيا رواية الياء لرؤبة تجعلنا نقف موقف الشك منها لقوله « فإنهم زعموا » فكأن الرواية لم تفارق منطقة الزعم إلى حدود التأكيد والتأييد .

وهب أن رؤبة قالها بالياء فهل يكفى شاهد واحد - لنقض عدة شواهد متتالية متواترة ؟!

وبعد أن وضح ما أوردناه فى منطق الحجاز ، وتميم . أريد أن أعرض جوانب أخرى فى بقاع جغرافية لنرى اتجاهات بقية اللهجات العربية فى تلك الظاهرة :

١ ـ حكى الفراء عن بعض بنى كلب « عنيان الكتاب » فى « عنوانه وعلوانه[4] »

٢ ـ شذ فى تثنية الممدود خمسة أشياء منها « حمرايان . وحكى بعضهم أنها لغة فزارة[5] » وقياسها حمراوان[6] » .

وجاء فى اللسان عن أبى زيد « سمعت بعض فزارة يقول : هما كسايان وخبايان وفضايان ، فيحول الواو إلى ياء[7] ، وقد حكم النحاة بشذوذ لهجة فزارة السابقة[8] ، ولكن الكوفيين قاسوا عليها[9] ، ومنع ذلك غيرهم .

---

(١) الزهر : ١/٢٥٤ والمعنى : ذو أخلاق رديئة متلونة .
(٢) إبدال أبى الطيب : ٢/٥١٩
(٣) اللسان ٢٨٨/١٨
(٤) إبدال ابن السكيت : ٨
(٥) الأشمونى : ١١٤/٤
(٦) الهمع : ٤٤/١
(٧) اللسان : ١٣/١
(٨) التصريح : ٢/٢٩٥ ، والأشمونى : ٢١٢/٤
(٩) الهمع : ٤٤/١

٣ – جاء فى الغريب المصنف أن الكسائى سأل بنى سليم عن « نما ينمو » – فلم يعرفوه بالواو [١]، ومعنى هذا أنهم عرفوه بالياء ، ويلاحظ على هذه النصوص أنها آثرت الياء كلهجة الحجاز ، فهل هناك علاقة بين هذه القبائل وبين الحجاز ؟ .

أما « كلب » فقد تأثرت بالحجاز ؛ لأنهم عاشوا على الطريق الذى كان يسلكه الحجازيون فى تجارتهم إلى حدود الشام [٢] ، وأما فزارة فكانت بطونها تسكن منطقة الحجاز ، وإن كانت قيسية ، وأما سليم – فقد كانت على صلة وثيقة بقريش [٣] .

فعلاقة هذه القبائل كما نرى – وثيقة الصلة بالحجاز ، فإذا عرفت أن الحجاز يغلب عليها طابع الحضارة ، وقد شاركتها القبائل السابقة – أمكننا أن نرجح أن القبائل المتحضرة آثرت الياء .

وإذا كان هذا هو موقف القبائل – المتحضرة – فإننى أعرض الآن نموذجًا جديدا لقبائل أخرى لها وضع مميز فى هذه الظاهرة وهى :

١ – جاء فى مجالس ثعلب :

تحنُّ إلى الفردوس والشّيز دونها
وأيهات عن أوطانها حوث حلّت

قال أبو العباس : هذه لغته وهو رجل من طيئ .

٢ – قال عياض بن أم درة [٤] :

حمىً لا يُحلّ الدهرَ إلّا بإذننا
ولا نسأل الأقوام عهد المواثق [٥]

« ورواه ثعلب عقد المياثق » .

٣ – حكى ابن السكيت عن بعض الطائيين أنهم يقولون « أونق » ثم قلبها بعض العرب ياء تخفيفًا فصار « أينق » [٦] ، وكما حكاها عن طيئ ابن السكيت فقد حكاها عنهم يعقوب [٧] .

---

(١) الغريب المصنف : ٥٠٢ مخطوط رقم ١٢١

(٢) فى اللهجات العربية : ٥٨ دكتور أنيس .

(٣) تاريخ العرب : ١٧٦/٤ جواد على .

(٤) قال أبو سعيد : حفظنى عياض بن درة : نوادر أبى زيد ٦٤ .

(٥) نوادر أبى زيد : ٦٥/٦٤ ، شرح الشافية : ٢١٠/١

(٦) شرح المفصل : ١٢٩/٨ ، إصلاح المنطق : ١٤٤

(٧) اللسان : ٢٤١/١٢

٤ ـ وجاء في المخصص عن صاحب العين : وطيء تقول : محيته محيًا ، ومحوًا[1] » .

٥ ـ جاء في إصلاح المنطق عن الفراء : ضاره يضيره قال : وزعم الكسائي أنه سمع بعض أهل العالية يقول : لا ينفعني ذلك ولا يضورني[2] .

٦ ـ حكى ابن سيده عن العرب يقولون : ما أعيج من كلامه بشيء ـ أي : ما أعبأ به ، وبنو أسد يقولون : ما أعوج[3] ، كما روى ابن السكيت عنهم « عزيته إلى أبيه ، وبنو أسد يقولون : عزوته إلى أبيه »[4] .

٧ ـ جاء عن أهل نجد قولهم : لهوت عنه ألهو ـ وغيرهم « لهيت »[5] .

٨ ـ سمع أبو زيد الأنصاري رجلا من بني عقيل يقول : هم اللذون قالوا ذاك »[6] وفي الفصحى بالياء .

وبالنظر إلى هذه النصوص نرى أن طيئا ، وقبائل أسد ونجد وعقيل آثرت الواو في تلك الروايات باستثناء الشاهد الثاني الذي ورد مرة بالياء وأخرى بالواو ، ولكني أرجح رواية الواو لطيء . ومما يؤكد رواية الواو ـ قول ثعلب عنها « وهي أجود وأشهر »[7] ثم إن صاحب رواية الواو هو عياض بن درة ـ وهو من طيء . وإذا كانت هذه القبائل قد آثرت الواو كتميم فما العلاقة بينها وبين تميم ؟ لا علاقة بينها إلا أنها قبائل بدوية ـ فكأن البدو قد مالوا إلى الواو في تلك الصيغ .

ولكن ألا ينقض هذا التقسيم ـ ماعثرنا عليه من روايات تسند الكلمة الواحدة وقد وردت بالياء والواو لقبيلة بعينها ؟ فقد ورد في المخصص عن أبي صخر الهذلي :

فإن يعذر القلب العشية في الصبا
فؤادك لا يعذرك فيه الأقاوم[8]

---

(١) المخصص : ٧/١٣
(٢) إصلاح المنطق ١٣٦ ، المخصص : ٢١/١٤
(٣) المخصص : ٢١/١٤ ، إصلاح المنطق : ١٣٦ اللسان : ٨٦٢/٣
(٤) المخصص : ٢٣/١٤
(٥) نوادر اللغة لأبي زيد : ٨٩
(٦) المصباح : ٨٦٢/٢
(٧) نوادر اللغة لأبي زيد ٦٤ ـ ٦٥
(٨) المخصص : ٢٢/١٤ .

وقد روى « الأقايم » يريد القوم ،

وبما أن صخرا هذا من هذيل ، وهذيل تقع فى منطقة الحجاز ، وكان المفروض أن تقول (الأقايم) بالياء ، إلا أنها وردت بالياء مرة والواو مرة أخرى ، وأرجح أن هذيلا وإن كانت تسكن مناطق الحجاز إلا أن جزءًا منها كان بدوًا يعيش على قنن الجبال ومسارب المياه ، وكان عملهم إثارة الرعب ، ونهب القوافل ، والصعلكة التى تتمثل فى مجموعة من شعرائها وعدائيها – وهنا نرجح أن الصيغة الواوية للبدو منهم ، واليائية للحضر ، وعلى النظرة إلى المجتمع يمكن أن نحلّ المشاكل التى تعترضنا ، فإذا ماعزا صاحب الجمهرة صيغة : يأتو – بدل : يأتى فى قول خالد بن زهير :

ياقوم مالى وأبا ذؤيب

كنت إذا أتوته من غيب [1]

إلى هذيل ، وسار على هذا ابن سيده فى مخصصه [2] ، وأبو على فى أماليه [3] ، ثم يعرض يونس بن حبيب نصا مخالفاً يقول فيه « أجويت القدر » – وهذيل تقول أجييتها [4] . فكأن هذيلا نطقت مرة بالواو ، ومرة بالياء ، وإذا عزى الحميرى – الكلوة – على أنها لغة اليمن فى الكلية » [5] . فإننا لا نرى أن اليمن كلها كانت تنطق بالواو فى مثل هذا – بل أرجح أن المجتمع البدوى منهم كان ينطق ذلك بالواو فقط ، وخير من يمثلهم قبائل : خثعم وزبيد.

وهذه المعاقبة بين الواو والياء كما كانت فى العربية – حدثت فى أخواتها ، فقد حدث ذلك فى الآرامى ، وفى العاميات [6] .

– ٣ –

وهناك صيغ يظنها الباحث من المعاقبة وليست منها :

أولا ١ – من ذلك قولهم : هو يأتيك فى الغدايا والعشايا » [7] فإن أفردوها

(١) الجمهرة : ١/١٧٠ ، ديوان الهذليين : ١/١٦٥ ط دار الكتب .

(٢) ٢٨/١٤ (٣) أمالى القالى : ٢/٢٠٩ .

(٤) ما تفرد به بعض أئمة اللغة : القسم الثانى مما تفرد به يونس بن حبيب : خط دار الكتب رقم : ٤١٨

(٥) شمس العلوم للحميرى : ٩٣

(٦) من ذلك ماورد فى تكملة إصلاح ماتغلط فيه العامة للجواليقى ص ٣٣ من قولهم : منيار – الذى يستصبح به على أبواب الملوك ، والصواب : منوار ؛ لأنه مأخوذ من : النور أو من : النار ، وكلاهما من : الواو. ولو بنيت مفعالا من : النور و القول لقلت : منوار ومقوال بالواو ، ولم تقله بالياء . ويبدو : أن مافى لهجتنا المصرية . عاوز وعايز من هذه المعاقبة الحجازية.

(٧) أنظر أمثلة فى : درة الغواص ٧٩

قالوا : الغدوات . فليست : الغدايا . معاقبة ، لأن الذى أوجب تلك الصيغة الحفاظ على الموازنة فى الألفاظ وتعادلها ، فهم قد غيروا الواو فى (الغدوات) إلى الياء فى (الغدايا) للازدواج وحده .

٢ ـ ومن ذلك ماجاء فى الحديث النبوى فى عذاب القبر : « لا دريت ولا تليت ولا اهتديت » والأصل : تلوت ـ فأبدل واوها ياءً اتباعاً لياءى الفعلين قبله وبعده . ولو أفردها لقال : تلوت .

٣ ـ ومن ذلك قولهم للشجاع الذى لايزايل مكانه (هو أهيس أليس) والأصل : (الأهوس) بالواو ؛ لاشتقاقه من (هاس يهوس) إذا دقّ ، فعدلوا به إلى الياء ليوافق لفظ (أليس) ، فهو ليس من من المعاقبة فى شىء ، وإنما جىء به للانسجام وتوافق النسق الصوتى بين أصوات اللين ، وهو نوع من (تقريب[1]) الأصوات ، أو (مضارعتها)[1] أو (تماثلها) : Assimilation ، وقد يسمى « المماثلة بين أصوات اللين » ، أو Vowelharmony

٤ ـ وأنشد أبو زيد :

(عيناءُ حوراءُ من العين الحِيَرْ) .

وفى قوله تعالى «وزوجناهم بحورٍعين»[2] قال ابن خالويه : حكى الفراء[3] : بحير عين ، وقرأ بها النخعى[4] . وأرى أنها ليست من المعاقبة ؛ لأن قلب الواو ياء فى فى (الحير) وأصلها : الحور جاء نتيجة كسر الحاء ، والمعاقبة تكون بغير علّة ، أما هنا : فصيغة : الحير : للمعادلة والموازنة والمماثلة مع : العين . فالموازنة فى هذه الأمثلة لسبب خارجى ، ومن ذلك ما كانت تقوله العرب للرجل إذا قدم من سفر : أوْبةً وطوْبةً[5] » أى : أُبْت إلى عيش طيب ومآب ، طيّب ، والأصل : طيْبة ، فجاءوا بالواو لمساوقة الأسلوب ومحاذاته .

---

(١) سماه سيبويه ى : الكتاب ٢/٢٥٩ التقريب ، كما سماه : المضارعة : الكتاب : ٢/٤٢٦
(٢) الطور ٢٠
(٣) مختصر شواذ القرآن ١٤٥ ، لابن خالويه..
(٤) البحر المحيط ٨/٢٠٦
(٥) المزهر : ١/٣٤٠ للسيوطى .

٥ ـ ومن ذلك : أن الصيغة ربّما تلكأت على سلم التطور فتقوقعتْ فى مرحلة التهذيب كقول الشاعر :

عديني أن أزورك أمّ عمرو

(دياوين) تشقّق بالمداد

وعند ما بلغ التطور مداه ونهايته فى الفصحى أصبحت (دواوين) جمع : ديوان .

ثانياً : وليس من المعاقبة ماجاء من باب توهم أصالة الحرف فى مثل قول الشاعر :

١ ـ ولقد رأيتك بالقوادم مرةً

وعليّ من سدف العشى رياح (١)

فالقياس : رواح ؛ لأنه من راح يروح ، لكنه لما كثر قلب هذه الواو فى تصريف هذه الكلمة ـ ياء ، نحو : ريح ورياح ، ومريح ومستريح ، وكانت الياء أيضاً عليهم أخفّ ، تدرجوا من ذلك إلى أن قلبوها فى (رَيَاح) مع زوال الكسرة التى توجب القلب ، وكأنهم توهموا أن الياء ـ أصلا فى ذلك ، أى ظنوها أصلية وليست منقلبة عن واو . وقد أنكر أبو حاتم السجستانى على عمارة بن عقيل ـ ـ وهو من شعراء البادية فى القرن الثالث الهجرى ـ حين ذكر فى شعره (الأرياح) جمع : ريح فقال له أبو حاتم : هى : الأرواح ، فقال عمارة معتذراً : جذبنى إليها طبعي . أى إلى (أرياح) ؛ أماتسمعهم يقولون : رياح

ومن ذلك قولهم : أعياد ـ فى جمع عيد . والقياس أن يقال : أعواد ؛ لأن أصل عيد (عود) لكن العرب توهمت أصالة الياء فى : عيد ، فجمعوها (أعياد) .

٢ ـ ومن هذا قول الراجز :

هو الجوادُ بنُ الجوادُ بن سَبَلْ

إن دوّموا جادَ وإنْ جادوا وَبَلْ (٢)

فالواو فى دوّموا ـ أصلية ، لأنها مشتقة من الدوام ، لكن رواه ابن قتيبة فى كتاب (أدب الكاتب) بلفظ (ديّموا) بالياء ، وهذا شاذ ؛ لأن : الدِّيمة ـ أصل الياء فيها

(١) الخصائص ١/ ٣٥٠ لابن جنى ، وانظر : مجالس العلماء ١٩٣ للزجاجى .

(٢) التصريف الملوكى ٣٣ لابن جنى ط الثانيه ١٩٧٠ دمشق ، والبيت لمدح رجل وتفضيله على غيره فى الكرم .

واو ، لأنها من الدوام ، لكن الواو — لما سكنت وانكسر ما قبلها قلبت ياء ، فكان ينبغى حين ذهبت الكسرة الموجبة لانقلاب الواو ، أن ترجع إلى أصلها — فيقول (دوَّموا) ، ولكن هذا من البدل الذى يلتزمونه مع ذهاب العلة الموجبة له .

ثالثًا :

— ولا معاقبة بين الواو والياء فيما جاء عن السّهو والغلط ، وذلك كقراءة الحسن البصرى « وما تنزَّلتْ به الشَّياطون » قال ابن جنى فى المحتسب[1] : والشياطون غلط » وقال غيره :لحن فاحش . وكذلك قال الفراء . وقد سمع مثل ذلك عن العرب . ففى كتاب : عبث الوليد ، لأبى العلاء المعرى قول أعرابى : هذه بساتون[2] بنى فلان » ومثل ذلك قراءة الكسائى وكان يصلى بهارون الرشيد فقرأ « لعلَّهم يرجعين » فى قوله تعالى « لعلهم يرجعون » فلما سلمت قال يا كسائى : أى لغة هذه ؟

قلت : يا أمير المؤمنين. قد يعثر الجوادُ
فقال : أما هذه فنعم[3] !

رابعًا :

١ — ومن خلال الشواهد لمحنا فى المعاقبة (وَحْدة) المعنى بين الصيغتين الواوية واليائية .، فلا معاقبة فيما جاء عن ابن السكيت عن أبى عمرو الشيبانى : الكور — المبنىّ من الطين ، والكير : الزقّ الذى ينفخ فيه[4] .

٢ — وقولهم : قلوت وقليت : تقال لقلْى البُسْر والبرّ ، وكل شيء يقلى بالواو والياء ، ولا يكون فى البغض إلا قليت . وقولك : وجه صبوح ، وصبيح ، لا يصلح للمعاقبة ؛ لأن الصّبوح : ماحلب من اللبن بالغداة ، أما الصبيح ، فهو الوصف من الصباحة بمعنى الجمال والبهاء ، فالكلمة بالياء لا غير .

وقولهم : ضاع يضيع . من الضياع[5] ، فالألف منقلبة عن ياء ، وضاع يضوع :

---

(١) ٢/١٣٣ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٩ . القاهرة . وانظر تفسير القرطبى ١٣/١٤٠ ، ونهاية الأرب ٣/٣٩٢ ط القاهرة ، ومختصر شواذ القرآن ١٠٨ لابن خالويه .

(٢) عبث الوليد ٢٢٦ للمعرى . دمشق ١٩٣٦

(٣) إنباه الرواه : ٢/٢٦٢
(٤) المزهر ٢/٢٩٠ ، ٢٩٨

(٥) الإبدال ١/٤٥٥ لأبى الطيب اللغوى .

الألف منقلبة عن الواو. والمعنى مختلف، إذ الأولى من : الضياع، والثانية من : ضاع، إذا ظهر. فلا معاقبة بين الصيغتين.

ومن هذا : البيْن، فأصله الظرف المكانى بيْن – ثم انتقل إلى : الفراق والبعد والوضوح، وأصلها : الظرف (بَيْن) ثم قالوا : بان يبين – وفرقوا فى المصدر فقالوا للبعد : البيْن، وللوضوح : البيان، ثم قالوا : بَوْن للمسافة بين الشيئين. فالعربية هنا قد اتخذت من الياء والواو وسيلة لصرف الألفاظ إلى معان مختلفة. كقولنا : الغيث : للمطر، والغَوْث لمعنى جديد وهو المساعدة والنجدة (1) وهذا التباين يمكن أن يسمى بالقيم – الخلافية : differential Values

٣ – ولا معاقبة فى قراءة الجمهور «كذَّبتْ ثمود بطغواها» مع أنها من [الطغيان] لأنهم يفرقون بين الاسم والصفة، فتقلب فى الاسم واوا، كما هنا. وتبقى فى الصفة كما قالوا : امرأة صديا وخزيا (أنظر البحر ٨/٤٨١). هذا. وقد نقل بعضهم أن طغى – قد يستعمل واويًا ويائيًا مثل : طغيت طغيانًا وطغوت طغوانا، وعلى هذا الأخير تكون معاقبة.

— ٤ —

ومن طريقتنا فى الدرس اللغوى أن نعرض مباحثنا فيه على القرآن الكريم لنرى تصويره للظواهر اللغوية، وفى جولة أعرض من خلالها تصويره للمعاقبة من خلال قراءاته المختلفة :

١ – أن عمر بن الخطاب قرأ «الله لا إلٰه إلا هو الحى القيّام (2)» وأصله : القيْوَام، فلما التقت الواو والياء وسبقت الأولى بالسكون، قلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء (3)، وعمر قرأ على منطق الحجاز لأنه قرشى.

٢ – وقوله سبحانه «لاتذرْ على الأرض من الكافرين ديارا (4)» وهو : دوار :

---

(1) النحو العربى ٢٠٧ د. إبراهيم السامرائى. ط بيروت.

(2) البقرة ٢٥٥

(3) تفسير الطبرى ٦/١٥٥ ط دار المعارف، والمحتسب ١/١٧٥ مخطوط بالتيمورية – القاهرة، مختصر شواذ القرآن ١٩ لابن خالويه، معانى القرآن ١/١٩٠ للفراء. ط دار الكتب المصرية، ديوان الأدب ورقة ٣٣٠ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٨٣ لغة تيمور

(4) نوح ٢٦

فعال من دار يدور ، فالآية نزلت بلهجة الحجاز ، وأُقِرّتْ كذلك في المصحف ، ورسم المصحف يعتبر مرشدًا إلى حدّ كبير للهجة الحجاز .

٣ ـ وقوله جل شأنه : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً »[١] والأصل . قواماً ، فحولت واوها ياء ، والدليل على هذا ماجاء من كلام العرب مقولا على أصله ـ من قول حميد الأرقط :

(قِوامُ دنيا وقِوَامُ دين[٢])

وبعض القراء قرءوا في الآية السابقة : « قوامًا للناس » .

٤ ـ وفي قوله تعالى : « وعلى الذين يُطيقونَهُ فديةٌ »[٣] . قرأ ابن عباس وعائشة وعكرمة وأيوب السختياني وعطا (يُطوَّقونَه) ، كما قرأ آخرون (يُطيَّقونه)[٤] .

٥ ـ وفي قوله تعالى: «فادع لنا ربك[٥] » وأصلها من : دعا يدعو ، إلا أن لغة بني عامر (فادِع)[٦] بكسر العين ، وهي عندهم من ذوات الياء (دعا يدعي).

٦ ـ وفي قوله عزّ اسمه : « أو جاء أحدُ منكم من الغائط »[٧] قرأ الزهري وابن مسعود : من غَيْط . » وأصله : غوْط على فعْل . قلبت الواو للتخفيف ـ ياء ، أو قلبت استحساناً مثل : العلياء ، وهي من علوت[٨] ، والعيْصاء بمعنى العَوْصاء (هي الكلمة الغريبة ، ومن الدواهي : الداهية الشديدة) .

٧ ـ وفي القرآن : « قِنوان دانية »[٩] وحكى الفرا لغة رابعة وهي (قُنْيان) بالياء[١٠] .

(١) المائدة ٩٧
(٢) تفسير الطبري ١١/٩١ ط دار المعارف .
(٣) البقرة ١٨٤
(٤) مختصر شواذ القرآن ص ١١ : والبحر المحيط ٢/٣٥ والمحتسب ١/١٢٥ مخطوط بالتيمورية .
(٥) البقرة ٦١ (٦) البحر ١/٢٣٢
(٧) النساء ٤٣
(٨) المحتسب ١/١٩٠ ط المجلس الأعلى بالقاهرة .
(٩) الأنعام ٩٩
(١٠) مختصر شواذ القرآن ص ٣٩ لابن خالويه .

وإذا وسّعنا الدئرة قليلا ، وخرجنا من حقل المعاقبة إلى حقل آخر ، وجدنا مارأيناه آنفا قد التزم فى عدة ملامح من ظواهر العربية ، من ذلك أن الكسائى وهشاما قرءا قوله سبحانه : « وقيل » وغيض ، وحيل ، وجيء ، وسيق — بالواو بدل الياء (البحر ج ١ ص ٦١) كما قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرِّف فى سورة هود . آية ٧٧ قوله تعالى : « « سوءبهم » بالضم والواو (البحر ج ٧ ص ١٥١) وقد عزيت الصيغ اليائية لقريش ومن جاورها من كنانة (البحر ج ١ ص ٦١) كما عزيت الصيغ الواوية إلى قبائل قيس وعقيل ومن جاورهم ، وعامة أسد ، وإلى دُبَيْر وفَقْعس (شرح ابن عقيل ١/ ٤٢٦) .

ويلاحظ أن الصيغ اليائية معزوة لقبائل الحضر كقريش وكنانة ، على حين آثرت القبائل البدوية كأسد وقيس وعقيل ، ودبير وفقعس (وهما بطنان من أسد) الصيغ الواوية .

ربما كانت المعاقبة بين الواو والياء ؛ اكثرة شيوعهما فى النسيج العربى ، وقد دلت التجارب العلمية على أن نسبة ورود الكسرة التى هى بعض الياء ١٨٤ فى الألف ، والضمة ١٤٦ فى الألف[1] وقد قام أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس بإحصائية فى القرآن الكريم أقتطف منها مايؤيد وجهة نظرى فى شيوع صوتى الواو والياء :

نسبة شيوع الواو ٥٢ مرة فى كل ألف ، والياء ٤٥ مرة فى كل ألف .

على حين وقعت القاف ٢٣ مرة ، وكل من السين والدال ٢٠ مرة ، والجيم ١٦ مرة ، والخاء ١٠ مرات[2] . ولم يتقدم على (الواو والياء) فى نسبة شيوعهما غير : اللام والنون والميم ؛ لأن هذه الثلاثة تعدّ من الناحية الصوتية : أشباها لأصوات المدّ اللّين ، ونظرية الشيوع تقرر أو تنادى بأن الأصوات

---

(١) الألسنية العربية (٢) ص ٢٩ . ريمون طحان . دار الكتاب اللبنانى — بيروت .

(٢) الأصوات اللغوية ١٧٣ د . إبراهيم أنيس ط الثانية . نهضة مصر .

التى يشيع تداولها فى الاستعمال ، تكون أكثر تعرضا للتطور من غيرها ، وكان صاحب هذه النظرية Vilhelm Thomsen وتبعه كثير من علماء اللغة المحدثين .

وإنما تحولت الواو إلى الياء ؛ لأن الياء أخف من الواو ، والضم وهو الواو الصغيرة كما يرى علماء العربية القدامى - يحتاج إلى جهد عضلى[1] أكثر ، لأنه يتكون بتحرك أقصى اللسان ، على حين يتكون الكسر بتحريك أدنى اللسان ، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحرك أقصاه . ولهذا تميل البيئات المتحضرة إلى الكسر ، فهو يشير إلى الرقة ، والكسرة رمز المؤنث ، والتصغير فى العربية - بالياء ، والكسرة كما يقولون : هى الياء الصغيرة .

موسيقية المعاقبة :

على أن (المعاقبة) تمثل جانبا من المرونة اللغوية ، وبذلك يتحقق لها نوع من الموسيقى الظاهرية ، فالصرفيون يرون أن الواو إذا وقعت عينا لجمع على فُعّل - فالقياس هو الإعلال (صيّم ونيّم) ثم نسمعهم يقولون إن الأكثر هو التصحيح (صُوّم ونوّم) ، كما يرون أن الفعل الثلاثى المفتوح العين الواوى اللام تصح لامه فى اسم المفعول مثل : معدوّ ومرجوّ ، ولكن وجدنا نغمة أخرى فى التراث كقول عبدالغوث بن وقاص الحارثى :

وقد علمت عُرْسى مليكة أننى ... أنا الليث معديًّا عليه وعاديا

وهذه المراودة بين الواو والياء تحقق نسقاً صوتيا وظلالا موسيقية ذات ألوان .

أحكام على المعاقبة :

١ - يقول سيبويه فى الكتاب ٢ - ٣٨٢ س ٥ - ٦ « وقالوا مرضىّ ، وإنما أصله الواو ، وقالوا مرضو ، فجاءوا به على الأصل والقياس »

٢ - ويقول الفراء فى كتاب المنقوص والممدود ص ٣١ : الرحى بالياء والألف ؛

(١) انظر : الإنصاف ١/١٤ ط السعادة الرابعة . حيث يرى أن الياء أخف من الواو ، وانظر : أسرار العربية ٣١٦ لابن الأنبارى ط دمشق ، ويقول صاحب التصريح ١/٥٩ « أقوى الحركات الضم ويليه الكسر ثم الفتح » .

وقدم ذكر الياء ؛ لأنها أعلى . ففى اللسان : تثنيتها : رحوان ، والياء أعلى .

٣ ـ قال القزاز فى الجامع ، وابن القطاع فى أفعاله : بروت العود والقلم بروا ، وبريته بريًا . قال القزاز : والياء أعلى. القزاز القيروانى ص ٩١ . ط تونس .

٤ ـ يقول ابن عصفور ؛ فأما فُعّال نحو : صُوام فلا تقلب الواو فيه ياءً لبعدها من الطرف ، وقد جاء حرف واحد شاذ ، وهو قولهم : فلان فى صُيَّابة قومه ، يريدون : صُوَّابة . أى : صميمهم وخالصهم . « ابن عصفور والتصريف ص ١٥٠ تأليف : قباوة » .

٥ ـ وفى المخصص لابن سيده (١٤/ ٢٥) : وجعلته على حنديرة عينى ، وحندورة عينى ، يقول أبو عبيد : والحنديرة ؛ أجود . وأرى أن هذه الأحكام تمثل وجهة النظر المعيارية من جانب علماء العربية الأقدمين .

المعاقبة والمجتمع :

وتطور الصيغة من صوت إلى آخر يحقق مع الجانب الموسيقى كما رأيت ـ جانبا آخر يتلخص فى أن الصيغتين الواوية واليائية يمكن أن تصور كل منهما ما عليه المجتمع من مستوى متخلف أو متقدم ، حضرى أو بدوى ، إذ اللغة نموذج لحياة الشعوب تقدما وتخلفا خذ مثلا ماجاء فى طبقات الزبيدى(1) حين عزا إلى قبيلة (بنى عامر) صيغة (ما سيّدتك العرب) وقياس هذا الفعل كما تعلم من باب : فعل بفتح العين فى الماضى وضمها فى المضارع (سوّدتْك) . وأرجح أن (بنى عامر) كلها لم تنطق هذا الفعل بالياء ـ بل الذين نطقوه منهم كذلك هم الحضر ، ومما يرجح هذا أن منازل (بنى عامر) بعضها كان فى نجد ، والآخر كان فى الطائف ، ولا شك أن القاطنين منهم فى الطائف كانوا حضرا ، وأن ساكنى نجدا كانوا بدوا . كما أحب أن أشير إلى أمر هام ، وهو أن المعاقبة ليست لازمة فى لهجات الحجاز ، ومن سار سيرها ، وإلا

(١) طبقا النحويين واللغويين ٢٩٥ للزبيدى ط الخانجى . القاهرة .

لخلتْ من منطقهم الواوات ، وهذا ما لم ألاحظه ، فالمعاقبة إذن ليست مطردة فى كلامهم .

اقتراح :

أرى أن توسع أبعاد المعاقبة اللغوية فلا تقتصر على تعاقب حرفى الواو والياء كما رأى علماؤنا القدامى ، بل يمكن أن نبسط حدودها ، وننشر أبعادها فتشمل التعاقب بين حركتى الضمة والكسرة ، « وقد كان متقدمو النحاة يسمون الضمة الواو الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة[1] » لأن الواو ليست فى الحقيقة إلا امتدادا للضم مع فرق يسير فى وضع اللسان ، وأن الياء امتداد للكسرة مع فرق يسير فى وضع اللسان أيضاً ، ولقد جمعت قدرا صالحا من التعاقب بين الكسرة والضمة ، فكانت نتيجة هذا العمل أن سار فى خط واحد مع تعاقب الواو والياء حيث عزيت صيغ الضم إلى القبائل البدوية ، والكسر إلى القبائل القارية ، تماما كالواو والياء . وذلك يتفق وما أراه من توسيع أبعاد (المعاقبة) لتشمل الواو والياء ، والضمة والكسرة ، فمن ذلك :

(أ) أن تميما تضم أوائل (عدوة ، وعشوة ، وأسوة ، وقدوة) والحجاز تكسر .

(ب) ضم الراء من (رضوان) لغة قيس وتميم[3] والكسر لغة أهل الحجاز[4] .

(ج) ضم الصاد من (صنوان) لغة تميم وقيس ، وبالكسر لغة أهل الحجاز[5] .

(د) ضم القاف من (قنوان) لغة قيس ، وبالكسر للحجاز[6] ، وفى اللسان أن الصيغة بالكسر معزوة إلى قبيلة كلب . وبيئة هذه القبيلة ليست إلا امتدادا للبيئة الحجازية المتحضرة كما سبق فى هذا البحث

---

(١) سر صناعة الإعراب ١/١٩ لابن جنى . ط أولى
(٢) المزهر ٢/٢٧٧ ، إبراز المعانى ٣٤٤ وانظر إتحاف فضلاء البشر ٢٥٤
(٣) المصباح ١/٣٥٢
(٤) إبراز المعانى ٢٦٧
(٥) البحر المحيط ٥/٣٥٧
(٦) المصباح ٢/٧٩٨

(هـ) كسْر الشين من (شواظ) لغة الكلابيين ، وبعضهم حضر ، على حين ضم غيرهم من البدو ، كما وردت قراءة ابن كثير وابن محيصن بكسر الشين. وابن كثير مكى ، وابن محيصن قرشى ، فهما يمثلان لهجة الحجاز الحضرية التى تجنح إلى الكسر .

(و) (قبلاً) بالضم لتميم ، وبالكسر لكنانة[1] وكنانة من الحضر .

(ز) (Ṣuḫru) فى الآشورية بالضم ومعناها : صغير ، وهى تقابل (Ṣeḫru) فى البابلية بالكسر بالمعنى السابق ، والعلاقة واضحة بين الآشورية وبين اللهجات الشرقية والتى تؤثر الضم ، كما أن العلاقة واضحة كذلك بين البابلية وبين اللهجات الغربية والتى تؤثر الكسر .

(ح) (أموّ) فى الآشورية ، بالضم ، ويقابلها فى البابلية (إمو) بالكسر ، وفى العبرية עִם

فإذا نظرنا إلى المقارنات السامية وجدنا أن الضمة والواو فى العربية يتعاقبان فى كثير من الصيغ مع الكسرة والياء فى العبرية . وعلى سبيل المثال :

	فى العربية	فى العبرية
اسم	وَلَدٌ	יֶלֶד
أفعال	وَلَدَ	יָלַד
	وَرَثَ	יָרַשׁ
	وَعَدَ	יָעַד
ضمائر منفصلة	أَنْتُمْ	אַתֶּם
	أَنْتُنَّ	אַתֶּן
	هُمْ	הֵם
	هُنَّ	הֵן
ضمائر متصلة	...تُمْ	־תֶם
	...تُنَّ	־תֶן

---

(١) كتاب اللغات فى القرآن ص ٢٦ .

وفى النهاية يُؤَكد هذا العمل وحدة الظاهرة ، وهذا يقودنا إلى وحدة الحكم بينهما كما رأيت . ولكن لماذا آثرت القبائل البادية صوت الواو أو الضمة ، والحاضرة صوت الياء أو الكسرة ؟ ربما مالت القبائل البادية إلى الضمة ، وهو مقياس ليس خلفى ؛ لأن الضم مظهر من مظاهر الخشونة البدوية وطبع الجفاة من العرب ، كما مالت القبائل القارية (المستقرة) إلى الكسر ؛ لأن الكسر دليل التحضر والرقة فى معظم البيئات اللغوية .

وإنما وقع التعاقب بين صوتى الواو والياء والضمة والكسرة ؛ لأنهما متشابهان من الناحية الصوتية ؛ فكلاهما من أصوات اللين الضيقة .

كما نراهما فى العربية الشمالية والجنوبية والساميات كعلامة إعراب . فالمثنى يعرب بالياء والنون فى حالتى النصب والجر فى اللغتين الأكدية والبابلية القديمتين ، والجمع المرفوع فى تلك اللغات بالواو ، وهى علامة الجمع المرفوع فى كل اللغات السامية تقريبا ، كما ينتهى بياء فى حالتى النصب والجر .

وعلى كل فالعربية الفصحى تميل إلى لهجة الحجاز ، حيث أن الفصحى تميل نحو الكسرة كلما كان لها أن تختار بينها وبين الضمة ؛ مما يدل على أن الواو أثقل من الياء ، كما أن الواو خلفية فى مستوى الحلق ، والاستدارة فى مستوى الشفتين ، الأمر الذى يجعل نطقها أثقل من نطق الكسرة أيضاً ، ويُؤَكد هذا ماورد فى كتاب الإنصاف لابن الأنبارى ج ١ ص ١٤ ط السعادة . قالوا : طويت طياً ، ولويت لياً ، وشويت شياً . والأصل فيه : طوْيا ولوْيا وشوْيا ، إلا أنه لما اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن قلبوا الواو ياء ، وجعلوهما ياء مشددة ، وإنما وجب قلب الواو إلى الياء دون قلب الياء إلى الواو ؛ لأن الياء أخف من الواو ، فلما وجب قلب أحدهما إلى الآخر كان قلب الأثقل إلى الأخف أولى من قلب الأخف إلى الأثقل » .

هذا . ومما تجب الإشارة إليه أن ابن مالك نظم الأفعال التى جاءت لاماتها بالواو

والياء ، كما عقد لها ابن السكيت بابا فى إصلاح المنطق[1] ، وابن قتيبة باباً فى أدب الكاتب[2] .

وأول قصيدة ابن مالك .

قل إن نسبت عزوته وعزيته
وكنوت أحمد كنية وكنيته

وطغوت فى معنى طغيت ، ومن قنى شيئا يقول : قنوته وقنيته

وبلغت القصيدة تسعة وأربعين بيتا كما فى رواية السيوطى[3] ، وآخر أبياتها :

عينى همت تهمو وتهمى دمعها
وحموته المأكول مثل حميته

احمد علم الدين الجندى

---

(١) ص ١٣٨

(٢) ص ٣٦٤ / ٤٥٩ .

(٣) المزهر ٢/٢٧٩

المستدرك من معاني حرفي التنفيس

للدكتور صبحي عبد المنعم سعيد

تقديم

عُني السابقون من النحاة بالإعراب وعوامله، والبناء وأحواله، وكادت هذه العناية تصرفهم عن استيفاء مدلول كثير من حروف المعاني، ولاسيما مالا يعمل منها.

وحاول المتأخرون من النحويين استدراك مافات أسلافهم فعنوا بهذه الحروف من خلال اشتغالهم بالقرآن الكريم تفسيرًا لمعانيه، أو شرحاً لعلومه، ومنهم من خصها بالكتب أو الأبواب الطوال، يشرحون فيها معانيها المختلفة، ويصفون وظيفة كل حرف منها في الجملة؛ ولقد يسر الله لشيخ من شيوخ هذا العصر - رحمه الله - أن يبذل في جمع هذا التراث والتعليق عليه جهدًا مشهورًا مشكورًا.

وإذا كان طلب العلم أمانة محمولة حتى يقبض الله الدنيا - فقد انكشف لي - وأنا أنظر في آيات القرآن الكريم، وأقوال الشعراء القدامى - معنى لحرفي التنفيس أُراه قد فات النحاة قبلا فلم يُبن لأحد منهم.

ولقد بذلت قصارى جهدي في بيان هذا المعنى، وعرض أدلته مستأنساً بما قال السابقون في شرح النصوص تارة، مجتهدًا في استنباط ما يحتمله النص وأُراه الوجه تارة أخرى.

وجزى الله خيرًا من نظر في مقالي هذا فدلّني على ثغرة فيه خفيت عليّ؛ أو رأى فيما قلت غير الذي رأيت، فأهداه إليّ.

السـين

يقول سيبويه فى معنى (السين) :

« فإذا قال : ذهب ، فهو دليل على أن الحدث فيما مضى من الزمان ، وإذا قال : سيذهب ، فإنه دليل على أنه يكون فيما يُستقبل من الزمان[1] . . . »

ويقول فى (باب عِدّة ما يكون عليه الكلم) :

« والسين التى فى قولك : سيفعل ، وزعم الخليل أنها جواب لن يفعل »[2] .

« فالسين » فى رأى سيبويه حرف يخلّص المضارع للاستقبال ، وزعم الخليل أنّ (سيفعل) جواب (لن يفعل) ، ومعنى ذلك أنّ (السين) نقيض (لن) فى المعنى ، فإذا دلّت (لن) على نفى الحدث فى المستقبل ، فإن (السين) تدل على إيجابه فى المستقبل .

ويقول ابن هشام :

« (السين) المفردة حرف يُختص بالمضارع . ويخلّصه للاستقبال ، وينزل منه منزلة الجزء . ولهذا لم يعمل فيه مع اختصاصه به ، وليس مقتطعا من (سوف) خلافا للكوفيين[3] . ولامدة الاستقبال معه أضيق من (سوف) خلافاً للبصريين[3] . ومعنى قول المعربين فيها : « حرف تنفيس » حرف توسيع ، وذلك أنها نقلت المضارع من الزمن الضيق . وهو الحال إلى الزمن الواسع . وهو الاستقبال ؛ وأوضح من عبارتهم قول الزمخشرى وغيره : « حرف

---

(١) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه ١٨٠ هـ ، الكتاب ، تحقيق هارون ، جـ ١ ، القاهرة ، ص ٣٥ — بولاق جـ ١ ، ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق ، هارون ، ج ٤ ، القاهرة ، ص ٢١٧ — بولاق ، ج ٢ ، ص ٣٠٤

(٣) انظر تفصيل هذا الاختلاف عند كمال الدين أبى البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبى سعيد الأنبارى ٥٧٧ هـ الإنصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، تحقيق محمد محيى الدين ، ج ٢ ، ط ٤ ، ١٣٨٠ هـ ١٩٦١ م ، المسألة ٩٢ ، ص ٦٤٦ وما بعدها ، وانظره أيضا عند يعيش بن على بن يعيش ، ٦٤٣ هـ شرح المفصل ، ج ٨ ، القاهرة بدون ، ص ١٤٨ وما بعدها .

استقبال[1] » ... وزعم الزمخشرى أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنّه واقع لا محالة ؛ ولم أر من فهم وجه ذلك . ووجهه أنّها تفيد الوعد بحصول الفعل ؛ فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتض لتوكيده وتثبيت معناه ، وقد أومأ إلى ذلك فى (سورة البقرة) ، فقال فى « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ »[2] : ومعنى (السين) أنّ ذلك كائن لامحالة . وإن تأخر إلى حين[3] ؛ وصرّح به فى (سورة براءة) فقال فى « أُولئك سيرحمهم الله »[4] (السين) مفيدةوجود الرحمة لامحالة فهى تؤكد الوعد كماتؤكد الوعيد إذا قلت : سأَنتقم منك »[5][6]

ويقول بدر الدين الزركشى :

« وفرّق ابن بابشاذ بينهما بأن (سوف) تستعمل كثيراً فى الوعيد والتهديد ؛ وقد تستعمل فى الوعد ... ، والأكثر فى (السين) الوعد ، وتأتى للوعيد[7] » .

---

(١) انظر المرجع السابق حيث يقول الزمخشرى : « ومن أصناف الحرف حروف الاستقبال ، وهى سوف السين ... » . وانظر ذلك أيضا عند محمد بن يوسف المشهور بأبى حيان الأندلسى ٧٥٤ ﻫ البحر المحيط ج ٥ ، ط ٢ ، ١٣٩٨ﻫ-١٩٧٨م ، ص ٧١ حيث يقول : « وليس مدلول السين توكيد ما دخلت عليه إنما تدل على تخليص المضارع للاستقبال فقط » .

(٢) سورة ٢ (البقرة) : ١٣٧ .

(٣) وانظر أيضا : جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٥٣٨ ﻫ ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ج ١ ، بيروت ، منقولة عن طبعة تهران ، بدون ، ص ٣١٥ .

(٤) سورة ٩ (التوبة) : ٧١ .

(٥) انظر أيضا : الكشاف عن حقائق التنزيل ، ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٦) جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصارى المصرى ٧٦١ ﻫ ، مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق محمد محيى الدين ، القاهرة ، بدون ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ وانظر أيضا أحمد بن عبد النور المالقى ٧٠٤ ﻫ رصف المبانى فى شرح حروف المعانى ، تحقيق أحمد الخراط ، دمشق ، ١٣٩٥ ﻫ - ١٩٧٥ م ، ص ٣٩٦ - ٣٩٨ .

(٧) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل ، ج ٤ ط ١ ، ١٣٧٧ ﻫ ١٩٥٨ م ، القاهرة ، عيسى الحلبى ، ص ٢٨٣ .

أمّا جلال الدين السيوطى فقد روى ما قاله ابن بابشاذ فى الفرق بين (السين) و (سوف) ، ولم يُعلِّق بشيء[1] .

وأما الشيخ محمد عضيمة فقد حكى قول ابن بابشاذ ، وأضافه إلى البرهان والإتقان ، ثم قال بعد ذلك :

« قد تبين لى بعد استقراء مواضع (السين) فى القرآن أنَّ مواضع استعمالها فى الوعيد تزيد عن مواضع استعمالها للوعد[2] » .

ثم بين ذلك مُفَصَّلاً فى مكان آخر من كتابه دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، فقال :

« وجاءت (السين) للوعيد فى هذه المواضع :

١ - « فَقَدْ كَذَّبُوا فَسيأْتِيهم أَنباءُ ما كَانُوا بهِ يستَهزِؤُنَ » ٢٦ (الشعراء) : ٦ .

٢ - « ما جئْتُم بِهِ السِحْرُ إِنَّ اللَّهَ سيُبْطِلُهُ » ١٠ (يونس) : ٨١ .

٣ - « سَنَجزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوءَ الْعَذَاب » ٦ (الأنعام) : ١٥٧ .

٤ - « سَيَجزِيهم بِمَا كَانُوا يَفتَرُونَ » ٦ (الأنعام) : ١٣٨ .

٥ - « سَيجزِيهم وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » ٦ (الأنعام) : ١٣٩ ...[3] »

وقد عد الشيخ عضيمة فى هذا القسم خمسة وأربعين شاهدًا قرآنيًا[4] جاءت

---

(١) الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ٩١١ هـ الإتقان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ١٩٧٤ م ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) محمد عبد الخالق عضيمة ، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ج ٢ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، مطبعة السعادة ، بدون ، ص ١٧٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .

إفادة (السين) للوعيد فى معظمها واضحة جلية[1] ، ثم قال بعد ذلك :

« وجاءت (السين) للوعد فى هذه المواضع[2] :

١ – « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » ٢٧ (النمل) ٧[3] .

٢ – « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » ٤٨ (الفتح) : ١٠ .

٣ – « سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ » ٩ (التوبة) : ٥٩[3] .

٤ – « وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا » ٤ (النساء) . ١٦٢

٥ – « وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ » ٣ (آل عمران) : ١٤٤ .

٦ – « وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ » ٣ (آل عمران) : ١٤٥ .

٧ – « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا » ١٩ (مريم) ٩٦ .

٨ – « سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » ٦٥ (الطلاق) : ٧ .

٩ – « وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى » ٩٢ (الليل) ١٧ .

١٠ – « فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ » ٤ (النساء) : ١٧٥ .

---

(١) نقول فى معظمها لأن بعض هذه الشواهد يحتمل أن تفيد فيه (السين) الوعد مثل الشاهد ذى الرقم ٤٠ ، ص ١٨٠ « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » سورة ٨ (الأنفال) : ١٢ ، فسياق هذا الشاهد قوله – تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » قال أبو حيان فى البحر المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ « ويحتمل أن يكون « سألقى » إلى آخر الآية خبرا يخاطب به المؤمنين عما يفعله بالكفار بالمستقبل « أى أنه وعد من الله – تعالى – للمؤمنين بإلقاء الرعب فى قلوب الكفار . ويقال مثل ذلك فى الشاهد رقم ٤١ ، ص ١٨٠ : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » سورة ٣ (آل عمران) : ١٥١ فأبو حيان يقول فى تفسيره البحر المحيط ، ج ٣ ص ٧٧ : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب أى هؤلاء الكفار وإن كانوا ظاهرين عليكم يوم أحد فإنا نخذلهم بإلقاء الرعب فى قلوبهم ، وأتى بالسين القريبة الاستقبال وكذا وقع ، ألقى الله فى قلوبهم الرعب يوم أحد . . . » ومعنى ذلك أنه وعد صادق من الله ، وقد وقع : إذن فعد هذين الشاهدين من شواهد إفادة (السين) الوعيد سهو .

(٢) سنثبت ما ذكره الشيخ عضيمة من شواهد ما أفادت فيه (السين) وعدا ، وما لم تفد فيه (السين) وعدا أو وعيدا لأن هذين المجموعين من الشواهد هما اللذان اخترنا منهما شواهدنا التى جعلناها موضوع المناقشة والاستنباط .

(٣) ستكون هذه العبارة موضوع نقاشنا بعدا .

١١ – « أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ » ٩ (التوبة) : ٩٩ .

١٢ – « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ٤ (النساء) : ٥٧ .

١٣ – « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ٤ (النساء) : ١٢٢ .

١٤ – « سَأُرِيكُمْ ءَايَاتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » ٢١ (الأنبياء) : ٣٧[1] .

١٥ – « أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ٩ (التوبة) : ٧١ .

١٦ – « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » ٢٧ (النمل) : ٩٣[2] .

١٧ – « وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ » ٢ (البقرة) : ٥٨

١٨ – « سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ » ٤١ (فصلت) : ٥٣ .

١٩ – « وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ » ٧ (الأعراف) : ١٦١ .

٢٠ – « قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » ٢٨ (القصص) : ٣٥ .

٢١ – « قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ » ٢٠ (طه) : ٢١ .

٢٢ – « قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » ١٩ (مريم) : ٤٧ .

---

(١) وضع الشيخ عضيمة هذه العبارة ضمن شواهد إفادة (السين) الوعد ، ولعل هذا كان سهوا منه ، فأبوحيان يقول فى البحر المحيط ، ج ٦ ، ص ٣١٢ عجز : « . . . . « سأريكم آياتى » أى آيات الوعيد فلا تستعجلون فى رؤيتكم العذاب . . . » فحق العبارة أن تكون فى شواهد إفادة (السين) الوعيد .

(٢) يقول أبو حيان فى البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ، صدر : « سيريكم آياته » تهديد لأعدائه بما يريهم الله من آياته » فحق العبارة إذن أن تجعل فى شواهد إفادة (السين) الوعيد .

(٣) يقول أبو حيان فى البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٥٠٥ ، وسط : « ثم توعدهم بما هو كائن لامحالة ، فقال : «سنريهم آياتنا فى الآفاق» ، قال أبو المنهال والسدى وجماعة : هو وعيد للكفار بما يفتحه الله على رسوله من الأقطار ...» فـ (السين) فى الآية تفيد الوعيد وفاقا لأبى حيان ومن نقل عنه .

٢٣ – « وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا »٧ (الأعراف) : ١٦٩ .

٢٤ – « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ » ٨٧ (الأعلى) : ٦ .

٢٥ – « وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » ١٨ (الكهف) : ٨٨ .

٢٦ – « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ »٧ (الأعراف) : ١٥٦ .

٢٧ – « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » ٢ (البقرة) ١٣٧ .

٢٨ – « قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا » ١٨ (الكهف) : ٦٩[1] .

٢٩ – « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » ٢٨ (القصص) : ٢٧[1] .

٣٠ – « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » ٣٧ (الصافات) : ١٠٢[1] .

٣١ – «قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٢٦ (الشعراء) : ٦٢[1] .

٣٢ – «سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ »٤٧ (محمد) : ٥

٣٣ – « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ » ٩٢ (الليل) ٥ – ٧ .

واستعملت السين فى غير الوعد والوعيد فى هذه المواضع[2] :

١ – « قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » ١١ (هود) : ٤٣ .

٢ – « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » ٦٨ (القلم) : ٥ .

٣ – « وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا » ١٨ (الكهف) : ٨٣ .

٤ – « وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ » ٩ (التوبة) : ٤٢ .

٥ – « سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ » ٩ (التوبة) : ٩٥ .

---

(١) ستكون هذه العبارة موضوعا للنقاش بعدا .

(٢) اكتفى الشيخ عضيمة فى الإشارة بذكر أرقام السور والآيات ، ولكنا فضلنا أن تكون نصوص العبارات بين يدى القارئ تيسيرا عليه ، وتمكينا له من المشاركة فى استنباط الحقائق .

٦ – « قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ » ٤٨ (الفتح) : ١٦ .

٧ – « عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ » ٢ (البقرة) : ٢٣٥ .

٨ – « سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ » ٨٧ (الأعلى) : ١٠ .

٩ – « وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ » ٦٥ (الطلاق) : ٦[1] .

١٠ – « قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » ١٢ (يوسف) : ٦١[2] .

١١ – « سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ » ٤٧ (محمد) : ٢٦[3] .

١٢ – « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ » ٣ (آل عمران) : ١٢[4] .

١٣ – « وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ » ٣٠ (الروم) : ٣ .

---

(١) ستكون هذه العبارة موضوعا للنقاش بعدا .

(٢) (السين) فى هذه العبارة مفيدة للوعد ، قال أبو حيان فى النهر الماد من البحر ، حاشية البحر المحيط ج ٥ ، ص ٣٢٠ عجز : « "قالوا سنراود عنه أباه" أى سنخادعه ، ونستميله فى رفق إلى أن يتركه يأتى معنا إليك ، ثم أكدوا ذلك الوعد بأنهم فاعلو ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى » . إذن فوضع هذه العبارة فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو .

(٣) فى النهر الماد من البحر ، حاشية البحر المحيط ، ج ٨ ص ٨١ عند تفسير قوله – تعالى : « ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم » – قال أبو حيان : « "ذلك بأنهم قالوا" روى أن قوما من قريظة والنضير كانوا يعدون المنافقين فى أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – والخلاف عليه بنصرة ومؤازرة ، وذلك قولهم : « سنطيعكم فى بعض الأمر » . فـ (السين) فى هذه العبارة إذن مفيدة للوعد وفاقا لأبى حيان ووضع هذه العبارة فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو .

(٤) فى النهر الماد من البحر . حاشية البحر المحيط ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ عند تفسير هذه الآية قال أبو حيان : « "قل للذين كفروا" هم معاصروه عليه السلام ، وفى سبب نزولها اختلاف : قيل إن يهود قينقاع قالوا بعد وقعة بدر : إن قريشا كانوا أغمارا ، ولو حاربتنا لرأيت رجالا ، ، وناسب ما سبق من الوعد الصادق فى قوله فيما آل إليه الكفار السابق ذكرهم فى أخذ الله إياهم ومآلهم إلى النار ذلك الوعد الصادق فى قوله : « ستغلبون وتحشرون » الآية ا . هـ » فـ (السين) فى قوله : « ستغلبون » مفيدة للوعد وفاقا لأبى حيان حيث الوعد إلى رسول الله (ص) أو مفيدة الوعيد الموجه إلى الذين كفروا . إذن فوضع هذه العبارة فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو .

هذا وقد أشير إلى آية هذه العبارة فى كتاب دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الأول ، ج ٢ ص ١٨٢ بالرقم ٣ : ١١٢ ، ولعل الصواب ما أثبتناه ، وهو ٣ : ١٢ لأنه لا يوجد مضارع مسبوق بـ (السين) فى الآية ٣ : ١١٢ كما أن الترتيب المعجمى للشواهد يقتضى ما أثبتناه .

١٤ — « سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ » ٥٥ (الرحمن) : ٣١[1]

١٥ — « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » ٢ (البقرة) : ١٤٢ .

١٦ — « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا » ٦ (الأنعام) : ١٤٨[2] .

١٧ — « سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا » ٤٨ (الفتح) : ١١ .

١٨ — « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ » ٤٨ (الفتح) : ١٥ .

١٩ — « قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » ١٠ (يونس) : ٣١ .

٢٠ — « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا » ١٧ (الإسراء) : ٥١ .

٢١ — « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ » ١٨ (الكهف) : ٢٢ .

٢٢ — « قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ » ٢٣ (المؤمنون) : ٨٥ .

٢٣ — « قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ » ٢٣ (المؤمنون) : ٨٧ .

---

(١) فى تفسير هذه الآية قال أبو حيان فى البحر المحيط، ج ٨ ، ص ١٩٤ ، صدر : « وقال : « سنفرغ لكم » أى ننظر فى أموركم يوم القيامة لا أنه — تعالى — كان له شغل فيفرغ منه، وجرى هذا على كلام العرب فى أن المعنى : سيقصد لحسابكم ، فهو استعارة من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك أى سأتجرد للإيقاع بك من كل ما شغلنى عنه حتى لا يكون لى شغل سواه ؛ والمراد التوفر على الانتقام منه . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون التوعد بعذاب فى الدنيا ، والأول أبين. انتهى ، يعنى أن يكون ذلك يوم القيامة » . إذن فـ (السين) فى الآية مفيدة للوعيد وفاقاً لأبى حيان وابن عطية ، ووضع الآية فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو .

(٢) أشير إلى آية هذه العبارة فى كتاب دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، ج ٢ ، ص ١٨٢ بالرقم ٦ : ٢٨ ، ولعل الصواب ما أثبتناه ، وهو ٦ : ١٤٨ ؛ لأنه لا يوجد مضارع مسبوق بالسين فى الآية ٦ : ٢٨ ، كما أن الترتيب المعجمى للشواهد يقتضى ما أثبتناه .

٢٤ – « قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ » ٢٣ (المؤمنون) : ٨٩ .

٢٥ – « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » ٤٦ (الأحقاف) : ١١ .

٢٦ – « قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » ٤٨ (الفتح) : ١٥ .

٢٧ – « وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » ١٨ (الكهف) : ٨٨[1] .

٢٨ – « وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ » ١٩ (مريم) : ٨٢ .

٢٩ – « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » ٧٣ (المزمل) : ٥٠ .

٣٠ – « قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا » ١٨ (الكهف) : ٧٨ .

٣١ – « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ » ٦ : (الأنعام) : ٩٣ .

٣٢ – « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » ٢٧ (النمل) : ٧[2] .

٣٣ – « .. فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ » ١٧ (الإسراء) : ٥١ .

٣٤ – « ... فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً » ٨ (الأنفال) : ٣٦ .

٣٥ – «سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ » ٤ (النساء) : ٩١ .

---

(١) إفادة (السين) للوعد فى هذه العبارة واضحة جلية ، وقد وضعها صاحب دراسات لأسلوب القرآن الكريم قبلا فيما تفيد فيه (السين) وعدا ، وأعطى لها الرقم ٢٥ إذن فوضعها هنا فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو واضح .

(٢) جعل الشيخ عضيمة قبلا هذا النص أول شاهد فيما جاءت فيه (السين) للوعد ، والآن يذكره فيما استعملت فيه (السين) لغير الوعد والوعيد ، ولعل هذا الترجح قرينة على صواب ما سنقوله بعدا من أن ل (السين) فى هذا الشاهد مدلولا لم يقع لنحوى من قبل .

٣٦ – «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» ٥٤ (القمر) : ٤٥[١].

٣٧ – «وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ» ٣٧ (الصافات) : ٩٩[٢].

٣٨ – «إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ» ٤٣ (الزخرف) : ٢٧[٣]

ثم أتم الشيخ عضيمة كلامه عن (السين) فى مجموعة فقار جعل لها العنوانات الآتية :

هل تفيد (السين) و (سوفَ) تحقق الوقوع[٤] ؟

هل تفيد (السين) معنى الاستمرار[٥] ؟

(السين) (وسوف) يخلصان المضارع إلى معنى الاستقبال[٦].

(سَوْفَ) أشد تراخياً فى الاستقبال من (السين)[٧].

ليس لحرفى التنفيس صدر الكلام[٨].

وقوع الجملة المصدرة بعلامة الاستقبال خبرًا للمبتدإ[٩].

الجملة المصدرة بـ (السين) مقول للقول[١٠].

---

(١) قال أبو حيان فى البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ١٨٣ : «وفى قوله – تعالى – : «سيهزم الجمع» عدة من الله – تعالى – لرسوله – صلى الله عليه وسلم – بهزيمة جمع قريش» ، فـ (السين) فى هذا الشاهد مفيدة للوعد وفاقا لأبى حيان ، ووضعها فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو.

(٢) سيكون هذا الشاهد موضوع بحث بعدا .

(٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول . ج ٢ ، ص ١٨٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

وإذا كان صاحب دراسات لأسلوب القرآن الكريم نحوياً معاصراً قد استعان في تصنيف كتابه بما انتهى إليه النحويون والمفسرون من قبله – كنا على يقين من أنَّ النحويين جميعاً قدماء ومحدثين لم يجدوا لـ (السين) الداخلة على المضارع في القرآن الكريم إلا ما ذكرناه قبلا من أنواع الاستخدام غير أني أرى أنَّ الإنعام في النظر إلى بعض أساليب القرآن الكريم يكشف عن معنى لـ (السين) أراه لم يقع لنحوي من قبل ، وبيان ذلك فيما يأتي من القول :

قال – تعالى – في سورة (طه) من قصة موسى عليه السلام :

« إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١) » .

وقال – عزَّ وجلَّ – في سورة (القصص) من القصة ذاتها :

« فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ (٢) » .

ونلاحظ في هاتين الآيتين أنَّ الجملة الفعلية « ءاتيكم » واقعة خبرًا لـ « لعل » ، ومعنى هذا الحرف عند سيبويه : « طمعٌ وإشفاق » (٣) ، أو كما يقول المبرد : « الترجي » (٤) . أو « التوقع لمرجوٍّ أو مَخُوف » (٥) ، وهذا يفيد أن موسى – عليه السلام – كان يترجى أن يعود من عند أصحاب تلك النار بخبر أو جذوة منها ؛ ومن المعلوم أنَّ المترجي لا يأمن أن يقع ما ترجاه على النحو الذي أحب لأنَّ أمر ذلك ليس بيده بل بيد غيره ؛ يقول المبرد :

---

(١) سورة ٢٠ (طه) ١٠ .

(٢) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٩ .

(٣) الكتاب ، هارون ، ج ٤ ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٣٣ – بولاق ، ج٢ ، ص ٣١١ .

(٤) محمد بن يزيد المبرد ، المقتضب ، تحقيق عضيمة ، ج ٤ ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ ، ص ١٨٣ . هذا ، ومن المعلوم أن للحرف (لعل) معاني أخرى ذكرها النحاة ، مثل التعليل ، والتشبيه ، والرجاء المحض . انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ج٢ ، ص ٥٩٦ ، وما بعدها .

(٥) المقتضب ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

« فإذا قلت : لعل زيدًا يأتينا ، ولعل عمرًا يزورنا ـ فإنما مجاز هذا الكلام من القائل أنه لا يأمن أن يكون هذا كذا »[1].

وكذلك كانت حال موسى ـ عليه السلام ـ حين ءانَسَ مِن جَانِبِ الطور نارًا ، وترجى أن يأتى منها بخبرٍ عن الطريق أو قَبَسٍ يصطلى به أهله ، فهو لم يكن آمنًا أن يعود من عند أهل تلك النار بما كان يشتهى .

وقال ـ عز شأنه ـ فى تلك القصة من سورة (النمل) .

« إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّى ءانستُ نَارًا سَـَٔاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَو ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ » .

ونلاحظ أن مضمون آية (النمل) هو مضمون آيتى (طه) و (القصص) وإذا كان ذلك كذلك كانت العبارة القرآنية فى آية (النمل) مُضَمَّنة معنى الترجى المدلول عليه بالحرف (لَعَلَّ) فى آيتى (طه) و (القصص) ، ويؤيد هذا أن حال موسى (ع) التى أخبرت عنها آية (النمل) هى حاله التى أخبرت عنها آيتا (طه) و (القصص) . فهو لم يكن آمنا أن يعود من عند أصحاب تلك النار التى آنسها بخبر عن الطريق ، أو قبس من النار يصطلى به أهله ، لكن الفعل المضارع (آتى) المعطوف عليه فى آية (النمل) مصدَّر بـ (السين) : « سَـَٔاتِيكُم » بدلًا من (لَعَلَّ) فى آيتى (طه) و (القصص) : « لَعَلِّى ءَاتِيكُم » وإذا عاقبت (السين) (لعل) فى تركيب لغوى واحد ، وفى قصة واحدة ـ دل ذلك على أن (السين) فى « سَـَٔاتِيكُم » مفيدة ما أفادته (لعل) من الترجى فى « لَعَلِّى ءَاتِيكُم » .

ما قاله أبو حيان :

قال أبو حيان الأندلسى فى تفسير آية (النمل) : « إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ » :

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ ، ص ٧٣ .
(٢) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

« سَتَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »أى من موقدها بخَبَرٍ يدل على الطريق ، « أَوْءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ » أى إن لم يكن هناك من يخبر فإنى قد أستصحب ماتدّفئون به منها ، وهذا الترديد بـ (أَوْ) ظاهر ، لأنه كان مطلوبه أولاًأن يلقى على النّار من يخبره بالطريق . فإنه مسافر ليس بمقيم . فإن لم يكن أحد فهو مقيم ،فيحتاجون لدفع ضرر البرد ، وهو أن يأْتيهم بما يصطلون ، فليس محتاجاً للشيئين معاً ،بل لأحدهما : الخبر إن وَجد من يخبره فيرحل ، أو الاصطلاء إن لم يَجد وأقام ، فمقصوده إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، وهو معنى قوله : « لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى »[٢٠ (طه) : ١٠] ، وجاء هنا « سَتَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » وهو خبر ؛ وفى (طه) : « لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ » ، وفى (القَصص) : « لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ، وهو ترج ، ومعنى الترجى مخالف لمعنى الخبر ، ولكن الرجاء إذا قوى جاز للراجى أن يُخبر بذلك ، وإن كانت الخيبة يجوز أن تقع ، وأتى بـ (سين) الاستقبال إما لأن المسافة كانت بعيدة ، وإما لأنه قد يمكن أن يبطئ لما قدر أنه قد يعرض له ما يبطّئه[1] » .

الرد على أبى حيان :

والناظر فى قول أبى حيان الذى بناه على ما أخذه من صاحب الكشّاف[2] يلاحظ أنه فسر قول موسى (ع) : « سَتَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » فى (سورة النمل » على أنه خبر ، وجعل (السين) فيه مفيدة للاستقبال ، ثم حاول أن يقرّب الترجى المصرح به فى « لَعَلِّى ءَاتِيكُم » من سورتى (طه) و (القصص) من الخبر الذى فهمه من « سَتَاتِيكُم » ، فقال : « وَلَكِن الرجاء إذا قوى جاز للراجى أن يخبر بذلك . وإن كانت الخيبة يجوز أن تقع » . لكننا على يقين أن موسى (ع) حين آنس من جَانِب الطُّور نَارًا ، ورغب أن يأْتيها لم يكن آمنا أن يعود من عند موقد تلك النّار بما كان يشتهى ، فحاله لم تكن حال المخبر الموقن بما يأْتى

---

(١) البحر المحيط ، ح ٧ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) الكشاف ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

وما يدع بل حال من يترجى أمرًا ليس على يقين من شأنه ، فحرف الترجى (لَعَلَّ) هو أوفى بديل يمكن أن يستخدمه مفسر فى شرح قوله : « سَئَاتِيكُم » من هذه الآية ، وإذا عاقبت (السين) (لَعَل) فى هذا المقام كانت (السين) مفيدة ما تفيده (لعل) من الترجى أو الطمع والإشفاق .

كذلك يلاحظ من يتأمل الآيات التى ضُمِّنت قصة النَّار التى آنَسَهَا موسى (ع) أنها ثلاث آيات ، صُرِّح فى اثنتين منها بالحرف (لعل) المفيد للترجى ،وعاقبت (السين) (لعل) فى آية واحدة ، وهذا يقتضى حمل معنى « سَئَاتيكُمُ » فى آية (النمل) على معنى « لَعَلِّى ءَاتِيكُم » فى آيتى (طه) و (القصص) إجراءً للكلام فى الآيات الثلاث على سنن واحد ، وتجافياً عن أن نجعل موسى (ع) موقناً مترجيا فى مقام واحد .

شواهد قرآنية أخرى :

وليست إفادة « السين » للترجى مقصورة على قوله تعالى : « سَئَاتِيكُمُ » فى (سورة النمل) بل إنها ملحوظة فى آيات أخرى من كتاب الله ، ومن تلك الآيات ما يأتى :

قال ــ تعالى ــ على لسان موسى (ع) مخاطبا الخضر (ع) :

« قَالَ سَتَجِدُنِى إن شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِى لك أَمْرًا[1] »

وقال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية :

« رجا موسى ــ عليه السلام ــ لحرصه على العلم وازدياده أنَّه يستطيع معه صبرًا بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر ، فوعده بالصبر معلَّقاً بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته . وأنَّ الحميّة التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيءٌ لا يطاق . . [2] » .

وقال أبو حيان فى تفسير الآية ذاتها :

« وعده بوجدانه صابرًا ، وقرن ذلك بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته

---

(١) سورة ١٨ (الكهف) : ٩٦ .

(٢) الكشاف ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ .

إذ لا يصبر إلا على ما ينافى ما هو عليه إذا رآه . . . »[1] .

وقال – تعالى – فى قصة إبراهيم وإسماعيل (ع) :

« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »[2] .

وقال أبو حيان فى تفسير هذه الآية : «وأىّ حلم أعظم من قوله – وقد عرض عليه أبوه الذبح – : « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »[3] » .

ويمكن أن نضيف إلى تفسير أبي حيان قولنا : إن استعظام إسماعيل (ع) لأمر الذبح الذى عرضه عليه أبوه جعله يقرن وعده الصبر عليه بمشيئة الله لأنّ الصبر على الذبح شىءٌ يعجز عنه البشر عادة ، فوعدُ إسماعيل (ع) فى هذه الآية هو وعدُ المترجى المشفق ، لا وعدُ المخبر الموقن .

وقال – تعالى – فى قصة شعيب وموسى – عليهما الصلاة والسلام – :

« قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ »[4] .

وقال أبو حيان فى تفسير هذه الآية :

« . . . سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » وعدٌ صادقٌ مقرونٌ بالمشيئة »[5] .

ومن اليسير أن نلاحظ معنى الترجّى فى قوله « ستجدنى » فى هذه الآيات الثلاث حيث رجاءُ الوجدان صابرًا أو صالحاً مقرونٌ بمشيئة الله – سبحانه – ، والترجّى فى الآيات الثلاث لا يأمن أن

---

(١) البحر المحيط ، ج ٦ ، ص ١٤٨ .

(٢) سورة ٣٧ (الصافات) : ١٠٢ .

(٣) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٣٦٩ ، وسط .

(٤) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٧ .

(٥) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ١١٦ عجز .

يقع ما ترجّاه على النحو الذى آ. ب ؛ بل هو طامعٌ فيه مشفق من العجز عنه ، ونستدلُّ على صحة ملاحظتنا بما صرح به به الزمخشرى فى تفسير الآية الأولى حيث قال :

« رجا موسى — عليه السلام — أن يَسْتَطِيعَ مَعَهُ صَبْرًا فوعده بالصبر مُعَلَّقاً بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته [1] .

وإذا كان الوعدُ فى الآيات الثلاث مُعَلَّقاً على مشيئة الله كان وعد المترجّى لا الموقن ، فالكلمة التى يمكن أن تُفَسَّر بها (السين) فى الآيات الثلاث هى (لعلّ) ، وإذا حلّت (السين) محلّها فى « سَتَجِدُنِى » كانت مفيدة ماتفيده (لعلّ) من الطمع والإشفاق ؛ مَثَلُها فى ذلك مَثَلُ (سين) « سَنَآتِيكُمْ » من قوله — تعالى — : « إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ » [2] حيث عاقبت (السين) (لعل) وأفادت معنى الترجِّى [3]

ومن الشواهد القرآنية التى تفيد فيها (السينُ) الداخلةُ على المضارع ما تفيده (لعلّ) من الترجِّى قوله — تعالى — فى شأن المطلّقات :

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ » [4]

يقول أبو حيان جامعاً ملخِّصاً ماقاله

---

(١) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ٥١ .

(٢) سورة ٢٧ (النمل) : ٨ .

(٣) انظر قبلا حيث ذكر هذا الاستنباط أول مرة .

(٤) سورة ٦٥ (الطلاق) : ٦ .

الطبرى[1] ، والزمخشرى[2] فى تفسير هذه الآية :

« وَإِن تَعَاسَرْتُمْ » أى تضايقتم ، وتشاكستم فلم ترض [الأُمُّ المرضع] إلا بما ترضى به الأجنبية ، وأبى الزوج الزيادة ؛ أو إن أبى الزوج إلا الإرضاع مجَّاناً وأبت هى إلا بعِوَض « فستُرضِع لَهُ أُخرى » أى يستأْجر غيرها . . . ؛ وقيل : « فَسَتُرْضِعُ » خبر فى معنى الأَمر ، أى فلترضعْ لَهُ أُخرى . وفى قوله : « فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى » يسيرُ معاتبة للأُمِّ إذا تعاسرت كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرُك ؛ تريد : لن تبقى غير مَقْضِيَّةٍ وأنت مَلُوم ...[3] »

فأَصحاب التفسير إذن مترددون فى معنى قوله ــ تعالى ــ « فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى » فمنهم من يعدُّها جملة خبريَّة حملا على الظاهر ، ومنهم من يجعلها خبرًا فى معنى الأَمر ؛ لكنَّ حملَها على الخبر يُضعفه أنَّ وقوع الإرضاع فى المستقبل من امرأَة أُخرى غير مُتَيَقَّنِ الحدوث ؛ كذلك جعلُها خبرًا فى معنى الأَمر يُضْعفه أنَّ توجيه الأَمر بالإرضاع إلى الأَجنبية إلزام بلا مُقْتضٍ ، وإذا صُرف الأَمرُ إلى الأَب ليسترضع أُخرى كانت الاستجابة لهذا الاسترضاع غير متيقنة كذلك ، وحاجة الوليد إلى الإرضاع ضرورة عاجلة ؛ أما إذا حملنا الجملة على الترجِّى ، وجعلنا معناها ــ والله أعلم ــ :

---

(١) يقول أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى جامع البيان عن تأويل القرآن ، القاهرة ، ط مصطفى الحلبى ، ١٩٥٤ ، ج ٢٨ ، ص ١٤٨ : « وقوله : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » يقول : وإن تعاسر الرجل والمرأة فى رضاع ولدها منه فامتنعت من رضاعه فلا سبيل له عليها وليس له إكراهها على إرضاعه ، ولكنه يستأجر للصبى مرضعة غير أمه البائنة منه . وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل : ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد قال : ثنا أحمد ، قال ثنا أسباط عن السدى فى قوله : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » ؛ قال : إن أبت الأم أن ترضع ولدها إذا طلقها أبوه التمس له مرضعة أخرى ، الأم أحق إذا رضيت من أجر الرضاع بما يرضى به غيرها ، فلا ينبغى له أن ينتزع منها .

حدثنا ابن حميد ، قال ، ثنا مهران عن سفيان قال : إن هى أبت أن ترضعه ، ولم تواتك فيما بينها وبينك وعاسرتك فى الأجر فاسترضع له أخرى » .

(٢) قال الزمخشرى فى الكشاف ، ج ٤ ، ص ١٢٢ : « « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى سيقضيها غيرك ، تريد : لن تبقَ غير مقضية وأنت ملوم . وقوله : « له » أى الأب ، أى سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه » .

(٣) البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٢٨٥ ، عجز .

فلعل أخرى ترضع له – كان فى ذلك تصويرًا يستثير الرحمة لحال وليد تعاسر أبواه فيما يحفظ عليه حياته مع أنهما سبب وجوده ، كما أنّ فى الترجّى – وهو طمع وإشفاق – شيئًا غيرَ يسير من المعاتبة للأُم لتركها وليدها فى حال لا يؤمن معها الإبقاء على حياته على النحو الذى تحبه وترضاه له .

من أجل ذلك نرى أنّ حمل معنى جملة « فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى » على الترجّى وجعل (السين) فيها مفيدة ما تفيده (لعلّ) من الطمع والإشفاق – أكثرُ مطابقة لمقتضى الحال ، وأصدق تصويرًا له من حمل معناها على كلٍّ من الخبر أو الأمر .

ولا يَصُدنّا عن حمل معنى هذه الجملة على الترجّى قولُ قائل : إنّ الترجّى فى هذه الحال يكون مُسْنَدًا إلى الله – سبحانه – ولا يقال ذلك على الله ؛ لأنّا نقول ردًّا على ذلك : إنّ الكلام هنا جرى على طريقة كلام العباد ، واستُعمل فيه ما يستعمله العباد من الألفاظ والمعانى فى مثل هذا المقام ؛ ومن قبلُ أجاب القدماء من النحاة على مثل هذا الاعتراض بهذا الجواب ، يقول محمد بن يزيد المبرد فى (باب التعجّب) :

« ومن هذا الباب قول الله – عزّوجلّ – « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ »[1] ، ولا يقال لله – عز وجل – تَعَجَّبَ ، ولكنه خرج على كلام العباد ، أى هؤلاء ممن يجب أن يقال لهم : ما أسمعهم وأبصرهم فى ذلك الوقت ؛ ومثل هذا قوله : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى »[2] و (لعل) إنما هى للترجّى ، ولا يقال ذلك لله ؛ ولكنّ المعنى – والله أعلم – اذهبا أنتما على رجائكما ، وقولا القول الذى ترجوان به ويرجو به المخلوقون تذكّر من طالبوه »[3] .

وبناء على ما تقدم نستطيع أن نقول ردًّا على من يرى فى حمل جملة « فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى » على الترجّىّ إسناد الترجّى إلى الله – سبحانه : إنّ المعنى – والله أعلم – : وإن تعاسر الأب والأُمّ فى إرضاع وليدهما فإنّ حالهما تكون

---

(١) سورة ١٩ (مريم) : ٣٨ .

(٢) سورة ٢٠ (طه) : ٤٤ .

(٣) المقتضب ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

مما يجب أن يقال معها : لعلّ أخرى ترضع لهذا الأب وليده .

ومن الشواهد التي عاقبت فيها (السين) (لعل) ، وأفادت ما تفيده من (الترجّي) قوله ـ تعالى ـ في شأن من سخط القسمة في الصدقات :

« وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُون * وَلَوْ أَنَّهُم رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُون »[1] .

ويقول أبو حيان في تفسير الآية الثانية :

« هذا وصف لحال المستقيمين في دينهم أي رضوا قسمة الله ورسوله وقالوا كفانا فضل الله ، وعلّقوا آمالهم بما سيؤتيه الله إياهم ، وكانت رغبتهم إلى الله لا إلى غيره . وجواب (لو) محذوف ، تقديره : لكان خيرًا لهم في دينهم ودنياهم »[2] .

ومن يتأمل قول أبي حيان يجده قد فسر جملة « سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ » على أنها ـ لو قيلت ـ قولُ الآملين في عطاء الله إيّاهم ، والآمل في عطاء الله مترجٍّ مشفقٌ ، فهو ليس على يقين من أن يقع ما أمّله على النحو الذي أحبه ، ومن اليسير على من يفسر هذه الآية أن يجعل (لعلّ) في محل (السين) من قوله « سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ » ، وإذا كان ذلك كذلك كانت (السين) في هذه الآية مفيدة ما تفيده (لعلّ) من الترجّي أو الطمع والإشفاق .

ومن الشواهد القرآنية التي نرى أن (السين) الداخلة على المضارع فيها مفيدة معنى الترجي هذه المجموعة من الآيات :

---

(1) سورة ٩ (التوبة) : ٥٨ : ٥٩ .

(٢) البحر المحيط ، ج ٥ ، ص ٥٦ ، وانظر أيضاً : أبو السعود محمد بن محمد العمادي ٩٥١ هـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المسمى تفسير أبي السعود ، ج ٣ ، بيروت ، بدون ، ص ٧٦ حيث يقول : « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » بعد هذا حسبنا نرجو ونؤمل » .

قال – تعالى – فى شأن بعض أهل الكتاب :

« فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وإِن يَأْتِهِم عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوه . . . »(1) .

وقال أبو حيان فى تفسير هذه الآية :

« . . . وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » قطعٌ على الله بغفران معاصيهم ، أى لا يؤاخذنا الله بذلك ، والمناسب إذ ورثوا الكتاب أن يعملوا بما فيه ، وأنّهُ إن قُضى عليهم بالمعصية أن لا يَجزموا بالمغفرة وهم مصرّون على ارتكابها . . . »(2) .

وقال – تعالى – فى قصة موسى (ع) :

« فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُون * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين »(3) .

وقال أبو حيَّان فى تفسير هذه الآية :

« . . . « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين » عن قريب إلى طريق النجاة ويُعرفنيه »(4) .

وقال – تعالى – فى قصة إبراهيم (ع) :

« فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُم الأَسْفَلِين * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين »(5) .

وقال أبو حيَّان فى تفسير هذه الآية :

« ... « سَيَهْدِين » يوفقنى إلى ما فيه صلاحى . . . »(6) .

وقال – تعالى – فى قصة إبراهيم (ع) أيضا :

---

(1) سورة 7 (الأعراف) : 169 .

(2) البحر المحيط ، ج 4 ، ص 416 .

(3) سورة 26 (الشعراء) : 61 ، 62 .

(4) البحر المحيط ، ج 7 ، ص 20 .

(5) سورة 37 (الصافات) : 98 ، 99 .

(6) البحر المحيط ، ج 7 ، ص 369 .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ [1] » .

وقال أبو حيان في تفسير ذلك :

(.. « فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » أي يديم هدايتي) [2] .

ومن يتأمل تفسير أبي حيان للآيات السابقة يجد أنه لم يَجْرِ على نسق واحد في تفسير المضارع المبدوء بـ (سين) التنفيس ، فبينما هو يفسر قول بعض أهل الكتاب : « سَيُغْفَرُ لَنَا » [3] بأنه « قطعٌ على الله بغفران معاصيهم » [4] نجده يذهب في تفسير قول موسى (ع) : « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » [5] إلى ما صرح به في تفسير آية أخرى من أنَّ (السين) « تدل على تقارب الزمن المستقبل لا تراخيه » [6] ، فيقول : « .. « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » عن قريب إلى طريق النجاة ويعرفنيه » [7] ، ويذهب في تفسير قول إبراهيم (ع) « إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » [8] إلى أنَّ (السين) في « سَيَهْدِينِ » تفيد استمرار الفعل في الحال والاستقبال ، فيقول : «... « فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » أي يديم هدايتي » [9] ؛ أما في تفسيره لقوله — تعالى — حكاية عن إبراهيم — عليه السلام — : « وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ » [10] فإنه يسكت عن الإشارة إلى ماتفيده (السين) في هذه الآية حيث يقول : « سَيَهْدِينِ » يوفقني إلى ما فيه صلاحي » [11] .

(١) سورة ٤٣ (الزخرف) : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٩ .
(٣) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ١ ، ص ١٩٠ .
(٤) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ٢ ، ص ١٩٠ .
(٥) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ٣ ، ص ١٩٠ .
(٦) انظر البحر المحيط ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ عند تفسير قوله — تعالى — : « علم الله أنكم ستذكرونهن » من سورة البقرة ، الآية ٢٣٥ حيث قال أبو حيان : « وجاء الفعل بالسين التي تدل على تقارب الزمان المستقبل لا تراخيه وانظر أيضاً : دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .
(٧) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٢٠ .
(٨) سورة ٤٣ (الزخرف) : ٢٧ .
(٩) البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٩ .
(١٠) سورة ٣٧ (الصافات) : ٩٩ .
(١١) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٣٦٩ .

والحق أنَّ تفسير أبي حيان لقول بعض أهل الكتاب : « سيُغْفَرُ لَنَا » بأنه « قَطْعٌ عَلَى اللهِ بغُفْرانِ معاصِيهم »(١) فيه نظر ، فمن اليقين أنَّ الراغب فى غفران ذنبه يَدِين بالخضوع لمن يملك هذا الغفران ، وما كان لإنسان مهما تكن عقيدته أن يقطع على ربه بغفران معصية ؛ لكنَّ الزمخشرى يقول فى تفسير عبارة « وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ »(٢) : « أى يرجون المغفرة وهُم مُصِرون »(٣) ؛ ومن قبل الزمخشرى قال الطبرى : « ويقولُونَ إِذَا فَعلُوا ذَلِكَ إنَّ الله سيغْفِر لنا تمنِّياً على اللهِ الأباطيل »(٤) .

من أجل ذلك ينبغى لنا أن نفهم قول القائلين : « سيُغْفر لنا » على أنه قول المشفق الطامع فى أن يغفر الله ذنبه ، وهو لا يأمن أن يكون هذا الغفران على النحو الذى أحب ، أى أنَّ معنى قول بعض أهل الكتاب : « سَيُغْفَرُ لَنَا » هو – والله أعلم – : لعل الله يغفر لنا ، أى أنَّ (السين) فى هذه الآية قد عاقبت (لعل) فأفادت معناها من الطمع والإشفاق كما أفادت (السين) ذلك المعنى عندما عاقبت (لعل) فى قوله – تعالى – « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَأَتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »(٥) .

وكذلك ينبغى لنا أن نفهم ما جاء على لسان إبراهيم وموسى (ع) من قول الله – تعالى – : « سَيَهْدِينِ »(٦) لأنه إذا كُنَّا نستبشع أن يقطع بعض أهل الكتاب على ربهم بغفران معاصيهم فإنا نُنَزِّه رسل الله (ع) عن أن يبدوا وكأنهم أَمِنوا مكر الله فيُخبروا عن الله – عز وجل –

---

(١) البحر المحيط ، ج ٤ ، ص ٤١٦ .

(٢) سورة ٧ (الأعراف) : ١٦٩ .

(٣) الكشاف ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، جامع البيان عن تأويل القرآن ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ج ٢ ، ١٩٥٨م ، ص ٢١١ وانظر أيضاً أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى مجمع البيان فى تفسير القرآن ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ – ١٩٦١م ، ص ٥٧ حيث يقول : « ... « ويقولون سيغفر لنا » وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب ، إذا أشرف لهم شىء من الدنيا أخذوه حلالا كان أو حراماً ويتمنون على الله المغفرة »

(٥) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٦) انظر سورة ٢٦ (الشعراء) : ٦٢ ، وسورة ٣٧ (الصافات) : ٩٩ ، وسورة ٤٣ (الزخرف) : ٢٧ .

بأنه سيهديهم عن قريب إلى طريق النجاة ويُعرِّفهم إيَّاه[1] ، أو أنه سيُديم هدايتهم كما قال أبوحيان[2] والزمخشرى من قبله[3] ، ولو أننا فسرنا ذلك بالقول على أنَّ (سين) « سيهدين » فى الايات الثلاث[4] مفيدة ما تفيده (لعل) من الطمع والإشفاق ، مَثَلها فى ذلك مثَل (السين) فى « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »[5] ـ لكان ذلك ـ والله أعلم ـ أقرب إلى الصواب ، وأصدق تصويراً لما يعمر قلوب رسل الله (ع) من خشية الله ـ تعالى ـ ورهبة .

شواهد الشعر :

عرضنا فيما سبق من القول شواهد من القرآن الكريم تؤيد دعوانا أنَّ (السين) الداخلة على المضارع تفيد فى حال معينة ما تفيده (لَعل) من الطمع والإشفاق ، وقد عولنا فى اختيارنا هذه الشواهد على أن تكون دلالتها على ما ندعيه دلالة صريحة واضحة ؛ والآن ينبغى لنا أن نعرض ما وقع لنا من شواهد الشعر مما يظاهر الشواهد القرآنية فى إثبات هذه الدعوى :

يقول امرؤ القيس[6] :

إنى لعمرٍو ما انتميتُ ، فلم
أعدل إلى بدل ، ولا مِثْل
لأخٍ رضيتُ به ، وشارك فى الْ
أنساب والأصهار والفضل
ولمثلُ أسباب علِقتُ بها
يمنعنَ مِن قَلَق ومن أَزْل

---

(١) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٩ .

(٣) الكشاف ، ج ٣ ، ص ٤٨٤ .

(٤) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ٦ ، ص ١٩٢ .

(٥) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٦) من قصيدة له مطلعها :

تنكرت ليلى عن الوصل ونأت ورث معاقد الحبل

انظر التعليقة رقم ٢ ، ص ١٩٤ .

لما سما من بين أقْرُنَ فالْ
أجبال قلتُ : فداؤه أهلى
همّ سيُبلغه التَّمام ،[1] فذا
ظنّى به ، سينَال أو يُبلى[2]

ويقول الأعلم الشنتمرى فى شرح البيت الأخير :

« همّ » يعنى همّة . و « التّمام » : العلاء ، والمرتبة التى يريدها ؛ يقول : سينال ذلك ، أو يُبلى عذرا إن قصر دونه »[3] .

ومن يتأمل قول امرئ القيس : « همّ سيُبلغهُ التّمام » يجده يعبر عن ترجّيه أن تكون همة صاحبه سبباً يبلّغه التّمام ، وهو فى هذا الترجى طامع مشفق لا يأمن أن يقع ما ترجّاه على النحو الذى أحب ، وآية ذلك أن امرأ القيس قد ردف قوله هذا بما يُنبئ عن إشفاقه ، فقال : « فذا ظنى به » ، فكلامه إذن محمول على الظن والتوقع لا على اليقين ، وأنّى للشاعر أن يكون على يقين من شأن أصاحبه فى مستقبل أيامه ؟

وبمثل ذلك نقول فى عبارة « سينال أو يُبلى ؛ » فهى تفسير لما سبقها من القول المفيد للترجى ؛ ولو أن امرأ القيس جعل فى هاتين العبارتين ، (لعل) مكان (السين) لحسن ذلك حسنه فى قوله – تعالى – « لَعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى »[4] .

من أجل ذلك نقول : إن (السين) فى قول امرئ القيس : « همّ سيُبلغه

---

(١) ضبطت كلمة « التمام » بضم الميم الآخرة ، وكذلك عند حسن السندوبى ، شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم فى الجاهلية ، والإسلام ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٥٩ م ، ص ١٧١ ، ولعل هذا تحريف فى المطبوعين والصواب فتح الميم الآخرة حتى يتفق البيت وشرح الأعلم المشار إلى موضعه فى التعليقة الآتية .

(٢) ديوان امرئ القيس بشرح الأعلم الشنتمرى ، (القسم الثانى ، رواية المفضل من نسخة الطوسى مما لم يروه الأصمعى) ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ م ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) سورة ٢٠ (طه) : ١٠ .

التَّمام » ، وقوله : « سينال أَو يُبلى » مفيدة ماتفيده (لعلَّ) من الطمع والإشفاق ، مثلها فى ذلك مثل (سين) « سَسآتِيكُم » من قوله – تعالى – « إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا سَسآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّار »[1] التى عاقبت (لعل) المصرح بها فى قوله – تعالى – : « إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى »[2] ، وقوله – تعالى – : « إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْجَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ »[3] .

ويقول طرفة بن العبد :

ستُبدى لك الأَيام ماكنت جاهلا
ويأْتيك بالأَخبار من لم تُزَوِّدِ
سيأْتيك بالأَخبار من لم تبع له
بتاتاً ، ولم تَضرب له وقت موعدِ[4]

ومن الواضح أَنَّ طَرفَة يترجّى فى قوله « ستبدى لك الأَيام .... » ، وقوله : « سيأْتِيك بالأَخْبار . . . » فهو لا يأْمن أَن يقع ماعبّر عنه فى البيتين على النحو الذى يحب ، لأَنه لا يملك أَمره ، فهو لايملك أَن تُظْهِرَ الأَيام لمخاطبه مالم يكن يعلمه ، أَو أَن يحصل لذلك المخاطب العلمُ بما يشاءُ من الأَخبار من غير أَن يبذل المال والجهد لمعرفته .

من أَجل ذلك نستطيع أَن نقول : إِنَّ (السين) فى كل من العبارتين : « ستُبدِى . . . » و « سيأْتِيكَ . . . »

---

(١) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٢) سورة ٢٠ (طه) : ١٠ .

(٣) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٩ .

(٤) من قصيدة له مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ظللت بها أبكى وأبكى إلى الغد

انظر محمد بن القاسم الأنبارى ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ م ، ص ١٣٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ . ورواية البيت الثانى هنا : « سيأتيك بالأخبار...» ، وقد فضلناها لسبق ابن الأنبارى ، أما رواية الخطيب التبريزى فبالواو : « ويأتيك بالأنباء . . . » ، وكذلك رواية الديوان : « ويأتيك بالأخبار . . . » . انظر : أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى ، شرح القصائد السبع مع المضاف إليها المشهور بشرح القصائد العشر ، تحقيق فخر الدين قباوة ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ١٥٨ . وديوان طرفة بن العبد ، تحقيق كرم البستانى ، بيروت ، بدون ، ص ٤١ .

مفيدة ماتفيده (لعل)من الطمع والإشفاق ولو أننا جعنا (لعل) مكان (السين) فى كل من العبارتين لحصل المعنى الذى فهمناه من قول طرفة بلا زيادة أو نقصان؛ وإذن ، ف (السين) فى قول طرفة :

« ستُبدِى . . . » و « سيأْتِيكَ . . . »

قد عاقبت (لعل) مِثلَ (السين) فى قوله – تعالى – : « ﴿ إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ »[1] .

ومن الشواهد التى كثر ذكرها فى مصادر اللغويين قول الشاعر :

سيُغْنينِى ٱلَّذِى أغناكَ عنِّى
فلا فقرٌ يدومُ ، ولاغِناءُ[2]

ومن يتأمل كلام الشاعر فى الشطر الأول يجده يعبر عن طمعه فى أن يُغنيه الله ، ولكنه طامع مشفق غير آمن أن يقع له الغِنى على نحو ما أحب ، فحاله حال المترجى لا الموقن[3] ، وما كان لبشر أن يقطع على ربه بأن يُغنيه ،

ولو أننا فسرنا قول الشاعر: « سيغنينى الذى أغناك عنى » بقولنا : لعل الذى أغناك عنى يغنينى لكنا معبرين عن مضمون قول الشاعر أصدق تعبير ؛ وإذن ف (السين) فى قول الشاعر : « سيغنينى الذى أغناك عنى » قد عاقبت (لعل) وأفادت ما تفيده من الطمع والاشفاق شأنها فى ذلك شأن (سين) « سَـآتِيكُم »

---

(١) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٢) أنشده ثعلب فى شرح بيت زهير :

يجرون البرود وقد تمشت حيا الكأس فيهم والغناء

حيث قال : « . . . والغناء ممدود من الصوت ، والغنى من المال مقصود ، وقد مده الشاعر فقال : سيغنينى . . . » . أنظر أحمد بن يحيى بن زيد الشيبانى ثعلب ، شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م ، مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٦٣هـ – ١٩٤٤ م ، ص ٧٣ . عجز. وهذا البيت ذكره ابن هشام ٧٦١ هـ فى أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تحقيق محمد محيى الدين ، بيروت ، بدون ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ ، وهو الشاهد رقم ٥٣٧ . والبيت بشطريه ذكره أبو الحسن على نور الدين بن محمد بن عيسى الأشمونى ٩٢٩هـ فى شرحه على ألفية ابن مالك المسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ، عيسى الحلبى ، القاهرة ، بدون ، ج ٤ ، ص ١١٠ ، والمطبوعة بعنوان حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، ومعه شرح الشواهد للعينى . هذا ، وقد قال بدر الدين محمود بن أحمد العينى ٨٥٥ هـ فى مختصر شرح شواهد الألفية ويعرف : بالشواهد الصغرى المطبوع بحاشية المرجع السابق نفسه : « . . . السين هنا وإن كان للاستقبال ولكنه يفيد معنى التأكيد » .

(٣) انظر ماقاله بدر الدين العينى وأشرنا إليه آنفا .

فى قوله – تعالى – : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَـاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ »[1]

ويقول عبدُ الله بن عَنمةَ الضَّبىُّ[2] :

أَشَتَّ بليلى هجرُها وبِعادها
بما قد تؤاتينا وينفعُ زادُها

سنلهو بليلى والنَّوى غيرُ غَرْبة
تَضَمنَّها من رامتين جِمادُها

ليالى ليلى إذهى الهمُّ والهوى
يريدُ الفؤادُ هجرَها فيصادُها

فلما رأيتُ الدار قفرًا سألتها
فَعَىَّ علينا نُؤْيُهَا ورمادُها

فلم يبقَ إلَّا دِمْنَةٌ ومنازلٌ
كما رُدَّ فى خَطِّ الدواةِ مِدادُها

إذا الحارث الحرَّابُ عادى قبيلةً
نكاها ، ولم تبعُد عليه بلادُها[3]

ويقول محققا متن المفضليات الشيخ أحمد شاكر والأُستاذ عبد السلام هارون– فى وصف جو هذه القصيدة : « هاجه بُعد ليلى وهجرها ، وتوقَّع أن تتبدل الحال فيلتئم الشمل مرة أُخرى ، ثم يصف أطلال دارها ، ووقوفه عندها يسائلها ، ثم يصير إلى الغرض الأَول من كلمته وهو مدح الحوفَزان . . »[4]

وإذا فتشنا فى الأَبيات عن العبارة التى أَوحت إلى هذين العالمين المحققين بأَن يقولا دون تكلُّف : « وتوقع أن تتبدل الحال فيلتئم الشملُ مرَّةأُخرى »[5]

---

(١) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٢) هو شاعر إسلامى مخضرم . انظر ترجمته فى حاشية كتاب المفضل بن محمد بن يعلى الضبى : المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٧٩ م ، ص ٣٧٩ من المفضلية رقم ١١٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧٩ . والأبيات مذكورة أيضا فى كتاب الأصمعى أبى سعيد عبد الملك بن قريب ، الأصمعيات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط ٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م ، ص ٢٢٦ ، الأصمعية ٨٥ .

(٤) المرجع السابق ، حاشية ص ٣٧٩ .

(٥) المرجع السابق .

فإننا لانجد غير قول الشاعر : « سنلهو بليلى والنوى غيرُ غَرْبةٍ »[1] ؛ ويقول صاحب اللسان فى معنى التوقع : « وتوقع الشيء واستوقعه : تنظَّره وتخوفه »[2]، وإذن ف (السين) فى « سنلهو » هى التى أفادت هذا التنظر والتخوف ، أو الطمع والإشفاق ، أى أن (السين) فى بيت ابن عنَمةَ « سنلهو بليلى . . . » قد عاقبت (لعل) وأفادت ما تفيده من الطمع والاشفاق ، مثلُها فى ذلك مَثَلُ (سين) « سَـآتِيكُم » من قوله — تعالى — : « إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا سَـآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »[3] حيث عاقبت (السين) (لعل) المصرح بها فى قوله — تعالى — : « لَعَلِّى ءاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى »[4] وقوله — تعالى — : « إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ »[5] .

أما بعد ، فإنه يصح لنا أن نقول مطمئنين :

إن (سين) التنفيس تفيد ما تفيده (لَعل) من الطمع والإشفاق فى كل موضع يحسن أن تحل فيه (لعل) محلها .

---

(١) انظر الأبيات قبلا .

(٢) محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور ٧١١ هـ ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ م ، مادة (وقع) .

(٣) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٤) سورة ٢٠ (طه) ١٠ .

(٥) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٩ .

سـوف

ويقول سيبويه فى معنى (سوف) :

« وأما (سوف) فتنفيس فيما لم يكن بعد ، ألا تراه يقول ؛ سوفته »[1] يعنى إذا قال له مرة بعد مرة : سوف أفعل[2].

ويقول فى (باب الحروف التى لايليها بعدها إلاّ الفعل) :

« ومن تلك الحروف أيضاً سوف يفعل ، لأنها بمنزلة (السين) التى فى قولك : سيفعل وإنما هى إثبات لقوله : لن يفعل ، فأشبهتها فى أن لايفصل بينها وبين الفعل »[3].

ويقول ابن هشام :

« (سوف) مرادفة لـ (السين) ، أو أوسع منها على الخلاف[4] ، وكأن القائل بذلك نظر إلى أنّ كثرة الحروف تدل على كثرة المعنى ، وليس بمطرد ؛ ويقال فيها : « سف » ، و « سو » بحذف الأخير[5] ، و « سَىْ » بحذفه وقلب الوسط ياءً مبالغة فى التخفيف ، حكاه صاحب المُحكَم . وتنفرد عن (السين) بدخول اللام عليها نحو : « وَلَسوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ »[6] ، وبأنها قد تُفصل بالفعل المُلْغَى ، كقوله :

---

(١) سيبويه الكتاب ، هارون ج ٤ ، القاهرة ١٩٧٥ م ، ص ٢٣٣ - بولاق ، ج ٢ ص ٣١١ .

(٢) انظر هذا الشرح عند الجوهرى إسماعيل بن حماد ، تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م ، مادة (سوف) بتصرف حيث جعلنا « قال » مكان « قلت » .

(٣) الكتاب ، هارون ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ١١٥ - بولاق ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .

(٤) يعلق الشيخ محمد محيى الدين على ذلك بقوله : « يريد خلاف البصريين الذين يقولون : إن المدة مع (سوف) أوسع منها مع (السين) ، والكوفيين الذين يقولون : إنهما مترادفان ، وليست المدة مع (سوف) أوسع بل هما مستويان » انظر حاشية الصفحة المشار إليها فى التعليقة الآتية ؛ كذلك انظر مانقلناه قبلا عن ابن هشام عند الكلام على « السين » ، ص ١٧١ .

(٥) انظر مراجع ذلك الخلاف المشار إليها فى التعليقة رقم ٣ ، ص ١٧١ .

(٦) سورة ٩٣ (الضحى) : ٥ .

وما أدرى وسوف إخال أدرى
أقومٌ آلُ حِصن أم نساءٌ »[1]

وقد نقل بدر الدين الزركشى ، وجلال الدين السيوطى عن ابن بابشاذ أن (سَوْفَ) تُستعمل كثيرًا فى الوعيد والتهديد ، وقد تستعمل فى الوعد[2] .

وقد عد الشيخ محمد عضيمة ثمانيًا وعشرين آية قرآنية جاءت فيها (سَوْفَ) للوعيد ،[3] وعشر آيات جاءت فيها (سَوْفَ) للوعد[4] ، ثم أتبع ذلك بمجموعة من الفقار عالج فيها أحكاماً تشترك فيها (سَوفَ) مع (السين) من إفادة (السين) و (سَوْفَ) تحقق الوقوع ؛ والاستمرار ؛ وأنّهما يخلِّصان المضارع إلى معنى الاستقبال : وأنَّ (سَوْفَ) أشد تراخياً فى الاستقبال من (السين) ؛ وأنه ليس لحرفى التنفيس صدر الكلام ؛ وأنَّ الجملة المصدَّرة بعلامة الاستقبال من (السين) و (سَوْفَ) وقعت فى بعض آيات القرآن الكريم خبرًا للمبتدإ[5] .

وإذا كان الشيخ عضيمة نحويًّا معاصرًا قد لخَّص فيما كتبه عن (سوْفَ) جميع ما قاله النحويون من قبله كنا على يقين من أنَّ النحويين جميعاً قدماء ومُحْدَثين لم يجدوا لحرف التنفيس (سوف) إلّا ما نقلناه قبلا من أنواع الاستخدام ؛ لكنّ الإنعامَ فى النظر إلى بعض أبيات الشعر يكشف عن معنى آخر لـ (سوف) أُراه لم يقع لنحوى من قبل ، وبيان ذلك فيما يأتى من القول :

(١) انظر ما أشير إليه فى التعليقة رقم ٦ ، ص ١٧٢ ، والبيت لزهير بن أبى سلمى ، وستناقشه بعدا .

(٢) انظر مانقلناه قبلا عن الزركشى والسيوطى عند الكلام على (السين) ، وعلقنا عليه فى الصفحتين ١٧٢ و ١٧٣

(٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ، ج ٢ ، ص ١٧٥ — ١٧٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٧٧ — ١٧٨ . ولم نعن هنا بنقل شىء من الشواهد القرآنية على إفادة (سوف) الوعيد أو الوعد كما فعلنا عند معالجة (السين) ، لأننا لم نختر شيئا من هذه الشواهد ليكون دليلا لنا على مانقوله .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٨٣ — ١٩٣ ، وانظر المرجع مفصلا فى حاشية ص ١٨٠ .

يقول ذو الإصبع العدواني [1] :

ولى ابن عم على ما كان من خُلُقٍ
مختلفان ، فأقليه ، ويَقْلِينى

أزرى بنا أنَّنَا شالت نعامتُنَا
فخالنى دونَه ، بل خلتهُ دونى

لاهِ ابنُ عمك لا أفضلت فى حسبٍ
عَنِّى ، ولا أنت ديَّانى فتخزونى

* * *

إن الذى يقبض الدنيا وَيَبْسُطها
إن كان أغناك عنى سوف يغنينى [2]

ومن يتأمل قول ذى الإصبع فى البيت الأخير يجد أنه محمول على معنى غير معنى الخبر واليقين ، فأمر استغنائه عن ابن عمه بيد الله الذى يقبض الدنيا ، ويبسطها ، وليس بيده هو ، وما كان لذى الإصبع أن يقطع على الله بأن يُغنيه عن ابن عمه كما أغنى ابن عمه عنه ، فكلامه إذن هو كلام المترجى لا المخبر الموقن ، و (سوف) فى قوله : « سوف يُغنينى » قد عاقبت (لعل) كما عاقبت (السينُ) (لعل) فى قوله – تعالى – : « « إنِّى ءانَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ » [3] ؛ ولو أن شارحا فسر قولَ الشاعر « سَوْفَ يُغْنينى » بقوله : لعله يُغنينى ماجاوز الصواب ، وإذا حسن أن تحل (لعل) المفيدة للترجى محل (سَوْفَ) فى قول ذى الإصبع : « سَوْفَ يُغنينى » كانت (سوف) فى ذلك القول مفيدة ماتفيده (لعل) من الترجى ، أو الطمع والإشفاق .

---

(١) اسمه حرثان بن الحرث بن محرث ، شاعر فارس قديم جاهلى . انظر ترجمته فى حاشية المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٧٩ م ، ص ١٥٣ . وانظر أيضا أبو الفرج الأصبهانى على بن الحسين ٣٥٦ هـ الأغانى ، ج ٣ ، بولاق ، بدون ، ص ٢ وما بعدها .

(٢) أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ، شرح ديوان المفضليات ، تحقيق كارلوس لايل ، بيروت ، ١٩٢٠ م ، ص ٣٢٥ . كذلك انظر أبو على إسماعيل بن القاسم القالى ٣٥٦ هـ ، كتاب الأمالى ، بيروت ، بدون ، مصورة عن طبعة دار الكتب ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ . وكذلك انظر الأغانى ، ج ٣ ، بولاق ، بدون ، ص ٩ .

(٣) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

ويقول زهير بن أبى سُلمى[1] :

وما أدرى ، وسوف إخالُ أدرى
أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساء

فإن تكن النساء مخدّراتٍ
فحُقَّ لكلِّ مُحصنَةٍ هِداءُ[2]

قال أبو العباس ثعلب فى شرح هذين البيتين :

« يقول : ما أدرى أرجال هم أم نساءٌ . . . فإن قالوا : هن النساء اللاتى يختبئن فى الخدور فينبغى أن يُزوجن إذًا »[3] .

وقال عبد القادر البغدادى :

« وفى قوله : « وسوف أدرى » مبالغة ، يقول : لشدة شبههم بالنساء لايمكن الآن معرفتهم ، ويمكن أن أعرفهم فى المستقبل بمزاولة فكر »[4] .

ونقول بناء على ما تقدم : إنه إذا ألقى زهير فى رُوعنا مبالغاً أنه تعذر عليه معرفة حقيقة آل حصن فإحال قوله هذا الكلام فإن معرفة هذه الحقيقة فيما يستقبل من الزمان بمزاولة الفكر - إذا قدّرنا هذه المبالغة - شىءٌ لا يدخل فى باب اليقين ، بل هو شىء مراد محبوب للمتكلم به لكنه لا يأمن أن يقع فى المستقبل ، على نحو ما أحب ، ويؤيد ما نقول جعلُ زهير جملة « إخال » معترضة بين « سوف » ، و « أدرى » تأكيدًا لمبالغته ،

---

(١) من قصيدة له يهجو فيها أهل بيت من كلب من بنى غليم بن جناب ، مطلعها :

عفا من آل فاطمة الجواء فيمنٌ ، فالقوادم ، فالحساء

انظر شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ، ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) عبد القادر بن عمر البغدادى ١٠٩٣ هـ ، شرح أبيات مغنى اللبيب ، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد دقاق ، ج ١ ، دمشق ، ١٩٧٣ م ، ص ١٩٦ .

و « إخال » بمعنى أظن ؛ ويؤيد ما نقول أيضاً ما أثاره زهير من التشكيك بقوله :

فإن تكن النساء مُخدَّرات
فَحُقَّ لكلِّ مُحصَنةٍ هِداءُ

وإذن فقول زهير : « وسوف إخال أدرى » يصدق عليه ما قاله المبرد فى تفسير جملة (لعل) المفيدة للترجى :

« فإذا قلت : لعل زيداً يأتينا ، ولعل عمراً يزورنا – فإنما مجاز هذا الكلام من القائل أنه لايأمن أن يكون هذا كذا »[1]

ولو أن شارحاً جرّد قول زهير : « وسوف إخال أدرى » من جملة إخال المعترضة ، وجعل (لعل) مكان « سوف » لحسن ذلك منه ، أى أنَّ « سوف » فى قوله : « وسوف إخال أدرى » مفيدة ماتفيده (لعل) من الترجى أو الطمع والإشفاق كما أفادت (السين) فى « سَسآتِيكُمْ » من قوله – تعالى – : « إنِّى ءانَسْتُ نَارًا سَسآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ »[2] – الترجى حيث عاقبت (لعل) المصرح بها فى قوله – تعالى : – : « إنِّى ءانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءاتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ »[3] ، وقوله – تعالى – : « إنِّى ءانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءاتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ »[4] .

من أجل ذلك يصح لنا أن نجعل (سوف) شريكة (السين) فى المعنى الذى قلنا إن (السين) تفيده ، فنقول :

إن كلا من حرفى التنفيس يفيد ما تفيده (لعل) من الطمع والإشفاق فى كل موضع يحسن أن تحل فيه (لعل) محلَّهُ .

هذا ، وما توفيقى إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

---

(١) انظر ماتشير إليه التعليقة رقم ١ ، ص ١٨٢ .
(٢) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .
(٣) سورة ٢٠ (طه) ١٠ .
(٤) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٩ .

المراجع

١ - الإتقان في علوم القرآن ، الحافظ جلال الدين السيوطي ٩١١هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

٢ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المسمى تفسير أبي السعود ، أبو السعود محمد بن محمد العمادى ٩٥١ هـ ، بيروت ، بدون .

٣ - الأصمعيات ، الأصمعى سعيد بن عبد الملك بن قريب ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط ٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٤ - الأغانى ، أبو الفرج على بن الحسين الأصبهانى ٣٥٦ هـ ، بولاق ، بدون .

٥ - الأمالى ، أبو على إسماعيل بن القاسم القالى ٣٥٦ هـ ، بيروت ، بدون ، مصورة عن طبعة دار الكتب .

٦ - الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنبارى ٥٧٧هـ ، تحقيق محمد محيي الدين ط ٤ ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

٧ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف ابن هشام الأنصارى المصرى ٧٦١ هـ ، تحقيق محمد محيي الدين ، بيروت ، بدون .

٨ - البحر المحيط ، محمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الأندلسى ٧٥٤ هـ ، ط ٢ ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، مصورة عن طبعة ١٣٢٨ هـ .

٩ - البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، القاهرة ، عيسى الحلبى ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .

١٠ـ تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهرى ٣٩٣هـ ،تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

١١ـ جامع البيان عن تأويل القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ٣١٠هـ ، القاهرة ، ط ٢ ،مصطفى الحلبى ، ١٩٥٤ م . وطبعة أخرى بتحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

١٢ـ دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ، محمد عبد الخالق عضيمة ، جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، مطبعة السعادة ، بدون .

١٣ـ ديوان امرئ القيس ، بشرح الأعلم الشنتمرى أبى الحجاج يوسف بن سليمان النحوى ٤٧٦ هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ م .

١٤ـ ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق أكرم البستانى ، بيروت ، بدون.

١٥ـ رصف المبانى فى شرح حروف المعانى ، أحمد بن عبد النور المالقى ٧٠٤ هـ ، تحقيق أحمد الخراط دمشق ، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م.

١٦ـ شرح أبيات مغنى اللبيب ، عبد القادر بن عمر البغدادى ١٠٩٣ هـ ، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد دقاق ، جـ ١ ، دمشق ، ١٩٧٣ م .

١٧ـ شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم فى الجاهلية والإسلام ، حسن السندوبى ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٥٩ م .

١٨ـ شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ، أحمد بن يحيى بن زيد الشيبانى ثعلب ٢٩١ هـ الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م ، مصورة عن طبعة دار الكتب ، ١٣٦٣ هـ ـ ١٩٤٤ م .

١٩ - شرح ديوان المفضليات ، أبو محمد القاسم بن محمد بن بّشاره الأنبارى ٣٠٤ هـ ، تحقيق كارلوس لايل ، بيروت ، ١٩٢٠ م .

٢٠ - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، محمد بن القاسم الأنبارى ٣٢٨ هـ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

٢١ - شرح القصائد العشر ، أو شرح القصائد السبع مع المضاف إليها ، يحي بن على الخطيب التبريزى ٥٠٢ هـ ، تحقيق فخر الدين قباوة ، بيروت ، ١٩٨٠ م .

٢٢ - شرح المفصّل ، يعيش بن على بن يعيش ٦٤٣ هـ ، القاهرة ، بدون .

٢٣ - الكتاب ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه ١٨٠ هـ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م .

٢٤ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، جار الله محمود ابن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٥٣٨ هـ ، تحقيق قمحاوى ، مطبعة الحلبى ، القاهرة ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

٢٥ - لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور ٧١١ هـ دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ م .

٢٦ - مجمع البيان فى تفسير القرآن ، أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى ٥٤٨ هـ ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

٢٧ - مختصر شرح شواهد الألفية ، بدر الدين محمود بن أحمد العينى ٨٥٥ هـ ، والمختصر مطبوع مع حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية بن مالك ، القاهرة عيسى الحلبى ، بدون .

٢٨ - مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصارى المصرى ٧٦١ هـ ، تحقيق محمد محي الدين ، القاهرة ، بدون .

٢٩ ـ المفضليات ، المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ١٧٨ هـ ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط. ٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٣٠ ـ المقتضب ، محمد بن يزيد المبرد ٢٨٥هـ ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ .

٣١ ـ منهج السالك إلى ألفية ابن مالك المعروف بشرح الأشمونى ، أبو الحسن على نور الدين ابن محمد بن عيسى الأشمونى ٩٢٩ هـ ، وهو مطبوع مع حاشية الصبان ومختصر شرح الشواهد للعينى بعنوان حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعينى ، عيسى الحلبي ، القاهرة ، بدون

٣٢ ـ النهر الماد من البحر ، محمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الأندلسى ٧٥٤ هـ ، والكتاب مطبوع بحاشية البحر المحيط للمؤلف نفسه ، ط. ٢ ، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م مصورة عن طبعة ١٣٢٨ هـ .

صبحى عبد المنعم سعيد

الجملة الاسمية بين الإطلاق والتقييد

رأى وتصنيف

للأستاذ الدكتور / محمد حماسة عبد اللطيف

مدخل:

يمكن القول بأن هناك نوعين من الجملة الاسمية ، النوع الأول الجملة الاسمية المطلقة والنوع الثانى هو الجملة الاسمية المقيدة .

والذى أعنيه بالجملة الاسمية المطلقة هو الجملة الاسمية التى لاتقييد فيها من أى نوع . والمقيِّد فى هذه الحالة هو « الناسخ » بأنواعه المختلفة. وقد اخترت هذه التسمية: «المطلقة» لتكون فى مقابل «المقيدة»؛ فقد قال النحاة من لدن سيبويه عن كان وأخواتها إنها لمجرد إفادة الزمن فى الجملة الاسمية ، فهى قيد يضاف إلى الجملة لم يكن موجودا من قبل ،ومثل كان وأخواتها أفعال المقاربة فهى جميعا «روابط وقيود للمسند وهو الخبر»[1] وقالوا أيضا إن «المسند فى باب كان هو الخبر و« كان » قيد له»[2] فكل جملة اسمية دخل عليها ناسخ من النواسخ «جملة مقيدة» سواء أكان هذا التقييد بإضافة الزمن إلى الجملة الاسمية أم بإضافة معنى آخر إليها لم يكن موجودا من قبل عن طريق عنصر لغوى جديد على العنصرين المكونين (المسند إليه - المسند) وتتمثل هذه المعانى المقيِّدة فى معانى المقاربة، والرجاء، والشروع والتوكيد، والتمنى، والاستدراك، والتشبيه والنفى. هذا المعنى الجديد الذى يضفيه الناسخ على الجملة الاسمية يستتبعه تأثيرإعرابى فيغير الحالة التى كانت عليها الجملة الاسمية قبل دخوله . فالجملة الاسمية المطلقة - إذن- هى الجملة الاسمية التى لم يَنْصَبَّ على طرفيها معا ناسخ من النواسخ أى أطلقت من قيد الناسخ بما يقيدها به من معنى .

فجملة مثل «الله غفور رحيم» جملة مطلقة ، وإذا قلنا «كان الله غفوراً رحيما» أو «إن الله غفور رحيم» فإنها تصبح جملة اسمية مقيدة ؛ لأن كلا من الناسخين المقيدين «كان» و «إن» قد انصب على المبتدأ والخبر معا ، أما إذا كان فى الخبر وحده نوع من التقييد - بهذا المعنى- كما

---

(١) انظر حاشية الخضرى على ابن عقيل ١ / ١٥٦

(٢) حاشية الصبان على الأشمونى ٢/ ٢٣٥

إذا قلنا مثلا : «محمد كان صادقًا أمينًا» فإن هذه الجملة ليست جملة اسمية مقيدة بل مطلقة ؛ لأن انصباب «كان» هنا ليس على المبتدأ بل على ضميره ، والجملة على هذا النحو مكونة من (مبتدأ وجملة اسمية مقيدة هي الخبر) ، والإسناد في «كان صادقا أمينا» ليس إسنادا أصليا ولكنه إسناد فرعي ، ومعنى هذا أن الجملة الاسمية لا تعد جملة اسمية مقيدة إلا إذا كان الناسخ منصبا بتأثيره الإعرابي على كل من المبتدأ (لا على ضميره) والخبر معا ، أو بعبارة أخرى على طرفى الإسناد الأصلى فى الجملة الاسمية .

وتتمثل دراسة الجملة الاسمية المطلقة فى بيان أنواعها ، ومعرفة مكونات كل نوع أو أجزائه ، والتعريف بكل مكوّن أو جزء وخصائصه ، والربط بين هذه الأجزاء ومعرفة وسائل هذا الربط ، والتطابق بين هذه الأجزاء ، والترتيب بينها ، ومدى حرية هذا الترتيب أو التزامه ، ويمكن تصنيف الجملة الاسمية المطلقة فى ثلاثة أنواع :

الأول - الجملة الاسمية التامة .

الثانى - الجملة الاسمية المجزوءة .

الثالث - جملة الوصف مع مرفوعه .

١ - الجملة الاسمية التامة :

هناك فكرة أساسية فى نظرة النحاة العرب إلى الجملة وهى أنه لابد من وجود «الإسناد» بطرفيه . وطرفاه فى الجملة الاسمية هما (المبتدأ والخبر) . ولابد أن يراعى هذان الطرفان فى اعتبار الجملة مراعاة كبيرة ، فإذا كانا مذكورين فإن الجملة حينئذ قد اكتمل لها عنصراها ، وإذا ذكر أحدهما دون الآخر فإن العنصر الثانى لابد أن يكون فى الحسبان ، ولا يمكن اعتبار أحدهما فحسب جملة مستقلة ، مع إفادته معنى يحسن السكوت عليه ، فى نظر كثير من النحاة ، وذلك لأن الإسناد فى تعريفهم «رابطة» بين شيئين ، أو «حكم» بأحد الطرفين على الآخر[1]، أو «تعليق خبر بمخبر عنه»[2] فى الجملة الاسمية .

والذى أعنيه بالجملة الاسمية التامة هو الجملة التى اكتمل لها عنصراها ، وتحقق فيها الإسناد بطرفيه (المبتدأ والخبر) ،

(١) انظر : الرضى ١/٨ (٢) السيوطى : همع الهوامع ١/٥ (٣) الفتح ، الآية ٢٩ (٤) الفتح : الآية ٩٠
(٥) آل عمران ، الآية : ١٣٩ (٦) يوسف ، الآية ٩٠ (٧) لقمان ، الآية ١١ (٨) الجاثية ، الآية : ٢٩
(٩) الفاتحة ، الاية ٢ (١٠) الفرقان ، الآية ٢٤ (١١) البقرة ، الآية ٢٢٦ (١٢) لقمان ، الآية : ١٢ .

وكان المبتدأ فيها من أسماء الأعلام مثل «محمدٌ رسولُ الله»[1] أو الأسماء الموصولة مثل «والذين معه أشداَّء على الكفارِ رُحَماء بينهم»[2] أو الضمائر المنفصلة للرفع مثل «وأنتم الأعلَوْنَ»[3] و « أنا يوسف»[4] أو أسماء الإشارة مثل « هذا خلق الله »[5] و« هذا كتابنا »[6] أو المعرف بالأداة مثل « الحمدُ لله »[7] أو بالإضافة مثل «أصحابُ الجنة يومئذ خيرٌ مستقرا»[8] أو من النكرات المخصصة مثل «ولَعَبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشرك ولو أعجبكم»[9] أو العامة مثل «ومَنْ يشكُرْ فإنما يشكرُ لنفسه، ومن كفر فإن اللهَ غنيٌّ حميدٌ»[10] ويمكن تحديد الجملة الاسمية التامة بعبارة أكثر اختصارا فيقال : «هي ما لم يكن المبتدأ فيها وصفا رافعا لما يكتفى به ، ولم يجب حذف أحد طرفيها ، وتطابق فيها الجزآن . فقد اشتُرِط في هذا التحديد ثلاثة شروط :

الأول :

ألا يكون المبتدأ وصفا رافعا لما يكتفى به فإذا كان كذلك فهذا ما سوف يُتناول تحت عنوان جملة الوصف مع مرفوعه .

الثاني : ألا يكون أحد جزأيها واجب الحذف ، فإذا كان كذلك فهذا ما سوف يتناول تحت عنوان الجملة الاسمية المجزوءة . أما إذا كان أحد الجزأين محذوفا لدواع اقتضاها الموقف اللغوى فى التعبير - وهو ما يسمى بالحذف الجائز - فهذا داخل فى النوع الذى نتناوله هنا وهو الجملة الاسمية التامة ، فالحذف الجائز لأحد عنصرى الجملة الاسمية لا يغير نوعها فهى ماتزال تامة لأن العنصر الآخر مفهوم من السياق وذلك كما فى قوله تعالى : «قال فرعون : وما ربُّ العالمين. قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما»[11] فالإجابة تضمنت الخبر فقط «ربُّ السموات» ، وحذف المبتدأ لأنه مفهوم من سياق الكلام وتقديره «هو» يعود على «رب العالمين» ، وهذا الحذف ليس لازماً ، لأنه قد يذكر هذا المحذوف فى مواقف مماثلة كما فى قوله تعالى :«وما تلك بيمينك ياموسى.قال : هى عصاى»[12].

وفى قوله تعالى : « قال : فمن ربكما ياموسى. قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى»[13] .

(١) الفتح ، الآية ٢٩ (٢) الفتح : الآية ٢٩

(٣) آل عمران ، الآية : ١٣٩ (٤) يوسف ، الآية :٩٠ (٥) لقمان ، الآية ١١ (٦) الجاثية ، الآية : ٢٩

(٧) الفاتحة ، الآية ٢ (٨) الفرقان ، الآية ٢٤ (٩) البقرة ، الآية ٢٢٦ (١٠) لقمان ، الآية : ١٢ .

(١١) الشعراء : الآية ٢٣ ، ٢٤ (١٢) طه ، الآية ١٧ ، ١٨ (١٣) طه ، الآية ٤٩، ٥٠

والإجابة هنا تضمنت المبتدأ والخبر معا، ولم يشأ أن يحذف أحد العنصرين وهو هنا «المبتدأ» لأن الموقف هنا يقتضى ذكر الطرفين معا استلذاذا للحديث مع الذات العلية فى الآية الأولى «هى عصاى» ومحاولة للإطالة فى الكلام ، وكان من الممكن فى الإجابة أن يقول «عصاى أتوكأ عليها» وأما الجملة الثانية «ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى» فإن الموقف هنا اقتضى ذكر المبتدأ (ربنا) ، وكان من الممكن حذفه اعتماداً على السياق ، لكن موسى - حسب التعبير القرآنى - أراد أن يؤكد هذا المعنى عن طريق حصر إعطاء كل شئ خلقه وهداه فى (ربنا) ليبطل دعوى فرعون المزعومة بربوبيته هو دون سواه ، وقد أراد أيضا أن يكشف لفرعون عن اعتزازه الشديد بإضافة (رب) إليه هو وأخيه وقد التقط هذا من قول فرعون المنكر المستهزئ «فمن ربكما» حيث يبين أنه يؤمن بما ينكره ويوقن بذلك يقينا لا ينازعه فيه شئ من الشك . هذه الجمل التي يذكر أحد طرفيها المبتدأ أو الخبر ، ويكون الطرف الآخر مفهوما من السياق ، ويكون المتكلم مختارا بين ذكره أو حذفه حسبما يحدده الموقف وتمليه ملابساته - هذه الجمل تعد من الجمل الاسمية التامة .

الثالث :

أن يتطابق الجزآن فى العدد (الإفراد والتثنية والجمع) والنوع (التذكير والتأنيث) فإذا قلت مثلا :

«محمدٌ ناجح» فهذه جملة اسمية تامة سواء تقدم «محمد» أم تأخر . فإذا قلت «ناجحٌ محمدٌ» فكلمة «محمدٌ» مبتدأ مؤخر، وكلمة «ناجح» خبر مقدم سواء سبقت بنفى أو استفهام أم لم تسبق بواحد منهما ، وهذا هو تحليل الكوفيين والزمخشرى وابن الحاجب لمثل هذا التركيب الذى يكون فيه كل من المبتدأ والوصف (الاسم المشتق) مفرداً وتقدم فيه الوصف ؛ ولهذا أوجبوا فى قوله تعالى « أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم»(١) أن يكون محمولا على التقديم والتأخير.(٢)

---

(١) مريم ، الآية ٤٦ .

(٢) انظر : شرح شذور الذهب لابن هشام ١٨٢ . وقد أعرب هذه الآية على أنها مبتدأ وفاعل سد مسد الخبر كل من ابن الأنبارى (البيان فى غريب إعراب القرآن ٢/ ١٢٧) والعكبري (إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١٤ ، ١١٥) ومكى بن أبى طالب القيسى (مشكل إعراب القرآن ٤٥٦). وهو اتجاه البصريين الذين يجيزون هذا الوجه (مبتدأ + فاعل سد مسد الخبر) والوجه الآخر (مبتدأ مؤخر وخبر مقدم) فى حالة إفراد كل منهما واعتماده على نفى أو استفهام .

ويقول الزمخشرى عن هذه الآية «وقدم الخبر على المبتدأ فى قوله (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم) ؛ لأنه كان أهم عنده، وهو عنده أعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ما ينبغى أن يرغب عنها أحد وفى هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمّا كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه»(١).

ولكن أبا حيان يبين أن المختار فى إعراب «أراغب أنت» أن يكون «راغب» مبتدأ ، لأنه قد اعتمد على أداة الاستفهام و«أنت» فاعل سد مسد الخبر ، ويقول فى ترجيح هذا الإعراب : «ويترجح هذا الإعراب على ما أعربه الزمخشرى من كون «أراغب» خبرًا و«أنت» مبتدأ بوجهين :

أحدهما : أنه لا يكون فيه تقديم ولاتأخير،إذ رتبة الخبر أن يتأخر عن المبتدأ.

والثانى : أن لا يكون فصل بين العامل الذى هو «راغب» وبين معموله الذى هو «عن آلهتى» بما ليس بمعمول للعامل ، لأن الخبر ليس هو عاملا فى المبتدأ بخلاف كون «أنت» فاعلا فإنه معمول (أراغب) فلم يفصل بين (أراغب) وبين « عن آلهتى» بأجنبى ، إنما فصل بمعمول له»(٢).

إذن أمامنا اتجاهان فى إعراب مثل هذا التركيب ، ومن الواضح أن اتجاه الزمخشرى- ومعه الكوفيون وابن الحاجب- قائم على فهم النص فى سياقه وملابساته ويرتب عليه معنى لطيفا يدرَك من خلال تركيبه ، ولذلك أميل إلى هذا الاتجاه وأدعو إلى تعميمه فى كل نظائره فكل وصف مفرد بعده اسم مفرد يكون الوصف فيه خبرا مقدما والاسم التالى له مبتدأ مؤخرا .

وأما الترجيح الذى قدمه أبو حيان لإعراب هذه الآية على النحو الذى أعربها به ، فإنه ترجيح قائم على أساس قواعد وضعها النحاة أنفسهم ، وهى غير مسلمة عند الجميع ، وأبو حيان لا يراعى فى ترجيحه إلا هذه القواعد فحسب دون النظر إلى النكتة اللطيفة التى يتضمنها

---

(١) الزمخشرى ، الكشاف ٣/ ٤١٣
(٢) أبو حيان ، البحر المحيط ٦/ ١٩٥ وانظر له أيضا : النهر الماد بهامش البحر المحيط ٦/ ١٩٢ وانظر أيضا بهامشه الدر اللقيط لتاج الدين الحنفى ٦/ ١٩٤.

توجيه الزمخشرى الذى نظر للآية نظرة بلاغية يقتضيها سياق الآية وملابسات الموقف .

وما أسميه هنا بالجملة الاسمية التامة يسميه النحاة بالمبتدأ الذى له خبر. والجملة الاسمية التامة تفترق عن غيرها فى أمور :

أولها- أن المبتدأ فيها - وهوالمسند إليه- يكون اسما صريحا نحو «الله ربنا» و«محمد نبينا» ومؤولا بالاسم الصريح نحو «وأن تصوموا خير لكم»(١) أى «وصيامكم خير لكم» فـ (أن تصوموا) مؤول بـ«صيامكم».

ثانيها- أن المبتدأ فى الجملة الاسمية التامة لا يحتاج إلى شئ يعتمد عليه ، وأما الوصف مع مرفوعه فلابد أن يعتمد على نفى أواستفهام.(٢) فى رأى كثرة النحاة.

ثالثها - أن الجملة الاسمية التامة يجوز أن تدخل عليها النواسخ المختلفة ، على خلاف جملة الوصف مع مرفوعه التى لاتقبل من النواسخ إلا ما يفيد النفى(٣) فحسب بخلاف الجملة الاسمية المجزوءة التى لا تقبل النواسخ مطلقا(٤).

رابعها- أن الجملة الاسمية التامة يجوز فيها أن يتقدم الخبر على المبتدأ إلا إذا طرأ على التركيب ما يمنع ذلك ، على خلاف جملة الوصف مع مرفوعه .

وتتألف الجملة الاسمية التامة من المبتدأ والخبر . والمبتدأ لابد أن يكون اسما صريحا أو مؤولا بالاسم . وأما الخبر فلابد أن يكون واحدا مما يأتى :

١ - الوصف : والمقصود به اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفة المشبهة أو صيغة المبالغة أو اسم التفضيل ، وبعبارة أكثر اختصارا يقال إن الوصف هو ما أخذ من الفعل للدلالة على حدث وصاحبه . فكلمة (كاتب) مثلا تدل على أمرين : الكتابة ، والذات التى اتصفت بها ،

---

(١) البقرة ، الآية ١٨٤ (٢) انظر شرح شذور الذهب لابن هشام ١٨٠ (٣) انظر شرح الكافية للرضى ٢/٢٩٧

(٤) انظر شرح الكافية ٠٨٧/١ والأخفش والفراء يجيزان : إن قائما الزيدان . والكوفيون يجيزون هذه ويجيزون أيضا : ظننت قائما الزيدان . وكلاهما بعيد عن القياس على حد تعبير الرضى .

وكلمة (مضروب)- وهى اسم مفعول- تدل أيضا على شيئين : الضرب - وهو الحدث- والشخص أو الذات التى اتصفت بوقوع الضرب عليها ، وهكذا كل مشتق من الفعل على هذ النحو . والإخبار بالوصف هو الأكثر .

٢ - الاسم الذى فى قوة الوصف - على حد تعبير النحاة- وهو الاسم الذى يؤدى ما يؤديه الوصف ، أى ينقل إلى الوصفية ، وذلك كقولك : « محمدٌ أسدٌ » فـ (أسد) اسم جامد ولكن معناه هنا «شجاع» ، وإذا قلت «هذا زيد» فـ«زيد» هنا اسم جامد ، ولكن معناه «صاحب هذا الاسم» وإذا قلت «محمد ذو خلق» فـ (ذو) اسم جامد ولكن معناه «صاحب خلق» وهكذا .

٣ - الجملة ، سواء أكانت جملة اسمية أم فعلية .

٤ - شبه الجملة (الظرف والجار والمجرور) .

والمبتدأ - إذا كان معربا - لابد أن يكون مرفوعا بعلامة الرفع المعروفة له (الضمة) إذا لم يكن مما يرفع بغيرها ، أو (الواو) أو (الألف)، وتقدر عليه الضمة فى المواضع الآتية :

١ - إذا كان المبتدأ مفردا مضافا إلى ياء المتكلم مثل «ربِّى أكرمَنِ»[(١)] .

٢ - إذا كان المبتدأ اسما مقصوراً مثل : « الهُدَى هُدَى اللهِ».

٣ - إذا كان المبتدأ اسما منقوصا مثل : « القاضِى عادلٌ».

٤ - إذا كان مصدرا مؤولا مثل «وأنْ تَصُومُوا خيرٌ لكم»[(٢)] .

٥ - إذا كان اسما منقولا عن جملة مثل : «تأبَّطَ شرًا شاعرٌ قديِمٌ».

٦- إذا كان المبتدأ مجرورا بحرف الجر الزائد مثل قولهم «بِحَسْبِكَ دِرهَمٌ».

ولست أرى رأى من يقول - كابن خالويه - إن المضاف إلى ياء المتكلم لا علامة فيه لأن الياء تذهب بالعلامة ، ولا رأى من يقول إن الاسم المنقوص والمقصور لا علامة فيه ، ولا رأى من يقول إن المضاف إلى ياء المتكلم مبنى[(٣)]؛ لأن كل وظيفة نحوية لابد لها من علامة إعرابية تخصها وتعرف بها ، ولأن كل اسم من

(١) الفجر ، الآية ١٥ (٢) البقرة ، الآية ١٨٤ .

(٣) أنظر إعراب ثلاثين سرة لابن خالويه : ٧٩ ، وشرح الرضى للكافية١/ ٣٥ . ولست أميل مع الرضى الى ان المضاف الى ياء المتكلم مبنى لأن مسلك العربية مع المبنيّات أنّها لاتضاف ، ولكن هذا مضاف إلى ياء المتكلم يمكن وصفه .

هذه إذا أتبع باسم آخر تظهر عليه العلامة الإعرابية كان مرفوعا ، فليست العلامة فى الحقيقة للاسم من حيث هو اسم ولكنها للموقع الذى يكون فيه ، ولهذا السبب نفسه يكون المبتدأ ، إذا كان اسما مبنيا ، فى محل رفع . وبذلك يكون المصطلح «مبتدأ» ملخصا لأمورة كثيرة منها الرفع ، والرتبة لأن المبتدأ لايكون إلا مرفوعا مقدما إلا إذا طرأ على التركيب ما يستدعى تأخيره ، ومنها الصيغة لأن المبتدأ لايكون إلا اسما أو مافى تأويله ، ومنها التعيين (التعريف والتنكير) لأن المبتدأ لا يكون إلا معرفة أو مافى حكمها وهو النكرة المخصصة .

وما ينطبق على المبتدأ من حيث العلامة الإعرابية ينطبق أيضا على الخبر غير أن الخبر يفترق عن المبتدأ فى أنه من الممكن أن يكون جملة فتكون فى محل رفع ، أو شبه جملة فتكون بحسب متعلقها على التفصيل الذى تورده كتب النحو .

٢ - الجملة الاسمية المجزوءة :

لم يتناول النحاة هذا النوع من الجمل على الوجه الذى أحب أن أتناولها به ، ولكنهم - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - لا يقرون بوجود الجملة إلا إذا كان هناك إسناد بطرفيه (المبتدأ والخبر) ، وهناك بعض التراكيب لم يكتمل لها هذان الطرفان ، بل وجد طرف واحد فقط ولم يمكن فى التعبير المستعمل أن يظهر الطرف الآخر مطلقا ، ومع ذلك نجد كثيرا من النحاة لا يعترف بهذا ، ويصر على اعتبار طرف آخر ، ويرى أنه محذوف «وجوبا» ومعنى الحذف الواجب أنه لا يمكن أن يظهر على الإطلاق بل إن ظهوره فى بعض هذه التراكيب قد يخل بالمعنى المقصود ويذهب به .

ونحن لا نعيب على نحاتنا هذا المسلك، فهم قد أرادوا الاطراد لنظامهم الذى وضعوه لتحليل اللغة وفهم تراكيبها، وقد يكونون فى كثير مما ذهبوا إليه على حق ، ولكننا نسمح لأنفسنا أيضا أن نعيد النظر فيما قدموا إلينا ، وبطبيعة الحال لن نغير اللغة نفسها ، فليس هذا فى وسع أحد ، ولكن الذى نود تغييره بعض هذه النظرات الخاصة بتحليل بعض التراكيب،

وليست مخالفتهم فى ذلك خروجا أومروقا على إجماعهم يوجب العذل واللوم ، وإجماعهم لا يلزم أحدًا باتباعهم فإن «إجماع النحويين ليس بحجة على من خالفهم»[1] كما يقول ابن مضاء ، وقد قال أبو الفتح ابن جنى من قبله « اعلم أن إجماع أهل البلدين (يعنى أهل البصرة وأهل الكوفة) إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا يخالف المنصوص والمقيس على المنصوص ، فأما إن لم يعط يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليه ، وذلك أنه لم يرد ممن يُطاع أمره فى قرآن ولا سنة أنهم لا يجتمعون على الخطأ ، كما جاء النص عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قوله : « أمتى لاتجتمع على ضلالة» وإنما هو علم منتزع من استقراء هذه اللغة ، فكل من فُرِقَ له عن علةٍ صحيحة وطريقٍ نَهْجَةٍ كان خليلَ نفسه وأبا عمرو فكره»[2].

إننا نرى أن المعوّل كله على إفادة المعنى ،فإذا كان التركيب مفيدا لمعنى يحسن السكوت عليه ،فلا داعى لتكلف البحث عن طرفى الإسناد ، ومعنى هذا أننا ننظر إلى هذه التراكيب على أنها جمل مفيدة ، وإن لم يتحقق لها اكتمال طرفى الإسناد . إذن مانعنيه بالجمل الاسمية المجزوءة هو الجمل التى أفادت معنى يحسن السكوت عليه من غير أن يكون موجودا فى التركيب إلا اسم واحد مرفوع ، وقد تناولها النحاة من قبل على أن بعضها قد حذف منه الخبر ، وبعضها الآخر قد حذف منه المبتدأ ،وسوف أعرضها أولا كما عرضها النحاة ثم أعقب عليها بما أرتئيه فيها من رأى :

يقول النحاة : يجب حذف الخبر وجوبا فى أربعة مواضع هى على النحو الآتى :

١- إذا وقع المبتدأ بعد «لولا» الامتناعية وكان الخبر كونا عاما مثل«لولا أنتم لكنا مؤمنين»[2].

٢ - إذا كان المبتدأ نصا فى اليمين مثل « لعمرُك إنهم لفى سكرتهم يعمهون»[3].

٣ - إذا وقع بعد المبتدأ واو هى نصٌ فى العطف والمعية مثل «كلُّ رجلٍ وضيعتُه».

٤ - إذا كان المبتدأ مصدرا أو اسم تفضيل مضافا إلى مصدر بعده حال تسد

---

(١) الرد على النحاة لابن مضاء : ٧٤ (ط دار الاعتصام) .
(٢) الخصائص لابن جنى ١/١٨٩ ، ١٩٠ (ط دار الكتب) .
(٣) سورة سبأ ، الآية ٣١ . (٤) سورة الحجر ، الآية ٧٢ .

مسـد الخبرولا تصلح أن تكون هى الخبر مثل «ضربى العبد مسيئًا »، و« أكثُر ضربى العبد مسيئا»

كـما يجب حـذف المبتدأ فى مـواضع هى:

١ - إذا كان الخـبر نعتا مـقطوعا للرفع مـثل « أعـوذ بالله من الشـيطانِ الرجـيمُ» برفع الرجيم .

٢ - إذا كــان الخبر مخصوصا بالمـدح أو بالذم مثل « نعم الرجل أبو بكر ».

٣ - إذا كان الخـبر صريحـا فى القسم مثل « فى ذمتى لأحجن إلى بيت الله » .

٤ - إذا كان الخـبر مصـدرا نائبا مناب فعله مثل « فصبرٌ جميلٌ » (١) .

بعـد عـرض هذه المواضع على الوجـه الذى قرره النحـاة - أود أن أعرض ما أراه فى عـلاج هذه التراكـيب المختلفـة ، ولن أبعد - فى الوقت نفسـه - عما يراه بعض النحاة ، وسـيُرى أننى أهتـدى ببعض هذه الآراء ، وأوّل ما أراه فى ذلك أن ما يسمى بالنعت المقطوع للرفع ينبغى أن نخرجه من إطار الجملة المجزوءة ، لأن هذا لا يعدو أن يكون مـخالفة فـى الإعراب أو ترخصا فـيـه من أجل إثارة الانتـبـاه ولفت النظر للسامـع بوسيلة صوتـية لعلها تـصدم أذنه ومألوفه اللغوى فيلتفت إلى ما يقال بهدف تأكيد هذه الصـفة ، وذلك أن قطع النعت مخالـفته للمنعوت بالرفع إن كـان المنعوت منصـوبا أو مجـرورا ، وبالنصب إن كـان المنعوت مـجرورا أو مرفوعـا ، ولا يخرج فى الوقت نفسه عن كونه «نعتا» فإذا قلنا : «رأيت مـحـمّـدا العـاقلُ» ونطـقنا كلمـة «العاقل» مرفـوعة فإن النحاة -كـما سبق- لايرضيـهم أن تكون هذه الكلمة مرفـوعة دون أن تكون فى وظيـفة نحـوية تستـحق الرفع ولذلك قالوا إنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هو» وهذه لا يمكن أن تظهر على الإطلاق، وما قالوه هنا يتفق فى غايته مع مـا نراه من إرادة توكيـد صـفة العـقل فى الجـملة السالفـة ولكن عن طريق افتـراض جملة تؤكد هذه الـصفة . وأرى أنه يكفى فى إعراب هذه الكلمة «العاقل» بالرفع هى وأمثـالها أن نقول إنهـا نعت مقطوع للرفع فـحـسب دون أن نتكلف القـول بأن هناك مبتدأ محـذوف وجوبا ، ففى هذا تعويض

(١) سورة يوسف ، الآية ١٨

للمسائل، وهنا يجب أن نقول فى تحليل النعت إنه يتبع منعوته ، وقد يرفع وقد ينصب لإرادة تأكيد الصفة المذكورة فهناك نعت مقطوع للرفع ، ونعت مقطوع للنصب .

ويجب أن نُخرج من إطار الجملة المجزوءة كذلك ما أورده النحاة فى حذف الخبر وجوبا فى أسلوب القسم مثل «لعمرُك لأفعلنّ» وما أوردوه فى حذف المبتدأ وجوبا كذلك مثل «فى ذمتى لأفعلنّ» لأنى أرى أن أسلوب القسم يجب أن يعالج منفصلا تحت نوع خاص من الجمل يسمى بالأساليب الخاصة ، وكذلك أسلوب المدح والذم لأن هذه تراكيب خاصة تلزم طريقا واحدا فى التعبير .

وفى تحليل أسلوب «لعمرك» .... يكفى أن نقول إن اللام للقسم وعمرك مقسم به مرفوع والكاف فى محل جر ، وبعد ذلك تعرب جملة جواب القسم ، ولاداعى لأن نتكلف خبرا محذوفا وجوبا ، لأن الذى دفع نحاتنا القدماء إلى تكلف هذا أنهم لم يعترفوا بوجود مايسمى بالجملة المجزوءة .

وأما أسلوب «فى ذمتى لأجتهدن» مثلا فلا أرى بأسا على الإطلاق - برغم أن النحاة يمنعون هذا - من أن يكون الجار والمجرور «فى ذمتى» بغير متعلق ، لإفادة القسم ، ثم هى بعد ذلك عبارات محدودة جدا .

وأما أسلوب المدح والذم فإن النحاة لا يدخلونه فى الجملة الاسمية المحذوف أحد طرفيها وجوبا - وهو المبتدأ- إلا إذا كان المخصوص بالمدح أو بالذم مؤخرا مثل «نعم الخلق الصدق» و«بئس الخلق الكذبُ» وكذلك «نعم خلقا الصدقُ» و«بئسَ خلقا الكذبُ» فإن كلاً من «الصدق» و«الكذب» تعربان إما مبتدأ والجملة قبله فى محل رفع خبر مقدم ، وعلى هذ الوجه لا حذف فى التركيب ، والتركيب بهذا الاعتبار جملة اسمية تامة ، وإما أن يعربا خبرا لمبتدأ محذوف تقديره «هو» وهو محذوف وجوبا فى رأيهم .

وقبل تحليل هذا الأسلوب على الوجه الذى نرتضيه أشير إلى أنه كثيرا ما تكتفى أداة المدح (نعم) أو الذم (بئس) أو (ساء) بالاسم المرفوع بعدها أو بالتمييز وهذا هو الاستعمال القرآنى فقد وردت هاتان الجملتان فى القرآن الكريم إحدى وثمانين مرة[1] موزعة على «نعم» و « بئس »

(١) يمكن مراجعة هذه الآيات فى سورها مستعينا بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فى مواد نعم وبئس وساء ص ٧٠٩ ، ١١٣ ، ٣٦٧ .

و«ساء» ولم يرد من جميع هذه الجمل إلا أربع جمل فقط بها ما يسمى بالمخصوص بالذم ، وهذه الجمل هى «بئس الوردُ الموروردُ»[1] و«بئس الرِّفْدُ المرفودُ»[2] و«بئس الاسْمُ الفسوقُ بعدَ الإيمان[3]» و«ساء مثلا القومُ الذين كذبوا بآياتنا[4]».

وأود أن أشير أيضا إلى أنه عندما يكون المخصوص بالمدح أو بالذم مقدما ويعرب مبتدأ لا تكون جملة الخبر محتاجة إلى رابط يربطها بالمبتدأ من تلك الروابط اللفظية لوجود العموم فيه الذى يندرج تحته المبتدأ ، فكأن المبتدأ قد تكرر بنفسه ، يقول سيبويه «وأعلم أنه محال أن تقول : عبد الله نعم الرجل ، والرجل غير عبد الله ، كما أنه محال أن تقول : عبد الله هو فيها ، وهو غيره»[5] فتطابق المخصوص بالمدح أو بالذم مع الاسم المرفوع بعد أداة المدح أو الذم كتطابق الاسم مع ضميره عند سيبويه ، وعند المبرد أيضا[6].

وعندما يكون المخصوص بالمدح أو الذم مقدما لا يختلف النحاة فى إعرابه مبتدأ خبره الجملة بعده ، ولكنهم يختلفون عندما يؤخر ، فمنهم من يعربه مبتدأ ، ومنهم من يعربه خبرا لمبتدأ محذوف وجوبا ، ومنهم من يعربه بدلا من فاعل نعم أو بئس ، ومنهم من يعربه مبتدأ خبره محذوف وجوبا[7]. وهذا الاختلاف بطبيعة الحال يشير إلى الاضطراب فى تفسير هذا التركيب وتحليله .

والذى نخلص إليه من كل هذا أننا لا نرى فعلية كل من نعم وبئس وما يؤدى معنى المدح أو الذم مثلهما ، بل هى أدوات لإفادة المدح أو الذم ، وكل أداة من هذه الأدوات تضام اسما مرفوعا ولا يليها إلا إذا كان معرفا بال أو مضافا إلى ما هو معرف بأداة التعريف (ال) مثل : «نعم الخلقُ الصدقُ» أو «نعم خلقُ المؤمنِ الصدقُ» ويكون تحليل هذه الجملة على الوجة الآتى :

نعم : أداة مدح .

الخلق : ضميمة أداة المدح ، مرفوع .

الصدق : بدل من (الخلق) .

وقد رأى هذا الرأى من قبل ابن كيسان إذ ذهب إلى أن المخصوص بالمدح فى حالة تأخيره يعرب بدلا من المرفوع قبله ، وكذلك أبو على الفارسى وابن السراج

---

(1) سورة هود آية ٩٨ (2) سورة هود آية ٩٩ (3) سورة الحجرات آية ١١ .

(4) سورة الأعراف آية ١٧٧ (5) كتاب سيبويه ٢/١٧٧ (6) انظر المقتضب ٢/١٤٩.

(7) انظر هذا الخلاف فى الأشمونى ٣/٣٧ وانظر خلافات أخرى فى صفحة ٣٣ من الجزء نفسه وانظر الهمع ٢/٨٧ .

وأشار الأشمونى إلى أن ابن مالك يجيز هذا فى شرح التسهيل .

وقد أُخِذ على هذا الرأى أمران :

أولهما : أن هذا المخصوص لازم وليس البدل بلازم بل قد يؤتى به أو لا يؤتى به.

ثانيهما : أن هذا المخصوص لا يصلح لمباشرة أداة المدح فى كثير من أمثلته فإذا قلت : نعم الرجل محمد فلا يمكنك أن تقول : « نعم محمدٌ » .

ونقل السيوطى الرد على الاعتراض الثانى وهو أنه يجوز أن يقع بدلا ما لايجوز أن يلى العامل بدليل «إنَّك أنت»[1] حيث تعرب «أنت» بدلا من الكاف ولا يصح أن يقال «إنَّ أنت» .

وقد نقل الصبان ردا على الاعتراض الأول فقال : قد يقال لا مانع من كونه لازما لكونه مقصورًا ، وكونُه تابعا لايقدح فى اللزوم كتابع مجرور(رب)[2].

وقد تُسبق ضميمة أداة المدح أو الذم باسم نكرة يعرب تمييزا مثل : « نعم رجلاً محمدٌ » ويكون تحليل هذه الجملة على الوجه الآتى :

نعم : أداة مدح .

رجلا : تمييز منصوب .

محمد : ضميمة أداة المدح ، مرفوع .

ويؤيد إعراب (محمد) ضميمة لأداة المدح (نعم) أن الكسائى والفراء يذهبان إلى أن (محمد) فى مثل هذا التركيب تعرب فاعلا لـ (نعم) ، ولكننا لا نرى فعلية نعم وبئس ولذلك فليس لها فاعل ، ولكنها أداة تحتاج الى ضميمة معينة ، وقد تحذف الضميمة المرفوعة ويكتفى بذكر التمييز المنصوب فى التركيب الأخير .

بعد هذا يبقى من المواضع الثمانية التى عولجت فى النحو القديم على أنها جمل اسمية تامة حذف أحد جزأيها أربعة مواضع فحسب هى التى نعدها من الجمل الاسمية المجزوءة وهى كل تركيب أفاد معنى يحسن السكوت عليه من غير أن يتحقق فيه ركنا الإسناد .

إن الإيمان بالشكل اللغوى سوف يغنينا عن كثير من الخلافات والتعسف وتكلف التأويل ، فعندما نعتد بالجملة المجزوءة قسما من أقسام الجملة نجد أنفسنا فى غير حاجة إلى كثير من التأويلات البعيدة التى يرفضها الواقع اللغوى ، وبذلك نطبق ما نراه من أن الجملة الاسمية المطلقة خالية من نظرية العامل .

---

(١) انظر الهمع ٢/ ٨٧

(٢)حاشية الصبان ٣/ ٣٧

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن بعض النحاة القدماء يعترفون بالمبتدأ الذى لاخبر له ، وفى الوقت نفسه لا يجيزون حذف الخبر وجوبا إلا إذا كان هناك فى التركيب ما يسد مسده ، ففى حالة الاسم المرفوع المعطوف عليه اسم آخر بواو تفيد معنى (مع) ذهب الأخفش والكوفيون وابنُ خروف وابن عصفور إلى أنه كلام تام لا يحتاج إلى تقدير مثل «كلُّ رجلٍ وَضيعتُه» وفى مثل «حَسْبُك ينمِ الناس» قيل عن حسبك: هو مبتدأ لا خبر له لأنه بمعنى « اكفف » واختاره ابن طاهر[1] وقد ذهب الفراء إلى أن الاسم الواقع بعد « لولا» ليس مبتدأ بل مرفوع بها لاستغنائه بها كما يرتفع الفاعل بالفعل[2] .

فهذه إشارات نجد فيها سندا لدعوى وجود ما يسمى بالجملة المجزوءة ويقول المرحوم إبراهيم مصطفى «والذى عوصَ الأمر على النحاة ما قرروه من أن كل جملة يجب أن تشمل مبتدأ وخبرا أو فعلا وفاعلا ولم يعرفوا الجملة الناقصة»[3].

وينبغى أن نعيد النظر فى تحليل ما نسميه الجملة المجزوءة ، ولا بأس أن نضع مصطلحات خاصة تعين على تخلص هذه الجمل المجزوءة مما ألصقت به وحسبت عليه من قبل ، ولن نطلق على الاسم المرفوع فى هذه الجملة المجزوءة «مبتدأ» لأنهم قالوا فى تعريف المبتدأ إنه اسم مخبر عنه ، وهذه النماذج لاخبر فيها مطلقا .

أولا : الاسم المصاحب وهو الاسم المرفوع المعطوف عليه اسم آخر بواو هى نص فى المعية مثل : كلُّ رجلٍ وضَيْعَتُه».

ومن المعروف أن النحاة يقدرون خبراً محذوفا وجوبا تقديره «مقترنان» ولا نرى هذا التقدير ، لأن الجملة مفيدة من غيرهذا التقدير ، ويكفى فى إعرابها أن نقول:

كل : اسم مرفوع مصاحَب (بفتح الحاء أو بكسرها) .

رجل : مضاف إليه .

الواو : عاطفة بمعنى مع .

ضيعته : معطوف على «كل» والهاء فى محل جر مضاف إليه .

ومن الواضح أن الضمير هنا يربط بين الاسمين مع العطف .

---

(١) انظر الهمع ١/ ١٠٥ (٢)السابق نفسه (٥) إحياء النحو :١٤٢

وقد ذهب الكوفيون والأخفش إلى أن « نحو: كلٌّ رجل وضيعته , مستَغْنٍ عن تقدير خبر لأن معناه : مع ضيعته ، فكما أنك لو جئت بمع موضع الواو لم تحتج إلى مزيد عليها ، وعلى ما يليها في حصول الفائدة ، كذلك لا تحتاج إليه مع الواو ومصحوبها،[1] وقد اختار هذا المذهب ابن عصفور ورأى أن هذا كلام تام لا يحتاج إلى خبر[2] وعبارة السيوطى نقلا عن الكوفيين أن الخبر لم يحذف وإنما أغنت عنه الواو[3]، وأشار أيضا إلى أن ابن خروف اختار هذا المذهب .

ونحن نرى أنه لا يصح أن يوجد مبتدأ بدون خبر ، فإذا كان هذا التركيب في غير حاجة إلى الخبر فلا داعى للقول بأن الاسم الموجود مبتدأ لأن هذا يدفع إلى تقدير خبر واعتقاد أنه محذوف ، ويكفى أن نقول فى إعرابه: « اسم مرفوع مصاحَب» ومصاحب بصيغة اسم الفاعل أى بكسر الحاء أو بصيغة اسم المفعول أى بفتح الحاء أيهما شئت لأنه من المفاعلة وما صاحب فقد صوحب .

ثانيا : المصدر المضاف الواقع بعده حال لا تصلح أن تكون خبرا ، وكذلك «أفْعَل» إذا أضيف إليه هذا المصدر ، وقد مثل له النحاة بقولهم : «ضَرْبى زيداً قائمًا» و«أتمُّ تبيينى الحقَّ منوطًا بالحكم» ومثل له الأشمونى بقوله صلى الله عليه وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[4] ومن ذلك فى الشعر قول رؤبة بن العجاج[5] :

وَرَأْيُ عَيْنَيَّ الفَتَى أباكا
يُعْطِي الجَزِيلَ فَعَلَيْكَ ذَاكَا

وقول الأعشى[6] :

عَهْدِى بِهَا فِى الحىِّ قد سُرْبِلَتْ
بيضاءَ مِثْلَ المهرةِ الضَّامِرِ

وقول الآخر[7] :

خيرُ اقترابى من المولى حليفَ رضًا
وشرُّ بعدِىَ عَنْهُ وهْوَ غَضْبَانُ

---

(١) الأشمونى ١/ ٢١٧
(٢) إنظر شرح ابن عقيل ١/ ١٠٧
(٣) الهمع ١/ ١٠٥
(٤) الأشمونى ١/ ٢١٩
(٥) الدرر اللوامع للشنقيطى ١/ ٧٧ .
(٦) الدرر اللوامع للشنقيطى ١/ ٧٧
(٧) السابق

وقد اختلف النحاة فى تحليل هذا التركيب اختلافا غير يسير ، ولذلك يقول السيوطى «وهذه المسألة طويلة الذيول كثيرة الخلاف ، وقد أفردتها قديما بتأليف مستقل[1]» وحتى لانقع فى مثل هذا الخلاف أرى أن نكتفى فى تحليل هذا التركيب (ضربى زيدا قائما) بما يأتى :

ضربى : مصدر فِعْلِىّ[2] مضاف والياء فى محل جر مضاف إليه .

زيدا : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة .

قائما : حال منصوب .

وهناك كثير من النحاة قالوا عن هذا المصدر إنه «لاخبر له»[3] .

فإذا كان لا خبر له فليس مبتدأ ، لأن المبتدأ هو ما له خبر فى رأينا .

ثالثا : المصدر الذى يؤتى به بدلا من اللفظ بفعله سواء أكان يقصد به الخبر أم الإنشاء ،وسواء أكان مرفوعا أم منصوبا مثل :

«سمعٌ وطاعةٌ» و «صبرٌ جميل» والمصادر التى يدعى بها وذلك قولك : تُرْبًا وجندلا وما أشبه هذا[4]، ومن ذلك قولهم «مرحبًا وأهلا وإن تأتنى فأهلَ الليلِ والنهار» ، وزعم الخليل رحمه الله – حين مثله أنه بمنزلة رجل رأيته قد سدد سهمه فقلت : «القرطاسَ» أى أنت عندى ممن سيصيبه .... فإنما رأيت رجلا قاصدا إلى مكان أو طالبا أمراً فقلت : مرحبا وأهلا ، أى أدركت ذلك وأصبت فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه فكأنه صار بدلا من «رحبت بلادك وأهِلْتَ»[5] ويقصد سيبويه وأستاذه الخليل بهذا أن دلالة الحال المشاهدة وملابسات الموقف اللغوى أغنت عن ذكر الفعل ، فصار حذفه من الكلام ضروريا ، لأن ذكره يعد فضولا من القول ولغوا ، ونحن نوافقهما على هذا ، ونزيد عليه أن هذا المحذوف المرفوض لا اعتداد به ، إذ إن دلالة الكلام المذكور كافية فى إفادة المعنى ومغنية عما سواه .

ويكفى فى تحليل هذا النوع من الجمل المجزوءة أن نقول فى مثل : «صبرٌ جميل» مصدر مرفوع إذا كان مرفوعا أو مصدر منصوب إذا كان منصوبا ، وقد ذكر سيبويه أن هذه المصادر قد ترفع يقول : «ومنهم من يرفع» ويقول «وقد رفعه بعض

---

(١) الهمع ١/١٠٥ (٢) المقصود بكلمة «فعلى» أن المصدر يعمل عمل فعله فى هذا التركيب

(٣) أنظر الهمع ١/ ١٠٥ (٤) انظر سيبوية ١/ ٣١٤ (بولاق) (٥) سيبويه ١/ ٢٩٥ (بولاق)

العرب» وقد أفاض سيبويه فى ذكر نماذج كثيرة لهذه المصادر ونقل الرفع فيها والنصب كذلك ما عدا المصادر المضافة مثل : سبحان الله ومعاذ الله وحنانيك ولبيك وسعديك فليس فيها إلا النصب ، وقد نص على أن معنى المرفوع من هذا هو معنى المنصوب «وفيه المعنى الذى يكون فى المنصوب»(1) ولذلك قال المبرد عن هذه المصادر «كل هذا معناه فى النصب ومعناه فى الرفع واحد»(2) ويقول ابن يعيش «ألا ترى أنك إذا قلت : سلام عليك وويل له بالرفع كان معناه كمعناه منصوبا»(3).

رابعا : الاسم المرفوع الواقع بعد لولا الامتناعية على شريطة أن تفيد مع هذا الاسم معنى مستقلا مثل قوله تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته(4)» ويعرب على أنه اسم مرفوع بعد لولا وكفى ،وهذا هو مذهب الفراء(5) والكوفيين الذين يرون أن (لولا) ترفع الاسم بعدها وقد ناصرهم فى هذا الرأى وظاهرهم عليه ابن الأنبارى وتصدى لتفنيد آراء البصريين(6).

وأما لولا الامتناعية التى لا تستقل مع الاسم المرفوع بعدها بمعنى مستقل فليست من الجمل المجزوءة ، بل هى من الجمل الاسمية التامة ولكن ليس خبر المبتدأ بعدها محذوفا وجوبا كما يرى كثير من النحاة بل إن خبرها مذكور وهو ما يسمى جواب «لولا» وبهذا نتجاوز كثيرا من الخلافات ، وما ذهبنا إليه هو رأى ابن الطراوة الذى يرى أن جواب لولا أبدا هو خبر المبتدأ ولم يرض رأيه هذا ابنَ هشام فصدره بقوله : وزعم ابن الطراوة ، ولكن السيوطى يعطى له ما يستحق فيقول : «وذهب قوم إلى أن الخبر بعد لولا غير مقدر وأنه الجواب ، وإن كان البصريون يرون أنه لايصح أن يكون الخبر لخلوه غالبا من العائد ، مع هذا يرون أنه سد مسد الخبر .(7) ولابأس فى هذا لاختلاف لولا عن جميع أدوات الشرط فى أنها لا يليها فعل .

---

(1) سيبويه ١/ ٣١٤ (2) المقتضب للمبرد ٣/ ٢١٧ (3) شرح المفصل لابن يعيش ١/ ٩٣

(4) سورة النور فى الآيتين ١٠ ، ٢٠ (5) انظر شرح الرضى على الكافية ١/ ١٠٤ .

(6) انظر المسألة رقم ١٠ من الإنصاف ١/ ٧٠ (تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد) .

(7) انظر : سيبويه ٢/ ١٩٢ والمقتضب ٣/ ٧٦ والإنصاف : ٥٢ والمغنى ١/ ٢١٥ والهمع ١/ ١٠٥

(8) انظر شرح الرضى على الكافية ١/ ١٠٤ والهمع ١/ ١٠٥ .

٣ - جملة الوصف مع مرفوعه :

يُدْرِج النحاة مثل هذا التركيب : «أقائم المحمدان» تحت الجملة الاسمية التامة، وعند تحليله يقولون إن الهمزة للاستفهام و«قائم» مبتدأ مرفوع و«المحمدان »فاعل سد مسد الخبر ، ويقولون مثل هذا فى نحو «أَحَيٌّ والداك»[1] وكذلك فى مثل «أمحمود أخواك؟» غير أنهم يعربون كلمة «أخواك» نائب فاعل فى المثال الأخير ، ويرون أن الاسم المشتق فى هذا التركيب يؤدى ما يؤديه الفعل يقول ابن يعيش « واعلم أن قولهم « أقائم الزيدان ؟ » إنما أفاد نظراً إلى المعنى إذ المعنى « أيقوم الزيدان؟ » فتم الكلام لأنه فعل وفاعل ، وقائم هنا اسم من جهة اللفظ وفعل من جهة المعنى ، فلما كان الكلام تاما من جهة المعنى أرادوا إصلاح اللفظ فقالوا أقائم مبتدأ والزيدان مرتفع به وقد سد مسد الخبر من حيث إن الكلام تم به ولم يكن ثَمَّ خبرٌ محذوف على الحقيقة »[2].

ومعنى هذا أن هذه الجملة تتألف إما من (مبتدأ وفاعل) أو من (مبتدأ ونائب فاعل) وهم يقولون إن الإسناد بطرفيه هو الذى تنعقد به الجملة ، وطرفا الإسناد إما أن يكونا المبتدأ والخبر فى الجمل الاسمية التامة أو أن يكونا الفعل والفاعل فى الجمل الفعلية التامة أو الفعل ونائب الفاعل . وكل من المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل يعد مسندا إليه فى جملته .

إذن جملة « أقائم المحمدان ؟ » تتألف من «مسند إليه + مسند إليه» وأحدهما من الجملة الاسمية والآخر من الجملة الفعلية ، أى أخذت المسند إليه من الجملتين . وهذا وضع غريب فى تركيب هذه الجملة ، وهذا ما دعانا إلى إفرادها بمعالجة خاصة .

وينبغى أن يسمى هذا التركيب « الجملة الوصفية » جريا على عادة النحاة فى نسبة الجمل إلى صدرها ، وصدر هذه الجملة هو الوصف ، والمقصود بالوصف : اسم الفاعل مثل قائم وناجح ومكرِم (بكسر الراء) ومستخرِج (بكسر الراء) ، واسم المفعول مثل مضروب ومحمود ومنصور ومكرَم (بفتح الراء) ومستخرَج

---

(١) صحيح البخارى ٧١/٤ (طـ الشعب) .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٩٦/١ .

(بفتح الراء) والصفة المشبهة مثل كريم وحليم وقوى وشهم وشجاع ، غير أن هذه التسمية قد تلتبس بالجملة الواقعة نعتا ، ولذلك آثرنا الإبقاء على تسمية النحاة لها «الوصف مع مرفوعه» مع ملاحظة أنها يجب أن تكون مستقلة عن الجملة الاسمية التامة والمجزوءة .

والذى جعل النحاة يعدون هذا التركيب من الجملة الاسمية التامة أنهم يجعلون مصطلح «الاسم» فى العربية شاملا لأنواع مختلفة منه مع أن بعض هذه الأنواع يمكن أن يستقل بصفات خاصة ومن هذه الأنواع التى يمكن أن تستقل بصفات خاصة تفردها عن الاسم «الوصف»[1] ولما رأى النحاة أنه يختلف عن الاسم قالوا إن له مرفوعا أغنى عن الخبر ، وراعوا ذلك فى تعريفهم للمبتدأ حيث عطفوا بـ (أو) عليه «الوصف الرافع لما يكتفى به» وقالوا إن «أو» فى التعريف للتنويع لا للتخيير .

وهناك بعض النصوص للنحاة توحى بإدراكهم لهذه الفروق بين الوصف وغيره سأكتفى منها بنصين فقط أولهما للرضى الذى يقول فى التعقيب على تعريف ابن الحاجب للمبتدأ الذى ذكر فى حده «أو الصفة الواقعة بعد حرف النفى وألف الاستفهام رافعة لظاهر» ومثل لذلك بقوله : «ما قائم الزيدان وأقائم الزيدان ». يقول الرضى «هذا هو حد المبتدأ الثانى، والنحاة تكلفوا إدخال هذا أيضا فى حد المبتدأ الأول فقالوا إن خبره محذوف لسد فاعله مسد الخبر ، وليس بشىء ، بل لم يكن لهذا المبتدأ أصلا من خبر حتى يحذف ويسد غيره مسده ، ولوتكلفت له تقدير خبر لم يتأتَّ إذ هو فى المعنى كالفعل والفاعل لا خبر له فمن ثَم تمَّ بفاعله كلاما من بين جميع اسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة ولهذا أيضا لا يصغر ولا يوصف ولا يعرف ولا يثنى ولايجمع[2]» والنص الثانى من كلام ابن هشام الذى يعقد مقارنة بين هذين النوعين من المبتدأ فيقول ضمن هذه المقارنة « ولا يكون المبتدأ المستغنى عن الخبر فى تأويل الاسم البتة ، بل ولا كل اسم بل يكون اسما هو صفة نحو «أقائم الزيدان» و «ما مضروب

---

(١) يفرد الدكتورتمام حسان «الصفة» بقسم مستقل ، وقد قسم الكلمة إلى سبعة أقسام بدلا من ثلاثة أقسام وهى الاسم والصفة والفعل والضمير والخوالف والظرف والأداة (انظر اللغة العربية معناها ومبناها من صفحة ٩٠ إلى ١٣٢) وانظر أيضا كتابى « العلامة الإعرابية فى الجملة» من صفحة ٦٤ إلى ٨٧ حيث ناقشت هذا التقسيم وتقسيمات أخرى (مطبوعات جامعة الكويت ١٩٨٤) . ودار الفكر العربى ١٩٨٨ .

(٢) شرح الكافية للرضى ٨٦/١

العمران» . . . . والمبتدأ المستغنى عن الخبر لابد أن يعتمد على نفى أو استفهام[1] :

ومن خلال هذين النصين نستطيع أن نتبين خصائص جملة الوصف مع مرفوعه ، غير أننا تلافيا للخلط بين هذا النوع وسابقيه - نود ألا نقول عن الوصف هنا فى تحليله إنه مبتدأ ، ويكفى فى إعرابه أن نقول إذا كان اسم فاعل أو صفة مشبهة «وصف فاعل مرفوع وما بعده فاعل» وإذا كان اسم مفعول نقول «وصف مفعول وما بعده نائب فاعل» .

ومن خصائص هذه الجملة الوصفية أنه لا يتطابق فيها الوصف مع المرفوع بعده ، فيلزم الوصف الإفراد فلا يثنى ولا يجمع، ويلزم التنكير فلا يعرف ولا يوصف أيضا ولا يصغر ، ولا يشترط مثل هذا فى «المبتدأ». ومن أمثلة ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم « أحىٌّ والداك ؟ »[2] وقولنا : أناجح المحمدان؟، أناجح المحمدون ، وإذا أعربنا الجملة الأخيرة مثلا قلنا :

الهمزة : للاستفهام .

ناجح : وصف فاعل مرفوع .

المحمدون : فاعل مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم .

فإذا ثنى الوصف أو جمع بحيث نقول أناجحان المحمدان؟، أو أناجحون المحمدون؟ فإن هذه تتحول إلى جملة اسمية تامة تقدم فيها الخبر وتأخر المبتدأ جوازا .

فجملة الوصف مع مرفوعه لا تطابق بين جزأيها ، ولذلك سبق أن اخترنا أن مثل «أراغب أنت ؟ » جملة اسمية فقط وهو ما ذهب إليه كثير من النحاة وليس الوصف فيها إلا خبرا مقدما .

وجملة الوصف مع مرفوعه لا يدخل عليها من النواسخ إلا ما يفيد النفى وهى بذلك تختلف عن الجملة الاسمية ، ولابد أن تسبق بنفى أو استفهام . ولا يشترط هذا فى الجملة الاسمية .

الجملة الإسمية المقيَّدة .

وأما الجملة الاسمية المقيدة فالمراد بها كل جملة اسمية تامة قيدت بأحد المقيدات التى تسمى «النواسخ» ، وهذه النواسخ

---

(١) شرح شذور الذهب لابن هشام : ٢٣٠ .

(٢) صحيح البخارى ٤/ ٧١ (ط الشعب)

مقيداتٌ للجملة الاسمية لأنها تضيف إليها معانى لم تكن موجودة من قبل من جانب وتؤثر فى أجزائها إعرابيا من جانب آخر ، وقد تقيد الجملة بمقيدات غير مؤثرة إعرابيا أيضا ، ولكننا لانعد المقيدات هنا إلا ماكان له تأثير إعرابى ، والمقيدات المؤثرة متعددة وهى على النحو الآتى :

(أ) - مقيدات الزمن ، وهذه هى كان وأخواتها ما عدا «ليس» والمقيدات الدالةعلى المقاربة تُضم هنا إلى كان وأخواتها لأنها تدل على قرب وقوع الخبر ، والقرب هنا زمنى ، وكذلك المقيدات الدالة على الرجاء والشروع لأنها من حيث أدرتها وجدتها دالة على الزمن المرجو وقوع الخبر فيه أو الذى شرع فى حدوث خبرها فيه .

وقد نجد بين أخوات كان ما قد يكون ظاهر أمره ليس دالا على الزمن وهو «صار»وهو يفيد التحويل كما يقول نحاتنا، ولكن مدلول التحويل نفسه لا يكون إلا بالانتقال من حالة إلى حالة ، وكل حالة ما دامت مختلفة عن الأخرى لابد أن تكون فى زمن معين ، لأن الشىء لايكون على حالين فى زمن واحد، ومثل «صار»ما يلحق بها سماعا لا قياسا مثل آل ورجع وحال وارتد[1].

(ب) مقيدات النفى : وهى «ليس»والمشبهات بها «ما - لا - لات- إنْ» وهذه ترفع الاسم وتنصب الخبر ، و«لا» النافية للجنس ، وهذه تنصب الاسم إذا كان مضافا أو شبيها بالمضاف لأنها لاتتركب مع اسمها إذا كان غير مفرد ، أما إذا كان اسمها مفردا فإنها تتركب معه .

ولذلك يبنى على ما ينصب به ، وأما خبرها فإنه يكون مرفوعا .

(جـ) مقيدات التأكيد : وهى إنّ وأنّ ، وهى تضيف معنى التأكيد إلى الجملة الاسمية التامة ، وإن كانت أنّ المفتوحة الهمزة - كما يرى بعض المحدثين[2]- ليست إلا واسطة لنقل التأثير إلى الجملة ، ولذلك.فهى حرف مصدرى ، والحروف المصدرية وسائط لنقل التأثير إلى الجملة الفعلية والاسمية، و (أنّ) هى المختصة بالجملة الاسمية فأنّ وما دخلت عليه تعد

---

(١)انظر شرح الكافية للرضى ٢/ ٢٩١

(٢) مثل برجستراشر فى كتابه « التطور النحوى» .

اسمـا أو مصدراً مـؤولا على حد تعبـير النحاة ، وقد عبر عن ذلك سيبويه بقوله : «أما أنّ فـهى اسم ، وما عملت فـيه صلة لها ، كمـا أن الفعل صلة لأن الخفـيفة ، وتكون أنّ اسما . ألا ترى أنك تقول : قد عرفت أنك منطلق، فأنك فى موضع اسم منصـوب كـأنك قلت : قـد عـرفت ذاك وتقول بلغنى أنك منطلق فـأنك فى موضع اسم مرفـوع كأنك قلت بلغـنى ذاك: «فأنّ الأسماء التى تعمل فيها صلة لها ، كما أنّ أنْ الأفعال التى تعمل فيها صلة لها[1] وإذا أخذنا بهذا الرأى تكون إنّ المكسورة الهمزة هى مقيدة التأكيد أما (أنّ) المفتوحة الهمزة فـتكون مقـيدة الإيصـال أى جعل الجـملة معمولا لعامل قـبلها لايمكن أن يصل إليها إلا عن طريق (أنّ).

والتـأكيد - بلا شـك - إضافة جـديدة لمعنى لم يكن موجودا من قبل فى الجملة، ولذلك قد لا أوافق ابن الأنبارى رحمه الله إذ جعل دخول إنّ على الجـملة مما لا يغير المعنى ، وأقـول إن المعنى لم يتغـير ، بل زاد تأكـيـده وزيادة شيء عليـه لم يكن مـوجـودا من قبـل تقيـيـد له يقـول ابن الأنبارى فـى « أسرار العربـية[2]» وأما مـا يعير اللفظ دون المعنى فـهو إنّ تقول : إن زيدا قـائم فـ (إنّ) قد غـيـرت اللفظ ولم تغير المعنى ، لأن معناها التأكيد والتحقيق، وتأكيد الشيء لا يغير معناه» .

(د) مقيد التمنى : وهو «ليت» يقول ابن الأنبارى فى كتابه المشـار إليه آنفا «فأما ما يغير اللفظ والمعنى فنحو «ليت» فتقول : ليت زيدا منطلق «فليت» قد غـيرت اللفظ وغيـرت المعنى ، أما تغيـير اللفظ فـلأنها نصبت الاسم ورفـعت الخبر ، وأما تغـيير المعنى فـلأنهـا أدخلـت فى الكلام مـعنى التمنى»[3].

(هـ) مقـيد الرجـاء : وهو «لعل» وهى حـرف يفيـد معـانى مخـتلفة هى التـوقع والتـعليل والاسـتـفـهـام - كـمـا حكى الكوفيون- ، ولكن أشـهر هذه المعانى هو ترجى المحـبـوب والإشـفـاق من المكروه «وتختص بـالممكن ، وقول فرعـون« لعلى أبلغ الأسبـاب أسباب السمـوات »إنما قاله جهلا أو مخرقة وإفكا» على حد تعبير ابن هشام[4].

(١)سيبويه ٣/ ١١٩ ، ١٢٠ (دار القلم)

(٢) تحقيق محمدبهجت البيطار (دمشق - ١٩٥٧ م) ، صفحة ١٣٠

(٣) السابق نفسه

(٤) مغنى اللبيب لابن هشام ١/ ٢٢٣ .

ولم أذكر هنا ما يفيد الرجاء من أخوات كاد ، وذكرتها فى مقيدات الزمن لأن أخبارها هناك لابد أن تكون فعلا مضارعا وإفادة أخوات كاد الرجاء مقرون برجاء حدوث الفعل، فهى بالزمن أشبه ، وأما لعل فهى ليست مختصة بالفعل بل قد يخبر عنها بالفعل أو بغيره، وإفادتها الرجاء من أصل وضعها .

(و) مقيد الاستدراك : وهو «لكنّ» وقد فسِّرَ إفادتها الاستدراك بأن تنسب لما بعدها حكما مخالفا لحكم ما قبلها ، ولذلك لابد أن يتقدمها كلام مناقض لما بعدها نحو : ما هذا ساكنا لكنه متحرك ، أو ضد له ، نحو ما هذ أبيض لكنه أسود، قيل أو خلاف ذلك نحو : ما زيد قائما لكنه شارب ، وقيل لا يجوز ذلك[1] وقد تفيد معانى أُخَر مع الاستدراك ، لكن معناها الغالب عليها هو الاستدراك .

(ز)مقيد التشبيه : وهو « كأن » وقد تكون (كأن) لإفادة الشك والظن أو التحقيق أو التقريب ، ولكن هذه المعانى كلها قائمة على المعنى الأصلى وهو التشبيه الذى يخرج عن مدلوله الأصلى إلى هذه المعانى الفرعية ، ولذلك يبقى هذا الحرف مقيدا للتشبيه فى جميع أحواله .

والجملة مع بعض مقيدات النفى (كلها ماعدا ليس) وكل مقيدات التأكيد والتمنى والرجاء والاستدراك والتشبيه لاتخرج عن اسميتها فهي جملة اسمية فى نظر النحاة قديما وحديثا ، وذلك لأن النحاة اعتبروا هذه المقيدات حروفا أو أدوات وقد درسها المتأخرون تحت عنوان «إن وأخواتها» وقد اهتموا بالتأثير الإعرابى فحسب فى التصنيف ، وكذلك «المشبهات بليس» لاتغير تصنيف الجملة الاسمية وتبقى لها اسميتها .

أما مقيدات الزمن وهى ما درست تحت عنوان «كان وأخواتها» و«كاد وأخواتها» فقد تردد النحاة القدماء فى نسبتها إلى الفعلية أو الحرفية ، فقد «ذهب بعض النحويين إلى أنها حروف وليست أفعالا ، لأنها لاتدل على المصدر ، ولو كانت أفعالا لكان ينبغي أن تدل على المصدر ، ولما كانت لاتدل على المصدر دل على أنها حروف»[2] ولعل الذى أوقع النحاة فى هذا التردد عدة أمور :

(١) السابق ١/٢٢٤، ٢٢٥ .

(٢) أسرار العربية لابن الأنبارى ١٣٢

١ - أنها تتصرف تصرف الأفعال فيصاغ من بعضها المضارع والأمر .

٢ - أنها تلحقها تاء التأنيث الساكنة ، وهم يعدون هذه التاء من علامة الفعل وتختص به .

٣ - أنها تلحقها تاء الفاعل وألف الاثنين وواو الجماعة فتقول كنت وكانا وكانوا ، كما تقول : قمت وقاما وقاموا وما أشبه ذلك .

ومهما يكن من أمر فقد اتفق النحاة على أن هذه الأفعال أفعال غير حقيقية ولهذا تسمى «أفعال العبارة» كما يقول ابن الأنبارى .

ولو أن النحاة اعترفوا بما يسمى «الأدوات المتصرفة» لما حدث مثل هذا الاضطراب والخلاف ، والذى أراه أن جملة «كان زيد قائما» أى المبتدأ والخبر الذى تدخل عليه «كان أو إحدى أخواتها» ينبغى أن تعد من الجمل الاسمية لعدة أسباب :

أولا : أن الجملة الاسمية مبهمة الزمان فإذا قلت «محمد كريم» فأنت تثبت الكرم لمحمد مطلقا دون تحديد زمن معين ، فإذا أدخلت «كان» أو إحدى أخواتها فأنت تحدد زمن هذا الإثبات أو تنفيه عنه إذا ادخلت «ليس» ولذلك قال بعض النحاة عن هذه الأدوات « بأنها لمجرد الزمن ولا دلالة لها على الحدث»[1] ويقول سيبويه: تقول :«كان عبد الله أخاك» فإنما أردت أن تخبر عن الأخوة ، وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى[2] ويقول المبرد عنها: إنها « فى وزن الفعل وتصرفه وليست فعلا على الحقيقة[3] لأنها خالية من الحدث ، وأنها دخلت على المبتدأ والخبر «لتخبر أن ذلك وقع فيما مضى ، وليست بفعل وصل منك إلى غيرك[4].

ثانيا : الفعل فى الجملة الفعلية يعد «مسندا» وهذه لاتعد مسندا فى جملتها ، وإنما المسند فى جملتها هو «الخبر» والمسند إليه هو اسمها ، فالإسناد -إذن- بين اسمها وخبرها ، وأما «كان»فهى أداة لإفادة الزمن فحسب كما سبقت الإشارة إلى ذلك

(١) السيوطى : الهمع ٢/ ١٦٥ (٢) سيبويه ١/ ٢١ ,

(٣) المقتضب ٣/ ٣٣ (٤) انظر السابق ٢/ ٩٧ ، ٤ / ٨٦ .

ثالثا : إذا حذفت الفعل من الجملة الفعلية لم يستقل ما بعده فمثلا إذا قلت «شرب الطفل اللبن» وحذفت «شرب» لايصير الباقى جملة مفيدة فلا يقال «الطفل اللبن» ولكن إذا قلت «كان محمد حاضرا» وحذفت «كان» صار الباقى جملة مفيدة فتقول «محمد حاضر».

رابعا : يرى ابن جنى أنه لايلزم تأنيث كان لاسمها إذا كان مؤنثا لزوم تأنيث الفعل لفاعله إذا كان مؤنثا[1] للسبب السابق وهو أن ما بعدها لا يحتاج إليها احتياج الفاعل إلى فعله .

خامسا : لم يتفق النحاة على فعليتها مع أخواتها ، إذ يرى ابن السراج وثعلب حرفية (عسى) ويتفق ابن السراج والفارسى وابن شقير على حرفية (ليس) استنادا إلى عدم تصرفها فلا يأتى منها مضارع ولا أمر ولا مصدر ولاغير ذلك ، وذهب الزجاجى إلى أن كان وأخواتها حروف.[2]

سادسا : لم يخرج النحاة جملة الابتداء والخبر المنسوخة بـ (إن) أو إحدى أخواتها عن الاسمية ، ولذلك ينبغى ألا تخرج جملة الابتداء والخبر المنسوخة بـ (كان) أو إحدى أخواتها عن الاسمية كذلك .

سابعا : تستطيع أن تقول « أكل طفل تفاحة » فتأتى بالفاعل نكرة «طفل» ولكنك لا تستطيع أن تقول : « كان رجل حاضرا فتأتى باسم كان نكرة لأنه لا يجوز الابتداء بالنكرة إلا فى حالات معينة ليست هذه منها.

ثامنا : مما يدل على كون « كان وأخواتها» أدوات أنها تدخل على الأفعال كما تدخل الأدوات مع أنه « لا يلى فعل فعلا» كما يقول المبرد [3].

ولذلك عدها بعض الباحثين المحدثين أدوات منقولة من الفعل للدلالة على الزمن فى الجملة الاسمية التى تخلو من الدلالة عليه [4].

---

(١) انظر : الهمع ١/ ١٠ (٢) المقتضب : ٤/ ١١٠ (٣) انظر : د. تمام حسان « اللغة العربية معناها ومبناها » ١٣١ ود عبدالرحمن أيوب « العربية ولهجاتها » ص ٧٩ - ٨٢ .

لهذه الأسباب مجتمعة يسوغ لنا أن نعد الجملة المنسوخة بـ «كان» أو إحدى أخواتها - مثلها تماما «كان» وأخواتها - من الجملة الاسمية ، كما تعد الجملة المنسوخة بـ « إن » أو إحدى أخواتها جملة اسمية كذلك .

وأما مثال جملة «ظننت عَمرا أباك» فإننا نجد كثيرا من الباحثين يعالجونه تحت الجملة الاسمية أيضا من قبيل أن الجملة فى أساسها هى «عمرو أبوك» وهى جملة اسمية ولكن المتكلم يشك فى نسبة الخبر إلى المبتدأ أو الأبوة إلى عمرو فى هذا المثال ، ولذلك يصدر هذه الجملة بما يفيد الرجحان وهو «ظننت» أو «حسبت» ، وقد يكون متيقنا من هذه النسبة ويريد الإخبار عن ذلك فيقول «علمت عمرا أباك» أو «رأيت عمرا أباك» فيصدر الجملة بما يدل على تيقنه أى يأتى قبل الجملة الاسمية بـ (علمت) أو (رأيت) أو غيرهما من أفعال اليقين ، ولذلك نجد إمام النحاة سيبويه يقول عنها «هذا باب الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين ، وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر وذلك ، قولك: «حسب عبد الله زيدا بكرا، وظن عمرو خالدا أباك ، وخال عبد الله زيدا أخاك ومثل ذلك : رأى عبد الله زيدا صاحبنا ، ووجد عبد الله زيدا ذا الحفاظ .

وإنما منعك أن تقتصر على أحد المفعولين هنا أنك إنما أردت أن تبين ما استقر عندك من حال المفعول الأول يقينا كان أوشكا[1] . فدخول «ظن» أو إحدى أخواتها - وهى أفعال الرجحان واليقين - على الجملة الاسمية لإفادة الشك فى نسبة المفعول الثانى - وهو الخبر فى الأصل - إلى المفعول الأول - وهو المبتدأ فى الأصل - وذلك إذا قلت مثلا : ظننت محمداً حاضرا أولإفادة التيقن من ثبوت المفعول الثانى - وهو الخبر فى الأصل - للمفعول الأول - وهو المبتدأ فى الأصل - وذلك إذا قلت : علمت العلم نافعا ، فجملة «محمد حاضر» و«العلم نافع» جملة اسمية، ولكن المتكلم أوقع على الجملة الأولى حالته الخاصة وهى الظن أو الرجحان وأوقع على الجملة الثانية حالته الخاصة من إفادة التيقن الحادث له وهو العلم بذلك ، ولهذا يسوغ

(١) سيبويه ص ٨٨/١ .

لنا أيضا أن نعالجها تحت الجملة الاسمية ، بسبب أن جزأى الجملة الاسمية يعرض لهما تغيير يلائم الحالة الجديدة التى طرأت فيصيران مفعولين .

ولكنه مما لا يحتمل الجدل أن الجملة مع ظن وأخواتها جملة فعلية لأن للفعل فاعلا ، وبينه وبين الفعل إسناد أصلى ، وقد خفّت الإسناد بين المبتدأ والخبر اللذين تحولا إلى مفعولين ،وعلى أية حال يمكن أن يكون ذلك من التقييد بالمفعولية ، وقد ينحل الإشكال إذا أطلقنا على مثل هذا النوع «جملة فعلية اسمية» والإسناد فيها إسنادٌ مركب لأنّ بين الفعل وفاعله إسنادًا، وبين «المفعول الأول» و«المفعول الثانى» إسناداً كذلك وباعتبار الإسناد الأول تعد جملة فعلية ، وباعتبار الإسناد الثانى تعد جملة اسمية .مصطلح « الجملة الفعلية الاسمية » مصطلح يصف هذا النوع من الجمل وصفا دقيقا ، ولما كان الإسناد الأول فعليا عدت الجملة فعلية وأغفل الإسناد الثانى[1] .فى هذا الذى قدمته شىء من إعادة النظر في الوصف والتصنيف ، وهو فى كثير منه يعتمد على آراء لبعض النحاة السابقين ، ولاأريد أن أعيد هنا ما قاله ابن جنى عن النحو من أنه ليس دينا ولا عملا مسنونا فليس التفتيش والنظر فيه محرّما أو مجرّمًا ، وتكفى عبارته التى تعد مبدأ مهمًا وفى الوقت نفسه دعوة متجددة لإعمال الفكر وإجالة الخاطر وهى «فكلّ من فُرِق له عن علة صحيحة ، وطريقٍ نهجةٍ كان خليل نفسِه وأبا عمرو فكرِه» وعلى الله سبحانه قصد السبيل .

محمد حماسة عبد اللطيف

الخبير بالمجمع

---

(١) انظر الفصل الثانى من كتابى « بناءالجملة العربية » دار الشروق .

الجملة فى كتاب سيبويه *

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

إن كتاب سيبويه هو ، كما هو معروف ، أقدم كتاب فى النحو وصل إلينا ، من حسن الحظ . والغريب أو ما يبدو أنه غريب أن هذا الكتاب على الرغم من قدمه فإنه يحتوى على جميع ما عرف بعد سبيويه من أبواب النحو والصرف وجميع ما اشتهر بعده من مسائله فهو عمل ناضج تمام النضج وبما أنه لم يسبقه - على أصح الأقوال - أى كتاب يماثله فى غزارة المادة والدقة العلمية المتناهية فكأنه خرج من العدم في ظاهر أمره وليس الأمر كذلك[1]. إلا أن هذا لايعنى أن النظرية العلمية للغة التى يعتمد عليها هى التى نعرفها اليوم من خلال ما قاله المتأخرون من النحاة مثل ابن مالك فى ألفيته وكتابه التسهيل وشراح هذين العملين أو مثل أبى البركات بن الأنبارى قبله أو ابن هشام صاحب أوضح المسالك وغيرهم . فقد مضت أكثر من ٤٠ سنة على جهود بذلناها لمعرفة هذه النظرية القديمة فاتضح لنا الفرق الكبير الذى يميز المنظور العلمى الدقيق لسيبويه وشيوخه وتلاميذه للغة وكيفية تحليلهم لها بناء على هذا المنظور من النزعة التعليمية للنحو التى استولت على كل الممارسين للنحو بعد القرنين الخامس والسادس ، ولهذا السبب فإننا سنحاول أن نشرح للقارئ الكريم جانبا واحدا من هذه النظرية العلمية الدقيقة مقتصرين فى ذلك على مفهوم الجملة وما

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الخامسة للمؤتمر المنعقدة يوم السبت ٢١ من شوال سنة ١٤١٤ هـ الموافق ٢ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٤ .

(١) فقد ذكر سيبويه نفسه أقوال وأفكار عدد كبير ممن سبقه من النحاة وخاصة الخليل بن أحمد (ذكره أكثر من ٦٠٠ مرة) . وقد أدى هذا النضج الغريب إلى افتراض من لاينوى الخير للثقافة العربية من المستشرقين اقتباس النحاة العرب الأولين لأهم مفاهيمهم من المنطق اليوناني وقد رددنا على ذلك في ١٩٦٤ بمقالة عنوانها : النحو العربى ومنطق أرسطو (انظر المراجع) .

يقتضيه التصوّر العربى الأصيل للجملة من المفاهيم العلمية الأساسية من حيث منهج التحليل اللغوى ونظرية المعرفة العلمية عامة .

١ - عدم وجود مصطلح جملة فى الكتاب:

فهذا أمر غريب آخر ألا يوجد أى أثر لكلمة " جملة " فى كتاب سيبويه وكذلك العبارة : " جملة مفيدة " لا أثر لها فى هذا الكتاب . ولا نعثر على كلمة " جملة " بعد سيبويه إلا فى كتاب المقتضب للمبرد[١] ونرجح أن شيخه المازنى استعملها هو أيضا وقد يكون الأخفش (سعيد بن مسعدة) تلميذ سيبويه وأستاذ المازنى هو الذى وضع المصطلح فإنه هو أول نحوى يستعمل كلمة " فائدة" بمعنى العلم المستفاد من الكلام وهذا المفهوم يعبر عنه سيبويه بكلمة " علم " فقط وما يشتق منها[٢] .

إلا أن هذا لايعنى طبعا أن مفهوم الجملة لا يوجد عند سيبويه فهو يسميها عادة " كلاما " وإذا دقق قال : " الكلام المستغنى "[٣] وهو يحدد هذا الكلام المستغنى هكذا " ما يستغنى عنه السكوت " يقول : " ما يستغنى عنه السكوت وما لايستغنى ألا ترى أن " كان " تعمل عمل " ضرب " ولو قلت " كان عبد الله " لم يكن كلاما ولو قلت : " ضرب عبد الله " كان كلاما (١/٢٦٢) . ويقول فى موضع آخر: ألا ترى أنه لم تنفذ الفعل فى "كنت " إلى المفعول الذى به يستغنى الكلام ... فإنما هذا فى موضع إخبار وبها يستغنى الكلام (١/٧٤) . ويقول : يقبح أن تقول " أشك منطلق بلغنى أو عرفت " لأن الكلام بعد أن وإنّ غير مستغن كما أن المبتدأ غير مستغن (١/٤٦٣) .

ويقول أيضا : " ألا ترى لوقلت : " فيها عبد الله " حسن السكوت وكان كلاما مستقيما كما حسن واستغنى فى قولك :" هذا عبد الله " (١/٢٦١) . يريد سيبويه من " الكلام المستغنى " الذى يحسن أن يسكت

---

(١) المقتضب ، ٨٩/٣

(٢) انظر كتاب القوافى (ص٦٦) للأخفش والكتاب ٢٢/١ و ٢٦ - ٢٧

(٣) الكتاب ، ١ / ٤٦٣ ، أنظر أيضا فيما يلى .

المتكلم عند انتهائه لأنه قد استقلّ لفظا ومعنى وبذلك يشكل وحدة تبليغية تتم بها الفائدة للمخاطب أى يستفيد بها علما معينا . والسكوت هنا أو حسنه هو المقياس الذى تعرف به الجملة المفيدة . هذا وقد لا حظنا أن لفظة " الكلام " كافية للدلالة على مفهوم الجملة المفيدة عند سيبويه وستبقى هذه اللفظة دالة على هذا المعنى حتى عند بعض المتأخرين . وذلك مثل ما ابتدأ به ابن أجروم مقدمته : " الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع " . وقال ابن جنى قبله بقرون « الكلام » كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه : نحو زيد أخوك وقام محمد ... وصَهْ ومَهْ ... وأفٍ " (الخصائص ١/١٧)[1] .

ونلاحظ أيضا أنّ وظيفة الوحدة هى إعلام المخاطب بشئ يكون - بحسب ظن المتكلم - قد جهله . وسيبويه يلح على ذلك خلافا لكل من جاء بعده حيث خلطوا بين هذه الوظيفة الإعلامية وبين الدلالة على معنى وهو شئ آخر غير الإفادة (وابن جنى نفسه يقول :" مفيد لمعناه " على ما اشتهر فى زمانه) .

وعلى هذا الأساس فأقل ما ينحّل إليه الخطاب من الوحدات ذوات معنى وفائدة معا هى هذا الكلام المستغنى وعلامته صحة أو حسن الوقف عليه من قبل المتكلم وهذا ما لاسبيل إلى تحقيقه فى الوحدات التى هى دون الجملة مثل " كان عبد الله " وسنرى أن هذا يقال فقط بالنسبة إلى الكلام التام غير المحذوف منه .

٢ - التمييز الحاسم بين النظرة إلى الكلام كخطاب والنظرة إليه كبنية :

إن سيبويه والخليل بن أحمد قد انفردا مع أكثر النحويين الأقدمين بنظرية اندثرت بعدهم وصارت بعد غزو المنطق اليونانى خاصة ، لايتفطن إليها إلا الأفذاذ من النحاة مثل السهيلى والرضى الاسترابادى . ومن أهم

---

(١) لاشك أن الذين وضعوا المصطلح " جملة مفيدة " أرادوا أن يخصصوا هذا المفهوم بلفظ لايدل على شئ آخر غيره إذ لفظة " كلام " قد تدل علي استعمال الأفراد للغة معينة ويقابله بالفرنسية Parole و Langage

المبادئ التى بنيت عليها هذه النظرية نذكر تمييزهم الصارم فى تحليلهم للغة بين الجانب الوظيفى من جهة وهو الإعلام والمخاطبة أى تبليغ الأغراض المتبادل بين ناطق وسامع وبين الجانب اللفظى الصورى أى ما يخص اللفظ فى ذاته وهيكله وصيغته بقطع النظر عما يؤديه من وظيفة فى الخطاب غير الدلالة اللفظية من جهة أخرى (إذ هناك دلالة اللفظ ودلالة المعنى . (أنظر فى ذلك الخصائص ودلائل الإعجاز) وقلّ من انتبه بعد ابن جنى إلى الضرر العظيم الذى يسببه التخليط بين هذين الجانبين من التحليل . فكل جانب منهما يمتاز عن الآخر بمنهجية خاصة به ومبادئ وقوانين لا تمت بسبب إلى الجانب الآخر .

فأكبر دليل على سلامة هذا التصوّر وفساد التخليط بين الجانبين هو عجز النحويين المتفلسفين عن تحديد مفهوم الاسم فى مقابل الفعل والحرف . فهناك أكثر من ١٠ تحديدات للاسم قال عنها ابن فارس : هذه مقالات القوم فى حدّ الاسم يعارضها ما قد ذكرته وما أعلم شيئا مما ذكرته سلم من معارضة (الصاحبى ، ٥١) . والسبب فى ذلك هو هذا الخلط الذى ذكرناه . فالاسم – وكذلك الفعل – يمكن أن يسلم تحديده من المعارضة إذا عيّن المحدد الجانب الذى يتم فيه تحديده ثم عيّن بعد ذلك النوع من الأسماء : فالاسم من حيث معناه أى من حيث دلالته على معنى هو لفظ يدل على شئ لا يكون حدثا مع زمان فى مقابل الفعل الذى يدل عليه ثم هناك الاسم المطلق والاسم المضارع للحرف والفعل ، فالاسم المطلق يدل على ذات أى على كل شئ يصحّ الإخبارعنه . أما الاسم الشبيه بالحرف أو الفعل فهو يدل على معنى من معانى النحو كالظرفية وذلك مثل " إذا " و " حيث " أو الاستفهام مثل : "مَنْ" و"أىّ" أو كلاهما مثل "أين" و"متى" إلخ فهذه أسماء لأنها لاتدل على حدث إلا أنها بمنزلة حروف المعانى من حيث الوظيفة الدلالية والإفادية . أما من الجانب اللفظى الصورى فالاسم كلمة (أى عنصر) يصلح أن تدخل عليها حروف الجرّ والتنوين والإعراب ويمكن أن تضاف وأن توصف وفى ذلك درجات يعتمد فيها على تمكّن الاسم وعدم تمكنه (من احتماله

يمـينا وشـمـالا ، لهـذه الزوائد) . هذا فى مسـتوى الإفـراد أمـا فى مـسـتوى التـركـيب فالاسم هو ما يعمل فيه العوامل ويكون مبتدأ ومبنيا عليه أو فاعلا أى يكون فى موضع لا يدخله الفعل ولا الحرف . ومن هذا الاعتبار يختلف الاسم الشبيه بالحرف عن الحرف لأنه لايأتى أبدا فى مـوضـعـه فـمن حـيث اللفظ وصـورته " إذا " و " من " و " أى " ليـست حـروفـا أبدا و إن كـانت فى الجـانب الوظيـفى الدلالى أشـباه الحـروف (وسنرى فـيـما يلى مـا يتـرتب من ضـرر على هـذا التخـليط فى مستوى التراكيب) .

٣ - الكلام كخطاب أى كحدث إعلامى (يحصل فى وقت معين ومكان معين) :

إن الكلام المستغنى أو الجملة المفيدة هو أقل ما يكون عليه الخطاب إذا لم يحصل فيه حذف . ويمكن أن يحلّل كما فعله سيبويه إلى مكونات قـريبـة على حـدّ تعـبـيـر علمـاء اللسـانيـات تكون خطابيـة لا لفظيـة صورية أى عناصر لكل واحد منها وظيفة دلالية وإفادية . وهذه العناصر هى فى الحقيقة عنصران : المسند والمسند إليـه : "قـال سـيـبـويه ؛ همـا من لا يستغنى واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدا" (١/٦) . ويقول السيرافى فى شرحه : " فيه أربعة أوجه أجودها وأرضاها أن يكون المسند معناه : الحديث والخبر والمسند إليه : المحدَّث عنه وذلك على وجهين : فعل وفاعل كقولك : قام زيد وينطلق عمرو واسم وخبر كقولك : زيد قائم وإن عمرا منطلق فالفعل حديث عن الفاعل والخبر حديث عن الاسم والمسند هو الفعل وخبر الاسم والمسند إليه هو الفاعل والاسم المخبر عنه (شرح الكتاب ١/٧٤ ظهر)[١] .

وعلى هذا الأساس فإن المسند إليه (المسند عند سيبويه) بما أنه المحدَّث عنه لا يكون إلا اسما من الناحية الخطابية أوما فى حكمه (مثل " أن تصوموا " = صيامكم) . ويمكن أن يكون المسند (المسند إليه عند سيبويه) اسما أو

(١) هذا صحيح على استعمال النحاة الذين جاؤوا بعد سيبويه ولكن سيبويه يستعمل لفظة المسند بمعنى المسند إليه والعكس .

فعلاً أو ما فى حكمهما (الظروف والجار والمجرور وغير ذلك) وليس فى دنيا كلام فى أى لغة إلا وفيه محدث عنه ومحدث به فى أى شكل كان .

وهذا كله يخص الجانب الخطابى أى التبليغى الدلالى وهذا لايمنع من أن يكون التحليل قابلا للصياغة فإن الصياغة شئ والفرق بين اللفظ والمعنى شئ آخر إذ كلاهما قابلان للصياغة ومثال ذلك صياغة الجملة المفيدة كخطاب إلى مكونات قريبة هى المسند والمسند إليه .

إن سيبويه لايكتفى بتعريف هذه الأشياء إذ سيعتمد عليها لتفسير الكثير من الظواهر اللغوية وخاصة الظواهر المتعلقة بالتبليغ فإن لها قوانين خاصة يعتمد فى تفسيرها على هذا التحليل للخطاب كخطاب .

يقول سيبويه : إذا قلت : " كان زيد " فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك فإنما ينتظر الخبر فإذا قلت : " حليما " فقد أعلمته مثل ما علمت فإذا قلت : " كان حليما " فإنما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة .. وإذا قلت : " كان حليم " أو رجل فقد بدأت بنكرة ولا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور" (١/ ٢٢) ويقول : "وذلك قولك : ما كان أحد مثلك .. وإنما حسن الإخبار ههنا عن النكرة حيث أردت ان تنفى أن يكون فى مثل حاله شئ أو فوقه ، لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا . وإذا قلت :" كان رجل ذاهبا" فليس فى هذا شئ تعلمه كان جهله ولو قلت :" كان رجل من آل فلان فارسا "حسن لأنه قد يحتاج إلى أن تعلمه أن ذاك فى آل فلان وقد يجهله ولو قلت :" كان رجل فى قوم عاقلا " لم يحسن لأنه لا يستنكر أن يكون فى الدنيا عاقل وأن يكون من قوم .."(١/٢٦-٢٧) .

فمثل هذه الملاحظات كثيرة جدا فى الكتاب وهى تخص أحوال الخطاب مقترنا بأحوال المخاطب : علم المخاطب وجهله واستحالة الإخبار عن منكور اللهم إلا إذا احتاج المخاطب إلى تحديد هذا المنكور بأن يعينّ حلية خاصة به تميزه عن غيره . ويمكن بالدراسة المتعمقة لهذه الملاحظات أن تستخرج قوانين التخاطب الحقيقية وهذا قد فعله العلماء الأولون[1] هذا

(١) مثل الرمانى فى شرحه الكتاب .

ولابد أن ننبه القارئ الكريم أن مثل هذا الكلام عن " علم المخاطب " وسائر أحواله لايمكن أن نعثر عليه فى كتب المتأخرين . فالقواعد الجامدة - الخاطئة أحيانا - قد حلت محل الملاحظات العلمية (تكلموا مثلا عن شروط الابتداء بالنكرة فقط وبدون أن يفسروا ظواهر الخطاب بالكيفية العلمية الوصفية والتعليلية معا) .

٤ - الكلام كلفظ دال له بنية (اللفظ الدال فى حد ذاته) :

إن الكلام المستغنى له عند سيبويه والنحاة الأولين صيغة لفظية خاصة وليست هى الصيغة الخطابية المتكونة من مسند ومسند إليه وإلا فلم احتاج أولئك العلماء إلى تسمية أخرى مثل المبتدأ والمبنى عليه ولماذا احتاجوا إلى تصوّر عنصر لفظى هام هو العامل وما يتعلق به من معمول ؟ نعم قد قال سيبويه : " المبتدأ مسند والمبنى عليه مسند إليه" (٢٥٦/١) كأن المبتدأ والمبنى عليه متطابقان وكأن التسميتين مرادفتان للمسند والمسند إليه . وليس الأمر كذلك لأنه لافائدة على هذا كما قلنا فى تسميتهما بالمبتدأ والمبنى عليه . فإن مقصود سيبويه هو أن يبين أن المبتدأ مهما كان محتواه الدلالى الخطابى فإنه لايستغنى من هذا الجانب الخطابى عن المبنى عليه وهما من حيث الخطاب بمنزلة الفعل والفاعل . يقول "فلابد للفعل من الاسم كما لم يكن الاسم الأول بد من الآخر فى الابتداء"(٦/١) وأيضا: "فالمبتدأ كل اسم ابتدئ ليبنى عليه كلام" (٢٧٨/١) . فهناك تطابق فى مستوى الخطاب ولهذا قسّم النحاة فيما بعد الجملة إلى اسمية وفعلية وقال المبرد بهذا الصدد :" إنما كان الفاعل رفعا لأنه هو الفعل جملة يحسن عليها السكوت وتجب بها الفائدة للمخاطب .

فالفاعل بمنزلة الابتداء والخبر إذا قلت : قام زيد فهو بمنزلة قولك : القائم زيد" (المقتضب ، ٨/١) . هذا من حيث الإفادة لا من حيث البناء لأن صيغة اللفظ الذى يحمل المعنى والفائدة لاتطابق بالضرورة صيغة الخطاب من مسند ومسند إليه كما سنراه . ويبين ذلك النحاة العرب باللجوء إلى منهج علمى هو ما يسمونه بحمل الشئ على الشئ أو إجرائه عليه

بغية اكتشاف الجامع الذى يجمعهما وهو ههنا البنية التى تجمع بين الأنواع الكثيرة من الجمل . وينطلقون فى ذلك من أبسطها وهى التى تتكون من عنصرين : زيد منطلق فيحملون عليها جملا أخرى تكون فيها زيادة بالنسبة إلى الجملة البسيطة بحيث تظهر بذلك كيفية تحوّل هذه النواة بالزوائد وهى فى الحقيقة مقارنة بنوية أساسها ما يسمى فى الرياضيات الحديثة[1] بالتطبيق وهو هنا تطبيق مجموعة على مجموعات أخرى طردا وعكسا ويمكن أن نمثل ذلك هكذا :

١	∅	زيد	منطلق
٢	إن	زيدا	منطلق
٣	كان	زيد	منطلقا

فالمكان الذى تظهر فيه الزوائد يقابله فى الجملة البسيطة مكان فارغ فهذا الفراغ يسمونه بالابتداء ويحددونه بأنه التجردّ من العوامل اللفظية وهذه العوامل هى ههنا " إن " و " كان " ويعنون بالعمل اللفظ الذى يؤثر فى غيره لفظا ومعنى ويتحكم بالتالى فيه[2] يقول سيبويه : "ضربت زيدا هو الحد لأنك تريد أن تعمله (أى الفعل) وتحمل عليه الاسم كما كان الحد : ضرب زيد عمرا حيث كان " زيد " أول ما تشغل به الفعل وإن قدمت الاسم (أى المفعول) فهو عربى وذلك قولك : زيدا ضربت"(٤١/١) .

" أول ما تشغل به الفعل " : إن هذه الملاحظة خطيرة جدا لأننا نعرف بذلك وبما يقوله فى أماكن أخرى من كتابه أن عنصرين اثنين لاتكاد تخلو منهما أبدا البنية اللفظية للجملة وهما العامل والمعمول الأول الذى أشار إليه سيبويه بأنه أول ما شغل به الفعل ثم يقول سيبويه : "عبد الله (فى : كم عبد الله ماكث) يرتفع بالابتداء كما ارتفع بالفعل حين قلت : كم رجل ضرب عبد الله" (٢٩٢/١) ويقول

---

(١) لاننسى أن الخليل بن أحمد كان رياضيا ممتازا .

(٢) وقد ترجم الأوربيون فى القرن الثالث عشر الميلادى مصطلح عمل العربى إلى اللاتيتينة regere بمعنى عمل فى اللفظ الإعراب . ومنها جاءت كلمة rection فى النحو الأوروبى ، ثم قل اهتمام اللسانيات بهذا المفهوم حتي أحياه من جديد تشومسكى باسم government .

أيضا : "أما ضربت وقتلت فإن الأسماء بعدها بمنزلة المبنى على المبتدأ" (١ / ٣٩٣) فاتضح بهذا الكلام أن الفعل كعامل يقع موقع الابتداء وأن المفعول به يقع موقع المبنى على المبتدأ أى الخبر فالتوازى (القياس) أو التناظر هو خاص ببنية اللفظ وليس له أى علاقة بصيغة الخطاب . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نوسع الجدول الحملى السابق هكذا :

	العامل	المعمول ١	المعمول ٢	
الابتداء (الخلو من العوامل اللفظية)	∅	زيد	منطلق	الأصل (أو النواة)
	إن كان حسبت أعلمت عمرا	زيدا زيد زيدا زيدا	منطلق منطلقا منطلقا منطلقا •	
عوامل لفظية	قام	زيد	–	الأصل
	ضرب ضرب	زيد ت	عمرا عمرا	

ويمكن أن نستنتج من هذا ما يلى :

١ - مفهوم المثال والحد : حملنا كل هذه الجمل بعضها على بعض كما فعل سيبويه وبذلك تظهر موازات تامة بين العناصر لأن إجراء الشئ على ما هو بمنزلته حتى ولو كان مختلفا عنه تماما يكشف لنا البنية اللفظية الجامعة أى التى تشترك فيها العدد اللانهائى من الجمل وهذا هو الذى يسميه النحاة (فى مستوى الجملة هنا) (١) قياسا ومثالا وحدا وأصلا تبنى عليه أى تتفرع عليه الفروع فهو بالنسبة للجمل كالبناء والوزن (والمثال) بالنسبة للكلمة .

٢ - تحديد المواضع فى داخل الحد ومحتواها . وبهذا المثال يتحدد الموضع الخاص

بكل عنصر فموضع العامل مثلا ليس هو مكانا معينا فى مدرج الكلام بل هو موضع فى داخل الحد والمثال ثم إن العامل أو المعمول ١ شئ ومحتواه شئ آخر مثل فاء الكلمة أو عينها أولامها شئ ومحتواها شئ آخر . فقد يكون فى موضع العامل فعل تام أو فعل ناسخ أو إن وأخواتها أو تركيب مثل حسبت (وهى جملة) بل حتى عامل ومعمول ١ ومعمول ٢ مثل " أعلمت عمرا " فكل ذلك عامل .

وبفضل هذه المواضع مع عملية حمل عنصر على عنصر الجامع بينها يتضح شئ مهم جدا وهو أن الابتداء هو بمنزلة الفعل وكلاهما بمنزلة الأفعال الناسخة وإن وأخواتها وحسبت وأعلمت وأخواتها وأن الفاعل والمبتدأ واسم كان بمنزلة واحدة (المعمول ١) وأن خبر المبتدأ بمنزلة المفعول به .

٣ – إثبات قانون مهم وهو امتناع تقديم المعمول ١ على عامله :

إن عبارة سيبويه : أول ما تشغل به الفعل " تستلزم شيئا أخر وهو استحالة تقدم المعمول ١ على عامله مهما كان فإذا قدم محتواه تغيرت بنية الجملة (دون معناها الوضعى) : ف"قام عبد الله" غير " عبد الله قام" . وقد برع المبرد فى البرهنة على هذه الحقيقة . يقول : " فإن زعم زاعم أنه إنما يرفع عبد الله بفعله { فى "عبد الله قام"} فقد أحال من جهات : منها أن قام فعل ولا يرفع الفعل فاعلين إلا على جهة الإشراك (العطف) .. فكيف يرفع عبد الله وضميره ؟ وأنت إذا أظهرت هذا الضمير بأن تجعل فى موضعه غيره بان لك وذلك قولك : " عبد الله قام أخوه " فإنما ضميره فى موضع " أخيه " . ومن فساد قولهم أنك تقول : "رأيت عبد الله قام " فيدخل على الابتداء ما يزيله ويبقى الضمير على حاله ... (المقتضب ، ١٢٨/٤) ويظهر كل هذا بوضوح إذا قمنا بنفس العمليات الحملية :

قام	عبد الله	–	–
	عبد الله	قام	
	عبد الله	قام	اخوه
رأيت	عبد الله	قام	

٤ – ومن ثم جواز التقديم والتأخير ما عدا المعمول الأول بالنسبة إلى عامله وفى حدود معينة :

فهذا خاص بمستوى التراكيب المفيدة أى

الجمل ولايحصل هذا إطلاقا فى المستويات التى هى تحتها (كاللفظة والكلمة)[1] . ويمكن أن تعرف العناصر الثلاثة بفضل الاستقرار الخاص بالمعمول الأول وبعلامات الإعراب التى هى نتيجة لتأثير العامل[2] .

٥ - تكون هذه العناصر التركيبية النواة الثابتة :

وهى بدورها وبهذه الصفة يمكن أن تدخل عليها عناصر أخرى زائدة قابلة للتقديم والتأخير وهى عناصر التخصيص لفظا ومعنى مثل الزوائد فى داخل النواة (إنّ وكان وغيرهما) .

وهذه المخصصات هى جميع المنصوبات التى تأتى زائدة . وجزء منها باعتبار الخطاب والإفادة يسمى فضلة لأنها تأتى بعد المسند والمسند إليه . فالمفعول به من حيث البنية اللفظية يأتى فى موضع المعمول الثانى فهو غير زائد بل جزء من النواة اللفظية وهو فضلة فى الإفادة . وهذه الزوائد على النواة اللفظية هى الحال والتمييز كمعمول زائد للفعل لا الاسم مثل "طاب زيد نفسا ولى عشرون درهما" والظرف والمستثنى المنصوب فقط والمفعول معه والمفعول لأجله والمفعول المطلق .

ونشير ههنا أن الجمل ذات التركيب المزدوج مثل الشرط وجوابه وما بمنزلتهما (لما ، إذا الخ) والاستفهامية وغيرها هى أيضا تمثل

---

(١) مفهوم اللفظة لاسبيل إلى العثور عليه إلا فى كتاب سيبويه بعض النحاة الذين فهموا جيدا الكتاب . ولايسميها سيبويه هكذا بل يقول : الكلمة المفردة وما بمنزلتها . وأهمية هذا المفهوم على قدر أهمية الجملة (الرضى هو الذى سماها لفظة) . وتطرقنا لهذا الموضوع فى الكثير من مقالاتنا مثل : النظرية الخليلية وعلاج اللغات على الحاسوب (المؤتمر الثانى فى اللغويات الحاسوبية . الكويت ١٩٨٨) .

(٢) أما ما أتى به ابن مضاء الأندلسى من نقد لمفهوم العامل فلا يعتد به لأنه هو النحوى الوحيد من بين أكثر من ألفى نحوى ذكرهم السيوطى فى كتابه البغية وقف هذا الموقف السلبى إزاء النحو العلمى وخاصة القياس وقد أراد بذلك أن يطبق على النحو العربى ظاهرية أبى داود وابن حزم وقد تحمس بعض المحدثين لهذا الرأى فلم يوفقوا لأن علوم اللسان لاتكتفى بالوصف الساذج للغة بل تتجاوزه إلى التفسير العلمى . واتفق أن ظهر هذا التحمس مع ظهور اللسانيات الوصفية فى الغرب واهتم بعضهم بها وهو رد فعل ضد النحو التقليدى الغربى الذى أصبح لا يميز بين النحو التعليمى والنحو العلمى وابتعد كل البعد عن التصور الأول الأصل .

بصيغة أوسع تندرج تحتها هذه الصيغة الأولية ونأسف لضيق المكان لعدم إمكان عرضها على القراء الكرام[1] .

فهذه الصياغة تخص كما قلنا لفظ الجملة لا الجملة كخطاب وكلا النظريتين ضرورية ثم إن التخليط بينهما أو بالأصح تفسير بنية اللفظ باللجوء إلى اعتبارات تخص الإفادة غلط فادح وكذلك الإفادة وظواهر التبليغ ينبغي أن تفسر باللجوء إلى اللفظ لأن اللفظ يدل على معناه الموضوع له وعلى أكثر من معنى فرعي وهذا المعنى نفسه قد يدل أو يلزمه كما يقول عبد القاهر الجرجاني معنى آخر فهذه الظواهر لا يرجع السبب فيها إلى اللفظ في ذاته .

وهذا قد تنبه إليه جيدا علماؤنا القدامى . قال بهذا الصدد صاحب بدائع الفوائد : إذا قلت : " على زيد دين " فإنك تجد هذا الكلام في قوة قولك : " زيد مديان " أو " مدين " فمحط الفائدة هو الدين وهو المستفاد من الإخبار فلا تنحبس في الأوضاع وتقول : " على زيد " جار ومجرور فكيف يكون مبتدأ فأنت تراه هو المخبر عنه في الحقيقة[2] فليس المقصود الإخبار عن الدين بل عن زيد .. فهذا القدر هو الذى حسن الإخبار عن الفكرة ههنا فإنها ليست خبرا في الحقيقة وإنما هي في الحقيقة خبر عن المعرفة المتقدمة . فهذا حقيقة الكلام وأما تقديره الإعرابي النحوي فهو أن المجرور خبر مقدم والنكرة مرفوعة بالابتداء (بدائع الفوائد ١١/١٤٨ - ١٤٩ وهو مأخوذ من كتاب نتائج الفكر للسهيلي).

فحقيقة الكلام يعني بها الكلام في ذاته أي كخطاب لا من حيث بنية لفظه وأما هذه البنية اللفظية فيعبر عنها مرة بترتيب اللفظ ومرة أخرى بالتغيير الإعرابي النحوي ويمكن أن نعبر بالفرنسية عن **الأول** بـ réalité (communicationnel) du discours **والثاني** بـ Sémiologico

---

(١) وقد أطلنا الكلام في ذلك وفي جوانب أخرى هامة في النظرية الخليلية في كتابنا : علم اللسان العربي وعلم اللسان العام .

(٢) وعلى هذا فالمبتدأ ليس دائما هو المخبر عنه أي المسند إليه .

grammatical وقد يعبر سيبويه عن الأول باللفظ اختصارا في مقابل المعنى ولا يريد هنا بالمعنى مدلول اللفظ الأصلي أي الموضوع له فهذا يدخل في ميدان اللفظ (sémiolo-gique) بل يريد بذلك دلالة الحال أو الدلالة العقلية أو أي دلالة غير اللفظية ويسميه العلماء العرب " لازم المعنى " فهذا يخص ال sémantique أي المعنى في ذاته لا كمدلول اللفظ وبالنسبة إلى اللفظ الدال عليه . والفرق بينهما كالفرق بين النحو والبلاغة[1] .

١ - اللفظ الدال والمعنى المدلول عليه باللفظ في الوضع والاستعمال :

إن هناك ميزة أخرى لسيبويه لا تقل أهمية عما ذكرناه وهو شيئ تجاهله ولم يهتم به المتأخرون من العلماء وكذلك المحدثون : ألا وهو اهتمامه الكبير هو والنحاة الأولون بالاستعمال الحقيقي للغة والرصد المتواصل لتصرفات الناطقين في التخاطب العفوي ومن ثم لأوضاع اللغة وذلك إلى حدّ بعيد جدا : بالتقديم والتأخير والقلب والحذوف الكثيرة والاختزال والاختلاس وإضمار المبتدأ أو الخبر وغير ذلك مما كثر مجيئه في الكتاب .

وسنتعرض هنا فقط للجملة المفيدة وما يطرأ عليها من تغيير في واقع الاستعمال إذ هناك تغييرات عديدة تصيب اللفظة والكلمة وأصوات اللغة .

يتكلم سيبويه عن مستوى من التعبير المستخف يسميه : سعة الكلام والاختصار ويكثر من ذكر هذا المستوى وخاصة في أبواب المنصوبات ويمثل له بأمثلة كثيرة جدا بما سمعه هو بذاته من أفواه العرب أو مما رواه شيوخه الثقات . وهذا النوع من التعبير غير موجود غالبا[2] (إلا بعض الاقتباسات والروايات) في الشواهد التي يذكرها المتأخرون من النحاة

(١) إن هذا التمييز العلمي الموضوعي لا نجده إطلاقا في اللسانيات الغربية اللهم إلا في نظرية جانيوبان الفرنسي وقد اكتشف ذلك برصده لمدة عشرين سنة لأمراض الكلام فبين أن من تلك الآفات ما يصيب القدرة على التركيب ومنها ما يصيب القدرة على استبدال مفردة بأخرى ومعرفة معانيها .

(٢) تلك هي ميزة هامة للمتقدمين من العلماء . أما المتأخرون فيكتفون من الشواهد بما حفظ عن ظهر القلب مثل الشعر والقراءات القرآنية وبعض العبارات التي تجرى مجرى الأمثال . أما هذه العبارات العفوية التي تكتب ولا تحفظ غالبا فلا سبيل إلى وجودها إلا في زمان الفصاحة العفوية . وقد ذكر بعضها ابن مالك وابن هشام في بعض الأبواب مثل بابي التنازع والاشتغال .

لسبب واضح وهو عدم وجود من يؤخذ منه اللغة بعد القرن الرابع الهجرى لذهاب السليقة .

- الإجراء على الموضع :

يقول سيبويه : باب ما يجرى على الموضع لا على الاسم الذى قبله : وذلك قولك : " ليس زيد بجبان ولا بخيلا " و " ما زيد بأخيك ولا صاحبك " . والوجه فيه الجرّ "(١/٣٣) . أى الأصل والقياس النحوى يوجب الجرّ ولكن الاستعمال الحقيقى (السماع) جاء منه ما يخالف ذلك وإذا كثر صار أصلا آخر يقول ابن جنى إن " السماع يبطل القياس " إذا لم يرد فى الاستعمال ما يؤيد القياس . ويقول أيضا : وقد حملهم قرب الجوار على أن جرّوا : " هذا جحر ضبّ خرب" (هذا يذكره بعض المتأخرين لشهرته) فكيف ما يصح معناه" (١/٣٤) ، وقد يتفق أن يمتنع هذا الإجراء أولا لعدم وجوده فى الاستعمال ثم لأنه يخلّ باللغة وذلك مثل قوله : "ولو قلت : ما زيد على قومنا ولا عندنا كان النصب ليس غير ولا يجوز حمله على "على" " لأن "عندنا " لا تستعمل إلا ظرفا" (٣٤) .

- انشغال الفعل بضمير إجراء والظروف هكذا:

وسمع سيبويه العرب تقول : زيدا ضربت وزيدا ضربته (وعلى مثاله) ويوم الجمعة ألقاك فيه ويوم الجمعة آتيك برفع يوم ونصبه . فالأول هو الحد أما النصب وقد جاء فى الاستعمال بالنصب مع وجود الضمير .

- إعمال الأفعال الناسخة وإلغاؤها:

وتقول : زيد أظنه ذاهبا ومن قال : عبد الله ضربته نصب فقال : عبد الله أظنه ذاهبا .. فإن ألغيت قلت : عبد الله أظن ذاهب . وكلما أردت الإلغاء فالتأخير أقوى وكل عربى جيد (٦١) . ويريد سيبويه أن كلا المثالين مستعمل عند العرب ولا يريد من كلمة " جيد" إلا هذا (خلافا لما قد يعتقده بعضهم من تدخل سيبويه فى الحكم على كلام العرب بالحسن والقبح تعسفا) .

- الحذف والإضمار للاختصار أو لعلم المخاطب رؤية الحال :

قال :" كما يقول إذا ذكر إنسان شيئا قال

زيد وقال الناس أنت (١/ ٧١) قال تعالى جده : "طاعة وقول معروف (١) " فهو مثله فإما أن يكون أضمر الاسم (المبتدأ) وجعل هذا خبره كأنه قال : أمرى طاعة وقول معروف أو يكون أضمر الخبر فقال : طاعة وقول معروف أمثل (٧١) ويقول : وذلك قولك : متى سير عليه ؟ فيقول : مقدم الحج وخفوق النجم ... فإنما هو زمن مقدم الحج وحين خفوقه ولكنه على سعة الكلام والاختصار ... وإن رفعته أجمع كان عربيا كثيرا " (١١٤) ويقول : وحذفوا كما قالوا : " حينئذ الآن " وإنما يريد : حينئذ واسمع الآن... وإنما أضمروا ما كان يقع مظهراً استخفافا ولأن المخاطب يعلم ما يعنى فجرى بمنزلة المثل كما تقول : لا عليك (١١٤) يقول : سير عليه ذا صباح أخبرنا بذلك يونس عن العرب إلا أنه جاء فى لغة لخثعم مفارقا لذات مرة وذات ليلة (١١٥) يقول : أقائما وقد قعد الناس وأقاعدا وقد سار الركب .. وذلك أنه رأى رجلا فى حال قيام أو فى حال قعود فأراد أن ينتبه فكأنه لفظ بقوله : أتقوم قائما وأتقعد قاعدا ولكنه حذف استغناء بما يرى من الحال وصار الاسم بدلا من اللفظ بالفعل "(١٧١) ويواصل : "وحدثنا بعض العرب أن رجلا من بنى أسد قال يوم جبلة واستقبله بعير أعور فتطّير منه فقال : يابنى أسد أعور وذا ناب (١٧٢). يقول : وسمعنا بعض العرب الموثوق به يقال له : كيف أصبحت ؟ فيقول : حمد لله ... كأنه يحمله على مضمر فى بنيته هو المظهر (١٦١) ومثله قول العرب : من أنت زيد ؟ أى ومن أنت كلامك زيد ؟ فتركوا إظهار الرافع كترك إظهار الناصب" (١٦٢).

وهكذا لا يزال سيبويه يبهرنا بكثرة ما يرويه من كلام العرب محاولا دائما أن يفسره بالنسبة للحد والأصل وبذلك يظهر الفرق الشاسع بين هذا العمل الوصفى التفسيرى فى نفس الوقت وسيختفى نهائيا من النحو وبين هذا الذى سيصير سرد قواعد جامدة مع الاكتفاء بشاهد قرآنى أو شعرى واحد فى الغالب . ويمكن أن نلخص ما ذكرناه فى هذه المقالة الوجيزة : إن تحت كلام سيبويه هذا نظرية لسانية عميقة جدا يدين بها خاصة للخليل بن أحمد وشيوخه الآخرين وفيها الكثير مما زاده هو فيها وأبدع إبداعا . فمن أهم المبادئ التى ترتكز عليها ذكر التمييز الصارم (الذى لا يقبل أى تساهل) فى التحليل والتفسير بين ميدانين اثنين من اللغة ليس بينهما أى تناظر

(١) سورة محمد الآية ٢١

وهو ميدان اللفظ الدال ومدلولاته الوضعية من جهة وبين الخطاب الذى هو كيفية استعمال هذا اللفظ ومدلولاته فى عملية الإفادة . ولاتكمن الميزة فى هذا فقط بل فى امتناع اللجوء إلى أحدهما لتفسير ظواهر الآخر وهذا الخلط هو أعظم خطأ يرتكبه النحو العربى التقليدى (نحو ابن مالك) وكذلك المدرسة البنوية فى اللسانيات الغربية الحديثة (وإلى حد ما نظرية تشومسكى فى أول أمرها) . وقد رأينا كيف ينطبق ذلك على الجملة المفيدة ثم إن هناك تصورا أخر للنحاة العرب الأولين لم نجده عند المحدثين إلا القليل وهو أن اللغة لاتتألف فقط من قطع كلامية بل هناك وحدات مجردة تدل على معنى مثل المادة الأصلية للكلمة ومثالها ووزنها فهذه وحدات ليس لها شكل القطعة من الكلام وهذا النوع من الوحدات موجود فى مستوى التراكيب فصيغة الجملة العربية اللفظية هى سياق من العامل **والمعمول الأول** يكونان زوجا مرتبا يبنى عليه **المعمول الثانى** وتدخل على هذه النواة زوائد مثل الزوائد التى تدخل فى بنية الكلمة . وينبغى أن لا نخلط بين هذه الصيغة الخاصة باللفظ وصيغة الخطاب التى تتكون من المسند والمسند إليه حتى ولو أمكن تأويل أحدهما بالمبتدأ وليس ذلك مطردا وهذا التصور لنوعية الوحدات هو تصور عربى محض لايوجد مثله فى اللسانيات الغربية .

والله ولى التوفيق

عبد الرحمن الحاج صالح

عضو المجمع المراسل من الجزائر

بين الحركات والحروف في الإعراب

دراسة تاريخية مقارنة

للدكتور أحمد علم الدين الجندي (*)

لمحة تاريخية :

توهم القدماء من علمائنا ضآلة قيمة الحركات ، وأنها أمر ثانوى بالقياس على الحروف ، وفى هذا القول بعض المغالاة ، فللحركات خطورتها فى تنويع أصل كل معنى ، وعن طريقها يتحقق تغاير المعنى الصرفى ، كما أنها تمثل عنصرا هاما فى كل من : النبر فى الجانب الصرفى ، والتنغيم فى الجانب النحوى . زد على ذلك أنها تكون قمم مقاطع فى العربية ، ومكانتها أخيرا فى العروض العربى لا تنكر حيث حلت مكانا مرموقاً فى موازيق الشعر[1] .

وتاريخ الحركات جزء هام من تاريخ الكتابة العربية فى عصورها الإسلامية غايتها تصوير كل صوت برمز كتابى يدل عليه ، وفى العربية نجد أنماطا من الحركات المختلفة من بسيطة ومزدوجة Diphtong ومطولة ومخطوفة أو مختلسة ، على أن الحركات ، وهو الأهم فى موضوعنا ، يمكن أن ترتبط بنظرية نحويى العربية الذين يرون أن الحركات الأساسية هى التى بواسطتها تحرك نهاية الكلمة فى حالات الإعراب ، غير أنه يوجد إلى جانب هذه الحركات حركات أخرى نشأت بتأثير الحرف الصامت سابقاً أو لاحقاً ، مع بعض العوامل الأخرى على أن هذه الحركات والسكنات عندما تتقاضف على الصيغة تؤلف نمطا منسجما يتواكب مع المعانى الوظيفية ، وفيضا غامرا من اختلاف الأوجه وديناميكية الانتقال من صيغة إلى أخرى فما يعد نمطا فريدا لسياسة الحركات الذى يتوج التمدن اللغوى الحضارى للأمة العربية[2] .

(*) أفضت فى الحديث عن الحركات الإعرابية فى بحث نشرته فى : مجلة معهد اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة . العدد الثانى ١٤٠٤ — ١٩٨٤ بعنوان « علامات الإعراب بين النظر والتطبيق » من ص ٢٧٥ — ٣٢٣ .

(١) انظر كتابنا : « نحو القلوب الصغير » ص : ١٩٠ ط الدار العربية للكتاب بتونس ، وفى هذا الكتاب أثبت أن للحركات قيمة هامة أخرى فى الجانب الصوفى وخلعت عليها تسمية مبتكرة باسم (صوفية الحركات) ، أو (أخلاقية الحركات) .

(٢) انظر مقالنا فى مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٩ .

على أننا لا ننكر صعوبة تأريخ الحركات في سائر اللغات العربية الجاهلية لأن أبجديتنا أبجدية حروف صامتة تهمل الحركات وأمثالها من ضغط ونبر وتنغيم . كما أن مخالفة الكتابة للنطق كثيرا ما يكون مصدرها تطور الصوت في الكلمة ، ونشاهد ذلك في رسم المصحف الشريف والساميات أخوات العربية حيث نشاهد في العبرية (صان) ونطقها (صون) وكذلك (راش) بمعنى رأس ، ونطقها (روش) .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نرى أن بعض قدماء النحاة لم يوفقوا حين ظنوا أن الحركات ليس لها من الأهمية ما للحروف فقد زعموا أن حركات العلة أعراض ، والحروف الساكنة جواهر وأصول ، ثم دخلوا في متاهات ومشكلات منها :

١ — محل الحركة من الحرف . أما سيبويه فيذهب إلى أن الحركة تحدث بعد الحرف ،وقال غيره : معه ، وذهب غيره إلى أنها تحدث قبله ويذكر ابن جنى ابتداء تلك القضية فيقول :واعلم أن الحركة التى يتحملها الحرف لا تخلو أن تكون في المرتبة قبله ، أو معه أو بعده(١) ؟

والفارسى على رأس الذين يرون أن الحركة تحدث مع الحرف(٢) على أن ابن جنى يستنكر أن تكون الحركة فى المرتبة قبل الحرف(٣) .

ونحاتنا فى هذا الخضم العريض تتناحر آراؤهم وتتشاجر فعندما يقررون أن الحركات أضعف من الحروف نرى أن الصواب قد جانبهم فى ذلك ، إذ الدراسات الحديثة قد أثبتت أن جميع الحركات القصيرة والطويلة مجهورة ، وأنها أقوى فى الوضوح السمعى من الأصوات الساكنة(٤) .

٢ — ثم نراهم ينقضون مبدأهم فيقررون أن الحركة أصل للإعراب وأن حرف المدفرع عنها وذلك فى قول ابن جنى . « فالألف والياء والواو فى جميع هذه الأسماء الستة دواخل على الفتح والكسر والضم ، ألا تراها تفيد من الإعراب ماتفيده الحركات : الضمة والفتحة والكسرة . وإنما الموضع فى الإعراب للحركات فأما الحروف فدواخل عليها(٥) .

وإذا كان نحاتنا يرون أن الحركات أضعف من الحروف لأن الحركة فى حقيقتها ناقصة

---

(١) سر الصناعة : ٣٢ .
(٢) السابق : ٣٧ .
(٣) انظر أدلته فى سر الصناعة ص : ٣٢ .
(٤) نحو القلوب الصغير : ١٨٤ .
(٥) الخصائص : ٣ / ١٣٥ تحقيق الأستاذ محمد النجار . دار الكتب المصرية .

لأنها لا تقوم بنفسها وهى محتاجة لكى توجد إلى حامل هو الحرف . ثم إن الحركات جزء من شيء آخر سابق عليها وهو الحرف التم الكامل ، وابن جنى يقرر ذلك حين يقول : اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهي الألف والواو والياء ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث : الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة : الألف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة »[1] .

فنص ابن جنى يؤكد أن الحركات أبعاض لهذه الحروف ، وإذا كان كذلك فكيف تنقلب الفكرة عندهم رأسا على عقب حين يقررون أن أصل الإعراب أن يكون بالحركات ، كما قالوا أيضاً بأن الحروف أقوى من الحركات وأصل لها ، وفى الإعراب نقضوا عهدهم أيضاً حين قالوا بأن حروف المد فرع أو دواخل على الحركات وهى الضم والفتح والكسر . على أنه لا فرق بين الحركات وحروف المد إلا فى الكمية من وجهة نظر الدرس اللغوى الحديث . وعلماء العربية الأقدمون يذهبون إلى مثل ذلك أيضا ، حيث يقرر ابن جنى ذلك فيقول : ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذى هى بعضه »[2] فكأن الحركات حين تشبع تنشأ الحروف ، وكان على النحاة من خلال هذا الفهم أن يعتصموا بأن الإعراب لايكون إلا بالحركات وحدها لا غير حتى لا يثيروا بلبلة واضطرابا وتناقضا فى مسائل النحو كما سنرى ، لأنه ليس بين الإعراب بالحركات والحروف من فرق إلا فى الكم أما فى الكيف فهى هى : الحركات أصوات مد قصيرة ، والأحرف أصوات مد طويلة ، والواو التى زعموا أنها علامة رفع فرعية ليست إلا ضمة مشبعة ، والياء ليست إلا كسرة مشبعة ، والألف لذلك ليست إلا فتحة مشبعة ، فالفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو ولكن النحاة شقوا على أنفسهم وعلى غيرهم حين ذكروا علامات أخرى للإعراب سموها العلامات الفرعية ، وجعلوها نائبة عن العلامات الأصلية ، وسيقابلك حشد من آرائهم المتصارعة فى الإعراب بالعلامات الفرعية . وعلى سبيل المثال فالأسماء الستة تراهم يختلفون فى إعرابها إلى مذاهب قددا : .

(١) سر الصناعة : ١٩ ، وانظر : الأشباه والنظائر ١ / ١٧٢ للسيوطى . القاهرة

(٢) سر الصناعة : ٢٠ .

١ ـ أن الواو والألف والياء فيها حروف إعراب والإعراب مقدر فيها كما يقدر في الأسماء المقصورة . وهذا قول سيبويه .

٢ ـ أنها معربة من مكانين بالحروف والحركات التي قبلها . وهو رأي الكوفيين

٣ ـ أن هذه الحروف حروف الإعراب وعلامته فالواو بمنزلة الدال والضمة في نحو : قاتل الجند ، والياء بمنزلة الدال والكسرة في نحو أتيت على الجند . والذي جعلهم يقولون بذلك : أن حروف العلة لو سقطت اختلفت معاني هذه الأسماء فهي كحروف الإعراب توجد بوجوده . وتزول بزواله فهي كعلامته .

٤ ـ وذهب بعض النحويين إلى أن هذه الأسماء إذا كانت في موضع رفع كان فيها نقل بلا قلب ، وإذا كانت في موضع نصب كان فيها قلب بلا نقل ، وإذا كانت في موضع جر كان نقل وقلب[1] .

٥ ـ وذهب بعضهم إلى أن الياء والواو والألف نشأت عن إشباع الحركات[2] وهذا الرأي قريب من رأي المحدثين اللغويين حيث يرون أن اختلاف وقوع النبر هو السبب في مطل هذه الحركات أو تقصيرها

فلو قلت : (أخوك) كان النبر على المقطع الثاني (خو) أما (أخاك) بدون مطل فالنبر على المقطع الأولى (أ) .

ومثل هذا الخلاف يطالعنا في باب التثنية والجمع كذلك بين البصريين والكوفيين وبين أفراد كل فريق منهم ، فيذهب سيبويه إلى أن الألف والواو والياء هي حروف الإعراب . وذهب أبو الحسن الأخفش ، وأبو العباس المبرد ومن تابعهما إلى أنها تدل على الإعراب وليست بإعراب ولا حروف إعراب . وذهب أبو عمرو الجرمي إلى أن انقلابها هو الإعراب وذهب قطرب والفراء والزبادي إلى أنها هي الإعراب[3] وحكى عن الزجاج أن التثنية والجمع مبنيان .

والذي ورط النحاة في قولهم : الإعراب بالحروف فرع عن الإعراب بالحركات التي هي أصول ـ مايذهبون إليه دائماً من القول بالأصل والفرع في كل مشكلة تقابلهم ، ولهذا يعج النحو العربي ، وتطالعك نظرية الأصول والفروع ـ التي ترتبط بمنهج أصول الفقه في كل باب من أبوابه ومن ذلك :

---

(١) الإنصاف ١ / ٢٢ .

(٢) أسرار العربية لابن الأنباري ١ / ٤٤ فما بعدها ط دمشق ، واللمع لابن جني : ١٠١ فما بعدها وانظر التحقيق للدكتور حسين شرف ط ١٩٧٨ والرضي على الكافية ١ / ٢٧ ، وشرح المقدمة النحوية لابن باب شاذ ٥٨ فما بعدها .

(٣) سيبوية ١ / ٤ ط بولاق ، وأسرار العربية : ٥١ ، واللمع لابن جني : ١٠٣ وانظر المحقق ، وشرح المقدمة النحوية لابن باب شاذ : ٦٤ تحقيق د . أبو الفتوح شريف ط ١٩٧٨ . والإنصاف ١ / ٣٣ .

١ – باب من غلبة الفروع الأصول[1] .

٢ – حمل الأصول على الفروع .

٣ – باب فى المستحيل وصحة قياس الفروع على فساد الأصول[2] .

٤ – مراجعة أصل واستئناف فرع .

٥ – نقض الأصول وإنشاء أصول غيرها منها[3] .

٦ – مراجعة الأصل الأقرب دون الأبعد .

٧ – مراعاة الأصول تارة وإهمالهم إياها أخرى . وقد تكثر الفروع وتطرد حتى حتى تصير كالأصول فتشبه الأصول بها .

٨ – حط الفروع عن الأصول .

٩ – هجر الأصل حتى يعد النطق شذوذا

١٠ – قد يكون للشيء أصلان[4] والأصول لا تحتاج إلى علامات ، وإنما تحتاجها الفروع ، كما نرى هذه الأصول فى جزئيات الفصول والأبواب النحوية مثل قولهم :

١ – لماذا كان[5] الأصل فى الخبر الإفراد؟ ومتى يأتى الخبر على خلاف الأصل ؟

٢ – لماذا كانت إلا – هى الأصل فى الاستثناء ؟

٣ – لماذا كان الأصل فى الأفعال التصرف ولماذا كان الأصل فى الأفعال الدلالة على الحدث والزمان ؟

٤ – لماذا كان الفعل أصلا للاسم فى الصحة والإعلال ؟

٥ – الأصل فى الأسماء التذكير ، والتأنيث فرع عليه

٦ – الحذف للجزم أصل للحذف للنصب.

٧ – الباء هى الأصل فى حرف القسم .

٨ – النكرة أصل والمعرفة فرع عليها .

٩ – وحسبنا أن نختم هذا بما يتصل بموضوعنا (الإعراب ومشكلاته) ونشير إلى قضيتين : أولاهما : قولهم : الأصل فى الإعراب أن يكون بالحركات ، والإعراب بالحروف فرع عليها . وإنما كان الإعراب بالحركات هو الأصل لثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن الإعراب دال على معنى عارض فى الكلمة ، فكانت علامته حركة عارضة فى الكلمة لما بينهما من التناسب

---

(١) الخصائص ١ / ٣٠٠ .

(٢) الخصائص ٣ / ٣٢٨ .

(٣) الخصائص : ٣ / ٢٢٧ .

(٤) الأشمونى : ٤ / ٢١٢ .

(٥) ألاحظ اهتمام النحو التقليدى بالعلة : لماذا كان ؟ فلم يكن يلاحظ ويستقرىء ويفسر تفسيرا يقوم على الحقائق اللغوية ، بل كان نحوا معياريا صوريا لا يركز على الاستعمال اللغوى كما هو .

والثانى : أن الحركة أخف من الحرف وأقل منه ، وهى كافية فى الدلالة على الإعراب ، وإذا حصل الغرض بالأخف الأقل ، فلا يتكلف غيره ، ولذلك كثرت الحركات فى بابها ، وقل غيرها مما أعرب به ، وقدر غيرها بها ، ولم تقدر هى به[1] .

والثالث : أن الحرف من جملة الصيغة الدالة على معنى الكلمة اللازم لها ، فلو جعل الحرف دليلا على الإعراب ، لأدى الأمر إلى أن يدل الشىء الواحد على معنيين وفى ذلك اشتراك ، والأصل أن يخص كل معنى بدليل . وإنما أعرب المثنى وجمع المذكر والأسماء الستة بالحروف لأمر اقتضاه ، فأعربوا المثنى وجمع المذكر بالحروف للفرق بينهما وبين المفرد ، ولم يعكس الأمر ليكون الأصل للأصل والفرع للفرع ، فإن الحركات أصل للحروف ، والمفرد أصل للمثنى والجمع[2]

وثانيهما : قولهم : هل حركات الإعراب أصل لحركات البناء ، أو حركات البناء أصل لحركات الإعراب ، وقد اختلف النحاة فى ذلك :

فذهب بعضهم إلى أن حركات الإعراب هى الأصل ، وأن حركات البناء ، فرع لأن الأصل فى حركات الإعراب أن تكون للأسماء وهى الأصل ، فكانت أصلا ، والأصل فى حركات البناء أن تكون للأفعال والحروف ، وهى الفرع ، فكانت فرعا .

وذهب آخرون إلى أن حركات البناء هى الأصل ، وحركات الإعراب فرع ، لأن حركات البناء لا تزول ولا تتغير ، وحركات الإعراب تزول وتتغير وما لا يتغير أولى أن يكون أصلا مما يتغير[3] .

ولا تعجب بعد ذلك أن تجد خلطا بين كثير من النحويين فى علامات كل من حركات الإعراب والبناء حيث أطلق بعضهم ألقاب الإعراب على ألقاب البناء والعكس[4] .

والأعجب مما سبق أن البصريين والكوفيين عندما وضعوا أصولهم وفروعهم فى النحو لم يلتزموا تلك الأصول والفروع عند التطبيق فقد ناقض كل فريق (أصله)[5] وكان ذلك سببا من أسباب التضارب والتناقض والتخالف والتشابك فى مسائل العربية .

---

(١) انظر شرح المفصل ١ / ٥١ .

(٢) انظر حواشى النحو المطولة ، والأشباه والنظائر ٢ / ٢٢ للسيوطى . ط القاهرة. القواعد الكلية د . فريب نافع ، نشر : مكتبة الأزهر سنة ١٩٧٥ .

(٣) أسرار العربية لابن الأنبارى : ٢٠ ط دمشق ، وانظر الأشباه والنظائر ١ / ١٥٩ القاهرة .

(٤) معانى الفراء ٢ / ٣٥ ، ٤٠ والمقتضب ٤ / ٤ ، ٨٣ .

(٥) الإنصاف مسألة : ٥ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٥ .

ونظرية الأصل والفرع وافدة على النحاة من أصول الفقهاء ، فقد تحدث الأحناف والشافعية عن الأصول والفروع ، واهتم بها أبو حنيفة ومدرسته ، ومعلوم أن تأثير الفقه وأصوله فى النحو كان قويا منذ العصور الأولى فقد كان النحاة ينظرون إلى الفقه وأصوله على أنه علم نابع من الفقه الإسلامى الخالص ، ولهذا رأينا كثيرا من النحاة يتأثرون بالفقهاء ويشاركونهم من أمثال : أبو عمر الجرمى ، والفراء ، والسيرافى ، حتى إن الجرمى والسيرافى كانا يقعدان للفتيا ، والخليل ابن أحمد النحوى يصرح فى أمكنة كثيرة باقتباسه نصوصا فقهية لأبى حنيفة يؤكد بها مسائل فى النحو والعربية[1] ومحمد بن الحسن ألف كتابا فى الإيمان ضمنه مسائل فقهية مبنية على أصول النحو والعربية ، وابن جنى فى الخصائص يتأثر فى مسائله النحوية بالفقهاء وعلماء الأصول[2] وكذلك كتب ابن الأنبارى كالإنصاف ولمع الأدلة ، وتآليف السيوطى كالهمع والاقتراح والأشباه والنظائر ، فهى مبنية على أشباهها من كتب الفقهاء ونرى أن يكون منهج النحو نابعاً من اللغة ويعود على اللغة، دون السماح لأى فكر آخر غير لغوى أن يتدخل .

والدراسات النحوية الحديثة لم تعترف بفكرة الأصل والفرع كما فسرها النحاة إذ إنها ترى أن فهم اللغة يخضع للشكل والوظيفة ففى العربية كثير من الوظائف كوظيفة الفاعل والمفعول والمبتدأ وكل وظيفة تتخذ لها طريقة شكلية تعبر عنها ، فشكل الفعل مع الفاعل يختلف شكله مع نائب الفاعل ، وهذا الشكل لا يقتصر على الحركات الإعرابية، بل يتسع ليشمل الترتيب بين الكلمات مثل : التقديم والتأخير ، وغيره من القرائن التى تظهر من سياق الكلمات السابقة واللاحقة .

وفكرة الاعتماد على القرائن فى فهم التعليق النحوى ينفى عن النحو : كل تفسير ظنى أو منطقى ، كما ينفى أصالة بعض الكلمات فى العمل وفرعية الأخرى[3] كما أن مسائل

---

(١) كتاب العين : ٢٨٥ تحقيق الدكتور عبد الله درويش .
(٢) الخصائص : ١ — ١٦٣ فما بعدها ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان ص ٢٣٣ .

الأصل والفرع بالصورة التى تخللت جزئيات ومسائل النحو العربى مرفوضة لأن اللغة لها خصائصها وسماتها التى تختلف عن خصائص وسمات القياس المنطقى الجدلى الذى تأثر به النحاة ، وقضية (الأصالة والفرعية) لا ترتبط بمقاييس ثابتة عند علماء النحو العربى ومن هنا اضطربت الآراء والمشارب ؛ فما يعتبره نفر منهم أصلا يعتبره الآخرون فرعا لهذا الأصل . ونظرية الأصل والفرع ترتبط أولا وأخيرا بالقياس الذى فرض سلطانه على النحو وترجيح أن تعتمد القضايا النحوية على الاستقراء . ولهذا أرى إلغاء فكرة نيابة الحروف عن الحركات لبنائها على الأصالة والفرعية ، ويكون إعراب الأسماء الستة بالحركات الثلاثة مع مدها ، أما جمع المذكر فالضمة فيه علم الرفع وعلم الإسناد والواو إشباع ، والكسرة علم الجر ، والإضافة والياء إشباع وأغفل الفتح لأنه ليس بإعراب ، فلم يقصد إلى أن يجعل له علامة خاصة ، لأنه إذا أريد إلى أن يجعل نصبا وأتى له بالفتحة اشتبه بالمثنى ، ولهذا أغفل الفتح فيه ، وجعلت الصيغة المستعملة فى الإضافة هى صيغة المنصوب(١) أما المثنى فالألف فيه ليست علامة للرفع ؛ لأن الضمة وحدها هى علم الرفع ، أما الألف فهى للتثنية لا غير وإذا أريد رفعه بالضمة فيجب أن تزول الألف ، وبزوالها يزول المعنى فتركت الكلمة وهى مسند إليها ، بلا علامة تدل على الإسناد فإذا أريد أن يكون مضافا إليه استعين بالياء وهى جزء من الكسرة ، وممطولة لها وأبقيت الفتحة الدالة على ألف الاثنين قبلها ، وتحقق فى الصيغة إذن : دلالتها على التثنية ، ودلالتها على الإضافة .

---

(١) إحياء النحو : ١١١ ط ١٩٥١ .

(٢) انظر : فى النحو العربى ٩٠ د . مهدى المخزومى . ط . أولى . بيروت .

تذييل وتكميل ومقارنات

فى الأسماء الستة :

مما سبب الخلط والتعارض فى أقوال علماء العربية ، إعراب الأسماء الستة ، وظهور مذاهب كثيرة كمذهب الكوفيين[١] وجمهور البصريين ، وعلى بن عيسى الربعى[٢] ، والمازنى ، والأخفش ومعه المبرد[٣] ، والجرمى[٤] ، والرضى[٥] ، وأبى على الفارسى[٦] وغيرهم ، وأكثر هؤلاء يرى تثليث تلك الأسماء ، ويكون الحرف الثالث منها هو حرف الإعراب كالدال من زيد ، وبناء على هذا يقدرون ويتأولون ، فالأصل فى (جاء أبوك) جاء أَبَوُك . فالضمة على الواو علامة الرفع ، ثم سلبوا الحرف الذى قبل الواو حركته فسكن ثم ضموه إتباعا لحركة الواو ، ثم حذفوا حركة الإعراب ، وهى الضمة استثقالا لها على الواو ، فصار اللفظ (أبوك) (*) .

غير أن القول (بثنائية) هذه الأسماء — بدليل أنها عندما تضاف إلى ضمير المتكلم تحتفظ بثنائيتها (أبى — أخى — حمى) — يخلصنا من هذه الفروض والأوهام ، وهو ما يذهب إليه كثير من الباحثين فى الشرق والغرب على السواء[٧] .

---

(١) الإنصاف ١ — ١٧ (٢) السابق (٣) المقتضب ٢ — ١٥٢

(٤) شرح الكافية ١ — ٢٧ فما بعدها . بيروت . (٥) السابق . (٦) السابق ١ — ٢٨

(٧) من أمثال : الأب مرمرجى الدومنكى فى كتابه : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية . ط القدس ١٩٣٧ م . ومعجمات عربية سامية ٧٩ فما بعدها ط لبنان ١٩٥٠ .

وجرجى زيدان فى كتابه : الفلسفة اللغوية ٣٨ فما بعدها . القاهرة ١٨٨١ .

وعبد الله العلايلى فى كتابه : مقدمة لدرس لغة العرب ١٣٣ ط العصرية بمصر .

وأحمد فارس الشدياق فى كتابه : سر الليال فى القلب والإبدال .

والأب مارى أنستاس الكرملى فى كتابه : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها . ط ١٩٣٨ .

وانظر مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ ترى فيها أسماء كثير من المستشرقين الذين آمنوا بالثنائية ، واستشهدوا لها بالساميات أخوات العربية . ونذكر منهم : فورست وجزينس وريتان .

وانظر : ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية . د — أمين فاخر .

وأصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية ٧٤ — ٨٩ د — توفيق شاهين . مكتبة وهبة . القاهرة .

(*) الإعراب بالحروف ١٦ د . عبد الكريم الزبيدى . دار البيانى العربى . جدة .

هذا ؛ وقد أشار أسلافنا القدماء إلى الثنائية وإن لم ينصوا عليها صراحة ، حيث بدءوا بها فى معجماتهم عند ترتيبها كالخليل فى كتابه (العين) وابن دريد فى (الجمهرة) والأزهرى فى (التهذيب) والقالى فى (البارع) وابن سيده فى (المحكم) .

وعلى مذهب (ثنائية) الأسماء الستة فلا مشكلة فى إعرابها ، ويكون الإعراب على الحرف الثانى ، وليست حروف العلة فيها سوى آثار لإشباع حركات الإعراب ، فقولك : جاء أبوك — فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على الباء والواو إشباع ، وقس على ذلك حالة النصب والجر فيها ، وهذا مذهب المازنى بناه على (ثنائية) هذه الأسماء[1] ، وهذا يذكرنا بما ورد فى النقوش النبطية من إشباع حركات الإعراب وذلك مثل : إضافة الياء إلى المضاف إليه فى الأسماء المركبة تركيب إضافة مثل (عبد اللهى) . وهذا يشبه ما جاء عن أزد السراة من قولهم : جاء زيدو ، ورأيت زيدا ، ومررت بزيدى ، فالواو والياء يمكن أن تكون دليل الإعراب فى تلك اللغة ، وفعلوا ذلك لحرصهم على بيان الإعراب ولا سيما عند الوقف[2] .

* * *

فإذا انتقلنا إلى التراث العربى وجدنا أنماطا كثيرة لتلك الأسماء الستة ومن ذلك :

١ — بأبه اقتدى عدى فى الكرم
ومن يشابه أبه فما ظلم
سوى أبك الأعلى وأن محمدا
علا كل عال يابن عم محمد

٢ — وحكى عن بعض العرب : هذا أباك ، ورأيت أباك ، ومررت بأباك . ومن ذلك :

إن أباها وأبا أباها
قد بلغا فى المجد غايتاها[3]

وما روى عن أبى حنيفة : لا ، ولو رماه بأباقبيس ويراها الأشمونى لغة صحيحة[4] .

«مكره أخاك لا بطل» وبعضهم رواه «أخوك» .

وكما حكى فى الأب من وجوه حكى كذلك فى الأخ[5] .

٣ — وحكى بعضهم التشديد : هذا أبّك[6] وهذه الصورة أقدم الصور ، ثم تحول صوت التضعيف فيما بعد إلى حرف مد :

---

(١) انظر الإنصاف ١ — ١٧ ، ٢٣
(٢) اللهجات العربية فى التراث : المستوى النحوى . د . أحمد علم الدين الجندى .
(٣) انظر أوضح المسالك لابن هشام رقم ٩ .
(٤) ١ — ٧١
(٥) الأشمونى ١ — ٧١ والهمع ١ — ٥٩
(٦) الهمع ١ — ٣٩ .

ألفا أو واوا أو ياء وهذا التحول فى اتجاه الثلاثى لتصبح الكلمة مماثلة لأكثر الكلمات العربية الثلاثية .

ويرى بعض علماء العربية أن تشديد : أب وأخ – عوض من لاميهما ، فإن أصلهما : أبو وأخو . جاء فى الجمهرة : أن بعض العرب يقولون : أخّ وأخّه ، وقال ابن مالك فى التسهيل : إن تشديد خاء (أخ) وباء (أب) لغة[1] .

٤ – لزومها الواو وذلك فى قراءة من قرأ : « تبت يدا أبولهب وتب[2] » وحكاه أبو معاذ[3] .

وفى الرسالة للإمام المطلبى[4] : أخبرنا سفيان عن سالم أبو النضر . . . أن رسول الله (ﷺ) قال : لا ألفين أحدكم . . . (الحديث) .

وفى أسفل الوثيقة التى أرسلها رسول الله (ﷺ) إلى بنى جنْبة وإلى أهل مقنا «وكتب على بن أبو طالب بخطه ورسول الله يملى عليه حرفا حرفا »[5] .

ولذا رجحت أن صيغة الواو لهجة قرشية[6] .

* * *

فإذا انتقلنا إلى الساميات والنقوش فى تلك الأسماء وجدنا ما يلى :

١ – ورد فى اللهجة الصفوية « بابه . أى : بأبيه . وباخه . أى : بأخيه[7] وورد فى اللهجة الصفوية كذلك «ابه . يعنى : أبوه ، وذلك فى النص : ورمى له ابه . أى : ورمى له أبوه[8]» وهذه تشبه حالة النقص فى العربية .

وفى نقش صفوى آخر عبارة « وندم على أخه وأخته » أى : وندم على أخيه وأخته . وفى نقش صفوى أيضا عبارة « لحلم ابن أب أنس ورمى[1]» فالأب والأخ وردا فى النقشين على حرفين مع كونهما مضافين . وهذا يؤكد مذهب الثنائية فيهما ، وهى تشبه حالة النقص فى العربية كذلك .

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى ١ – ١١٩ تحقيق : طه عبد الرءوف سعد .

(٢) انظر الكشاف .

(٣) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ١٨٢ . (٤) ص ٨٩

(٥) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى : المقدمة (كد) ط الثانية . د . محمد حميد الله الحيدر آبادى . لجنة التأليف والترجمة . القاهرة .

(٦) انظر : كتابنا : اللهجات العربية فى التراث . النظام النحوى

(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧ – ٢٣٤ د . جواد على . ط المجمع العراقى ١٣٧٦–١٩٥٧

(٨) المرجع السابق ٧ – ٢٤٣

٢ — وفى الفقرة ١٩٥ من قانون حمورابى (١٧٩٢ — ١٧٥٠ ق م) المدون باللغة البابلية القديمة يوجد فيه الإعراب كما هو فى اللغة العربية الفصحى وفيه imtaḫas Šummā matu abāšu بمعنى : إذا ضرب ابن أباه » نجد كلمة abāšu بمعنى : أباه — وهى فى حالة المفعولية منصوبة بالألف لأنها من الأسماء الخمسة كما فى العربية[٢] وإن كنت أرجح أنها منصوبة بفتحة طويلة .

٣ — أما العبرية فاستقر أمرها على :

אָבִיךָ (أبيك)

وعلى : אָחִיךָ (أخيك)

٤ — واستقرت السريانية على : أبوك وأخوك .

وكذلك الآرامية سلكت مسلك السريانية فى هاتين الكلمتين .

٥ — أما فى لهجاتنا الحديثة فلا نكاد نرى بها إلا صورة واحدة هى : أبوك وأخوك . كما تسقط الهمزة من (أبو) حيث يقال فى كنية القرد : بوزنه ، والأصل : أبوزنة ، وفى تونس والجزائر يقولون : بومدين ، بو تفليقة كما تنتشر فى الجزيرة العربية أسماء : بافضل ، باكلا ، حسن باجوده[٣] ، وهذه الظاهرة ، امتداد للهجات قديمة ، حتى ظنها بعض علمائنا القدامى من اللحن[٤] .

فى المثنى :

يقال : ثنى الشيء . أى : رد بعضه على بعض فتثنى وانثنى ويكون المعنى عبارة عن جزأين ، أعيد أو رد كل جزء إلى آخر ، ومن ذلك أيضا جاء (الثنيان) بضم الثاء للرجل الذى يلى السيد . والتثنية أو المثنى ظاهرة لغوية وجدت فى اللغات السامية وغيرها .

كما نجد التردد فى الأساليب العربية فى المثنى حتى زمن القرآن الكريم ، فلم تكن تراعى العربية المثنى من حيث نظام الجمل ، وربما يرجع عدم المراعاة من أن المثنى كان داخلا فى حيز الجمع أيضا ، ولهذا لم يكن ثابت القاعدة . انظر مثلا قوله تعالى :

١ — « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا[٥] » حيث قال : خروا . ولم يقل : خرا على التثنية .

---

(١) اللغة العربية فى عصور ماقبل الإسلام ١٢٨ . أحمد حسين شرف الدين .

(٢) فصول فى فقه العربية ٣٨٣ د . رمضان عبد التواب ط الثانية . الخانجى .

(٣) ويشتغل الآن رئيس قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

(٤) انظر بحوث ومقالات فى اللغة ٢٧٤ د . رمضان عبد التواب ، الناشر : الخانجى والرفاعى .

(٥) يوسف ١٠٠

٢ — « هذان خصمان اختصموا فى ربهم[١] »

٣ — « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما[٢] » .

٤ — « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين[٣] » .

كما شاع فى العربية الخطاب للمفرد بصيغة المثنى كما فى الشعر مثل قولهم (خليلىّ) و (قفا) و (افعلا ذلك) ومن ذلك قوله تعالى : « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد[٤] » وهو خطاب لمالك خازن[٥] النار .

* * *

فإذا رجعنا إلى النحو العربى وجدنا المثنى فيه يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء ، وبعضهم يرى أن الألف والياء دليل الإعراب وليست بإعراب ولا حروف إعراب[٦] . وعن ثعلب أن الألف فى المثنى بدل من ضمتين[٧] ، ويطول الخلاف بين علماء العربية فى هذا[٨] ، ثم ينشط تعليل النحاة وقياسهم فيعللون لرفع المثنى بالألف دون غيرها ، وهل كان الإعراب متأخرا فى نشأته عن علامة التثنية أم كان مصاحبا لها ؟

ويرى صاحب شرح الكافية أن الإعراب فى التثنية والجمع لم يكن مصاحبا لأصل التثنية والجمع ، بل دخل عليهما بعد ذلك « وعندما أدخلوا الإعراب على التثنية لما دعت الحاجة إليه أقروا الألف فى الرفع ؛ لأنها عماد التثنية وعلامتها الأصلية ، والرفع علامة العمد التى لاتستغنى الجمل عنها . . . فناسب لذلك أن تكون الألف التى هى علامة التثنية فى الأصل علامة الرفع أيضا . وبقى الجر والنصب ، وعلامة الجر الأصلية الياء التى تكون الكسرة بعضها فأعطى الجر علامته الأصلية وهى الياء ، واستغنوا عن الألف التى هى علامة التثنية بالفتحة التى هى بعضها ، فصارت الفتحة على ما قبل الياء علامة للتثنية . فالياء علامة الجر فهى إعراب ، أما علامة التثنية فهى الفتحة المختصرة من الألف . وبقى من الإعراب النصب وعلامته الأصلية الألف التى تكون الفتحة بعضها ، ولكنهم عندما أقروا الألف

---

(١) الحج ١٩ (٢) الحجرات ٩

(٣) فصلت ١١ وانظر : فقه اللغة المقارن د . إبراهيم السامرائى ٨٢ ط بيروت .

(٤) سورة ق ٢٤ (٥) فقه اللغة وسر العربية ٣٢٩ للثعالبى . مط : الحلبى ط ١٣٩٢ — ١٩٧٢

(٦) الإيضاح للزجاجى ١٣٠ ط ٣ تحقيق مازن المبارك ١٩٧٩ بيروت .

(٧) المرجع السابق ١٤١

(٨) انظر الإنصاف ١ — ٣٣ فما بعدها ، والكتاب ١٧ فما بعدها و٣ — ٣٨٥

فى الرفع ، لم تبق للنصب علامة ، فالحق بالمجرور ، وأعطوه علامته وهى الياء ، وبقيت الفتحة قبل الياء دليلا على التثنية .

والخلاصة : أن الألف فى المثنى علامة للتثنية وعلامة إعراب أيضا ، والياء فى النصب والجر إعراب والفتحة قبلها علامة للتثنية[1] »

* * *

فإذا انتقلنا إلى التراث العربى وجدنا فيه أنماطا مختلفة للمثنى ، ومن ذلك[2] :

شواهد لزوم الألف :

تزوّد منّا بين أذناه طعنةً
دعته إلى هابى التراب عقيم

طاروا علاهنّ فطرْ علاها
واشْدد بمثنى حقب حقواها[3]

أعرف منها الأنف والعينانا
ومنخرين أشبها ظبيانا[4]

فأطرق إطراق الشجاع ولو ترى
مساغاً لناباه الشجاع لصمما[5]

وقول أبى النجم العجلى :

قد بلغا فى المجد غايتاها[6]

ومن النثر :

حُل بعيراك وخذ ديناراك .

جلست بين يداه .

لا وتران فى ليلة[7] .

وفى القرآن :

قرأ ابن مسعود : « فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدان فيها[8] » سورة الحشر ١٧ : « فلما ترى الجمعان[9] . . . » وقراءة العامة : « فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى . . . »

: « وأما الغلام فكان أبواه مؤمنان[10] » .

: « إن هذان لساحران[11] » .

وأصحاب هذه اللغة : كنانة وبنو الحارث ابن كعب ، وبنو العنبر[12] وبنو الهُجَيْم ، وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وهمدان وفزارة وعذرة[13] .

---

(١) الإعراب بالحروف ٣٥ فما بعدها . د . عبد الكريم الزبيدى ، دار البيان العربى . جدة .
(٢) انظر : اللهجات العربية فى التراث : فى النظام النحوى . د . أحمد علم الدين الجندى .
(٣) خزانة البغدادى ٣ — ١٩٩ (٤) التصريح ١ — ٧٨
(٥) مقدمتان فى علوم القرآن ٢٢٧ (٦) الهمع ١—١٣٤ تحقيق سالم .
(٧) الهمع ١ — ٤٠ ط أولى . وانظر : اللهجات العربية فى التراث : فى النظام النحوى .
(٨) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ١٥٤ وانظر الكشاف للزمخشرى .
(٩) الشعراء ٦١ وعزاها عيسى بالرفع على تلك القراءة لتميم وانظر ابن خالويه ١٠٧
(١٠) البحر ٦ — ١٥٥ (١١) طه ٦٣ وانظر البحر المحيط ٦ — ٢٥٥
(١٢) وهما من تميم ، ولاحظ قراءة الرفع فى « فلما ترى الجمعان » وعزاها عيسى إلى : تميم .
(١٣) الهمع ١/١٣٣ تحقيق سالم وانظر : الإكليل ٨ — ١١٢ والبحر ٦ — ٢٥٥ :
وفى الطبعة الأولى للهمع توجد : مزاده . بدل : فزارة . ولاتوجد قبيلة عربية مسماة بهذا الاسم .

ومن العرب من يلزم المثنى الألف كما سبق ولكنهم يخالفونهم فى حركات النون ، حيث إن هؤلاء العرب يعربون المثنى بالحركات على النون ، من ذلك :

يا أبتـا أرّقـنى القِـذانُ
فالنـوم لا تطعمه العينانُ

وقال الشيبانى :

ضم نون التثنية لغة . قال أبو حيان : يعنى مع الألف لا مع الياء ، لأنها شبهت بألف غضبان وعثمان ، وقد حكى الشيبانى : هذان خليلانُ[1] :

والعرب استعملت الألف للدلالة فى جميع كلامها فقالوا : قاما وذهبا ، وأنتما وهما ، ولذلك كانت الألف أنسب من غيرها إلى أن تكون علامة للتثنية التى هى أول الجمع وأخف منه وأكثر استعمالا من الجمع السالم .

وأرجح أن لغة إلزام المثنى الألف فى الأحوال الثلاثة القادمة هى اللغة القدمى — وكانت قبل دخول الإعراب عليه، كما أن لزوم الياء والنون لغة أيضا، يؤيد هذا وجودها فى لغات سامية سنشير إليها ، كما أن هذه الياء والنون لغة كثير من العرب المعاصرين ، وربما كانت الياء فى المثنى لها صلة بإمالة الألف ، يقوى ذلك وقف حمزة والكسائى وخلف على : «كلتا الجنتين آتت أكلها : الكهف ٣٣» بإمالة الألف[2] .

وفى الإتحاف[3] : أمال الألف العراقيون قاطبة .

* * *

النون فى المثنى :

أما النون فى المثنى فألحقوها للدلالة على تمام اللفظ ؛ لأنها كالتنوين الذى يتمّ به الواحد وهى عوض من الحركة والتنوين اللذين يستحقهما الاسم فى الأصل ، ثم صارتا بعد من خصائص التثنية ، وقد اختلف العلماء فى هذه النون على مذاهب :

١ — لرفع توهم الإضافة ، وهو رأى ابن مالك .

٢ — عوض من حركة المفرد . وهو رأى الزجاج ، وردّه ابن مالك بأن الحروف نائبة عنها فلا حاجة إلى التعويض بالنون .

٣ — عوض من تنوين المفرد ، وعليه ابن كيسان .

٤ — عوض من الحركة والتنوين معا ، وعليه ابن ولاد :

---

(١) الهمع ١ — ١٦٠ سالم .
(٢) إرشاد المبتدى وتذكرة المفتى فى القراءات العشر ٤١٦ لأبى العز الواسطى . تحقيق : عمر الكبيسى . الفيصلية بمكة المكرمة
(٣) ص ٣٩٠

٥ — عوض من الحركة والتنوين فيما وجدا في مفرده. ومن الحركة فقط فيما لا تنوين في مفرده كمثنى ما لا ينصرف. ومن التنوين فقط فيما لا حركة في مفرده، كعصا.

٦ — فارقة بين رفع المثنى ونصب المفرد، لأنك إذا قلت: زيدا، يلتبس بالمفرد المنصوب حال الوقف، ثم حمل سائر التثنية والجمع على ذلك. وعليه الفراء.

٧ — أنها التنوين نفسه[1].

ويلاحظ أن النون في المثنى لم تحل محل المعوض عنه، وهو التنوين، إذ محل التنوين في المفردات يعتقب حرف الإعراب وهو الميم من (مسلم) وأما النون في المثنى فلم تكن بعدها، بل بعد علامة الإعراب، وهي الألف والياء في المثنى، وعليه فلم تقع النون موقع التنوين لوقوعها بعد علامة الإعراب فيه[2].

أما حركة النون في المثنى فالشائع فيها الكسر، وإنما حركت لالتقاء الساكنين، وفتحها لغة أسد، وقيل ذلك خاص بحالة الياء بخلاف حالة الرفع ومن أمثلة ذلك:

على أحوذيينَ استقلّت عشيةً
فما هي إلا لمحةٌ وتغيب

ويرى برجشتراس أن النون في المثنى: يدان أو يدين مكسورة، وربما كان أصلها yadāma فأبدلت الفتحة بالكسرة للمخالفة الصوتية[3].

وقال الشيباني ضم النون لغة. قال أبو حيان يعني مع الألف لا مع الياء[4].

وتحذف هذه النون للإضافة، وجوز الكسائي حذفها في غير ذلك كقوله:

أقـول لصـاحبي لمـا بدالي
معـالم منهمـا، وهما نجيـا

أي: نجيان وعليه يجوز: قام الزيدا — بغير نون. قال أبو حيان: ويشهد له ما سمع بيضك ثنتا، وبيضي مائتا[5].

* * *

فإذا انتقلنا إلى الدراسات السامية المقارنة في المثنى وجدنا:

١ — إن علامة التثنية في العربية[6] كما سبق (— ان) في الرفع و (ين) في النصب والجر:

---

(١) انظر الهمع ١ — ١٦٣ فما بعدها. سالم. (٢) التعويض وأثره في الدراسات النحوية واللغوية ١١٣ د. عبد الرحمن إسماعيل ط أولى (٣) التطور النحوي ١١١ نشره وعلق عليه د. رمضان عبد التواب.
(٤) الهمع ١ — ١٦٦ سالم وانظر شرح الكافية الشافية ١ — ١٩٩ تحقيق د. هريدي. دار المأمون.
(٥) الهمع ١ — ١٦٩ سالم.
(٦) تنتمي إلى المجموعة الجنوبية

٢ – وعلامتها فى الأوكريتية[١] مثل العربية Amai للمذكر فى الرفع و Emai فى حالتى النصب والجر(*) وتلازم هذه العلامة الكسرة فى نهايتها كنون التثنية التى تلازم الكسر فى العربية .

أما الحركة الإعرابية فتسبق العلامة وهى A فى الرفع و E فى النصب والجر ، وهنا أيضا تطابق العربية من حيث الإعراب .

أما علامة التثنية للمؤنث فهى Tamai فى الرفع و Temai فى النصب والجر .

ويلاحظ أن علامة التثنية فى الأوكريتية تشبه علامة التثنية فى العربية تماماً من جهة ، وأن Amai تقابل (ان) فى الرفع ،و Emai, تقابل (ين) فى النصب والجر مع استبدال النون العربية بالميم فى الأوكريتية .

٣ – وعلامتها فى العبرية[٢] –ايم فى جميع الأحوال

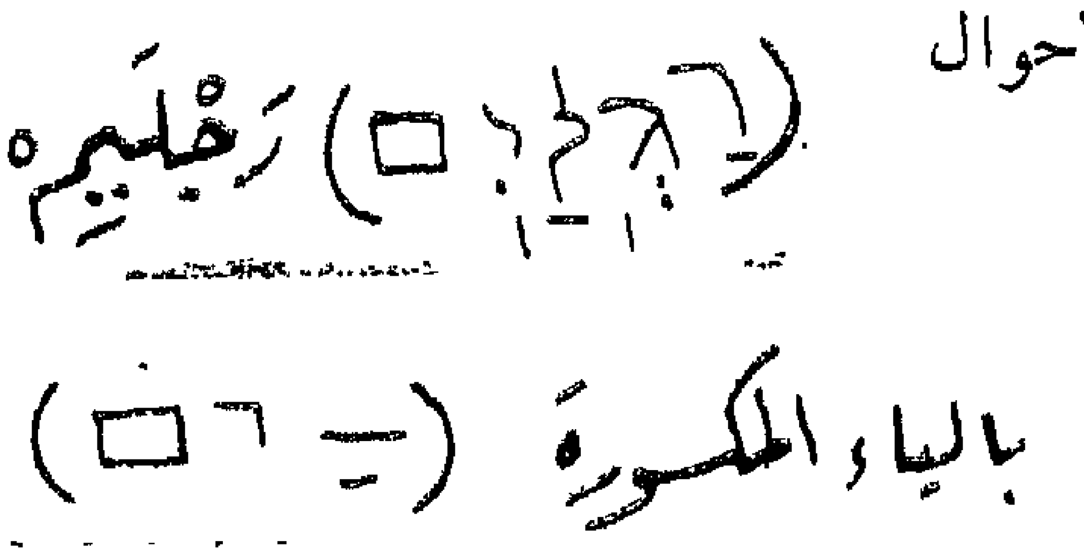

٤ – وفى الآرامية[٣] – EN

٥ – وفى الأكدية[٤] – AN فى الرفع و IN أو EN فى النصب والجر وبذلك جرت مجرى العربية فى إظهار الإعراب قبل النون مع إسكان ما بعدها .

وفى الفترات المتأخرة سقط حرف النون منهما كما ضعف التمييز بين حالات الإعراب فى المثنى الأكدى تدريجيا ؛حتى طغت : ين على : ان .

٦ – أما علامته فى المعينية[٥] فهى (ى) مثل : معليى ، وتعنى : عاليان .

٧ – وعلامته فى السبئية[٦] (ن) (آن) مثل : ثن نمرن وتعنى : اثنان نمران[٧] .

وكأن إعراب المثنى بالألف فى اللهجات العربية القديمة له جذور فى السبئية حيث يكون المثنى باضافة (ان) للاسم وهى مرحلة متأخرة[٨] .

٨ – وعلامته فى اللغة الثمودية (ىن)[٩]

---

(١) تنتمى إلى المجموعة الشمالية الغربية

(٢) تنتمى إلى المجموعة الشمالية الغربية

(٣) من المجموعة الشمالية الغربية

(٤) من المجموعة الشرقية ، وانظر : صيغ المجموع فى اللغة العربية . د . باكيزة رفيق حلمى .

(*) Moscati and Others,P.q3.

(٥) لغة جنوبية عربية قديمة

(٦) جنوبية عربية قديمة

(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٧ / ١٠٨

(٨) المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية ١٣ غويدى .

(٩) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٧ / ٢١٢

٩ — وفى اللحيانية[١] ai (اى) فى حالة الجر والإضافة ، و (اين) و (و) فى حالة الرفع ، وتلحق هذه العلامات آخر الاسم . ومن أمثلة المثنى : قهرى : ومعناها : القاهرين .

١٠ — وفى اللهجات العربية المعاصرة يلزم المعنى الياء فى أية حالة إعرابية ، وشأنه ، فى ذلك شأن العبرية ، كما تظهر[٢] : الواو والنون ملحقة بالمثنى فى البابلية الحديثة مما يدل على وجود خلط بين جمع المذكر والمثنى ، على حين وجدت لاحقة المثنى فى اللغة البابلية التى خلفها حمورابى تشبه اللغة العربية الفصيحة[٣] .

١١ — وفى عربيةالنقوش أو العربية البائدة نجد فى نقش النمارة الذى عثر عليه بالشام ، وكتب شاهداً على قبر امرئ القيس بن عمرو وأرخ بشهر كسلول (تشرين الثانى — كانون الأول) من سنة ٢٢٣ من تاريخ بُصرى أى سنة ٣٢٨ للميلاد وفى السطر الثانى نجد (الأسدين) وهى مثناة مفعول به منصوب بالياء . والأسْد (الأزْد) قسمان : أزد شنوءة وأزد السراة فى الغرب ، وأزْد عمان فى الشرق[٤] .

جمع المذكر السالم

قال الزجاجى « ومن الجموع ما جاء على حد التثنية وهو أن تضم أسماء بعضها إلى بعض ، متفقة الألفاظ ، فيزاد فى آخر واحد منها علامة الجمع فيعلم أن الجماعة كقولنا : الزيدون والعمرون . . وجعل هذا اللفظ لما بعد الاثنين فاشترك فيه القليل والكثير ، وربما اقتصروا به على ما دون العشرة وربما جاوز ذلك »[٥] .

ونرى أن إعراب الجمع هذا مر بأدوار تطورية ، وكل مرحلة لها ظروفها وصيغها التى تتلاءم معها ، ونلمس هذا التطور من خلال خلافات النحاة حول إعرابه . أيعرب بالحروف كما رآه قطرب والزجاج وغيرهما أم يعرب بحركات مقدرة على ما قبل هذه الحروف كما رآه الأخفش أم يعرب بحركات مقدرة على الحروف نفسها[٦] ، وإذا كان

(١) هى لغة شمالية عربية وانظر المرجع السابق ٧ / ١٦٣ . وانظر بحثا عنوانه « اللغة العربية » د . فؤاد حسنين — نشر بمجلة معهد البحوث والدراسات العربية عدد ٤

(٢) Grundriss der Akkadichen Grammatik, Wolfram. Von Soden, Rome, 1957

(٣) من مقال للأستاذ إدوار دروم فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٢ / ١٨٩ . بعنوان « اللغة العربية الفصحى ولغة حمورابى » .

(٤) الكتابة العربية والسامية ١٣١ د. رمزى بعلبكى .

(٥) الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ١٢٨ تحقيق د . مازن المبارك . ط ٣ بيروت .

(٦) الهمع ١٦١ فما بعدها تحقيق د . عبد العال سالم .

النحاة يشترطون فيه أن يكون لعاقل[1] ، فإن شيوعه فى أصول غير عاقلة يشير إلى بدء مرحلة استعمال هذا الجمع ، فقد جمعت ألفاظ العقود من العدد على هذا الجمع ، وهناك ألفاظ ألحقها النحويون به وهى : أرضون ، وابلون ، أهلون عالمون ، وجاء منه كلمات ذات أصول ثنائية مثل: بنون ، قلون ، سنون . عضون[2] .

وما ألحق بجمع المذكر السالم يعرب بالواو رفعا وبالياء جرا أو نصبا على لغة الحجازيين وعليا قيس ، والتميميون يجعلون الإعراب السابق بالحركات على النون الأخيرة ، كما يلتزمون الياء فى جميع الأحوال رفعاً ونصبا[*] وجرا ، فان نونت النون كانت لغة بنى عامر ، وإذا تنون فهى لغة عتيم[3] .

وفى الجمع لغات أخرى غير ما تقدم :

(أ) أن يجعل كغسلين فى التزام الياء وجعل الإعراب فى النون مصروفا .

(ب) أن يجعل كهرون فى التزام الواو وجعل الإعراب على النون غير مصروف للعلمية وشبه العجمة .

(ج) التزام الواو وفتح النون مطلقا[4] وقد ساق علماء العربية شواهد من التراث نظما ونثرا شمل تلك الحالات كما نجد شواهد كثيرة من القرآن : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابؤن والنصارى» فقد عزى الجمع بالواو على كل حال كما هنا وهى لغة بلحارث بن كعب[5] . غير أن النحاة يتأولون ذلك ويقولون : حقه أن ينصب[6] .

أما حركة النون فى الجمع وما ألحق به :

فهى مفتوحة فى الفصحى ، وأحيانا مكسورة ، فقيل لغة وقيل ضرورة وقيل ذلك خاص بحالة الياء بخلاف حالة الرفع ، وقد ورد فى التراث شواهد[7] لذلك .

وتحذف النون للإضافة ، وقد تحذف فى غير ذلك ، وخرج عليها فى القرآن :

« والمقيمى الصلاة » بالنصب (الحج ٣٥) « غير معجزى الله» بالنصب التوبة ٣ (« وقراءة الأعمش » وما هم بضارى به » البقرة ١٠٢) أى : بضارين . « لذائقوا العذاب » بالنصب (الصافات ٣٨) .

---

(١) شرح الكافية الشافية ١ / ١٩١

(٢) الهمع ١ / ١٥٥ فما بعدها . تحقيق د . عبد العال سالم .

(٣) التصريح ١ / ٧٦ فما بعدها ، وأنظر كتابنا : اللهجات العربية فى التراث المستوى النحوى .

(٤) شرح الكافية الشافية ١–١٩٤ فما بعدها (٥) التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى ٢٥٤ تحقيق البجاوى .

(٦) مجاز القرآن ١ / ١٧٢ لأبى عبيدة (٧) المرجع السابق ١/٢٠٠ ، وشرح التسهيل لابن عقيل ١/٤٥

* ولعل لذلك صلة بميلهم نحو الإمالة ، ولهجتنا فى مصر تلتزم الياء فى جمع المذكر وما ألحق به فهى تشبه فى هذا لهجة تميم .

كما حذفت لغير إضافة فى الشعر مثل :

ولسنا إذا تأبون سلما بمذعنى ،
لكم غير أنا إن نسالم نُسالِم

أى بمذعنين[1] .

وقول الآخر :

لو كنتم منجدى حين استعنتكم
لم يقدموا ساعداً منى ولا عضدا[2]

* * *

فإذا انتقلنا إلى علم المقارنات السامية فى جمع المذكر وجدنا :

١ ـ فى العربية ون : فى الرفع ون ـ ين فى النصب والجر .

٢ ـ فى الأوكريتية[3] : وهى أقرب اللغات السامية إلى العربية ، إذ إن علامة جمع المذكر السالم فيها wma أو ـ ومَ فى الرفع و ـ Ima أو ـ يمَ فى النصب والجر مع استبدال النون العربية بالميم .

ووجه الشبه بين اللغتين :

(أ) علامة الإعراب فى العربية تسبق علامة الجمع وهى : الواو فى الرفع والياء فى النصب والجر .

(ب) نهاية علامة الجمع تلازم الفتح فى العربية كما تلازمها فى الأوكريتية .

(ج) علامة الجمع تكون على صورتين إحداهما بالواو للرفع والأخرى بالياء للنصب والجر .

(د) تشير علامة الجمع (م) فى الأوكريتية إلى شبيهتها فى العبرية التى تكون (يم) فى جميع الأحوال .

٣ ـ أما الأكدية[4] والآشورية فعلامة جمع المذكر على صورتين :

(أ) Anw للرفع وتقابل ـ ون العربية ، إلا أن الأكدية تظهر حركات الإعراب على آخر النون وتلازم ما قبلها الفتح ، أما العربية فبالعكس .

(ب) Ani للنصب والجر ، وتقابل ـ ين العربية مع إظهار الحركة على آخر النون ولزوم ما قبلها الفتح بعكس العربية ، وأحيانا نجد الواو علامة الحالات الثلاث فى الأكدية القديمة والوسطى .

(ج) وفى البابلية : الواو والنون رفعا والياء نصبا وجرا[5] ومعنى ذلك أن اللغتين البابلية والعربية تشتركان فى أدق وأقدم الظواهر السامية مثل التثنية والجمع .

٤ ـ أما فى الآرامية والسريانية ففى جمع المذكر تكون in أى بالياء قبلها وتشبه فى ذلك

---

(١) شرح التسهيل لابن عقيل ١ / ٤٦ (٢) الهمع ١ / ١٦٩ تحقيق عبد العال سالم .

(٣) انظر صيغ الجموع فى اللغة العربية مع بعض المقارنات السامية . د . باكيزة رفيق حلمى . ط الأديب البغدادية ١٩٧٢

(٤) فى قواعد الأكادية انظر : فون سودن : روما ١٩٥٢ م .
Grundriss der akkadischen Grammatik. W. Von Soden.

(٥) مجلة مجمع اللغة العربية ١٢ / ١٨٩ ـ ١٩٠

العبرية مع استبدال الميم العبرية بالنون وسكون الآخر، شأن بعض اللغات السامية وبعض اللهجات العربية المعاصرة، حيث لا تستخدم حالة الرفع، وربما يرجع ذلك إلى سهولة صوت الكسرة عن الضمة، وتحذف النون في حالة التركيب، ولدينا آثار من الجمع بالياء والنون في أسماء الأماكن الآرامية.

٥ – أما في الحبشية فعلامة الجمع AN وهي تلازم حالة واحدة وربما كانت هذه الألف أقرب إلى الواو أو ه في مرحلة ما ثم تطورت إلى الألف وهي تقابل IN في الآرامية و ـــيـ ים في العبرية ووـــون و ـــين في العربية.

٦ – وفي العبرية يضاف (يم) إلى نهاية المفرد المذكر. ولدينا جموع عبرية بالياء والنون وردت في أسفار العهد القديم المتأخرة وفي نصوص شعرية[1].

٧ – وفي السبئية[2] يلحق آخر الاسم (ن) ويرجح غويدي أن تكون حركاته موافقة لحركات نون الجمع العربي أي (ون) في الرفع و (ين) في النصب والجر.

٨ – وفي اللحيانية والثمودية والصفوية[3] نجد علامة جمع المذكر فيها um و IN وهي في ذلك كالعربية تماما. وأحيانا نرى العلامة Ay كنهاية للجمع. ونون الجمع تسقط فيها للإضافة ويقول بعض الباحثين[4]: إننا لانستطيع تعيين حركة النون لعدم وجود الشكل والعلامات التي تعين الحركة داخل الكلمة فلاندري أكانوا ينطقون بها: ون un أو ين in أم كانوا ينطقون به بصورة واحدة؟.

ومثاله: أصدقن – وتعني: أصدقون أو أصدقين – جمع أصدق.

٩ – كما يختم المذكر السالم بالميم عند العرب الجنوبيين مثل (حميرم) يعني: الحميريون و (أزدم) يعني: الأزديون[5].

١٠ – وفي نقش جاهلي قديم وهو (النمارة)[6] يوجد في السطر الثالث (ونزل بنيه) وهو ملحق بجمع المذكر السالم، مفعول به منصوب بالياء، كما يلاحظ حذف النون من المضاف والأصل: بنينه، فلما حذفت النون صارت (بنيه) وتلك قاعدة هامة في العربية الفصحى أيضا.

---

(١) فقه اللغة المقارن ١٤٤ د. إبراهيم السامرائي بيروت ط ٢ – ١٩٧٨

(٢) المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ١٣. أغناطيوس غويدي. القاهرة ١٩٣٠ م

(٣) وهي لغات عربية شمالية بائدة.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧ / ١٦٤ جواد علي.

(٥) لهجات اليمن قديما وحديثا: ص ١٧ لأحمد حسين شرف الدين ١٩٧٠ / ط الجبلاوي

(٦) انظر: تاريخ اللغات السامية ١٩٣ ولفنون، وتاريخ الأدب ٥٩ – ٦٠ حفني ناصف، القاهرة والتاريخ العربي القديم، لهومل وآخرين، ترجمه د. فؤاد حسانين. القاهرة ١٩٥٨. والكتابة العربية والسامية ١٣٨ د. رمزي بعلبكي وسترى في هذا الكتاب الأخير قراءات أخرى لهذا النص.

الأفعال الخمسة

فى العربية ترفع بالنون ، وتنصب وتجزم بحذفها ، وحمل النصب على الجزم ، كما حمل على الجر فى المثنى والجمع ، هذا مذهب الجمهور .

وقيل : إن الإعراب بالألف والواو والياء كما أنها فى المثنى والجمع السالم كذلك .

ورده صاحب البسيط بأنه لو كان كذلك لثبتت النون فى الأحوال الثلاثة .

وقيل : الإعراب بحركات مقدرة قبل الثلاثة والنون دليل عليها ، وعليه الأخفش والسهيلى .

ورده ابن مالك بعدم الحاجة إلى ذلك مع صلاحية النون له .

وقيل : إنها معربة ، ولا حرف إعراب فيها ، وعليه الفارسى قال : لأنه لا جائز أن يكون حرف الإعراب النون ، لسقوطها للعامل ، وهى حرف صحيح ، ولا الضمير لأنه الفاعل ، ولأنه ليس فى آخر الكلمة ولا ما قبله من اللامات لملازمتها لحركة ما بعدها من الضمائر من ضم وفتح وكسر ، وحرف الإعراب لا يلزم الحركة ، فلم يبق إلا أن تكون معربة ، ولا حرف إعراب فيها [1] .

ويرى بعض الباحثين أن النون فى (يفعلان) وما على مثالها ، للحفاظ على علم التثنية والجمع والتأنيث ، فلو حذفت النون لتعرض ذلك كله للحذف أو التغيير ، فتضيع الدلالة عليه ، فالنون إذن فى هذه الأفعال الخمسة إنما هى لوقاية الألف والواو والياء من الحذف أو التقصير لا للدلالة على أنها معربة مرفوعة ، والعربية حريصة على إظهار النوع والعدد ، ولهذا جاءت بالنون لإشباع الألف والواو والياء ، ففى إعراب هذه الأفعال يكتفى بالإشارة إلى ما لفاعله من صفة العدد أو النوع . أما الزمان فيشار إليه (بلم وأن)[*] .

النون فى الأفعال الخمسة :

ورد حذف النون حالة الرفع فى النثر والنظم :

١ ــ قرىء : « قالوا ساحران يظّاهرا » القصص ٤٨ [2] .

٢ ــ قال « أتحاجونى فى الله » الأنعام ٨٠ ، وذهب سيبويه أن المحذوف نون الرفع [3]

---

(١) الهمع ١ / ١٧٦ تحقيق د . سالم وانظر : الإنصاف ١ / ٣٩

(٢) وانظر حاشية الصبان ١ / ٩٧

(٣) الكتاب ٣ / ٩٩ والكافية الشافية ١ / ٢٠٨

(*) فى النحو العربى ١٣٧ د . مهدى المخزومى . بيروت ١٩٦٤ .

وقد عزيت هذه اللهجة إلى قبيلة غطفان[1].

٣ — وفى الصحيح: لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولاتؤمنوا حتى تحابوا »[2].

والأصل: لاتدخلون ولا تؤمنون، لأن لا: نافية.

٤ — أبيت أسرى وتبيتى تدلكى
وجهك بالعنبر والمسك الذكى[3]

والأصل: تبيتين وتدلكين — فحذف النونين دون ناصب أو جازم.

٥ — فإن يك قوم سرهم ما صنعتم
سيحتلبوها لاقحاً غير باهل

فحذف النون

وعندى أن حذف النون فى الأصل يدل على أن الفعل لم يتم أو لم ينفذ، بعكس بقاء النون فيه والذى يدل على تنفيذه الفعل وتمامه.

كما ورد إثبات النون فى حالة النصب فى النثر والنظم:

١ — فى الحديث: « قلت يارسول الله — إنى امرأة أشد ضَفر رأسى، أفأنقضه لغُسل الجنابة؟ قال: لا، إنما يكفيك أن تحثين على رأسك ثلاث حثيات من ماء ثم تفيضين على سائر جسدك ».

فالمضارع مرفوع بعد أن المصدرية فى مكانين من هذا الحديث.

٢ — أن تقرآن على أسماء ويحكما
منى السلام وأن لا تشعرا أحدا

٣ — إنى زعيم يانويقة إن نجوت من الرزاح
أن تهبطين بلاد قوم يرتعون من الطلاح

٤ — إذا كان أمر الناس عند عجوزهم
فلا بد أن يلقون كل يباب

٥ — ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كبدا ليست بذات قروح
أبى الناس ويح الناس أن يشترونها
ومن يشترى ذاعلة بصحيح[4]

ويذهب الزمخشرى إلى أن الرفع بعد (أن) المصدرية لغة[5].

---

(١) البحر ٤ / ١٦٩. وانظر كتب القراءات فى « فبم تبشرون » الحجر آية ٥٤ وفى « تأمرونى » سورة الزمر ٦٤ وانظر المنصف ٢ / ٣٣٨ حيث يرى أن المحذوف هى نون الرفع. وانظر ابن يعيش ٣ / ٩١ وشواهد التوضيح والتصحيح لابن مالك فى حذف نون الرفع لمجرد التخفيف ١٧٠ ومغنى اللبيب ٢ / ٣٤٤ لابن هشام. تحقيق الشيخ محيي الدين

(٢) أخرجه مسلم فى باب الإيمان ٩٤ وانظر أحاديث أخرى فى شواهد التوضيح ١٧١

(٣) الهمع ١ / ١٧٦ والكافية الشافية ١ / ٢١٠

(٤) انظر كتابنا: اللهجات العربية فى التراث: القسم الثالث (فى النظام النحوى).

(٥) خزانة الأدب ٣ / ٥٦٠ للبغدادى ط بولاق.

حركة النون :

الأصل في هذه النون السكون . وإنما حركت لالتقاء الساكنين . فكسرت بعد الألف على أصله وفتحت بعد الواو والياء طلبا للخفه ، لاستثقال الكسر بعدها ، وقيل تشبيها للأول بالمثنى والثانى بالجمع.

وقد تفتح بعد الألف أيضا، قرئ : «أتعدانَنى أن أخرج[1] » بفتح النون ، وقرأ بها عبد الوارث عن أبي عمرو[2] ، وقال العكبرى هى لغة شاذة ، وحسنت هنا لكثرة الكسرات[3] وفى إعراب النحاس[4] : وفتح هذه النون لحن .

وقد تضم وقرىء : « طعام ترزقانُه » بضم النون[5] .

* * *

فإذا انتقلنا إلى المقارنات السامية :

١ — فى السريانية قد استقرت على صيغة واحدة ، حيث تنتهى بالنون : تقتلون ، وتقتلين .

٢ — كما استقر الأمر فى العبرية على صيغة أخرى ، حيث كانت بغير النون[6] :

תִּקְטְלוּ (تِقْتُلوا)،

תִּקְטֹלְנָה (تِقْتُلي)

وفى القتبانية نجد الفعل المضارع المسند إلى جماعة الذكور الغائبين نجده : يفعلو (يقتلو) ويضاف إلى آخره النون فيكون : يفعلن . يفعلون (يقتلن) (يقتلون) [7] .

وقد اشتملت بعض نصوص التوراة على عدة أمثلة وردت فيها النون ، واعتبرت من بقايا مراحل قديمة ، فإذا نظرنا إلى كتابنا الكريم وجدنا الآيات الآتية :

(ا) «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق[8]

قرأ ابن مسعود : « وتكتمون » [9] .

(ب) « فإذن لا يؤتون الناس نقيرا »[10] قرأ ابن مسعود وابن عباس وأبي : لا يؤتوا »[11].

---

(١) الأحقاف ١٧

(٢) مختصر شواذ القراءات ١٣٩ لابن خالويه .

(٣) إملاء ما من به الرحمن ٢ / ٢٣٤ للعكبرى .

(٤) ٣ / ١٥٢

(٥) الهمع ١ / ١٧٧ تحقيق د . سالم .

(٦) من أسرار اللغة ٢٧٣ د . إبراهيم أمين ط السادسة .

(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧ / ٩٧ د . جواد على .

(٨) البقرة ٤٢ (٩) البحر ١ / ١٨٠ (١٠) النساء ٥٣

(١١) مختصر شواذ القرآن ٢٧ لابن خالويه ، والبحر ٣ / ٢٧٣ ومعانى الفراء ١ / ٢٧٣ وتفسير الرازى ٣١ / ٢٥٣

(ج) : « وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلا »(١)
وفى قراءة ابن مسعود وأُبى « لا يلبثوا »(٢).

(د) : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون(٣) إلا الله » وفى قراءة أُبى وابن مسعود « لا تعبدوا »(٤) على النهى. قال الفراء وجماعة : المعنى — أخذنا ميثاقهم بألا يعبدوا إلا الله وبأن يحسنوا للوالدين ، وبألا يسفكوا الدماء . ثم حذف : أن والباء فارتفع الفعل لزوالهما .

قال المبرد : هذا خطأ ، لأن كل ما أضمر فى العربية فهو يعمل عمله مظهرا .

وقال القرطبى : ليس هذا بخطأ ، بلى هما وجهان صحيحان وعليهما أنشد سيبويه :

ألا أيها ذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

بالنصب والرفع فالنصب على إضمار (أن) والرفع على حذفها(٥) .

(هـ) : « وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم »(٦)

« لاتسفكون » مثل « لا تعبدون » فى فى الآية السابقة .

وبعد هذه المقارنات بين العربية وأخواتها الساميات فى لاحقة المثنى والجمع يظهر :

١ — أن نهايات المثنى فى الساميات كانت مكونة من حركة طويلة أو مركبة + يم فى العبرية . أو نون فى سائر اللغات السامية الأخرى وتسقط الميم أو النون فى الإضافة ، وتكون ساكنة فى اللغات السامية باستثناء العربية الشمالية حيث تكون مكسورة أو مفتوحة أو مضمومة نادرا .

وقد تكون الحركة السابقة للميم أو النون مركبة كما فى العبرية

والعربية ين (للنصب والجر) وقد تكون طويلة كما فى العربية الشمالية تان (للرفع) والأكادية an للرفع . ولا يعرب المثنى إلا فى العربية الشمالية والأكادية حيث تستعمل نهايتان إحداهما للرفع والأخرى للنصب والجر .

---

(١) الإسراء ٧٦
(٢) البحر ٦ / ٦٦ ومختصر شواذ القرآن ٢٧ لابن خالويه ، والكشاف ٢ / ٤٦٢ ، وتفسير الرازى ٢١ / ٢٤ وانظر : شرح الكافية ٢ / ٢٣٨ وشرح التصريح ٢ / ٢٣٥
(٣) البقرة ٨٣
(٤) مختصر شواذ القرآن ٧ والبحر ١ / ٢٨٢ والكشاف ١ / ٧٩ ومعانى الفراء ١ / ٤٩ وتفسير الرازى ١ — ٤٠٥
(٥) تفسير القرطبى (سورة البقرة) . (٦) البقرة : ٨٤

٢ — كما تختلف نهايات الجمع السالم فى الساميات ،وهى مكونة من حركة طويلة + ميم فى العبرية ونون فى سائر الساميات الأخرى . وفى الأكدية تستعمل الحركة الطويلة نهاية للجمع (ū للرفع و Ī للنصب والجر) ويعرب هذا الجمع فى العربية الشمالية والأكدية حيث تستعمل نهاية للرفع وأخرى للنصب والجر .

٣ — كما وضحنا فيما سبق آراء علماء العربية فى علامة المثنى والجمع ، وإعرابهما ، وفى النون اللاحقة بكل منهما . وكما اختلف علماء العربية فيما سبق،اختلف المستشرقون كذلك حيث ذهب بعضهم أن عنصر الجمع السالم هو مد حركة إعراب المفرد ، وبذلك نشأت فى اللغات السامية النهايات ūn و in و ān التى استعملت كنهايات للمثنى وجمع المذكر السالم دون مراعاة للحالة الإعرابية التى تدل عليها حركة المفرد . وذهب نفر منهم إلى أن النهايات الأصلية للمثنى والجمع السالم كانت ā للمثنى المرفوع و ū للجمع المرفوع و i للجمع المنصوب أو المجرور و ai للمثنى المنصوب والمجرور . كما حاول بعضهم تفسير اختلاف دلالات النهاية ām فى الساميات ، فهى تكون نهاية للمثنى فى العربية الشمالية والأكدية ، ونهاية لجمع المذكر السالم فى الحبشية كما ذهب بعضهم أنها كانت فى الأصل نهاية عامة للجمع ،غير مرتبطة بالجنس[1] .

كما ذهب بعض الباحثين « أن أصل هذه اللواحق كانت كلمات قائمة بنفسها ثم تحولت إلى آلات نحوية بتحويل الكلمات المليئة إلى كلمات فارغة ، فالأدوات النحوية التى تستعملها اللغات ليست إلا بقايا من كلمات مستقلة قديمة ، أفرغت من معناها الحقيقى ، واستعملت مجرد موضحات ، أى مجرد رموز[2] » والحقيقة أن هذه اللواحق ماهى إلا رموز للتثنية أو الجمع وليست فارغة من الدلالة كما يتصور ، بل استعملت كدلالات صوتية نستدل من خلالها على فهم الباب النحوى وتحديده .

ويرى نفر من العلماء أن هذه الزيادات واللواحق — إنما هى اعتباطية وغيرمنضبطة. والحقيقة أنها لم تكن اعتباطية ولا عشوائية ، وإنما بدأت غير مستقرة وقلقة ثم سارت رويدا رويدا نحو الاستقرار ، وأصبح لها مقاصد وأهداف .

ويرى بروكلمان أن نهايات المثنى والجمع السالم متطورة عن نهايات أسماء المعنى مثل

---

(١) اقتبست هذا من : التثنية والجمع فى اللغة العربية : فاروق جودى . رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ١٩٦٥ كلية الآداب . جامعة القاهرة .

(٢) التطور اللغوى ٩٧ د . رمضان عبد التواب . ط الخانجى والرفاعى .

جموع التكسير ومما هو جدير بالذكر أن علامات جمع التصحيح جرت مجرى نهايات الضمائر وأسماء العدد ، فالعربية تجمع الضمائر بالنون تارة والميم أخرى مثل : نحن ، أنتن ، هن ، وهى تدل على الجمع وتختلف عن المفرد بزيادة النون ، أما ضمائر الغائبين والمخاطبين فهى : هم ، وأنتم ، وهما بالميم بدل النون ، كما أن ضمائر التثنية : هما . وأنتما بالميم ، ومعنى ذلك أن العربية تجمع بين العلامتين : النون والميم فى استعمالها للدلالة على التثنية والجمع .

أما العبرية فيغلب فيها استعمال الميم للدلالة على التثنية والجمع ،بعكس الآرامية التى يغلب فيها النون . فاللغات التى تستعمل الميم فى الضمائر للدلالة على الجمع تستعملها فى جمع الأسماء أيضا كما أن اللغات التى تستعمل النون للدلالة على الجمع فى الضمائر تستعملها أيضا فى جمع الأسماء . وقس على ذلك صيغ العقود وألفاظ العدد[1] .

أما الميم والنون فى نهايات المثنى والجمع السالم ، فهى نون (التنوين) وميم (التمييم) ولكن أيهما أقدم ؟ فبعضهم يرى أن الميم هى الأصل وأن النون متطورة عنها ، وآخرون من المستشرقين يرون أن النون هى الأقدم ، كما يرى فريق آخر أنهما نشأتا معاً فى اللغات السامية ، دون أن تتطور إحداهما عن الأخرى ، والعلاقة الصوتية قوية بين الميم والنون كما أن الميم تؤدى وظيفة النون فى اللهجات الجنوبية ، كما نجد الميم فى نهايات الجموع المذكرة والمثنى فى الأوكريتية .

وقد بقيت فى العربية بقايا من التمييم عوملت الميم فيها معاملة الحرف الأصيل بعد أن بعد العهد باستعمالها القديم مثل : شدقم . شهرم . ابنم . شجعم . حلقوم . زنيم . زرقم . خضرم . بلعوم . ومعروف كذلك قلب الميم نونا فى العربية مثل : دخشم ودخشن ، بنان وبنام[2] ، وفى اللهجة اللبنانية الحديثة يقولون : كتابكن كتابكم ، فميم الجمع أصبحت نونا .

* * *

وفى النهاية :

ففى ما سبق من المقارنات بين العربية والساميات مايؤكد أن هذه اللغات مرت بأدوار تطورية ، وكل دورمنها يختلف عما قبله ، وظهر هذا فى لواحق المثنى والجمع والأسماء الستة والأفعال الخمسة ،

---

(١) الجموع فى اللغة العربية ٢٣٩ ، ٢٥٤ د . باكيزة حلمى

(٢) زيادة الميم فى بعض كلمات اللغة. الشيخ عبد القادر المغربى (مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق م ٣ ج ٣ سنة ١٩٢٣) .

وبعض الأدوار فيها أسرع وبعضها الآخر تلكأ أو جمد لظروف اجتماعية أو غيرها ، كما أن الإعراب بالحروف لم يوجد دفعة واحدة ، بل تطور فى أدوار ، فوجد الألف أو الواو أو الياء ، ثم بعد فترة وجدت النون ، ودليل ذلك :

١ – هما خطتا اما إسار ومنّة
وإما دمٌ والقتل بالحر أجدر

٢ – خليليّ ماإن أنتما الصادقا هوىً
إذا خفتما فيه عذولا وواشيا

فقد أجهد النحاة أنفسهم فى التخريج والتأويل ، وأن النون حذفت للإضافة المقدرة فى الشاهد الأول ، كما حذفت النون فى الشاهد الثانى للاقتصار ، والحقيقة أن هذه الحالة كانت طريقة الأداء الأولى فى التعبير بالمثنى ، وبعض النحاة لمس هذه الحقيقة عندما رأى أن حذف النون جاء على لغة بعض القبائل لغير مايستدعى حذفها ؛ كالإضافة فعدم وجود النون كان مرحلة من المراحل فى المثنى لم يتنبه له بعض النحاة .

كما لا شك فيه أن الإعراب بالحركات كان أولا ثم تطور إلى الإعراب بالحروف ، ثم مر دور اجتمع فيه الإعراب بالحركات مع الإعراب بالحروف ، ومن ذلك ما روى عن السيدة فاطمة رضى الله عنها : ياحسنانُ وياحسينانُ ، وهى ولاشك لغة بعض القبائل .

ومن التطور فى ملحق الجمع السالم تستطيع أن تأخذ شاهدا واحدا من التراث لتجد فيه خلافات القبائل العربية[1] وموقف النحاة منها ورصد مظاهر هذا التطور ، وتحديد موقعه الزمنى أمر نافع فى إعادة بناء النحو وتخليصه من ذيول الخلاف وتعدد الوجوه ، ويمكن أن تدرس هذه الشواهد على هدى من طفولة اللغة ونضوجها ، على أن الساميات ومنها العربية لم تلتزم بنظام علامات الإعراب من حركات وحروف إلا فى مرحلة نضجها أما فى مراحلها الأولى فكانت غير منضبطة[2] تماما ، يؤكد ذلك ما يفترضه Wright من أن التثنية كانت تقسم بإلحاق واو ونون فى حالة الرفع وألف ونون فى حالة النصب وياء ونون فى حالة الجر ، وأن هذه العلامات تقلصت إلى الاثنتين المعروفتين[3] .

---

(١) انظر : شواهد : سنين – وما ورد فيها من الإعراب فى : معانى الفراء ٢ / ٩٢ و البحر ٥ / ٤٥٦ والهمع ١ / ١٥٩ تحقيق سالم . وشرح التصريح ١ / ٧٦

(٢) اللغة والنحو ٥٧ د . حسن عون . ط أولى

(٣) Lecture on the Comparative Grammar of the Semitic Languages P. H 9.

ويمكن أن نفترض إلزام المثنى الألف فى الحالات كلها على لغة بالحارث بن كعب تقلصا آخر (*) .

ومن هذا مانجده فى الأعداد من (٢٠ — ٩٠) فالأصل فى لفظ عشرين وهو ملحق بالجمع السالم — أن يكون مثنى ، وذلك لأن العشرين ضعف العشرة ، لكن صيغة المثنى هذه لم تثبت أمام صيغة الجمع التى نجدها فى ثلاثين وما بعدها حتى تسعين وتلاشت صيغة المثنى وحلت محلها صيغة الجمع ، وشأن العربية فى هذه الظاهرة شأن العبرية

والآرامية مثل 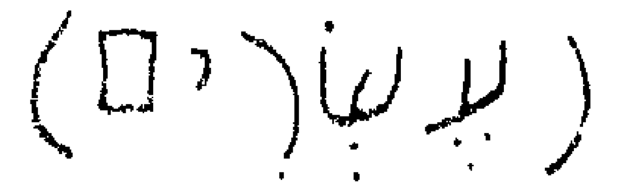

(عِشْريم) وفى الآرامية : عسرين لكننا نجد العكس فى كل من الحبشية والأكادية إذ نجد صيغة المثنى هى التى سادت وعمت فى أسماء سائر الأعداد حتى التسعين

مثل : 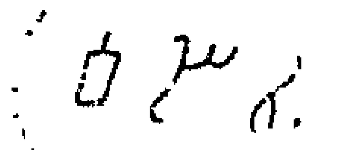 (عشرا) (١) .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن بعض القبائل العربية اتخذت (آن) لاحقة للجمع أيضا يؤكد هذا ماجاء عنهم « مرت بنا غنمان سودانٌ وسود » معانى الفراء ٣ — ١١٢

ومن ذلك أننا نرى ألفاظا بصيغة الجمع وهى للمثنى كقولهم : فلان عظيم المناكب ، ورجل غليظ الحواجب . وليس للإنسان إلا منكبان وحاجبان ، ومن ذلك قوله تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما » بلفظ الجمع ، ولهما قلبان .

كما يمكن تسجيل درجات التطور فى صيغة لهجية لقبيلة عربية وهم (بنو الحرماز) من تميم فقد كانوا يلزمون صيغة مَقْتوين (٢) الياء والنون مع المفرد مذكرا كان أو مؤنثا ومع المثنى والجمع بنوعيها فجعلوا حركات الإعراب تتعاقب على النون فقالوا : هذا رجل مَقْتوينٌ وامرأة مَقتوينٌ ورجلان مَقتوينٌ وامرأتان مقتوينٌ ورجال مَقْتوينٌ ونساءٌ مَقْتوينٌ .

أما عامة العرب باستثناء (بنى الحرماز) فقالوا فى المفرد هذا رجل مَقْتوِىٌّ ورجلان مَقْتويانِ وفى الجمع مقْتوون بالرفع ، ومقتوين بالنصب والجر .

(*) ومن تقلص الحركات الإعرابية أن الحركة الواحدة تقوم بوظيفتين ، كما فى الممنوع من الصرف (الفتحة) وجمع المؤنث السالم (الكسرة) .

(١) العدد فى اللغة العربية . د . فؤاد حسانين . مجلة كلية الآداب ج ١٢ ديسمبر ١٩٥٠ وانظر : Uman, Ethiopic Grammar. Translated by. James A. Grchton. P 290, 291. London, 1907.

(٢) معناها : الخدام . وفى الصحاح ٦ / ٢٤٥٩ « وهم الذى يعملون للناس بطعام بطونهم »

(فالحرمازيون) خالفوا العرب عامة في كون النون معتقب الإعراب كما حذفوا ياء النسب في مقتوى. ويقول سيبويه في ذلك: «وليس كل العرب تعرف هذه[1] الكلمة» أما شاهد لغة عامة العرب تقول شمر: «المقتوون: الخدم. واحدهم مَقْتَوِيّ» وأنشد:

أرى عمرو بن ضمرة مَقْتَوِيّاً
له في كل عام بكرتانِ

ولقد علل الرضي مخالفة (بني الحرماز) لبقية العرب في هذه الصيغة، ولعل تعليله هذا يبرر موقف بني الحرماز من استعمال تلك الصيغة الشاذة[2] على أن كثرة الشذوذ التي كثرت في هذا الباب مردها إلى تدرج اللغة وتطورها.

كما يمكن لمح درجات التطور في لواحق الجمع وما أشبهه في شرط النحاة لجمع المذكر «أن يكون عاقلا[3]» وبالنظر لآيات القرآن المعجز نراها قد تضمنت أبنية لجمع المذكر السالم لغير العقلاء من ذلك:

١ – «والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» ٢ – «قالتا أتينا طائعين» ٣ – «لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين».

كما نجد ألفاظاً كثيرة تفتقر إلى العقل الذي يشترط لجمع المذكر السالم – نجدها جمعت بالواو والنون والياء والنون، كإعراب الجمع السالم[4]، ومن ذلك ألفاظ العقود[5]، كما أن جمع المذكر السالم في كل من الحبشية والأكادية والعبرية والسريانية وغيرها لا يصاغ للعقلاء وحدهم، بل يشمل غير العقلاء:

(أ) في العبرية تجمع אַיִל (ayil خروف) على אֵילִים (ʾelim خراف)

كما تجمع כֶּבֶשׂ (كبش Kebes) على כְּבָשִׂים (كباش Kvāshim)

(ب) وفي الحبشية تجد hadas حديث أو جديد وجمعها hadasan

(١) الكتاب ٢ – ١٠٣

(٢) أنظر النحو والصرف بين التميميين والحجازيين د. الشريف عبد الله الحسني: رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة بجامعة أم القرى. وانظر صيغة أخرى لأعرابي من قبيلة (غني). وآخر لأعرابي (قيس) في بحثنا بمجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي بمكة المكرمة عدد ٦ وعنوانه «دراسة حول ثلاثة مصطلحات في دراسة اللهجات» ص ٨٣ هامش.

(٣) انظر كتب النحو العربي

(٤) الهمع ١ / ١٥٥ فما بعدها. تحقيق د. سالم.

(٥) المرجع السابق ١ / ١٥٦

(ج) وفى الأكادية تجمع alu «مدينة» alamu مُدُن .

فهذا وغيره يؤكد عدم وضع جمع المذكر السالم للعقلاء أصلا[1] كما يرى ذلك علماء النحو العربى — أما الواو والنون أو الياء والنون فهى تدل على جمع العقلاء وغيرهم كما سبق ذلك فى العربية والساميات ، ثم تطور هذا الجمع فى العربية أخيراً وتخصص للعقلاء .

وهناك تعليلات كثيرة فى كتب النحو لما حذفت لامه وكان مؤنثاً وكان لام الفعل حرف علة ، وجمع بالواو والنون أو الياء والنون مثل : ثبة وظبة ومئة ورئة وسنة وعضة وعظة وعزة ، فقد قالوا « فإذا أدخل فى جمع — الواو والنون — شئ ما ليس مذكراً عاقلا ، مثلما ذكرت لك فإن ذلك كما يقول ابن جنى حظ نالته تلك الألفاظ ، وفضيلة خُصت بها ، فلهذا صار جمع ثبة ومئة وسنة ونحو ذلك بالواو والنون تعويضاً لها من الجهد والحذف اللاحق بها » . [2]

وبعضهم يعلل هذه المؤنثات السابقة بالواو والنون فقال : إنما جمعت أرض بالواو والنون فقيل : أرضون عوضاً عن حذف تاء التأنيث ، لأن الأصل أن تقول فى أرض : أرضة فلما حذفت التاء جمعت بالواو والنون عوض عنها كما يرى ابن جنى أنهم جمعوا هذه الألفاظ جمع مذكر سالماً ، وإن كانت الواو للمذكر العاقل ، وهذه مؤنثة غير ذات عقل ، ولكنهم فعلوا ما فعلوا توسعاً ، وعلى ضرب من التأويل ، فإن جاء له نظير فقد عرفت طريقة ، وإن لم تسمع له نظير لم تقس عليه غيره ، لأنه لم ينفذ فى بابه [3] .

والمعروف فى جمع هذه الصيغ أن تكون بالألف والتاء ؛ قالوا فى سنة (سنوات) وفى ثبه (ثبات) وقلات ومئات هذا هو الوجه فى جميعها ؛ لأنها أسماء مؤنثة بالتاء . ومال بعض العلماء فى علة جمع أرض على (أرضون) أن ذلك على سبيل الاستعظام كقول الشاعر :

لقد ضجت الأرضون إذ قام من بنى
سدوس خطيب فوق أعواد منبر

(١) مشكلات لغوية ٧٨ د . شوق النجار . ط أولى . تهامة .

(٢) مشكلات لغوية ٨٨ نقلاعن سر صناعة الإعراب ٢ / ٤٥٦ مخطوطة برقم ١٩٧ لغة تيمور وانظر :
Palmer E.H.,A.Grammar of Arabic Landuage P. 107. London, 1984 .
ولمع الأدلة فى أصول النحو ١٣٤ للأنبارى . تحقيق سعيد الأفغانى — ط الجامعة السورية

(٣) مشكلات لغوية ٩٢ نقلا عن : سر صناعة الإعراب ٢ / ٤٦٨ .

كما علل ابن جنى (١) جمع تلك الملحقات المؤنثات بالواو والنون لغرض قصدوه قصداً ، وهو إعلام السامع أن هذه الكلمات ليست كغيرها مما لم يجمع بالواو والنون من المؤنث ، وإن ذلك عادة عندهم متى أرادوا أن يعلموا اهتمامهم بأمر وعنايتهم به أخرجوه عن بابه ، وأزالوه عما عليه نظائره .

وخلاصة ما سبق أن اللغات العربية والساميات أخواتها ، مرت بمراحل كانت الواو والنون فيها لاحقة تدخل على المؤنث والمذكر على السواء ، وما كانت هذه اللاحقة تعنى جنساً ، وإنما كانت تعنى الجمع أو الكثرة (٢) ، ثم بعد ذلك بفترات تاريخية طويلة تحددت هذه اللواحق لإفادة معنى الجمع والكثرة فى الذكور وحدهم ، وبعد فترة زمنية خصصت العربية هذه اللاحقة بالعقلاء المذكرين دون غيرهم ، ومعنى هذا أن اللغة العربية ترقت ترقياً كبيراً ، واكتمل فيها مالم يكتمل فى أخواتها الساميات ، وحفظت لنا صورا أكثر من أخواتها وأنضج ، لتغطية الأحداث والمتطلبات فينميها العربى حين تضطره الحاجة إلى ذلك لتحمل معانى حضارية تدل على الاستقرار واتساع الحياة . والحقيقية أن العربية حين تبنت هذه اللواحق . قد استعانت بها لإتمام ثروتها اللغوية بحيث تؤدى كل لاحقة المعنى المراد ، وكانت بمثابة المفاتيح التى لا تقل عن المفاتيح الموسيقية ، وذلك حين عبرت كل لاحقة منها عن أداء مميز ومعنى ثابت وقيمة تعبيرية .

---

(١) مشكلات لغوية ٩٤

(٢) فى العربية والعبرية والسريانية كثير من المؤنثات جمعت جمعا مذكرا فى العبرية נְמָלָה

n'mālā نملة . وجمعها n'malim

נְמָלִים

מִלָּה بمعنى كلمة وتجمع على מִלִּים

وفى السريانية تجمع كلمة melta على melle . كما رأينا فى الساميات كلمات جمعت مرة جمعا مؤنثا وأخرى جمعا مذكرا ، فقد جمعت العبرية נָהָר nāhār

نهر على נְהָרוֹת n'hārim و נְהָרִים n'hārott وفى السريانية Roha

روح وجمعها Rohata أو Rohe وفى العربية : أرض وجمعها : أرضات وأرضون . انظر : مشكلات لغوية ٩٤ فما بعدها .

كما ظهر لنا مما تقدم من البحث وطرقه ومقارناته أن العربية تجمعها بالساميات جذور مشتركة وخصائص متقاربة[1] ومعنى ذلك أن الظواهر اللغوية في العربية لم تأت من فراغ أو موضوعة بعد الإسلام، ولكن لها ماض يرجع إلى أكثر من ٢٥٠٠ ق . م

كما أن هذه الدراسة أكدت التشابه بين اللغات السامية، ومنها العربية ، كما وضحت الصلات اللغوية بينها في لواحق المثنى والجمع والأسماء الستة والأفعال الخمسة ، وليس الفرق أو الخلاف بين الساميات والعربية في تلك اللواحق إلا من نوع الفروق التي يحدثها التطور اللغوي في بناء اللغة الواحدة ؛ إذ ليست اللغات السامية إلا فروعاً للجذع العريق الذي هو العربية .

هذا وقد تنبه الخليل (ت ١٧٥ هـ) إلى مثل هذا بقوله : « وكنعان بن سام بن نوح ، ينسب إليه الكنعانيون ؛ وكانوا يتكلمون بلغة تضارع [2] العربية » كما أدرك ابن حزم ٤٥٦ هـ وغيره علاقة القربى بين الساميات والعربية أيضاً [3] .

أحمد علم الدين الجندي
الخبير بالمجمع

---

(١) كما ثبت أن الأنظمة الاجتماعية والعقائد الدينية عند الساميين تكاد تكون واحدة . انظر : حضارة مصر والشرق القديم ٣٧٧ د . إبراهيم زرقانة وآخرون .

(٢) كتاب العين ١ / ٢٣٢ للخليل بن أحمد . تحقيق د . عبد الله درويش

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ١ / ٣٠ فما بعدها وانظر البحر المحيط ٤ / ١٦٣ في توافق الحبشية والعربية في القواعد وبعض التراكيب النحوية كحروف المضارعة وتاء التأنيث وهمزة التعدية . وانظر .

Moscati and others, An introduction to the Compaıative Grammar of the Smetic Languages, P. 142 ; oP. cit. P. 85.

وانظر : البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية : أغناطيوس يعقوب الثالث

درجات الصواب والخطأ فى النحو والأسلوب (*)

للدكتور تمام حسان

للصواب والخطأ زاويتا نظر إحداهما ترتبط بصناعة النحو ، والأخرى تتعلق بأسلوب الاستعمال اللغوى ، أى أن إحداهما فنية والثانية اجتماعية فأما من وجهة النظر الأسلوبية الاجتماعية فالصواب ماوافق الشائع فى الاستعمال والخطأ ماند عنه . ولاشك لدى أصحاب هذه النظرة أن القاعدة ضابط مستنبط من كلام العرب ، وأن استعمالات العرب سنة متبعة تستند إلى سلطان العرف وأن بين الضابط الذى يصنعه النحاة وبين السنة المتبعة التى يفرضها العرف وفاقاً فى الأغلب الأعم من الحالات ، وخلافاً فى حالات أخرى هى الأقل بالنسبة إلى مايقابلها فى كلام العرب.

والقاعدة تلخيص لتقلب العلاقات بين عناصر السياق وما يصاحب هذا التقلب من تعبير فى مبانى اللغة ، ومن ثم تكون القاعدة وصفا لهذا التقلب ، ولكنها ليست قانونا يسنه النحوى بما أعطاه العلم من سلطة يشرع بها للغة ، ولا معياراً يحدده هذا النحوى ليلزم أصحاب اللغة ومستعمليها مهما كان هذا المعيار منسجما مع تقلب العلاقات السياقية . ننكر إذاً أن تكون القاعدة معياراً فى يد النحوى ، وإن وجب لها أن تكون معياراً فى يد معلم النحو ، معنى ذلك أنه يطلب إلى النحو أن يقول : العرب تقول كذا ، وتقدم هذا على ذاك ، وترفع هذا وتنصب ذاك الخ ولا يقبل إلا من المعلم أن يقول : يجب كذا ويجوز كذا ويمتنع كذا . فأولى للباحث (وقد كان النحاة باحثين فى لغة العرب) أن ينظر إلى مشكلة الصواب والخطأ من زاوية اجتماعية ترى فى الاستعمال سنة متبعة ، وأولى بالمعلم أن ينظر إلى المادة اللغوية من زاوية فرض القاعدة على الاستعمال فإن وافقها كان صوابا وإن خالفها كان خطأ ، فالباحث يستنبط القاعدة بالمنهج العلمى من مادة الاستعمال (المسموع) والمعلم يفرضها بالمنهج التعليمى على هذا الاستعمال نفسه .

(*) ألقى البحث فى الجلسة الرابعة ٢ / ٥ / ١٩٨٥ م .

وصاحب السليقة كالباحث لا يهتم للقاعدة إذا عرفها أى قدر من الاهتمام ، مادام حدسه اللغوى (الذى نسميه السليقة) يرى الصواب فيما قيل وتلك هى القضية التى كانت مثار المشاركة بين الفصحاء والطاعنين على العرب ، كالذى كان بين الفرزوق وابن أبى إسحق ، إذ قال الفرزوق له: « علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا » ويبدو أن النحاة وقد اكتمل فى أيديهم وصف بنية اللغة ، فرأوا صدق قواعدها ، أعجبوا منذ البداية أشد الإعجاب بما استخرجوا من قواعد النحو ، ومن ثم دافعوا دفاعا غيوراً (كما فعل ابن أبى اسحق) عن هذه القواعد ، وعن إطلاقها فى اللغة وتطبيقها على صورة تتسم بالشمول ، كما لو كان كل الاستعمال مسرحا للاطراد أو ينبغى أن يكون كذلك

ولكن معترك اللغة أوسع من أن يخضع لضوابط النحو ، ويرجع هذا إلى أسباب متعددة ، ليس أهونها طموح الأدباء والشعراء إلى الترخص والابتداع ، ولا ما وقع فيه النحاة أنفسهم من التماس الاطراد فى لهجات العديد من القبائل وقد علموا أن كل لهجة قبيلة من هذه القبائل تستقل بطرقها الخاصة ، فلا يمكن أن يستخرج نحو واحد من صور استعمالية متعددة ومع هذا ليس من طبيعة اللغة (أى لغة) أن تسلم نفسها إلى قواعد كبرى لاتقبل الاستثناء ، ومن هنا كان من صلب عمل النحاة أن يقيدوا كبريات القواعد باستثناء هنا ، واستدراك هناك وشرط فى موقع ثالث ، وأن يصوغوا قاعدة لكسر قاعدة أخرى ، أو يقعدوا لعدول عن الأصل ، يتقبلوا أسلوبا فصيحا عدل به عن الأصل ثم يتناولوه بالتبرير والتأويل ثم كان عليهم أن يضعوا كل ذلك جنبا إلى جنب فى إطار نحو واحد ، وأن يغضوا الطرف عن التضارب بين قاعدة وقاعدة ، ويبرروا تجاور القاعدتين المتضاربتين بأن إحداهما أصلية والثانية فرعية ، أو أن إحداهما مطلقة والأخرى قيد على هذا الإطلاق . وأخيرا كان عليهم أن يرتضوا بعض الخروج على هذه القواعد لأغراض أسلوبية ، وأن يرفضوا بعضا آخر لكونه شاذا أو قليلا ، أو نادرا ولغة لحى بعينهم من أحياء العرب وأن يحكموا على ما خالف قواعدهم عدا كل ما سبق بأنه خطأ من الخطأ ، لاتقبل فيه شفاعة التأويل ، ولا تبرره الشواهد القليلة

ذلك كان موقف النحاة من جانب ، والعرب الفصحاء من جانب آخر ، أما نحن فلنا موقف نظرى آخر نشرح فيه تدرج الصواب والخطأ على مساحة تشمل الموقفين جميعا ، بدءا بالقاعدة المحكمة ، وانتهاء بالسنة المتبعة ، ولقد يمكن أن نقدم للكلام فى هذا الشرح برسم بيانى نمهد به تمهيداً حسنا لما ننوى

أن نتقدم به من شرح ، وفيما يلي ذلك الرسم المذكور :

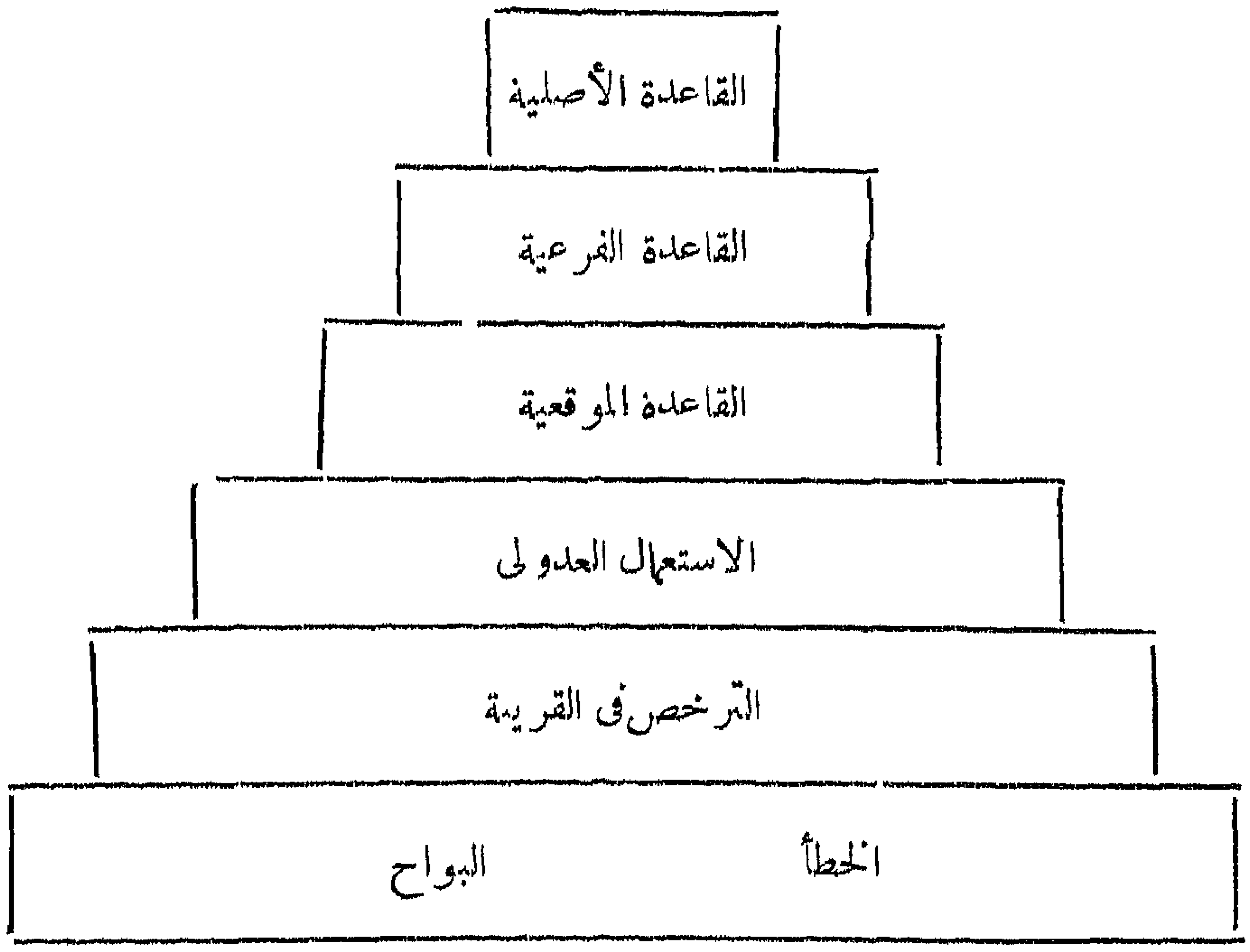

فالقواعد الأصلية هي القواعد الكبرى كقواعد الاختصاص ، والافتقار والرتب المحفوظة وتعلق الجار والمجرور ، ومطابقة النعت الحقيقي ، وبناء الجملة من ركنين ، وعود الضمير ، وامتناع الحذف عند عدم الدليل ، واجتناب مايؤدي إلى اللبس الخ فذلك كله من القواعد الكبرى في النحو العربي، ولكن من القواعد الأصليه مايتفرع عنه قواعد فرعية منشؤها واحد من أمرين:

(ا) الحرص على أمن اللبس.

(ب) المحافظة على أصل من أصول الصناعة

والأمثلة على ذلك كثيرة في النحو العربي نورد منها الطائفة التالية ·

١ — القاعدة العامة : « المبتدأ معرفة » وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقوله « ولا يجوز الابتدا بالنكرة » ولكن هذه القاعدة تتفرع عنها قاعدة أخرى مستثناه منها، وهي جواز الابتداء بالنكرة إذا أفادت، وهذا ماعبر عنه هو أيضا بقوله « ما لم تفد » . ومعنى قوله « ما لم تفد » هو ما يفهم من عبارة أخرى نقول : « إلا إذا أمن اللبس » والسؤال الآن هو : كيف يتحقق أمن اللبس ؟ ويمكن الإجابه على هذا السؤال بواسطه النظر إلى ماقدمه ابن مالك نفسه من أمثلة ، لنرى الطرف المختلفة التي تحقق بها أمن اللبس على رغم الابتداء بالنكرة ، وفيما يلي نورد أمثلة ابن مالك والتعليق على كل منها .

(ا) « عند زيد نمرة » إذا تأملنا هذا

المثال وجدنا الظرف مقدما على النكرة المرفوعة ومن المطلوب عند رؤية الظرف أو الجار والمجرور أو سماعهما أن نبحث لهما عن متعلق ولكن ليس في الجملة مع الظرف «عند» إلا النكرة «نمرة» وهذه النكرة جامدة لاتصلح لأن يتعلق بها ظرف أو مجرور، ومن ثم ينصرف الذهن إلى تقدير كلمة أخرى ليتعلق الظرف بها، فإذا قدرنا هذه الكلمة وجدناها واصفة للنكرة المتأخرة لفظا في الجملة ونحن نعلم أن الخبر وصف للمبتدأ في المعنى، وأن هذه الكلمة المقدرة لا تصلح نعتا بسبب تقدمها على النكرة ولا تصلح حالا لتقدمها وارتفاعها وتنكير النمرة فلم يبق إلا أن تكون هذه الكلمة خبرا مقدما والنكرة مبتدأ مؤخرا هكذا يتبادر المعنى إلى الذهن دون الدخول في مضايق تحليل نحوى شبيه بما قدمنا، وهكذا يؤمن اللبس، وتتحقق الإفادة التي قصدها ابن مالك.

(ب) «هل فتى فيكم» لا يجهل من يستعمل اللغة العربية أن «هل» أداة استفهام، وأن الاستفهام لا ينصب على المفردات، وإنما يتجه إلى إسناد الجملة فوجب عندئذ أن تكون «فتى فيكم» جملة بسبب دخول «هل» عليها وإذا كانت جملة فهى ليست فعلية لعدم وجود فعل في تركيبها، ولذا تكون جملة اسمية من مبتدأ وخبر وإذا كانت عبارة «فيكم» لا تصلح مبتدأ فلابد أن يكون المبتدأ عنصرا آخر من عناصر الجملة، وليس في الجملة عنصر آخر إلا كلمة «فتى» وهكذا أمن اللبس فابتدئ بالنكرة.

(ح) «ماخل لنا» في هذا التركيب حرف نفى، والنفى إنما يدخل على الجمل وما قيل في «فتى فيكم» يقال في «خل لنا» لتشابه التركيب فيهما.

(د) «رحل من الكرام عندنا» التخصيص مرحلة وسط بين التنكير والتعريف وإذا كانت النكرة تعرفها الأداة أو الإضافة المحضة، فإنها يخصصها الوصف ففي التخصيص، كما في التعريف تضييق لعموم الدلالة التي كانت للنكرة، وليس إلا اختلاف بين التخصيص والتعريف في مجال تضييق عموم الدلالة إلا اختلافا في الدرجة فقط. وإذا كانت الجمل بعد النكرات صفات فإن شبه الجملة يصدق عليه ما يصدق على

الجملة وهكذا تكون عبارة « من « الكرام » قد وصفت « رجل» وخرج بوصفه بها من ليس كريما من بين الرجال ، وأصبح مدلول « رجل » أضيق مما كان لأنه أفادنا بالوصف قدرا من التعيين جعله صالحاً لأن يخبر عنه بالظرف أى أنه حين أمن اللبس صح الابتداء بالنكرة .

(هـ) «رغبة فى الخير خير » إنما يكون تعلق الظرف والمجرور بالمصادر والمشتقات من أفعال وصفات وواضح أن معنى تعلق الظرف والمجرور بأحد هذه الأمور يجعلهما من تتمة معناه ، فلا يتم معناه إلا مع تصور ارتباطهما به دون غيره فإذا قلت « اشتريت ضيعة لأخى » فإن المعنى يختلف باختلاف تعليق الجار والمجرور فإذا علقنا المجرور بالفعل فالمعنى أن الشراء كان من أجل الأخ ، أما إذا علقناه بصفة محذوفة فإن الشراء يكون من الأخ بعد أن كانت الضيعة ملكا له ويترتب على تعليق الجار والمجرور أيضا تضييق لدلالة ما تعلقا به ، ففى قولنا « جلس زيد » عموم فى معنى الجلوس لا يعرف معه « أين » ولا (« متى » ولا « لماذا » ولا «كيف » جلس ، ولكن هذا العموم فى المعنى يضيق بقولنا : «جلس زيد على الكرسى » وذلك بالإجابة عن « أين» على الأقل هكذا يكتسب الجلوس قدرا من التحديد ، يصبح الفعل معه أوضح مما كان ، وهذا ما يرد أيضا على المصدر « رغبة » فلسنا نجد كبير فائدة فى عبارة « رغبة خير » برفعهما وتنوينهما ولكن تضييق معنى الرغبة بواسطة ذكر الجار والمجرور المتعلقين بها يعطى الكلمة من التحديد فى المعنى ما يقربها إلى المعرفة وهنا يذهب اللبس ، ويصبح الابتداء بالنكرة محققا للفائدة

(و) « عمل بريزين » إذا أضيفت الفكر إضافة محضة إلى المعرفة اكتسبت التعريف ، وإذا أضيفت إلى النكرة اكتسبت التخصيص وقد عرفنا منذ قليل أن التخصيص مرحلة على طريق التعريف ، وأنه إن كان دون التعريف أثرا فى المعنى فهو صنو للتعريف على أى حال وهكذا تكون النكرة المخصصة بالإضافة صالحة لأن يبتدأ بها ، لأن اللبس معها مأمون والمعنى واضح .

٢ــ القاعدة العامة . « لا يخبر بالزمان عن الجثة » وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقوله .

ولايكون اسم زمان خبرا
عن جثة . .

والمعروف أن المقصود بالزمان ظرف الزمان ، وأن المقصود بالجثة كل مسمى له جرم مادى وربما كان السبب فى عدم صلاحية الزمان لذلك أن الخبر إذا كان صفة للمبتدأ فى المعنى فهو من جهة أخرى عين المبتدأ فى المعنى ، لأن الصفة من مقومات الموصوف وما كان من مقومات الشئ عد « عين الشىء » وإذا قلت . « الرجل قائم » كان القائم هو الرجل أما إذا قلت . « زيد عندك » فإن العندية ليست عين زيد ، ولا من مقوماته ، ولكنها على الرغم من ذلك تتعلق بما هو من مقوماته وهو « استقراره » فيكون التقدير : « زيد مستقر عندك » أما إذا قلنا « زيد اليوم » فلا يمكن أن يعد « اليوم » من مقومات زيد ، ولا يمكن كذلك أن يتعلق اليوم بوصف يتبادر إلى الفهم كما تبادر الاستقرار إلى العندية . وإذا فلا وجه لتأويل ذلك ، ومن ثم يمتنع التركيب من حيث يؤدى إلى اللبس .

ولكن هذه القاعدة العامة تتفرع عنها قاعدة أخرى مستثناة منها ، ومشروطة بأمن اللبس ويفهم هــذا الشرط من قول ابن مالك « وإن يفد فأخبرا » وهى تتمة بيت الألفية الذى أشرنا إليه منذ قليل وإنما تكون الإفادة وأمن اللبس إذا اصلح المبتدأ لأن يكون مضافا إليه والمضاف من أسماء المعانى (كالمصادر مثلا) وعندئذ لا يكون الإخبار بالزمان إخبارا به عن جثة وإنما يكون عن معنى فإذا قلت « الهلال الليلة » والمعروف أن الهلال جرم يصدق عليه أنه جثة ، صح التركيب ، لكن على تأويل حذف مضاف إلى الهلال . والتقدير « طلوع الهلال الليلة » أو ظهور الهلال الليلة » ولا شك أن الطلوع والظهور مصدران ، والمصادر معان لا جثث ، ومن هنا يكون الإخبار بالزمان فى هذا التركيب « عن معنى لا عن جثة وبهذا نصل إلى الإفادة ونحقق أمن اللبس » .

٣ ــ القاعدة العامة : « أى الموصولة معربة » وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقولة : « أى كذا وأعربت » ومقتضى هذه القاعدة أنها معربة فى التراكيب التالية .

(ا) رأيت أيا قادم .

(ب) رأيت أيا هو قادم .

(ح) رأيت أيهم هو قادم .

ولكن لهذه القاعدة العامة الأصلية قاعدة أخرى فرعية مستثناة منها ، هى بناء « أى » إذا أضيفت وحذف أول ركنى جملة الصلة وهو ضمير وقد عبر ابن مالك عن ذلك أيضا بقوله :

. . . مالم تضف

وصدر وصلها ضميراً نحذف

وهكذا تصبح « أى » مبنية فى أمثال التركيب التالى :

(د) رأيت أيهم قادم .

وبناؤها هنا على الضم فلماذا بنيت فى هذه الصورة التركيبية دون غيرها ؟ إننى أتصور الأمر هنا أيضا راجعا إلى أمن اللبس ، لأننا لو تصورنا لصلة « أى » أن يكون الخبر فيها من مادة اشتقاقية متعدية ، نحو « رأيت أيهم ضارب » لاحتملت « أى » (إذا كانت معربة مع حذف صدر الصلة) أن تكون مفعولا مقدما لاسم الفاعل « ضارب » ، واحتمل فى الضمير المحذوف من صدر الصلة أن يكون « أنا » ، فيكون مآلنا إلى تقدير جملة ملبسة لا يدرى معها ما إذا كانت « أى » مفعولا للفعل « رأيت » أو لاسم الفاعل « ضارب » وحكم النحو هنا كحكم الفقه : «ما أسكر كثيره فقليله حرام» ، أى أنه إذا كان بعض صور التركيب ملبسا امتنع كله ، وبنيت « أى » لأمن اللبس وليس هذا وارداً على المثال رقم (١) السابق « رأيت أيا قادم» أو حتى «رأيت أياضارب» لأن ثمة من الأسباب مايدعو إلى تقدير ضمير الغائب فقط فى صدر الصلة ، وذلك بسبب قطع أى عن الإضافة ، والتعويض عن الإضافة بالتنوين ، ثم مافى الاسم الظاهر « ضارب » من معنى الغيبة « لأنه فى قوة ضمير الغائب وأخيراً لأن الفعل أقوى فى طلب المفعول من اسم الفاعل . كل ذلك يرشح الموقع الذى بين « أى » و « ضارب » أن يحله ضمير الغيبة ، لا التكلم ولا الخطاب . وبذا يؤمن اللبس ولا تدعو الحاجة إلى البناء .

٤ — القاعدة العامة « رتبة الخبر التأخر عن المبتدأ » وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقوله :

والأصل فى الأخبار أن تؤخرا . . .

ولكن هذه القاعدة العامة تخصصها قاعدة فرعيه تقول بجواز التقديم إذا لم يترتب على ذلك لبس أو مخالفة لأصول الصناعة وقد عبر ابن مالك عن ذلك بقوله :

. . وجوزوا التقديم إذ لاضررا

ومثلوا الإمكان ذلك بنحو « قائم زيد » من حيث إن « زيد » معرفة و « قائم » نكرة والمعرفة أولى من النكرة أن تكون هى المبتدأ وهكذا يتقدم الخبر وهذا التأويل أولى من تأويل المثال بأن « زيد » فاعل قائم وقد أغنى عن خبره ، لأن هذا تأويل ضعيف عبر ابن مالك عن ضعفه بقوله :

. . . وقد

يجوز نحو فائز أولو الرشد

فقوله : « قد يجوز » دليل على ضعف التأويل وكذلك مثلوا له بنحو « قائم أبوه زيد» فلو جعلنا « قائم » مبتدأ للزم فى « زيد » أن

يكون بدلا من الضمير ، ولوكان كذلك لعاد الضمير على متأخر لفظا ورتبة ، أما لفظا فواضح ، وأما رتبة فلأن البدل متأخر عن المبدل منه فى الرتبة لأنه تابع ولو أعدنا الضمير على متأخر لفظا ورتبه لنقضنا بذلك قاعدة أكبر خطرا لاتصالها بأمن اللبس من حيث ينبغى لمرجع الضمير أن يتقدم على الضمير ، ليجبر ما للضمير من عموم الدلالة على مطلق غائب أو حاضر وكذلك مثلوا بنحو « أبوه منطلق زيد » ، للسبب المتقدم نفسه ، ونحو « فى الدار زيد » و عندك زيد لأحقيه زيد « بالابتداء فى الحالتين : والضرر الذى يشير إليه ابن مالك بقوله «وجوزوا التقديم إذا لا ضررا » يوجب حفظ رتبة الخبر من المبتدأ ولا يخلو هذا الضرر من أن يكون واقعا على أمن اللبس أو على أصل من أصول صناعه النحو ، فمن ذلك .

(ا) خوف تساوى احتمالات الإعراب بلا مرجح نحو : أخى صديقى .

(ب) خوف ضياع معنى زائد على الإسناد كالتأكيد أو الحصر نحو لزيد قائم وإنما زيد قائم

(ح) خوف تساوى احتمالى نمط الجملة (أهى اسمية أم فعليه) نحو زيد قام

(د) خوف إهدار قاعدة الصدارة نحو من أنت ؟

فيعرب الأول فى كل ذلك مبتدأ والثانى خبراً لضمان أمن اللبس فى المثالين الأولين ، وللحفاظ على أصول الصناعة فى المثالين الأخيرين ولو انعكس الوضع لوقع ماعده ابن مالك من قبيل « الضرر » ، وما عبر عنه الشراح بقولهم ولو اشتبه الفاعل بالمفعول لراد الخطر وعم الضرر . وقد جاء ذلك تعليقاً على قولهم « ضرب موسى عيسى وهو شبيه باختلاط المتبدأ و الخبر فى المثال الأول من الأمثلة المتقدمة .

لعل فيما قدمناه غناء لتوضيح المقصود بالقاعدة الأصلية والقاعدة الفرعية ، وعلاقة كل منهما بالأخرى .

* * *

يأتى بعد ذلك إيضاح المقصود بالقاعدة الموقعية ، ومعنى لفظ « الموقعية » أن هذه القاعدة ترتبط بـ « موقع » واحد لا تتعداه إلى غيره من المواقع ، وأن هذا الموقع قبل صدق القاعدة عليه ربما اتفق مع أصل عام من أصول الصناعة التى جردها النحاة ، وربما خضع لقاعدة أخرى أصلية (أى عامه) أو فرعية فلو استصحب الأصل أو طبقت القاعدة لخرج الاستعمال عن السنة المتبعة ، ومن هنا تأتى القاعدة الموقعية (فى هذا الموقع المذكور) لتفسر سبب العدول عن الأصل أو لتخرق القاعدة بقاعدة وإليك الأمثلة :

١ — الأصل فى كلمة « ميزان » هو « موزان » على صيغه اسم الآلة . ولكن هذا الأصل

لايمكن استصحابه لما فيه من ثقل مرجعه إلى أن الكسرة والواو ضدان لايتجاوران ومن هنا جاءت القاعدة لتفسر العدول عن الأصل أو لتضبطه ، فقالت : إذا وقعت (لا حظ لفظ « وقعت » وعلاقته الاشتقاقية بلفظ « موقعية ») الواو ساكنة بعد كسرة قلبت الواو ياء .

٢ — أصل كلمة « كساء » هو « كساو » بدليل قولك « كسوت » و « كسوة » وأصل كلمة « بناء » هو « بناى » بدليل قولك « بنيت » وكذلك « بنية » والعدول عن الأصل الذى هو « كساو » و « بناى » إلى الفرع المستعمل « كساء » « وبناء » تحكمه قاعدة موقعيه تقول . إذا وقعت (قارن لفظ « موقعية ») الواو أو الياء متطرفة إثر ألف زائدة قلبت همزة .

٣ — أصل الفعل « قال » هو « قول » ، وقد حدث العدول عن هذا الأصل بقاعدة تقول إذا تحركت الواو أو الياء وانفتح ماقبلها قلبت ألفاً .

٤ — أصل كلمة « دنيا » هو « دنوا » وأصل « عليا » هو « علوا » ، بدليل « دنوت » « وعلوت » وقد جاء العدول عن الأصل فيهما بقاعدة تقول . إذا وقعت (!) الواو لاما لصيغة « فعلى » وصفا قلبت ياء .

٥ — أصل لفظ « إقامة » هو « إقوام » وقد حدث العدول عن هذا الأصل بحسب قاعدتين بينهما رتبة محفوظة فلابد لأولاهما أن تطبق قبل تطبيق الثانية تقول القاعدة الأولى .

(أ) تنقل حركة المعتل إلى الساكن الصحيح قبله .

فإذا طبقنا هذه القاعدة وصلنا بتطبيقها إلى موقع تأباه أصول الصناعة النحوية والصرفية ، وهو موقع التقاء الساكنين وهذان الساكنان أولهما الواو التى سلبت حركتها بواسطة النقل إلى ما قبلها ، فلما سلبت حركتها سكنت ، وثانيهما الألف التى بعد الواو فى الأصل « إقوام » هنا تأتى قاعدة موقعية أخرى تقول :

(ب) إذا التقى ساكنان حذف أولهما . عندئذ تصبح الكلمة « إقام » كما فى قوله تعالى : « وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » ثم لنا أن نبقى على هذه الكلمة على حالها كما استعملها القرآن ، أو أن نضيف إليها تاء أخيرة للتعويض عن الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين .

هكذا يعدل عن الأصل بقواعد فرعية موقعية تلحص اتجاها استعماليا ذوقيا يسعى دائما إلى طلب الخفة ولكن القواعد الموقعية لم تقصر همها على تفسير العدول عن الأصل فقط ، وإنما تخطت معارضة الأصول إلى معارضة القواعد إذا ترتب على تطبيق إحدى هذه القواعد مخالفة أصل من أصول الصناعه أو سنة من سنن الاستعمال وإليك الأمثلة :

١ — القاعدة الأصلية أن يكون لآخر الكلمه ما يستحقه من علامة إعراب

بحسب موقعه أو حركة بناء ، ولكن ولكن الكلمة إذا وقعت آخر الجملة المنطوقة الموقوف عليها وردت عليها قاعدة موقعية (أى ترتبط بموقع الوقف) وهى التى تعرف بقاعدة الوقف فلفظ الرجل من قولنا «جاء الرجل» يستحق علامة الرفع بحسب القاعدة العامة للإعراب ، ولكنه عند الوقف عليه يستحق السكون بقاعدة تكسر تلك القاعدة وكذلك «أمس» من قولك «جاء الرجل أمس» مبنى على الكسر بأصل وضعه ولكن يسكن عند الوقف.

٢ ــ القاعدة الأصلية أن يبنى الماضى عند عدم اتصال الضمائر به على الفتح فإذا وقع موقعا تتصل به فيه واو الجماعة طرأت قاعدة موقعية تبنيه على الضم ، وهذه القاعدة ترد على المضارع والأمر كذلك ، إذ تخرجهما عن مطابقتهما لقاعدة أصلية خاصة بكل منهما . وهكذا تقول ضربوا ، لم يضربوا اضربوا والأمر شبيه بذلك بالنسبة للياء فى تضربين ، واضربى وتعود القاعدة الموقعية فى مثل هذه الحالات إلى ظاهرة «المناسبة» أى جعل حركة لام الكلمة مناسبة للضمير المتصل.

٣ ــ القاعدة الأصلية أن يبنى الأمر فى أبسط صوره على السكون فإذا وقع بعده لفظ يبدأ بالساكن (ومن ثم يستحق همزة الوصل إذا بدئ به الكلام) وردت عليه قاعدة موقعية تخرق قاعدة البناء على السكون وتجعل آخر الأمر مكسوراً لالتقاء الساكنين (إن كان الأمر صحيح الآخر) فتقول مثلا. «اقرأ الدرس» بكسر لام الفعل . أما اذا كان آخره معتلا فإن القاعدة الأصلية تبنيه على حذف حرف العلة وتلزم عين الفعل حركة مناسبة تدل على نوع حرف العلة المحذوف نحو ألقِ العصا ، وارعَ الأخوة وارجُ الله . ومعنى هذا أن حذف حرف العلة قاعدة أصلية وأن نوع الحركة على عين الفعل قاعدة موقعية .

٤ ــ القاعدة الأصلية أن يدل «فعل» وما كان من قبيله أى افتعل واستفعل إلخ) على الزمن الماضى ولكن هذا الفعل إذا وقع بعد الشرط وردت عليه قاعدة موقعية يدل بحسبها على الاستقبال . ويدل المضارع بحسب القاعدة الأصلية على الحال أو الاستقبال وإذا وقع بعد «لم» دل على نفى الوقوع فى الماضى ، وإذا وقع بعد «لن» دل على نفى الوقوع فى المستقبل ، وإذا وقع بعد «أن» لم يدل وقوع أو عدمه وإنما يتفرغ للدلالة على مطلق الحدث الذى هو معنى المصدر الصريح .

وليس يلزم فى كل قاعدة موقعية أن تفسر عدولا عن أصل أو تخرق قاعدة أصلية أو فرعية فاقد يحدث أحيانا أن يتنوع مظهر العنصر اللغوى (أى المبنى) بحسب موقعه دون أن يكون أحد أنواع

السلوك أصلا ويكون غيره فرعا ، وإليك الأمثلة :

١ – إذا وقع لفظ الجلالة بعد فتح أو ضم جاءت لامه مفخمة ، أما إذا وقع بعد كسرة أو بعد الياء فإن هذه اللام ترقق تقول وايم الله ، والله ، لكن بالله ، عبدي الله . وليس يدعى لأي من التفخيم والترقيق أنه أصل وأن الآخر فرع له .

٢ – إذا وقع ضمير الغيبة المتصل بعد بعد فتح أو ضم ضمت هاؤه ، وإذا وقع بعد الكسرة أو الياء كسرت هاؤه ، فتقول لهم كتابهم وله كتابه ، ولهما كتابهما ، ولكن أشار إليه في كتابه ، وإليهما في كتابهما ، وإليهم في كتابهم وليس يدعى لأي من حركتي الهاء أنها أصل وأن الثانية فرع لها

٣ – إذا وقع ضمير المفرد الغائب المتصل بين حركتين أشبعت حركته سواء أكان مضموما أم مكسوراً أما إذا سبقه أو لحقه سكون فإن الإشباع يمتنع هذا في الكلام المرسل ، أما في الشعر فإن هذه الظاهرة تخضع للوزن تقول في الكلام : ضربه بالعصا (بالإشباع) بعد أن ضاق به ذرعا (بالإشباع) ، ولكن . لم يضربه (دون إشباع) وإن سخر به اليوم (دون إشباع أيضا) وليس أحد الأمرين أصلا ولا الآخر فرعا .

وهكذا نرى القاعدة الموقعيه هنا بموقعها الذي أعدت له فهي ليست أصلية لعدم عمومها ، وليست فرعيه لعدم اتصالها بأمن اللبس ولا بمراعاة أصول الصناعة ، بل إنها على العكس من ذلك : إما تفسير للعدول عن هذه الأصول وإما كسر القاعدة أصلية أو فرعية ولكنها في كل الأحوال انتصار للذوق الاستعمالي على الاستصحاب والاطراد ، وما يصاحبهما من قيود على طلب الخفة .

* * *

عرضنا حتى الآن لثلاث درجات من القواعد هي · القاعدة الأصلية ، والقاعدة الفرعيه ، والقاعدة الموقعيه وواضح أن أعلاها درجه هي الأصليه وأدناها الموقعيه ويرتبط العلو والتوسط والدنو هنا باتساع مجال تطبيق القاعده وعدمه فتعريف المبتدأ مثلا هو أساس التركيب العربي للجملة الاسميه ، وأما تنكيره فاستثناء مشروط بقيد الإفادة ، وهو أمر يتحقق بأمن اللبس والمحافظة على أصول الصناعه فإذا تحقق شرط الإفادة أمكن الابتداء بالنكرة مهما كان الموقع وأما تفخيم لفظ الجلالة فقاعدته ترتبط بموقع خاص تأتي فيه اللام بعد فتح أو ضم ، والقاعدة المذكورة لا تتعدى هذا الموقع أبدا ، وإذا كانت الإفادة هي المبرر للقاعدة الفرعيه فإن مبرر القاعدة الموقعية في جملة الحالات هو طلب الخفة .

عند هذه النقطة نصل إلى درجة من الصواب تأباها القاعدة وترتضيها السنة

المتبعة أي أن معيار الصواب هنا ليس نحويا وإنما هو عرفي وهذا الصواب العرفي غير النحوي يمثل عدولا عن أصل الوضع أو أصل القاعدة ، ومن هنا يحلو لي أن أسميه « الاستعمال العدولي » ومع أن الاستعمال العدولي يسعى أن يعد خطأ بمعايير القواعد النحويه . لم نجد أحداً من النحاة قدمائهم ومحدثيهم يصمه بوصمة الخطأ ، وربما كان ذلك لشيوعه في كلام أصحاب السليقة بل لانتشاره في أسلوب القرآن والحديث وربما قال قائل : ما بالك تفرد الاستعمال العدولي بعلاج خاص مادام في جوهره عدولا عن الأصل (أصل الوضع أو أصل القاعدة) . أليست القاعدة الموقعية عدولا عن الأصل كذلك ؟ فلماذا أفردت كل منهما بعلاج خاص ؟ الجواب أن الفرق بينهما من وجهين

(أ) القاعدة تطرد وهذا الاستعمال اختيار أسلوبي لك أن تأخذه أو تدعه .

(ب) القاعدة مرهونة بموقع خاص بخلاف الاستعمال العدولي .

يخيل إلى أنني أطلت الكلام في تنظير الاستعمال العدولي قبل أن أقول ما هو ، فليس يغني عن شرحه والاستشهاد له أن يوضح الفرق بينه وبين القاعدة الموقعية . ‌
ولهذا يحسن أن أبدأ في سرد الظواهر العدولية واحدة بعد الأخرى قدر ما يسمح الحيز المخصص لها في هذا البحث .

إن الدخول المناسب إلى مسرح الاستعمال العدولي إنما هو من مدخل القرائن النحوية اللفظية ويمكن باختصار أن نسوق بيانا تخطيطيا لهذه القرائن وأنواع العدول التي تعرض لكل منها على النحو التالي

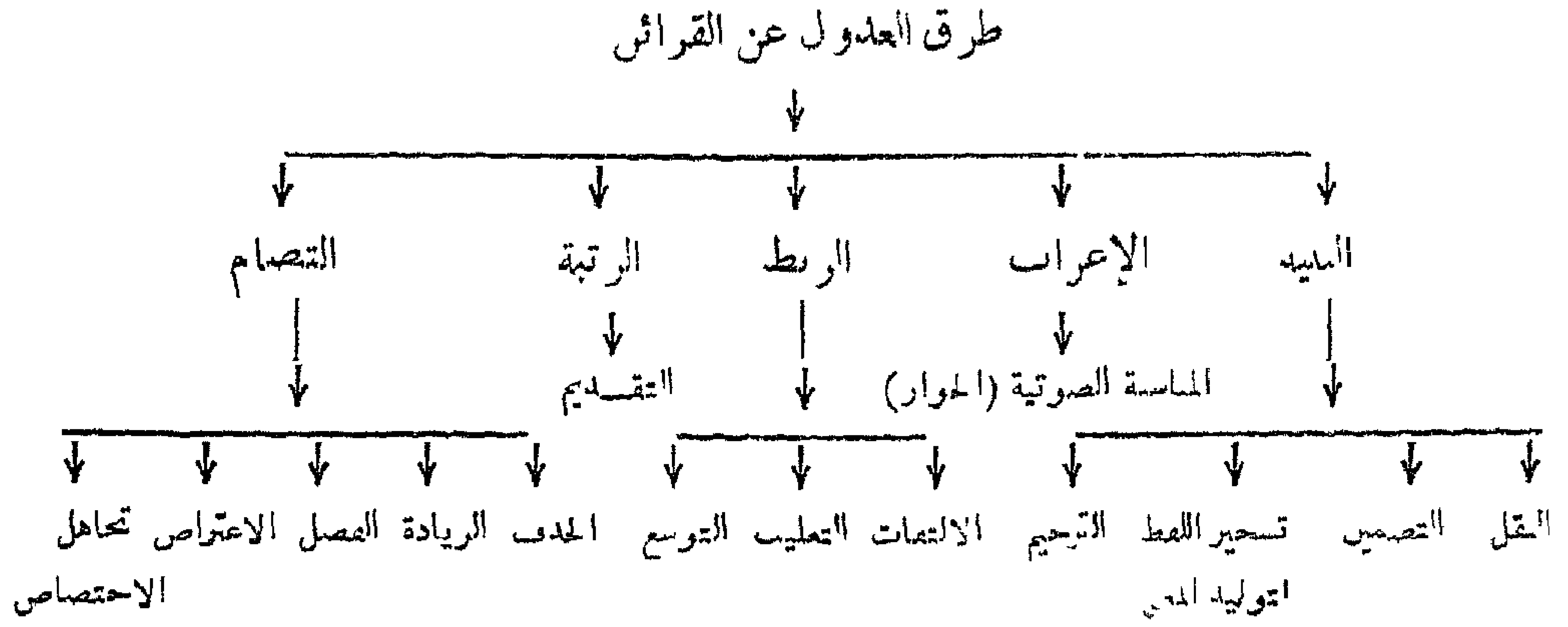

وسنتناول كلا من ذلك على حدة .

١ -- البنية

لبنية الكلمة أو نمط الجملة صور متعدده للخروج بها من أصل استعمالها وقد اعترف بهذه الصور وإن اختلفت وجهة نظرهم إليها وصياغة المصطلحات لها ولعل أولى هذه الصور بالذكر ما يلي

(ا) النقل

اعترف العلماء بالنقل وسموه بهذا الاسم في بابي العلم والتمييز ، فالعلم قد يكون منقولا عن الفعلية كيزيد ، أو الوصفية كخالد ، أو المصدرية كفضل ، أو عن الدلالة على مسمى آخر كبدر ، أو عن تركيب إسنادى كجاد الحق . والتمييز قد يكون منقولا عن الفاعل نحو اشتعل الرأس شيبا وحسنت مستقرا ومقاما . وقد يكون منقولا عن المفعول نحو ألهبت شعوره حماسا وكذلك اعترف البلاغيون في تعريفهم للمجاز أنه نقل الكلمه من معناها الأصلى إلى معنى آخر ينسب إليها بعلاقة وقرينة

ولكن ظاهرة النقل سميت بأسماء أخرى في أماكن أخرى غير بابي العلم والتمييز والمجاز إذ إنها سميت « النيابة » في باب المفعول المطلق . وقد ينوب عنه ما عليه دل

كجد كل الجد وافرح الجذل

وسميت النيابة أيضا في باب النائب عن الفاعل . وكذلك في القول بأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . أي ينقل بعضها إلى استعمال بعض

أما نقل الأسماء إلى استعمال الظروف فقد أطلقوا عليه اسم « التصرف » فالظرف المتصرف « ما يرى ظرفا وغير ظرف » أو بعبارة أخرى . ما ليس ظرفا بحسب الأصل وإنما نقل إلى الظرفيه واستعمل استعمال الظروف

ولقد سميت ظاهرة النقل « إغناء » في مواضع أخرى . فلقد يقع الوصف مبتدأ فيغنى فاعله عن الخبر نحو أقائم زيد ، وقد يغنى الحال عن الخبر في نحو أكثر ما يعجبني زيد خطيبا . ومثل ذلك إغناء أن وما دخلت عليه عن مفعولى ظن وسدادها مسدهما . ومنه في باب النداء ما رآه الفراء من أن « يا » ضمنت معنى « أدعو » فعملت عملها وسدت مسدها أى أغنت عنها وفي كل هذه الحالات عدل بالكلمة عن أصلها ونقلت إلى استعمال آخر

وقد ينقل نمط الجملة الخبريه إلى الدعاء نحو « بارك الله فيك » ، أو إلى التنزيه نحو « تبارك الله » وقد ينقل النفى إلى الدعاء نحو « لا فض فوك » ، وإلى الإنكار نحو « ما هذا ! » . وإلى التقرير نحو « ألست بربكم » . وفي كل هذه الحالات وأمثالها ينقل النمط التركيبى من معناه الأصلى (وهو الخبر في الحالة الأولى والنفى في الثانية) إلى معانى أخرى طلبيه أو إفصاحيه لم تكن له بحسب الأصل .

(ب) التضمين

وإذا كان النقل عدولا عن أصل المعنى الوظيفى فإن التضمين عدول عن المعنى

الأسلوبى . فقد يجد المتكلم فائدة أسلوبية « ما » كالتأكيد أو الابتكار أو التلخيص والاختصار أو نحو ذلك فى إحلال كلمة محل أخرى ، وإعطائها معناها ، بحيث تغنى عنها دون أن يشعر السامع بأن شيئاً غريبا قد حدث ، انظر إلى قوله تعالى : « فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » (فصلت ١٧) وسترى أن الفعل « استحبوا » لا يحمل فى معناه المفرد معنى التفضيل ، ولكن وجود حرف الجر « على » نقله بالتضمين إلى هذا المعنى ، ففهم منه معنى « فضلوا » . ثم انظر إلى قوله تعالى . « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » (الفرقان ٣٠) ، والمعروف أن « اتخذ » إذ تنصب مفعولين يعبر الثانى منهما عن معنى الانتفاع ، إذ تقول . اتخذت فلانا صديقاً ، أى إنتفعت بصداقته ، وإتخذت فلانا خادماً أى انتفعت بخدمته . وليس هذا المعنى مناسبا لكلمة « مهجوراً » ، مما يفهم منه أن « اتخذوا » قد ضمن معنى مطلق التحويل الذى يعبر عنه بالفعل « جعلوا » أو « صيروا » . وانظر إلى قوله : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما » (آل عمران ٧٥) وستعلم أن الفعل « ما دام » من أخوات « كان » وأنه وهو ناقص لا يصلح للوقوع بعد أداة الاستثناء « إلا » وإذا لم يصلح ذلك فلا بد أن تكون « دام » غير ناقصة وأن تكون « ما » فقدت معنى المصدرية واحتفظت بمعنى الظرفية ثم ضمنت معنى « إذا » ، فيكون التقدير : « إلا إذا دمت قائما عليه » على أن « قائما » حال وأن « دمت » بمعنى « استمررت وثبت » . وانظر إلى قوله تعالى : « فتبسم ضاحكا من قولها » (النمل ١٩) تجد أن ضحك من كذا يفيد معنى السخرية (أى سخر من كذا) ، ولم يكن سليمان بضحكه ساخرا من النملة وإنما كان متعجبا من قولها . وبهذا يكون « ضاحكا » قد ضمن معنى « متعجبا » .

ويحدث حينا أن يضمن تركيب كامل معنى تركيب كامل (ليس من وجهة النظر الوظيفية كما ذكرنا فى الكلام عن الخبر والنفى وإنما من وجهة النظر الأسلوبية) من ذلك قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (آل عمران ١٠٢) . فلو أخذنا تركيب حمله النهى . « لا تموتن » على علاته لكان المعنى نهيا عن الموت إلا على الإسلام ولكن الإنسان لا ينهى عن أمر لا حيلة له فيه ، فالله الذى قضى الموت لم يجعل للإنسان فيه خياراً وإذا انتفت الخيرة لم يعد للنهى معنى .

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

وإذاً لا بد أن يكون النهى ذا معنى آخر . والمعنى المطلوب : « لا تفرطوا فى الإسلام

حتى تموتوا » ، وهذا التضمين شبيه بما يقول به تشومسكي من مفهوم « البنية العميقة » DEEP STRUCTUTE

(ج) تسخير اللفظ لتوليد المعنى :

وهذه أيضاً صورة من صور العدول عن أصل استعمال بنية اللفظ إلى مسالك أسلوبية تصبح البنية معها صالحة للإيحاء بمعنى لم يكن لها من قبل . وهذه الحيلة الأسلوبية كانت وما تزال مسرحا من مسارح تفوق البلغاء . ويأتى هذا التسخير بواسطة أمور منها جرس اللفظ ، أو علاقاته الذهنية أو العاطفية ، أو انعكاسات استعماله عليه ، أو علاقاته الفنية الخ . فأما الجرس فقد رصد البلاغيون مبدأ حكاية الصوت للمعنى أخذا عن المصطلح اليونانى onomatopoea

كما قسم النقاد الكلمات إلى شعريه وغير شعرية ، وتكلم فقهاء اللغه عن الكلمات الفصيحة والحوشية . ودعا الشعراء الرمزيون المحدثون إلى الاعتماد على إيحاءات الجرس على حساب المعانى المعجمية للكلمات .

وأما تسخير اللفظ فى إثارة معان عقليه فأشهر ما يدل اللفظ عليه من ذلك لازم المعنى كما يتضح فى الكناية والتورية والمجاز المرسل ففى الكناية والتورية معنى قريب بحسب الأصل وآخر بعيد بحسب اللزوم العقلى أما فى المجاز المرسل فلازم المعنى قد يكون غاية(السبب والمسبب)أو كمية (الكل والبعض) أو مكانا(الحاليهوالمحلية) أو زمانا (ماكان وما يكون) . ومن المعانى العقلية المعنى التضمنى ، وهى وإن دنا كثيراً من فكرة الكمية لا يعد منها لأنه أوسع تطبيقاً إذ يشمل أحيانا ما يسمى حذف المضاف فى نحو « حرمت عليكم أمهاتكم » أى قرب خاص منهن .

ويمكن أن نعد من تسخير اللفظ لنقل شحنة انفعالية من المعنى لم تكن له بأصل الوضع أن نورد اللفظ فى المقام المناسب وفى مجرى السياق الملائم . فكلمة الشرف بحكم معناها الأصلى لا تثير انفعالا وإنما تثير فكرة التضاد مع الضعة . ولكن المتنبى حين سلط الأذى على الشرف فى قوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وجعل الدم عقابا على النيل من الشرف جعل البيت الشعرى يحمل حملا عاطفيا عظيما . وكلمه « مثل » بمعنى « شبيه » من الأسماء المبهمة التى لا ينسب إليها معنى معين إلا بعد الإضافة ، وما كان لها أن تثير عاطفه أو تبعث انفعالا . ولكن أبا فراس حين قال :

نعم أنا مشتاق وعندى لوعة
ولكن مثلى لا يذاع له سر

وضع الكلمة موضعاً جعلها تحمل من الاستعلاء ما لا قبل لها به فى سياق عادى ذلك أنه جعل « مثل » فى موقع ضمير المتكلم (أى ولكنى) ولولا ما ذكرناه من ضرورة إضافتها ما جاءت معها ياء المتكلم ، وتعبير أبى فراس هذا محاكاة للعبارة القرآنية . « ليس كمثله شىء » ثم انظر إلى ما نقلته كلمة الأم فى الحديث الشريف بواسطة تكرارها ، إذ جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال أمك ! قال ثم من ؟ قال : أمك ! قال ثم من ؟ قال أمك ! قال : ثم من ؟ قال : أبوك ومثاله التوكيد اللفظى فى قول الشاعر

أخاك أخاك إن من لا أخا له
كساع إلى الهيجا بغير سلاح

أما انعكاس استعمال اللفظ عليه فنستطيع أن نضرب له مثلا عبارة . « أنا عربى » ظلت هذه العبارة خلال التاريخ ، وستظل إن شاء الله تثير فى نفس العربى الاعتزاز بها لما وراءها من تاريخ رائع وتراث غنى . ولكن هذه الكلمة فيما بين سنتى ١٩٦٧ و١٩٧٣ فقدت الإيحاء بهذا الاعتزاز وكان بعض العرب يتهربون منها إذا سئلوا عن هويتهم خارج بلادهم فلما وقعت حرب العاشر من رمضان أصاب العرب ما أصاب بنى أنف الناقة الذين خجلوا من لقبهم بين القبائل حتى قال فيهم الشاعر

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم
ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

وقد ينعكس على اللفظ دناءة مدلوله أو فحشه أو قذارته فيصبح محظورا الذكر Taboo كالكلمات التى تدل على الجنس أو قضاء الحاجات الطبيعية ونحوها لاحظ قوله تعالى « فلما تغشاها » . « أو لامستم النساء » . « فأتوا حرثكم أنى شئتم » « أو جاء أحد منكم من الغائط » فهى كل ذلك ازورار عن كلمات أخرى تدل مباشرة على هذه المعانى

وأما العلاقات الفنية التى تعين على استعمال بنية اللفظ لتوليد المعنى الجديد فأشهرها علاقة المشابهة التى ينشأ عنها المجاز اللغوى بأنواعه ولابد أن نشير إلى أن التعبير عن هذه العلاقة مرجعه إلى اختيار المتكلم لا إلى نظام اللغة لأن أوجه الشبه قد تتعدد للشىء الواحد إزاء غيره من الأشياء التى تشبهه وكل متكلم يختار من هذه الأوجه ما يروق له ومن الأشياء المتشابهة لموضوعه ما يروق له أيضاً

وحسبنا أن نضرب لذلك مثلا قوله تعالى : « والصبح إذا تنفس » ، فهذه الآية اختارت من كل خصائص وقت الصبح نسيمه الرطب الذى يصادف راحة فى النفس تبعث فيها النشاط والخفة ولأن النشاط والخفة حياة آثرت الآية أن تنسب الحياة نسبة فنية إلى الصبح فجعلته يتنفس وهكذا أصبح تسخير لفظ « التنفس » لتوليد معنى جديد غايته هامة وسيلتها العلاقات الفنية للكلمة

وهناك علاقات فنية أخرى غير المشابهة نلحظها فى استعمال البنية اللغوية لتوليد آثار ذوقية معينة لدى السامع أو القارئ بواسطة ما يفهم عند استعمال البنية من تعميم ، أو إبهام ، أو تأكيد ، أو مفهوم مخالفة بعينه .. إلخ . وأشهر وسائل ذلك التجريد من أداة التعريف ، أو إلحاقها بالاسم ، وإلحاقها بالوصف ، أو استعمال الموصولات الحرفية المختلفة ، أو الضمير ، أو الموصول الاسمى وغير ذلك ، والمعروف أن للمتكلم مندوحة عن استعمال أى صورة من صور البنية المذكورة ، فاختيار واحدة منها يقع فى نطاق الأسلوب لا القاعدة .

فمن الوسائل لتوليد المعنى الفنى من النمط تجريد اللفظ من أداة التعريف ليئول إلى التنكير المؤدى إلى التعميم حينا وإلى الإبهام حينا آخر . انظر مثلا إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة » (عبس ٣٨) وفى هذا عدول عن عبارة « وجوه المتقين » وقوله جل شأنه . « من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها » (النساء ٤٧) عدولا عن « وجوهكم » ، وقوله سبحانه . « علمت نفس ما أحضرت » (الانفطار ٥) عدولا عن « كل نفس » ، وقوله ، تبارك اسمه « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها » (النحل ٩٤) عدولا عن « قدمكم » أو أقدامكم » ، وأما قوله تعالى : « وتعيها أذن واعية » (الحاقة ١٢) فهى شبيهة بقوله : « علمت نفس ما أحضرت » التى سبق إيرادها لأن كلتيهما للتعميم والمعنى المعدول عنه وتعيها كل أذن واعية . ومن قوله تعالى . « أم على قلوب أقفالها » (محمد ٢٤) المقصود المعدول عنه « قلوبهم » وقد يعمل التنكير حينا على إفساح المجال لخيال السامع أن يسبح فى عباب الوهم الفنى ، فيضيف إلى الصورة الفنية الأدبية تهاويل من عنده ، ربما لم ترد على خاطر صاحب النص . نلمح ذلك فى قول الشاعر .

ضربنا كموا ... تفرق جمعكم
وطارت ألف منكموا وجماجم

وعادت على البيت الحرام عوابس
وأنت على خوف عليك التمائم

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة
سترقى بها يوما إليك السلالم

وقوله ·

ويوم كيوم البعث ما فيه حاكم
وقوله ولا عاصم إلا قنا ودروع

وإنى فى الحرب العوان موكل
بإقدام نفس لا أريد بقاءها

وربما تحقق توليد معنى الشمول بواسطة المقترن بأداة التعريف إذا أفادت الأداة استغراق الجنس . عندئذ يصبح المقترن بالأداة صالحا لأن يضاف إليه لفظ « كل » كقول الشاعر :

وكم من فارس لا تزدريه
إذا شخصت لموقفه العيون

أى « كل العيون » أو « العيون كلها » ، وقوله :

أنا ابن التارك البكرى بشر
عليه الطير ترقبه وقوعا

أى « كل الطير » أو « الطير كلها »
وقد يوصل بالتعريف إلى معنى يشبه القصر البلاغى ، كما فى قول الشاعر :

وحقك أنت المنى والطلب
وأنت المراد وأنت الأرب

أى الذى لا منى غيره ولا طالب سواه ولا مراد من دونه ولا أرب إلا هو .

وقد يوصل بالموصول (اسميا كان أم حرفيا) إلى معنى الشرط . وآية ذلك ما نعرفه فى النحو من باب الإخبار بالذى والألف واللام ، وما يتحتم فى الخبر عندئذ من الاقتران بالفاء فى المواضع ذاتها التى يقترن جواب الشرط فيها بالفاء .

ومن ذلك قوله تعالى : «والذين كفروا فتعسا لهم » (محمد ٨) وقوله : « والزانية والزانى فاجلدوا » (النور ٢) وفى هذا دليل على أن الجملة الاسمية هنا تشربت معنى الشرط ، أى أن المعنى (من كفروا فتعسا لهم) ، وكذلك (من زنت ومن زنى فاجلدوا) وكذا يؤدى الموصول إلى التعميم أو التعظيم أو التحقير . فمن قصد التعميم بالموصول :

تعز فلا شىء على الأرض باقيا
ولا وزر مما قضى الله واقيا

أى من أى قضاء قضاه الله ومن التعظيم

الضاربون الكبش يبرق بيضه
ضربا يطيح له بنان المفصل

ومن التحقير قوله تعالى : « والذى قال لوالديه أف لكما » (الأحقاف ١٧) .

ومن استعمال البنية استعمالا عدوليا « الترخيم » فى باب النداء ، وهو فى معناه الأعم من قبيل الحذف سواء على لغة من ينتظر أم على لغة لا ينتظر . وقد عنى النحاة . شرح هذه الظاهرة بما يعرض للمبنى أكثر عن عنايتهم بما يعرض للمعنى . والذى يبدو لى أن الغاية من الترخيم هى التمليح أو التدليل فهو شبيه باختصارنا نطق أسماء أبنائنا فى الوقت الحاضر وهذا هو المعنى المولد .

٢ — الإعراب :

يتمثل العدول الأسلوبى الفنى عن الإعراب فى صورة مناسبة صوتية بين الكلمتين المتجاورتين ، تستحق كل منهما إعرابا يختلف عن إعراب الأخرى ولكن صاحب النص يجعل حركة آخرهما واحدة ، إذ يحتفل بالجرس أكثر من احتفاله بالقاعده والنحاة يسمون ذلك « إعراب الجوار » إلا إذا تمكنوا من تأويله إلى قياس آخر متكلف فى أغلب الأحيان . قالت العرب : « جحر ضب خرب » بجـر « خرب » فنسب النحاة ذلك إلى إعراب الجـوار ، وقال ابن جنى إن هذا من قبيل النعت السببى الذى حذف منه فاعل الصفة المشبهة « خرب » وقدره « جحر ضب خرب جحره » ، فأفرغ الشاهد من مضمونه النحوى بل ربما أفرغه أيضاً من مضمونه الدلالى أيضاً لكن ماذا عسى أن تبلغ رغبة ابن جنى فى التأويل فى قراءة « عاليهم ثياب سندس خضر » (الدهر ٢١) بجر « خضر » لجوارها للسندس . وكيف يؤول قول امرىء القيس :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله
كبير أناس فى بجاد مزمل

بجر « مزمل » بسبب مجاورة البجاد . لكن هذه المناسبة لا تأتى مع الجر فى جميع الحالات بل قد تتعدى ذلك إلى النصب أيضاً بدليل : « إن هذان لساحران » (طه ٦٢) ، وقول الشاعر :

إن أباها وأبا أباهـا
قد بلغا فى المجد غايتاها

ولعل تجاور القوافى هو الذى جعل الفرزدق يفضل جرس القافية على اطراد القاعدة فى قوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع
من المال إلا — مسحتا أو مجلف

كل أولئك يعود إلى أصل واحد هو المناسبة الصوتيه التى تعد إجراء عدوليا فنيا عن قرينة الإعراب .

* * *

٣ — الربط .

الربط نوعان : ربط بالمطابقة ، وربط بالإحالة ولكل من النوعين طرق للعدول المعنى عن الأصل النحوى ويمكن إيضاح ذلك بما يلى

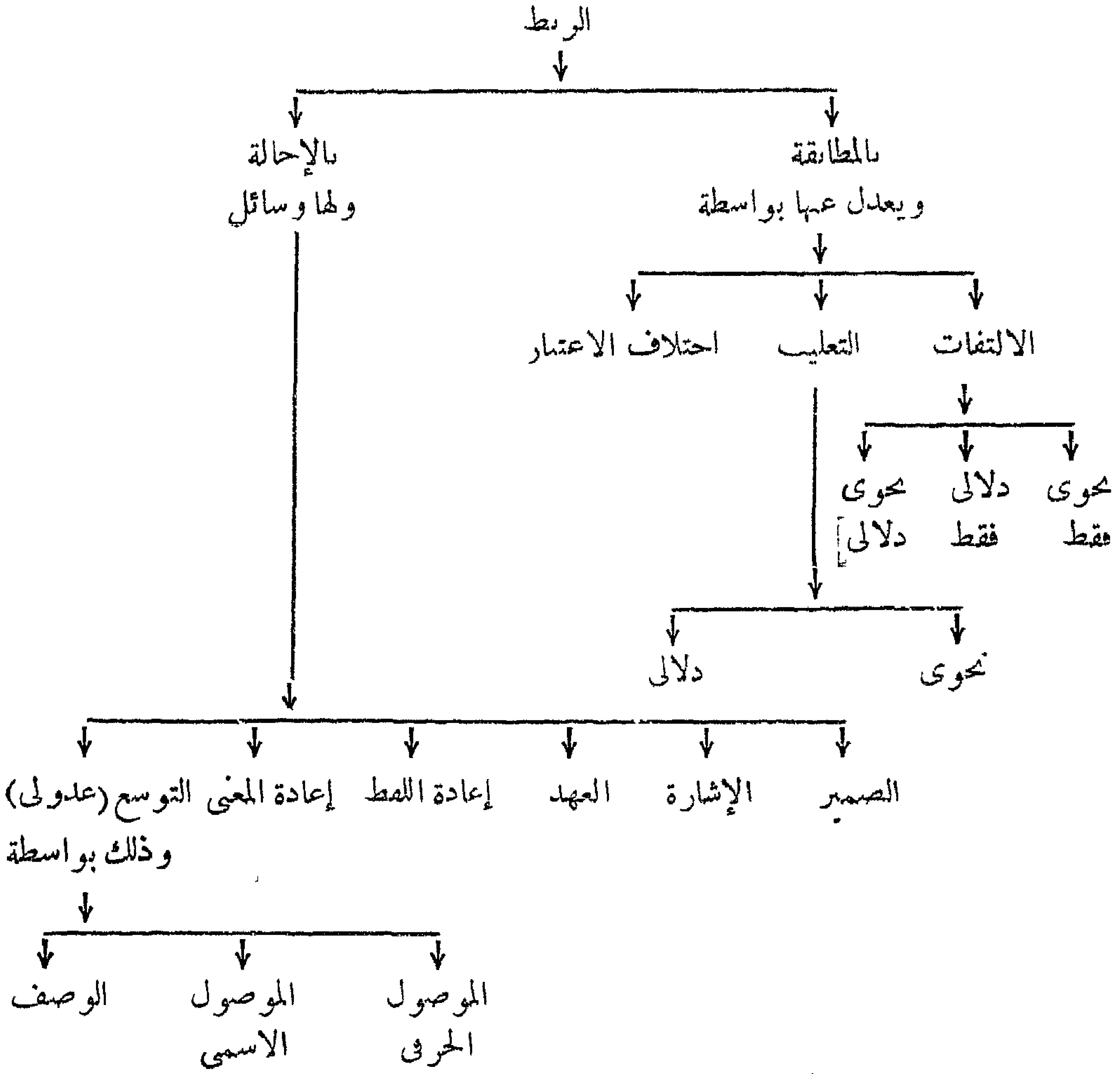

فالالتفات النحوى فقط (أى الذى يختلف معه الضمير والمدلول واحد) كقوله تعالى « وأنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » (طه ٥٣) ، فالمنزل والمخرج هو الله تعالى وإن اختلف الضمير بين الغيبة والتكلم . وأما الدلالى فقط مع اتحاد صورة الضمير ، فذلك كقوله تعالى يخاطب بنى إسرائيل : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » (البقرة ٤٧) ثم تأتى ظروف الزمان بعد ذلك متعلقة بلفظ « اذكروا » الذى فى هذه الآية على النحو التالى .

« وإذ نجيناكم من آل فرعون » « البقرة ٤٩ »

« وإذ فرقنا بكم البحر » (٥٠) .

« وإذ واعدنا موسى » (٥١)

« وإذ آتينا موسى الكتاب » (٥٣)

« وإذ قال موسى لقومه » (٥٤)
« وإذ قلتم يا موسى » (٥٥)
« وإذ قلنا ادخلوا » (٥٨)
« وإذ استسقى موسى » (٦٠)
« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر » (٦١)
« وإذ أخذنا ميثاقكم » (٦٣)
« وإذ قال موسى لقومه » (٦٧)

ثم يلتفت النص دلاليا لا نحويا (بسبب اتحاد صورة الضمير) فيقول للنبي والمؤمنين « افتطمعون أن يؤمنوا لكم » (البقره ٧٥) وأما الالتفات الذى يتحقق له الجانبان النحوى والدلالى، فنحو قوله تعالى « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا ») البقره ٢٤ — ٢٥ فالضمير فى « تفعلوا » الناس الذين ناداهم فى الآية (٢١) ، والضمير فى « بشر » للنبي صلى الله عليه وسلم ، فاختلف الضمير والمدلول معا

والتغليب أيضاً قد يكون نحويا وقد يكون دلاليا وقد اجتمعا فى قوله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما »، « الإسراء ٢٣ » فالتغلب دلالى فى لفظ (الوالدين) لأن الأب لا يلد كما تلدالأم . وهو نحوى فى « أحدهما أو كلاهما » لأن الذى يناسب الاثنين هو إحداهما أو كلتاهما . ولكن الآية غلبت المذكر على المؤنث وقد غلبت فى أولها المؤنث على المذكر

وأما اختلاف الاعتبار فيتضح فى قول النحاة واللغويين « قالت العرب » ، أو « العرب تقول » ، ثم قولهم فى مكان آخر « قال العرب » أو « العرب يقولون » . فاختلف اعتبار العرب بين الجماعة والجمع ذلك ما يعرض للمطابقة من عدول فى أسلوبى عن الأصل . ويأتى بعد ذلك ما يعرض للربط بالإحالة . أى بالإشاره إلى مذكور حقه أن يسبق ما يحيل إليه

ولا شك أن الأصل فى الإحالة أن تكون بتكرار، اللفظ . وكل ما عدا ذلك إنما هو كناية عنه أو بديل منه وتكون الكناية ضميرا أو إشارة أو أداة تعريف للعهد أو إعادة للمعنى بلفظ آخر الخ ومع أن هذه الكنايات قد أشار إليها النحاة نحسن أن نشير إلى كل منها إشارة مجملة مع شاهد نسوقه لها او شاهدين ، لنصل من بعد ذلك إلى موضوع كلامنا وهو مظهر العدول عن الربط بالإحالة وهو الذى أطلقنا عليه « التوسع » بأقسامه المختلفة

قلنا إنه يستغنى بالضمير عن إعادة اللفظ ولكن الإضمار تحف به الشروط التى إذا لم تتحقق فلا بد من العودة إلى الإظهار الذى هو الأصل . إنهما شرطان أولهما مطابقة اللفظ . وثانيهما مطابقة المدلول .

وإذا تخلف أحدهما لم يصح الإضمار . فقد يتحد اللفظ ويختلف المقصود ، نحو قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » (آل عمران ٢٦) فالملك الأول ملكوت الله والملك الثانى آتاه الله لمن شاء وأما الملك الثالث فقد نزعه من شخص آخر غير الذى رضى عنه فآتاه ملكا . وهذه الملاحظة صادقة أيضاً على تكرار لفظ « من تشاء » إذ المدلول مختلف فى الحالة الأولى عنه فى الثانية . وهكذا لا يتأتى الإضمار وقد يتحد القصد ويختلف اللفظ لغرض بيانى ، وإذا لا يمكن الإضمار . وهذه قضية ستجرى مناقشتها بعد قليل عند الكلام عن التوسع . أما إذا اختلف اللفظ والقصد كلاهما ، فواضح أنه لا يدعو داع إلى الإضمار ويصبح الإضمار أمراً يأباه المعنى .

وقد يستغنى بالإشارة عن إعادة اللفظ كما فى قوله : « ولباس التقوى ذلك خير (الأعراف ٢٦) (واللباس هنا مصدر لابس يلابس) ، وقد يستغنى عن إعادته باستبدال (ال) بالإضافة نحو «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » (النازعات ٤٠) أى مأواه وأما الربط باعادة المعنى دون اللفظ فيشهد له قوله تعالى . « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام (يونس ١٠) .

نصل الآن إلى التوسع ، وهو شائع فى الأسلوب القرآنى ، قليل فى غيره . من ذلك الربط بأل الموصولة (وهى غير أل العهدية التى سبق ذكرها) ، وذلك كما فى قوله تعالى . « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (الأنعام ٣٣) أى ولكنهم ، وكذلك . « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين » (إبراهيم ١٣) ، ومثله « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين » (الفرقان ٢٢) وكذلك « وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطرالمنذرين » (الشعراء ١٧٣) أى مطرهم .

ومن ذلك أيضا الربط بالموصول الاسمى وهو من وما والذى الخ ، فمن ذلك قوله « قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها » (العنكبوت ٣٢) أى به ، وكذلك « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (الكهف ٣٠) أى أجرهم . ومثله . « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى » (النساء ١١٥) أى نوله شقاقه وكذلك : «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما

كانوا يصنعون » (النحل ١١٢) أى بكفرهم وهذه الأخيرة تحتمل المصدرية أيضاً .

ومن الربط بالموصول الاسمى « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » (الأنعام ٧) أى لقالوا ، وكذلك . « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين » (يونس ٤٥) أى قد خسروا وكذلك . « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقــول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون »(الأنعام ٢٢) أى ثم نقول لهم ومن الاستعمال العدولى فى الربط مما يقع فى نطاق التوسع فيه أن يتم الربط بالوصف كما فى قوله تعالى : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » أى فقاتلوهم وكذلك . « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهــدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » (التوبة ١٢) أى فقاتلوهم ، وأيضاً : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » (التوبة ١٤) أى ويشف قلوبكم .

* * *

٤ — الرتبة :

فى النحو العربى نوعان من الرتبة ، أحدهما الرتبة المحفوظة وثانيهما الرتبة غير المحفوظة وأما المحفوظة فلا يتناولها الاستعمال العدولى إذ لا سبيل إلى قبول تشويشها واحتسابه بين صور الاختيار الأسلوبى . فاذا ورد ما يظهر معه تشويش الرتبة المحفوظة فإن ذلك يعد من قبيل الترخص(وسيأتى بيانه) وليس من قبيل الأسلوب العدولى . ولهذا النوع من تشويش الرتبة المحفوظة شواهد من والقرآن الشعر ، كقوله تعالى« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » (هود ٣٨) أى سخروا منه وهو يصنع الفلك . وكذلك قوله تعالى « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه » (هود ٤٢) أى ونادى نوح ابنه وهى تجرى بهم . ومنه قول الشاعر :

ألا يا نخلة فى ذات عرق
عليك ورحمة الله السلام

أى عليك السلام ورحمة الله . فكل ذلك من قبيل الترخص عند أمن اللبس ، أى التصرف فى القاعدة عند التأكد من وضوح المعنى . وما دام تشويش الرتبة المحفوظة لا يعد أسلوبا واختياراً فلا دخل للدراسات البلاغية ولا الأسلوبية به ، لأنه ترخص كما سبق والرخصة مرهونة بمحالها لا تتعداه ولا يقاس عليها .

أما الرتبة غير المحفوظة فهى التى تسمح بالاختيار الأسلوبى تقديما وتأخيرا ، وكل جهود البلاغيين فى هذا المجال محصورة فى نطاق الرتبة غير المحفوظة . وليس كون الرتبة غير محفوظة أنه لا رتبة ، كما أنه ليس معناه

عدم حفظها إذا طرأ عليها ما يدعو إلى حفظها فقد يجب تقديم المبتدأ أحيانا ، فتتحول رتبته غير المحفوظة إلى وجوب الحفظ وذلك أن يكون المبتدأ مثلا مما له الصدارة ، أو أن يكون الخبر محصوراً الخ . وفي أحيان أخرى يعرض ما يوجب تقديم الخبر وحتى حين يجب تقديمه لابد من النظر إليه مع حسبانه مقدما من تأخير » وأن أصله أن يتأخر ومعنى ذلك أن القول بحرية الرتبة أمر نسبي يصدق عند عدم العارض فإذا لم يعرض موجب لحفظها أو مانع منه . دخلت في نطاق الاختيار الأسلوبي فيقدم المتكلم أي العنصرين أبلغ أثرا عند التقديم وأكفأ في تبليغ ظلال المعنى المطلوب تبليغه فالتقديم والتأخير إما أن يكون مرتبطا بعادة تركيبية خاصة تمكنت من المتكلم ، وإما أن يكون اختيارا متعمدا لإحدى طريقتين صحيحتين من حيث النحو ، متفاوتتين من حيث الإفصاح بمكنون المعنى فإذا كان التقديم عادة كان مجال دراسته كل ما أنشأه الأديب . وإن كان اختيارا كان مجال دراسته الموضع الذي وقع فيه الاختيار الأسلوبي المعين

٥ - التضام

الجملة العربية نمط تترابط فيه الكلمات بعضها مع بعض بسمات وأصول معينة منها

(أ) الذكر فالأصل في كل كلمة في الجملة أن تكون مذكورة بحيث يعد استتارها أو حذفها على غير الأصل

(ب) الوصل . فالأصل في الكلمتين المترابطتين في داخل الجملة أن تتجاورا بلا فاصل . فالفصل بينهما على خلاف الأصل

(ح) الوظيفة . والمقصود أن كل كلمة في الجملة يناط بها أداء وظيفة سياقية خاصة فإذا وجد في الجملة ما لا تناط به وظيفة نحوية بعينها فذلك على خلاف الأصل أيضا

(د) الكفاية فالأصل في كل كلمة سيقت لبيان معنى ما أن تكون كافية لأداء هذا المعنى

(هـ) الاختصاص وهو رابطة سياقية تربط بين الكلمة وما تدخل عليه سواء أكانت الكلمة تركيبية كالحروف والأدوات والضمائر الخ ، أو معجمية كالكلمات المفردة فهذه الكلمات المفردة تنتظمها حقول معجمية تجعل بعضها صالحا للورود مع بعض الكلمات الأخرى دون بعض . انظر مثلا عبارة (فخر عليهم السقف من تحتهم) (١) .

هذا هو الأصل ولو التزم الاستعمال به لصح أن نسميه « الاستعمال الأصولي » ولكن القرائن بأنواعها قد تغني بين حين وآخر عن استصحاب هذا الأصل ، فيجعل الحذف بديلا للذكر ، ويجعل الفصل أو الاعتراض بديلا للوصل ، ويجعل الزيادة بديلا للوظيفة ويجعل تجاهل الاختصاص بديلا من مراعاته وسنحاول فيما يلي أن نعرض باختصار للحذف ثم الزيادة ثم الفصل ، ثم الاعتراض ثم تجاهل الاختصاص

---

(١) هذه عبارة وليست الآية الكريمة التي تقول

* فخر عليهم السقف من فوقهم *

(أ) الحذف :

الحذف عدول عن الذكر ، وشرطه أن يقوم دليل على المحذوف ، أو بعبارة أخرى أن يتم الحذف مع وجود القرينه الدالة على المعنى وقد يقسمون الحذف إلى نحوين تقضى بتقدير المحذوف فيه أصول الصناعه ، وبيانى يستقيم بتقديره المعنى ويبهم بدون تقديره السياق . وكلا النوعين وارد عند التفكير فى الأسلوب العدولى . ثم إن المحذوف قد يكون حرفا ، أو كلمة ، أو شطر جملة ، أو جملة ، أو كلاما متصلا طويلا لا يستقيم المعنى إلا بتقديره وسيأتى لكل نوع من هذا بشاهد أو أكثر . مع المحافظة على عدم الإطالة

فمن حذف الحرف ما نجده فى قوله تعالى « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » (التوبة ٩٢) فهناك حرف عطف محذوف هو الفاء ، إما إن نعطف « قلت » على « أتوك » فيكون الجواب « تولوا » . وإما إن تعطف « تولوا » على « قلت » فيكون الجـــواب « قلت » ولا مناص من تقدير الفاء إذ تقضى به أصول الصناعه

ومن حذف الكلمة ما فى قوله تعالى « وحملناه على ذات ألواح ودسر » (القمر ١٣) ؛ وسوغ الحذف أن الصفة خاصة بالمحذوف ، إذ لا يوصف بهذه الصفة إلا السفينة ، أضف إلى ذلك دلالة « وحملناه » « تجرى بأعيننا » ، وعود الضمير إلى نوح ، وقصته مذكورة قبل هذا الشاهد

وأما حذف شطر الجملة فمنه ما فى قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » (يس ٤٥ — ٤٦) والمحذوف جواب « إذا » وتقديره « أعرضوا » ودليله قوله « إلا كانوا عنها معرضين » .

وأما حذف كلام طويل يقتضيه المقام فنجده فى قوله تعالى : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » (يوسف ٣٢ — ٣٣) أى وظل على استعصامه ولم يفعل ما أمرته به فنفذوا أمرها فيه وأرسلوه إلى السجن فلم يرجعه ذلك عن الاستعصام ، قال رب السجن أحب إلى . وهذا النوع الأخير من الحذف يكثر فى القصص القرآنى فيقع من القصة موقع الحـــركة على المسرح من الحوار فتستغنى القصه عن تفصيله كما يستغنى الحوار على المسرح عن تفاصيل حركات الممثلين . وتقوم القرائن فى القصص القرآنى مقام عين المشاهد فى المسرح : هذه تعين على فهم معنى الحذف ، وتلك تعين على مشاهدة الحركة المسرحيه .

(ب) الزيادة

يسعى النحو إلى الكشف عن وظائف عناصر الجملة (المفردات) ، وتسعى

البلاغة إلى إيضاح دلالات الجمل ، فضالة النحو المعنى الوظيفى ، وضالة البلاغة المعنى الاجتماعى أو المعنى العام. فاذا صادف النحو فى الجملة عنصرا ليس له وظيفة « نحوية » عده زائداً فى الجملة مادام لا يمكن أن ينسب إلى إعراب معين ، فيقال مثلا : هذا فاعل أو هذا حال أو تمييز إلخ . وهذا الذى يعده النحويون زائداً لا يراه البلاغيون كذلك ، وإنما ينسبون إلى وجوده زيادة فى المعنى ، لأن « زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى » كما يقولون . فالفرق بين « ما زيد قائم » ، أو « ما زيد بقائم » أن الثانية أوكد من الأولى بسبب وجود الباء . وفيما يلى شاهدان على زيادة الحرف لتأكيد المعنى مأخوذان من القرآن الأول قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات » (فاطر ١٩ — ٢١) فقد زيد « لا » مع النور والحرور والأموات ، وذلك لتأكيد المعنى والثانى قوله تعالى . « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا » (هود ٢٤) فالذى معنا فى الآية هو شخصان لا أربعة بدليل قوله : « هل يستويان » ومعنى هذا أن الواو زيدت قبل الأصم وقبل السميع ، وأن المعنى « مثل الفريقين كالأعمى الأصم والبصير السميع » والواوان زائدتان للتأكيد وبيان قصور أول الرجلين لكونه بعاهتين ثم تفوق الثانى لخلوه منهما ولوضعه فى مقابل الأول ذى العاهتين .

(ج) الفصل

الأصل فى الكلام أن يكون متصلا والوصل هو الأسلوب الأصولى الملتزم بالأطر النظريه العامة للغة . ويترتب على ذلك أن الفصل أسلوب عدولى . وهو على نوعين : أحدهما نحوى والثانى بلاغى فأما النحوى فيفهم فى حدود الجمله الواحدة من حيث حيلولته بين عنصرين متلازمين فى الجملة أن يتصل أحدهما بالآخر وقد يكون بأجنبى أو بغير أجنبى والفصل بأجنبى ممجوج مستثقل وهو موضع سخط النحاة كقول الشاعر :

سراة بنى أبى بكر تسامى
على — كان — المسومة العراب

ففصل بين الجار والمجرور بما ليس من تتمة معناهما أما الفصل بغير أجنبى فهو اختيار أسلوبى يعد مسرحا من مسارح الإحسان والإجادة ومنه قوله تعالى

« يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » (الأنعام ١٥٨)

إذ جاء الفصل بالفاعل بين المفعول وصفته الجملة فلو قدم الفاعل لعاد الضمير على متأخر لفظاً ورتبة ، ولو أخره عن الصفة لطال الكلام بين الفعل وفاعله المفرد ، ومن ثم ينذر موضع الفاعل قلقا غير وثيق الصلة

بالفعل . أما الحذف بمعناه البلاغي فيكون بين الجملتين اللتين بينهما تمام الانقطاع كما يقول البلاغيون، كما يكون في مواطن انفعال المتكلم بالخوف أو الغضب أو نحوهما فتمام الانقطاع كأن تقول . ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ، اللهم اجمعهما لنا فالأولى تعجب والثانية دعاء ولا يكون بينهما عطف . وأما الفصل في مواقف الانفعال فالشواهد القرآنية عليه كثيرة منها

« ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ قال الذين حق عليهم القول ربنا — هؤلاء الذين أغوينا — أغويناهم كما غوينا — تبرأنا إليك — ما كانوا إيانا يعبدون »(القصص ٦٣) فصلوا بين الجمل لخوف العقاب

« وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك — ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق — إن كنت قلته فقد علمته - تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك -- إنك أنت علام الغيوب» المائدة ١١٦) فصل لدفع التهمة « فلما ألقوا قال موسى : ما جئتم به السحر — إن الله سيبطله — إن الله لا يصلح عمل المفسدين » (يونس ٨١) فصل للدهشة وخوف الفشل .

« وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه — قد شغفها حبا — إنا لنراها في ضلال مبين » (يوسف ٣٠) فصلن للانفعال بقصة الغريبة .

« وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً . ما لهم به من علم ولا لآبائهم -- كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » (الكهف ٤ ٥) فصل لإظهار الغضب من إفكهم وبهتانهم .

(د) الاعتراض :

الفرق بين الفصل بين المتلازمين وبين الاعتراض . أن الفصل يكون بما دون الجملة ولا يكون الاعتراض إلا بالجملة والجملة المعترضة غريبة في العادة عن السياق الأصلي للكلام ، جيء بها لغرض من أغراض المعنى . والاعتراض كالفصل من حيث ينتمي كلاهما إلى الأساليب العدولية . وفيما يلي طائفة من شواهد الاعتراض ، نسوقها طلبا لإدراك الغاية التي يرمي كل اعتراض إليها . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا) ولا مستأنسين لحديث » (الأحزاب ٥٣) فيجرى القول في الآية « غير ناظرين إناه ولا مستأنسين لحديث » ، ولكن الاعتراض جاء لتخفيف وطأة النهي وبيان مداه .

وقال تعالى : « ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين (ليس لك من الأمر شيء) أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » (آل عمران ١٢٧ – ١٢٨) ، فمجرى القول فى الآية « ليقطع طرفا . . . أو يكبتهم . . أو يتوب عليهم » ، والاعتراض لبيان أن كل شيء يصيب الذين كفروا إنما هو بإرادة الله فقط .

وقال تعالى : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللائى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن (فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله غفوراً رحيما » (النساء ٢٣) فمجرى القول فى الآية « . وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن . . وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » ، وإنما جاء الاعتراض لعدم كفاية مفهوم المخالفة المستفاد من قوله « اللاتى دخلتم بهن » فأكد الاعتراض هذا المفهوم .

بذا يتضح أن تحقيق معنى إضافى بواسطة الاعتراض مطلب فى جعل الاعتراض أسلوبا عدوليا ذا غايات أدبية .

(هـ) تجاهل الاختصاص :

سبقت الإشارة إلى دور الاختصاص فى إطار قرينة التضام . كما سبق القول بأن للاختصاص جانبا معجميا أيضا يتمثل فى أن كلمات المعجم قبائل يتآلف مع بعض ويكره بعضا آخر فلا يتآلف معه لما بين معنى هذا البعض وذاك من تعارض . وضربنا لذلك مثلا بعبارة « فخر عليهم السقف من تحتهم »(١) .

والمقصود بالاختصاص النحوى أن بعض الكلمات لا يرد إلا مع ما تتحقق فيه شروط خاصة من الكلمات الأخرى ، وتشيع ظاهرة الاختصاص بين الحروف والأدوات حتى إنها تتحول فى بعض الحالات إلى افتقار متأصل (أى بحسب أصل الوضع) إلى عنصر لغوى ذى شروط خاصة بعينها فحروف الجر تدخل على الأسماء دون الأفعال ، وحروف الجزم تدخل على الأفعال المضارعة دون بقية الأفعال ودون الأسماء ، وهلم جرا

وقد يدعو داع فنى أسلوبى إلى تجاهل اختصاص الكلمة بأختها ، فتدخل على غير ما تختص به والمعروف أن هناك مطابقة بين الموصوف والصفة فى التعريف والتنكير ولكن اختصاص النكرة بالنكرة يتجوهل فى عدة مواضع من القرآن ، منها :

* « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلها آخر » (ق ٢٤ – ٢٦) .

* « هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » (ق ٣٢ – ٣٣) ،

(١) هذه عبارة وليست الآية الكريمة

فخر عليهم السقف من فوقهم *

* « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون . . » (الحديد ٢٣–٢٤) ،

* « ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده » (الهُمَزة ١ – ٣) . فقد وصف الكفار فى الآية الأولى « بالذى جعل » ، ووصف الأواب الثانية « بمن خشى » ، ووصف المختال فى الثانية « بالذين » ، ووصف الهمزة فى الرابعة « بالذى جمع » وقد سهل هذا أمران .

الأول . إضافة النكرة إلى لفظ « كل » فى جميع الحالات

الثانى . وصف النـكرة بالنكرة قبل وصفها بالمعرفة فى جميع الحالات أيضا .

وكلا الأمرين يفيد النكرة تخصيصا وقد سبق أن قلنا إن التخصيص صنو التعريف .

وأما تجاهل الاختصاص المعجمى فلا يتم إلا مع استبدال العلاقة العرفية بين اللفظ والمعنى بعلاقة أخرى فنية كما سبقت الإشارة عند الكلام على مبدأ « النقل » ، وإذا تم التجاهل على هذه الصورة كانت النتيجة هى المجاز . فى قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهـدى » تجاهل الاختصاص الشراء بالسلع وللتعارض بين الشراء والضلالة ، وقد يأبى المعنى هذا التجاهل أحيانا كما فى المثال الذى سبق فى أول كلامنا عن هذه الظاهرة فى عبارة « فخر عليهم السقف من تحتهم » ، وعندئذ يستعصى التركيب على الاستعمال .

* * *

نصل الآن إلى مبدأ الترخص فى القرينة عند أمن اللبس . إن الإدراك الإنسانى قد لا تنبهه القرينة الواحدة ، فالطبيب لا يستطيع تحديد نوع المرض من ارتفاع الحرارة فقط ، لأن من طبيعة القرينة أن تدخل فى تحالف مع عدد من القرائن الأخرى يختلف نوعه باختلاف المدلول . وهكذا إذا انضم إلى درجة الحرارة قرائن أخرى معينة دل مجموع القرائن على مرض ما وإذا انضمت إليها قرائن أخرى دلت القرائن فى مجموعها على مرض آخر وكذلك لا تستقل العلامة الإعرابية ببيان الباب النحوى ولو سيقت وحدها لبيانه لاختلط الفاعل بنائب وبالمبتدأ وبالخبر . وهكذا كل ما استحق الرفع من أبواب النحو ، ولاختلط المفعول به بكل ما استحق النصب ، واختلط المجرور بالحرف بكل ما استحق الجر . لابد للنحو إذاً أن تتعدد قرائنه ليكون منها الإعراب والبنية والمطابقة والربط والرتبة والتضام والأداة ونغمة الكلام وسياق النص الخ . ولابد لكل باب نحوى أن يستدل عليه باثنين أو أكثر من هذه القرائن ، لأن القرينة الواحدة – كما سبق – لا يستحوذ على انتباه

السامع ولذا يتم تعزيزها بأختها «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى». ويحدث في الكثير من الحالات أن يتضافر عدد من القرائن على بيان المعنى ، وبعض هذه القرائن قد يكون زيادة على الضروري منها ، حتى ليمكن القول في هذا البعض : «إن المعنى هو الذي يقتضيه ولا يقتضي هو المعنى» . وهذا القول واضح في إعراب «قام موسى» إذ أن المعنى هو الذي اقتضى الرفع مقدر الضمة ، ولا وجود للضمة حتى تقتضي هي الفاعلية وهكذا أمن اللبس حتى مع عدم الرفع وقد تكون القرينة موجودة وثابتة في النص ولكن المعنى يقتضيها أيضاً فتصبح زائدة عن المطلوب كما في «قرأ الطالب الدرس» إذ الفاعل واضح والمفعول واضح بدون الضمة في الأول والفتحة في الثاني . هنا نقول إن المعنى اقتضى القرينة وليست القرينة هي التي اقتضت المعنى فلو نصبنا الفاعل ورفعنا المفعول لظل الفاعل فاعلا والمفعول مفعولا على الرغم من ذلك وقديماً رفعت العرب الثوب ونصبت المسمار في قولهم «خرق الثوب المسمار» دون أن يخشوا اللبس في المعنى . هكذا ترخص العرب في العربية

وكل قرينة مما ذكرنا سابقاً خضعت للترخص على ألسنة الفصحاء ذوي السليقة وأفصح الكلام كتاب الله تعالى ومن بعده أحاديث النبي ﷺ ثم شعر الجاهليين ثم من بعدهم . وقد وردت ظاهرة الترخص في القرائن عند أمن اللبس في كل هذه الأنواع من الكلام على نحو ما نرى في الشواهد التالية

١ - الإعراب .

(أ) قال تعالى

«لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما» (النساء ١٦٢) وقعت كلمة المقيمين بين مرفوعين ومعها الواو الدالة على العطف . فكان العطف مستند الترخص في الإعراب .

(ب) قال الشاعر :

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن
خطاك خفافا إن حراسنا أسدا

لو كان لدينا كلمتا «حراسنا» و «أسد» وأردنا بناء جملة اسمية لكانت «حراسنا» مبتدأ لأنها معرفة . ولكانت «أسد» خبرا لما فيها من معنى الوصف ويؤيد ذلك أن القاعدة تقضي بأنه لا يفصل بين «إن» واسمها إلا بخبرها الظرف أو الجار والمجرور فعلم إذاً أن «حراسنا» في بيت الشعر المذكور هي اسم «إن» فلم يبق لكلمة «أسدا» إلا أن تكون خبرا مع الترخص في الإعراب بسبب أمن اللبس .

(ج) قالت العرب : « خرق الثوب المسمار » . والفعل « خرق » فعل غير متنقل أى لا يمكن لفاعله ومفعوله أن يتبادلا التأثير بإيقاع الحدث . وبيان ذلك كما يلى :

الفعل المتعدى

- مؤثر
  - متنقل
    - علاجى
      - ضرب زيد عمرا
      - ضرب عمرو زيداً
    - غير علاجى
      - أحب زيد هنداً
      - أحبت هند زيداً
  - غير متنقل
    - مثل : أكل الرجل التفاحة
    - صنع النجار الباب
    - خرق الثوب المسمار
- غير مؤثر
  - مثل ذكرت زيدا
  - ورأيت عمرا

فإذا كان الفعل غير متنقل اتضح الفاعل من المفعول فأصبح لدينا قرينتان معنويتان هما الإسناد والتعدية وتغنى كلتاهما عندئذ عن الإعراب إذا حدث فيه ترخص ويصبح الإعراب قرينة زائدة عن المطلوب إذا بقى دون ترخص .

(د) قالت العرب أيضا « جحر ضب خرب » بجر الصفة « خرب » على الجوار فهنا نعود مرة أخرى إلى الاختصاص المعجمى وقائل الكلمات فليس بين الضب والخراب مناسبة معجمية كالتى بين الجحر والخراب أى أن الجحر يمكن أن يوصف بالخراب ولا يوصف به الضب وهكذا تصبح المناسبة المعجمية (أو الاختصاص المعجمى إن شئت) قرينة على التبعية تجعل الإعراب أمراً غير ذى بال . وهنا يحدث الترخص فى الإعراب بسبب أمن اللبس

٢ — التنبيه :

ترخص القرآن فى كلمة « سيناء » فسماها « سينين » وفى « إلياس » فقال : « إلياسين » وجعل « ميكائيل » على صورة « ميكال » و « مكة » صيرها « بكة » وترخص فى صيغ المبالغة فاستحدث من الكبر « كُبّاراً » ومن العجب « عجاب » وفى صيغة المصدر فجعل « كِذاباً » مصدرا للفعل « كذب » وفى صيغة المضارع من الافتعال فقال « يَهِدّى » و « يَخِصّمون » إلخ . وترخص الراجز فى « الأجل » فقال « الحمد لله العلى الأجلل » ، وفى الحمام فقال : « أو الفا مكة

من ورق الحمى » ، وترخص الشاعر فى «كيف» فقال :

كى تجنحون إلى سلم وما ثئرت
قتلاكمو ولظى الهيجاء تستعر

وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

* * *

٣ ـ الربط :

وهاك أمثلة وشواهد على الترخص فى الربط :

(أ) قال تعالى : «وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» (الأنعام ١٢١) ، حذفت الفاء الرابطة من جواب الشرط ، لوضوح المعنى بدونها بقرينة إعمانهم وهو قرينة خارجية ، من خارج النص

(ب) قالوا : «مررت بالبر قفيز بدرهم» أى منه ، فحذف الرابط ترخصا لاختصاص البر والقفيز أحدهما بالآخر . ولذلك لا يجوز «مررت بالعدو اصبع على الزناد» إذ لا يمكن الجزم بصاحب الاصبع : أهو المار أم العدو ؟ .

(ج) قال تعالى : «واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا» (البقره ٤٨) أى فيه حذف الرابط لوضوح المعنى بقرينة الجزاء وعدم التناصر وهما من خصائص يوم القيامة .

٤ ـ المطابقة .

وهذه شواهد قرآنية على الترخص فى المطابقة .

(أ) قال تعالى . «هذان خصمان اختصموا» (الحج ١٩)

(ب) قال تعالى . «فظلت أعناقهم لها خاضعين» (الشعراء ٤)

(ح) قال تعالى . «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» (الحجرات ٩)

(د) قال تعالى . «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب» (ص ٢١)

(هـ) قال تعالى : «فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين» (الشعراء ١٦)

(و) قال تعالى . «قالتا أتينا طائعين» (فصلت ١١)

(ز) قال تعالى . «السماء منفطر به، كان وعده مفعولا» (المزمل ١٨)

* * *

٥ ـ الرتبة .

سبق أن ذكرنا أن تشويش الرتبة المحفوظة لا يمكن احتسابه أسلوبا عدوليا ، وإنما يعتبر ترخصا فى قرينة الرتبة ، بخلاف تشويش الرتبة غير المحفوظة ، إذ يعد اختيارا أسلوبيا فنيا تتوالد عنه ظلال المعانى ومن شواهد الترخص فى الرتبة المحفوظة ، ما سبق

من قوله تعالى : « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » (هود ٣٨) وذلك لأن جملة الحال رتبتها التأخير فى كل الحالات وتقدير الكلام. وكلما مر عليه ملأ من قومه وهو يصنع الفلك سخروا منه . ومثله قوله تعالى . « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه » (هود ٤٢) أى ونادى نوح ابنه وهى تجرى بهم فى موج كالجبال . ومن ذلك قول الشاعر :

لعن الإله وزوجها معها
هند الهنود طويلة البظر

وقوله :

ألا يا نخلة فى ذات عرق
عليك ورحمة الله السلام

* * *

٦ — التضام :

وفيما يلى شواهد على الترخص فى قرينة التضام عند أمن اللبس .

(أ) « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف » (يوسف ٨٥) أى لا تفتأ، فحذفت الأداة من فعل لا يستعمل إلا مقترنا بها ، ولذلك احتفظ بمعناه عند حذفها لأن الفعل اقتضى الأداة

(ب) قال صلى الله عليه وسلم « إن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم » ، أى إن مما ينبت الربيع ما يقتل أو يلم بالقتل ، أى يكاد يقتل ذلك أن « من » فى قوله « مما » تفيد البعضية وهى لا يعبر عنها بالأفعال (مثل يقتل) بل بالأسماء والضمائر (مثل « ما » المقدرة) .

(ج) قال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى « لا أبرح » ويقال فيه ما قيل فى « تفتأ » فى رقم أ .

(د) قال الشاعر :

ما أنت بالحكم الترضى حكومته
.. ..

أى « الذى ترضى » لأن « ال » الموصولة لاتضام الأفعال وإنما تكون صلتها صفة صريحة على حد قول ابن مالك . فعلم برغم ما قيل أن المقصود « الذى ترضى » .

(هـ) قال الشاعر :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

اعتمد الترخص على قرينتين : الأولى أنه لا يقال : زجره يفعل ، وإنما يقال زجره أن يفعل ،والثانية وجود أن مع الفعل المعطوف وهو « أن أشهد » مما يدل على وجوب تقديرها مع الأول .

(و) قال الشاعر :

نحن الأولى فاجمع جمو
عك ثم وجههم إلينا

أى نحن الأولى نتحداك ، بقرينه «اجمع جموعك ثم وجههم إلينا»

* * *

هذه الشواهد المتقدمه تدل على ترخص الفصحاء فى فرائن الكلام عند أمن اللبس طلبا للخفه أو سعيا وراء الابتكار والإغراب أو خضوعا للضروره غير أن الترخص أدنى درجات الصواب لأنه يخالف القاعدة والسمه المتبعه كلتيهما. ولايشفع له إلا أن اللبس معه مأمون .

ماذا يبقى بعد كل أولئك ؟

لايبقى إلا الخطأ المواح الذى لاسند له من قاعدة أو أساليب أو أمن لبس وقد جوز بعض المتقدمين الخطأ على الفصحاء ، وهو أمر غريب حقا لسببين

١ ــ أن الفصيح إذا ترخص كان على ثقه من أمن اللبس ، وإذا كان الكلام غير ملبس فهو صواب ولئن صح أن تحتسب الرخصة من قبيل الشاذ أو القليل أو النادر أو المسموع الذى يحفظ ولايقاس عليه ، لقد كان احتسابها كذلك أكرم للفصحاء ، وأولى بما جئنا ببعض شواهده من النصوص القرآنية

٢ ــ أن هذا النوع من ترخص الفصحاء هو مع مايطلق عليا فى علم اللغة «الابتداع فى اللغه» أو «الابتكار اللغوى» . وهو فى بعض صوره يستهوى المجتمع ، فيصبح سنه فى الكلام . ويكون سببا فى تطور اللغه من عصر إلى عصر وربما كانت الفروق التى نلحظها اليوم بين لغة القرون الأولى واللغه العربية الفصحى المعاصرة ناشئة عن تأثير هذا النوع من الترخص . بل ربما جاءت عن ترسيخ أخطاء ذوى الجاه. وهى أحوج إلى التبرير من ترخص الفصحاء

والله ولى التوفيق ؛

تمام حسان

عضو المجمع

٢ ـ والعزل مصطلح ورد فى كلام الرضى فى الكافية على « إنْ » العازلة « ما » عن العمل . وقد حاول البحث أن يجمع إليها بعض الحروف الأخرى التى تقوم بوظيفة العزل ، مثل :

عزل « ما » « إنّ » وأخواتها عن العمل ، وهى المسماة بالكافّة أو المهيِّئة .

عزل « ما » بعض الظروف عن الإضافة ، وتخليصها للشرط . وهى المسماة بالمسلِّطة .

عزل « ما » بعض أنواع الكلم عن وظائفه ، ونقله إلى معان أُخرى ، وتسمى بالمغيرة .

ويُظهر البحث أهميَّة العزل من خلال التطبيق ، والتطور الوظيفى لبعض الأدوات ، مثل : « مهما » و « طالما » و « بينما » و « بينا » و « فيما » .. وأثر ذلك فى اللغة المعاصرة .

٣ ـ أما التعويض فهو من المصطلحات كثيرة الدّوران ، ويقصد به : التعويض من إحدى نونى « أنّ » فى حالة تخفيفها ، وذلك بوضع فاصل بينها وبين خبرها ، يدل عليها . وقد تناول البحث بالتفصيل آراء القدماء فى هذه المسألة ، وناقش كثيرًا من النصوص عندما تحدث عن « أنْ » فى القواعد المقرّرة ؛ مصدرية كانت أو تفسيريّة أو مخفَّفة من الثقيلة . ثم حاول البحث أن يقدِّم تفسيرًا لسبب الاختلاف بين « أنْ » المخفَّفة و « أنْ » المصدريَّة ، مبينًا أن ذلك مرجعه إلى البنية الدلالية لجملة كلٍّ منهما ، وأنه يمكن التجاوز عن شرط الفصل بين « أنْ » المخففة والمضارع بعدها ، إذا سبقت بفعل التحقيق الصِّرف. واستند البحث فى هذا كله إلى نصوص من القديم والحديث ، رابطًا بين التراث والمعرفة الجديدة .

٤ ـ وأما القطع ، فيقصد به : قطع الجمل عمَّا قبلها بوساطة حرف من أحرف القطع السبعة . وهذا المعنى قريب من المعنى الذى قصده أبو جعفر النحاس من كتابه : « القطع والائتناف » . وقد تتبَّع البحث بعض مواضع القطع فى القرآن الكريم ، وفى النصوص القديمة والحديثة ، ثم تعرَّض لقطع النعت بالواو ، وفرَّق بين القطع النحوى والقطع البيانى . وناقش بعض الاستعمالات الحديثة .

٥ـ والمقصود بكسر الإعراب : دخول بعض حروف الجر التى سمّاها النحويون - بالزائدة على المرفوع أو المنصوب من الأسماء ، لتحقيق أغراض فنية ؛ كالاستغراق . والشمول ، وتقوية العامل . وقد عرض البحث أمثلة لذلك .

٦ـ كما عرض لمعنى الامتداد فى الزمن ؛ من خلال « أنْ » و « كان » الزائدتين . وبين أن هذا المعنى يصاحب الواو الواقعة بعد « لَمَّا » و « حتى إذا » .

٧ـ وأخيرًا تناول البحث بعض المصاحبات فى القديم والحديث : فقد لوحظ كثرة مصاحبة الواو لبعض الأدوات فى اللغة المعاصرة : كوقوعها بين « ما » وصلتها ؛ ومجيئها مصاحبة لـ « بل » و « لابدَّ » و « حتَّى » و « ألّا » و « إلَّا » و « أنَّ » و « أنْ » و « لَا » الدعائية . وحاول البحث أن يقدِّم تفسيرًا لهذه الواو . من خلال عرض نماذج من النصوص القديمة ، ومن خلال تتبع أقوال النحاة والمفسِّرين . ثم الربط بين هذه الاستعمالات فى اللغة المعاصرة وما ورد من نصوص لغوية فى كتب التراث ؛ يُفهم منها : أن هذه الواو إنما تأتى فى هذه المواضع ؛ إمَّا لتقرير معنى الكلام السابق ، أو للدلالة على الشمول والاستقصاء فى جميع الأحوال .

* * *

تعرضنا فى بحث سابق [1] لضمير الفصل ، وتأثيره لفظا ومعنى فى الجملة العربية ، وأنه يأتى مصاحبا لبعض التراكيب فى الجملة الاسمية ، وأن استخدامه يحتاج إلى معرفة عميقة بمواضع الكلم فى الجملة ؛ لما له من تأثير فى لفظ العبارة ومعناها .

ونحاول فى هذا البحث أن نجمع بعض الحروف التى تصاحب أنماطا معيَّنة من التراكيب ، فى القديم والحديث ، ونضعها فى تصنيفات موضوعية ؛ لنرى مدى أهميتها فى الإفهام النحوى ، وقيمتها فى التركيب اللغوى ، وذلك من خلال المعانى الآتية :

* الربط .
* العزل .
* التعويض .
* القطع .
* كسر الإعراب .
* الامتداد فى الزمن .
* تقرير الكلام السابق .

أولا : الربط :

ويقصد به الدلالة على الشرط والجزاء أو ما يشبههما بالفاء أو مايقوم مقامها ، وذلك فى المواقع الآتية : —

* بين الشرط والجزاء .
* بين المبتدأ والخبر المشبهين للشرط والجزاء .
* بعد « أمّا » .
* بعد شرط مقدّر .

وسنتناول كل مسألة من هذه المسائل على حدة . .

١ — الربط بالفاء بين الشرط والجزاء :

إذا كان السكت أو جزم الفعل يقوم بوظيفة الربط بين الشرط والجزاء ، فإن الفاء تقوم مقام هذا العنصر الصوتى فى حالة عدم الجزم ، وينوب عنها فى

---

(١) ينظر : « ضمير الفصل ؛ قيمه الموقعية وآثاره التركيبية فى الجملة الاسمية الأصلية والمنسوخة » المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، تصدر عن جامعة الكويت ، العدد الثانى عشر ، المجلد الثالث — خريف ١٩٨٣ ، ص ٣٧ — ٦٣ .

أداء هذه المهمة أحيانا الهمزة أو إذا ، كما سيأتى .

يقول سيبويه (١ : ٤٣٥) « . . لايكون جواب الجزاء إلّا بفعل أو بالفاء » ويقول الجرجانى (ص ١٠٤٤) : « . . الجواب إذا وجد مجزوما علم أنه تابع للشرط ، غير منقطع عنه . فلم يفتقر إلى الفاء » وينص أبو حيان على معنى الربط صراحة بالجزم أو بالفاء ، فيقول (ص ٨١٠) : « ولو قيل : ربط الجملة الشرطية بالمضارع له طريقان : أحدهما : بجزمه ، والأخرى : بالفاء ورفعه لكان قولا » .

وقد اختلفت التسميات التى تُطْلَق على هذه الفاء ، فسيبويه (١ : ٤٣٥) يكتفى بألا يجيز استخدام « الواو » أو « ثم » بدلا منها ، وكأنه يجرّدها فى هذه الحالة من معنى العطف . والأخفش يسميها « فاء الابتداء » حيث يقول (ص ٤٦) : « والفاءُ إذا كانت جواب المجازاة كان مابعدها أبدا مبتدأ ، وتلك فاءُ الابتداء لافاء العطف ، ألا ترى أنلك تقول : إنْ تأْتِنى فأَمْرك عندى على ماتحب ، فلو كانت هذه فاءُ العطف لم يجز السكوت حتى تجيء لما بعد « إنْ » بجواب .

ويطلق عليها ابن السراج (٢ : ١٩١) وابن جنى (٣ – ا : ٢٥٤) والجرجانى (ص ١٠٤٠) وابن يعيش (٨ : ٩٥) : « فاء الإتباع » وبعضهم يطلق عليها « فاء الجزاء » و « فاء الجواب » و « علامة الجزاء » و « فاء السببية » و « التعقيب » (الرضى ٢ : ٢٦٢ ، ٢٦٣) .

ولعلّ تسميتها « فاء الربط » جامع لكل هذه التسميات ، لأن الإتباع والسببية والتعقيب وغير ذلك من التسميات فيه معنى الربط ، واتصال مابعد الفاء بما قبلها ؛ ولذا يقول ابن السراج (١ : ٦٧) : « لأنها إنما تدخل فى الكلام لتتبع شيئا بشيء ، وتعلّق مادخلت عليه من الكلام بما قبله » ويقول الرضى (٢ : ٢٦٢) : « لأن معناها التعقيب بلا فصل ، والجزاء متعقب للشرط كذلك » ويقول المرادى (ص ٦٦) : « وأما الفاء الجوابية فمعناها الربط ، وتلازمها السببية ، قال بعضهم : والترتيب أيضا » .

ويوضح ابن جنى معنى الربط بالفاء فى جواب الشرط بقوله (٢ - ١ : ٢٥٤) : «إنما دخلت الفاءُ فى جواب الشرط توصلا إلى المجازاة بالجملة المركبة من المبتدأ والخبر ، أو الكلام الذى يجوز أن يبتدأ به ، فالجملة فى نحو قولك : إن تحسن إلىّ فالله يكافئك ، لولا الفاءُ لم يرتبط أول الكلام بآخره» ثم يضرب أمثلة للجمل التى يجوز الابتداءُ بها ، فيقول (٢ - ١ : ٢٥٥) : «ومن ذلك قولك : إن يقم فاضربه ، فالجملة التى هى اضربه ، جملة أمريّة ، وكذلك : إن يقعد فلا تضربه ، فقولك : لاتضربه ، جملة نهييّة ، وكل واحدة منهما يجوز أن يبتدأ بها ، فتقول : اضرب زيدا ، ولاتضرب عمرا » .

والجمل التى يجوز الابتداء بها ، ويجب أن تدخلها الفاءُ إذا وقعت جزاءً هى :

الجملة الطلبية .

كالأمر والنهى والاستفهام والتمنى والعرض والتحضيض والدعاء والنداء .

الجملة الإنشائية .

كنعم وبئس وكل ماتضمّن معنى إنشاء المدح والذم ، وكذا عسى وفعل التعجب والقسم .

الجملة الاسمية :

سواء تصدّرت بالحرف « لا » أو «إنَّ » ، نحو قوله تعالى :

«من يضلل الله فلا هادى له » .

(سورة الأعراف : ١٨٦)

« إن تعذبهم فإنَّهم عبادك » .

(سورة المائدة : ١١٨)

أو لم تتصدر نحو : إن جئتنى فأنت مكرم . وأما قوله تعالى : « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

(سورة الأنعام : ١٢١)

فلتقدير القسم ، كما يقول الرضى (٢ : ٢٦٢ ، ٢٦٣) أى إن الجواب المذكور للقسم المقدر ، ولذا لم يقترن بالفاء ، كما لم يقترن بالفاء فى قوله تعالى : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات ماكان حجّتهم إلا أن قالوا ائتوابآبائنا »

(سورة الجاثية : ٢٥)

ويجوز أن يكون (إذا) لمجرد الوقت من دون ملاحظة الشرط، كما لم يلاحظ في قوله تعالى: «وإذا ما غضبوا هم يغفرون».

(سورة الشورى: ٣٧)

وقوله: «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون».

(سورة الشورى: ٣٩)

الجملة الفعلية المصدّرة «بحرف سوى (لا) و (لم) في المضارع»، سواءٌ كان الفعل المصدر بها ماضيا أو مضارعا، فيجب في الماضي مصدّرا بقد ظاهرة أو مقدرة، نحو قوله تعالى: «إن كنتُ قلتُه فقد علمته».

(سورة المائدة: ١١٦)

«إن كان قميصه قُدّ من قُبُل فصدقت».

(سورة يوسف: ٢٦)

أو مصدرا بما أو «لا»، نحو إن زرتني فما أهنتك، وإن زرتني فلا ضربتك ولا شتمتك[1]. وفي المضارع مصدّرا بلن وسوف والسين وما. (الرضى ٢: ٢٦٣).

وإنما وجب اقتران الجزاء بالفاء في هذه المواضع لأن هذه الأشياء لا تقع شرطا. فلا تقع أيضا جزاءً: إلا مع علامة الجزاء، وهي الفاء.

«بقي الماضي غير المصدّر بحرف، والمضارع غير المصدر أو المصدّر بـ «لا» أو لم، أما الماضي غير المصدّر والمضارع المصدر بلم فلا يدخلهما الفاء أصلا، نحو: إن ضربتني ضربتك أو لم أضربك؛ لأن انهما مع مناسبتهما لفظا للشرط.. تعلّقا بكلمة الشرط معنويا، وذلك بانقلابهما إلى المستقبل بكلمة الشرط، فلم يحتاجا إذن إلى العلامة.» (الرضى ٢: ٢٦٣).

وأما المضارع المثبت والمصدّر بـ «لا» فيجوز فيهما الفاء وتركه.» أما الفاء فلأنهما كانا قبل الشرط صالحين للاستقبال فلا تؤثر الأداة فيهما تأثيرا ظاهرا، كما

---

(١) يلاحظ في هذا المثال أنه كرر الحرف (لا) وذلك للدلالة على النفي؛ لأن الأصل في (لا) الداخلة على الماضي أن تدل على الدعاء، نحو: لا نامت أعين الجبناء، لافض فوك، لا أراك الله مكروها... إلخ، إلا إذا تكررت، ففي هذه الحالة تدل على النفي، نحو: «فلا صدق ولا صلى» (سورة القيامة: ٣١) أو عطفت على ما يشبهها نحو: «ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء» (سورة الأنعام: ١٤٨) فلو كانت للدعاء لوجبت الفاء علامة على الجزاء؛ لأن الجملة طلبية حينئذ.

أثرت فى فعلت ولم أفعل ، وأما تركه (أى الفاء) فلتقدير تأثيرها فيهما ؛ لأنهما كانا صالحين للحال والاستقبال ، على ماتقدم فى المضارع أنّ (لا) صالحة لهما على الصحيح . فالأداة خلصتهما للاستقبال ، وهو نوع تأثير » (الرضى ٢ : ٢٦٣) .

قال الله تعالى : « إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم » .

(سورة فاطر : ١٤)

وقال : « فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخسا ولا رهقا » .

(سورة الجنّ : ١٣)

وقال الله تعالى فى المضارع المثبت : « وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين » .

(سورة الأنفال : ٦٦)

وقال : « ومن عاد فينتقم الله منه » .

(سورة المائدة : ٩٥)

ومذهب سيبويه تقدير المبتدأ فى الآية الأخيرة ؛ ليكون الجواب جملة اسمية فى التقدير ، أى : ومن عاد فهو ينتقم الله منه ، «إذ المضارع المثبت صالح للجزاء بنفسه ، فلولا أنه خبر مبتدأ لم يدخل عليه الفاء » . (الرضى ٢ : ٢٦٣) .

تقوم الهمزة – ويقصد بها همزة الاستفهام – مقام الفاء فى الربط بين الشرط والجزاء ، نحو قوله تعالى : « أرأيت إن كذّب وتولى ، ألم يعلم بأنّ الله يرى » .

(سورة العلق : ١٣ ، ١٤)

وقوله سبحانه : « قال ياقوم ، أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده ، فعُمّيت عليكم ، أنُلْزِمكُمُوها وأنتم لها كارهون » .

(سورة هود : ٢٨)

ومن كلام علىّ – رضى الله عنه – فى نهج البلاغة : « وإن فعل الله ذلك لكم ، أتؤمنون ؟ » . ونحو قولنا : إن أكرمتك أتكرمنى ؟ .

« ويجوز حمل هل وغيرها من أدوات الاستفهام على الهمزة ؛ لأنها أصلها » (الرضى ٢ : ٢٦٤) قال الله تعالى : «قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلاّ القوم الظالمون »

(سورة الأنعام : ٤٧)

وقال تعالى : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، مَن إله غير الله يأتيكم به » .

(سورة الأنعام : ٤٦)

وقد تدخل الفاء على (مَن) لعدم عراقتها فى الاستفهام ، كما فى قوله تعالى : «قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته . . .»
(سورة هود : ٦٣)

كما يجوز أن «تقول : إن أكرمتك فهل تكرمنى ؟» .
(الرضى ٢ : ٢٦٤)

أما (إذا) فتستعمل رابطة قبل الجملة الاسمية . نحو قوله تعالى : «وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون»
(سورة الروم : ٣٦)

وهى «أقل من الفاء؛ لثقل لفظها ، وكون معناها من الجزاء أبعد من معنى الفاء ، وذلك لتأويله بأن وجود الشرط مفاجئ لوجود الجزاء ومتهجّم عليه» .
(الرضى ٢ : ٢٦٢)

ومن أجل هذا أغفل كثير من النحويين ذكرها فى جواب الشرط .

وفى الجمع بين «الفاء» و «إذا» خلاف ؛ فالخليل يرى أنه «لو كان إدخال الفاء على إذا حسنا لكان الكلام بغير الفاء قبيحا . فهذا قد استغنى عن الفاء ، كما استغنت الفاء عن غيرها . فصارت «إذا» ههنا جوابا ، كما صارت الفاء جوابا» (سيبويه ١ : ٤٣٥) . وتابعه أكثر النحاة . وممن خالفه الزيادى . فهو يرى أنه يجمع بين الفاء وإذا .

وقد رد ذلك ابن جنى (٢ ــ ١ : ٢٦٤) بأنه يستغنى بما فى «إذا» من معنى الإتباع عن الفاء ، واستدل بالآية (إذا هم يقنطون) . وعند الجرجانى (ص ١٠٤٤) لوجمع بينهما لكان كالجمع بين فاء وفاء ، وهذا لايجوز .

ويقول أبو حيان (ص٨٠٧) : إنه لايجوز الجمع بين الفاء وإذا فى الشرط ، وإن كان ذلك جائزا فى غيره. ويعلل السيوطى (٤ : ٣٢٩) لعدم جواز اجتماعهما بأنه لايجتمع المعوض مع العوض ، «فإذا» عنده عوض من الفاء . وللعلماء فيها خلاف ، أهى حرف أم ظرف[1] ، والصحيح أنها

---

(١) تظهر ثمرة هذا الخلاف فى غير الشرط نحو : خرجت فإذا الأسد ؛ لمن قال : إنها ظرف جعلها خبرا مقدما ، والاسم المرفوع بعدها مبتدأ مؤخرا ، وكأن القائل قد قال : خرجت فى وقت خروجى أو فى مكان خروجى : الأسد ؛ على تقدير الزمان أو المكان . ومن قال : إنها حرف جعل الاسم المرفوع بعدها مبتدأ حذف خبره ، والتقدير : خرجت فإذا الأسد موجود أو حاضر أو نحو ذلك .

حرف يرد للمفاجأة .

(الرضى ٢ : ١١٤)

وقد اشترط النحاة لوقوعها رابطة أن يكون الجواب جملة اسمية غير طلبية ولا منفيّة ، وأن تكون أداة الشرط «إنْ» ؛ لأن السماع إنما ورد في «إنْ» (السيوطى ٤ : ٣٢٨)

والمتتبع لاستعمالات «إذا» الفجائية في القرآن الكريم يلحظ أنها قد جاءت رابطة في جواب «إنْ» و «إذا» الشرطيتين ، و «لمّا» الحينيّة ، نحو قوله تعالى :

«وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون» (سورة الروم : ٣٦)

وقوله : «ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» (سورة الروم : ٢٥)

وقوله سبحانه : «فلمّا نجّاهم إلى البر إذا هم يشركون» .

(سورة العنكبوت : ٦٥)

كذلك فيما يشبه الجواب ، لـ «بينا» أو «بينما» نحو قول الحكم بن عبدل :

بينا هُم بالظَّهر قد جلسوا
يوما ، بحيث يُنزَّع الذَّبَحُ

فإذا ابن بشر في مواكبه
تهوى به خَطَّارةٌ سُرُحُ

(الخزانة ٣ : ١٧٨)

٢ ـ الربط بالفاء بين المبتدأ والخبر :

وتقع الفاءُ رابطة بين المبتدأ والخبر إذا كان المبتدأُ باقيا على الابتداء ، أو دخل عليه ناسخ ، هو «إنَّ» أو «أنَّ» أو «لكنَّ» ، وكان واحداً مما يلى :

(أ) الاسم الموصول الذى صلته جملة فعلية أو شبه جملة ، مثل قوله تعالى : «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم . . » (سورة البقرة : ٢٧٤)

« إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
(سورة الأحقاف : ١٣)

ونحو قولهم : الذى يأتينى فله درهم ، الذى عندك أو فى الدار فله درهم

(ب) الاسم النكرة المنعوت بالجملة الفعلية أوشبه الجملة ، نحو : رجل

يأتيني فله درهم ، رجل في المسجد فله درهم »

(ج) كلمة « كلّ » المضافة إلى ماسبق نحو :

كل الذى تفعل فلك أو عليك ، كل رجل يتّقى الله فسعيد. وأجاز الرضى في شرح الكافية (١ : ١٠٢) أن تكون مضافة لغير المنعوت السابق ، نحو « كل رجل فله درهم » لمضارعته لكلمات الشرط في الإبهام ».

وفى اللغة العامية تحل الواو محل الفاء في مثل هذا التركيب ، فنحن نقول في الأمثال الشعبية : كلّ فولة ولها كيّال ، كلّ واحد وله يوم ، كلّ وقت وله أذان ، كلّ عقدة ولها حلّال .

(د) الاسم الموصوف بالموصول السابق ، بشرط قصد العموم واستقبال معنى الصلة ، نحو قوله تعالى :

« قل إن الموت الذى تفرّون منه فإنه ملاقيكم . . » (سورة الجمعة : ٨)

(هـ) الوصف المعرّف بأل ، نحو قوله تعالى :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما »

(سورة المائدة : ٣٨)

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة »

(سورة النور : ٢)

فكل من « السارق » « والزانية » مبتدأ ، خبره دخلت عليه الفاء ؛ وسيبويه يرى أن الخبر في هاتين الآيتين محذوف ، والفاء داخلة على جملة مستأنفة ؛ كأنه لما قال جل ثناؤه : « سورة أنزلناها وفرضناها . قال : في الفرائض الزانية والزانى ، أو الزانية والزانى في الفرائض ؛ ثم قال : فاجلدوا ، فجاء بالفعل بعد أن مضى فيهما الرفع . . . وكذلك : والسارق والسارقة ، كأنه قال : وفيما فرض الله عليكم السارق والسارقة ، أو السارق والسارقة فيما فرض عليكم ... »

(سيبويه ١ : ٧١ ، ٧٢)

وقد شبه النحاة المبتدأ في هذه التراكيب بأدوات الشرط من وجهين : إفادة العموم ، واستقبال صلته . ولذلك

عندما دخلت الفاء على ما صلته ماض ، مثل قوله تعالى :

«وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله »

(سورة آل عمران : ١٦٦)

أوّلوه على معنى : وما يتبين إصابته إياكم . وقد فصّل الرضى فى الكافية (١ : ١٠١ ، ١٠٢) هذه المسألة ، وقارن بين أسلوب الشرط وهذه التراكيب . ويمكن تشبيه هذه المقارنة بالشكل الآتى :

الاسم الموصول (مبتدأ)	أداة الشرط	صلة الموصول	فعل الشرط	خبر المبتدأ	فعل الجواب
	من		يقرأ		يستفد
الذى	.	يقرأ		يستفيد	

ولهذه المشابهة بين هذا النوع من المبتدأ وأسماء الشرط لم يجيزوا دخول النواسخ عليه مع وجود الفاء ، «وذلك لأنه إنما دخله الفاء لمشابهة المبتدأ لكلمة الشرط ، ويلزمها التصدّر ، ولايدخلها نواسخ الابتداء ؛ لأن تلك النواسخ تؤثر معنى فى الجملة ، وما يؤثر فى الجملة لايدخل على جملة مصدّرة بلازم التصدّر ، إلا أن هذا المبتدأ لكونه غير راسخ العرق فى الشرطية جاز أن يدخله مالايؤثر فى الجملة المتأخرة معنى ظاهرا.. » (الرضى ١ : ١٠٢) وهو : إنّ وأنّ ولكنّ . «نص على ذلك فى «إنّ وأنّ» سيبويه ، وهو الصحيح الذى ورد نص القرآن المجيدبه» (الأشمونى ١ : ٢٢٥)

كقوله تعالى : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفّار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا » (سورة آل عمران : ٩١)

وقوله تعالى : « إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم .

(سورة آل عمران : ٢١)

وقوله تعالى . «واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن الله خمسه »

(سورة الأنفال : ٤١)

أما «لكن » فقد جاء في الشعر

فوالله مافارقتكم قاليا لكم

ولكن مايقضى فسوف يكون

(الأشموني ١ : ٢٢٥)

٢ - الربط بالفاء بعد « أما » :

تدخل الفاء بعد «أمّا » نحو : أمّا زيد فكريم . وشواهدها كثيرة ، قال تعالى : «فأمّا الزّبد فيذهب جُفاءً ، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض » (سورة الرعد : ١٧) وقال سبحانه : «كذّبت ثمود وعاد بالقارعة ؛ فأمّا ثمود فأُهلكوا بالطاغية ، وأمّا عاد فأُهلكوا بريح صرصر عاتية » .

(سورة الحاقة : ٤ - ٦)

وقال تعالى :

« . . فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا . . »

(سورة البقرة : ٢٦)

وقال عزّ وجلّ .

«أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر . . . »

(سورة الكهف : ٧٩)

«وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين... »

(سورة الكهف : ٨٠)

«وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة . . . » (سورة الكهف : ٨٢)

ومن كلام الحارث بن مسهر :

أَلَوْمًا كلمّا أهلكتُ شيئا

وأمّا الدّهرُ ، هندُ ، فلايلام

وقد شاع استخدام «أما » في اللغة المعاصرة ، كلازمة من لوازم العرض في المؤلفات والرسائل العلمية والأدبية ، ويستعملها الرافعي كثيرا ، مثل قوله في «وحي القلم » :

«أمّا هذا ، فنعم » (١ : ١٠٩)

« أمّا كيف كان حسنًا أو رديئًا .. فذلك مالا سبيل إليه . . . »(٣ : ٢٨٥)

« أما هو فرآني...وأما أنا فما رأيته... »

(١ : ١٠٩)

«أمّا أنا فقد سمعت . . . وأمّا أنت فقد رأيت . . » (١ : ١١٤)

ويستعملها الدكتور طه حسين كثيرا جدًا ، وأحيانا يستخدمها مصاحبة للآن ، نحو : «أمّا الآن . . . ف . . . .»

(حسين : ١ – ١٢٨)

وإذا وقعت بعدها «إنَّ» تفتح همزتها[1] نحو :

«أمّا أنك خير من هذا الشيخ فى نفسك وفى نفسى فهذا شيء ليس فيه شك ، وأمّا أنك خير منه عند الله ، فالله وحده يعلم هذا . .»

(حسين : ١ – ١٠١)

ولوجود هذه الفاء بعدها قال النحاة إن فيها معنى الجزاء ؛ لأن قولنا : أمّا عبد الله فمنطلق ، محوّلة عن جملة عبد الله مهما يكن من أمره فمنطلق . كما مايفهم من قول سيبويه (٢ : ٣١٢) : «وأما (أمّا) ففيها معنى الجزاء ؛ كأنه يقول : عبد الله مهما يكن من أمره فمنطلق ، ألا ترى أن الفاء لازمة لها أبدا» . .

وقد تبع سيبويه فى هذا القول كثير من النحاة ، أمثال المبرد فى المقتضب (٣ : ٢٧) ، وابن جنى فى الخصائص (١ : ٣١٢) والنحاس فى إعراب القرآن (١٢٣٦) وابن يعيش فى شرح المفصل (٩ : ١١) والرضى فى شرح الكافية (٢ : ٣٩٧) وابن هشام فى المغنى (١ : ٥٩) والسيوطى فى الهمع (٤ : ٣٥٥) ، وغيرهم .

ففى الجملة «أما زيد فمنطلق» يرون أن معناها : مهما يكن من شيء فزيد منطلق . وقد نابت «أمّا» عن أداة الشرط وفعل الشرط (مهما يكن) ، وزحلقت الفاء الرابطة للجزاء بالشرط ، وقدّم عليها بعض الجواب ، حتى لاتقع بعد الأداة مباشرة .

---

(١) هذا أحد الفروق بينها وبين «أما» المخففة ، حيث تكسر «إن» بعدها ، مثلها فى ذلك مثل «ألا» الاستفتاحية فى نحو قوله تعالى : «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم» (سورة يونس : ٦٢) ومن كلام الرافعى (١ : ١٩٨) : «أما إن غلطة الرجل فى المرأة لا تكون إلا من غلطة المرأة فى نفسها» .

فاذا كانت «أما» بمعنى «حقا» فتحت بعدها «أن» نحو : أما أنك ذاهب (السيوطى ٤ : ٣٦٨) .

ويوضح ابن جنى هذه المسألة أيّما إيضاح ، فيقول فى الخصائص (١ : ٣١٢ ، ٣١٣) : « . . ألا ترى أن تحرير هذا القول إذا صرّحت بلفظ الشرط فيه صرت إلى أنك كأنك قلت : مهما يكن من شيء فزيد منطلق ، فتجد الفاء فى جواب الشرط فى صدر الجزأين مقدمة عليهما ، وأنت فى قولك : «أمّا زيد فمنطلق » إنما تجد الفاء واسطة بين الجزأين ، ولاتقول : أمّا فزيد منطلق ، كما تقول فيما هو فى معناه : مهما يكن من شيء فزيد منطلق ، وإنما فعل ذلك لإصلاح اللفظ. ووجه إصلاحه أن هذه الفاء ، وإن كانت جوابا ولم تكن عاطفة ، فإنها على مذهب لفظ العاطفة وبصورتها ، فلو قالوا : أما فزيد منطلق ، كما يقولون : مهما يكن من شيءفزيد منطلق ، لوقعت الفاء الجارية مجرى فاء العطف بعدها اسم وليس قبلها اسم ، إنما قبلها فى اللفظ حرف ، وهو « أمّا » فتنكّبوا ذلك لما ذكرنا ، ووسطوها بين الحرفين ؛ ليكون قبلها اسم وبعدها آخر ، فتأتى على صورة العاطفة ، فقالوا : أمّا زيد فمنطلق ، كما تأتى عاطفة بين الاسمين فى نحو : قام زيد فعمرو . . »

وما ذكره ابن جنى فى باب « إصلاح اللفظ » خاصًا بـ « أمّا » يعد من قبيل التناسق فى السياق ؛ إن صح هذا التعبير بقصد ترتيب الكلمات فى الجملة أو العبارة على وفق القواعد المقررة ، وهو ما يطلق عليه علماء اللغة (Word order) . والذى دعا النحاة إلى تضمين « أمّا » معنى الشرط تفسير سيبويه لها بـ (مهما يكن من شيء) فمن هنا زعموا أنها نابت مناب (مهما يكن ..) « ولم يعلموا أن سيبويه وأمثاله من المتقدمين .. كان قولهم فيها تفسير معنى للتقريب ، لا تقدير إعراب ، وأنه ليس من الضرورى مطابقة الإعراب للمعنى دائمًا ، إذ لا يمكنه أن يتابعه فى كل حال ، وقد يخالفه لأسباب صناعية ».
(قباوة : ٥١)

وقد صرّح بعض النحاة بأن أمّا « لو كانت شرطًا لتوقف جوابها على شرطها ، مع أنك تقول : أمّا عِلْما فزيد عالم ؛ فهو عالم ، إن ذكرت العلم أو لم

تذكره . بخلاف : إن قام زيد قام عمرو ؛ فقيام عمرو متوقف على قيام زيد » .

(الصبان ٤ : ٤٤)

« ولو كانت الفاء بعدها رابطة للجواب لالتزم فيها قياس الفاء الرابطة ، فكانت غير لازمة في مثل قول كثيّر عزة :

وما أنصفتْ ؛ أمّا النساء فبغّضت
إلينا ، وأمّا بالنوال فضنّتِ

وقول عمر بن أبي ربيعة :

أتَتْ رجُلًا أمّا إذا الشمس عارضت
فيَضْحى ، وأمّا بالعشيّ فيَخْصَر

لأن الجواب ههنا جملة فعلية ، ولا يلزم في مثله الفاء بعد أدوات الشرط »
(قباوة : ٥٥) ، إذ الفعل غير المصدَّر لاتدخله الفاء في الجزاء .

والتحقيق أن « أمّا » تصرف الكلام إلى الابتداء ، كما قال سيبويه (١ : ٤٩) وهي موضوعة لمعنيين .

١ - لتفصيل مجمل ، نحو قولك : هؤلاء فضلاء ؛ أمّا زيد ففقيه ، وأمّا عمرو فمتكلم ، وأمّا بشر فكذا ، إلى آخر ماتقصد ... » (الرضي ٢ : ٣٩٥)

٢ - ولتوكيد الكلام . « تقول : زيد ذاهب ، فإذا قصدت توكيد ذاك ، وأنه لا محالة ذاهب ، وأنه بصدد الذهاب ، وأنه منه عزيمة قلت : أمّا زيد فذاهب » (الزمخشري ١ - ١ : ٢٦٦) ومعنى التفصيل فيها ملحوظ ؛ سواء كرّرت كما تقدم ، أو لم تتكرّر ، نحو قوله تعالى :

« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا ؛ فأمّا الذين آمنوا بالله ، واعتصموا به ، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا » (سورة النساء الآية ١٧٤ ، ١٧٥) ؛ لأن المقصود : وأمّا الذين كفروا بالله فلهم كذا وكذا .. ولم تذكر السّورة ذلك ، وإنما هو مفهوم من السياق .

والفاء بعدها لازمة لأنها أصبحت جزءًا من التركيب ، بمقتضى ماتقدم من معنى التفصيل والتوكيد ، كما لزمت الباء « أفْعِل به » في التعجب . وقد نقل السيوطي في الهمع (٤ : ٣٥٥ ، ٣٥٦) عن أبي حيان قوله : « هذه الفاء جاءت في اللفظ خارجة عن قياسها ؛ لأنها لم تجئ رابطة جملتين ، ولا عاطفة مفردًا

على مثله . والتعليل بكون (أمّا) في معنى الشرط ليس بجيد . لأن جواب (مهما يكن من شيء) لا تازم فيه الفاءُ ، إذا كان صالحًا لأداة الشرط ، والفاءُ لازمة بعد (أمّا) سواء كان ما دخلت عليه صالحًا لها أو لم يكن ، ألَا ترى أنه يقال : مهما يكن من شيء لم أُبال به . ويمتنع ذلك في (أمّا) ويجب ذكر الفاء . فدل على أن لزوم الفاء ليس لأجل ذلك » .

ولذا لا تحذف إلّا إذا دخلت على قول قد حذف استغناء عنه بالمقول أو في ضرورة أو في ندور .

مثال الأول : قوله تعالى : « ... فأمّا الذين اسودّت وجوههم ، أكفرتم بعد إيمانكم ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » (سورة آل عمران : ١٠٦) أي : فيقال لهم : أكفرتم . فحذف القول استغناء عنه بالمقول ، فتبعته الفاءُ في الحذف . «وزعم بعض المتأخرين أن الفاء لا تحذف في غير الضرورة أصلًا ، وأن الجواب في الآية : « فذوقوا العذاب » . والأصل : فيقال لهم : ذوقوا العذاب ، فحذف القول ، وانتقلت الفاءُ للمقول ، وأن ما بينهما – أي : أمّا والفاء – اعتراض ».

(الصبان ٤ : ٤٥)

ومثال الثاني : قول الشاعر :

فأمّا القتال ، لا قتال لديكم
ولكنّ سيْرا في عراض المواكب

(الأشمونى ٤ : ٤٥)

وكان القياس أن يقال : فلا قتال . فحذفت الفاءُ للضرورة .

ومثال الثالث : ما خرّج البخارى من قوله صلى الله عليه وسلم : « أمّا بعد ، ما بال رجال يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله ... » .

وقول عائشة – رضى الله عنها – : « أمّا الذين جمعوا بين الحج والعمرة طافوا طوافًا واحدًا ... » فحذف الفاء في الحديث وقول عائشة نادر .

إعراب ما بعد أمّا :

تبين ممّا سبق أن « أمّا » حرف تفصيل وتوكيد وليست أداة شرط ولا نائبة عنه . ولابدّ من الفاء في التركيب المصاحب لها .

ويمكن تسمية هذه الفاء باللازمة ، أو الرابطة ، تشبيهًا لها بالفاء فى قولهم : الذى يأتينى فله درهم ، إذ هى تصل مابعدها بما قبلها . وليس المقصود ربط الجزاء بالشرط .

ويعرب مابعد « أمّا » بحسب موقعه من الكلام قبل دخول « أمّا » يقول المبرد (٣ : ٢٧) : « وجملة هذا الباب : أن الكلام بعد (أمّا) على حالته قبل أن تدخل ، إلّا أنه لابدّ من الفاء ... » .

ويلى « أمّا » واحد من ستة :

أحدها : المبتدأ ، نحو : أمّا عبد الله فمنطلق .

والثانى : الخبر ، نحو أمّا فى الدار فزيد .

والثالث : جملة الشرط دون جوابه ، نحو : « فأمّا إن كان من المقرّبين ، فرَوْح وريحان وجنّة نعيم » .

(سورة الواقعة الآية ٨٨ ، ٨٩)

والرابع : اسم منصوب لفظًا أو محلاًّ ، نحو : فأمّا اليتيمَ فلا تقهر ، وأمّا السائل فلا تنهر ، وأمّا بنعمة ربك فحدث »

(سورة الضحى : ٩ ، ١٠ ، ١١)

والخامس : اسم منصوب بمحذوف يفسّره مابعد الفاء ، نحو : أمّا زيدًا فاضربه .

والسادس : ظرف ، نحو : أما اليوم فاضرب زيدا .

(خالد الأزهرى ٢ : ٢٦٢)

هذا ، وقد يقع بعد « أمّا » ما يتكرّر ذكره بعد فائها ، وذلك :

* إما مصدر مكرر ضمنا ؛ بأن يذكر بعد الفاء ما اشتق من ذلك المصدر نحو : أمّا عِلْماً فعالم .

* وإما صفة مكرر لفظها بعد الفاء ، نحو : أمّا صديقاً مصافياً فليس بصديق مصافٍ .

* وإما غير ذلك ، نحو : أمّا أبوك فلا أبا لك ، وأمّا العبيد فذو عبيد ، وأمّا زيد فقد قام زيد .

« فالمنكر من المصدر والوصف يجب عند الحجازيين نصبهما ، ويختار ذلك بنو تميم .. والمعرف من المصدر يجب

رفعه عند بنى تميم ..... والمعرف من الوصف مرفوع عند الجميع بلا خلاف . وأما غير المصدر والوصف فمرفوع عند الجميع معرفا كان أو منكرا » .

(الرضى ٢ : ٣٩٧)

فالمرفوع فى كلّ ما ذكر على أنه مبتدأ ، بعد الفاء خبره ، والمنصوب فى الصفة على أنه حال مما بعد الفاء ، وفى المصدر المنكر على أنه حال مؤكدة أو مفعول مطلق لما بعد الفاء .

وأجاز الحجازيون فى المصدر المعرف : الرفع والنصب ، الرفع على الابتداء ، والنصب على أنه مفعول مطلق ، وقيل على أنه مفعول له ، وأنكره ابن الحاجب قائلا : « وأقول : كون المصدر [المعرف] المنصوب مفعولا له عند الحجازيين لا دليل عليه ، ولو كان كذا لجاز : أمّا للعلم فعالم . والأولى أن يقال : المنصوب عند بنى تميم والحجازيين فى الصفة على أنه حال مما بعد الفاء ، وفى المصدر المعرف على أنه مفعول مطلق لما بعد الفاء ، وفى المصدر المنكر على أنه حال أو مفعول مطلق لما بعد الفاء ».

(الرضى٢ : ٣٩٨)

ولا يستنكر هنا عمل ما بعد الفاء فيما قبلها ، « وإن كان ذلك ممتنعاً فى غير هذا الموضع »

(الرضى ٢ : ٣٩٦)

أمّا الموقع الإعرابي للمشتق المرفوع بعد الفاء فى حالة نصب المصدر ، نحو : أمّا عِلْما فعالم ، وأمّا العلمَ فعالم ، فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى : فهو عالم .

ويبدو من كل ما تقدم أن الأصل فى « أما » أنها تفيد نوعاً من القصر البلاغى ، فتدخل على المبتدأ والخبر ، نحو : زيد عالم ، فتكون : أمّا زيد فعالم ، وتدخل على المصدر وما يؤكده ، نحو : هو عالم عِلْما ، فتكون : أمّا عِلْما فعالم ... إلخ .

تبقى مسألة لها علاقة « بأمّا » وهى قولنا : (وبعد ، فأقول) بإدخال الفاء ؛ فقد ذكر المعربون أن الأصل فى هذه العبارة هو : (مهما يكن من شىء بعد هذا فأقول) ثم حذف (مهما

يكن من شيء) وأقيمت (أمّا) مقامه ، ثم حذفت (أمّا) وعوضت منها الواو ، فالواو نائبة عن (أمّا) . وهذا التقدير مبني على أن (أمّا) حرف شرط جازم ، وعلى أن أساس هذه العبارة : أمّا بعد ، فأقول . « والصواب فى مثل هذه العبارة أن تكون الواو استئنافية . والفاء زائدة ، والظرف (بعد) متعلقاً بـ (أقول) » .

(قباوة : ٥٩)

وشبيه بهذا مازعموا فى إعراب قوله تعالى : « بل اللهَ فاعبد » .

(سورة الزّمر : ٦٦)

فقد قيل : إن الأصل : مهما يكن من شيء فاعبد الله . فالفاء واقعة فى جواب « أمّا » مقدّرة .

(ابن هشام ١ : ١٨٠)

والمختار فى هذا الباب – كما تقدم – أن تكون الفاء زائدة لتزيين اللفظ ، ولا حاجة إلى التقدير .

٤ – الربط بالفاء بعد شرط مقدر :

هذه هى المسألة الأخيرة فى مواضع الربط بالفاء . فقد يعطف بالفاء على مقدّر محذوف ، هو جملة فعلية ، أو شرط وفعله ، يكون سبباً للمذكور ، نحو قوله تعالى :

« وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا .. » .

(سورة البقرة : ٦٠)

إذ التقدير : فضربه بها فانفجرت ، أو : فإن ضربت بها فقد انفجرت .. وتسمى هذه الفاء « الفاء الفصيحة » لإفصاحها عن مقدّر . وقيل : إن كان المقدّر الذى أفصحت عنه الفاء شرطاً سميت « فصيحة » ، كما مرّ فى الآية على التقدير الثانى :(فإن ضربت بها فقد انفجرت) . أما تسميتها فصيحة على التقدير الأول : (فضربه بها فانفجرت) فمن باب المجاز العقلى

(خالد الأزهرى ٢ : ١٥٣ ، ١٥٤)

ويبدو أن تسميتها بالفصيحة جاءت متأخرة ، أو من اختصاص علماء البيان ، فقد ذكر الرضى (٢ : ٣٦٦) هذه الفاء ، وسمّاها « السببية » وعرّفها : بأن يصلح تقدير إذا الشرطيّة قبلها ،

ومثّل لها بنحو : زيد فاضل فأكرمه . أي : إذا كان كذا فأكرمه .

وقد قال الزمخشري في الكشاف (١ : ٧١) في تفسير الآية السابقة : « وإذ استسقى موسى لقومه ... » : « فانفجرت : الفاء متعلّقة بمحذوف ، أي : فضرب فانفجرت ، أو : فإن ضربت فقد انفجرت . وهي على هذا فاء فصيحة ، لا تقع إلا في كلام بليغ » .

ويفهم من كلام « يس » في حاشيته على التصريح (٢ : ١٥٣) نقلا عن السعد في التلخيص أن الفاء الفصيحة هي الواقعة بعد شرط مقدّر . وقد حمل النحاة على هذه الفاء كثيرا من النصوص القرآنية [١] ، نحو قوله تعالى : « أم لهم مُلك السموات والأرض وما بينهما . فليرتقوا في الأسباب »

(سورة ص : ١٠)

أي : إذا كان لهم ذلك فليرتقوا ..

وقوله : « قال أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ، قال فاخرج منها » .

(سورة ص : ٧٦ ، ٧٧)

أي : إذا كان عندك هذا الكبر فاخرج .

وقوله : « ربّ ، فأنظرني »

(سورة ص : ٧٩)

أي : إذا كنت لعنتني فأنظرني .

وقوله : « فإنك من المنظرين »

(سورة ص : ٨٠)

أي : إذا اخترت الدنيا على الآخرة فإنك من المنظرين .

وقوله : فبعزّتك لأُغوينّهم أجمعين »

(سورة ص : ٨٢)

أي : إذا أعطيتني هذا المراد فبعزتك...

وقوله سبحانه :

« يا عبادي الذين آمنوا ، إن أرضي واسعة فإيّاي فاعبدون » .

---

(١) ينظر : ابن جني في المنصف ٢ : ٢٦٦ ، والرضي في شرح الكافية ٢ : ٣٦٦ ، وابن هشام في المغني ٢ : ٧٢٠ .

(سورة العنكبوت : ٥٦) أى : إذا لم يتأت إخلاص العبادة لى فى هذه البلدة فإياى فاعبدونى فى غيرها .

وقوله عزّ وجلّ :

« أم اتّخذوا من دونه أولياء ، فالله هوالولىّ » (سورة الشورى : ٩) أى : إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولىّ .

وقوله : « أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً . فكرهتموه ». (سورة الحجرات : ١٢) أى : إن صحّ هذا فقد كرهتموه .

وسواء أكانت الفاء عاطفة أم فصيحة فهى فى كلتا الحالتين رابطة ؛ بمعنى أنها تدخل فى الكلام لتتبع شيئاً بشىء ، وتعلقّ مادخلت عليه من الكلام بما قبله ، ولذا يقول الرضى (٢ : ٣٦٦) : « اعلم أنه لاتنافى بين السببية والعاطفة ؛ فقد تكون سببية وهى مع ذلك عاطفة جملة على جملة ، كما فى الآية الكريمة السابقة : « وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت » أى : فضرب فانفجرت .

وقد تكون استئنافية ، كما فى الآيات المتقدمة التى حملها النحاة على الفصيحة ، إذا لم نقدّر محذوفا .

وقد تكون زائدة ، وذلك إذا وقعت فى أول الكلام ، نحو قوله تعالى :

« قال إبراهيم : فإنّ الله يأْتى بالشمس من المشرق ، فأْت بها من المغرب ، فبُهت الذى كفر » . (سورة البقرة : ٢٥٨)

وفائدة زيادتها ، كما يقول الرضى (٢ : ٣٦٧) : « التنبيه على لزوم ما بعدها لما قبلها لزوم الجزاء للشرط » .

ويلاحظ تكرار الفاء فى هذه الآية وتنوّعها ؛ فهى زائدة فى «فَإنّ » واستئنافية فى : « فَأْت » و « فُبُهت » .

وعلى هذا ، لاحاجة إلى الحذف والتقدير ونكتفى بإعراب ظاهر هذه الآيات ، مادام ذلك ممكناً ، دون خلل بالمعنى .

ثانيا : العزل :

خص الرضى (١ : ٢٦٧) هذه التسمية بـ « إنْ » العازلة « ما » عن العمل . ويُقصد به هذا أحد أُمور أربعة :

* عزل « إنْ » « ما » النافية عن العمل.

* عزل « ما » « إنّ وأخواتها » عن العمل.

* عزل « ما » بعض الظروف عن الإضافة ، وتخليصها للشرط .

* عزل « ما » بعض أنواع الكلم عن وظائفه ، ونقله إلى معان أخرى .

١ — عزل « إنْ » « ما » النافية :

الأصل فى « ما » النافية ألا تعمل ، كما فى لغة بنى تميم ، إذ قياس العوامل أن تختص بالقبيل الذى تعمل فيه ؛ من الاسم أو الفعل ، لتكون متمكنة بثبوتها فى مركزها ، و « ما » مشتركة بين الاسم والفعل .

والحجازيُّون يجيزون عملها ، لكن بشروط ، منها : ألّا يليها « إنْ » وألّا ينتقض النفى بإلّا . وعلى لغتهم ورد فى التنزيل :

« ما هذا بشرًا » (سورة يوسف : ٣١)

« ماهنّ أمهاتِهم » (سورة المجادلة : ٢)

وإنما عملت مع عدم الاختصاص ، لقوة مشابهتها لـ « ليس » ، لأن معناهما سواء فى الحقيقة ، فمعنى « ليس » فى الأصل : ما كان ، ثم تجرّدت عن الدلالة على الزمان ، فبقيت مفيدة نفى الكون .

ومعنى « ما » مجرد النفى ، ومعلوم أن نفى الشىء بمعنى نفى كونه : سواء من حيث الحقيقة .

ولما كان قياس إعمالها ضعيفاً انعزلت لأدنى عارض . فمن ذلك : مجىء « إنْ » بعدها ، نحو قول فَروة بن مُسيك :

وما إنْ طبّنا جبن ولكن

منايانا ودولــة آخرينا

(ابن يعيش ٥ : ١٢٠)

فالمعنى : ماطبّنا جبن .

وإنما عزلتها ، لأنها وإن كانت زائدة ، لكنها تشابه « إنْ » النافية لفظاً ، فكأن « ما » النافية دخلت على نفى ، والنفى إذا دخل على النفى أفاد الإيجاب ، فصارت « إنْ » كإلّا الناقضة لنفى « ما » فى نحو : مازيد إلّا منطلق . أو يقال : إنما انعزلت للفصل بينها وبين معمولها بغير الظرف .

وقد جاءت « إنْ » بعد « ما » غير عازلة فى قول الشاعر :

بنى غدانة ما إنْ أنتم ذهبــا

ولا صريفاً ، ولكن أنتم الخزف

(ابن هشام ١ : ٢٢)

على نصب الخبر بعد « ما إنْ » . وقد خرّجه الكوفيون على أن « إنْ » نافية مؤكدة لـ « ما » . وردّ عليهم بأنه لا يجوز الجمع بين حرفين متفقى المعنى إلّا مفصولا بينهما . كما فى « إنَّ زيدًا لقائم » فقد فصل بين « إنَّ واللام » وكلاهما يفيد التوكيد . بالاسم . والعرب قد استعملت « إنْ » الزائدة بعد « ما » الموصولة ، الاسمية والحرفية ؛ لشبهها فى اللفظ بـ « ما » النافية قال تعالى : « ولقد مكناهم فيما إنْ مكنّاكم فيه » . (سورة الأحقاف : ٢٦) « فلو لم تكن « إنْ » المقترنة بـ « ما » النافية زائدة ، لم يكن لزيادتها بعد الموصولتين مسوّغ » (خالد الأزهرى ١ : ١٩٧) .

وإذا كانت « إنْ » زائدة أو نافية مؤكدة ، فهل هناك من فرق بينهما ، مع أن الزائدة مؤكدة أيضاً ؟ قيل : إن الزائد فى الكلام هو المسوق لمحض التأكيد دون النافى المؤكد ، وهو يعدّ أجنبياً من « ما » بخلاف النافى المؤكد فليس بأجنبى . (يس ١ : ١٩٧) « وبالأَوْلى تأكيد « ما » النافية بـ « ما » نافية أُخرى ؛ فلا يبطل عملها » (الصبان ١ : ٢٤٧) .

ويرى الدكتور أنيس (ص ١٩٥) أن الأَداة « ما إنْ » قد تطوّرت فى الصورة الحديثة إلى الأَداة (مِنْ) التى قال عنها النحاة : إنها تفيد التنصيص على العموم ، فى مثل قوله تعالى : « وما يخفى على الله من شىء فى الأَرض ولا فى السماء » (سورة إبراهيم : ٣٨) فهى تدلّ على تأكيد نفى الخفاء على الله ، أيًّا كان قدر هذا الخفاء .

أمّا كيف تطورت « ما إنْ » إلى « مِنْ » فالمرجّح — كما يقول الدكتور أنيس — أن الهمزة قد سهلت ، أو سقطت من الكلام ، ثم انكمشت الأَداة لكثرة استعمالها ، وكان حقها أن تصبح (مَنْ) بفتح الميم ، ولكن التباس « مَنْ » الاسمية بالحرفية جعل القياس يلعب دوره عند النحاة وهكذا قيست هذه الأَداة بـ « مِنْ » الجارة التى تشاركها الحرفيّة ، ونطق بها « مِنْ » بالكسر . هذا رأى الدكتور أنيس .

ولكن ، أَلَا يجوز أن تكون الأَداة (ما إنْ) قد تطورت إلى (ما .. مِنْ)

ووقع الفصل بينهما . حتى لايجمع بين حرفين متفقي المعنى ؟

وبذلك لانحتاج إلى التفسير السابق . وبخاصة أن القرآن الكريم يكثر فيه هذا التركيب . نحو : « فما منكم من أحد عنه حاجزين » (سورة الحاقة :٤٧) « ما جاءنا من بشير ولا نذير » (سورة المائدة : ١٩) والمعنى النحوى فى التركيبين (ما إنْ ...) و (ما .. مِنْ ..) واحد . غير أن كلا منهما يمثل مرحلة من الاستعمال اللغوى .

والذى يبدو لى أن (إنْ) هذه قد مرّت بمراحل تطوّرية على الوجه الآتى :

* استعملت فى أول الأمر أداة للنفى ، مثل : لا .

* ثم استعملت « ما » فى مرحلة لغوية لاحقة .

* وفى فترة متأخرة استعملت « ما » مع « إنْ » أداة نفى مركبة . وكثر ذلك فى الشعر القديم ، كما تدلّ عليه كثرة النصوص اللغوية .

* ثم كثر استعمال « ما » فى النفى ، وقلّ استعمال « إنْ » .

وفى اللغة المعاصرة تستخدم « ما إنْ » بمعنى مختلف . وبخاصة فى الإذاعة وفى النشرات الإخباريّة والصحافة ، وذلك نحو :

« فما إنْ هبط الرئيس على سلّم الطائرة ، حتى أخذت المدفعية تطلق إحدى وعشرين طلقة » . ويلاحظ انتقال معناها الوظيفى إلى معنى « المفاجأة » وفيها عنصر الزمن ، ووقوع الماضى بعدها . وأحياناً تفتح همزة « إنْ » فيقال : « فما أن هبط الرئيس.. » والفرق بينهما أن « أنْ » فى الحالة الثانية تكون مصدريّة ، و « ما » ظرفية . والمعنى : « لحظة هبوط الرئيس » وفيها عنصر المفاجأة أيضاً . أمّا فى الحالة الأولى (ما إنْ » بكسر الهمزة ، فتكون « إنْ » لتأكيد معنى الظرفية المستفاد من « ما » كما تقدم .

٢ ـ عزل « ما » « إنّ وأخواتها » عن العمل :

وتلحق « ما » « إنّ وأخواتها » فتزيل اختصاصها بالأسماء (ما عدا ليت) ، وتهيئها للدخول على الأفعال نحو :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » (سورة فاطر : ٢٨) .

« واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » (سورة الأنفال : ٤١) .

« كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » (سورة الأنفال : ٦) .

ونحو قول امرئ القيس :

ولكنما أسعى لمجد مؤثل

وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وقول آخر :

أعد نظرا ياعبد قيس لعلما

أضاءت لك النار الحمار المقيدا

(الأشمونى ١ :٢٨٤)

و « ما » هذه زائدة ، فخرجت « ما » الموصولة والموصوفة والمصدرية ، نحو : إنَّ ما عندك حسن . وإنَّ ما فعلت حسن . وتكتب الأخيرة مفصولة من « إنَّ » فرقاً بينها وبين الزائدة .

ودخول « ما » فى « إنَّ » و « أنَّ » يفيد – علاوة على العزل – معنى الحصر ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى :

« قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحَى إلىّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد » (سورة الكهف :١١٠)

أى « ما يوحى إلىّ إلَّا قصر الإلٰه على الوحدة ، فالحصر الأول من قصر الصفة على الموصوف قصر قلب ، نُزّل المخاطبون المشركون منزلة من اعتقد إيحاء الإشراك إلى نبيّنا صلّى الله عليه وسلم حيث أصرّوا عليه . والثانى من قصر الموصوف على الصفة قصر قلب أيضاً ؛ والإتيان به مبالغة فى الردّ ، وإلّا فمجرد ثبوت الوحدة ناف للتعدّد » (الصبان١ : ٢٨٣)

وجاء الحصر فى « إنما » و « أنما » من اجتماع « إنَّ » وهى للإثبات ، و « ما » وهى للنفى ، فصرف الإثبات للمذكور والنفى لغيره . وقيل لاجتماع مؤكدين : « إنَّ » و « ما » الزائدة . واعترض على هذا بأن اجتماع مؤكدين لايستلزم الحصر ، وإلاّ لوجد فى « إن زيدا لقائم » ، لاجتماع « إنَّ » و « اللام » وكلاهما للتوكيد . وأجيب « بأن اجتماع مؤكدين على وجه تركبهما أقوى لشدة التلاصق فيه » ... وبأن « ما » هذه نافية أصالة ، لكن انسلخ عنها النفى بعد التركيب فصارت زائدة ، بدليل عدم ذكر منفيها » (الصبان ١ : ٢٨٣) .

وإهمال « إنَّ » وأخواتها إذا اتصلت بها « ما » مذهب سيبويه والجمهور . وذهب بعض النحويين إلى بقاء العمل فى « ليت » ، لأنه مسموع كقول النابغة الذبيانى :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا
إلى حمامتنا أو نصفه فَقَدِ

(الأشمونى ١ : ٢٨٤) فقد روى بنصب الحمام على الإعمال ورفعه على الإهمال ، وذلك لبقاء « ليتما » على اختصاصها بالأسماء ، حتى ذهب بعضهم إلى وجوب إعمالها . أما البواقى فذهب الزجاج وابن السّراج إلى جواز إعمالها ، ووافقهم ابن مالك (الأشمونى ١ : ٢٨٤) ولذا أطلق فى قوله :

ووَصْل « ما » بذى الحروفِ مبطل
إعمالها ، وقد يُبَقّى العمل

ويطلق النحويون على « ما » هذه تسميات كثيرة ، منها : الكافّة ، والزائدة والمهيئة . (ابن هشام ١ : ٣٤٠)

وذهب ابن درستويه وبعض الكوفيين إلى أن « ما » مع « إنَّ وأخواتها » اسم مبهم بمنزلة ضمير الشأن فى التفخيم والإبهام . وأن الجملة بعده مفسرة له ، ومخبر بها عنه . (السيوطى ٢ : ١٩١) .

بل لقد ذهب جماعة من الأصوليين والبيانيين إلى أنها نافية : بدليل أنها أفادت مع « إنَّ » معنى الحصر ، كما أفادة النفى والإثبات بإلاَّ . (ابن هشام ١ : ٣٤١ ، والسيوطى ٢ : ١٩١) .

٣ ـ عزل « ما » بعض الظروف عن الإضافة وتخليصها للشرط :

١ ـ يقول سيبويه (١ : ٤٣٢) : « ولا يكون الجزاء فى » حيث « ولا فى » إذْ « حتى يضم إلى كل واحد منهما » ما « فتصير » إنْ « مع » ما « بمنزلة » إنما « و » كأنما « . وليست » ما « فيهما بلغو ، ولكن كل واحد منهما مع » ما « بمنزلة حرف واحد : نحو حيثما تكن أكن ، إذ ما تخرج أخرج .

وقد تابع كثير من النحويين (١) سيبويه

(١) أمثال المبرد فى المقتضب (٢ : ٤٨ ، ٥٤) وابن السراج فى الأصول (٢ : ١٦٦) والنحاس فى إعراب القرآن (ص ١٣٦) والفارسى فى الإيضاح (ص ٣٢١) وابن بابشاذ فى شرح المقدمة المحسبة (١ : ٢٤٧) . والجرجانى فى المقتصد (١٠٥٦ ـ ١٠٥٧) والزمخشرى فى المفصل (١٧٠ ـ ١٧١) وابن الشجرى فى الأمالى (٢ : ٢٤٥) وابن يعيش فى شرح المفصل (٤ : ٩٢ ، ٧ : ٤٦) والرضى فى شرح الكافية (٢ : ٢٥٤) وابن هشام فى المغنى (١ : ٩٢ ، ١٤١) والسيوطى فى الهمع (٤ : ٣٢١) .

فى أن « ما » تكسب « حيث » و «إذْ » معنى الشرط . واختلفوا فى حقيقتها : أهى اسم أم حرف ؟ وقد نقل السيوطى فى الهمع (٤ : ٣٢١) هذا الخلاف ، فقال : « وفى « إذما » خلف ، فذهب سيبويه إلى أنها حرف « كإنْ » ، وذهب المبرد وابن السّراج والفارسى إلى أنها اسم ظرف زمان ، وأصلها : « إذْ » التى هى ظرف لما مضى ، فزيد عليها « ما » وجوباً فى الشرط ، فجزم بها ، واستدلّ سيبويه بأنها لما ركبت مع « ما » صارت معها كالشئْ الواحد ، فبطل دلالتها على معناها الأوّل بالتركيب ، وصارت حرفاً » .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يلحظ أن « إذْ » قد جاءت للشرط بدون « ما » قال تعالى فى سورة الأحقاف (الآية : ١١)

« وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » فهل نعدّ « إذْ » هنا من بقايا استعمالات الماضى ، التى تطورّت إلى « إذ ما » فيما بعد ؟

أما غير « حيث » و « إذْ » فيرى المبرد (٢ : ٥٤) : أنك « فى زيادة ما » وتركها مخيّر ، تقول : إن تأتنى آتك ، وإمّا تأتنى[1] آتك ، وأين تكن

---

(١) إما : أ – تكون شرطية ، وحينئذ يكثر اتصال الفعل بعدها بنون التوكيد ولا تتكرر ، وتقع الفاء فى جوابها ، نحو : « فإما ترين من البشر أحدا فقولى . . » (سورة مريم : ٢٦) ، ونحو : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (سورة الأنفال : ٥٨) .

يقول الفراء (١ : ٤١٤) : « . . ولا تكاد العرب تدخل النون الشديدة ولا الخفيفة فى الجزاء حتى يصلوها بما ، فإذا أوصلوها آثروا التنوين ؛ وذلك أنهم وجدوا لـ « إما » وهى جزاء شبيها « بإما » من التخيير ، فأحدثوا النون ، ليعلم بها تفرقة بينهما ، ثم جعلوا أكثر جوابها بالفاء ، وكذلك جاء التنزيل . . » .

فجميع ما فى القرآن من الشرط بعد « إما » مؤكد بالنون ؛ لمشابهة فعل الشرط بدخول « ما » للتأكيد لفعل القسم ؛ من جهة أن « ما » كاللام فى القسم ؛ لما فيها من التأكيد (ينظر : الإتقان للسيوطى ١ : ١٧٦ – ١٧٧ ، والبرهان للزركشى ٢ : ٤١٥ – ٤١٦) .

واستعمال « إما » فى الشرط نادر فى عربية اليوم ، ولعل ذلك راجع إلى حاجة « إما » إلى نون التوكيد فى الفعل بعدها ، واللغة المعاصرة تحاول التخفف من نون التوكيد .

ب – وتكون عاطفة ، وحينئذ يجب تكرارها ، وهذا المعنى هو الغالب فى اللغة المعاصرة ، نحو :
« وخيل إلى أن النواميس الطبيعية قد اختلت فى جسمى ؛ إما بزيادة وإما بنقص » (الرافعى ١ : ١٠١) .
« النساء اثنتان ؛ فإما جميلة تنفر من قبحى ، وإما دميمة أنفر من قبحها » (الرافعى ٣ : ٢٨٨) .
قال تعالى : « وآخرون مرجون لأمر الله ؛ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم » . (سورة التوبة : ١٠٦)

أكن ، وأينما تكن أكن . وأيًّا تكرم يكرمك ، و « أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » (سورة الإسراء : ١١٠).

وذكر الفراء أن ظروف الاستفهام إذا وصلت بـ « ما » كانت جزاء وجُزم بها ، يقول الفراء (١ : ٨٥) : « إذا رأيت حروف الاستفهام قد وصلت « بما » . مثل قوله : أينما ، ومتى ما ، وأيّ ما ، وحيث ما وكيف ما و « أيّاما تدعوا » كانت جزاءً ، ولم تكن استفهاماً ، فإذا لم توصل بـ « ما » كان الأغلب عليها الاستفهام ، وجاز فيها الجزاء » .

تبقى من الأدوات : ما ومن وأنّى ومهما ولم يرد ذكر لها موصولة بـ « ما » عند أحد من النحاة الذين ورد ذكرهم . غير أن الخليل قال عن مهما : « هي « ما » أدخلت معها « ما » لغوا . بمنزلتها مع « متى » إذا قلت : متى ما تأتني آتك وبمنزلتها مع « إنْ » إذا قلت : إمّا تأتني آتك ، وبمنزلتها مع « أين » كما قال سبحانه وتعالى : « أينما تكونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ » [سورة النساء : ٧٨] وبمنزلتها مع « أيّ » إذا قلت : أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ، ولكنهم استقبحوا أن يكرروا لفظاً واحدًا ، فيقولوا : « ماما » فأبدلوا الهاءَ من الألف التي في الأُولى . وقد يجوز أن يكون « مَهْ » « كإذْ » ضم إليها « ما » » (سيبويه ١ : ٤٣٣) .

« . . إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى » . (سورة طه : ٦٥)

ولا تستعمل « إما » هذه بعد نهى » لا تقول : لا تضرب إما زيدا وإما عمرا ؛ لأنها للتخيير ، فكيف تخيره وأنت قد نهيته عن الفعل . . » (ابن الشجرى : ٢ : ٣٤٥) .

ولا تدخلن « أو » على « إما » ولا « إما »على «أو » وربما فعلت العرب ذلك ؛ لتآخيهما في المعنى على التوهم فيقولون : عبد الله إما جالس أو ناهض . . وفي قراءة أبي : « وإنا وإيا كم لإما على هدى أو في ضلال مبين » ، فوضع « أو » في موضع « إما » (الفراء ١ : ٣٨٩ – ٣٩٠) والآية المذكورة من سورة سبأ : ٢٤ .

والفريق بين « أو » « وإما » من ناحيتين :

الأولى ؛ « أنك إذا قلت ، جاءني زيد أو عمرو — وقع الخبر في « زيد» يقينا حتى إذا ذكرت « أو » فصار فيه وفي عمرو شك ، « وإما » تبتدىء بها شاكا ، وذلك قولك: جاءني إما زيد وإما عمرو . . « المبرد ١ : ١١ » .

الثانية أن « إما » ليست من حروف العطف على الصحيح . لأن الواو معها وهي الأصل في العطف. أما « أو » فمن حروف العطف .

ووقوع « إما » في أسلوب العطف يفيد التفصيل مع الشك أو مع الإبهام أو مع التخيير أو الإباحة . و « إما » الأولى حرف تفصيل فقط . ومن هنا نعرف السبب في وجوب تكرارها ولزوم الواو معها « المبرد ٣ : ٢٨ » .

وقد ذهب الكوفيون إلى أنها مركبة من « مَهْ » اسم فعل « » بمعنى اكفف ، زيدت عليها « ما » فحدث بالتركيب معنى لم يكن » (الأشمونى ٤ : ١٢).

وقد يقال فيها « مَهْمَنْ » باستخدام التنوين ، كما استُخدم فى «ما» فصارت « مَنْ » ، قال الشاعر :

أماوى مهمن يستمع فى صديقه

أقاويل هذا النّاس ماوىّ يندم

(الرضى ٢ : ٣٣٥) .

ويكثر استخدام « مهما » فى اللغة المعاصرة – بعكس اللغة المتوارثة – وذلك يدل على تطوّر كبير فى استعمال هذه الأداة . ومن أمثلتها :

« مهما أفعل لأنظر إلى أمام فأنا مكره على أن انظر إلى وراء » (حسين ١–١٢١)

« لقد أخذت على نفسى عهدًا ألّا أبرح « باريس » مهما تكن الظروف ، وستعلم أنى سأفى بهذا العهد مهما يكلّفنى ذلك » (حسين ١ – ١٥٥) .

« ومهما يكن من شئ ، فقد كانت صحبتى له هذا المساء لذيذة حقًّا ، متعبة حقًّا ... » (حسين ١ – ٧١) .

« وليس شئ أصدق تصويرًا لشخصية الرجل ، من ثباته للمحن مهما تعظم ، ونفوذه من مشكلاتها مهما تتعقّد ،وظهوره على هولها مهما يكن شديدًا ... » (حسين ٢ – ١٤) .

« ومهما يكن من شئ ، فقد ثبت أبو بكر ، وثبت معه المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان ... » (حسين ٢– ٦٢) .

« فلم يكن أبغض إليه من أن يخالف عن أمر النبى – صلّى الله عليه وسلم – مهما تكن الظروف ، ومهما تكن العواقب » (حسين ٢ – ٥٣) .

ويلاحظ أن جواب « مهما » يكون مذكورًا ، وقد يحذف إذا كان فى السياق ما يدل عليه ، كما يلاحظ دخولها على المضارع فيما تقدّم من أمثلة .

ويجرى على ألسنة بعض الكتّاب مثل قولهم : مهما تحدّثت فأنت مجيد ، ومهما فعلت فأنت موفق ، بدخول « مهما » على فعل شرط ماض .

ويتحرج بعض نقاد اللغة من ذلك لشهرة دخول مهما على الفعل المضارع ،

وظنا منهم أنها لاتدخل على الماضى . ولكن مجمع اللغة العربية بالقاهرة أقرّ دخولها على الماضى فى دورته التاسعة والأربعين (١٩٨٣) لورود نصوص فصيحة متعددة تشهد بجواز هذا الاستعمال ، مثل قول الأسود بن يَعْفر ، وهو من شواهد سيبويه (١ : ٤٣٧) :

ألا هل لهذا الدهر من متعلل

عن الناس ، مهما شاء بالناس يفعل

ومثلها فى ذلك مثل أخواتها من أدوات الشرط .

ولعل من المفيد أن نشير إلى أن هذه الأداة تمثل عنصرًا مميزًا فى كتابات الدكتور طه حسين .

(ب) ومن هذا القبيل كلمة (بَيْنَ) فإنها إذا اتصلت بها « ما » غيّرتها عن حالها ، وأضفت عليها معنى الشرط ، فيقال : بينما أنا جالس إذْ جاء عمرو ؛ بوقوع « إذْ » الفجائية فى جوابها ، وسنتناول هذه المسألة فيما بعد .

وأصل (بَيْنَ) « أن يكون مصدرًا ، بمعنى الفراق ، ويستعمل فى الزمان والمكان « فتقدير : جلست بينكما ، أى : مكان فراقكما ، وتقدير : فعلت بين خروجك ودخولك ؛ أى : زمان فراق خروجك ودخولك : فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه » (الرضى ٢ : ١١٣)

وذلك لأنه « إن أضيف إلى الأمكنة أو جثث غيرها فهو للمكان ، نحو : بين الدار ، وبين زيد وعمرو . وإن أضيف إلى الأزمنة فهو للزمان ، نحو : بين يوم الجمعة والأحد ، وكذا إن أضيف إلى الأحداث ، نحو : بين قيام زيد وقعوده ؛ إلّا أن يراد به مجاز المكان ، نحو قولك : زيد بين الخوف والرجاء ، استعيرت لما بين الحدثين مكاناً ؛ فلهذا وقع « بَيْنَ » خبرًا عن الجثة » (الرضى ٢ : ١١٣) ، وذلك لأن ظرف الزمان لايقع خبرًا عن الذوات ، لكن لما وقعت « بين » فى قولنا : زيد بين الخوف والرجاء مكاناً على سبيل الاستعارة صحّ أن تكون خبرًا عن الجثة .

وحينا تلحق بها « الألفَ » لتكون « بينا » أو « ما » لتصير « بينما » لاتكون إلّا للزمان ، كما يقول الرضى

(٢ : ١١٣) وحينئذ تقع بعدها «الجمل . لأنه لايضاف من ظروف المكان إلى الجمل إلّا حيث .

ويفرق اللغويون بين « بينا » و «بينما » فى الاستعمال : جاء فى اللسان (مادة : بين) : « إذا كان الاسم الذى يجىء بعد « بينا » اسماً حقيقياً رفعته بالابتداء وإن كان مصدرا خفضته ، ويكون « بينا » فى هذا الحال بمعنى : بين .. ... وأما « بينما » فالاسم الذى بعده مرفوع ، وكذلك المصدر » .

والسر فى هذا التفريق أن الألف فى « بينا » للإشباع ؛ أى إشباع الفتحة فى « بَيْنَ » ، وليست بكافة مثل « ما » لأنه لم يثبت كون الألف كافة . من هنا جاز إضافتها إلى مفرد مصدر ، نحو قول أبى ذُوَيب الهذلى :

بينا تعنُّقِه الكُمَاةَ ورَوْغِهِ
يوماً أُتيح له جرىءٌ سَلْفَعُ [1]

(السيوطى ٢ : ٢٠٣)

ولا تضاف « بينا » إلى مفرد غير مصدر ، وذلك لأنها « تستدعى جواباً ، فلم يقع بعدها إلّا ما يعطى معنى الفعل .. » (السيوطى ٣ : ٢٠٤) .

وذكر أبو محمد بن قتيبة قال : سألت الرّياشى عن هذه المسألة ، فقال : إذا ولى لفظة « بينا » الاسم العلَم رفعت ، فقلت : بينا زيدٌ قام جاء عمرو ، وإن وليها المصدر فالأجود الجرّ » (الحريرى : ٦٣) .

وذهب قوم إلى أن « ما » والألف كافَّتان ، والجملة بعدهما لاموضع لها من الإعراب وهذا البيت (أى بيت أبى ذؤيب السابق) ينشد بجر « تعنقه » ورفعه ؛

(١) معنى تعنقه : الأخذ بالعنق ، والاعتناق : آخر مراتب الحرب ، لأن أول الحرب : الترامى بالسهام ، ثم المطاعنة بالرماح ، ثم المجالدة بالسيوف ، ثم الاعتناق ، وهو أن يتخاطف الفارسان فيتساقطا إلى الأرض معا . والكماة : جمع كمى ، وهو الشجاع ، وروغه : حيدته عن الأقران يمينا وشمالا . والسلفع : كجعفر : الجرىء الواسع الصدر ، ويقال للمرأة إذا كانت جريئة : سلفع . بغير هاء .

ومعنى البيت : أن هذا المستشعر الدرع حزما وقت معانقته للأبطال ومراوغته للشجعان قدر له رجل هكذا ، وقيض له فارس شجاع مثله فاقتتلا ، حتى قتل كل واحد منهما صاحبه ، ومراده : أن الشجاع لا تعصمه جراءته من الهلاك ، (الخزانة ٣ : ١٨٤ ، ١٨٥) .

فمن جرّ جعل الألف فى « بينا » لإشباع الفتحة ، ومن رفع رفعه على الابتداء ، وجعل « الألف » كافة مثل « ما » فى « بينما » فلا يقع بعدها إلّا الجملة .

والشائع عند النحويين أن يأتى جواب « بينا » أو « بينما » مصدّرًا بـ « إذْ الفجائية » ، ولكن المسموع غير ذلك . يقول الحريرى (ص ٦٣) : « ويقولون بينا زيد قام إذْ جاء عمرو ، فَيَتَلَقَّوْنَ « بينا » بـ « إذْ » والمسموع عن العرب : بينا زيد قام جاء عمرو ، بلا « إذْ » ، لأن المعنى فيه : بين أثناء الزمان جاء عمرو » .

« وحكى أبو القاسم الآمدى فى أماليه عن أبى عثمان المازنىّ ، قال : حضرت أنا ويعقوب ابن السّكيت مجلس محمد بن عبد الملك الزيّات ، فأفضنا فى شجون الحديث إلى أن قلت : كان الأصمعى يقول : بينا أنا جالس إذْ جاء عمرو ، فقال ابن السّكيت : هذا كلام الناس ، قال : فأخذت فى مناظرته وإيضاح المعنى له ، فقال لى محمد بن عبد الملك : دعنى حتى أبين له ما اشتبه عليه . ثم الْتفتَ إليه ، وقال له : مامعنى « بينا » ؟ قال : حين ، قال : أفيجوز أن يقال : حين جلس زيد إذْ جاء عمرو ؟ فسكت . فهذا حكم بَيْنَا . » (الحريرى : ٦٤) .

وقد جاءت « بينما » فى الكلام مُتَلَقَّاة « بـ إذْ » و « بإذا » اللذين للمفاجأة ، نحو قول الشاعر :

استقدر الله خيرًا وارْضَيَنَّ به
فبينما العسرُ إذْ دارت مياسير

(السيوطى ٣ :٢٠٢)

وقوله فى القصيدة نفسها :

وبينما المرءُ فى الأَحياء مغتبط
إذا هو الرّمْسُ تعفوه الأَعاصير

« فتَلَقَّى هذا الشاعر « بينما » فى البيت الأول بـ « إذْ » ، وفى الثانى بـ « إذا » . وليس ببدع أن يتغيّر حكم « بين » بضم « ما » إليه ؛ لأن التركيب يزيل الأشياء عن أصولها ، ويحيلها عن أوضاعها ورسومها ؛ ألّا ترى أن « رُبّ » لايليها إلّا الاسم : فإذا اتصلت بها « ما » غيّرت حكمها وأوْلَتْها الفعل ... وهكذا « قَلَّ » و « طال » لايجوز أن يليهما الفعل ، فإذا وصلتا بـ « ما » وليهما الفعل ،

كقولك : طالما زرتك ، وقلّما هجرتك »
(الحريرى : ٦٥) .

وليس هذا الأسلوب خاصا بالشعر ؛ فقد وردت فى البخارى ومسلم أحاديث كثيرة تبدأ بمثل :

« بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذْ جاءه رجل ... »

« بينا نحن جلوس إذْ طلع علينا ... » إلخ

غير أن وجود « إذْ » أو « إذا » بعد « بينا » أو « بينما » ليس بلازم ، فقد وردت أساليب أُخرى مجردة من « إذْ » كما رأينا فى بيت أبى ذؤيب ،وحكاية أبى القاسم الآمدى التى رواها الحريرى ،وماذكره أبو محمد بن قتيبة .

ومن الأخطاء الشائعة فى اللغة المعاصرة ، وبخاصة لغة الصحافة ، مجىء « بينا » أو « بينما » فى وسط الكلام ، نحو :

« العرب مختلفون بينما الأعداء متّفقون »

« العرب صامتون بينما العالم من حولهم يتحرّك » .

والقواعد العربية لاتجيز مثل هذه التراكيب ، لأن « بينا » و « بينما » تقعان فى أول الجملة ، حيث يبتدأ بهما ، ولاتقعان فى وسط الكلام . والصواب أن يقال :

العرب مختلفون على حين الأعداء متّفقون . (أو : فى حين) .

العرب صامتون على حين العالم من حولهم يتحرّك . (أو : فى حين) .

ومن المصطلحات التى أطلقها النحويون على « ما » الموصولة بأدوات الشرط : مصطلح « المسلطة » وقد أطلقه الرمّانى (ص ١٥٦) على « ما » فى « حيث » و « إذْ » ، وكذلك ابن الشجرى — (٢ : ٢٤٥) . وأطلقه الهروى فى الأزهيّة (ص ٩٧) على « ما » فى : حيثما ، وإذْ ما وكيفما . وقال عنها : « وهى التى تدخل على ما لا يعمل فتوجب له العمل » فهى إذن مسلطة للعامل على الجزاء ، وهى ضد الكافة التى تدخل على العامل ، فتبطل عمله .

٤ — عزل « ما » بعض أنواع الكلم عن وظائفه ونقله إلى معان أُخرى :

تتصل « ما » ببعض الحروف أو الأفعال فتصرفها عن معانيها الوظيفيّة إلى معان

أخرى ، يقتضيها التضام بين الكلم .
وسنضرب أمثلة لذلك من خلال النماذج التالية :

* رُبَّ + ما
* قَلَّ وطال + ما
* فى + ما
* الكاف + ما
* كلّ + ما
* او + ما

(ا) رُبّ : ربّ مختصة بالنكرة ، فإذا اتصلت بها « ما » هيّأتها للدخول على الفعل ، وعلى المعرفة . تقول : « ربما قام زيد ، ربّما يقوم ، ربّما زيد قائم » .
(الهروى : ٨٩)

وقد ذهب بعض النحاة إلى أن « ربما » أكثر ما تدخل على الماضى ، « لأن التكثير والتقليل إنما يكونان فيما عرف حدّه ، والمستقبل مجهول » (ابن هشام ١ : ٣٤٣)
ولكن واقع الاستعمال اللّغوى يؤكد دخولها على المضارع أيضًا ، قال تعالى :
« رُبَمَا يوَدّ الّذِينَ كَفَرُوا ... » .
(سورة الحجر : ٢)

وقال الشاعر :

ربّما تكره النفوس من الأمـ
ـر له فرجة كحل العقال

(البغدادى ٢ : ١٥٤)

وقد شاع فى العربية تعبير (قد لا يجوز) مكان (ربما لا يجوز) وهما طريقتان للتعبير عن معنى واحد ، هو التقليل ؛ فالطريقة الأولى استخدمت فيها (قد مع لا) والثانية استخدمت (ربما مع لا) والطريقة الأولى مستحدثة ؛ وقد وردت فى قول ابن مالك :

ولاضطرار أو تناسب صرف
ذو المنع . والمصروف قد لا ينصرف

وفى قول بعضهم :

« وقد لَاتَعْدَم الحسناءُ ذاما » .

(ب) ويشبّه الأنبارى فى « البيان » (٢ : ٦٣) « ما » فى « ربما » بِـ « ما » فى « طالما » و « قلّما » لِمَا بينهما من اتصال دلالى فى إفادة التقليل أو التكثير واتصال وظيفى فى أن « رُبّ » مع « ما » خرجت عن مذهب الحرف ، فلم تلزم الأسماء ، كما أن « قلّ » و « طال »

مع « ما » خرجتا عن مذهب الفعل . فلم يفتقرا إلى فاعل .

ولذا يقول سيبويه (١ : ٤٥٩) :

« ومن تلك الحروف » « ربما » و « قلّما » وأشباههما : جعلوا « ربّ » مع « ما » بمنزلة كلمة واحدة . وهيئوها ليذكر بعدها الفعل ؛ لأنه لم يكن لهم سبيل إلى « ربّ يقول » ولا إلى « قلّ يقول » ، فألحقوهما « ما » . وأخلصوهما للفعل » .

وذهب بعضهم إلى أن « ما » مع قلّ وأخواتها مصدريّة . نحو :

قلّما يبرح اللبيب إلى ما

يورث المجد داعيًا أو مجيبًا

(ابن هشام ١ : ٣٣٩)

ويرى العالم الألمانى براجشتراسر (ص ١٢٦) : أن « ما » مع هذه الأفعال من البقايا التى احتفظت بها اللغة العربية وأن الجملة المصدرية هى الفاعل فى كل ذلك .

ومن يتتبع استخدام « طالما » فى اللغة المعاصرة يلاحظ أنها قد تحوّلت إلى أداة تشبه الشرط . مثل :

طالما رغبت فى السفر فماذا يمنعك ؟

طالما جئنا إلى هذا المكان فدعنا نجلس .

ويتضح هذا أكثر لو قارنا بين الاستخدام الأصلى . والاستخدام الحديث ، على الوجه الآتى :

طالما رغبت فى السفر (بمعنى كثيرًا).

طالما رغبت فى السفر فماذا يمنعك ؟ (بمعنى الشرط) .

طالما جئنا إلى هذا المكان (بمعنى كثيرًا)

وقد وردت بمعنى الشرط فى قول بعض الباحثين [1] :

« أرجو أن يتّسع صدر الأستاذ ... لما كتبت ، وما أظنه إلّا فاعلًا طالما أن الهدف هو خدمة العلم والحقيقة » .

ومن أقوال الصحف :

« طالما أن بيروت مقسمة وتخضع للهيمنة عن طريق القوة .. فكل لبنان

---

(١) حاتم غنيم . ذيول وملاحظات (مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى) العدد المزدوج ١٩ — ٢٠ (ربيع الأول — رمضان ١٤٠٣ هـ . كانون الثانى — حزيران ١٩٨٣) ص ٢١٠ .

سيبقى على هذه الحال » .

(صحيفة السياسة : ١٩٨٥/١١/٢٤)

« الكل خاسر .. طالما لم تتحسّن الظروف »

(صحيفة القبس : ١٩٨٥/١٢/٩)(*)

(ج) فى + ما : يكثر فى لغة الصحافة العربية — غير المصريّة — سبك « ما » مع « فى » فتصبح « فيما » ، وذلك لتعميق معنى الظرفية من جهة ، والدلالة على الوقت من جهة أُخرى . ومن أَمثلتها :

« بدأَ الإِسرائيليون يسلمون مواقعهم إلى قوات الطوارئ الدوليّة فيما عمليات تبادل الأسرى مستمرة » .

(صحيفة السياسة : ١٩٧٣/١١/١٦)

« استمرار العدوان الإِسرائيلي على لبنان فيما أَعلنت صحف العدو الانسحاب من بعض الأَراضى التى احتلّتها .. » .

(صحيفة السياسة : ١٩٧٣/٥/١١)

« تفاؤل حذر يلف بيروت فيما تواصل الطائرات عمليات القصف » .

(صحيفة السياسة : ١٩٧٣/٥/١٢)

« فيما يتأثر الجيش الأَمريكى بأَزمة الطاقة إجراءات أَمريكية عاجلة لتوفير ٢٥٪ من الاستهلاك النفطى » .

(صحيفة القبس : ١٩٧٣/١١/١٦)

ويلاحظ على مثل هذه النصوص : أَن « فيما » قد تأْتى فى أَول الكلام أَو فى وسطه ؛ لمقارنة الأَحداث التى تقع فى وقت ما ، وربطها .

وتعدّ الأَساليب التى تقدّمت فيها — « فيما » من باب : تقديم الظرف أَو الجار والمجرور على غير ما هو مأْلوف فى العربية .

و « ما » فى هذه التراكيب بمعنى : وقت أَو حين

وقد تحل « بينما » محل « فيما » ، نحو :

« إسرائيل تعرب عن قلقها بخصوص شحنات الأَسلحة للخليج ، بينما قضايا السلاح المهرب والعلنى تهدد بتفجير الوضع فى دول عربية أُخرى .. » .

(صحيفة السياسة : ١٩٧٣/٥/٣٠)

(*) استعمال « طالما » بمعنى الشرط مردود لأن « ما » إذا دخلت على أحد أفعال ثلاثة كفته عن العمل ، وهى قل ، كثر ، طال ، وهذا الأسلوب ترجمة مخطئة للتعبير الإنجليزى « so Long as »
وقد ناقش المجمع هذا الأسلوب ورفضه وسيرفضه كاتب هذا البحث فى الصفحة التالية م . ع .

غير أن بينها أنها للصدارة في الكلام ، ووقوعها في الوصف مخالف للقواعد المعروفة . كما تقدم (*) .

(د) كاف التشبيه + ما : إذا اتصلت « ما » بكاف التشبيه عزلتها عن وظيفتها وأفادت معنى جديداً لم يكن لها من قبل :

مثل : « المبادرة . في قولهم : سلم كما تدخل . صلِّ كما يدخل الوقت . ذكره ابن الخبَّاز وأبو سعيد السيرافي وغيرهما ، وقال عنه ابن هشام في المغني (١ : ١٩٥) « وهو غريب جداً » .

هذا يشبه التعبير الإنجليزي : (As Soon As) ويلاحظ أن « المبادرة ، معنى « الكاف » ، و « ما » مصدريَّة . والمعنى : سلِّم فور دخولك ، أو بمجرد دخولك . فالكاف : ظرفية . و « ما » المصدريَّة تضافرت مع الكاف على معنى « المبادرة » . ويكثر استخدام « كما » في التشبيه المصدري - إن صح هذا التعبير - نحو :

« وعرضتْ لي كما يعرض المصارع للمصارع » .

(الرافعي ١ : ١٦٦)

« وقد حفظتُ الرجل في نفسي كما أحفظ الكلام » .

(الرافعي ١ : ١٠٧)

* وجاءت التعليل في قوله تعالى : « واذكروه كما هداكم » .

(سورة البقرة : ١٩٨)

أي : لأجل هدايته إياكم .

* وبمعنى على ، في نحو : كن كما أنت ، أي : كن على ما أنت عليه . و « ما » : تحتمل أن تكون موصولة ، و « أنت » : مبتدأ ، خبره محذوف ، أو خبر لمبتدأ محذوف . أو تكون « ما » : زائدة ، والكاف حرف جر ، بمعنى : على ، وعزلتها « ما » عن ضمير الرفع المنفصل ، أي : هيأتها للدخول عليه ؛ لأنه لا يصحّ أن نقول : كن كأنت ، أو كن كك .

(*) انظر التعليق السابق .

* وقد تستعمل « كما » للعطف ، مثل « كذلك » . ويكثر هذا فى أسلوب العرض فى المؤلفات والأبحاث والرسائل العلمية ، فيقال : « وأوضحت التجربة أن ... كما أن ... » ، « ويتحدث الباحث عن ... كما يتحدث ... » ، وأشاد الباحث ب ... كما أشاد ب . . » . وأحياناً تقترن بالواو ، فيقال : « ... كما وأن ... » ومن أقوال بعض الصحف : « عاد القتال من جديد إلى شوارع بيروت كما وعاد . . . » . وهذه الواو ليس لها من تفسير سوى أنها زائدة مؤكدة ؛ لأن حرف العطف لايدخل على مثله ؛ إذ لايجوز الجمع بين حرفى عطف ، أو بين حرفين متفقى المعنى .

(هـ) وقد لاتقتصر وظيفة « ما » على إضفاء معنى جديد على الصيغة التضاميّة ، بل قد تتعدى ذلك إلى إضفاء معنى جديد على السلوك التركيبى كله للعبارة .

* من ذلك – مثلا – كلمة « كلّ » إذا اتصلت بها « ما » تصبح « كلّما » وتكون حينئذ ظرفاً توقيتيّا ، فيه معنى الشرط ، وتحتاج إلى جملتين ؛ إحداهما مرتبة على الأُخرى (ابن هشام : ١ : ٢٠٢) نحو : « يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلّما أضاء لهم مشوا فيه » .

(سورة البقرة : ٢٠)

« كلّما نضجت جاودهم بدّلناهم جلودا غيرها .. » .

(سورة النساء : ٥٦)

« ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه » .

(سورة هود : ٣٨)

ويميل الاستعمال المعاصر – وبخاصة فى لغة الصحافة – إلى تكرار « كلّما » مع الجواب ، نحو :

كلّما اجتهدت كلما حصلت على مال أكثر . وهذه العبارة مصوغة على نمط التركيب الأجنبى :

(The more you work the more money you get.)

(بشر : ١٤٤)

وقد جاء فى صحيفة الأهرام (١٩٧٦/١/١٦ ص ١٠) :

« وكلّما طالت تلك الغيبة كلّما اتسع الطريق ، وتضاعف رواده ومريدوه .. » .

وفى صحيفة السياسة (١٩٧٦/٣/٣ ص ٧ ، ١٩٧٦/٣/٢٠ ص١٦) :

« وكلّما كبر حجم السيارة كلّما كان ذلك أفضل » .

« كلّما زاد سنه كلّما زاد نفعه » .

« كلّما مرّ عليها الزمان كلّما كانت أثمن » .

« كلّما صارت قديمة كلّما صارت تُوكل » .

ولا تجيز القواعد التقليدية مثل هذا الأُسلوب ، وتوجب حذف « كلّما » الثانية من العبارة .

* وإذا لحقت « ما » الشرط الامتناعى « لو » غيّرته عن حاله ؛ وحوّلته إلى معنى « هلاّ » ، قال تعالى : « لوما تأْتينا بالملائكة ... » .

(سورة الحجر : ٤)

فمعناه : هلاّ .

ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن « لوما » قد هجرت فى العربية المعاصرة ، ولم يبق من آثارها إلاّ تلك الآية الكريمة .

ويسمى بعض النحويين « ما » هذه « بالمغيّرة » ؛ لأنها غيّرت معنى الأداة التى لحقتها إلى معنى جديد . والسبب : أن الحروف إذا ركبت حدث فيها بعد التركيب معنى لم يكن قبل التركيب ، كالأَدوات المركبة من عقاقير مختلفة ، فإنه يحدث لها بالتركيب ما لم يكن لكل واحد منها قبل التركيب ، فى حالة الانفراد . وهذا تعليل يصدق على كل أداة مركبة[1] .

ثالثا : التعويض :

ونعنى به التعويض من إحدى نونى « أنّ » فى حالة تخفيفها ، وذلك بوضع فاصل بينها وبين خبرها ، يدلّ عليها . هذا الفاصل هو

---

(١) ينظر : معانى القرآن للفراء ج ٢ ص ٣٧٦ ـــ ٣٧٧ ، والأزهية فى علم الحروف للهروى ص ٩٨ ـــ ٩٩ ، والإنصاف فى مسائل الخلاف للأنبارى ج ١ ص ٢٦٤ ـــ ٢٦٥ ، والبيان فى غريب إعراب القرآن للأنبارى ج ٢ ص٦٥ .

السين أو سوف أو قد أو حرف نفي (لم ، لن ، ما ، لا) « ويسمى النحاة هذه الحروف التي بعد « أنْ » المخففة « حروف التعويض » .

(الرضى : ٢ : ٢٣٣)

والسر في هذا الفصل : أنها بعد التخفيف شابهت « أنْ » المصدريّة لفظاً ومعنى ؛ أمّا لفظاً فظاهر ، وأما معنى فلكونهما حرفي المصدر (أنْ + الفعل ، أنَّ + الاسم ..) فأُريد الفرق بينهما بوضع هذا الفاصل ، ليكون كالعوض من إحدى نوني « أنَّ » .

« أن » في القواعد المقررة :

لما كانت « أنَّ » فائدتها التحقيق ، كان من المناسب لها — في حالة تخفيفها — أن يسبقها ما يفيد التحقيق ، وهو العلم أو مايؤدي مؤداه وما يجري مجراه من الظنّ الغالب ؛ ليكون مؤذناً في أول الأمر أنها مخففة ، ولهذا لم تجيء « أنْ » المصدريّة بعد فعل التحقيق الصّرف ، وأمّا بعد فعل الظن وما يؤدي معنى العلم فتجيء المصدريّة والمشدّدة والمخففة . ومن هنا كان لابدّ من قيام ضوابط تميز « أنْ » المخففة من « أنْ » المصدريّة في المواقع التركيبية المختلفة . ويمكن إجمال هذه الضوابط فيما يلي :

١ — تختص « أنْ » المخففة بوقوعها قبل الجملة الاسمية ، والجملة الفعلية الشرطية . مثال الشرطية قوله تعالى :

« وقد نزّل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها ؛ فلا تقعدوا معهم ، حتى يخوضوا في حديث غيره » . (سورة النساء : ١٤٠)

وقوله :

« قل أُوحي إليّ ... » إلى قوله « وأنْ لو استقاموا على الطريقة ، لأسقيناهم ماءً غدقا » . (سورة الجن : ١ ، ١٦)

وقوله :

« أفلم ييأس الذين آمنوا أنْ لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » .

(سورة الرعد : ٣١)

وقوله :

« أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ، أنْ لو نشاء أصبناهم بذنوبهم .. »
(سورة الأعراف : ١٠٠)

ومثال الاسمية قول الشاعر :

في فتية كسيوف الهند قد علموا

أنْ هالك كل من يَحْفَى وينتعل

(الصبان ١ : ٢٩٠)

وقد تكون منفية ، نحو قوله تعالى : « .. فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله ، وأنْ لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » .

(سورة هود : ١٤)

أمّا المصدريّة فلا تقع قبل الجملة الاسمية أو الفعلية الشرطية ؛ لأنها « تلزم الجملة الفعلية المؤوّلة بالمصدر ، فلا يحتمل أن تدخل على الاسمية ولا الشرطيّة » (الرضى ٢ : ٢٣٣) ، ولذا لم يحتاجوا إلى فرق آخر في هذا الموضع : اكتفاءً بفعل التحقيق الذى سبق ذكره .

٢ – كما تختص « أنْ » المخففة بوقوعها قبل الأفعال غير المتصرفة ، وذلك نحو قوله تعالى :

« أم لم يُنبَّأْ بما فى صحف موسى ، وإبراهيمَ الذى وفّى ، ألاَّ تزرُ وازرةٌ وزْرَ أخرى ، وأنْ ليس للإنسان إلَّا ماسعى » .

(سورة النجم : ٣٦ – ٣٩)

وقوله :

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء ، وأنْ عسى أن يكون قد اقترب أجلهم .. »

(سورة الأعراف : ١٨٥)

ومنه قول زهير يمدح هرم بن سنان :

أنْ نِعْمَ معترك الجياع إذا

خبّ السفير وسابىء الخمر

(السيوطى ٢ : ١٨٦)

أما المصدّرية فلا تقع قبل الأفعال الجامدة ، « لأنها تكون مع الفعل بعدها بتأويل المصدر ، ولا مصدر لغير المتصرف » (الرضى ٢ : ٢٣٣) ، ولذا لم يحتاجوا إلى فرق آخر هنا أيضاً .

٣ – ومثل الأفعال الجامدة : الأفعال الدالة على الدعاء ، لاتحتاج « أنْ » معها إلى فاصل . وقد قرىء قوله تعالى :

« والخامسةَ أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها »

(سورة النور : ٩)

« والخامسةَ أنْ غَضِبَ اللهُ عليها » بالتخفيف ، ووقوع الفعل الدال على الدعاء بعدها من غير فاصل ، إذ الدعاء يشبه الجامد فى عدم التصرف ، سواء كان

الدعاءُ بشرّ ، كما ذكر ، أو بخير ، نحو قوله سبحانه : « نُودِى أَنْ بُورِكَ من فى النار ومن حولها » .

(سورة النمل : ٨)

ومن أمثلة سيبويه فى الدعاء (١ : ٤٨٢) « أَمَا أَنْ يغفرُ الله لك » « أَمَا أَنْ جزاك الله خيرًا » و « قد كثر فى كلامهم حتى.. سمعناهم يقولون : أَمَا إنْ جزاك الله خيرًا . شبهوه بأنه « أى شبهوا » « إن » بالكسر بأن المفتوحة ، وخففوها ، وذلك خاص بالدعاء .

٤ ـ فإذا وقعت « أَنْ » قبل فعل متصرف (غير دعاء) ، وجب أن يفصل بين « أَنْ » المخففة والفعل بعدها بفاصل ، فرقاً بينها وبين المصدرية ، علاوة على الفرق الأساسى الذى تقدم ذكره ، وهو سبق فعل التحقيق « أَنْ » المخففة .

والفاصل إمّا « السين » ، نحو قوله تعالى :

« علم أَنْ سيكونُ منكم مرضى »

(سورة المزمل : ٢٠)

أو « سوف » ، نحو قول الشاعر :

واعلم فعلم المرء ينفعه
أَن سوف يأْتى كلّ ماقُدرا

(الصبان ١ : ٢٩٢)

أو « قد » ، نحو قوله تعالى :

« ليعلم أَنْ قد أبلغوا رسالات ربّهم » .

(سورة الجنّ : ٢٨)

« ونعلمَ أَنْ قد صدَقْتَنَا »

(سورة المائدة : ١١٣)

أو بحرف نفى ، نحو قوله تعالى :

« أفلا يرَوْن أَنْ لا يرجعُ إليهم قولا » .

(سورة طه : ٨٩)

« أيحسب أَنْ لن يقدر عليه أحد » .

(سورة البلد : ٥)

« أيحسب أَنْ لم يره أحد » .

(سورة البلد : ٧)

وذلك لأن « أَنْ » المصدرية لايفصل بينها وبين الفعل بشىء من الحروف المذكورة ، لكونها مع الفعل بتأويل المصدر معنى ، فلا يفصل بينها وبين ما يؤثر فيها لضعفها .

٥ ـ بقى موضع تلتبس فيه المصدرية بالمخففة ، وهو إذا اتفق وقوع « لا » بعد « أنْ » ؛ فإن كانت بعد فعل العلم لم تلتبس بالمصدريّة ، لأن المصدرية لاتقع بعد فعل العلم ، كما تقدّم . وإن كانت بعد فعل الظن جاز أن تكون مخففة ، وأن تكون مصدريّة ، كما فى قوله تعالى : « وحسبوا أنْ لاتكون فتنة » .

(سورة المائدة : ٧١)

فقد قرىء بالرفع والنصب ؛ الرفع على أن الحسبان ظن غالب ، والنصب على مجرد الظن . « فلا التباس بينهما على هذا إلّا فى مثل هذا الموضع » (الرضى ٢ : ٢٣٣) وهو أن تقع « أنْ » بعد فعل الظن ، وبعدها (لا) .

فإن لم تقع « أنْ » بعد علم ، ولاما يؤدى معناه ، ولا بعد ظنّ ولم يلها فعل جامد أو دعاء أو جملة اسمية أو فعلية شرطيّة ـ فهى مصدريّة .

وإن وليها فعل متصرف من غير حرف عوض احتملت أن تكون مصدريّة وأن تكون مفسّرة ، ولاتحتمل المخففة لعدم العوض .

وقد جاء بغير عوض قول الشاعر :

علموا أنْ يؤمّلون فجادوا
قبل أن يُسأَلوا بأَعظم سؤل

(الأشمونى ١ : ٢٩٢) .

وقول آخر :

إنى زعيم يا نويـ
ـقة إن أمنت من الرّزاح
ونجوت من عرض المنو
ن من العشىّ إلى الصباح
أنْ تهبطين بلاد قو
م يرتعون من الطلاح

(الأشمونى ١ : ٢٩٢)

ويظهر أن ترك الفصل هنا لوجود فارق آخر ، هو رفع المضارع بعد « أنْ » وإن كان خلاف الأولى ، كما يفهم من قول ابن مالك :

وإن يكن فعلاً ، ولم يكن دعا
ولم يكن تصريفه ممتنعاً
فالأحسن الفصل بقد أو نفى او
تنفيس او لو وقليل ذكر لو

وقيل إن « أنْ » فى هذه الأبيات هى الناصبة للمضارع ، وإنما أهملت حملا على أختها « ما » المصدرية .

(الصبان ١ : ٢٩٢ والعينى ١ : ٢٩٣)

أمّا « أنْ » فى قوله تعالى :

« ما قلت لهم إلّا ما أمرتنى به ، أن اعبدوا الله ربى وربكم » .

(سورة المائدة : ١١٧)

فـ « يجوز أن تكون مصدريّة ، فتكون بدلا من « ما » أو من « الهاء » فى « به » ، أو خبر مبتدأ محذوف ؛ أى : هو أن اعبدوا الله . وأن تكون مفسّرة » .

(الرضى ٢ : ٢٣٤)

ومعلوم أن المفسرة هى المسبوقة بما فيه معنى القول دون حروفه وتقوم مقام علامة الترقيم (:) ، مثل :

أمرته أن قم . ناديته أن يازيد قم .

قال تعالى : « فأوحينا إليه أن اصنع الفلك » . (سورة « المؤمنون » : ٢٧)

« وعن الكوفيين إنكار » « أن » التفسريّة ألبتة ؛ لأنه إذا قيل : كتبت إليه أن قم ، لم يكن « قم » نفس « كتبت » ، كما كان الذهب نفس العسجد فى قولك : هذا عسجد أى ذهب ؛ ولهذا لو جئت بـ « أى » مكان « أنْ » فى المثال لم تجده مقبولا فى الطبع »

(ابن هشام ١ : ٢٩)

والحق ليس فى الأمر التباس إذا ما وقع بعد « أنْ » فعل ماض أو فعل أمر ؛ فيجوز أن تكون مفسرة ، وأن تكون مصدريّة . لكن الالتباس يقع فى حالتين :

(أ) إذا ما وليت « أنْ » ما فيه معنى القول ، ووليها فعل مضارع مصدّر بـ « لا » فأجاز بعضهم أن تكون « أنْ » فى هذه الحالة مخففة ومفسرة ومصدريّة ، نحو : أوحى إليك أنْ لا تفعل ، « فإن كانت مخففة فـ « لا » للنفى ، ولايجوز أن تكون للنهى ، لأن المخففة كالمثقلة لاتدخل على طلبية [1] ، فيرتفع الفعل . وإن كانت مفسّرة جاز كون « لا » للنفى أو للنهى ، فيرتفع الفعل أو ينجزم . وإن كانت مصدريّة انتصب الفعل » (الرضى ٢ : ٢٣٤) بمعنى :

(١) ويستثنى من ذلك الجملة الدعائية ، كما فى القراءة التى أشرنا إليها : «والخامسة أن غضب اللهعليها » فهى مبنية على جواز تفسير ضمير الشأن بالجملة الإنشائية (ينظر : خالد الأزهرى ١ : ٢٣٢ ، ٢٣٣) .

أوحى إليك بأن لاتفعلَ : أى : بعدم الفعل .

(ب) إذا ماوليت « أنْ » ما فيه معنى القول . ووليها فعل مضارع أيضاً ، لكنه مصدّر بغير « لا » من حروف العوض ، نحو : أوحى إليك أنْ ستفعل ؛ قيل : فى هذه الحالة تكون « أنْ » مخففة أو مفسرة .

ويمكننا إجمال المواقع التى تتعين فيها « أنْ » المخففة فيما يلى :

* إذا وقعت « أنْ » قبل جملة اسمية وسبقها فعل علم أو مايجرى مجراه .

* إذا وقعت « أنْ » قبل جملة شرطيّة ، وسبقها فعل علم أو ما يجرى مجراه .

* إذا وقعت « أنْ » قبل فعل جامد ، وسبقها فعل علم أو ما يجرى مجراه .

* إذا وقعت « أنْ » قبل فعل دعاء ، وسبقها فعل علم أو ما يجرى مجراه .

* إذا وقعت « أنْ » قبل فعل متصرف وسبقها فعل علم أو ما يجرى مجراه . وفصل بينها وبين الفعل بعدها بأحد حروف العوض .

* إذا وقعت « أنْ » قبل فعل متصرف ، وسبقها فعل ظنّ . وفصل بينها وبين الفعل بعدها بأحد حروف العوض سوى « لا » .

وفيما عدا ذلك . بأن وقعت قبل فعل متصرف ، وسبقها فعل فيه معنى القول ، وفصل بينها وبين الفعل بعدها بـ « لا » أو بأى حــرف آخر من حروف العوض تحتمل أكثر من معنى ، على التفصيل الذى بيناه .

« أنْ » فى ميزان النقد :

التتبّع للأمثلة المختلفة التى أوردها سيبويه فى الكتاب (١ : ٤٨١) للتفريق بين أنواع « أنْ » الداخلة على المضارع ؛ يلحظ النماذج الآتية :

كتبت إليه أنْ لاتقلْ ذاك .

كتبت إليه أنْ لايقولَ ذاك .

كتبت إليه أنْ لاتقولُ ذاك .

« فأما الجزم فعلى الأمر ، وأما النصب فعلى قولك : لئلا يقولَ ذاك ، وأما الرفع فعلى قولك : لأنك لاتقولُ ذاك أو بأنك

لا تقولُ ذاك ، تخبره بأن ذا قد وقع من أمره » (سيبويه ١ : ٤٨١) .

وتفسير هذا الكلام يكون على النحو الآتى :

كتبت إليه :

ـ لاتقلْ ذاك .

ـ أنه لاينبغى أن يقولَ ذاك .

ـ أنك لاتقول ذاك .

١ ـ « فَأَنْ » فى المثال الأول مفسّرة ، بمنزلة « أى » فهى تقوم مقام علامة الترقيم (:) . ولا يجوز أن تكون مخففة ؛ لأن المخفَّفة كالمثقلّة لاتدخل على نهى كما تقدم .

٢ ـ و « أنْ » فى المثال الثانى مصدريّة ناصبة ؛ لأنها تصدّرت جملة تعبّر عن حدث يؤمل تحققه « كقولك : أرجو وأطمع وعسى » (سيبويه ١ : ٤٨٢) ، أى إن الفعـل بعدها يعبر عن غرض مستقبلى لفاعل الجملة الأساسية ، « فأنت لاتوجب إذا ذكرت شيئاً من هذه الحروف (أى الأفعال) ولذلك ضعف : أرجو أنَّك تفعل ، وأطمع أنك فاعل » (سيبويه ١ ٤٨٢) . وقد ذكر المبرد (٢ : ٣٠) أن « أنْ » الناصبة للمضارع « لاتقع مع الفعل حالا ؛ لأنها لما لايقع فى الحال . ولكن لما يستقبل » . ونص ابن السّراج (١ : ٤١) على أن المضارع « إذا دلّ على الحال غلبت الضمة فى تحريك آخره ، وإذا فتح كان للمستقبل » .

ويرى العالم الألمانى « ركندورف » (Reckendorf) أن نصب المضارع بعد « أنْ » المصدرية ليس مرجعه إليها ؛ فهى إشاريّة خالصة تدل على الاستقبال ، ولكن إلى أن الفعل بعدها يدلّ على غرض ، أى : إنه يعبر عن غرض لفاعل الجملة الأساسية ، ولما كان يدل على غرض فهو يشير إلى الاستقبال . (بكر : ٥٧).

٣ ـ وأمّا « أنْ » فى المثال الثالث فمخففة من الثقيلة ؛ لأنها تصدّرت جملة تعبر عن حقيقة ثابتة ، مثلها فى ذلك مثل أُختها « إنَّ » من حيث الوظيفة التوكيديّة ، وتتميز عنها بتصدّر الجمل الفرعية ، لا الجمل الأساسية بمعنى أن « أنَّ » لابد أن يسبقها كلام ؛ لأنها تؤول مع ما بعدها بمصدر ، أمّا « إنَّ » فتبدأ بها الجملة من غير حاجة إلى كلام

سابق ، يقول الزمخشري (ص ٢٩٣) :

« إنَّ » و « أنَّ » : هما تؤكدان مضمون الجملة وتحققاته ، إلَّا أن المكسورة : الجملة معها على استقلالها بفائدتها ، والمفتوحة : تقلبها إلى حكم المفرد » .

ويلاحظ أن ضبط الفعل في الجمل السابقة غير متوقف على « أنْ » « فأنْ » لا تؤثر في الفعل الذي يليها ، بل إن تفسير « أنْ » منوط بالحالة التي عليها الفعل ، وقد رأينا المضارع بعد « أنْ » في الأمثلة المتقدمة يأتي مرفوعاً ومنصوباً ومجزوماً .

أمّا « أنْ » الداخلة على الأمر ، فالغالب عليها معنى المفسّرة ، كما في قوله تعالى :

« فأوحينا إليه أن اصنع الفلك » .

(سورة « المؤمنون » : ٢٧)

« فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر » .

(سورة الشعراء : ٦٣)

وأما التعبير بالفعل الماضي بعد « أنْ » فقد ورد في قوله تعالى :

« فلما جاءها نودي أنْ بورك من في النار ومن حولها » .

(سورة النمل : ٨)

والغالب هنا معنى المصدرية ، إلا إذا قصد الدعاء فتكون مخفَّفة من الثقيلة على ما تقدم .

وفي اللغة المعاصرة لم يعد يأتي هذا التركيب إلَّا في قوالب تعبيريّة ثابتة بعد بعض الأدوات . نحو :

« بعد أن فعل كذا .. » ، « ومنذ أن فعل كذا ... » .

وبعض التراكيب الأُخرى ، نحو :

« سبق له أن فعل كذا ... » ، « ولم يلبث أن فعل كذا ... » .

وكلها استعمالات مقيّدة ، و « أن » فيها مصدريّة ، كما هو ظاهر . أمّا الاستعمال غير المقيد فقد اختفى في العربية المعاصرة .

والخلاصة أن الاختلاف بين « أن » المصدريّة ، و « أن » المخفَّفة مرجعه إلى البنية الدلالية لجملة كلّ منهما ؛ فإذا أُريد معنى الغائية وما يؤمل تحققه في المستقبل فـ « أنْ » ناصبة للمضارع ،

وإذا أُريد معنى التحقيق والثبوت فأَنْ » مخففة من الثقيلة . وعلى ذلك يمكن توجيه قول الشاعر :

علموا أنْ يؤملون فجادوا
قبل أن يسألوا بأعظم سؤل

لأن المقام مقام التحقيق والثبوت . فلم يحتج إلى فاصل بين « أنْ » والمضارع بعدها ، اكتفاءً بدلالة المقام . يقول المبرد (٢ : ٣٠) : « ولو قلت : أعلم أنْ تقومَ يا فتى ، لم يجز ؛ لأن هذا شيءٌ ثابت فى علمك ، فهذا من مواضع أنَّ الثقيلة ».

ويقول الزجاجى (ص ٢٠٦) : « فإن وقعت قبلها [أى قبل أنْ] الأفعال التى تدل على إثبات الحال والتحقيق ارتفع الفعل هٰهنا ، وكانت مخففَّة من الثقيلة ، كقولك : علمت أنْ تقومُ » .

غير أن سيبويه يرى (١ : ٤٨٢) : « أنه ضعيف فى الكلام أن تقول : قد علمت أنْ تفعلُ ذاك ، وقد علمت أن فعل ذاك ، حتى تقول : سيفعل أو قد فعل أو تنفى فتدخل « لا » وذلك لأنهم جعلوا ذلك عوضاً مما حذفوا من « أنه » ، فكرهوا أن يدَعوا السين أو قد ، إذ قدروا على أن تكون عوضاً » ثم يقول بعد ذلك : «و «لا » تنقض ما يريدون لو لم يدخلوا قد ولا السين » .

وهذا يعنى أنه لا يمكن التجاوز عن شرط الفصل بين « أنْ » المخففة والمضارع بعدها إذا سبقت بفعل التحقيق الصِّرف ، وهو « علم » .

رابعا : القطع :

ويقصد به : قطع الجمل عما قبلها بوساطة حرف من الأحرف الآتية :

الواو – الفاء – ثم – حتى – أم المنقطعة بل – لكن .

ويمكن تسميتها أحرف القطع ؛ لأنها تقطع الجملة عما قبلها . بمعنى أنه يستأنف بها كلام جديد .

وهذا المعنى قريب من المعنى الذى قصده أبو جعفر النحاس من كتابه : « القطع والائتناف » ، فهو يقصد بالقطع : الوقف وبالائتناف : الابتداء . وذلك لأنّ حروف القطع تقطع الكلام عما قبله صناعياً

(نحوياً) ، فهى تقوم مقام السكت فى الوقف الاختيارى ، الذى سماه أبو جعفر : القطع . فالواو – مثلا – فى حالة الكتابة تقوم مقام السكت فى حالة النطق .

(أ) مثال القطع بالواو : قوله تعالى :

« قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم » .

(سورة آل عمران : ٣٦)

(ب) ومثال القطع بالفاء : قوله سبحانه :

« فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون » .

(سورة الأعراف : ١٩٠)

وقد اجتمعت الواو والفاء فى قول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبى علىّ مطيّهم
يقولون لاتهلِك أسى وتجمّل

وإن شفائى عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معوّل

فى البيت الثانى جملتان مقطوعتان ؛ الأولى : بعد الواو ، والثانية : بعد الفاء .

(ج) ومثال القطع بـ « ثمّ » : قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثمّ الله ينشئُ النشأة الآخرة »

(سورة العنكبوت : ٢٠)

فالجملة بعد « ثم » مقطوعة عما قبلها لأن النشأة الآخرة لمّا تقع ، فيؤمروا بالاعتبار بها . ومنه ما ذكره ابن هشام (١ : ١٢٦) : « أعجبنى ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس أعجب »

« وذلك لأن ما صنعه أمس لايمكن أن يكون فى الترتيب بعد ما صنعه اليوم » .
(قباوة : ٣٥)

(د) ومثال القطع بـ « أم » و « بل » قوله تعالى :

« هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور » .

(سورة الرعد : ١٦)

« قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربّه فصلىّ ، بل تؤثرون الحياة الدّنيا » .

(سورة الأعلى : ١٤ – ١٦)

(هـ) ومثال القطع بـ «حتى» : قول الفرزدق :

فواعجبا ، حتى كُليب تسبُّنى
كأن أباها نهشلٌ أو مجاشع

ويشيع فى اللغة المعاصرة مثل قولهم حتى أنت ياصديقى ، حتى أنت «يابروتس» ويوخذ على هذا التعبير أن «حتى» لم يرد قبلها كلام .

وقد قدّر ابن هشام البيت السابق بقوله (١ : ١٣٧) :

« فواعجبا يسبنى الناس حتى كليب تسبنى » .

ويمكن حمل مثل «حتى أنت ياصديقى» على هذا التقدير .

(و) ومثال القطع بـ «لكن» قول زهير :

إن ابن ورقاء لاتخشى غوائله
لكن وقائعه فى الحرب تنتظر

وقول طرفة :

ولست بحلاّل التلاع مخافة
ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وتجدر الإشارة إلى أن القطع أمر دقيق ؛ لاينبغى الاعتماد فيه على ظاهر العبارة . وما فيها من روابط لغوية . بل لابّد من الاحتكام إلى المعنى الذى تتضمنه العبارة . لأن القطع فى معناه العام : عدم تعلُّق الجملة نحويا بما قبلها تعلُّق إتْباع أو إخبار أو وصف أو حال أو صلة . ويهمنا هنا : قطع الإتْباع فى العطف بمعنى : ألّا تكون أداة القطع عاطفة مابعدها على ما قبلها . إذ الكلام على الأدوات التى تستخدم فى القطع .

ومن الجدير بالذكر أيضاً : أن نفرق بين نوعين من القطع . القطع البيانى ، والقطع النحوى . فالأول يكون جواباً لسؤال مقدّر . نحو قوله تعالى .

« فقالوا سلاماً . قال : إنا منكم وجلون »
(سورة الحجر : ٥٢)

فجملة « قال ... » : جواب لسؤال مقدّر ، هو : فماذا قال لهم ؟

والثانى يكون جواباً . ويكون بأداة ، كما سبق . ويكون بدون أداة ، نحو قوله تعالى :

« ولايحزنك قولهم . إن العزّة لله جميعاً » .
(سورة يونس : ٦٥)

فجملة « إن العزّة .. » : مقطوعة عما قبلها ، وليست محكيّة بالقول ؛ لأنها ليست من كلام الكافرين ، ولايعقل أن تصدر منهم ، وإنما هى من كلام الله تعالى ، يثبّت بها قلب النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد اجتمع النوعان فى قول الشاعر :

زعم العواذل أننى فى غمرة
صدقوا ، ولكن غمرتى لاتنجلى

فجملة « صدقوا » : قطع بيانى ؛ لأنها جواب لسؤال مقدر : أصدقوا أم كذبوا ؟ فقيل : صدقوا . (ابن هشام ٢ : ٤٢٨) وجملة « غمرتى لاتنجلى » قطع نحوىّ بـ « ولكن » .

وقد قالوا : إن كل قطع بيانىّ هو نحوىّ ، وليس العكس .

والحديث عن القطع بمعناه الذى تقدم يجرنا إلى الحديث عن القطع فى النعت فقد أجاز بعض النحويين قطع النعت بالواو ، واستدلّ بقول الشاعر :

ويأوى إلى نسوة عطّلٍ
وشعثا مراضيع مثل السّعالى

حيث أتبع النعت الأول ، وهو « عطل » وقطع الثانى وهو « شعثاً » فنصبه بفعل محذوف ، تقديره : أخص أو أذمّ .

« والأعرف مجىء نعت النكرة المقطوع بالواو الدالّة على القطع والفصل ؛ إذ ظاهر النكرة محتاج إلى الوصف ، فأكّد القطع بحرف هو نص فى القطع ، أعنى الواو .. » (الرضى ١ : ٣١٦) ويجوز فى المعرفة أيضاً القطع مع الواو ، كقول الخِرْنِق[1] :

لا يَبْعَدَن قومى الذين هم
سمّ العُداة وآفة الجزر

---

(١) خرنق بكسر الخاء والنون : أخت طرفة بن العبد لأمه ، وهى هنا ترثى زوجها بشر بن عمرو بن مرثد ومن قتل معه من بنيه وقومه . ومعنى لا يبعدن ، بفتح الياء والعين : دعاء خرج مخرج النهى : أى لا يهلكن، جريا على عادة العرب فى استعمال هذا اللفظ فى الدعاء ، قال تعالى : « ألا بعدا لعاد قوم هود » (سورة هود : ٦٠) وقال سبحانه : « ألا بعد المدين كما بعدت ثمود » (سورة هود : ٩٥) . فإن قيل كيف دعت لقومها بألايهلكون وهم قد هلكوا ؟ أجيب بأن العرب لهم فى ذلك غرضان : أحدهما : أنهم يريدون بذلك استعظام موت الرجال . . ، والثانى أنهم يريدون الدعاء لهم بأن يبقى ذكرهم ولا يذهب : لأن بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته .
العداة : جمع عاد ، وهو العدو بعينه ، ولا يجوز أن يكون جمع عدو ، لأن فعولا لا يجمع على فعلة . . . (خالد الأزهرى ٢ : ١١٦) .

النازلين بكل معترك
والطيبون معاقد الأزر

بنصب الأول : (النازلين) بإضمار « أمدح أو أذكر » ورفع الثانى : (والطيبون) بإضمار « هم » على القطع فيهما . ويجوز العكس بإتباع الأول لقومى ، وقطع الثانى بإضمار أمدح أوأذكر ، كما يجوز رفعهما معا ؛ ونصبهما معا ..
(خالد الأزهرى ٢ : ١١٦)

خامسا : كسر الاعراب :

ونعنى به دخول بعض حروف الجر التى يسميها النحاة بالزائدة – على المرفوع أو المنصوب من الأسماء ، لتحقيق أغراض فنية ، منها :

(أ) الاستغراق والشمول ، وذلك بعد النفى أو شبهه ، كما فى قوله عزّ وجل :

« هل مِن خالق غيرُ الله ؟ »
(سورة فاطر : ٣)

« وما ربّك بظلاّم للعبيد » .
(سورة فصلت : ٤٦)

« ماجاءنا مِن بشير ولا نذير) .
(سورةالمائدة : ١٩)

فالزائد فى الآية الأولى دخل على المبتدأ ، وفى الآية الثانية دخل على الخبر ، وفى الثالثة دخل على الفاعل .
وفى جميع هذه الآيات حدث كسر للإعراب تحقيقا لمعنى الاستغراق والشمول ؛ المستفاد من اجتماع النفى أو شبهه مع حرف الجر (الباء أو مِن) ثم النكرة بعد ذلك .

(ب) تقوية العامل إذا كان اسم فعل أو اسم فاعل ومايشبهه ، والزائد هنا : « اللام » كما فى قوله سبحانه :

« هيهات هيهات لما توعدون » .
(سورة « المؤمنون » : ٣٦)

« فعّال لما يريد » .
(سورة البروج : ١٦)

« وآمِنوا بما أنزلت مصدّقا لما معكم » .
(سورة البقرة : ٤١)

فالأصل فى العمل – كما يقولون – للأفعال ، واسم الفعل أو اسم الفاعل أو صيغة المبالغة فرع فى العمل على الفعل ؛ لأنها أضعف منه ، فجئ باللام لتقوية الفرع .

وقد دخلت اللام فى الآية الأُولى على الفاعل، وفى الآية الثانية والثالثة على المفعول . وحدث كسر للإعراب تحقيقا لمعنى التقوية المتقدم .

سادسا : الامتداد فى الزمن :

(أ) وذلك بعد (أنْ) و (كان) فى مثل :

قوله تعالى : «فلمّا أنْ جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيرا » .

(سورة يوسف : ٩٦)

وقول الشاعر :

ولمّا أنْ تحمّل آل ليلى

سمعت ببينهم نعب الغرابا

(الأنبارى ١ : ٨٦)

وقولهم : ماكان أطيب أمسنا .

يقول النحاة : إنّ «أنْ » الواقعة بعد «لمّا » و «كان » الواقعة بين «ما » وفعل التعجب – من الزوائد ؛ لوقوع كل منهما بين متلازمين . ونقول : إن وجود «أنْ » و «كان » فى مثل هذه المواضع ضرورىّ ؛ لأنّ وجودهما يمنح امتدادا فى الزمان والمكان ، ونلحظ ذلك من قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه إلى أبيه ، ومن تصّور نوع القلق الذى كان يعيشه هذا الأب قبل أن يرتدّ إليه بصره .

وفى الآيتين الكريمتين من سورة العنكبوت :

«ولمّا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين » (الآية : ٣١)

«ولمّا أنْ جاءت رسلنا لوطا سِيءَ بهم وضاق بهم ذرعا ، وقالوا لاتخف ولاتحزن ، إنا منجّوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين » (الآية : ٣٣) .

– نلحظ كيف جاءت الآية الأُولى من غير فاصل بعد «لمّا » فى حين جاءت الآية الثانية وفيها فاصل هو «أنْ » لأن الموقف يتطلب الامتداد فى الزمن فى الآية الثانية ، بعكس الآية الأُولى التى فيها البشرى .

(ب) ومن هذا القبيل مايسمى بالحروف المقحمة . كالواو فى مثل قول تعالى :

«فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجبّ وأوحينا إليه » .

(سورة يوسف : ١٥)

«فلمّا أسلما وتلّه للجبين وناديناه أن ياإبراهيم »

(سورة الصافات : ١٠٣ . ١٠٤)

«حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها »

(سورة الزمر : ٧٣)

فالواو فى : « وأوحينا » ، « وناديناه » ، « وفتحت » مقحمة زائدة ؛ لأن هذه الأفعال وقعت جوابا لأداة الشرط «لمّا » و «حتى إذا » .

جاء فى معانى القرآن للفراء (٢ : ٣٩٠) تعليقا على الآية الكريمة : فلما أسلما وتلّه للجبين . . . » : «وجوابها (أى لمّا) فى قوله : وناديناه) والعرب تدخل الواو فى جواب (فلمّا) و (حتى إذا) وتلقيها ؛ فمن ذلك قول الله : (حتى إذا جاءوها فتحت) وفى موضع آخر : (وفتحت) وكلٌّ صواب ».

وعلى هذا مذهب الكوفيين ؛ تزاد عندهم الواو بعد (لمّا) و (حتى إذا) . (أبو حيان ٥ : ٢٨٧) .

يقول براجشتراسر (ص ١٨٠) :

« كثيرا ماتدخل الواو على الجواب... ... بغير قواعد ثابتة واضحة . وأكثر ذلك فى العبرية نحو . . . . . . إن كان أذى وأعطيت نفسا بدل نفس» أى : إن كان أذى من ضرب الرجل صاحبه أعطيت نفسا بدل نفس . وهذا شبيه بالفاء فى نحو : فلمّا أتانا فأصبح مسرورا . بدل : أصبح مسرورا » لأن الفاء قد تدخل على مالا محل لها فيه فى الأصل . . . وكثر مثل ذلك فى الزمان المتأخر » .

وقد تحدث النحاة والمفسرون[1] عن الواو الزائدة والمقحمة والواو الاعتراضية كما تحدّثوا عن مصاحبة الواو لجواب (حتى إذا) . وجاءت الواو مع (لمّا) كثيرا ، حتى أطلق عليها (واو لمّا) . وملاحظ الامتداد الزمنى فى كل من هاتين الأداتين . وهذا يعنى أن وجود الواو فى مثل هذه التراكيب يعدّ جزءا من البناء اللغوى بمفهومه النحوى والدّلالى. وفى العربية المعاصرة أساليب احتوت على

(١) ينظر : الأشباه والنظائر للسيوطى ح ٤ ص ١٣ ، والمقتضب ج ٢ص ٨٥ ومعانى القرآن للفراء ج ١ ص ٢٣٨ ، والبحر المحيط لأبى حيان ج ٥ ص ٢٨٧ .

مصاحبات زمنية لاتقبلها القواعد التراثية ؛ من ذلك مثلا قول بعض المثقفين : (سوف لا أحضر) بدلا من (لن أحضر) ، فهذا المثال لاتقرّه القواعد التقليدية ؛ لأن أساليب نفى المستقبل هى : لا أحضر ولن أحضر . . يقابلها فى الإثبات : (سأحضر ، سوف أحضر . . .) فكيف يجمع بين النفى والإثبات فى موقف لغوى واحد ؟

سابعا : تقرير الكلام السابق (أو الدلالة على الشمول والاستقصاء) :

وأكثر مايكون ذلك مع الواو ، كقولهم : «زيد كاتب كما وأنه شاعر» فيزيدون واوا بين «ما» وصلتها ». (اليازجى : ٤٩)

وقد شاع استخدام هذه الواو مصاحبة لبعض الأدوات فى اللغة المعاصرة ، وذلك مثل :

«أنا لا أوافق على هذا ، بل ولا أحب أن أناقشه »

«ألَا وإنّه مامن شىء جميل أو عظيم إلاّ وفيه معنى السخرية به ».

(الرافعى ١ : ٢٥٨ ، ٢ : ١٧٧)

«. . .ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والإنتاج » (حسين ١ – ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٤) وتكثر هذه المصاحبات الآن فى لغة الصحافة ، ومنها :

«إذا كان ولابد أن نختلف . . »

(صحيفة الأهرام / عدد الجمعة : ١٨ / ٧ / ١٩٧٥ ، ص ١١) .

«. . . وحتى بدون المحاضرات سيكون المهرجان . . . كسبا كبيرا . . . »

(صحيفة الأهرام / عدد الجمعة : ١٨ / ٧ / ١٩٧٥ ، ص ١١) .

فالواو فى جميع هذه التراكيب أفادت معنى نحويا ، هو تقرير الكلام السابق ، ولولا هذه الواو لما فهمنا هذا المعنى .

جاء فى شرح الكافية : «وكذا إذا وليت (أنَّ) الواو بعد قولك : هذا أو ذلك ، تقريرا للكلام السابق ؛ قال تعالى : «ذلكم ، وأنَّ الله موهن كيد الكافرين» (سورة الأنفال : ١٨) .

(الرضى ٢ : ٣٢٥)

ويكثر هذا الأسلوب فى القرآن الكريم ، نحو :

« ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأنّ هذا صراطى مستقيما » .

(سورة الأنعام ١٥٢ ، ١٥٣)

« ذلك بما قدمت أيديكم ، وأنّ الله ليس بظلام للعبيد »

(سورة آل عمران : ١٨٢)

« هذا ، وإنّ للطاغين لشر مآب . »

(سورة ص : ٥٥)

ومن أقوالهم : « قضية ولا أبا حسن لها » .

« ماء ولا كصدّاء . »

« مرعى ولا كالسّعدان . »

« فتى ولا كمالك . »

وقد لاحظت من تتبعى لأقوال النحاة والمفسرين أن أبا حيان يكثر من مصاحبة الواو لـ (بل) فى « البحر » . وذلك مثل قوله :

« . . . وهذا لاينبغى أن يكون فى كلام الله تعالى ، بل ولافى كلام فصيح . . . »

(أبو حيان ٨ : ٤٥٨ ــ ٤٥٩)

كما صرّح فى موضع آخر بأن الواو قد تجب مع (لو) للتنبيه على أن ماقبلها جاء على سبيل الاستقصاء ؛ أى الشمول والتأكيد ، وهو المعنى الذى حاولنا إثباته هنا . يقول أبو حيان :

(. . . فإذا قال : اضرب زيدا ولو أحسن إليك ، المعنى : وإنْ أحسن إليك . أعطوا السائل ولو جاء على فرس : ردوا السائل ولو بشق تمرة ــ المعنى فيهما : وإنْ . وتجىء (لو) هنا تنبيها على أن مابعدها لم يكن يناسب ماقبلها ، لكنها جاءت لاستقصاء الأحوال التى يقع فيها الفعل ، ولتدل على أن المراد بذلك وجود الفعل فى كل حال ، حتى فى هذه الحال التى لاتناسب الفعل ، ولذلك لايجوز : اضرب زيدا ولو أساء ، ولا : أعطوا السائل ولو كان محتاجا ، ولا : ردّوا السائل ولو بمائة دينار .)

(أبو حيان ١ : ٤٨٠ ــ ٤٨١)

ومن هنا يرى أبو حيان أنه « لايجوز حذف هذه الواو الداخلة على (لو) إذا كانت تنبيها على أن مابعدها لم يكن يناسب ماقبلها ، وإن كانت الجملة الواقعة حالا فيها ضمير يعود على ذى

الحال ؛ لأن مجيئها عارية من الواو يؤذن بتقييد الجملة السابقة بهذه الحال . فهو ينافى استغراق الأحوال حتى فى هذه الحال . فهما معنيان مختلفان . والفرق ظاهر بين :

أكرم زيدا لو جفاك . أى : إن جفاك، وبين : أكرم زيدا ولو جفاك »

(أبو حيان ١ : ٤٨٠ – ٤٨١)

وقال ابن جنى فى الخصائص (٢ : ٤٦٢) بزيادة الواو فى خبر كان . مثل قول العرب : كان ولامال له ، أى كان لامال له . وعلل ابن جنى هذا بشبه خبر كان بالحال . فجرى مجرى قولهم : جاءنى ولاثوب عليه .

ويمكن فى ضوء هذا تفسير ظاهرة اقتران الواو بخبر «كان» فى قول المحدثين «كان ولابدّ . . . » و «إذا كان ولابد .. » على أن كثيرا من اللغويين والنحاة والمفسرين أجازوا زيادة الواو بعد « إذا »[1] .

ونخلص من هذا كله إلى أن مصاحبة الواو لبعض الأدوات فى اللغة المتوارثة كان يقصد به تأكيد المعنى السابق : سواء أتبع هذا التوكيد شمول واستقصاء أم لا.

ومن هنا نعرف السبب فى كثرة مصاحبة هذه الواو لأدوات النفى فى اللغة المعاصرة ، بل اللغة المتوارثة .

ويتصل بالواو بوصفها مصاحبا نحويا للدلالة على الشمول والاستقصاء أو لتقرير الكلام السابق – ماورد فى الدعاء من نحو قوله تعالى :

« رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ على الذين من قبلنا ، ربّنا ولاتحمّلنا ما لا طاقة لنا به . . . »

(سورة البقرة : ٢٨٦)

(١) ينظر : الخصائص لابن جنى ج ٢ ص ٤٦٢ ، وإعراب القرآن للزجاج ج ٣ ص ٨٨٩ ومغنى اللبيب لابن هشام ج ١ ص ٤٠٠ .

ومن نحو قولنا :

اللهمّ اهدنا صراطك المستقيم ، وفرّج كروب المكروبين ، اللهم وارحم والدينا .

ومنه : سمع الله لمن حمده ، ربّنا ولك الحمد .

فهذه الواو ليس لها من تفسير سوى أنها لتقرير الكلام السابق ، وللدلالة على الشمول والاستقصاء فى جميع الأحوال.

مصطفى النحــاس
الأستاذ المساعد بكلية الآداب
بجامعة الكويت

المركب الاسمي

للدكتور محمود عبد السلام شرف الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين سيدنا محمد النبي الأمين .

وبعــد :

فهذا بحث جديد وليس بجديد : أما الأخيرة فإن المعلومات النحوية التي تحويها هذه الورقات قد قالها النحويون القدماء — جازاهم الله خير الجزاء :

وأما الأولى فإن هذه المحاولة من أولى المحاولات التي تجمع أطراف هذا الموضوع في معالجة خاصة ، فالمعلومات التي في ثنايا هذا البحث متفرقة في المراجع النحوية .

كما أن هذا البحث يصدر عن رؤية معينة تذهب إلى أن من الممكن تقديم نحو اللغة العربية من خلال تبويب جديد يأخذ في اعتباره طبيعة اللغة في التركيب .

لهذا كانت هذه الورقات عما أسماه القدماء بالمركب ، وعنوا به ما ليس بمفرد ولا جملة ، فهو بين بين ، ولكن حديثهم عنه جاء متفرقا مبثوثا ، وهدفي من الكتابة في هذا الموضوع بهذه الطريقة :

١ — الانعتاق من ربقة التبويب النحوي الذي لجأ إليه النحاة التعليميون .

٢ — تقديم نحو العربية من وجهة نظر تركيبية ترى للغة وحدات تركيبية يوظف بعضها داخل بعض ، فالمفرد عنصر في المركب ، والمركب يوظف داخل الجملة الصغرى وهكذا .

٣ — تجميع أقوال النحويين القدماء ، لأنهم تنبهوا إلى هذا التلاحم السابق وإن اتخذ تبويبهم لمسائل النحو شكلا آخر :

هذا ، وهناك بعض المراجع التي أفدت منها أيما إفادة في النظرة العامة إلى هذا الموضوع بل إن بعضها هو ما دفعني إلى إفراد هذا الموضوع بحديث خاص أذكر منها :

— الكتاب لسيبويه .

— شرح المفصل لابن يعيش .

— شرح الكافية للرضى أكتوبر ١٩٧٩

(وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) :

مداخــل

معنى النحــو :

النحو هو العلم الذى بأصوله وقواعده نعرف أحوال الكلمات حال تركيبها ؛ أو هو البحث عن علاقة الكلمة بما قبلها وما بعدها وما يستتبعه هذا من الوقوف على أحكام إعرابها وبنائها :

قال تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس ».[1]

هذا الجزء من الآية الكريمة عبارة عن تركيب تجاورت كلماته وتداخلت ورتبت على نسق معين ، فلكل كلمة فيه علاقة بما قبلها وما بعدها . واعراب الجملة السابقة يثبت المقولة السابقة بوضوح ، فكلمة «خير» مثلا — خبر كان قبلها ، ومضاف إلى «أمة» بعدها ، و أمة مضاف إليه بالنسبة إلى خير قبلها ، وموصوف بالنسبة إلى ما بعدها .

حضر رجال العلم :

تعتبر كلمة رجال ، فى المثال السابق فاعلا من حيث علاقتها بالفعل حضر قبلها ، ومضافا من حيث علاقتها « بالعلم » بعدها ولا تعارض بين الاعتبارين السابقين ، لأن الاعتبار الأول ينظر فيه إلى وظيفة الكلمة فى الجملة ، والاعتبار الثانى ينظر فيه إلى أنها عنصر فى مجموعة كلامية وهى مركب (المضاف والمضاف إليه)[2] .

مصطلحات النحو وشجرة التحليل :

النحو أصل من أصول العلوم العربية ومن أسبقها إلى الوجود ومنه استمدت علوم عربية بعض أصولها ، وقد حظى النحو العربى بمصطلحات وفيرة اتفق عليها المشتغلون بصناعة النحو والقائمون على امر سلامة اللغة العربية ، فهناك مصطلحات الإعراب والبناء والعدد ، والنوع ، والتعريف والتنكير ، كما ان هناك مصطلحات خاصة بالمواقع النحوية للكلمات .

وقد اعتاد اجدادنا النحويون أن يقدموا وصفا دقيقا لما عليه الكلمات فى التراكيب وهم يعربون . ففى قوله تعالى — مثلا :

«يمحق الله الربا ويربى الصدقات»[3].

نراهم يعربون كلمتى «الربا »و«الصدقات» مثلا على النحو التالى :

«الربا » مفعول به ، منصوب بفتحة مقدرة على آخره ، منع من ظهورها التعذر .

«الصدقات » مفعول به ، منصوب بالكسرة ، لأنه جمع مؤنث سالم .

---

(١) آل عمران — ١١٠ (٢) يمكننا مقارنة جملنا بـ «دراما» صغيرة تلعب فيها الكلمات والعناصر اللغوية الأخرى دور الممثلين ، فربما يلعب الممثل الواحد أكثر من دور فى الجملة الواحدة .

Alexander, Hulert G; meaning in languag; pp. 70,71·u.s.a· 1969.

(٣) البقرة — ٢٧٦ .

وهذا الإعراب الذى قد يرميه بعض قاصرى النظر من أعداء الفكر الإسلامى عامة والفكر النحوى خاصة بالإطالة أو باللغو . أقول هذا الإعراب يكشف عن منهج فكرى منظم يهدف إلى تبين ما يلى :

أولا : موقع الكلمة أو وظيفتها فى التركيب ، وفى هذا كشف علاقتها بما يجاورها .

ثانيا : الحالة الإعرابية التى تلتبس بها الكلمة وهى تؤدى هذه الوظيفة .

ثالثا : علامة الإعراب أى شكل آخر الكلمة ، فالحالة الإعرابية قد يكون لها أكثر من علامة .

رابعا : سبب تقدير الحركة ، إذا كانت غير ظاهرة ، وسبب الإعراب الفرعى إن وجد وسوف أقدم إعرابى للأمثلة على شكل ما يسمى بشجرة التحليل Tree Diagram التى يظهر عليها المثال المحلل متدرجا تدرجا تنازليا حتى تنتهى الشجرة بأفرع للعناصر المفردة إذا ما اتجهنا منها إلى أعلى نتدرج تدرجا تصاعديا . وهدفى من وراء اللجوء إلى هذه الطريقة تعليمى بحت ، وسوف أراعى فى رسم شجرة التحليل ما يلى :

أولا : تفريع الشجرة إلى فرعين : فرع للمسند إليه ، وآخر للمسند — كما يردان فى المثال وفرع ثالث للمكمل ، وهو ماسوى المسند والمسند إليه فمستوى التحليل فى هذه المرحلة يرتكن إلى المعنى ومفهوم المثال .

ثانيا : مد الأفرع السابقة لتصبح أفرعا للوظائف النحوية التى تقوم بها الكلمات فمستوى التحليل فى هذه المرحلة يستند إلى الوظيفة .

ثالثا : قد يتوقف تفريع الشجرة عند المستوى السابق ، إذا كانت العناصر التى شغلت المواقع النحوية مفردة أو مركبة تركيبا مزجيا ، لكننا سنستمر فى تفريع الشجرة إذا كان فى المثال عنصر غير ماسبق أى غير المفرد والمركب المزجى ، ومستوى التحليل فى هذه المرحلة عماده التركيب أى تركب العنصر من أكثر من كلمة .

رابعا : رسم خطوط مستقيمة تبدأ من نهاية كل فرع فى الشجرة وتنتهى جميعا على خط مستقيم ، ونكتب تحت كل خط مستقيم العنصر أو الكلمة التى تمثله .

وهاك تحليلا لبعض الأمثلة :

قال تعالى : ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم .

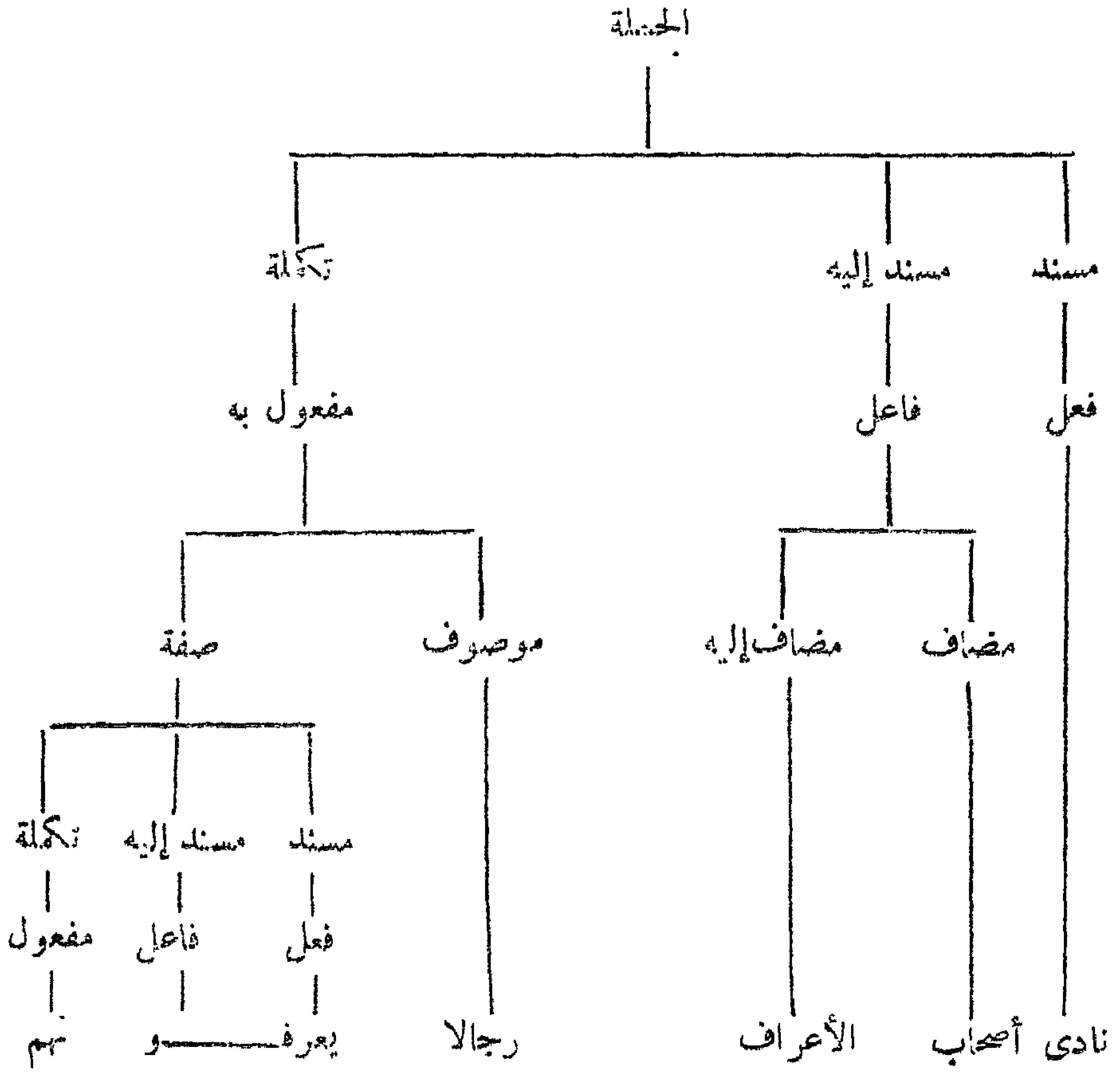

تعليقات على الشجرة :

هذه الطريقة تعليمية ، وينصح بتقديمها إلى المتخصصين الذين تمكنهم معلوماتهم فى النحو العربى من إكمال أوجه النقص التى تمنى بها هذه الطريقة ومن هذه الأوجه[1] :

(أ) الإغفال عن ذكر الحالة الإعرابية

(ب) الإغفال عن ذكر العلامة الإعرابية : ظاهرة أو مقدرة ، بله سبب التقدير .

(ج) الإغفال عن تحديد الجمل التى لها محل من الإعراب . والتى ليس لها محل من الإعراب . فلم يظهر على الشجرة السابقة – مثلا – أن جملة « يعرفونهم » فى محل نصب

(١) انظر نقدا تفصيليا لتحليل الجمل بطريق شجرة التحليل فى « كم الجملة العربية » للمؤلف ، حلقة البحث اللغوى ، كلية دار العلوم ، مارس ١٩٧٧ .

قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب »[1] :

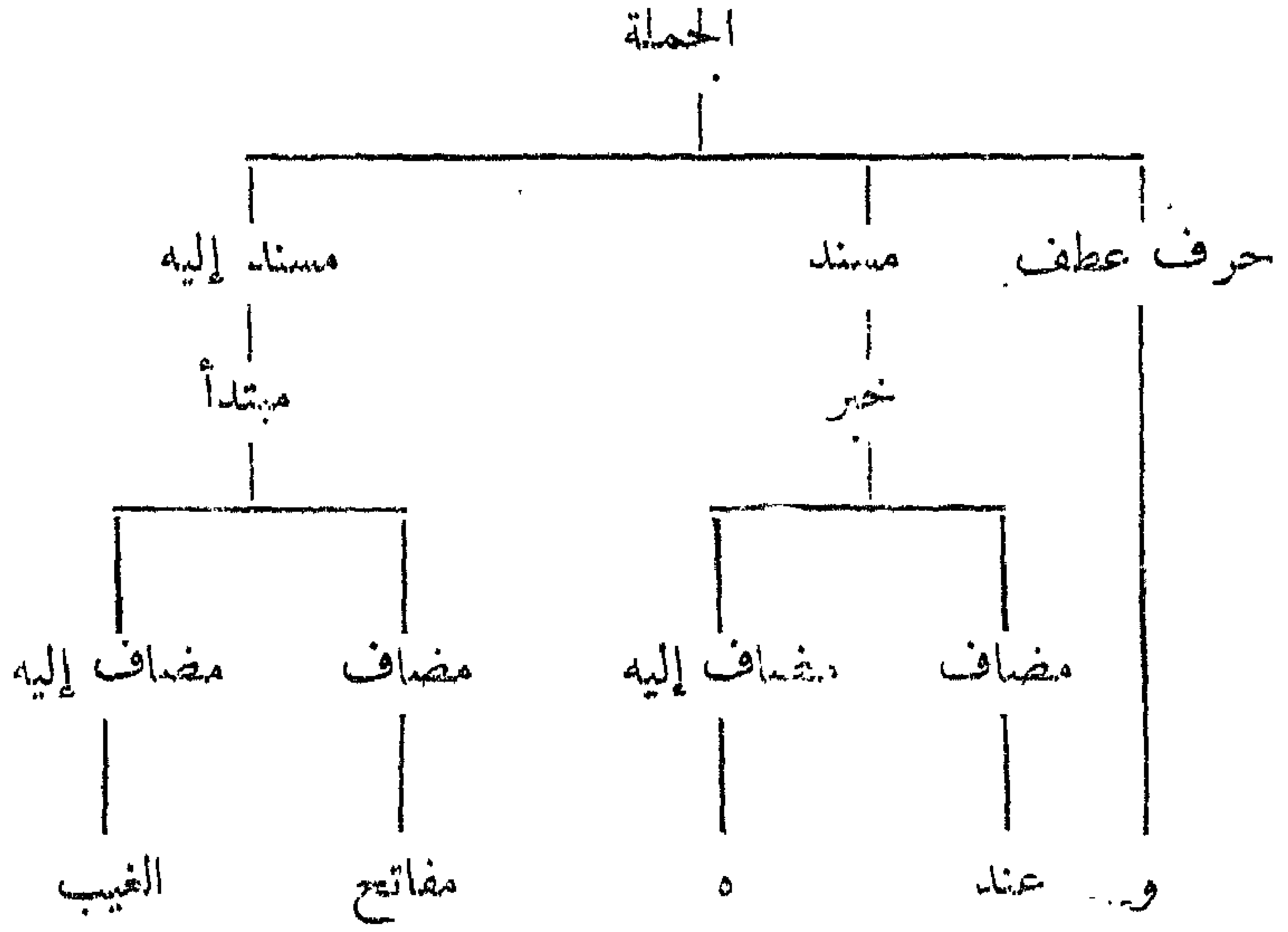

قال تعالى : « ويحق الله الحق بكلماته »[2] :

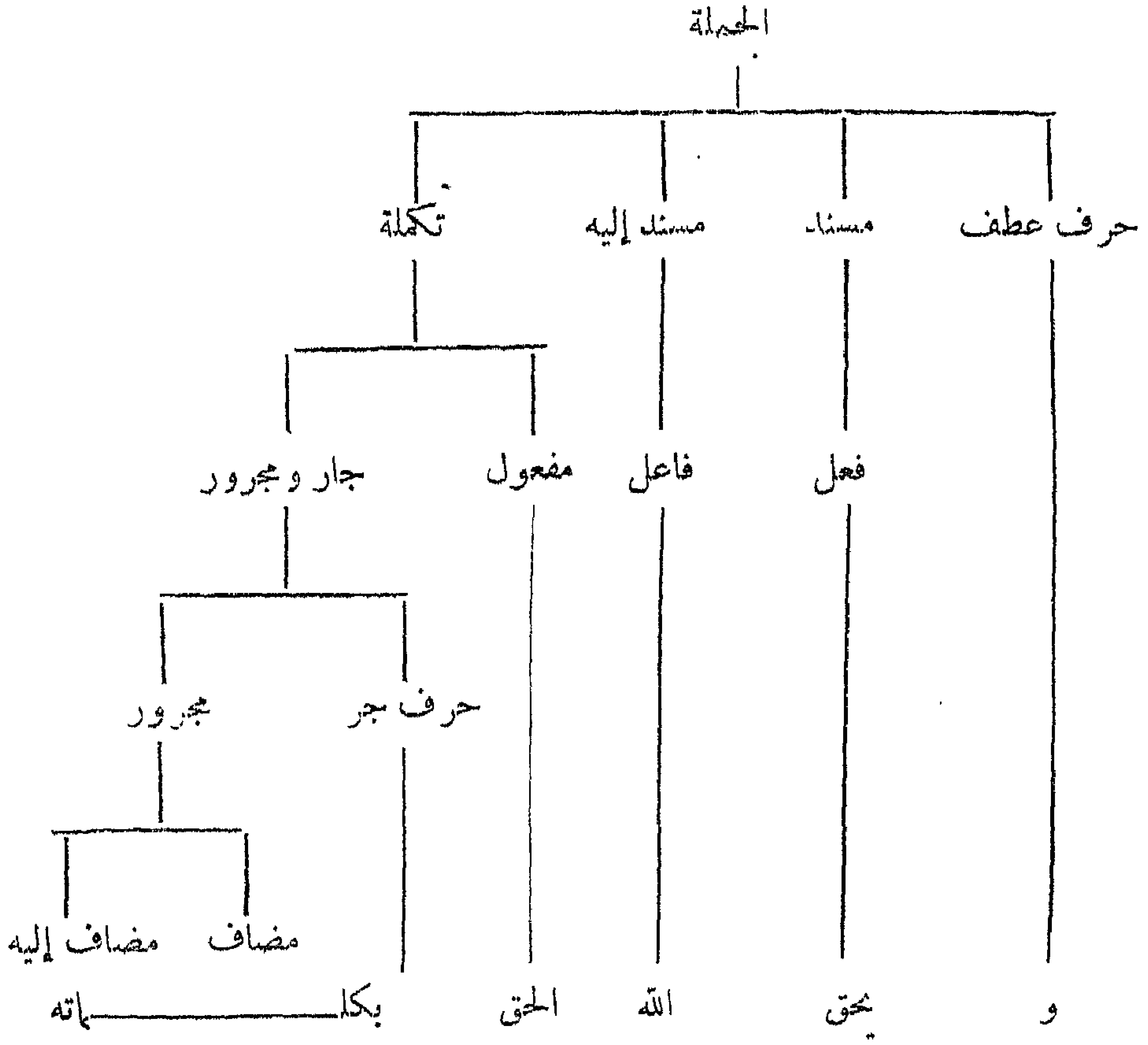

---

(١) الأنعام : ٥٩ .　　(٢) يونس : ٨٢ .

الكم والكيف :

المقصود « بالكم » عدد العناصر التى يتكون منها التركيب . وهذا إطلاق قد يرادف « حجم » التركيب ، والعناصر التى تكوّن الجملة قد تكون ضرورية لتكوين ما أسميه التركيب الأساسى ، ثم قد تزاد هذه العناصر عناصر أخرى . أو تنقص بعض العناصر فتنتج الزيادة ماأسميه بالتركيب الممتد ، وينتج النقص ماأسميه التركيب المجتزأ .

والمراد بـ«كيف» الجملة الطريقة التى توصف بها هذه العناصر . فهذا اعتبار يشار به إلى ترتيب الكلمات فى الجملة ؛ كما يقصد به الكيفيات المختلفة التى تطرأ على التركيب من حيث كونه مثبتاً أو منفياً : تقريرياً أو مؤكداً دالا على زمن ما من الأزمنة وقد يقصد بالكيف أيضاً ماقد يتحقق فى التراكيب من مطابقة بين العناصر المفردة وكذا الحركة الإعرابية التى يستحقها العنصر الاسمى فى الموقع النحوى المعين .

وهاك جـــدولا لبعض الجمل

رقم	الجملة	الكم	الكيف	عناصر الكيفية
١	حضر رجل	بسيطة تركيبها أساسى	فعلية مثبتة فاعلها مرفوع	
٢	ماحضر رجل	» » »	» منفية » »	ما
٣	ماحضر من رجل	» » »	» » مؤكدة فاعلها مجرور	ما من النكرة

يلاحظ فى الجدول السابق أن هناك عناصر كلامية إيجابية عبرت عن الكيفية التى أريد للجملة أن تكون عليها : و «ما» فى (٢) وظفت للنفى ، و « ما » و « من » وتنكير الأسم فى (٣) وظفت فى النفى والتأكيد والجر .

كما قد يدل على الكيفية المعينة عدم وجود عنصر كلامى أوما يسمى بالعنصر الصفرى ، أو العلامة الصفرية Zero - market فالإثبات فى (١) دليلة عدم وجود علامة له .

وأخيراً يلاحظ أن عناصر الكيفيات لاتسبب تضخما فى المواقع النحوية أو تغيراً فى كمها . وقد يستثنى من هذا الكلمات الدالة على الشرط ، فالكلام ينعقد معها ويصبح أكبر مما كان قبل دخولها (١) . وأحياناً يحدث تلازم بين «كم» الجملة ، وكيفية معينة ، ويتحقق هذا مثلا فى الحال والمفعول المطلق

(١) السيوطى ، جلال الدين ، الأشباه والنظائر جـ ٢ — ٥٤ ، الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٧٥ .

الموكدين لعاملهما فى نحو قوله تعالى :
« فتبسم ضاحكاً » (١)
«وكلم الله موسى تكليما » (٢)
وكم التركيب يزداد بوسيلة من الوسائل التالية :

١ – اندراج الكلمة عنصراً فى مجموعة كلامية متلازمة متشابكة تصير وزنها بدلا ، أو نعتاً مثلا ،

٢ – كون الكلمة من الكلمات المبهمة التى تحتاج إلى كلام بعدها لتوضيح المراد منها .

٣ – تعدد فى المواقع النحوية للجملة ، وغالباً مايكون الفعل مركز الدائرة لهذه المواقع .

فكم الجملة يزيد إما عن طريق تضخم الموقع (٢،١) أو عن طريق كثرة المواقع (٢) والحديث عن «المركب الإسمى» هو حديث عن زيادة كم التركيب عن طريق تضخم الموقع أو الزيادة فى عدد العناصر المفردة .

الوحدات النحوية :

أجمع النحويون العرب على أن أجزاء الكلام هى : الاسم والفعل والحرف . وهذا فى الواقع تقسيم للكلام حسب أنواعه . وقد فرق النحويون بين هذه الأنواع الثلاثة تفريقا بنى على المعنى حينا ، واستند إلى « الشكل » حينا آخر ، ثم إلى « الوظيفة » فى بعض الأحيان :

نوع الكلمة	الشكل	المعنى	الوظيفة
اسم	من علاماته : الجر والتنوين وأل	له معنى فى نفسه وليس الزمن جزءمنه	يقع مسنداإليه ومسندا
فعل	من علاماته : تافعلت ، يا افعلى نون التوكيد ،	له معنى فى نفسه والزمن جزء منه	يقع مسندا فقط
حرف	لاعلامة له	ليس له معنى فى نفسه وله معنى فى غيره	لا يقع مسندا إليه ولا مسندا .

ومع هـذا التقسيم نجد النحويين يقسمون وحدات الكلام تقسيما يأخذ فى اعتباره حجم العنصر وكمه وإمكانية تقسيمه إلى عناصر أبسط ، فقد ذهبوا إلى أن هنالك فرقا بين المفرد والمركب (٣) فالمفرد ما لا يدل جزؤه على جزء معناه ، والمركب ما يدل جزؤه على جزء معناه (٤)

(١) النمل – ١٩ (٢) النساء – ١٦٤ .
(٣) محمد بن حسن الرضى ، شرح الكافية « ٢ حيدر اباد »
(٤) أمين السيد . فى علم النحو حـ ١ – ٧ دار المعارف ، القاهرة ط ١ ، ١٩٧٢ ، أنظر أيضا ، السيوطى ، همع الهوامع جـ ١ – ٣ ، مصر ١٣٢٧ هـ .

ثم قسم النحويون المركب إلى :

١ – المركب الإضافى مثل :

كتاب محمد

شجرة الورد

٢ – المركب المزجى : وهو كل كلمتين جعلتا كلمة واحدة ، ونزلت الكلمة الثانية من الأولى منزلة تاء التأنيث فى ظهور الإعراب عليها مثل :

بعلبك ، حضرموت ، سيبويه أحد عشر ، بين بين .

٣ – المركب الاسنادى : وهو كل كلمة أو ما يجرى مجراها ضمت إلى كلمة أخرى أو لما يجرى مجراها ، بحيث يفيد التركيب أن مفهوم إحداهما ثابت لمدلول الأخرى مثل :

قال تعالى : والآخرة خير وأبقى » (١)

قال تعالى « وحال بينهما الموج » (٢)

قال تعالى « وأن يستعففن خير لهن» (٣)

قال تعالى « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم » (٤) ، أن ومابعدهافى الآيتين الأخيرتين تجرى مجرى الكلمة الواحدة ، لأنها وما بعدها فى تأويل مصدر « مبتدأ » ، « فاعل » .

ومن المركب الإسنادى ما هو جملة فى أصل الاستعمال ، لكنه ينقل إلى الإسمية فيعامل معاملة المفرد ، ويعرب على الحكاية وذلك مثل :

جاد المولى

برق نحره

تأبط شرا

ولهذا معالجة خاصة .

وقدقسم اللغويون المحدثون وحدات الكلام تقسيما يقترب من تقسيم النحويين القدماء إياها إلى مفرد ومركب . فقالوا إن الوحدات التى تدخل فى نسيج الجملة هى :

١ – الوحدة الصرفية :

وهى الوحدة التى لا يمكن أن تقسم إلى وحدات أصغر منها كتاء الفاعل فى نحو : نجحت .

٢ – الكلمة :

وهى أصغر صيغة حرة مثل :

كتاب .

٣ – التعبير :

وهو ما يتألف من عدد من الكلمات بينها ترابط سياقى يجعل منها وحدة متماسكة يمكن أن تستبدل بها كلمة واحدة مثل :

كتاب الصديق .

---

(١) الأعلى – ١٧

(٢) هود – ٤٣

(٣) النور – ٦٠

(٤) الحديد – ١٦

٤ — الجملة الصغرى :

وهى مجموعة من الكلمات تشكل فى صورة مسند ومسند إليه أثناء جملة كبرى مثل :

محمد كتابه جديد .

ويمكن أن يعتبر (١، ٢) فى تقسيم المعاصرين مقابلا لما أسماه القدماء بالمفرد والوحدة الثالثة (التعبير) تقابل المركب الإضافى والمركب المزجى والمركب الإسنادى (المحكى) فى التقسيم القديم ، أماالوحدة الرابعة (الجملة الصغرى) فهى ما أسماه الأقدمون بالمركب الإسنادى .

وهاك تخطيطا للتقسيمين :

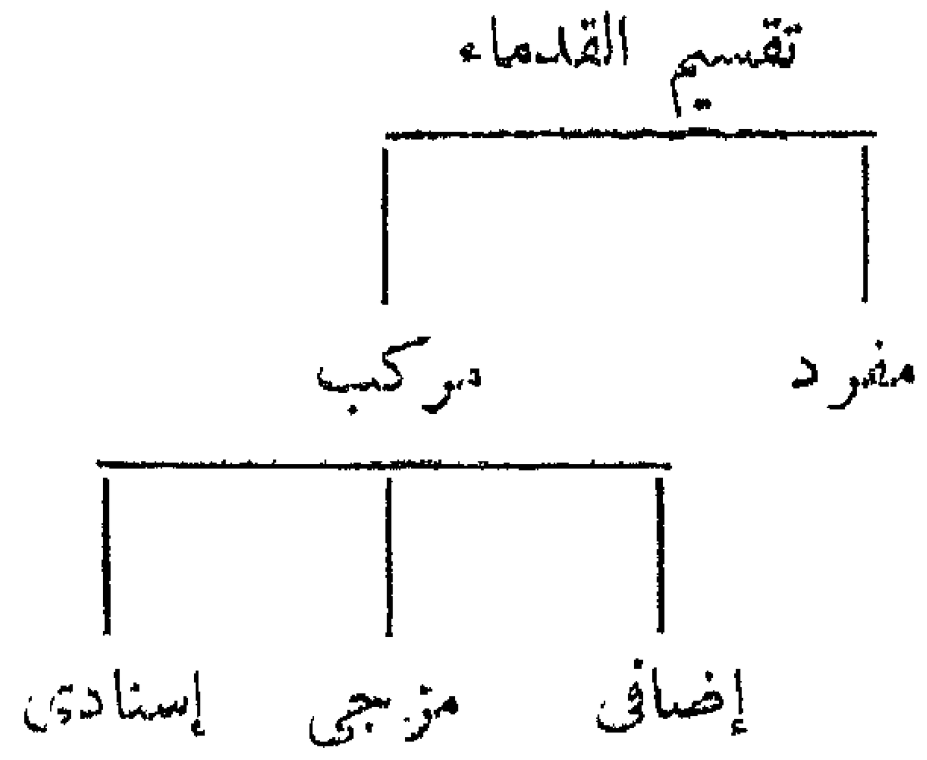

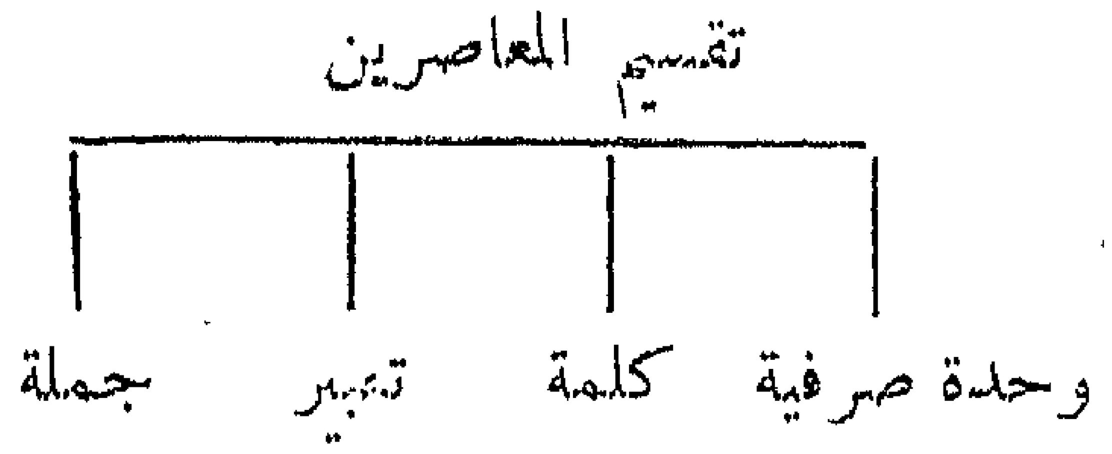

وأقدم الآن تقسيما آخر للوحدات النحوية :

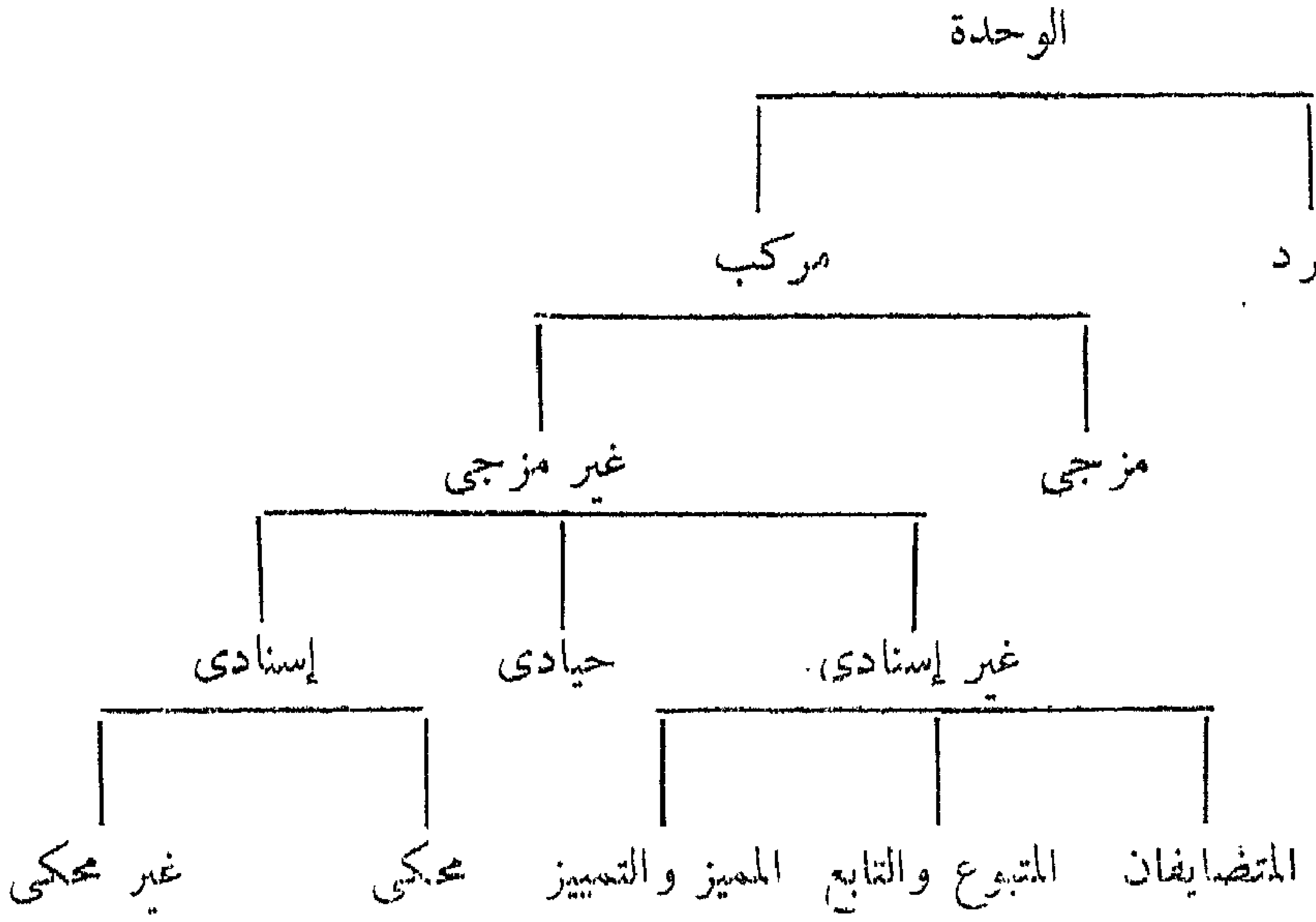

فلسفة هذا التقسيم

يقوم هذا التقسيم على الاعتبارات التالية :

١ — المركب المزجى وسط بين المفرد والمركب غير المزجى ، وليس بمفرد لتركبه من أكثر من كلمة ، لكن عنصريه ازداد تداخلهما فاعتبرا معا كلمة واحدة ، ففارق بهذا المركب غير المزجى ، ومثله فى هذا المركب الإسنادى المحكى .

٢ — توسع فى المركب غير المزجى غير الإسنادى ليشمل أى مركب من اسمين بينهما نسبة معينة الإضافة . التبعية ، التمييز .

٣ — المراد بالمركب غير المزجى الحيادى ذلك المكون من اسم من الأسماء التى تعمل عمل الفعل ومعمول ذلك الاسم فظاهر هذا المركب الإضافة ، وحقيقته وعمقه الإسناد . فهو — إذن — وسط بين المركب غير الإسنادى والمركب الإسنادى وأيا كان التقسيم المقدم للوحدات النحوية فهى جميعا تتفق على مايلى :

أولا : أبسط عناصر التركيب هو المفرد سواء كان حرا مستقلا (كلمة) أو غير مستقل كالوحدة الصرفية الضميرية والمركب المزجى والإسنادى المحكى يعاملان معاملة المفرد .

ثانيا : يلى ما سبق المركب غير المزجى غير الإسنادى ، فهو وإن كان أكبر من المفرد لا ينعقد به كلام تام .

ثالثا : يأتى فى قمة الوحدات المركب الإسنادى أو الجملة التى بين طرفيها علاقة إسنادية ينعقد بها الكلام ، أى يفيد فائدة يحسن السكوت عليها .

العلاقة بين هذه الوحدات تركيبا ووظيفة :

معنى تركيب الجملة من الوحدات السابقة أن اللغة عبارة عن مركب تشكل الوحدات الأكبر حجما فيه من وحدات أبسط منها أو أصغر . فالكلمة مكونة من أصوات ووحدات صرفية والمركب مكون من كلمات ، والجملة الصغرى من مركبات ، ففى الحديث عن تركيب الوحدة نتدرج من الأعلى إلى ما هو أسفل منه . لكننا لكى نتعرف على وظيفة الوحدة النحوية نقوم بحركة صاعدة ، إذ الوحدات توظف فيما هو أعلى منها ، فالوحدة الصرفية توظف فى الكلمة . والكلمة فى المركب ، والمركب فى الجملة الصغرى ، وهذه فى الجملة الكبرى[1] .

التركيب	الوحدات	الوظيفة
↓	الجملة	↑
↓	المركب	↑
↓	الكلمة	↑
↓	الوحدة الصرفية	↑

(١) وهذه الصفحات عن « المركب الاسمى » أى تلك الوحدة التى بين الكلمة والجملة .

مكانة المركب وأين يوظف :

يتضح من التقسيم السابق أن المركب يقع بين الكلمة والجملة الصغرى ، وهو يؤدى وظيفته إما داخل الجملة الصغرى فى حال وجود الإسناد المركب — أو داخل الجملة قال تعالى: « إنما نطعمكم لوجه الله »[1].

قال تعالى : « فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها »[2] .

الجملة الأولى بسيطة أى ذات إسناد واحد ، والمركب الاسمى الموظف فيها هو المضاف والمضاف إليه « وجه الله » وهاك تحليلا لها :

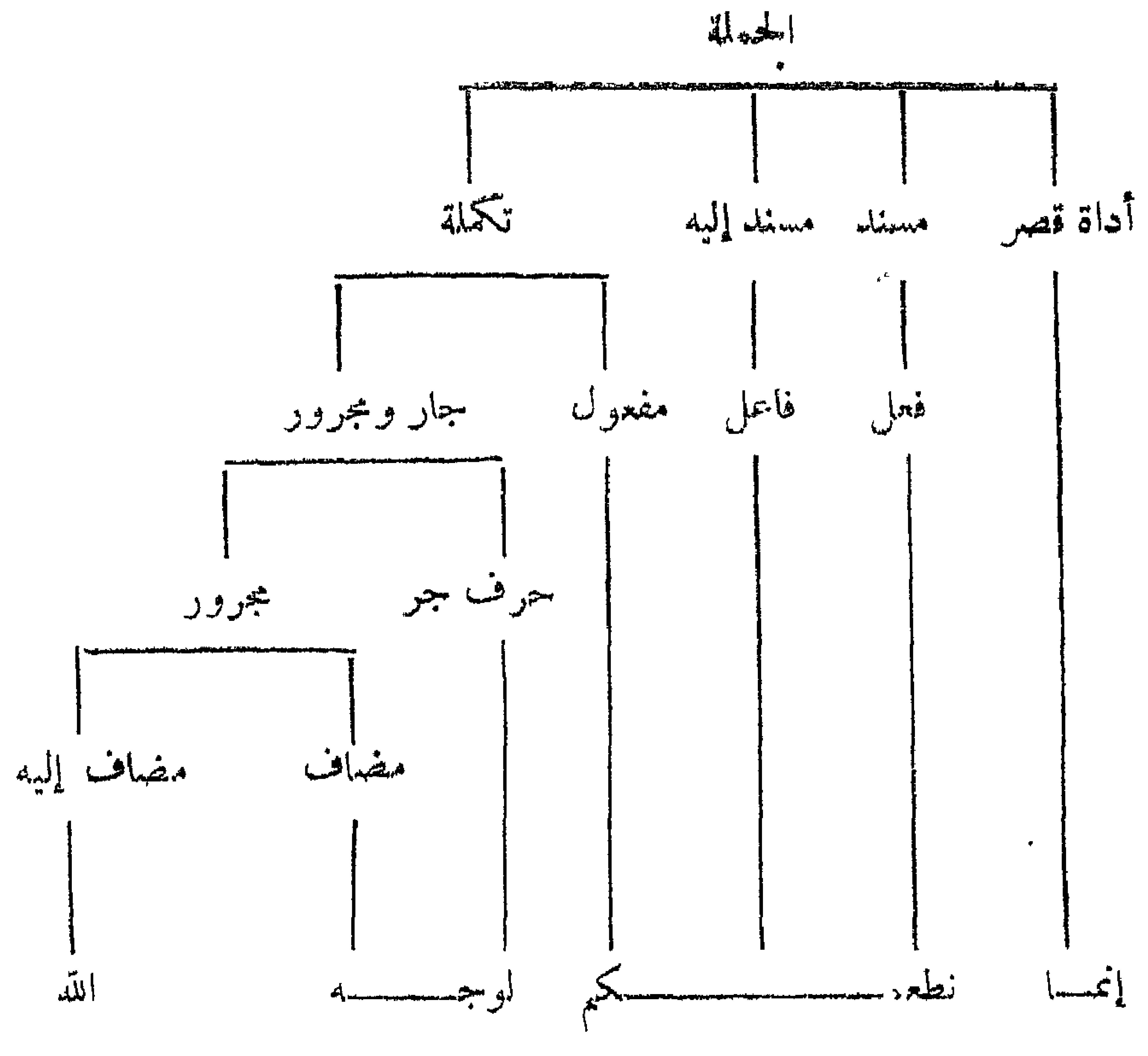

وجملة (إذا أتيا أهل . . . .) فى الآية الثانية مركبة ، إذ فيها إسناد مندمج فى إسناد آخر ، فهى جملة شرطية لها شرط وجواب ، والمركب الإسمى الموظف فى

---

(١) الإنسان : ٩

(٢) الكهف : ٧٧ .

كلتا الجملتين هو المضاف والمضاف إليه «أهل قرية» ، «وأهلها» وهاك تحليلا لهذا الجزء :

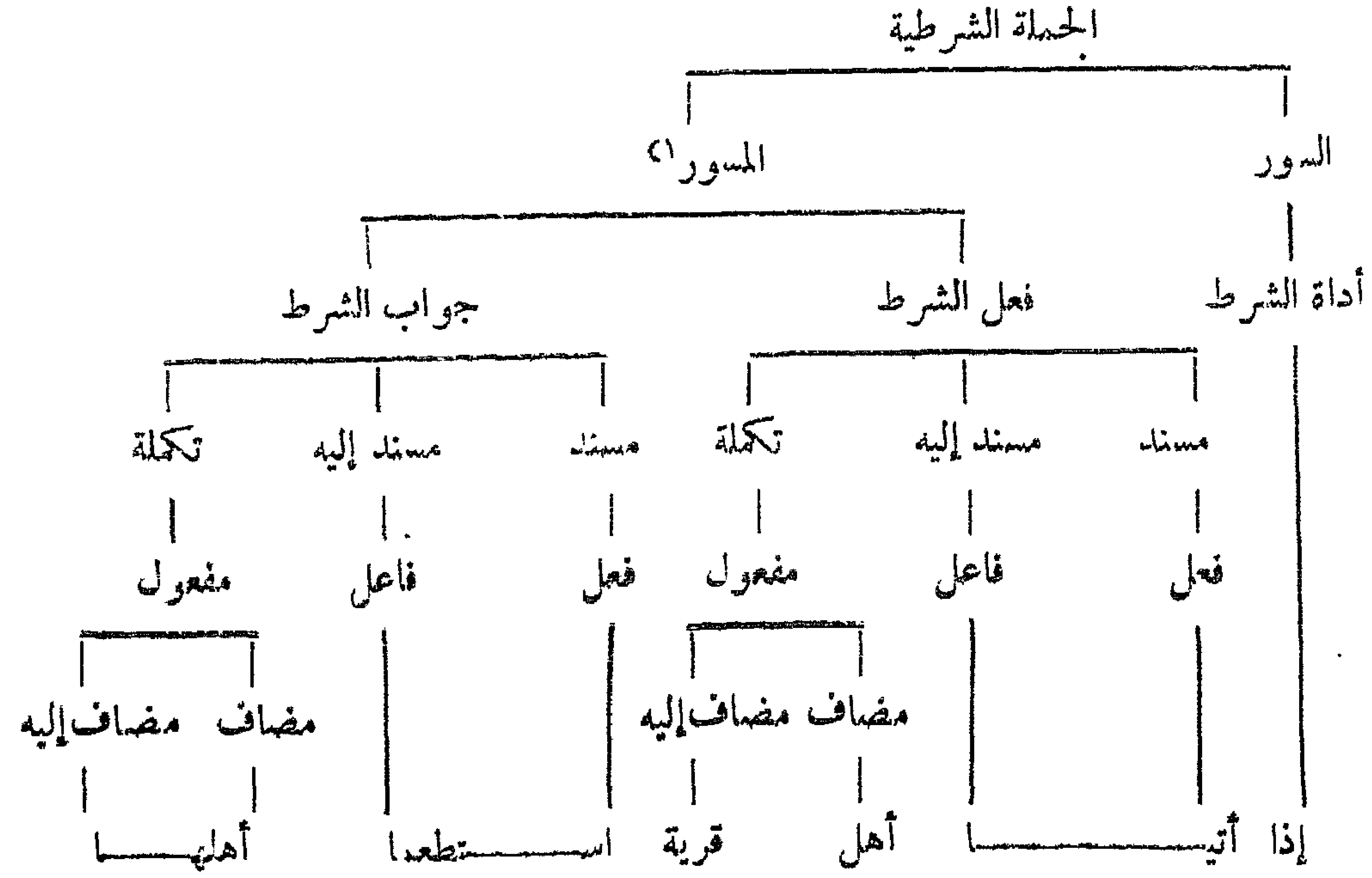

والمركب الإسمى فى الآيتين السابقتين وقع مجرورا بحرف الجر « لوجه الله » كما وقع مفعولا « أهل قرية » ، « أهلها » .

وهاك آية وقع فيهـا المركب الاسمى فاعلا فى جملة صغرى .

قال تعالى : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة »(٢) .

وهاك تحليلا للجزء الأول من الجملة المركبة :

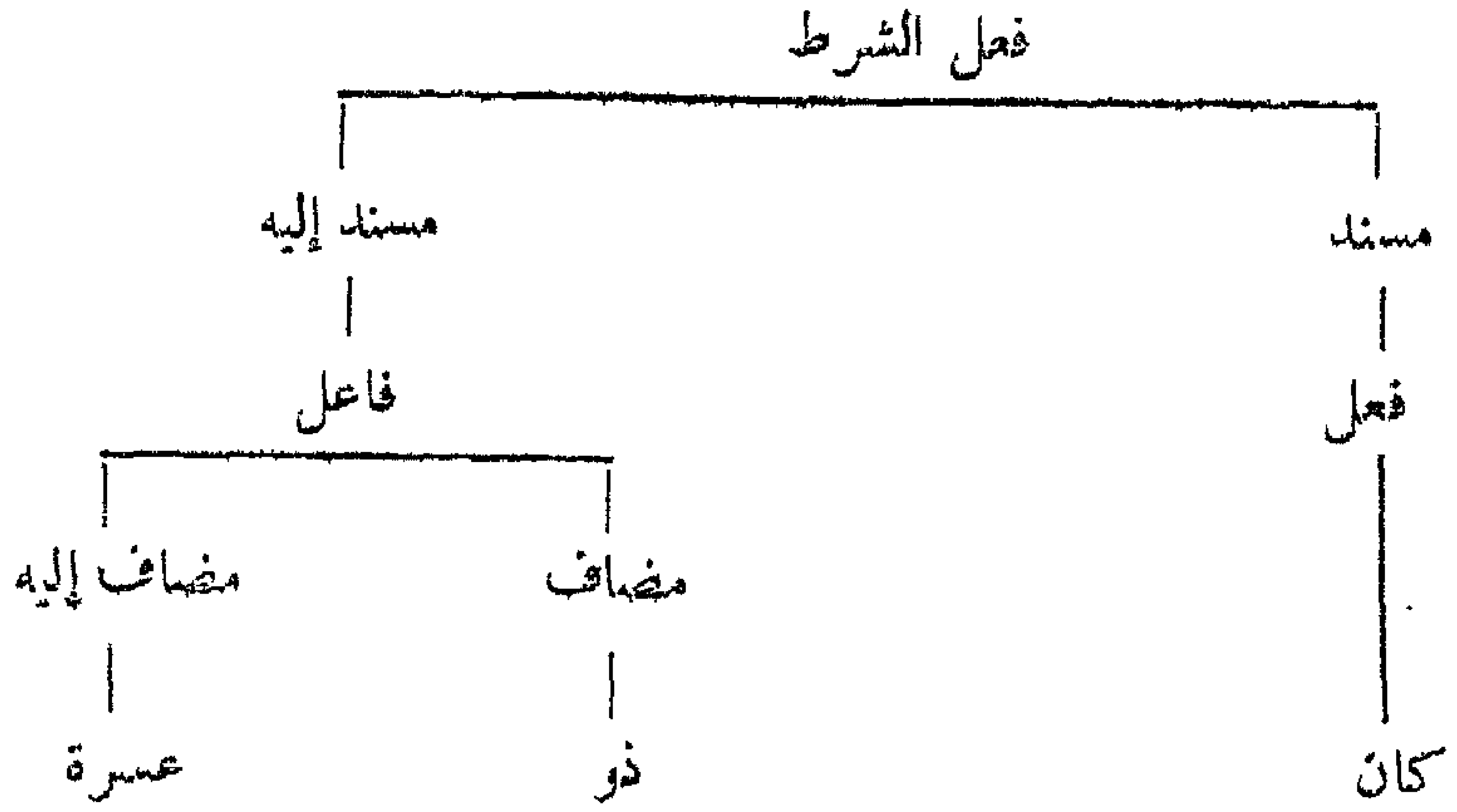

فالمركب الإسمى — إذن — هو الوحدة النحوية التى ترد فى مركز المفرد الاسم فيؤدى الوظيفة النحوية التى يؤديها من كونه فاعلا، مفعولا به، مجرورا بالحرف أو بالإضافة مثلا .

(١) أداة الشرط من أدوات الصدارة لا يتقدم مابعدها عليها ولا يعمل مابعدها فيما قبلها فهى — إذن — بمثابة السور وما بعدها « مسور » .

(٢) البقرة : ٢٨٠ ، وكان فى الآية الكريمة تامة بمعنى وجد .

مركبات فى قوة المفرد

نجيح محمد

١ – المفرد
٢ – المركب المزجى
٣ – المركب الاسنادى

المفرد :

إذا كان حرا مستقلا فهو الكلمة نحو : رجل وكتاب . وهذا ونحوه ما قال عنه النحويون إن جزءه لا يدل على جزء معناه وإن لم يكن حرا مستقلا فهو الوحدة الصرفية الضميرية فى نحو : نجحت . وزرتم فاللواحق الضميرية تعد أيضا مفردات على الرغم من أنها لا تكتب منفصلة . إذ من الممكن إحلال كلمة حرة مستقلة محلها كأن يقال :

والمفرد قد يكون عاريا عن أية إلصاقات نحو : رجل ، بنت ، كما يكون متصلا بعلامات التعريف ، والعدد ، والنوع والحالة الإعرابية . وهذه العلامات غالبا ماتكون ملصقة بأصل الاسم(١) . فهذه أربعة مناح تؤخذ فى الحسبان حين الحديث عن الإسم وهى على التفصيل عشرة ، للتعريف اثنتان ، وللعدد ثلاثة ، وللنوع ثلاثة ، والنوع اثنتان ، وللحالة الإعرابية ثلاثة .

وهاك توزيعا للعناصر التى تتألف منها كلمة « المؤمنتان » مثلا :

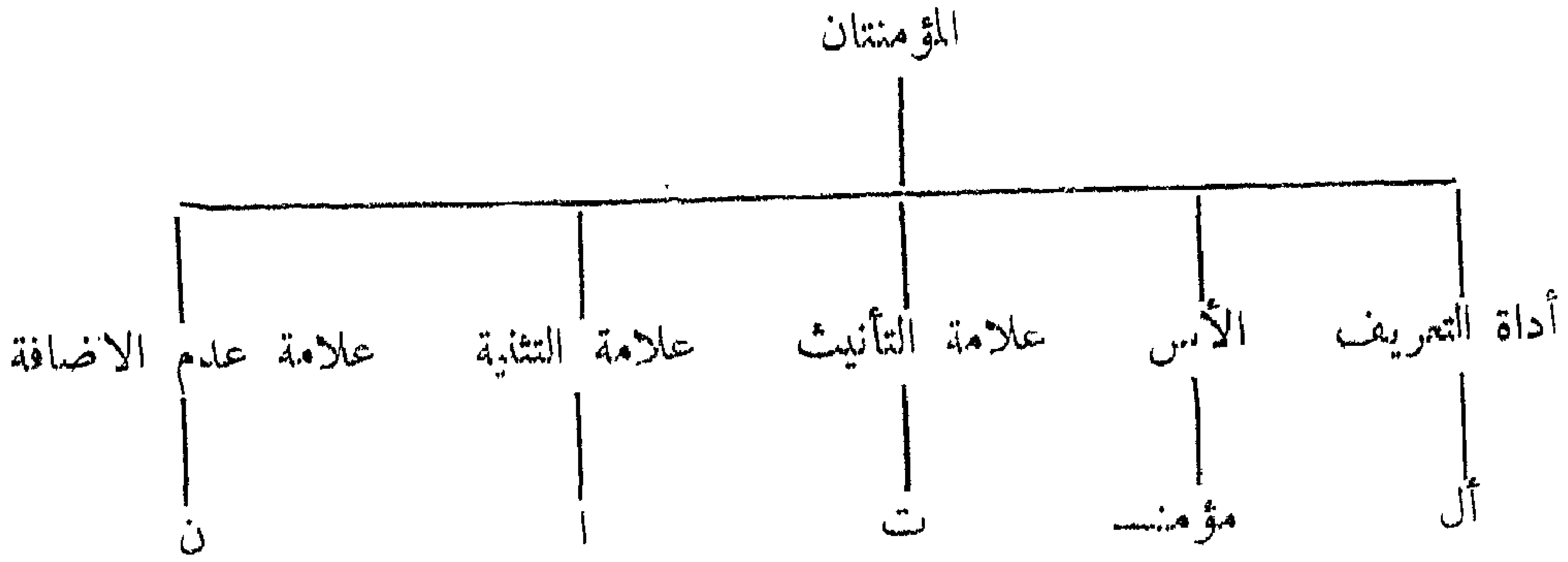

وألف التثنية هى علامة العدد أى لكون الاسم مثنى ، وعلامة للرفع ، ولذا نراها تصبح ياء مفتوح ما قبلها مكسور ما بعدها فى حالتى النصب والجر ، ومثلها فى ذلك

(١) يستثنى من هذا المعارف بذاتها ، والأسماء المؤنثة بذاتها .

(٢) فى اللغة مفردات تكون للمذكر والمؤنث ، والواحد والجمع تقول : هذا بشر هذه بشر ، هذان بشر ، هؤلاء بشر ، ومثله « الطاغوت ». أنظر الزبيدى . أبو بكر محمد بن الحسن الواضح فى علم العربية ، ٢٤٦ القاهرة ١٩٧٥ .

الواو فى جمع المذكر السالم فى نحو « المؤمنون» فهذه تصبح ياء مكسور ما قبلها مفتوح ما بعدها فى حالتى النصب والجر .

وكلمة : مؤمن عبارة عن :

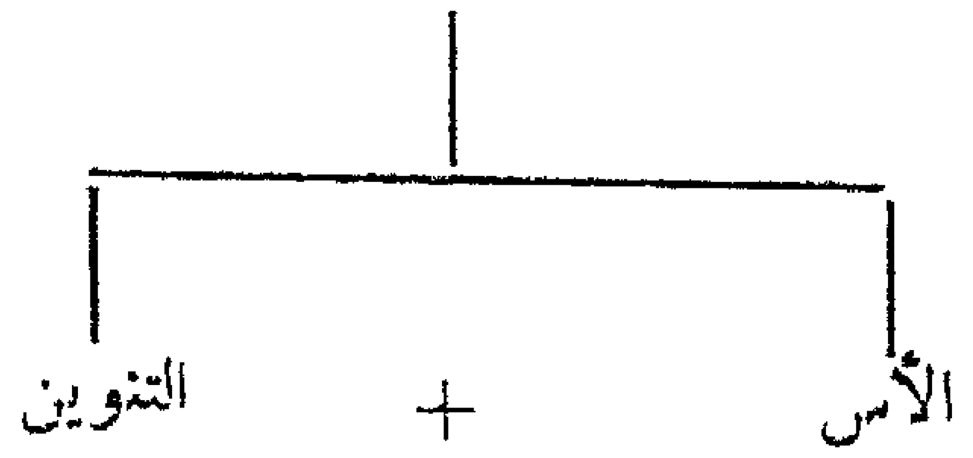

أما : المؤمن فعبارة عن :

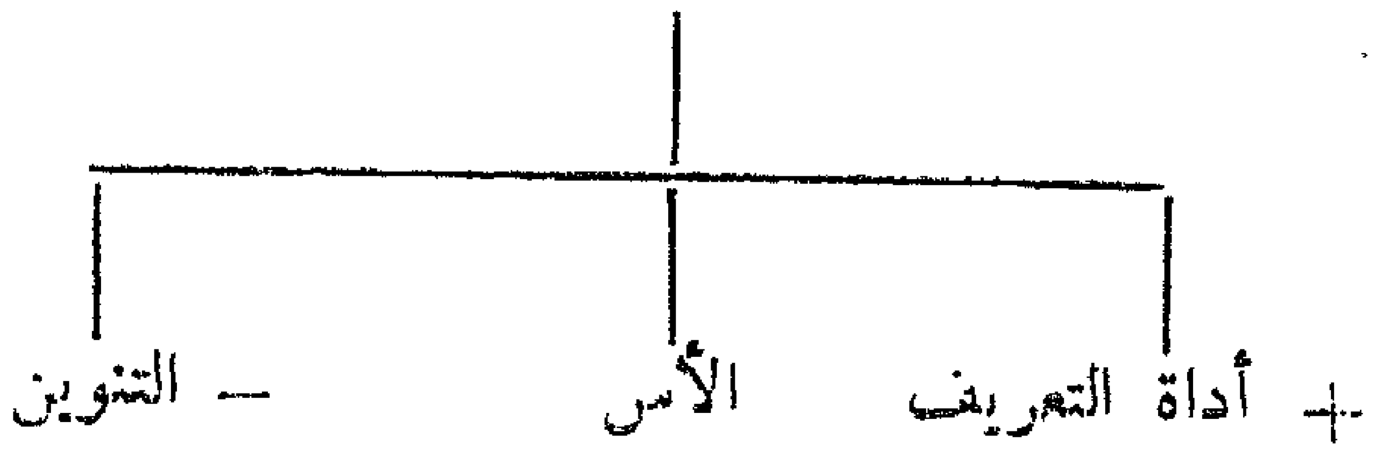

وقد ارتأيت أن أثبت « التنوين» على الشجرة السابقة مسبوقا بهذه العلامة (—) لأن زيادة أداة التعريف (+) فى بداية الاسم يصحبه الاستغناء عن التنوين من آخره .

وبعض الزيادات تنقل المفرد من الاسمية إلى الوصفية . ومن هذا ياء النسب التى تلتحق بآخر الأسماء كما فى نحو : مصر — مصرى التى بمعنى : المنسوب إلى مصر . والزيادات التى فى أسماء الإشارة من نحو ذاك ، ذلك — مثلا — فائدتها تحديد درجة المشار إليه .

وبعض المفردات جامدة تقال لكل فرد مفردا أو غيره ، مذكرا أو غيره . ومن هذا أسماء الموصول المشترك نحو :

من ، ما ، أى ، أل

وأسماء الاستفهام .

وبعض المفردات تتغير صيغتها بتغير النوع والعدد كأسماء الإشارة والضمائر وأسماء الموصول المختص .

والإعراب والبناء قاسم مشترك بين المفردات والمبنى مالا يتغير آخره بتغير موقعه فى الجملة . والأسماء المبنية هى :

الضمائر بأنواعها ، أسماء الشرط ، أسماء الاستفهام ، اسماء الإشارة ما عدا المثنى أسماء الموصول العام والمختص ما عدا المثنى ، إذ ، وإذا وحيث من الظروف . وما سوى هذا من المفردات فمعرب .

١ — المركب المزجى :

كلمتان تداخلتا أى تجاورتا تجاورا شديدا واعتبرتا معا كلمة واحدة ، بحيث أننا نصورها على شجرة التحليل بفرع واحد

لايتفرع . وينقسم المركب المزجى إلى قسمين :

١ ـ ألفاظ كان أصلها أن تستعمل مفردة معطوفا بعضها على بعض بحرف العطف ثم استغنى العرب عن حرف العطف والتنوين وركبوا الاسمين معا وبنوهما على الفتح ومن هذا :

(أ) ماركب من الأعداد وهو الأحد عشر والإحدى عشرة إلى التسعة عشر والتسع عشرة ، باستثناء اثنى عشر واثنتى عشرة ، فان الجزء الأول منهما يعرب إعراب المثنى : بالألف رفعا وبالياء جرا ونصبا[1].

يقول« الزبيدى » : « إذا جاوزت العشرة جمعت العددين وحذفت واو العطف التى كانت بينهما وجعلتهما بمنزلة اسم واحد وبنيتهما على الفتح ، وأما اثناعشر فان الرفع فيها بالألف التى هى ألف التثنية والنصب والخفض بالياء ، وتبقى « عشر » مفتوحة[2]. . . .

والتركيب هنا لفظى فقط لأن كلا عنصرى المركب لايزال ذا معنى يقول ابن يعيش : « والأول من الاسمين نزل من الثانى منزلة صدر الكلمة من عجزها وكل واحد من الاسمين منفرد بشىء من المعنى ، وهما كالاسم الواحد الذى على مسمى واحد ليجرى مجرى الأعداد المفردة[3] » .

وهاك تحليلا لبعض الأمثلة :

قال تعالى : «إنى رأيت أحدعشر كوكبا»[4] « عليها تسعة عشر »[5]

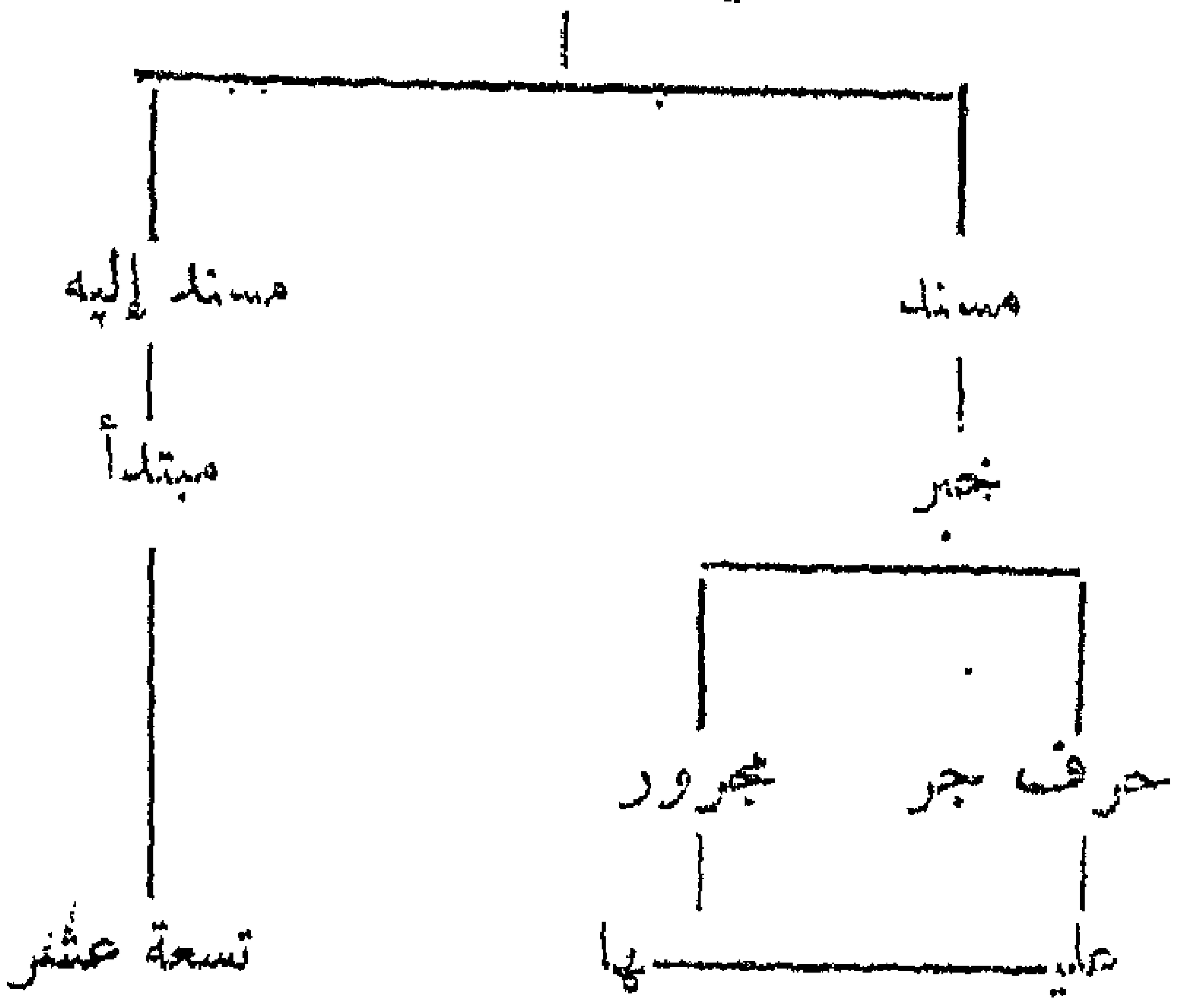

(١) الكتاب جـ ٣ – ٣٠٧ ابن يعيش ، شرح المفصل جـ ٤ – ١١٢
(٢) الواضح فى علم العربية ٨٨ ، ٨٩
(٣) شرح المفصل جـ ٣ – ١١٢ انظر ايضا شرح شذور الذهب – ٧٢ ، قطر الندى وبل الصدى – ١٩ ، شرح الكافية جـ ٢ – ٨٤ – ٨٧ ، سيبويه ، الكتاب جـ ٣ – ٥٥٧ ، ٢٩٧ .
(٤) يوسف : ٤ (٥) المدثر : ٣٠

وواضح من الشجرة السابقة أننا لم نفرع فرع المبتدأ إلى أفرع أخرى ، وماذلك إلا لأن الكلمتين «تسعة عشر» كلمة واحدة.

وكى أوضح الفرق بين المركب المزجى والمركب غير المزجى الذى سأتحدث عنه فيما بعد سأرسم شجرة لهذه الآية الكريمة بناء على قراءة :

« عليها تسعة أعشر »(1)

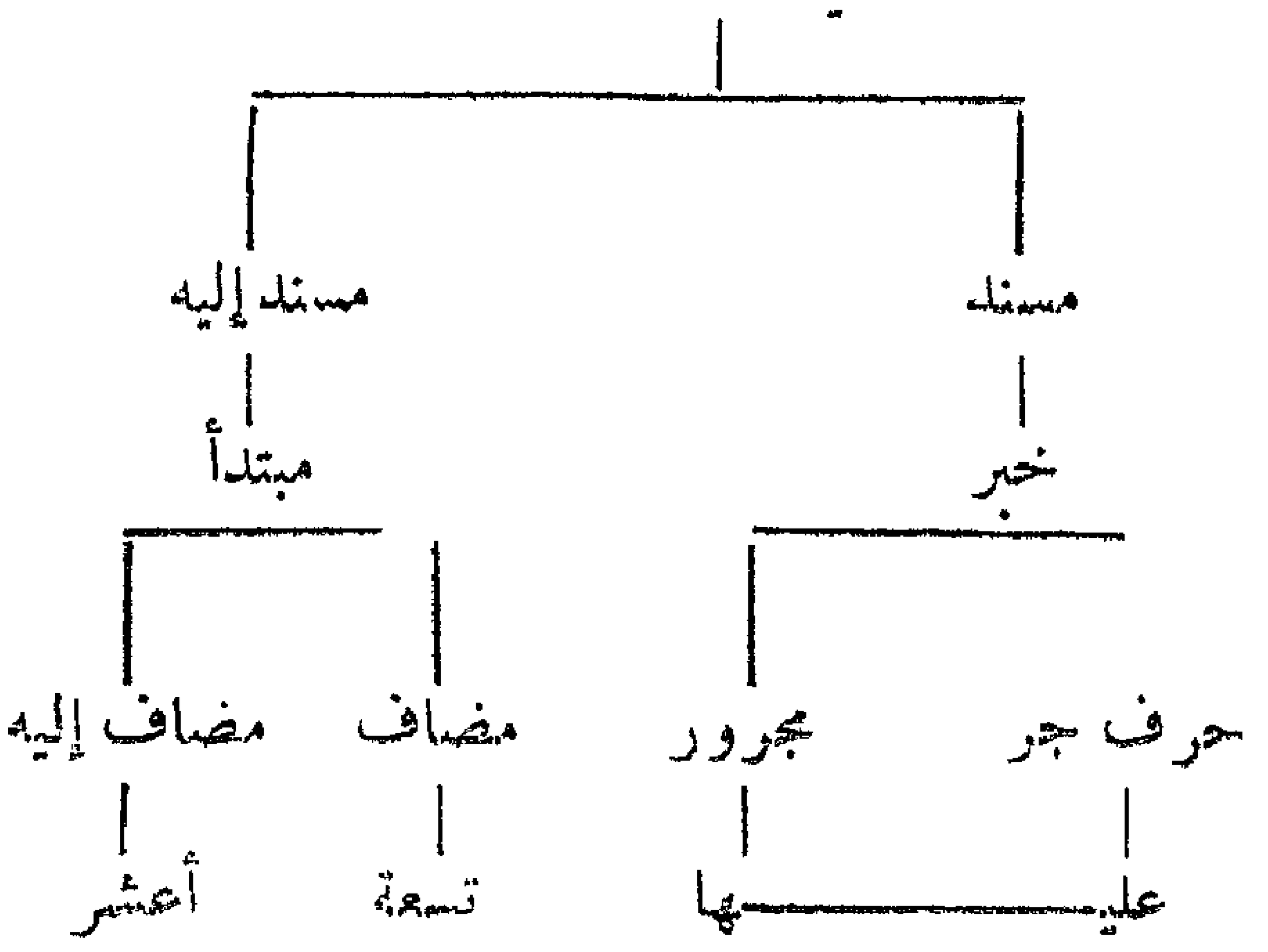

فمفردا المركب المزجى لايتصور انقسامهما ما مفردا المركب غير المزجى فتنقسم ولكل مفرد تسمية خاصة ، وهذه المسألة سوف تتضح فيما بعد (2).

(ب) ماركب من الظروف زمانية كانت أو مكانية : وكانت هذه الظروف تستعمل بطريقة أخرى قبل أن تركب .

استعمالها مركبة مبنية على فتح الجزأين	استعمالها قبل التركيب والبناء
١ ــ محمد يأتينا صباح مساء	محمد يأتينا صباحا ومساء(3)
٢ ــ الصديق يأتينا يوم يومَ	الصديق يأتينا يوما فيوما
٣ ــ اجلس بين بينَ	اجلس بين هؤلاء وبين هؤلاء

فهذه الظروف المركبة تركيبا مزجيا . تستعمل أيضا فى صورة المركب غير المزجى (المعطوف عليه والمعطوف (1، 2) والمضاف والمضاف إليه المكررين بطريق العطف (4) يقـول ابن هشـــــام : « أزيلت الإضافة ، واستغنى عن الواو . وركب

(1) أعشر جمع عشير ، كأيمن جمع يمين ، شرح شذور الذهب – ٨٧

(2) يدل على قوة التركيب فى خمسة عشر قول الرضى : « وإنما تركوا الجر فى العدد المركب نحو إحدى عشر ؛ لأن المضاف إليه مع المضاف كاسم واحد لفظا ، فلو أضيف العدد المركب إلى مميزه ، والمميز من حيث المعنى هو المبهم المحتاج إلى التمييز لكان جعلا لثلاثة أسماء كاسم واحد لفظا ومعنى » شرح الكافية ج ١ – ٢١٧ ، ٢١٨ .

(3) شرح شذور الذهب – ٧٤ ، ٧٥

الاسمان تركيب خمسة عشر ، وهذان الظرفان اللذان صارا ظرفا واحدا فى موضع نصب على الحال إذ المراد : وسطا [1] .

ومن شواهد هذه الظروف التى ركبت تركيبا مزجيا فصارت كلمة واحدة، بعد أن كانت مركبة تركيبا غير مزجى لكل من مفرديه مكان فى التركيب :

ومن لايصرف الواشين عنه
صباح مساء يبغوه خبالا

آت الرزق يوم يوم فأجمل
طلبا . وابغ للقيامة زادا

نحمى حقيقتنا وبعض القوم
يقسط بينا بينا [2]

(جـ) ماركب تركيب خمسة عشر من الأحوال ومن أمثلة هذا :

المثال	المعنى المراد
محمد جارى بيت بيت	محمد جارى ملاصقا
تساقط الأعداء أخول أخول	تساقط الأعداء متفرقين
لقيت محمداً كفة كفة	لقيت محمدا متكافين
لقيت عليا صحرة بحرة	لقيت عليا بارزا

انصرف القوم شذر مذر — شغر بغر ، خذع مذع ، أيدى سبا . . . . متفرقين افعل هذا بادى بدا [3] .

تصرف المركب، تركيب خمسة عشر :

١ — إذا أردت تعريف المركب المزجى العددى أدخلت عليه الألف واللام أو الإضافة وتركته على بنائه ؛ لأن الألف واللام والإضافة لا تخرجانه عن لفظه وتركيبه ، فكان باقيا على بنائه :

حضر الخمسة عشر رجلا

خمسة عشرك

---

(١) شرح شذور الذهب — ٧٥

(٢) شرح المفصل جـ ٤ — ١٢٢ .

(٣) الكتاب جـ ١ — ٢٢٧

ويرى الأخفش أنه يعرب إذا عرف بالإضافة فتقول :

هذه الدراهم خمسة عشرك [١]

٢ — المركب المزجي غير العددي (الظروف والأحوال) يستعمل على النحو التالي :

١ — البناء على فتح الجزأين ، إذا كانت ملازمة للظرفية أو الحالية .

٢ — جواز إضافة الأول إلى الثاني .

٣ — وجوب إضافة الأول إلى الثاني إن دخل عليه حرف جر . لأن حرف الجر يخرج هذه الأسماء عن الظرفية وتجعلها متمكنة في الاسمية [٢] .

المثال قبل التركيب المزجي	المثال بعد التركيب المزجي	المثال مع جواز الإضافة	المثال مع وجوب الإضافة
جاءوا صباحا ومساء	جاءوا صباح مساء	جاءوا صباح مساء	جاءوا في كل صباح مساء
هو جاري بيتا لبيت	هو جاري بيت بيت	هو جاري بيت بيت	هو جاري في كل بيت
يزورنا الصديق يوما فيوما	يزورنا الصديق يوم يوم	يزورنا الصديق يوم يوم	يزورنا الصديق في كل يوم

جاء في الكتاب : وأما يوم يوم ، وصباح مساء ، وبيت بيت ، وبين بين فإن العرب تختلف في ذلك : يجعله بعضهم بمنزلة اسم واحد ، وبعضهم يضيف الأول إلى الآخر ولا يجعله اسما واحدا ، ولا يجعلون شيئا من هذه الأسماء بمنزلة اسم واحد إلا في حال الظرف أو الحال ، كما لم يجعلوا ياابن عم ، ويا ابن أم بمنزلة شيء واحد إلا في النداء ... وقال الفرزدق .

ولولا يوم يوم ما أردنا ... جزاءك والقروض لها جزاء

فالأصل في هذا والقياس الإضافة .... وتقول أنت تأتينا في كل صباح مساء ليس إلا [٣] .

٣ — تحدث تغييرات في الاسمين المركبين تركيبا مزجيا بسبب شدة التداخل بينهما من ذلك مثلا :

(أ) يقول العرب :

وقع القـوم في حيص بيص

فعنصر المركب في المثال السابق مصدران ، وعجز المركب من باص يبـوص أي

---

(١) شرح المفصل ح — ٤ — ١١٤ ، أنظر أيضا الكتاب ج ٣ — ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) شرح المفصل ج ٤ — ١١٨ .

(٣) الكتاب ج ٣ — ٣٠٣

تقدم وسبق ومصدره : بوص ، لكن العرب قلبت الواو ياء لتتفق الكلمة مع ماقبلها فيحدث بذلك المزج أوكما قال ابن يعيش : ليزدوجا ولا يختلفا (١) .

(ب) التركيب يكسب الكلمة خاصية لا تتحقق بدونه تقول العرب :

انصرف القوم أيادي سبا

فسبا علم وقد وقعت حالا ، والسبب أنه زال بالتركيب معنى العلمية وصارا اسما واحدا(٢)

(جـ) لا يتصور التركيب المزجي بين ثلاث كلمات ، تقول العرب :

لقيته صحرة بحرة بمعنى لقيته بارزا

فالتركيب المزجي هنا مقصور ومستعمل، أما قول العرب :

لقيته صحرة بحرة نحرة بمعنى لقيته بارزا أول النهار .

فلا يتصور فيها تركيب مزجي ؛ لأن المزج لايتم بين ثلاث كلمات ، ولذا تنطبق هذه الأسماء الثلاثة بالنصب والتنوين(٣)

لا + نكرة غير منونة = تركيب مزجي :

يقول « سيبويه » عن لا :

ترك التنوين لما تعمل فيه لازم لا ، لأنها جعلت وما عملت فيه بمنزلة اسم واحد(٤) فسيبويه يوازن — اذن — بين :

خمسة عشر

و

لارجل

« فجعلت وما بعدها كخمسة عشر فى اللفظ وهي عاملة فيما بعدها كما قالوا : يا ابن أم

فهى مثلها فى اللفظ وفى أن الأول عامل فى الاخر (٥)

ولأن لا جعلت وما عملت فيه بمنزلة اسم واحد، فهما معا فى موضع ابتداء(٦) ثم إنك لا تفصل بين لا وبين المنفى ... لأنهم جعلوا لا وما بعدها بمنزلة خمسة عشر فقبح أن يفصلوا بينهما عندهم كما لا يجوز أن يفصلوا بين خمسة وعشر بشيء من الكلام ، لأنها مشبهة بها » (٧)

وهذا هو السبب فى أن المعطوف على اسم « لا » ينون . تقول : لا طالب ومدرسا فى المدرسة .

---

(١) شرح المفصل جـ ٤ — ١١٤ ، ١١٥

(٢) شرح المفصل جـ ٤ — ١٢٣

(٣) شرح المفصل جـ ٤ — ١١٧

(٤) الكتاب جـ ٢ — ٢٧٤

(٥) السابق — ٢٧٥ ، انظر أيضا الواضح — ٨٠ — ٨١ .

(٦) الكتاب جـ ٢ — ٢٧٥ ، ٢٧٦

(٧) السابق — ٢٧٦

لأن «لا» إنما تجعل وما تعمل فيه اسما واحدا إذا كانت إلى جنب الاسم فكما لايجوز أن تفصل خمسة من عشر، كذلك لم يستقم هذا لأنه مشبه به فإذا فارقه جرى على الأصل[1]

على أنك إذا كررت «لا» لاتنون تقول لاطالب ولا مدرس فى الفصل :

«فتكون حال الآخر فى تثنيتها كحال الأولى»[2] .

ألخص حتى الآن المسلمات النحوية التى أرساها سيبويه ووافقه عليها من بعده من النحويين :

١ – لا + اسم معادلة لخمسة عشر :

٢ – لا يبنى اسم «لا» على الفتح إذا فصل عنها «لافيها غول»[3] .

٣ – المعطوف بدون «لا» على اسم لا ينون ، لأنه بعد عن لا .

ومن المسائل التى يعالجها النحويون عند حديثهم عن «لا» النافية للجنس فى ضوء المركب المزجى :

وصف اسم «لا» :

١ – لا طالب كسولا هنا

٢ – لاطالب كسول هنا

٣ – لا طالب كسولا مهملا هنا

٤ – لا طالب كسول مهملا هنا

٥ – لا طالب طالبا كسول هنا

٦ – لا طالب طالب كسولا هنا

٧ – لا طالب هنا كسولا

٨ – لا طالب علم كسولا هنا

إذا وصفت اسم لا ، فإن شئت نونت صفة المنفى وهو أكثر فى الكلام[4] ، وإن شئت لم تنون ، فأما الذين نونوا فانهم جعلوا (الاسم ولا) بمنزلة إسم واحد ، وجعلوا صفة المنصوب فى هذا الموضوع بمنزلته فى غير النفى ، وأما الذين لم ينونوا فإنهم جعلوا الموصوف والوصف بمنزلة اسم واحد .

يمكن إذن تصور كلام سيبويه السابق على النحو التالى :

١ – لا طالب كسولا هنا = (لا طالب) كسولا هنا

٢ – لا طالب كسول هنا = لا (طالب كسول) هنا

وفى المثالين (٣، ٤) أنت فى الوصف الأول بالخيار ، ولايكون الثانى إلا منونا ، من قبل أنه لا تكون ثلاثة أشياء منفصلة بمنزلة اسم واحد .

(١) السابق – ٢٨٤ – ٢٨٥
(٢) السابق – ٢٨٦
(٣) الصافات – ٤٧
(٤) الكتاب جـ ٢ – ٢٩٠

ويقال فى (٥،٦) ماقيل فى (٣،٤) .

والوصف فى (٧) يجب تنوينه من قبل أنه لا يجوز لك أن تجعل الاسم والصفة بمنزلة اسم واحد وقد فصلت بينهما، كما أنه لايجوز لك أن تفصل بين عشر وخمسة فى خمسة عشر[1]

أما (٨) فلا يكون الوصف فيه إلا منونا، مع غيره بمنزلة خمسة عشر، وانما يذهب لأن اسم لا (الموصوف) المضاف لا يجعل التنوين منه كما يذهب منه فى غير هذا الموضع فمن ثم صار وصفه بمنزلته[2].

انتهى هنا الحديث عن النوع الأول من المركب المزجى: العددى، والظروف والأحوال وما استتبعه من حديث عن لا النافية للجنس .

٢ ــ النوع الثانى من المركب المزجى هو الأعلام المركبة، وقد عنون له سيبويه بقوله « هذا باب الشيئين اللذين إذا ضم أحدهما إلى الآخر جعلا بمنزلة اسم واحد كعيضموز وعنتريس »[3]

ومن هذا: معد يكرب، قالى قلا، وبلال باد، ورامهرمز، وحضرموت وبعلبك، وسيبويه، وخمارويه، ونفطويه، وعمرونيه[4]

يقول «ابن يعيش» عن سر التركيب فى هذه الأعلام :

«فهذا أصله الواو أيضا حذفت من اللفظ ولم ترد من جهة المعنى، بل مزج الاسمان وصارا اسما واحدا بإزاء حقيقة، ولم ينفرد الاسم الثانى بشيء من معناه فكان كالمفرد غير المركب »[5]

ثم يقول مفرقا بين النوعين السابقين للمركب المزجى : تركيب خمسة عشر وملحقاته .

والأعلام المركبة :

التركيب ههنا[5] ليس كالتركيب فى خمسة عشر، وذلك أن معد يكرب وحضرموت وشبهها من المركبات مشبهة بما فيه هاء التأنيث من نحو طلحة وحمزة، فأعرب كإعرابه لأن اتصال الاسم الثانى بالاسم الأول كاتصال هاء التأنيث من جهة أنه زيادة فيه بها تمامه من غير أن يكون له معنى ينفرد به، ولو كان للثانى معنى ينفرد به لكان خمسة عشر فى البناء ألا ترى أن العشرة عدة معلومة، كما أن الخمسة كذلك، فلما اجتمعتا انتهيا إلى مقدار آخر من العدد ليس لكل واحد منهما، كما لو جمعتهما بحرف العطف فمعنى العطف

(١) الكتاب جـ ٢ ــ ٢٩٠

(٢) الكتاب جـ ٣ ــ ٢٩٦

(٣) الكتاب جـ ٣ ــ ٢٩٦، شرح المفصل جـ ٤ ــ ١١٢ .

(٤) شرح المفصل جـ ٤ ــ ١٢٢

(٥) شرح الـ (٢) أى فى الأعلام المركبة

بعد التركيب مراد، والتركيب إنما كان من جهـــة اللفظ لا غير ، وليس كذلك معديكرب ، لأن« كرب» لاينفرد بمعنى من الجملة فصار كتاء طلحة وحمزة وهما من الأسماء المفردة مما فى آخره تاء التأنيث[1] »

اعراب الاعلام المركبة :

١ – إن كان العلم مختوما بـ « بويه » يبنى على الكسر دائما بلا تنوين إن كان معرفة ، وبتنوين ان أريد تنكيره [2]

هذا سيبويه وسيبويه آخر

عرفت سيبويه وسيبويه آخر

قرأت عن سيبويه وسيبويه آخر

٢ – أما الأعلام الأخرى غير المختومة بـ«بويه» ففيها ثلاث طرق :

(أ) لزوم الصدر للفتح وإعراب العجز حسب العوامل مع منعه من الصرف

هذه حضرموت

زرت حضرموت

سافرت إلى حضرموت

يقول « ابن يعيش » : «ركب الاسمان وجعلا اسما واحدا ، وأعرب الثانى ، إلا أنه منع من الصرف لاجتماع التعريف والتركيب وهما علتان من موانع الصرف وبنى ، الأول لأنه منزل منزلة الجزء من الكلمة فهو كصدر الكلمة من عجزها »[3] .

(ب) إعراب الصدر حسب العوامل وإضافته إلى العجز وفتحه دائما على المنع من الصرف :

هذه حضرموت

زرت حضرموت

سافرت الى حضرموت

٣ – كالإعراب الثانى مع الصرف العجز :

هذه حضرموت

زرت حضرموت

سافرت إلى حضرموت

يجمع « سيبويه » الطرق الثلاث باختصار فيقول :

« وأما معد يكرب ففيه لغات : منهم من يقول معد يكرب فيضيف ومنهم من يقول معد يكرب فيضيف ولا يصرف ، يجعل كرب اسما مؤنثا ومنهم من يقول : معد يكرب فيجعله اسما واحدا[4]

متفرقات فى المركب المزجى :

ثلاثة وثلاثين :

هذا المركب مكون من عنصرين : المعطوف عليه والمعطوف ، والتداخل

---

(١) التنوين عند إرادة التنكير وعدمه عند إرادة التعريف يحدث أيضا مع أسماء الفعل أنظر الكتاب جـ ٣ – ٣٠١ ، ٣٠٢

(٢) شرح المفصل جـ ٤ – ١٢٤ .

(٣) شرح المفصل جـ ٤ – ١٢٤

(٤) الكتاب جـ ٣ – ٢٩٦ – ٢٩٧

بين العنصرين قوى : وقد تحدث سيبويه عن هذا المركب فى «باب يكون الاسمان فيه بمنزلة اسم واحد ممطول ، وآخر الاسمين مضموم إلى الأول بالواو » وقد لحظ سيبويه أن هذا المركب يشبه من الناحية اللفظيـة قولك : يازيد وعمرو ، لكن العلاقة بين العنصرين فى كلا المركبين مختلفة ، ولذا فإن ثلاثة وثلاثين تشبه فى الحقيقة ثلاثة عشر ، وأن ثلاثين تكملة لثلاثة ، كما أن « رجلا » مكملة لضاربا فى قولك : يا ضاربا رجلا .

يقول : « ليس هذا بمنزلة قولك : يازيد وعمرو ، لأنك حين قلت يا زيد وعمرو جمعت بين اسمين كل واحد منهما مفرد يتوهم على حياله ، وإذا قلت يا ثلاثة وثلاثين فلم تفرد الثلاثة من الثلاثين لتتوهم على حيالها ، ولا الثلاثين من الثلاثة ، ألا ترى إنك تقول : يا زيد ويا عمرو ، ولا تقول يا ثلاثة ويا ثلاثون ، لأنك لم ترد أن تجعل كل واحد منهما على حياله ، فصار بمنزله قولك ثلاثة عشر ؛ لأنك لم ترد أن تفصل ثلاثة من العشرة ليتوهموها على حيالها ، ولزمها النصب كما لزم يا ضارباً رجلا حين طال الكلام (١) .

وهاك الجدول التالى للموازنة بين التراكيب الثلاثة التى قدمها سيبويه .

مركب عطفى مفرداه مستقلان	مركب عطفى مفرداه غير مستقلين	مركب مزجى عددى	توجيه الأمثلة
يا زيد وعمرو	يا ثلاثة وثلاثين	يا ثلاثة عشر	الأمثلة كلها صحيحة
يا زيد ويا عمرو	يا ثلاثة ويا ثلاثون	يا ثلاثة ويا عشر	(١) صحيح ، أما (٢، ٣) فخطأ
حضر زيد وعمرو	حضر ثلاثة وثلاثون	حضر ثلاثة عشر	(١) صحيح أما (٢، ٣) فخطأ النقصان فى الجملة
	حضر ثلاثة وثلاثون طالبا	حضر ثلاثة عشر طالبا	(٢ ، ٣) صحيحان لكمال الجملة بالتميز

من الواضح — إذن — أن المركب العددى العطفى أقرب إلى المركب المزجى منه إلى المركب العطفى رغم مشابهته للأخير فى الوصف . و دليل قرابة (٢) من (٣) أن ما يجوز فى أحدهما يجوز فى الآخر والعكس صحيح ، كما أن كليهما تميزا باسم مفرد منصوب .

(١) الكتاب ج ٢ — ٢٢٨

بقى أنه عند تحليل مثال للمركب العطفى العددى سوف يفرع المركب إلى ثلاثة أفرع : فرع للمعطوف عليه ، وفرع للمعطوف ، وبينهما فرع ثالث لحرف العطف . وفى هذا يخالف المركب العطفى العددى قرينه المزجى الذى لا يفرع على شجرة التحليل كما سبق أن أشرت .

وهاك تحليلا لثلاثة أمثلة من الأنواع الثلاثة السابقة للمركب :

١ – نجح محمد وعلى   ٢ – نجح خمسة وسبعون طالبا   ٣ – نجح ستة عشر طالبا

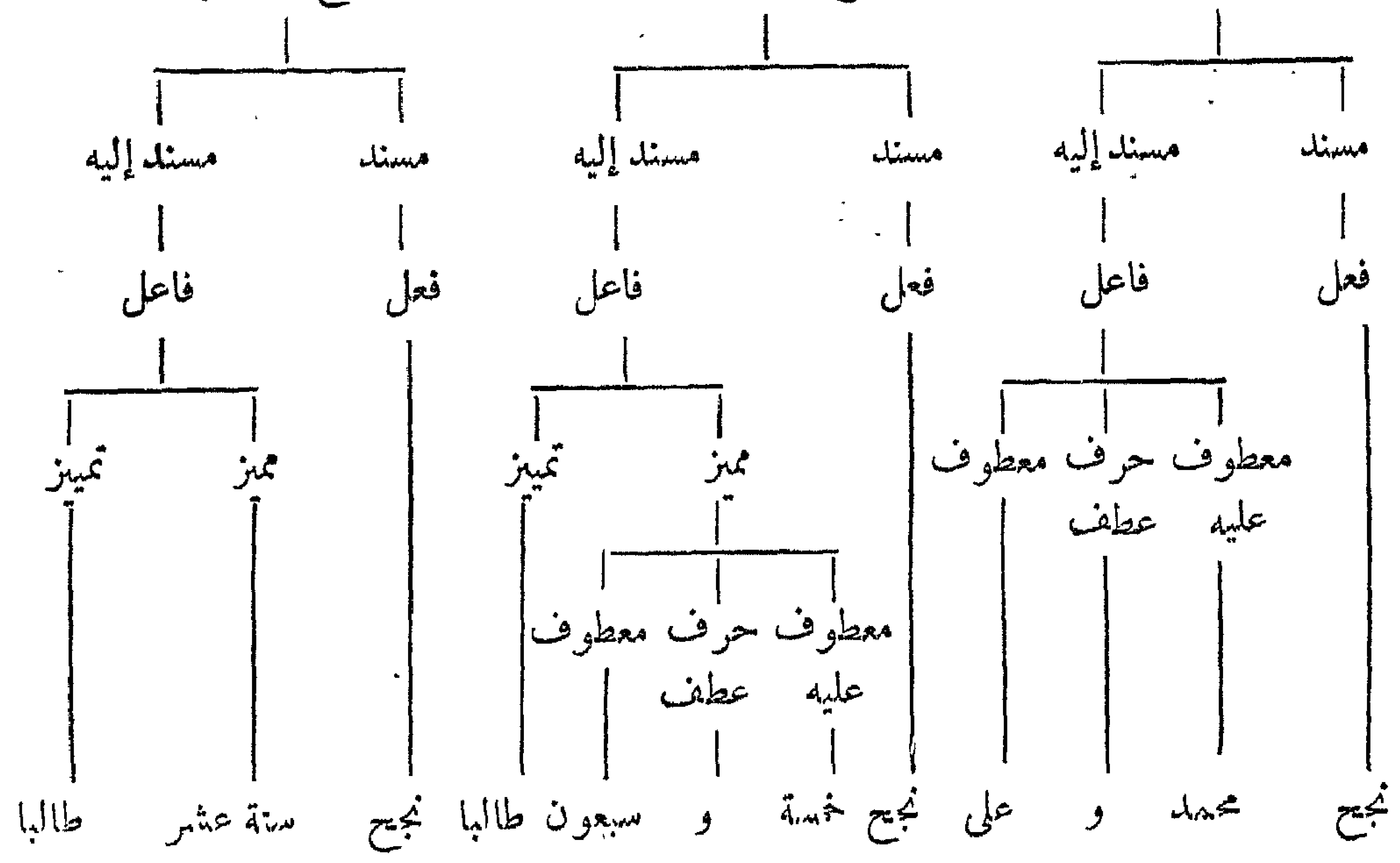

حبـــذا :

هذه الكلمة مركبة من :

(أ) حبب بالضم أى صار حبيبا ، ثم أدغم فصار حب[1] .

(ب) ذا : اسم المشار إليه[2]

يقول «سيبويه» ولكن ذا وحب بمنزلة كلمة واحدة ويقول «الزبيدى» ؛ ثم كثر استعمالها حتى صار حب وذا كلمة واحدة[3]

اعراب « حبذا » :

يبدو أن «سيبويه» كان يذهب موافقا فى هذا رأى الخليل إلى أن « حبذا » بعد التركيب حرف ، فهو يقول : «ولكن ذا وحب بمنزلة كلمة واحدة نحو لولا وهو اسم مرفوع ألا ترى أنك تقول للمؤنث حبذا ، ولا تقول حبذه ، لأنه كالمثل»[4]

---

(١) السيوطى ، همع الهوامع جـ ٢ – ٨٨

(٢) الكتاب جـ ٢ – ١٨٠

(٣) الواضح فى علم العربية – ٨٦ .

(٤) الكتاب جـ ٢ – ١٨٠

أما «الزبيدى» فيذهب إلى أن «حبذا» فعل ، إذ يقول ، صارت « ذا» كالباء من «ضرب» فارتفع ما بعدها من الأسماء بها تقول : حبذا عبد الله . فعبد الله رفع بحبذا وكذلك : حبذا الرجلان ، وحبذا المرأة »[1] .

ويقول « السيوطى» : « الأصح أن ذا فاعله ، فلا تتبع وتلزم الافراد والتذكير وإن كان المخصوص بخلاف ذلك كقوله :

ياحبذا جبل الريان من جبل
وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانية
تأتيك من قبل الريان أحيانا

وقوله :

حبذا أنتما خليلى إن لم
تعذلانى فى دمعى المهراق[2]

يستمر «السيوطى» فى سرد الآراء فيقول « وقال دريود «ذا» زائدة ، وليست اسما مشارا به بدليل حذفها . . . ، وقيل الكل اسم واحد مركب مبتدأ وخبره المخصوص بعده عند المبرد ، وذهب الفارسى إلى أن «حبذا» خبر مقدم ، والمخصوص بعده مبتدأ مؤخر »[3] وعلى أن «ذا» فاعل يعرب المخصوص بعده مبتدأ ، والجملة قبله خبر مقدم ، أو مبتدأ خبره محذوف أو خبر مبتدؤه محذوف ، أو بدل أو عطف بيان[4] .

هذه هى الإعرابات التى قدمها النحويون وسأستبعد إعراب سيبويه لعدم وضوح المراد منه ، فهل هو يساوى بين «حبذا» و«لولا» فى الحرفية ، وفى رفع الاسم بعدهما ؟ نعم المراد واضح . لكننا نعلم أن المرفوع بعد لولا مبتدأ فهل هو كذلك بعد حبذا؟ كما نعلم أن خبر المبتدأ بعد لولا يحذف وجوبا — كما قال النحويون — فهل كذلك خبر المبتدأ بعد حبذا ؟

---

(١) الواضح — ٨٦
(٢) همع الهوامع ج ٢ — ٨٨
(٣) السابق ، نفس الصفحة
(٤) السابق ، نفس الصفحة .

وهاك جدولا للاعرابات السابقة مع توجيهها:

المثال	رقم الاعراب	الاعراب	توجيه الاعراب
حبذا محمد	١	فعل + فاعل	حبذا كلها فعل مركب والجملة ـ إذن ـ فعلية بسيطة
	٢	فعل + فاعل + بدل	حبذا كلمة واحدة لفظا لكنها منقسمة تقديرا والجملة فعلية بسيطة التركيب
	٣	فعل + حرف زائد + فعل	حبذا فعل بسيط والجملة فعلية بسيطة والفاعل مركب
	٤ ـ أ ب	مبتدأ + خبر خبر + مبتدأ	حبذا اسم مركب ، والجملة اسمية بسيطة ، وهذا الإعراب عكس الإعراب رقم (١)
	٥	فعل + فاعل + مبتدأ	يشبه (٢) فحبذا يبدو عليها للتركيب لكنها منقسمة والجملة اسمية خبرها جملة فعلية
	٦ ـ أ ب	فعل + فاعل + مبتدأ + فعل + فاعل + خبر + ..	حبذا ليست كلمة مركبة بل هى جملة والمثال عبارة عن جملتين ثانيتهما اسمية مكتفية بأحد طرفيها

تعليق عام :

لا تعتبر « حبذا » مركبة إلا على (١) و(٤) فهى فى (١) فعل مركب ، وفى (٤) اسم مركب وتعتبر فعلا بسيطا (٣) ، وتعتبر جملة فى (٢،٥،٦) .

والزبيدى يفضل الرأى القائل بتركيب (حبذا) وتغليب الفعلية عليها إعراب (١) أمّا المبرد فيرى أنها مركبة و يغلب جانب الاسمية فهو يقول فى المقتضب : « حبذا . الأصل حب و ذا ثم جعلت اسما واحدا مبتدأ[(١)] ...

حيهل :

جاء فى الكتاب : « وأما حيهل التى للأمر فمن شيئين ، يدلك على ذلك : حى على الصلاة

وزعم أبو الخطاب : أنه سمع من يقول حى هل الصلاة ، والدليل على أنهما جعلا اسماً واحدا قول الشاعر :

وهيج الحى من دار فظل لهم
يوم كثير تناديه وحيهله

والقوافى مرفوعة ،وأنشد ناه هكذا أعرابى من أفصح الناس »[(٢)] .

وسيبويه يعتبرها مركبة تركيب حضرموت ويثبت أن من العرب من يقول : حيهلا ومنهم من يقول : حيهل إذا وقف أثبت الألف . ومنهم من لا يثبت الألف فى

(١) المقتضب ج ٢ — ١٤٥
(٢) الكتاب ج ٣ — ٣٠٠

الوقف والوصل[1] وفيها لغة أخرى هى « حيهل » خفيفة[2] .

وحيهل بمعنى أقبل أو إيت ، فهى مركبة تركيب حضرموت ، فهى اسم فعل مركب باجماع النحويين . وقد يدخل عليه حرف جر فيترك على لفظه محكيا. من شواهد الكتاب :

بحيهلا يزجون كل مطية
أمام المطايا سيرها المتقاذف[3]

ماذا : ذا بعدما قد تعتبر :

(أ) اسم موصول بمعنى الذى ، فتكون مساوية (ماالذى ..؟) فماذا إذن عبارة عن عنصرين : ما الاستفهامية الواقعة مبتدأ وذا الموصولة الواقعة خبرا ، وعلى هذا فاعراب مثل : ماذا كتبت هو على النحو التالى :

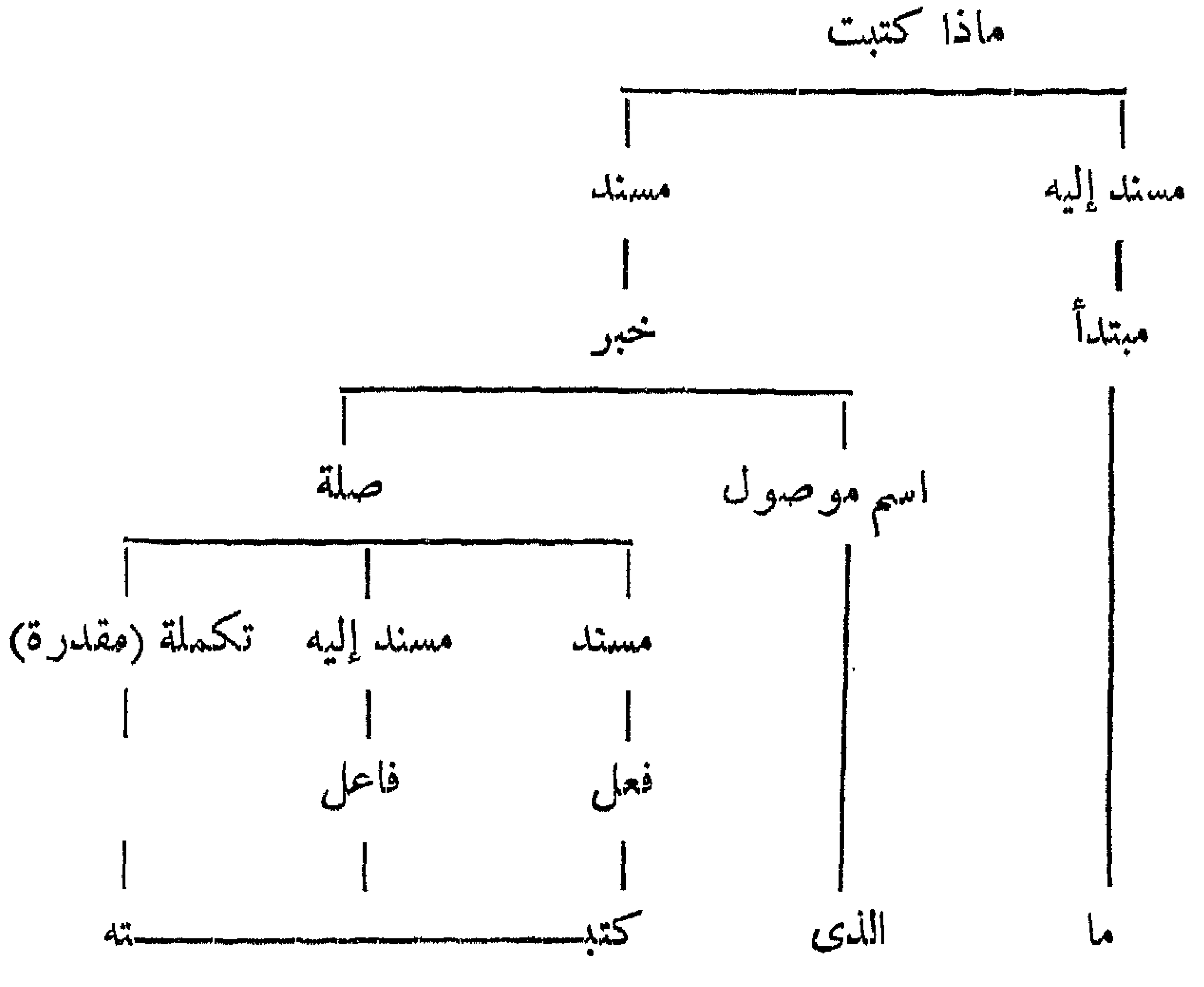

ولما كان السؤال عن مرفوع فاجابته بالرفع ، لأن الجواب بدل من السؤال[4]
(٥) جاء فى الكتاب « أما إجراؤهم ذا بمنزلة الذى فهو قولك : ماذا رأيت ؟ فيقول : « متاع حسن » .

(١) السابق – ٣٠١
(٢) الواضح – ١/٣
(٣) الكتاب جـ ٣ – ٣٠١
(٤) شرح المفصل جـ ٣ ١٤٩ .

وقال الشاعر ، لبيد بن ربيعة :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل[1]

فكلمة « نحب» مرفوعة رد على « ما » التى هى فى موضع رفع بالابتداء .

(ب) مركبة مع ما ، فتكون «ماذا» كلها كلمة واحدة مركبة من كلمتين يقول السيوطى : أما إذا ركبت ما مع ذا يصارا اسما واحدا فله معنيان : أحـدهما وهو الأشهر أن يكون المجموع اسم استفهام كقوله :

ياخرز تغلب ماذا بال نسوتكم
لايستفقن إلى الديرين تحنانا

فهذا لايصح فيه الموصولية . . . .
والثانى أن يكون المجموع اسما واحدا موصولا كقوله ، وهو من شواهد الكتاب :

دعى ماذا علمت سأتقيه
ولكـن بالمغيـب نبئينى

أى دعى الذى علمت . قال أبو حيان واستعمالها على هذا الوجه قليل ، وقيل خاص بالشعر»[2] وماذا المركبة الدالة على الاستفهام تكون إجابتها بالنص ، فالجواب بالرفع عن «ماذا» «دليل» كون ذا موصولة ، وماذا ليست مركبة ، والجواب بالنصب دليل كون « ماذا » مركبة .

قال تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو»[3] قرىء برفع « العفو » ونصبه قال تعالى : «ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا»[4] خيرا بالنصب ، وقرأ « زيد بن عـلى « خير » بالرفع .

قال تعالى : « ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين »[5] قرأ الجمهور برفع «أساطير» وقرىء شاذا «أساطير بالنصب»[6].

وهاك تحليلا لقوله تعالى : «ماذا ينفقون» على الاعتبارين السابقين : اعتبار بساطة « ماذا » وكونها عبـارة عن عنصرين مفردين ، واعتبار تركب ماذا وكونها كلمة واحدة مركبة :

---

(١) الكتاب ج ٢ ، ٤١٧
(٢) همع الهوامع ج ١ - ٨٤ ، انظر ايضا الكتاب ج ٢ - ٤١٨
(٣) البقرة - ٢١٩
(٤) النحل - ٣٠
(٥) النحل - ٢٤
(٦) الكتاب جـ ٢ - ٤١٨ ، شرح المفصل ج ٣ - ١٤٩ ، ١٥٠ .

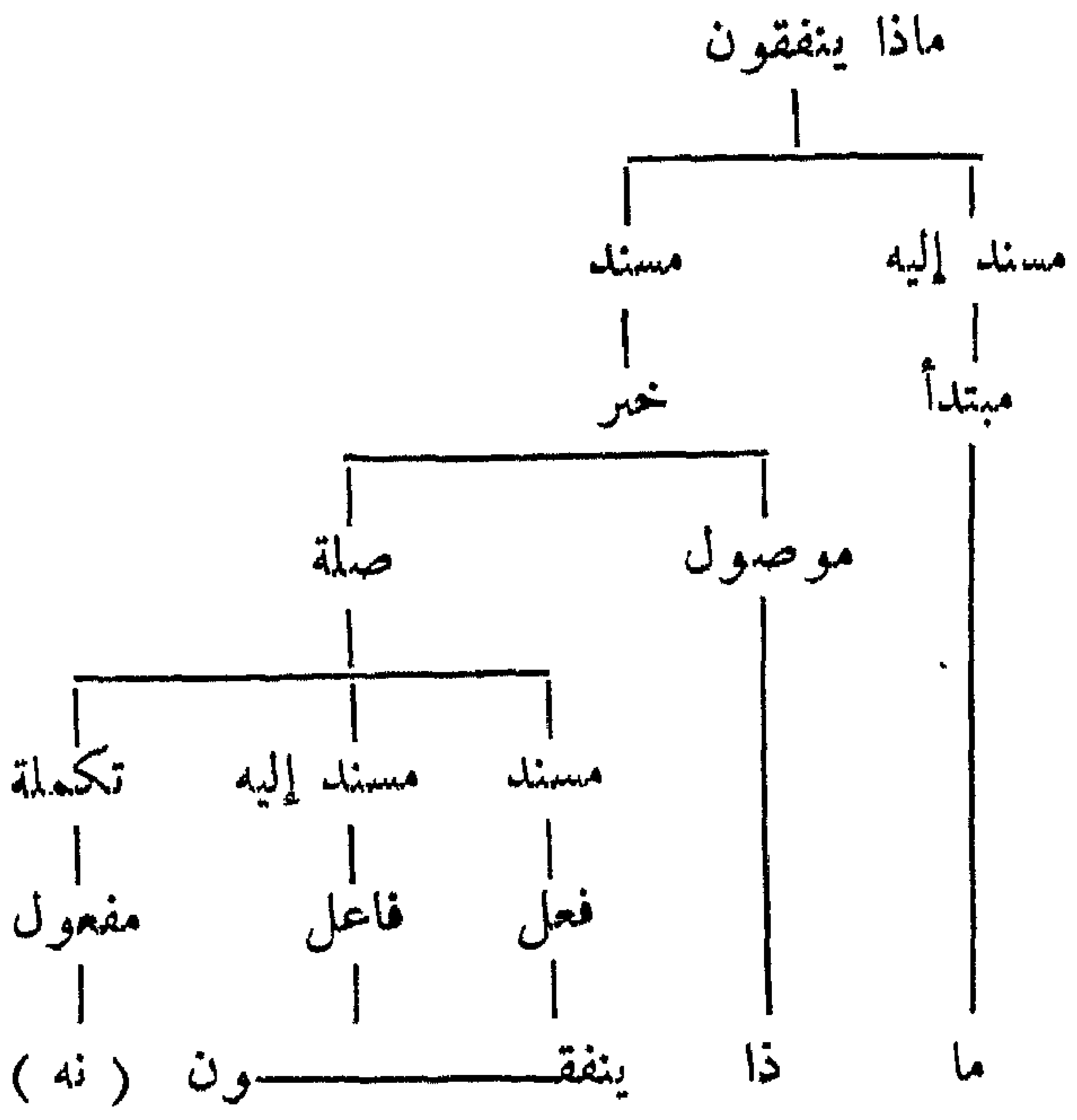

تنبيهات :

١ ــ ترتب على القول بتركب « ماذا » اختصار فى التحليـــل ، فالجملة على هذا الاعتبار فعلية بسيطة تقدم مفعولها على الفعل والفاعل ، أما على القول بعدم التركيب ، فقد تفرع التحليل كما يتضح من الشجرة الأولى ــ ، والجملة على هذا الاعتبار اسمية خبرها اسم موصول استدعى جملة الصلة ، فهل يمكن الذهاب إلى أن اعتبار بعض الكلمات مركبا يتولد عنه بساطة فى التحليل ، واعتبارها بسيطة يتولد عنه تضخما فى التحليل . ؟ .

٢ ــ انوه من واقع الشواهد بمنطقية اللغة ، فنحن مع ماذا أمام :

(أ) الاحتفاظ بكيان كل عنصر من العنصرين ، فنعتبر مااستفهامية ، وذاموصولة.

(ب) تغايب جانب مافتصبح «ماذا» كلها استفهامية :

(ج) تغليب جانب ذا فتصبح «ماذا» كلها موصولة :

٣ ــ عقد « ابن هشام » فصلا لماذا ، فصل القول فيها تفصيلا مبينا زاد عما ذكرته حديثا عن اعتبار «ذا» زائدة ، اكتفى هنا بالاحالة عليها [1] .

محمد عبد السلام شرف الدين

---

(١) مغنى اللبيب جـ ٢ ــ ٤ ، ٥ .

المستدرَك
من معانى فاء العطف

للدكتور صبحى عبد المنعم سعيد

تقديم :

شاء الله – عزّ شأنه – أنْ أُعنى بالنظر فى حروف المعانى محاولا استيفاء مدلول بعضها ؛ وقد وفقنى – سبحانه – قبلاً إلى الكشف عن معنىً لحرفي التنفيس لم يَسبق له ذكر فى مصادر النحو ؛ وكنت قد وقفت على هذا الكشف مقالا جعلت عنوانه « المستدرك من معانى حرفى التنفيس » تفضل مجمع اللغة العربية فى القاهرة – بنشره فى الجزء السابع والخمسين من مجلّته .

وهأنذا أُقدّم مرّة أخرى إلى المشتغلين بدرس النحو العربىّ – بحثا آخر فى حروف المعانى ، كانت غايتى عند بدئه أن أنتصر به لمذهب أبى الحسن الأخفش فى معنى الفاء العاطفة فى مثل قول امرىء القيس : « بين الدخول فحومل » ؛ لكن وقع لى – وأنا معنىٌ بتحقيق هذا الغرض – معنىً لفاء العطف ، أراهُ فات النحاة قبلا ، فلم يبِن لأحد منهم .

وجزى الله خيرا من نظر فى مقالى هذا ، فسدّد خطوة ، أو أقال عثرة ، أو دلّ على نهج خفيت علىّ مداخله ،

معنى فاء العطف بعد (بين)

الفاء فى مذهب سيبويه :

يقول سيبويه فى (باب عدّة ما يكون عليه الكلم) : « أما ما يكون قبل الحرف الذى يجاء به له فالواو التى فى قولك : مررت بعمرو وزيد . وإنما جئت بالواو ؛ لتضم الآخِر إلى الأول ، وتجمعهما ؛ وليس فيه دليل على أنّ أحدهما قبل الآخر . والفاء ؛ وهى تضمُّ الشىء إلى الشىء كما فعلت الواو غير أنّها تجعل ذلك متّسقا بعضه فى إثر بعض ؛ وذلك قولك : مررت بعمرو فزيد فخالد ، وسقط المطر بمكان كذا وكذا، فمكان كذا وكذا . وإنما يقرو أحدَهما بعدَ الآخر » [١] .

ويقول فى (باب ما أَشرك بين الاسمين فى الحرف الجار فجريا عليه) : « ومن ذلك قولك : مررت بزيد فعمرو ، ومررت برجل فامرأة . فالفاء أشركت بينهما فى المرور ؛ وجعلت الأول مبدوءا به » [٢] .

ويميز سيبويه بين الواو والفاء ، فيقول فى (باب الواو) : « ومما يدلك أيضا على أنّ الفاء ليست كالواو قولك : مررت بزيد وعمرو، ومررت بزيد فعمرو ؛ تريد أن تُعلم بالفاء أنّ الآخِر مُرَّ به بعد الأول » [٣] .

ويقول أيضا فى (باب مجرى النعت على المنعوت والشريك على الشريك) : « ومنه مررت برجل راكب وذاهب ؛ استحقهما لا لأنّ الركوب قبل الذهاب ؛ ومنه مررت برجل راكب فذاهب ؛ استحقهما إلاّ أنهّ بيّن أنّ الذهاب بعد الركوب ، وأنهّ لا مهلة بينهما ، وجعله متصلا به » [٤] .

ويتضح من مجموع هذه الأقوال أنّ سيبويه يرى أنّ الفاء العاطفة للأسماء تضُمُّ الشىء إلى الشىء كما تفعل الواو غير أنها تجعل ذلك متّسقا بعضه فى إثر بعض ؛ فيكون الأول فى الذكر مبدوءا به فى ملابسة الحدث له ، والمعطوف بعد المعطوف عليه فى هذه الملابسة، وأنهّ لا مهلة بينهما فى ذلك ؛ أى أنّ الفاء العاطفة للأسماء فى مذهب سيبويه – تفيد التشريك ، والترتيب ، والتعقيب .

ونلاحظ أيضا فى هذه الأقوال أن سيبويه عُنى بذكر إفادة الفاء العاطفة للأسماء – معنى الترتيب أربع مرات ، وقد حرص على توضيح هذا المعنى بالتمثيل له فى كل مرة . كذلك نلاحظ أنهّ فى إحدى هذه المرات مثّل بقول القائل : « سقط المطر بمكان كذا وكذا

فمكان كذا وكذا » ثم شرح معنى الترتيب في هذا المثال بقوله : « وإنما يقرو أحدَهما بعد الآخر [٥] » .

المذهب المنسوب للجرمي :

والحق أنّ من يمعنُ النظر إلى مثال سيبويه : « سقط المطر بمكان كذا وكذا فمكان كذا وكذا » - يجدُ أنّ الفاء فيه أقربُ إلى إفادة معنى مطلق الجمع منها إلى إفادة الترتيب ؛ إذ لا يصحُّ الادّعاء بأن من كان يقول : « سقط المطر بمكان كذا وكذا فمكان كذا وكذا [٥] » - قد لاحظ ترتيب سقوط المطر في هذه الأماكن ؛ لأنّ هذه الملاحظة تحتاج إلى وسائل علم لم تكن متاحة لمثل هذا القائل في قَرْنِ سيبويه وما قبله ؛ وإنما الأقرب أن يكون قد علم أنّ المطر عمّ مكانين أو أمكنة فأخبرنا بما علم دون أن يُعنى بترتيب الأمكنة تبعاً لسقوط المطر فيها ؛ ولا يُغيرّ من ذلك شيئا قولُ سيبويه في شرح مثاله : « وإنما يقرو أحدَهما بعد الآخر [٥] » ؛ لأنّ مناط الترتيب في المثال هو سقوط المطر لا تتبُّعُ الخبر أمكنةَ سقوطه [٦] » .

ونسارع فنقول : إنّ شرح مثال سيبويه على هذا النحو إنّما هو مستفاد من قول منسوب إلى أبي عمر الجرمي ٢٢٥ هـ [٧]، وحكاه ابن عصفور ٦٦٩ هـ حيث قال - وهو يشرح الفاء العاطفة للأسماء : « وذهب الجرميّ إلى أنّها للترتيب إلا في الأماكن والمطر ؛ فإنه زعم أنك تقول : عفا موضع كذا فموضع كذا فكذا وإن كانت هذه الأماكن إنّما عَفَت في وقت واحد . ونزل المطر مكان كذا فمكان كذا وإن كان المطر إنما نزل هذه الأماكن في وقت واحد[٨]»

ونلاحظ في هذا القول أنّ أبا عُمر الجرميّ قد اختار مثالا يقارب مثال سيبويه ليوضح به رأيا يخالف رأيه ؛ فبينما يشرح سيبويه مثاله بقوله : « وإنما يقرو أحدَهما بعد الآخر » - يشرح الجرميّ مثاله بقوله : « وإن كان المطر إنما نزل هذه الأماكن في وقت واحد » ! ثم يسوق ابن عصفور دليل الجرميّ على أنّ الفاء إذا عطفت المكان على المكان أفادت مطلق الجمع دون ترتيب أو تعقيب ، فيقول :

« واستدل الجرميّ على أنها (لا) [٩] ترتب في الأماكن بقول النابغة

عفا ذو حُسىً من فرتنى ، فالفوادع
فجنبا أريك ، فالتلاعُ الدوافع

ومعلوم أنّ هذه الأماكن لم تعف على ترتيب ؛ إذ الوقوف على مثل هذا صعب متعذر ، أعني أن يكون الثاني من الأماكن قد عفا بعد الأول

من غير مهلة بينهما ... [10] » .

ولا شك أنّ هذا المذهب المنسوب للجرميّ هو الأقرب للصواب ، والأكثر وفاقا لحال من كان يخبر عن عُفُوّ الأمكنة أو سقوط المطر فى ذلك الزمن المتقادم ؛ وإذا كان ذلك كذلك كانت الفاء فى مثل ذلك القول لا تفيد ترتيبا خلافا لمذهب سيبويه ؛ وإنما تضم الآخِر إلى الأوّل ، وتجمعهما ، وليس فى الكلام دليل على أنّ أحدهما قبل الآخر ؛ أى أنّ الفاء فى الأماكن والمطر هى والواو سواء .

مذهب الأخفش ٢١٥ هـ :

لقد حرصنا على وصف المذهب السابق بأنه مذهب منسوب إلى الجرميّ ، ولم نضفه إليه على وجه اليقين ؛ ذلك أنّ الهرويّ قال فى كتابه الأذهبيّة : « وقال الأخفش : الفاء فى قوله : (بين الدخول فحومل [11]) بمعنى الواو ، ويريد : وحومل . [12] » ؛ ومعنى ذلك أنّ الفاء فى الأماكن لمطلق الجمع ، أى أنّها لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا ؛ وإذا كان ذلك كذلك كان القول بأنّ الفاء لا ترتّب فى الأماكن هو قول الأخفش شيخ الجرميّ [13] لا الجرميّ نفسه ؛ ولعلّ التلميذ كان أكثر جهرا بالخلاف عن رأى سيبويه ؛ إذ علّق على مثال مقارب لمثال الكتاب بما يخالف رأى صاحبه ؛ فاشتهر القول بأنه للجرميّ مع أنهّ قول شيخه أبى الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش ، صاحب سيبويه ، ومذيع كتابه فى الناس [14] .

تفسير قول امرىء القيس على مذهب الأخفش :

يقول امرؤ القيس :

« قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح ، فالمقراة ، لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل [15] »

وإذا أردنا أن نفسر هذين البيتين فى ضوء مذهب الأخفش الذى يرى أنّ الفاء فى عطف الأماكن بمعنى الواو ؛ أى أنها تضم الآخر إلى الأول ، وتجمعهما جمعا مطلقا من غير ترتيب ولا تعقيب - قلنا : إن امرأ القيس قد استوقف صاحبيه ، أو صاحبه [16] للبكاء من ذكرى امرأةٍ حبيبٍ هاجت ذكراها رؤيةُ دارلها قد استقرّت بسقط اللوى ، وبقى رسمها لم يعفُ ، إذهى محصورةٌ بين أربعة معالم مشهورات : « بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة » .

ومن البيّن أنّ حمل قول امرىء القيس على هذا المعنى أشبه بالصواب ، فالنص يحتمله ، وهو سائغ فى النحو ؛ إذ الظرف (بين)

وقع على شيئين فصاعدا [١٧] ، والفاء فى البيتين جمعت بين الدخول وما عُطف عليه جمعا مطلقا دون ترتيب ولا تعقيب ، لأن هذه الأماكن قد اشتركت فى أنها حدّت منزل المرأة الحبيب دون أن يسبق أحدُها فى ذلك .

تفسير القول نفسه على مذهب سيبويه :

يقول أبو جعفر النحاس ٣٣٨ هـ : « وفيه من النحو قوله : بين الدخول فحومل ؛ لأنه لا يجوز أن تقول : زيد بين عمرو فخالد؛ لأن (بين) إنما تقع معها الواو ؛ لأنك إذا قلت :

المال بين زيد وعمرو فقد احتويا عليه ، فهذا موضع الواو ؛ لأنها للاجتماع ؛ فإن جئت بالفاء وقع التفرق فلم يجز ؛ وعلى هذا كان الأصمعىّ يرويه : « بين الدخول وحومل » .

وأما الاحتجاج لمن رواه بالفاء فلأن هذا ليس بمنزلة قولك : المال بين زيد وعمرو ؛ لأن الدخول موضع يشتمل على مواضع؛ فلو قلت : عبد الله بين الدخول - لتم الكلام ،كما تقول : دربنا مصر ، تريد : بين أهل مصر ، فعلى هذا قوله : « بين الدخول »، ثم عطف بالفاء، وأراد: بين مواضع الدخول وبين مواضع حومل، ولم يرد موضعا بين الدخول فحومل » [١٨]

ومن يتأمل هذا القول يجد أنّ أبا جعفر النحاس يفسر الفاء فى قول امرىء القيس : « بين الدخول فحومل » على مذهب سيبويه الذى يرى أنَّ « الفاء تضم الشىء إلى الشىء كما فعلت الواو غير أنهّا تجعل ذلك متسّقا ، بعضه فى إثر بعض [١٩] ، وهذا الترتيب بين معطوفى الفاء يقتضى التفريق بينهما ، لكن الظرف (بين) من حقّه أنْ يضاف إلى ما يدل على شيئين فصاعدا ، وأن يقع على ما يضاف إليه وقوعا واحدا لا تفريق فيه ؛ ومن أجل ذلك صرح أبو جعفر بأن « بين إنما تقع معها الواو ؛ لأنها للاجتماع ، فإن جئت بالفاء وقع التفرق ، فلم يجز » ؛ ومن أجل ذلك كان الأصمعىّ يرويه : « بين الدخول وحومل » ؛ ثم عاد فاحتج لرواية الفاء ، فقدّر اشتمال " الدخول " على مواضع ، فصحّ بذلك إضافة (بين) إليه ، كذلك صحّ العطف عليه بالفاء .

وبمثل هذا التفسير فسّر أبو بكر بن القاسم الأنبارى ٣٢٨ هـ - قول امرىء القيس: « بين الدخول فحومل » حيث قال : « والدخول وحومل وتوضع والمقراة مواضع ما بين إمرّة إلى أسود العين ... ورواه الأصمعىّ : « بين الدخول وحومل » ، وقال : لا يقال : رأيتك بين زيد فعمرو . وقال الفرّاء : « بين الدخول فحومل » معناه : بين أهل الدخول فحومل ، معناه : فأهل حومل ، فلذلك جاز

أن يكون المنسوق بالفاء » .(٢٠) (٢١)

ونلاحظ أنّ ابن الأنباريّ زاد على أبى جعفر النحاس بأن روى عن الأصمعيّ أنه قال : « لا يقال رأيتك بين زيد فعمرو » ؛ لأن الظرف (بين) « لا يضاف من الأسماء إلا لما يدلّ على أكثر من الواحد ، أو ما عطف على غيره بالواو (٢٢) »، ولأن الواو للاجتماع ؛ فإن جئت بالفاء وقع التفرق ، فلم يجز . كذلك نسب ابن الأنبارى إلى الفراء تفسيرا لقول امرئ القيس : « بين الدخول فحومل » يتفق وما ذهب إليه سيبويه فى معنى الفاء من أنها « تضم الشئ إلى الشئ كما فعلت الواو غير أنها تجعل ذلك متسقا بعضه فى إثر بعض(٢٣)» حيث قال : « وقال الفراء ... معناه : بين أهل الدخول فحومل ، معناه : فأهل حومل ، فلذلك جاز المنسوق بالفاء (٢٤)»

ومن يمعن النظر فى هذا التفسير النحويّ الذى قدّمه الأنباريّ والنحاس مستعينيْن بتراث البصرة والكوفة - يجد أنه تفسير لا يوافق ألفاظ النص ، ولا المعتاد من المعانى ، فامرؤ القيس أمر صاحبيه بالوقوف للبكاء - على منزلٍ واحدٍ لحبيبه مستقر بسقط اللوى ، فقال :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ولم يقل : تنقّلا بين منازل الدخول فمنازل حومل كما يفسّر الأنباريّ والنحاس .

كذلك وصف الشاعر منزل حبيبه بأنّه «بِسِقْطِ اللّوى بين الدخول فحومل» وإذا كان «بسقط اللوى» مَعْلما طبيعيا من معالم تلك البقعة فإن ترتيب استقراره بين الدخول وما عطف عليه بالفاء أمراً لا نظنُّ امرأ القيس يُعنى بشرحه ؛ إذ هو لا يستطيع سبيلا إليه ؛ زيادةً على خُلوّ هذا الشرح من فائدة ظاهرة .

وربّما أراد الشاعر أنّ منزل حبيبه مستقر بين الدخول وما عطف عليه بالفاء ؛ وإذا كان كذلك فمن اليقين أنّ ملابسة هذه الأماكن لاستقرار المنزل بينها لم تقع على ترتيب وتفريق ؛ لأنّ هذه المواضع سابقة النشأة على منزل الحبيب ؛ بل الأقرب أنّ الشاعر جمع بينها فى ذلك جمعا مطلقا .

قول أمرئِ القيس عند جمهرة النحاة :

وإذا كنا لاحظنا اتفاق ابن الأنباريّ والنحاس على شرح قول امرئِ القيس : « بين الدخول فحومل » شرحا لم يوافقا فيه لفظ النص ، ولا المعتاد من المعانيِ فإنا لنعجب من النحاة الذين قبلوا هذا الشرح ، واستمرّوا يتناقلونه خلفا عن سلف حتى يوم الناس هذا من غير تأملّ ولا تمحيص :

فرضيّ الدين الاستراباذيّ ٦٨٦ هـ يقول :

« اعلم أنّ الفاء تفيد الترتيب سواء كانت حرف عطف أو لا ، فإن عطفت مفردا على مفرد ففائدتها أنّ ملابسة المعطوف لمعنى الفعل المنسوب إليه وإلى المعطوف عليه - بعد ملابسة المعطوف عليه بلا مهلة ، ... ، وقد تجيء الفاء العاطفة للمفرد بمعنى إلى : حكى الزجاجيّ : تقول العرب : مطرنا ما بين زُبالة فالثعلبيّة بمعنى ما بين زُبالة إلى الثعلبيّة ؛ وبعضهم يقول : مطرنا ما زُبالة فالثعلبيّة بحذف (بين) مع كونه مرادا ، ...، ولا يجوز حذف (ما) لكونه موصولا؛ فلا تقول : مطرنا زُبالة فالثعلبيّة ، وهى أحسن الناس قرنا فقدما ؛ وحكى إجازته عن هشام . ومثل قوله : « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ... » البيتان - الفاء فيه بمعنى إلى ، أى منزل بين الدخول إلى حومل إلى توضح إلى المقراة [٢٥]؛ ويجوز أن يكون المعنى : قفا نبك بين منازل الدخول فمنازل حومل فمنازل تُوضح فمنازل المقراة [٢٦]» والناظر فى قول الاستراباذيّ هذا يجده يفسر الفاء فى « بين الدخول فحومل » بمعنى إلى ؛ وهو تفسير ضعيف لخلو العبارة من (ما) وقد قال هو نفسه : « ولا يجوز حذف (ما) لكونه موصولا ، أما تفسيره الأخير فهو لا يخرج عن قول الأنباريّ والنحاس الذى نقدناه آنفا .

ويقول ابن هشام ٧٦١ هـ - فى أوضح المسالك :

« وتنفرد الواو بأنها تعطف اسما على اسم لا يكتفى الكلام به كاختصم زيد وعمرو ... وجلست بين زيد وعمرو ؛ إذ الاختصام ... والبَينية من المعانى النسبيّة التى لا تقوم إلا باثنين فصاعدا ؛ ومن هنا قال الأصمعيّ : الصواب أن يقال : « بين الدخول وحومل » بالواو ؛ وحجة الجماعة (يعنى أصحاب رواية " بين الدخول فحومل ") أنّ التقدير بين أماكنِ الدخول فأماكنِ حومل ؛ فهو بمنزلة اختصم الزيدون فالعمرون [٢٧] »

ويقول أيضاً فى مغنى اللبيب :

« الفاء المفردة ... وترد على ثلاثة أوجه : أحدها أن تكون عاطفة ، وتفيد ثلاثة أمور ، أحدها الترتيب ... وقال الجرميّ : لا تفيد الفاء الترتيب فى البقاع ولا فى الأمطار بدليل قوله : (بين الدخول فحومل) ، وقولهم : (مطرنا مكان كذا فمكان كذا) وإن كان وقوع المطر فيهما فى وقت واحد . وقيل : تقع الفاء تارة بمعنى ثم ... وتارة بمعنى الواو كقوله : « بين الدخول فحومل » ؛ وزعم

الأصمعىّ أنّ الصواب روايته بالواو ؛ لأنه لا يجوز جلست بين زيد فعمرو ؛ وأجيب بأنّ التقدير بين مواضع الدخول ، فمواضع حومل كما يجوز جلست بين العلماء فالزهاد (٢٨)»

فابن هشام من خلال هذين القولين - يحتج لقول امرىء القيس « بين الدخول فحومل » بحجة لا تخرج عما حكاه الأنبارىّ والنحاس على رغم حكايته قول الجرمىّ : « لا تفيد الفاء الترتيب فى البقاع ولا فى الأمطار » ؛ وكأنّ ابن هشام لم يجد فيما نسبه إلى الجرمىّ مقنعا يدعوه للانتصار لرواية الفاء خصوصا وقد علم أنّ الأصمعىّ يروى قول امرىء القيس بالواو ، وأنه يرى ذلك هو الصواب .

ويقول أبو الحسن الأشمونى ٩٤٩ هـ

« وأما قوله : « بين الدخول فحومل » فالتقدير : بين أماكن الدخول فأماكن حومل ؛ فهو بمثابة اختصم الزيدون فالعمرون (٢٩)»

ونلاحظ أن الأشمونى لم يزد على أن لخّص ما قاله ابن هشام فى أوضح المسالك ؛ فاكتفى بتقدير جمع مضاف إلى كلمتى " الدخول " و" حومل " ؛ لتصح إضافة بين إلى الدخول وما عطف عليه بالفاء ، ويسلم للفاء معنيا الترتيب والتعقيب .

أما الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد- وقد كان - رحمه الله - من أعيان المشتغلين بالنحو فى عصرنا هذا الحاضر - فيقول فى حاشيته التى علّقها على كتاب أوضح المسالك لابن هشام : الشاهد فيه قوله : « بين الدخول فحومل » ؛ ووجه الاستشهاد بهذه العبارة يستدعى أن نقرر لك قاعدتين : أما القاعدة الأولى فهى أنّ (بين) كلمة واجبة الإضافة ، وأنها لا تضاف إلا إلى متعدّد ، سواء أكان تعدّده بسبب التثنية أو الجمع أم كان تعدّد بسبب العطف ... وأما القاعدة الثانية فهى أنّ أصل وضع الفاء العاطفة على أن تدلّ على الترتيب بغير مهلة ؛ ومعنى ذلك أن العامل فى المعطوف عليه قد وقع معناه عليه أولا ، ووقع على المعطوف بعد وقوعه على المعطوف عليه ، ولكن من غير تراخ فى الزمن ؛ وأنّ الأصل فى وضع الواو العاطفة أن تتبادر منها الدلالة على أنّ العامل قد وقع أثره على المعطوف والمعطوف عليه دفعة واحدة ؛ فإذا قلت : جلست بين زيد فعمرو فمعناه أنّ جلوسك قد تمّ أولا بين زيد ثم وقع مرة أخرى بين عمرو ؛ وهذا كلام لا يتحقق فيه ما تقتضيه (بين) من الإضافة إلى متعدد ؛ وأما إذا قلت : جلست بين زيد وعمرو فمعناه أنّ الجلوس قد تم بين الاثنين دفعة واحدة ؛ وهذا معنى يليق

بما تقتضيه (بين) مما ذكرنا ؛ ولهذا كان الأصمعىّ يقول : أخطأ امرؤ القيس ، وكان من حق العربية عليه أن يقول : « بين الدخول وحومل » . وقد عُنى العلماء بتصحيح عبارة امرئ القيس ، فذكروا أن كلمة " الدخول " لا يراد بها فى هذا الموضع جزئى مُشخّص ؛ وإنما يراد بها أجزاء ذلك المكان ... ؛ ومع تصحيح هذا التخريج لعبارة امرئ القيس فإنا نراه تخريجا لا ينبغى أن نأخذ به ، وقد وقع فى شعر امرئ القيس أيضا مثل ذلك ، وذلك فى قوله :

ما هاج هذا الشوقَ غيرُ منازلٍ

دوارسَ بين يَذْبُلٍ فذقانِ (٣٠)

وقد وقع مثل ذلك فى قول كثيرّ عزّة :

ورسوم الديار تعرف منها

بالملا بين تغلمينَ فريمِ (٣١)

فالشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد لا يتوقف أن يُصرح بتخطئة امرئ القيس مُستندا ذلك إلى الأصمعى صاحب رواية «بين الدخول وحومل»؛ ثم إنه يحكى دون إسناد تصحيح الأنبارىّ والنحاس لرواية الفاء ؛ لكنه ينصح تلميذه بألاّ يأخذ بهذا التصحيح ؛ لأن العطف على ما يضاف إليه الظرف (بين) إنما يكون بالواو لا بالفاء ؛ ثم ينبه تلميذه إلى أنّ امرأ القيس وقع فى شعره هذا الخطأ مرة أخرى حيث قال : « ... بين يَذْبُلٍ فذقان » وأنّ هذا الخطأ وقع أيضا فى شعر كثيرّ عزّة حيث قال : « ... بين تغلمين فريم » !!

ومن يرجع البصر إلى أقوال هؤلاء الأنباء من النحاة يجد أنهم قد وافقوا ما ذهب إليه سيبويه والفراء من أنّ الفاء تفيد الترتيب والتعقيب إذا عطفت الاسم على الاسم مطلقا سواء أكان المتعاطفان شخصين أم مكانين(٣٢)؛ وأنهم ذهبوا فى تفسير قول امرئ القيس : « بين الدخول فحومل » إلى ما حكاه أبو بكر الأنبارىّ وأبو جعفر النحاس فى شرحيهما من تقدير جمع مضاف قبل كلّ مكان مذكور فى البيتين (٣٣) على رغم أنّ هذا التفسير يخالف فى رأينا قول امرئ القيس : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل (٣٤)» . وقد زعم هؤلاء النحاة أنّ الأصمعىّ كان يروى قول امرئ القيس بالواو، فيقول : «بين الدخول وحومل»، ومن ثمّ خطأ بعضهم رواية الفاء (٣٥)، بل خطأ بعضهم امرأ القيس وغيره (٣٦).

قول الحسن بن قاسم المرادى ٧٤٩ هـ :

قبل أن نأخذ فى الردّ على ما تقدم من الأقوال يحسن بنا أن نحكى ما قاله أحد مشهورى نحاة القرن الثامن وهو الحسن بن

قاسم المرادى ؛ لأنا لمحنا فى قوله ما يميزه عن غيره سلفا وخلفا ؛ بقول المرادىّ :

« وذهب بعضهم إلى أنّ الفاء قد تأتى لمطلق الجمع كالواو . وقال به الجرمى فى الأماكن والمطر خاصة ... قال امرؤ القيس : بسقط اللوى بين الدخول فحومل » ، وقال النابغة :

عفاذو حُسىً من فَرْتَنَى الفوارع
فجنبا إريك فالتلاعُ الدوافعُ

... ؛ وقال بعضهم : الترتيب بالفاء على ضربين : ترتيب فى المعنى ، وترتيب فى الذكر ... وأما الترتيب فى الذكر فنوعان : أحدهماعطفُ مفصّلٍ على مجمل ... والثانى عطف لمجرد المشاركة فى الحكم بحيث يحسن الواو كقول امرئ القيس : « بسقط اللوى بين الدخول فحومل » ... وأجاز بعضهم فى قوله : « بين الدخول فحومل » أن تكون الفاء بمعنى إلى . وهذا ضعيف . [٣٧]. »

ومن يتأمل قول المرادىَ – وهو من قرن ابن هشام – يجده قد حكى قول الجرمىّ ، واستدل على صحته بقول امرئ القيس : « بين الدخول فحومل » وقول النابغة : « عفا ذو حُسىً من فَرْتَنَى فالفوارعُ ... » ثم ذكر أن الفاء قد تفيد « مجرد المشاركة فى الحكم بحيث يحسن الواو » واستدل على ذلك أيضا بقول امرئ القيس : « بين الدخول فحومل » وحده .

ونلاحظ أن قول المرادى قد خلا من رواية الأصمعىّ : « بين الدخول وحومل » ودعوى أنّها الصواب ؛ كذلك خلا من الحجة التى ذكرها الأنبارىّ والنحاس لتصحيح معنى الترتيب فى « بين الدخول فحومل » .

ردّ رواية « بين الدخول وحومل » :

ذكرنا من قبل قول أبى بكر الأنبارىّ : «والدخول وحومل وتوضح والمقراة مواضع بين إمرّة إلى أسود العين ... ورواه الأصمعىّ : « بين الدخول وحومل » ، وقال : لا يقال : رأيتك بين زيد فعمرو [٣٨]. » . كذلك ذكرنا قول أبى جعفر النحاس : « وفيه من النحو «بين الدخول فحومل» لأنه لا يجوز أن تقول : زيد بين عمرو فخالد ؛ لأنّ (بين) إنما تقع معها (الواو) ؛ لأنك إذا قلت : المال بين زيد وعمرو فقد احتويا عليه ، فهذا موضوع (الواو) ؛ لأنها للاجتماع ؛ فإن جئت بالفاء وقع التفرق فلم يجز ؛ وعلى هذا كان الأصمعىّ يرويه : « بين الدخول وحومل [٣٩] » ونزيد هنا قول أبى العباس المبرّد : « ... فأما اللوى من الرمل فمقصور ، قال امرؤ القيس : « بسقط اللوى بين الدخول وحومل » كذا

يرويه الأصمعى ، وهذه أصحّ الروايات [٤٠]» ؛ ومن المعلوم أنّ المبرد تلمذ لأبى حاتم [٤١]، وأبا حاتم تلمذ للأصمعىّ [٤٢].

كذلك جاء فى صدر ديوان امرئ القيس المنسوبة روايته إلى الأصمعىّ قول امرئ القيس :

« بسقط اللوى بين الدخول وحومل [٤٣] » ؛

أعنى عطف "حومل" على " الدخول " بالواو . فالمشيخة من علماء البصرة والكوفة قد أجمعت على أن الأصمعىّ كان يروى قول امرئ القيس السابق بالواو ، وشعر امرئ القيس الذى نُسبتْ روايته إلى الأصمعىّ جاء فيه «بين الدخول وحومل [٤٤]» بالواو ؛ لكننا نلاحظ أنّ العطف بالواو على ما أضيف إليه الظرف (بين) فى معلقة امرئ القيس - قد قُصر على « الدخول وحومل » فى البيت الأول وحده ؛ أما البيت الذى يليه بعده فقد أجمع الأصمعى ورواة المعلقة كافة على روايته باللفظ الآتى :

« فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمُها

لما نسجتها من جنوب وشمأل [٤٥]»

أى أنّ « تُوضحَ » عُطف على « حومل » بالفاء ، كذلك عطف « المقراة » على «توضح» بالفاء ! وإذا نظرنا فى مقتضب المبردّ أقدم من زكّى رواية « بين الدخول وحومل » فيما نعرف - وجدناه يقول فى (الواو) : « معناها إشراك الثانى فيما دخل فيه الأول ، وليس فيها دليل على أيهّما كان أولا [٤٦]» ؛ أى أنّ واو العطف عند المبرّد كما هى عند سيبويه والجماعة - تجمع بين معطوفيها جمعا مطلقا من غير ترتيب ولا تفريق . كذلك يذهب المبرّد مذهب سيبويه والجماعة فى تحقيق معنى فاء العطف فيقول :

« هى توجب أن الثانى بعد الأول ، وأنّ الأمر بينهما قريب نحو قولك : رأيت زيدا فعمرا ، ودخلت مكة فالمدينة [٤٧] » ؛ أى أن الفاء تُرتب معطوفيها وتُفرق بينهما بلا مهلة ، سواء أكان شخصين أم مكانين .

وإذا كان ذلك كذلك جاز لنا أن نسائل النحاة الذين يزكّون رواية « بين الدخول وحومل » ، ويذهبون مذهب سيبويه فى معنى فاء العطف قائلين : كيف يصحُّ فى مذهبكم أن يُجمع بين " الدخول " و " حومل " جمعا مطلقا من غير ترتيب ولا تفريق على حين يُرتب ويفرق بين « حوملَ » و « توضحَ » ، وبين « تُوضحَ » و " المقراة" - فى قول واحد أُضيفَ فيه الظرف (بين) إلى هذه الأماكن جميعا ؛ أعنى قول امرئ القيس - فى رواية الأصمعىّ : «.. بين الدخول وحوملِ فتوضح فالمقراة ..» ؟

أليس فى هذا تناقض بين بعض القول الواحد وبعض ؟

وإذا كان ذلك كذلك فأىُ الأمرين خير لهؤلاء النحاة : آلاستمساكُ برواية ينسبونها إلى الأصمعىّ ، فيقع التناقض بين معطوفات أضيفت جميعا إلى الظرف (بين) فى قول واحد ؛ أم قبولُ ما رواه مُعلقة امرئ القيس ؛ أعنى « بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة[48] » فيتحد حرف العطف فى تلك المعطوفات جميعا ، ويستقيم معنى البيتين على سَنَن واحد ؟

ثم إنّ عطفَ العربِ مكانا بالفاء على مكان أضيف إليه الظرف (بين) ليس مقصورا على هذا القول لامرئ القيس ، بل قد رُوِى عنه أيضا قوله :

« ما هاج هذا الشوقَ غيرُ منازل

دوارسَ بين يلبلٍ فذقانِ[49] »

وإذا احتج نحوىٌّ فقال : إن البيتَ لم يروه الأصمعىّ فى شعر امرئ القيس - [50] قلنا : إن الأصمعىّ نفسه روى لشاعر جاهلىٍ قديم هو سلامةُ بن جندلٍ السعدىّ [51] -قوله :

لمن طلل مثلُ الكتابِ المنمقِ

خلا عهدُه بين الصُلَيْبِ فمطرقِ

أكبّ عليه كاتب بدواته

وحادِثُهُ فى العين جِدّةُ مُهْرَقِ

لأسماءَ إذ تَهْوىَ وِصالكَ ؛ إنّها

كذى جُدّةٍ من وحشِ صاحةَ مُرْشِقِ [52]

ونسبة رواية هذه الأبيات إلى الأصمعىّ نسبة صريحة ، فقد ذكرها الأصمعىّ نفسه فى اختياره المسمىّ الأصمعيات [53] ؛ وقد قال فيها سلامة بن جندل : «بين الصُلَيْبِ فمطرق» فأضاف (بين) إلى « الصُلَيْب ، وعطفَ عليه بالفاء ؛ ولم يأت فى تخريج هذه الأبيات أنّ أحدا رواها بالواو ، فقال : « بين الصُلَيْب ومطرق » [54] .

بل نزيد على ذلك فنقول : إنّ الأصمعىّ روى قصيدة أخرى فيها مثل هذا القول ، وشارك هو نفسه فى شرح أبياتها ؛ فقد روى أبو سعيد السكرىّ عن أبى الفضل الرياشىّ عن الأصمعىّ قول أبى ذؤيب الهذلىّ :

١ - عرفتُ الديار لأمّ الرُّهَيْنِ

بين الظُّباءِ فوادى عُشَرْ

قالوا : « الظُّباء » واد أوموضع . و «الظُّباء» منعرج الوادى ، والواحدة «ظُبَة» . ويُرْوى : « الرُّهَيْن » ، وروى أبو عبيدة وأبو عمرو : « الظِّباء »، وقالا : واحدها «ظُبْيَةٌ» وهى منعرَج الوادىِ .

٢ - أقامتْ به فابتنتْ خَيْمةً

على قَصَبٍ وفُراتِ النَّهَرْ

قال الأصمعيّ : « قصب البطحاء » : مياه تجرى إلى عيون الركايا ... (٥٥)»

فأبو ذؤيب الهذليّ يقول : « بين الظُّباء فوادى عُشَر » فيعطف بالفاء مكاناً على مكان أضيف إليه الظرف (بين) ، ويشترك فى رواية قوله أبو عبيدة وأبو عمرو والأصمعيّ ؛ ثم يروى السكّرى شرحا لكلمة فى البيت الثانى عن الأصمعى .

وإذا كان ذلك كذلك أصبحنا على يقين من أنّ الأصمعيّ روى أكثر من مرة شعرا تضمّن عطفا بالفاء لمكان على مكان أضيف إليه الظرف (بين) - على رغم ثقتنا فى أبى العباس المبرّد الذى نُسب إليه أنّه قال : «فأما اللّوى من الرمل فمقصور ؛ قال امرؤ القيس : « بِسقطِ اللّوى بين الدخُول وحومل » كذا يرويه الأصمعيّ ؛ وهذه أصحُّ الروايات (٥٦)» .

تكرار الشاعر قوله : بين كذا فكذا من الأمكنة :

والحق أنّ عطفَ الشعراء مكانا بالفاء على مكان أضيف إليه الظرف (بين) شائع مكرّر فى أقوالهم بحيث لا يلابسه شك ، ولا يتسامى إليه إنكار : فالشاعر الجاهلىّ سلامة ابن جندل يقول أيضا فيما يرويه المفضّل عنه :

« كُنّا إذا ما أتانا صارخٌ فزِعٌ
كان الصراخ له قرع الظّنابيبِ

* * *

حتى تُركنا وما تُثنى ظعائنُنا
بأخذنَ بينَ سوادِ الخطِّ فاللُّوب (٥٧) »

والحارث بن حِلّزة يقول فى معلقته :

وبعينيكَ أوقدتْ هندُ النّا
رَ أخيراً تُلوى بها العَلْياءُ
أوقدتها بين العَقيقِ فَشَخْصَيْـ
ـنِ بعودٍ كما يلوحُ الضّياءُ (٥٨)

ويقول الحارث أيضا فى المعلّقة نفسها :

إن نَبَشْتُم ما بين ملحةَ فالصّا
قبِ فيه الأمواتُ والأحياءُ (٥٩)

فها نحن أولاء نرى شاعرين جاهليين قد كرّر كل منهما عطفه بالفاء مكانا على مكان أُضيف إليه الظرف (بين) ، وبعض هذا الشعر رواه الأصمعيّ نفسه (٦٠) .

أما حسّانُ بن ثابت فقد عَطف بالفاء مكانا على مكان أُضيف إليه الظرف (بين) خمسَ مراتٍ فى خمسِ قصائدَ معظمها مشهور معلوم ؛ إذ يقول فى العصابة التى نادمها فى الزمان الأول :

أسألتَ رسمَ الدَّارِ أم لم تسألِ

بين الجوابى ، فالبُضَيْعِ ، فَحَوْملِ

فالمرجِ مرجِ الصُفْرَ بَيْنِ ، فَجاسِمِ

فديار تُبْنى دُرُساً لم تُحلَل

أقوى وعُطِّل منهمُ ، فكأنَّهُ

بعدَ البِلى آىُ الكتابِ المُجْمَلِ (٦١)

فحسَّان يقول : « بين الجوابى فالبُضَيْع » ، فيعطف بالفاء مكانا على مكان أضيف إليه الظرف (بين) ؛ ولم نسمع أنّ راويا روى ذلك القول بالواو .

ويقول فى " شعثاء " التى لم يحبَّ أحدا حُبَّه إياها :

انظر خليلى بباب جِلّقَ هَلْ

تُؤنسُ دونَ البلقاءِ من أحَدِ

أجمالَ شعثاءَ قد هَبَطْن من الـ

ـمَحْبِس بينَ الكُثْبانِ فالسَّنَدِ

يَحْمِلنَ حُوراً حُورَ المدامعِ فى الرّيـ

ـطِ وبيضَ الوجوهِ كالبَرَدِ (٦٢) »

فحسَّان يقول :

« بين الكثبان فالسَّنَد » ؛ فيعطف بالفاء مكانا على مكان أضيف إليه الظرف (بين) ؛ ولم نسمع أنّ راويا روى ذلك القولَ بالواو .

ويقول فى مطلع قصيدة يرثى بها حمزة - رضى الله عنه :

أتعرف الدار عفا رسمَها

بعدك صوبُ المُسْبِلِ الهاطلِ

بين السراديحِ فأدمانةٍ

فمدفعِ الرَّوْحاءِ فى حائلِ

سا ءلتُها عن ذاك فاستَعْجَمَتْ

لم تدر ما مرجوعةُ السّائلِ

دع عنك دارا قد عَفَا رسمُها

وابك على حمزةَ ذى النائلِ (٦٣)

فحسَّان يقول : « بين السراديح فأدمانةٍ » ؛ فيعطف بالفاء مكانا على مكانٍ أُضيف إليه الظرف (بين) ؛ ولم نسمع أنّ راويا روى ذلك القول بالواو .

ويقول فى إحدى قصائده التى يُرَجَّحُ أنها من جاهليّاته :

لمن الدارُ والرسومُ العوافى

بين سَلْعٍ فأبْرقِ العَزّافِ

دارُ خَوْدٍ تَشفى الضجيع بعذب الطَـ

ـعم مُزٍّ وبَاردٍ كالسُّلافِ (٦٤)

فحسَّان يقول : « بين سَلْعٍ فأبْرقِ العَزّافِ » ؛ فيعطف بالفاء مكانا على مكان أضيف إليه الظرف (بين) ؛ ولم نسمع أنّ راويا روى ذلك القول بالواو .

ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها جبلةَ بنَ الأيهم :

لمن الدار أَوْحشَتْ بمعانِ

بين شاطىِ اليرموكِ فالصَّمانِ

فالقريّاتِ من بَلاسَ ، فداريّا

فسكّاءَ ، فالقصورِ الدَّوانى

فقفا جاسمٍ ، فأودية الصفّـ

ـرِ مغنى قنابلٍ وهجانِ

تلك دارُ الأنيسِ بعدَ عزيزٍ

وحُلولٍ عظيمةِ الأركانِ (٦٥)

فحسّان يقول : « بين شاطى اليرموك فالصّماف » ؛ فيعطف بالفاء مكانا على مكان أُضيف إليه الظرف (بين) ؛ ولم نسمع أنّ راويا روى ذلك القول بالواو .

وإذا كان الفحول من شعراء العربية قد أكثروا فى أشعارهم من عطفهم بالفاء مكانا على مكان أضيف إليه الظرف (بين) – أصبحنا موقنين بصواب رواية «بين الدخول فحومل» .

كذلك أصبحنا ملزمين بتفسير (الفاء) فى هذا القول تفسيرا يتفق ومعنى الظرف (بين) الذى يقضى بأن يضاف إلى ما يدل على شيئين فصاعدا ، وأن يقع على ما يضاف إليه وقوعا واحدا لا ترتيب فيه ولا تفريق (٦٦) ؛ ولا يفى بذلك كلّه إلا قول أبى الحسن الأخفش : «الفاء فى قوله : " بين الدخول فحومل " بمعنى الواو (٦٧) » .

الفساد تقدير « بين أهل الدخول » :

يروى ابن الأنبارى فى شرح المعلّقات عن الفراء قوله : « (بين الدخول فحومل) معناه : بين أهل الدخول فحومل ، معناه : فأهل حومل ؛ فلذلك جاز أن يكون المسوق بالفاء (٦٨) » .

ويقول أبو جعفر النحاس : « وأما الاحتجاج لمن رواه بالفاء فلأنّ هذا ليس بمنزلة قولك : المال بين زيد وعمرو ؛ لأنّ « الدخول » موضع يشتمل على مواضع ، فلو قلت : عبد الله بين الدخول لتَمّ الكلام كما تقول : دربنا مصر ، تريد بين أهل مصر .

فعلى هذا قوله : « بين الدخول » ؛ ثُم عطف بالفاء ، وأراد بين مواضع الدخول ، ولم يُرد موضعا بين الدخول فحومل (٦٩) » .

ومن يتأملّ هذين القولين يجد أنّ أبا زكريا الفراء ٢٠٧ هـ قد فسّر قول امرىء القيس « بين الدخول فحومل » تفسيرا يوافق مذهب سيبويه ، إذ حقق للفاء معنى الترتيب والتعقيب (٧٠) ؛ كذلك يجد أنّ أبا جعفر النحاس ٣٣٨ هـ قد أخذ تفسير الفراء فزاده شرحا وتمثيلا ، واستقر رأيه على أنّ الشاعر « أراد بين مواضع الدخول ، ولم يرد موضعا بين الدخول فحومل (٧١) »

ولو أخذنا بهذا التقدير الذى ذهب إليه أبو زكـريا الفـراءُ وحكاه الأنبـارىّ والنحـاس ، وغيرهما من النحاة وشراح المعلقات [٧٢] لكان معنى قول امرئ القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل لهذا الحبيب بين مواضع الدخول ، ولننتقل بعد ذلك مسرعين لنقف باكين - على منزل آخر له كائن بين مواضع حومل ، ولننتقل بعد ذلك مسرعين لنقف باكين - على منزل ثالث له كائن بين مواضع تُوضح ، ولننتقل بعد ذلك مسرعين لنقف باكين - على منزل رابع له كائن بين مواضع المقراة !! ولا بأس على امرئ القيس بن حُجْر من هذا الهوان الذى نُسبغه عليه ما دمنا حراصا على أن نحقق للفاء معنى الترتيب والتعقيب فى الأماكن كما هى فى الأشخاص : ويبدو لى أنّ أبا الحسن الأخفش قد عرضت له هذه الصورة التى شرحناها تفسيرا لمعنى قول امرئ القيس على أنّ الفاء فيه للترتيب والتعقيب - فعزّ عليه أن يبدو امرؤ القيس فى صورة لا تليق بمكانه السامى بين قومه ، ثم هداه ذلك إلى أن يستنبط من هذا القول أنّ الفاء فى عطف الأماكن بمعنى الواو [٧٣] ؛ وبذلك يكون امرؤ القيس إنما عَنَى منزلا واحدا بسقط اللوى ، تحدّه هذه الأماكن جميعا .

وإذا انتقلنا إلى قول الحارث بن حلّزة فى معلّقته :

وبعينيك أوقدتْ هندُ النا ... رَ أخيرا تُلوى بها العَلْياءُ

أوقدتها بين العقيقِ فشخصَيْـ ... ـنِ بعودٍ كما يَلُوحُ الضيِّاءُ

فتنوّرتُ نارها من بَعيدٍ ... بِخَزَازَ ، هيهاتَ منكَ الصِّلاءُ [٧٤]

- وجدنا أبا جعفر النحاس يقول : فى شرح هذه الأبيات : «.......... ورواية الأصمعىّ : " وشخصين " ولا يجيز أن يُوتى بالفاء بعد (بين) ؛ وقد ذكرنا شرح هذا فى معلّقة امرئ القيس » [٧٥] .

وهذا القول يعنى أنّ أبا جعفر النحاس لم يتأمل الأبيات أدنى تأمل ؛ وإنما وجد (الفاء) بعد (بين) فى قول الحارث ، فتذكّر ما قاله فى شرح قول امرئ القيس ؛ فذكّر القارئ به [٧٦] .

وأما ابن القاسم الأنبارى فإنه قال فى شرح هذه الأبيات : « ... معناه : رأى النار بالعلياء ولم يدر أين موضعها من العلياء حتى تأمّلها فعلم أين هى من العلياء ، فقال : «بين العقيق» ، و« العقيق » مكان ... و «شخصان» أكمة لها شعبتان ، فعلم أنّ مُوقَد النار كان بالعلياء بين العقيق وشخصين . وقوله : « بعود » : أراد الذى يُتَبَخَّر به ..

قـوله : « تنورتَ نارها » مـعناه : نظرت إلى سناها فى الليل . والتنوّر : نظرك إلى النار ، وتأملك أيـن هى ؟ قـريبـة كـانت أم بعيدة . ثم قال : « بخزازَ » . و « خزازَ » : جبل بين العقيق وشخصين كما وصف . ثم أطمع نفسه فى اصطلائها فظنّ أنها قريب ، فلما علم أنها بعيدة قال : « هيهات منك الصِّلاء » أى ما أبعده منك (٧٧) » .

ويلاحظ فى هذا القول أنَ ابن القاسم الأنبارىَ أرسل نفسه على سجيّتها لتفهم قول الحارث فوافق شرحه مذهب الأخفش ؛ إذ فسّر الفاء فى قول الحارث : « بين العقيق فشخصين » بالواو ؛ إذ قال : « ... وخزاز جبل بين العقيق وشخصين كما وصف » ؛ ولم يستمسك الأنبارىّ بشئ مما قاله هو نفسه فى شرح عبارة امرئ القيس : « ... بين الدخول فحومل (٧٨) »

والحق أنَ فى أبيات الحارث أشياءَ تحول دون ما ذهب إليه أبو جعفر النحاس من تقدير (بين مواضع العقيق فمواضع شخصين (٧٩)) ؛ إذ الحارث يتحدث فى هذه الأبيات عن نارٍ واحدة أوقدتها هند بين العقيق فشخصين بعُودٍ مما يُتَبَخَّر به ، وأنه تنوّر هذه النار من بعيد وهو بجبل خزاز فأطمعته نفسه فى اصطلائها ؛ لكنه استبعد ذلك لما تيقّنَ بعد النار عن مكانه؛ وليس بميسورٍ فى هذا المقام أن نتصور هندَ هذه المرأة الحبيب وقد أوقدت نارا بين منازل العقيق ، وانتقلت بعد ذلك مسرعة إلى منازل شخصين فأوقدت بينها نارا أخرى ؛ وأنّى لجارية ناعمة معشوقة أن تأتى ذلك ؟ بل فى أىّ مكانة مرذولة تضع هند نفسها إن فعلت ذلك ؟

ثُمّ أىُّ صِلاء اشتهته نفس الحارث واستبعده من فوره ؟ أهو صِلاءُ نار مجهولة مما أُوقد بين منازل العقيق فمنازل شخصين كما يريد لنا أبو جعفر أن نفهم ؟ أم صِلاءُ نار تحضرها هند - وقد عطّرتها ؛ ليمتع نفسه بالجلوس إليها أو قريبا من بيتها ؟ ! الواضح أنّ المعنى فى قول الحارث يقتضى أن نفسر (الفاء) فيه بمعنى (الواو) ؛ ليضاف الظرف (بين) إلى العقيق فشخصين فى وقت واحد دون ترتيب ، ولا تعقيب .

وإذا انتقلنا إلى قول الحارث نفسه فى المعلقة عينها :

إن نبشتُم ما بين ملحةَ فالصّا

قبِ فيه الأمواتُ والأحياءُ (٨٠)

- وجدنا ابن الأنبارى يشرحه بقوله : « إن نبشتم » معناه : إن أثَرتم ما كان بيننا وبينكم

فى الوقعات التى كانت بين مِلحةً فالصاقبِ - ظهـر عليكم مـا تكرهون من قـتلى قـتلنا لم تدركوا بثأرهم . والتقدير فيه : إن نبشتم ما بين أهلِ ملحةً فأهل الصاقب ،فحذف الأهل ، وأقام مِلحة ، والصاقب مُقامهم ، وملحة : مكان ، والصاقب : جبل [٨١] » .

فأبو بكر بن الأنبـاري الذى سكت عن التقدير فى قول الحارث قبل ذلك : « أوقدتها بين العقيق فشخصين » ؛ إذ فسّر (الفاء) فى ذلك القول بالواو - يعود إلى التقدير فى هذا البيت ، وهو من قول الشاعر نفسه والقصيدة عينها ! والحارث فى رأى ابن الأنبارى - إنما يتحدث عن قبور كثيرة أُقبر فيها القتلى بعضها بين أهلِ ملحةً ، وبعضها بين أهل الصاقب !! ويبدو لى أنّ أبا بكر لم يُمعن النظر فى قول الحارث : « ما بين ملحة فالصاقب » ؛ لأن (ما) حدُّ بين الشيئين » فيما نقل هو نفسه عن الفراء [٨٢] ؛ وهذا يعنى أنّ الحارث بن حلّزة إنما يتحدث فى هذا القول - عن مكان واحد محصور بين ملحة فالصاقب [٨٣] .

ومن أقوى الشواهد على فساد تقدير (بين أهل الدخول) - قول متممّ بن نُوَيْرة يرثى مالكا أخاه :

لقد لامنى عند القبور على البُكا
رفيقى لتَذْرافِ الدموعِ السَّوافكِ
فقال أتبكى كُلَّ قبرٍ رأيتَه
لقبرٍ ثوى بين اللِّوى فالدّوانكِ
فقلت له : إنّ الشجًا يبعث الشَّجاَ
فَدَعْنى ، فهذا كلُّه قبرُ مالكِ [٨٤]

فمتمم بن نويرة يذكر فى هذه الأبيات قبرا ثوى بين اللوى فالدوانك ؛ ولا يجوز لمفسر يُعنى بقراءة النصوص والإحاطة بمدلول ألفاظها أن يفسّر هذا القول إلا بأنّ مُتَمّما يُريد قبرا واحدا دُفن فيه أخوه مالك ؛ وأنّ هذا القبر معيَن محصور « بين اللوى فالدوانك » ؛ وأن فاء العطف فى هذا القول تفيد مطلق الجمع لا محالة .

وإذا كان ذلك كذلك فإنا لنعجب أشدّ العجب مما ذهب إليه أبو على المرزوقىّ ٤٢١ هـ فى أثناء شرحه لهذه الأبيات إذ قال : « يقول : استسرف رفيقى بكائى عند القبور ... فقال مُوبِّخا : أمن أجل قبولك بين اللّوى فالدوانك تبكى عند كل قبر تراه ؟ ... وقولُهُ : « بين اللّوى فالدوانك » : اكتفى (بين) باللّوى ، وهو مُسترقُ الرمل لوقوعه على أماكن مختلفة؛ ولما اكتفى به جاز أن يترتب عليه فالدوانك [٨٥] » .

فالمرزوقى بعد ما صرّح بانفراد قبر مالك فى قـولـه : « أمِن أجل قـبـرك بين اللّوى فالدوانك » – عـاد إلى التقـدير المحكىّ عن الفـراء ، فـقـال : « اكـتـفى (بين) باللّوى لوقوعـه على أماكن مختلفة (٨٦) » ؛ وكـأنّ المرزوقى يفسّر قـول متمّم بأنه يريد قـبرا بين أماكن اللّوى فقبرا بين أماكن الدوانك . وهذا كـلام إن صحّ فى رأى عـامـة من شـرح « بين الدخول فحومل » أن يردده ، فترديده متعذر فى شرح قول متّمم بن نُوَيرة ؛ إذ هو على يقين من انفراد قبر أخيه ، وانحصار مكانه ؛ وإن حادثة قـتلِ مالك بن نُويْرة مشهورة معلومة ؛ وشـأن الناس فى كل زمـان ومكان أن يُدفن الميّتُ منهم فى قبر واحد .

ومما تقدم يتبين لنا أنّ النحاة الذين يَرَوْن أنّ الفاء تفيد الترتيب فى الأمـاكن كـمـا هى فى الأشـخـاص – لا يصبـرون أنفسـهَم عن تقـدير مـضـاف إلى المكان الذى أُضـيف إليـه الظرف (بين) وعُطف عليـه مكان آخـر بالفـاء إذ بدا لهم أنّ المعنى يستقيم على هذا التقدير (٨٧) ؛ لكنهم يسكتون عن هذا التقدير أو التذكير به حين يَستعصى المعنى على تأويلهم (٨٨) ؛ وفى حين آخـر لا يبـالى الشـارح بالمعنى ومـا تدل عليـه الألفاظ ؛ بل يكتـفى بترديد مـا آل إليـه من تراث السلف ؛ سواء أكان حجة نحويّة أم تفسيرا (٨٩) .

أمّا من يذهب مـذهب الأخـفش والجـرمىّ ويرى أنّ (الفاء) فى عطف الأمـاكن بمعنى (الواو) ؛ فهو يفسّر أقوال الشعراء من مثل « بين الدخول فحومل » تفسيرا يوافق حقائق الحـيـاة ، وطبائع النفوس دون أن يحتـاج إلى تقدير مضاف يتعسر اتفاقه ومعنى القول تارة؛ أو يتعذر تارة أخرى .

ولو أنّ تلامـيـذ الأخـفش والجـرمىّ عنُوا بتأييد مذهبهم بأقوال فحول الشعراء كـالحارث ابن حلِّزة ، وسـلامـة بنِ جَنْدل ، وحسّانَ بنِ ثابت (٩٠) ؛ أو لو أنّهم عنُوا بالفـحص عن سـلامـة النَّسَق فى رواية الأصـمـعى « بين الدخول وحومل ... ... (٩١) » أو بإثبـات أنّ الأصمعىّ روى مثل هذا القول بالفاء أكثر من مرّة (٩٢) – لاستطاع أبو بكر الأنبـارىّ ، وأبو جعـفر النحاس ، ومن خلف من بعـدهمـا من النحـاة وشرّاح الشـعـر القـديم أن يُفـسّروا (الفاء) فى مثل «بين الدخول فحومل» تفسيرا صحيحا لا يخطئون فيه الفحول (٩٣) ، أو لا يَضطرهم فـيـه الاتّبـاع إلى إهمـال مـعـانى الألفاظ، وتوهم الكثرة فيما هو منفرد متوحّد (٩٤) .

اختصاص الفاء بعطف المكان

اختصاص (الفاء) بعطف المكان لإفادة مطلق الجمع :

لقد مضى وقت طويل كنت أظنّ فيه أن إشكال قول امرئ القيس : « بين الدخول فحومل » ينتهى بالانتصار لمذهب الأخفش ، وتقويته بتكثير أدلّته ، ورد حجج مخالفيه ؛ لكن وقع لى - وأنا مَعْنىٌّ بتحقيق هذا الغرض - معنى « لفاء العطف » أراه فات النحاة قبلا ، فلم يُبِن لأحد منهم ؛ ذلك أنّ الشاعر العربىّ القديم كان يختص (الفاء) بعطف المكان على المكان ؛ لتشرك بينهما فى الإعراب ؛ ولتجمع بينهما فى ملابسة الحدث جمعا مطلقا لا ترتيب فيه ولا تعقيب ؛ وبيان ذلك فيما يأتى :

يقول امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
سقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضحَ فالمقراةِ لم يعفُ رسمُها
لما نسجتها من جَنوب وشَمْألِ
ترى بَعَر الأرام فى عرصاتها
وقيعانها كأنّه حَبُّ فُلْفُلِ (٩٥)

ومن يتأمل هذه الأبيات يجد أنّ امرأ القيس قد استخدم الواو فى عطف " منزل " على " حبيب " ليجمع بينهما جمعا مطلقا فى إضافة « ذكرى » إليها ؛ وليشرك بينهما فى الإعراب ؛ وكذلك فعل فى عطف " شمأل " على " جنوب " و "قيعانها" على "عرصاتها " ؛ أمّا أسماء الأماكن فى قوله : « بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة » فقد اختصت (الفاء) بعطف بعضها على بعض ؛ أى لتجمع بينها جمعا مطلقا فى إضافة (بين) إليها ؛ ولتشرك بينها فى الإعراب ؛ وإلى ذلك ذهب أبو الحسن الأخفش ؛ وقد انتصرنا لقوله ، ورَدَدْنا حُجّةَ من خالفه (٩٦).

ويقول امرؤ القيس أيضا :

لمن الدّيارُ غشيتُها بسُحامِ
فعمايَتَيْنِ ، فهضب ذى أقدام
فصفا الأطيط ، فصاحتين فغاضد
تمشى النّعاجُ به مع الأرآمِ
دار لهندٍ ، والربّابِ ، وفرتنى
ولميسَ قبل حوادث الأيّامِ (٩٧)

ومن يتأمل هذه الأبيات يجد أيضا أن امرأ القيس قد استخدم الواو فى عطف بعض أعلام النساء على بعض فى قوله : « دارلهندٍ والربّابِ وفَرْتَنَى ولميسَ » ؛ أمّا أسماء الأماكن فى قوله : « غشيتُها بسحامٍ ،

فعمايتين ، فهضب ذى أقدام ، فصفا الأطيط، فصاحتَيْن ، فغاضر » فقد اختصت الفاء بعطف بعضها على بعض ؛ أعنى لتجمع بينها جمعا مطلقا فى أنّ الديار مستقرة بينها ؛ ولتشرك بينها فى الإعراب . وأما الترتيب بين هذه الأماكن فى ملابسة هذا الاستقرار فغرض لم يعتد الشعراء أن يعالجوه ، ولا نحسب امرأ القيس عُنِىَ به ؛ ومن ثَمّ قال الأعلم الشنتمرىّ فى شرح هذه الأبيات :

« وصف أنّ الدّيار التى غشيها مستقرة بين هذه المواضع (٩٨) » ؛ وإذا كانت هذه الأسماء لجبال قديمة النشأة ، أو أماكن فى حكمها قدْمة - كان استقرار ديار هؤلاء النسوة بين هذه الأماكن قد وقع وقوعا مطلقا من غير ترتيب ولا تفريق .

ويقول الحارث بن حلّزة :

آذنتْنا ببينها أسْماءُ

رُبّ ثاوٍ يُمَلّ منه الثّواءُ

بعد عهد لها بِبُرقة شمّا

ءَ ؛ فأدنى ديارها الخلصاءُ

فحياةٌ ، فالصّفاحُ ، فأعلى

ذى فِتاقٍ ، فعاذبٌ ، فالوفاءُ

فرياضُ القَطا فأوديةُ الشرْ

بُب ، فالشعبتان فالأبلاءُ

لا أرى من عهدت فيها فأبكى الـ

ـيوْمَ دَلْهاً ؛ وما يَردُّ البكاءُ (٩٩)

ومن يتأمل هذه الأبيات يجد أنَ الفاء فى قول الحارث : « أدنى ديارها الخَلصاء ، فحيّاةٌ ..» إلى قوله : « فالأبلاءُ » قد اختُصّتْ بعطف أسماء الأماكن بعضها على بعض ، وقد جمعت الفاء بين هذه الأماكن جمعا مطلقا فيما أخبر به الحارث عنها بقوله : « لا أرى من عهدت فيها (١٠٠) » ؛ ومثل هذا الخبر المنفىّ لا يُتصورّ أن يلابسه ترتيب ولا تعقيب .

ويقول الحارث أيضا :

أيّما خُطّة أردتُم فأدّو

ها إلينا ، تَمشى بها الأملاءُ

إن نَبَشْتُم ما بينَ ملحةَ فالصّا

قبِ ، فيه الأمواتُ والأحياءُ

أو نقشتم فالنقش تجشمُه النا

سُ وفيه الصّلاحُ ، والإبْراءُ (١٠١)

ومن يتأمل هذه الأبيات يجد أنَ الحارث قد استخدم الواو فى عطف « الأحياء » على «الأموات» وفى عطف « الإبراء » على «الصلاح» على حين اختُصت الفاءُ بعطف «الصاقب» على « ملحةَ » ؛ وهما من أسماء الأماكن ، وقد سبَقَ أن أثبتنا أنّ الفاء فى هذا القول تفيد الجمع المطلق بين معطوفيها ؛

« لأنَ (ما) حدٌ بين الشيئين » كما يقول الفراء [١٠٢] .

ويقول لبيد بن أبى ربيعة :

عفتِ الدِّيارُ محلُّها فمقامها
بمنىً ، تأبّدَ غولُها فرِجامُها
فمدافعُ الريانِ عُرّىَ رسمُها
خَلَقاً كما ضَمِنَ الوَحىٌ سلامُها
دِمَنٌ تجرّم بعدَ عَهْدِ أنيسِها
حججٌ خَلَوْنَ حلالُها وحرامُها
رُزِقت مرابيعَ النجُوم وصابَها
ودقُ الرّواعدِ ، جَوْدُها ودهامها
من كُلِّ ساريةٍ وغادٍ مُدْجنٍ
وعشيّةٍ متجاوبٍ إرزامُها
فعلا فروعُ الأيهُقان وأطْفَلَتْ
بالجَلْهَتَيْنِ ظِباؤُها ونَعامُها [١٠٣]

ومن يتأمّلْ هذه الأبيات يجد أنَ لبيداً قد استخدم الواو فى عطف « حرامها » على «حلالها » وفى عطف « رهامها » على «جودها» وفى عطف « غاد » على «سارية» وفى عطف « عشيّة » على "غاد" وفى عطف « نَعامها » على « ظباؤها » ؛ أما أسماء الأماكن فى قوله « تأبّد غولُها فرجامُها فمدافعُ الريّان » فقد اختصت الفاء بعطف بعضِها على بعض ؛ ولا ريب أنَ الفاء فى هذه الأبيات تفيد مطلق الجمع بين معطوفاتها فى التأبُّد ؛ إذ لا نحسَبُ أنَّ لبيدا كان عالما بترتيب تأبُّدِ هذه الأماكن حتى يُعْنَى بإنباء من يسمعُ قوله نبأ هذا الترتيب .

ويقول لبيدُ أيضا :

بل ما تذكّرُ من نَوَارَ وقد نأتْ
وتقطّعتْ أسبابُها ورِمامُها
مُرّيّةٌ ، حَلّتْا بفَيْدَ ، وجاوَرَتْ
أهلَ الحجازِ ، فأينَ منك مرامُها
بمشارقِ الجبلينِ أو بمُحَجّرٍ
فتضمنتهاقَرْدةٌ فرُخامُها
فصوائقٌ إن أيْمنَتْ ، فمظِنّةٌ
منها وِحافُ القَهْرِ أو طِلخامُها [١٠٤]

فَلبيدُ فى هذه الأبيات قد استخدم الواو فى فى عطف « رمامها » على « أسبابها » ؛ أمّا أسماء الأماكن فى قوله : « فتضمنتها قردةٌ فرخُامُها فصوائقٌ » فقد اختُصت الفاء بعطف بعضها على بعض ؛ والفاء هنا مفيدة مطلق الجمع ولا ريب ؛ وما ينبغى لمفسر أن يذهب إلى أنَّ الفاء فى هذا القول معناها الترتيب والتعقيب ؛ خصوصا ولبيد يبدو فى هذه الأبيات غير مُتَيقّن من شئون نوارَ التى تقطعت أسبابُها ورمامها »

ويقول النّابغةُ الذُّبيانى :

عفا ذو حُسىً من فَرْتَنَى فالفوارِعُ

فجنبا أريك فالتلاعُ الدوافعُ

فمجتمع الأشراجِ غيَّر رسمَها

مصايفُ مرَّتْ بعدنا ومرابِعُ

توهَّمْتُ آياتٍ لها فعرفتُها

لستَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

رمادٌ ككُحلِ العينِ لأياً أُبينُهُ

ونُؤْىٌ كجِذْمِ الحوضِ أثلمُ خاشِعُ (١٠٥)

فالنابغةُ قد استخدم فى هذه الأبيات - (الواو) فى عطف « مرابع » على «مصايف» وقد عنى بهما مطر الربيع ورياح الصيف (١٠٦) ؛ كذلك استخدم (الواو) فى عطف « نؤى » على « رماد » ؛ أمّا أسماء الأماكن فى قوله : « عفا ذو حُسىً من فرتنى فالفوارع فجنبا أريك فالتلاع الدوافع فمجتمع الأشراج » فقد اختُصَّت (الفاء) بعطف بعضها على بعض ؛ ومن الفضول أن نُعيد أنّ (الفاء) فى هذا القول تفيد مطلق الجمع كالواو (١٠٧).

ويقول زهير بن أبى سُلْمَى :

كأن كُورِى وأنساعى وميثَرتى

كَسَوْتُهُنَّ مُشَبّاً ناشطاً لَهِقاً

رعى بغيثٍ لأوراكٍ ، فناصفَةٍ

من الشّتاءِ فلما شَأْوُهُ نفقا

وقد يكونُ بها حينا تعزُّبُهُ

وقد تطرَّفَ من حافاتها أَنِقَا

عِشْرًا وخمسا فقد طابتْ مراتعهُ

من الربيع ؛ ولم يبدُن وقد زَهَقا

فسار منها على شَيْمٍ يؤمّ بها

جَنْبَى عمايةَ فالركّاءَ ، فالعُمَقَا (١٠٨)

ففى هذا القول يستخدم زُهَيْرٌ حرف (الواو) فى عطف " أنساعى " على « كُورى » وفى عطف « ميثَرتى » على « أنساعى » وفى عطف « خمسا » على « عِشرا » أما أسماء الأماكن فى قوله : « رعى بغيث لأوراكٍ فناصفةٍ » وقوله : « يؤمُّ بها جَنْبَىْ عماية فالركاءَ فالعُمقاَ »

فقد اختصت « الفاءُ » بعطف بعضها على بعض ؛ ولا ريب أنّ (الفاء) هنا تفيد مطلق الجمع دون الترتيب والتعقيب ؛ إذ زُهَيْرٌ يُصَوِّر ناقته ثوراً قد أشبَّ أولادا ، فهو يرعى بعض هذه الأماكن شتاء ، ويرعى بعضها الآخر ربيعا ؛ وما علمنا أنّ الثيران تقصد إلى ترتيب وتعقيب فى رعيها مواضعَ الكلأ فى الفصل الزمانى الواحد ؛ كذلك لا نحسَب زُهَيراً عُنِى بترصّد ذلك ووصفه ؛ إذ لا فائدة مرجوةً منه - فى رأينا .

ويقول زُهَيْرٌ أيضا :

عفا من آلِ فاطمة الجِواءُ

فيُمنٌ فالقوادمُ فالحِساءُ

فذُو هاشٍ فميثُ عُرَيْتِنَاتٍ

عَفَتْها الريحُ بعدك والسَّماءُ

فَذَروةُ فالجَنابُ كأن خُنَسَ النَّعاج

الطاويات بهــــا المُلاءُ (١٠٩)

فزُهَيْرٌ قد استخدم حرف (الواو) فى عطف «السمـاء» على « الريح » ؛ أمـا أسمـاء الأمـاكن فى قـوله : « عـفـا من آل فـاطمـة الجِواءُ فيُمْنٌ فالقوادمُ فالحِسَاءُ فذُوهاشٍ فَميثُ عُرَيْتِنَاتٍ ..... فَذَروةُ فالجناب » فقد اختصت (الفاء) بعطـف بعضهـا علـى بعــض ، و (الفــاء) هنا مــفــيــدة مطلق الجـمع بين معطوفاتها؛ إذ الوقوف على ترتيب عـفـوِّ هذه الأمـاكن صـعب مـتـعـذِّر ؛ وأنّى لزُهَيْرٍ أن يصبر على رصد ذلك لو أراده ؟

ويقول زُهَيْرٌ أيضا :

صحا القلبُ عن سَلْمىَ وأقصرَ باطلُه

وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا ورواحلُه

وأقْصرَ عمّا تعلمين ، وسُدِّدتْ

عَلَيَّ سوى قصد السبيل معادلُه

وقال العذارىَ إنَّما أنتَ عمُّنا

وكان الشبابُ كالخليط نزايلُهْ

فأصْبحْنَ ما يعرفنَ إلاَّ خليقتى

وإلا سوادَ الرأسِ والشيبُ شاملُهْ

لمن طَلَلٌ كالوحى عافٍ منازلُه

عَفَا الرسُّ منه ، فالرُّسَيْسُ فَعَاقله

فَقُفٌّ ، فصاراتٌ ، فأكنافُ مَنْعجٍ

فشرقيُّ سَلْمىَ ، حوضُهُ ، فأجاولُهْ

فَهَضْبٌ ، فرقدٌ ، فالطَّوِىُّ ، فتادقٌ

فوادى القنانِ ، حَزْنُهُ ، فمداخلُهْ (١١٠)

فزُهيرٌ فى هذه الأبيـات قد استخدم حرف (الواو) فى عطف « رواحله » على « أفراس الصبـا » ، وفى عطف « إلاّسـواد الرأس » على « إلاّخليقتى » ؛ أما أسماء الأرضين فى الأبيات - وهى أكثر من أن يعُاد ذكرها - فقد اختصت (الفاء) بعطف بعضها على بعض ؛ و (الفاء) هنا مفيدة مطلق الجمع لا محالة ؛ وما ينبغى لمن يَسمع قول زهير أن يتوهم أنه قصد إلى بيان الترتيب والتعقيب فى عُفُوِّ هذه الأمـاكن من طلل سلمى ؛ إذ هو أمر لا يستطيع زُهير سبيلا إلى معرفته ؛ وأنّى له أن يُنْبِئ نبأ ما لا يعرفُ ؟

ومما تقدّم يتبين لنا أنّ امرأ القيس ، والحارث بن حلِّزة ، ولبيد بن أبى ربيعة ، والنابغة الذُّبيانىّ ، وزهيرَ بن أبى سُلْمىَ - قد اختص كل منهم (الفـاء) دون (الواو) - بعطف المكان على المكان ليُشـرك بين المعطوف والمعطوف عليه فى ملابسة الحدث من غير

ترتيب ، ولا تعقيب .

وإذا كان ذلك كذلك صحّ لنا أن نجهر بقول لا نعلمُ أحداً سَبَقنا إليه : ذلك أنّ فاء العطف مختصة أصلا دون أختها (الواو) - بعطف المكان على المكان إذا أراد المتكلم أنْ يَضُمّ الآخِرَ إلى الأول ، ويجمعَهما فى ملابسة الحدث جمعا مطلقا ، لا ترتيب فيه ولا تعقيب .

ولو أنّ اختصاصَ (الفاء) بعطف المكان على المكان لتجمع بينهما فى مُلابسةِ الحدثِ جمعا مطلقا - تبيّن للنُّحاةِ قبلا ما توقّفوا على تعاقب عصورهم - فى قول امرئ القيس : «بين الدخول فحومل» ؛ وما استعانوا برواية الأصمعىّ : « بين الدخول وحومل » - وقد قام الدليل على فسادها .

هذا ؛ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

صبحى عبد المنعم سعيد

التعليـــــق

(١) أبو بشر - عَمرو بن عثمان بن قنبر - الملقب سيبويه ، كتاب سيبويه ، حـ ٤ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ = بولاق ، حـ ٢ ، ص ٣٠٤ .

(٢) نفسه ، حـ ١ هارون ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٣٤٨ = بولاق ، جـ ١ ص ٢١٨ .

(٣) نفسه ، حـ ٣ ، هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٤٢ = بولاق ، جـ ١ ، ص ٤٢٥ .

(٤) نفسه ، حـ ١ هارون ، ص ٤٢٩ = بولاق ، حـ ١ ، ٢١٣ .

(٥) انظر التعليق رقم (١) .

(٦) فسّر السيرا فى عبادة سيبويه « وإنما يقرو أحدَهما بعد الآخر » بقوله : «يريد : إنما يقرو المطر أحدهما بعد الآخر ، ومعنى يقرو : يتتبع»

انظر الحسن بن عبد الله السيرا فى ٣٦٨ هـ ، شرح كتاب سيبويه ، دار المخطوطات ، صنعاء حـ ١٠ ، ورقة ٤٠ / و ، مصورة خاصة منقولة عن مصورة معهد المخطوطات العربية ، الكويت .

(٧) أبو عُمر ، صالح بن إسحاق الجرمىّ . « أخذ أبو عُمر عن الأخفش وغيره ، ولقى يونس بن حبيب ، ولم يلق سيبويه »

انظر القفطى ، جمال الدين - على بن يوسف ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ، حـ ٢ ، دار الكتب ، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م ، ص ٨٠ - ٨٣ .

(٨) ابن عصفور الإشبيلىّ - أبو الحسن على بن مؤمن ٦٦٩ هـ ، شرح جمل الزجاجىّ ، تحقيق صاحب أبو جناح ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، بغداد ، ١٩٨٠ م ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ .

(٩) الحرف (لا) ساقط من المطبوع المحقق ، ووجوده ضرورة تقتضيها سلامة المادة العلمية المبثوثة فى النص .

(١٠) شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ، حـ ١ ، ص ٢٣٠ . وانظر أيضا : أبو محمد عبد الله بن هشام الأنصارىّ ٧٦١ هـ ، مغنى اللبيب عن كتب الأعاديب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجاريّة ، مطبعة المدنىّ ، القاهرة ، بدون ، جـ ١ ؛ ص ١٦١ وما بعدها.

(١١) العبارة بعض بيت امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللّوى بينَ الدخول وحومل

وهو مطلع معلّقته . انظر : أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارىّ ٣٢٨ هـ ، شرح القصائد السبع

الطوال الجاهليات ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ ، ص ١٥ .

(١٢) الهرويّ - على بن محمد ، كتاب الأذهيّة فى علم الحروف ، تحقيق عبد المعين الملوحى ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ، ص ٢٥٤ .

(١٣) انظر التعليق رقم (٧) .

(١٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة ، جـ ٢ ، ص ٣٦ - ٤٤ .

(١٥) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ١٥ - ٢٠ .

(١٦) نفسه ، ص ١٦ - ١٧ .

(١٧) الطبريّ - أبو جعفر محمد بن جرير ٣١٠ هـ ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، جـ ٢ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

وانظر أيضا : ابن خالويه - الحسين بن محمد ٣٧٠ هـ ، إعراب ثلاثين سورة ، تحقيق كرنكو ، دار الكتب - القاهرة ، ١٩٤١ ، ص ٤٦ .

(١٨) النحاس - أبو جعفر أحمد بن محمد ٣٣٨ هـ ، شرح القصائد التسع المشهورات، تحقيق أحمد خطاب ، مديرية الثقافة العامة - العراق، بغداد،١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م ، القسم الأول ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(١٩) انظر التعليق رقم (١) .

(٢٠) زاد أبو بكر الأنبارىّ على ما تقدم قوله : « وقال هشام بن معاوية : المعنى بسقط اللوى ما بين الدخول إلى حومل ، فأسقط . قال أبو بكر : وهذا خطأ فى قول الفراء ؛ لأنّ (ما) حدّ بين الشيئين فلا يجوز سقوطها . قال الفرّاء : من قال : (شربنا ما ذبالة فالثعلبية) على معنى ما بين زُبالة إلى الثعلبية - لم يُسقط (ما) ؛ لأنها الحدُّ بين الموضعين . وأنشد الفرآء لبعض بنى سليم : " يا أحسن الناسِ ما قرنا إلى قدم ولا حبالَ مُحبٍ واصل تصلُ أراد ما بين قرن إلى قدم ؛ ولا يجوز إسقاط (ما) لأنها حدٌّ بينهما » .

(٢١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٢٢) ابن منظور - جمال الدين بن المكرّم الأنصارىّ ٧١١ هـ ، لسان العرب ، مادة (بين) .

(٢٣) انظر التعليق رقم (١) .

(٢٤) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ١٩ .

(٢٥) انظر رقم (٢٠) .

(٢٦) الاستراباذىّ - رضىّ الدين محمد بن الحسن ٦٨٦ هـ شرح الكافية لابن الحاجب ، دار

الكتب العلمية - بيروت ، بدون ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٢٧) أبو محمد - عبد الله بن هشام الأنصاريّ ٧٦١ هـ ، أوضح المسالك إلى ألفيه ابن مالك ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، جـ ٣ ، دار إحياء التراث العربىّ ، بيروت ، ١٩٦٦ م ، ص ٤٠ - ٤٢ .

(٢٨) ابن هشام الأنصاريّ ، مغنى اللبيب ، جـ ١ ، ص ١٦١ - ١٦٢

(٢٩) الأشمونىّ - أبو الحسن علىّ نور الدين بن محمد بن عيسى ٩٢٩ هـ ، شرح الأشمونىّ على ألفيّة ابن مالك المسمّى منهج السالك إلى ألفيّة ابن مالك ، جـ ٣ ، دار جـ ٣ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ ، ص ٩٣ .

(٣٠) الرواية فى هذا القول : « وما هاج ... فرقان » ، والتصويب من ديوان امرئ القيس » تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٤ م ، ص ٣٤٥ .

(٣١) حاشية تحقيق أوضح المسالك إلى ألفيه ابن مالك ، جـ ٣ ، ص ٤١ .

(٣٢) انظر الصفحات ٧ - ١٠ من هذا البحث .

(٣٣) انظر الصفحتين ٥ - ٦ من هذا البحث .

(٣٤) انظر ص ٧ من هذا البحث .

(٣٥) انظر ص ٦ من هذا البحث .

(٣٦) انظر ص ٩ من هذا البحث .

(٣٧) ابن قاسم - الحسن المرادى ٧٤٩ هـ ، الجنى الدانى فى حروف المعانى ، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد فاضل ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م ، ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٧ .

(٣٨) انظر ص ٦ من هذا البحث .

(٣٩) انظر الصفحتين ٥ ، ٦ من هذا البحث .

(٤٠) المبرّد - أبو العباس محمد بن يزيد ٢٨٥ هـ ، الكتاب الكامل ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، جـ ١ ، نهضة مصر ، بدون ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٤١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ، جـ ٣ ، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤٢) السيرا فى - أبو سعيد الحسن بن عبد الله ٣٦٨ هـ ،كتاب أخبار النحوين البصريين ، تحقيق فريتس كرنكو ، بيروت ، ١٩٣٦م،ص٩٣.

(٤٣) ديوان امرئ القيس ، ص ٧ - ٨ .

(٤٤) ديوان امرئ القيس ، ص ٨ ؛ وص ١ حيث ذكر المحقق أنّ هذا الشعر رواية الأصمعىّ من نسخة الأعلم .

(٤٥) ديوان امرئ القيس ، ص ٨ ، وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص٢٠ وشرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات،صنعة ابن النحاس ٣٣٨ هـ ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م ، ص ٤ ، وغير ذلك كثير .

(٤٦) المبرد – أبو العباس محمد بن يزيد ٢٨٥ هـ المقتضب ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، جـ ١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٩٩ ه ، هـ ص ١١ حسب الأصل المخطوط .

(٤٧) نفسه .

(٤٨) انظر التعليق ص ٤٥ ؛ خصوصا ديوان امرئ القيس ، ص ٣٦٧ حيث يقول محمد أبو الفضل محقق الرواية : فى غير الأعلم والبَطْلَيَوْسى : « فحومل » بالفاء » .

(٤٩) ديوان امرئ القيس ، ص ٣٤٥ .

(٥٠) البيت مطلع قصيدة من ذيادات نسخة السكّرىّ . انظر ديوان امرئ القيس ص ٣٣٧ ؛ ثم انظر ص ١٧ من مقدمة محقق الديوان .

(٥١) انظر ترجمته التى كتبها أحمد شاكر وعبد السلام هارون فى حاشية المفضلية ٢٢ من ديوان المفضليات ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٩ م ، ص ١١٩ .

(٥٢) أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْبْ ٢١٦ هـ الأصمعيات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ ، ص ١٣٢ .

(٥٣) نفسه .

(٥٤) نفسه .

(٥٥) السّكرىّ – أبو سعيد الحسن بن الحسين ، كتاب شرح أشعار الهذليين ، تحقيق عبد الستار فراج ، مراجعة محمود شاكر ، دار العروبة ، القاهرة جـ ١ ، ١١٢ . وانظر أيضا مقدمة السكرىّ لشعر أبى ذؤيب ، ص ٣ من المرجع نفسه .

(٥٦) الكتاب الكامل ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٥٧) أبو محمد الأنبارىّ – القاسم محمد بن بشار ، شرح ديوان المفضليات ، تحقيق كادلوس يعقوب لايل ، بيروت ، ١٩٢٠ ، ص ٢٤٥ .

(٥٨) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ٤٣٧ – ٤٣٩ وشرح القصائد المشهورات ، جـ ٢ ، ص ٥٣ – ٥٥ ، وقد روى أبو جعفر « بين العقيق فشخصين » بالفاء ؛ لكنه قال فى الشرح : « ورواية الأصمعى بالواو » .

(٥٩) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ٤٦٦ وشرح القصائد المشهورات ، جـ ٢ ، ص ٦٧

(٦٠) الأصمعيات ، ص ٣٢ .

(٦١) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق . د سيد حنفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٦٢) نفسه ، ص ١٤٩ .

(٦٣) نفسه ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٦٤) نفسه ، ص ٢٧٩ ؛ والبيت الأول هناك « لمن الديار » والوزن يطلب ما أثبتناه .

(٦٥) نفسه ، ص ٣٢٢ ؛ والشطر الثانى من البيت الأول صورته فى المتن : « بين أعلا اليرموك فالخمّان » وقد أثبتنا رواية الحاشية المنقولة عن الأغانى ومعجم البلدان ثقة بها ؛ كذلك سكتنا عن إثبات رواية المتن : « تلك دار العزيز بعد أنيس » وأثبتنا بدلا منها رواية فى الحاشية منقولة عن ابن عساكر .

(٦٦) انظر التعليق رقم (١٨) .

(٦٧) الأذهيّة ، ص ٢٥٤ .

(٦٨) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ١٩ .

(٦٩) شرح القصائد التسع المشهورات ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٧٠) انظر ما تشير إليه التعليقات ١ - ٤ .

(٧١) المرجع قبل السابق .

(٧٢) انظر ص ٦ وما بعدها من هذا البحث .

(٧٣) الهروىّ ، كتاب الأذهيّة ، ص ٢٥٤ .

(٧٤) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ٤٣٧ - ٤٣٩ .

(٧٥) شرح القصائد المشهورات ، جـ ٢ ، ٥٤ - ٥٥ .

(٧٦) انظر شرح الأنبارى لهذه الأبيات ، والتعليق عليه فيما يلى بعد .

(٧٧) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ٤٣٧ - ٤٣٩ .

(٧٨) نفسه ، ص ١٥ - ٢٠ .

(٧٩) شرح القصائد المشهورات ، جـ ٢ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٨٠) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ٤٦٦ .

(٨١) نفسه .

(٨٢) نفسه ، ص ٢٠ .

(٨٣) فى شرح القصائد المشهورات ، جـ ٢ ، ص ٦٧ يقول أبو جعفر النحاس فى شرح قول الحارث : إن نبشتم ما بين ملحة فالصاقب فيه الأموات والأحياء (« ملحة والصاقب » موضعان ؛ أى إن ذكرتم الأموات الذين قتلوا بين هذين الموضعين ... » فالنحاس يبدو من خلال هذه العبارة أنه فسر الفاء بالواو ؛ لكنه بدأ الشرح بقوله : « ملحة والصاقب » وهذه العبارة قد تفيد أن الرواية التى شرحها النحاس هى بالواو لا بالفاء ؛ ومن أجل ذلك آثرنا السكوت عن ذكر تفسير النحاس ومناقشته .

(٨٤) المرزوقى - أبو على أحمد بن محمد الحسن ٤٢١ هـ ، شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، القسم الثانى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٧٩٧ .

(٨٥) المرجع السابق ، ص ٧٩٧ - ٧٩٨ .

(٨٦) نفسه .

(٨٧) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ١٥ - ٢٠ وشرح القصائد التسع المشهورات ، القسم الأول ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٨٨) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ٤٣٧ - ٤٣٩ .

(٨٩) انظر ما أشار إليه التعليق رقم (١) وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ١٥ - ٢٠ وشرح القصائد السبع المشهورات ، القسم الأول ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، وشرح ديوان الحماسة ، القسم الثانى ، ص ٧٩٧ - ٧٩٨ .

(٩٠) انظر ما كتب قبلا فى هذا البحث تحت عنوان « تكرار الشاعر قوله : بين كذا فكذا من الأمكنة » .

(٩١) انظر ما كتب قبلا تحت عنوان « رد رواية بين الدخول وحومل » .

(٩٢) نفسه .

(٩٣) انظر الصفحات ٥ - ١٠ من هذا البحث .

(٩٤) انظر ص ١٧ - ١٨ من هذا البحث .

(٩٥) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ١٥ - ٢٠ .

(٩٦) انظر ص ٤ من هذا البحث وما بعدها .

(٩٧) ديوان امرئ القيس ، ص ١٥ .

(٩٨) نفسه .

(٩٩) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ٤٣٣ - ٤٣٦ وشرح القصائد المشهورات ، جـ ٢ ص ٥٢ - ٥٣ .

(١٠٠) يبدو لى أنّ الوجهَ - إعرابُ « أدنى ديارها » مبتدأ و « الخلصاء » بدلا منه ؛ وقول الحارث : « لا أرى من عهدت فيها » خبرا للمبتدأ ؛ والفاء فى قوله « فأدنى ديارها » عاطفة لجملة « أدنى ديارها الخلصاء فحياة ... فالأبلاء - لا أرى من عهدت فيها » - على جملة : « آذنتنا ببينها أسماء ؛ وهذا الرأى مستفاد من شرح الأنبارىّ والنحاس للبيت الأخير ؛ إذ قال الأنبارىّ : « يقول لا أرى من عهدت من أحبابى فى هذه المنازل فأنا اليوم أبكى شوقا إليهم » وإذ قال النحاس : « قوله : " فيها " : يعنى فى هذه المواضع ، وقوله : " فأبكى اليوم " ... خبر أنه يبكى كما خبَّر أنه لا يرى من عهدها فيها " والسببيّة واضحة فى هذه الفاء ؛ لتعلّق ما بعدها بما قبلها ، إذ تسبَّب عن تبيُّنِ أسماء انعدام رؤية الحارث مَن عهد من أحبابه فى هذه الديار . هذا ، وقد سكتنا عما قاله الشارحان فى تفسير « فأدنى ديارها الخلصاء » لاختلافه قليلا عما قدمناه ونراه الوجه . فانظره . انظر ما أشير إليه من المراجع فى التعليق السابق ، وانظر أيضا محمد عبد الخالق عضيمة ، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ، الجزء الثانى ، مطبعة السعادة ، بدون ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ (١٠١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ٤٦٤ - ٤٦٨ .

(١٠٢) المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(١٠٣) نفسه ، ص ٥١٧ - ٥٢٤ .

(١٠٤) نفسه ، ص ٥٣٢ - ٥٣٥ .

(١٠٥) ديوان النابغة الذبيانى ، « القسم الأول - رواية الأصمعى من نسخة الأعلم » ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ ، ص ٣٠ .

(١٠٦) نفسه .

(١٠٧) انظر شرح جمل الزجاجى لابن عصفور الإشبيلىّ ، جـ ١ ، ص ٣٠ حيث قال : « واستدل الجرمى على أنها لا ترتّب فى الأماكن بقول النابغة : « عفا ذو حسىً من فَرْتَنى فالفوارع ... »

(١٠٨) شرح ديوان زهير بن أبى سُلمَى ، صنعة الإمام أبى العباس أحمد بن يحيى - ثعلب ، طبعة معمودة عن طبعة دار الكتب ، ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م ، الدار القوميّة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤م ، ص ٤٢ - ٤٥ . ويلاحظ أنّ محققى الديوان يرون احتمال أنّ كلمة « أوراك » قد تكون محرفة عن « أورال » أو « أوران » .

(١٠٩) المرجع السابق ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(١١٠) نفسه ، ص ١٢٤ - ١٢٧ . هذا والشواهد على اختصاص (الفاء) بعطف الأماكن لإفادة مطلق الجمع - شائعة مستفيضة فى شعر زهير ؛ ومن شاء نظرها فى شرح الديوان . والله أعلم .

الرقم	المراجـــــــع
١	الأصمعيات ، الأصمعيّ - أبو سعيد عبد الملك بن قُريب ٢١٦ هـ ، تحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .
٢	إعراب ثلاثين سورة ، الحسين بن خالوية ٣٧٠ هـ ، تحقيق ڤريتس كرنكو ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤١ م .
٣	إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطيّ - جمال الدين على بن يوسف ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب المصرية ، ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م .
٤	أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك ، أبو محمد - عبد الله بن هشام الأنصارى ٧٦١ هـ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربيّ بيروت ، ١٩٦٦ م .
٥	جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، الطبريّ - أبو جعفر محمد بن جرير ٣١٠ هـ ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية .
٦	الجنىّ الدانى في حروف المعانى ، ابن قاسم - الحسن المرادىّ ٧٤٩ هـ ، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد فاضل ، دار الآوقاف ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م .
٧	حاشية تحقيق أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٩٦٦ م .
٨	حاشية تحقيق ديوان المفضّليات ، أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٩ م .
٩	دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، عضيمة - محمد عبد الخالق ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، بدون .
١٠	ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٤ م .
١١	ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق سيد حنفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .
١٢	ديوان النابغة الذُّبيانيّ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ م .
١٣	شرح الأشمونيّ على ألفية ابن مالك المسمّى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ، الأشمونّى - أبو الحسن علىّ نور الدين بن محمد بن عيسى ٩٢٩ هـ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .

المراجـــــــع	الرقم
شرح جُمل الزَّجاجيّ ، ابن عصفور الإشبيليّ – أبو الحسن علي بن مؤمن ٦٦٩ هـ ، تحقيق " صاحب أبو جناح " ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، بغداد ، ١٩٨٠ م	١٤
شرح ديوان الحماسة ، المرزوقيّ – أبو عليّ أحمد بن الحسن ٤٢١ هـ ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .	١٥
شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى ، صنعة الإمام أحمد بن يحيى – ثعلب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٣ م = ١٩٤٤ م .	١٦
شرح ديوان المفضليات . أبو محمد الأنباريّ – القاسم محمد بن بشار ، تحقيق كارلوس يعقوب لايل ، بيروت ، ١٩٢٠ م .	١٧
شرح القصائد التسع المشهورات ، النحاس – أبو جعفر أحمد بن محمد ٣٣٨ هـ ، تحقيق أحمد خطاب ، مديرية الثقافة العامة بغداد ، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م وقد استعنت بطبعة أخرى لهذا الكتاب عنوانها : شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات ، بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .	١٨
شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، الأنباريّ – أبو بكر محمد بن القاسم ٣٢٨ هـ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ .	١٩
شرح الكافية لابن الحاجب ، الاستراباذيّ – رضيّ الدين محمد بن الحسن ٦٨٦ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون .	٢٠
شرح كتاب سيبويه ، السيرافي ، الحسن بن عبد الله ٣٦٨ هـ ، دار المخطوطات ، صنعاء ، مصورة خاصة منقولة عن مصورة معهد المخطوطات العربية – الكويت .	٢١
كتاب أخبار النحويين البصريين ، السيرافي – أبو سعيد الحسن بن عبد الله ٣٦٨ هـ ، تحقيق فريتس كرنكو ، بيروت ، ١٩٣٦ م .	٢٢
كتاب الأزهية في علم الحروف ، الهرويّ – علي بن محمد ، تحقيق عبد المعين الملوحي ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .	٢٣
كتاب سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ١٨٠ هـ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .	٢٤
كتاب شرح أشعار الهذليين ، السُكريّ – أبو سعيد الحسن ، تحقيق عبد الستار فراج ، مراجعة محمود شاكر ، دار العروبة ، القاهرة .	٢٥
الكتاب الكامل ، أبو العباس محمد بن يزيد ٢٨٥ هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، نهضة	٢٦

المراجـــــع	الرقم
مصر ، القاهرة ، بدون .	
لسان العرب ، ابن منظور – جمال الدين محمد بن مكرّم بن على ٧١١ هـ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ م .	٢٧
مغنى اللبيب عن كتب الأعاديب ، ابن هشام – جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصارىّ المصرىّ ٧٦١ هـ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، بدون .	٢٨
المقتضب ، المبّرد – أبو العباس محمد بن يزيد ٢٨٥ هـ ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ .	٢٩

الموصول

فى اللغات:

العربية والعبرية والسريانية

للدكتورة زاكية محمد رشدى

معنى الموصول :

معنى الموصول هو ما افتقر إلى كلام بعده تصله به ليتم اسما ، فاذا تم بما بعده كان حكمه حكم سائر الأسماء التامه فيجوز ، أن يقع فاعلا ومفعولا ، ومضافا إليه ، ومبتدأ وخبرا ، فنقول « نجح الذى ذاكر دروسه » فموضع الذى رفع على أنه فاعل ، ونقول « ضربت الذى قام أبوه » فموضعه نصب لكونه مفعولا ، ونقول « جاءنى غلام الذى فى الدار » فيكون الذى فى موضع خبر بإضافة الغلام ، ونقول « الذى فى الدار زيد » فيكون الذى فى موضع رفع مبتدأ ، ونقول « زيد الذى أبوه قائم » فيكون الذى فى موضع رفع خبر المبتدأ .

لفظ الموصول :

١ — فى العربية : الذى للمذكر المفرد واللذان للمثنى والذين للجمع واللائى واللاءون فى الرفع واللائين فى الجر والنصب ، والتى للمفرد المؤنث واللتان للمثنى واللائى واللات واللاى واللواتى للجمع .

أما الذى فيكون للمذكر العاقل ولغيره فمثال الأول قوله تعالى « أهذا الذى بعث الله رسولا »(١).

ومثال الثانى قوله تعالى : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » .(٢)

ومنزلة الذى وحده منزلة حرف من ، الكلمة من حيث كان لا يفهم معناه إلا بضم ما بعده إليه فصار من مقدماته ولذلك كان الموصول مبنياً ، فالموصول وحده لفظ إسم ناقص أى ناقص الدلاله ، وفيه أربع لغات .

---

١ — سورة الفرقان آية ٤١   ٢ — الإسراء آية ١

١ – الذى بياء ساكنه وهو الأصل فيها .

٢ – اللذِ – بكسر الذال من غير ياء كأنهم حذفوا الياء تخفيفاً ، إذ كانت الكسرة قبلها تدل عليها وذلك كقولهم يا صاحبِ اجتزاء بها عن الياء .

٣ – اللذْ – بسكون الذال ومجازه أنهم عندما حذفوا الياء اجتزاء بالكسره منها اسكنوا الذال للوقف ثم أجروا الوصل مجرى الوقف كما قال الشاعر :

مثل الحريق صادف القصبا
والتين والحلفاء فالتهبا

والشاهد فيه أنه لما اضطر حرك ماكان ساكنا فى الأصل .

٤ – الذىّ بتشديد الياء للمبالغة فى الصفة كما قالوا أحمرىّ واصفرىّ وكما قيل الدهر بالإنسان دوّارى وجاء فى القاموس (« والدهر دوّاريه ودوّارى دائر ») .

أصل الذى

يذهب البصريون إلى أن أصل الذى هو لذِ كعمٍ وشجٍ فاللام فاء الكلمة والذال عينها والياء لامها .

ويذهب الكوفيون إلى أن أصلها الذال وحدها وماعداها زائد فأصل الذى كأصل هذا ، وهذا عندهم أصله الذال وحدها فجوهرهما واحد وإنما يفترقان بحسب مايلحقهما من الزيادات المختلفة لاختلاف معنيهما واحتجوا بذلك بأن قالوا رأينا الياء تسقط فى التثنية نحو قولك اللذان واللذين .

وذهب بعض النحويين إلى أن الألف واللام فى الذى زائدة للتعريف كما فى الرجل والغلام ، والذى عليه المحققون إنهما زائدتان والمراد بهما لفظ التعريف لامعناه .

ورأى (ابن يعيش) أنهما ليستا لمعنى التعريف ، ويدلل على ذلك بقوله :

١ – (أن الألف واللام فى الموصولات جاءت لازمه زيادة لازمه ولام التعريف لا نعرفها لازمه ، بل يجوز اسقاطها نحو الرجل والغلام ورجل وغلام ، ولم نجد أنهم قالوا لذ كما قالوا غلام فلما خالفت ماعليه نظائرها دل على أنها زائدة لغير معنى التعريف كما يزاد غيرها من الحروف .

٢ – كثير من الأسماء الموصولة معراة من الألف واللام وهى مع ذلك معرفة وهى من وما وأى نحو قولك « ضربت من أخطأ » و « أخذت ما أعطيتنى » و « ولأكرمن أيهم فى الدار » .

فكل هذه معارف ولا ألف ولام فيها كما كانتا فى الذى وإنما تعرفها بما بعدها من صلاتها ، وإذا ثبت أن الصلة معرفة لم يكن الألف واللام فيما دخلا فيه من الموصولات معرفة أيضاً لأن الاسم لا يتعرف من جهتين مختلفتين ، وإذا ثبت أن الألف واللام ، لايفيدان هنا التعريف كانت زيادتهما لضرب من إصلاح اللفظ) .

وتوجد بالإضافة إلى الذى أدوات أخرى استعملها العرب مثل :

ذو ، فان قبيلة طيء تقول ، هذا ذو قال ذاك » : يريدون الذى قال ذاك وهى مبنية : وتكون ذو بالواو دائماً فى حالة الرفع والنصب والجر وتستعمل للمفرد والجمع بنوعيه :

ذا : وتستعمل كاسم موصول بشرط دخول ما أو من الاستفهاميتين عليها كما قال الشاعر :

وقصيدة تأتى الملوك غريبة
قد قلتها ليقال : من ذا قالها؟

أى من الذى قالها ؟

ويضاف إلى ما تقدم الألف واللام فتكون موصولة بمعنى الذى فى الصفة نحو اسم الفاعل واسم المفعول فنقول هذا الضارب زيدا والمراد الذى ضرب زيدا وهذا المضروب والمراد الذى ضُرب أو يُضرب ، كما تدخل على الفعل فى مثل

« ما أنت بالحكم التُرْضى حكومته
ولا الأصيل ولاذو الرأى والجدل »

ونادراً ما يستخدم اسم الإشارة فى التعبير عن الموصول مثل :

عدَس ما لعباد عليك إمارة
أمنت وهذا تحملين طليق

(أى والذى تحملين طليق) وهو شاذ عند البصريين .

وهناك أسماء موصولة أخرى مثل أى وما ومن » :

٢ — فى السريانيه :

أما فى السريانيه فقد استخدموا الدال (ܕ) للتعبير عن الموصول بعد أن ضعفت دلالتها الإشارية : وهى تلزم هذه الصورة مع المفرد والجمع مذكراً ومؤنثاً مثل :

ܕܠܐ ܫܡܥܢ ܐܕܢܘܗܝ ܗܘ ܚܪܫܐ

أى الذى لا تسمع أذناه هو برى (أفراطس ٢٨١ ـ٥) ،

ܡܕܝܢܝܐ ܕܐܝܬܝܗܘܢ ܒܢܝ̈ ܩܛܘܪܐ

أى المدينيون الذين هم أبناء قطورة (أفراطس ٢١١ ـ٤) ،

ܡܠܬܐ ܕܐܠܗܐ ܕܩܒܠܬ

أى كلمة الله التى تقبلها (أفريم ١٦٦ —٩) ،

ܒܝܫܬܐ ܘܚܛܗ̈ܐ ܐܝܠܝܢ ܕܠܐ ܡܫܟܚܝܢ ܟܬܒ̈ܐ ܠܡܚܘܝܘ ܐܢܝܢ

أى الشرور والآثام التى لا تستطيع الكتب أن تظهرها : (أفراطس ٣٤٣ — ١٨) :

وعند دخول أداة الموصول هذه على حرف الجر المتصل بضمير الملك تظهر بينهما ياء فتقول :

ܕܝܠܝ ، ܕܝܠܟ ، ܕܝܠܟܝ ، ܕܝܠܗ ،
ܕܝܠܗ̇ ، ܕܝܠܢ ، ܕܝܠܟܘܢ ،
ܕܝܠܟܝܢ ، ܕܝܠܗܘܢ ، ܕܝܠܗܝܢ

٣ — فى العبرية :

ولفظ الموصول فى العبرية هو عبارة عن الكلمة المبنية אֲשֶׁר (١) وهو يلزم صورة واحدة مع الإفراد والجمع والتذكير والتأنيث ويستعمل للعاقل وغيره فهو للعاقل فى مثل :

לְכוּ שׁוּבוּ אֶל הַמֶּלֶךְ אֲשֶׁר שָׁלַח אֶתְכֶם

أى اذهبوا راجعين إلى الملك الذى أرسلكم (ملوك ثانى : ١ — ٦) ولغير العاقل مثل הַמִּטָּה אֲשֶׁר עָלִיתָ שָּׁם

أى السرير الذى صعدت عليه (ملوك ثانى : ١ — ٤) وذلك فى المفرد . أما فى الجمع للعاقل فمثل :

בְּנֵי הַנְּבִיאִים אֲשֶׁר בִּירִיחוֹ

أى بنو الأنبياء الذين فى أريحا (ملوك ثانى : ٢ — ٥) ولغير العاقل فى مثل

כָּל־יְמֵי־אָדָם אֲשֶׁר חַי

أى فكانت كل أيام آدم التى عاشها (التكوين : ٥ — ٥)

وإلى جانب אֲשֶׁר نجد أن الكتب المتأخرة قد استخدمت صورة مختصرة منها وهى الشين فقط (שֶׁ) فنجدها فى فى الجامعة والمزامير وأخبار الأيام وعزرا والقضاة وغيرها مثل :

כַּחוֹל שֶׁעַל־שְׂפַת הַיָּם לָרֹב

أى كالرمل الذى على شاطىء البحر فى الكثرة (القضاة : ٧ — ١٣) ؛ ونادراً ما نجدها שַׁ مثل

עַד שַׁקַּמְתִּי דְּבוֹרָה

حتى قمت أنا دبوره (القضاة : ٥-٧) وجاءت مرة واحدة שָׁ وذلك قبل الألف فى القضاة ٦—١٧ وعموماً فهى تأتى שֶׁ قبل حروف الحلق שֶׁ قبل الهاء كما فى الجامعة ٣ — ١٨

ومثل ضمير الإشارة الأصلى אֲשֶׁר توجد أيضاً أسماء اشارة أخرى تستعمل كاسم موصول وهى זֶה ، זוֹ ، זוּ والأخيرة هى الشائعة فمثال

---

(١) مازال اشتقاق كلمه אֲשֶׁר محلا للبحث أ — هل تتصل بالكلمه العربية أثر والآرامية التى بمعنى الأثر والمكان ؟ ولكن نولدكه يرى أنه من الصعب أن تتطور كلمة أثر لتصبح اسما موصولا .

ب — هل هى عبارة عن عدة جذور ضميرية ؟ ولكن هومل يرى أنها اسم أصيل يتميز عن שֶׁ ، שַׁ (وهى من الجذور الضميرية) . وتستخدم فى العبرية كروابط للموصول وتتميز عن (זה ، זו اللذين يستعملان فى بعض الأحيان) .

ج — هل هى ضمير إشارة أصلى ؟

דֶה : לִוְיָתָן דֶה יָצַרְתָּ

أى لفياتان هذا خلقته ليلعب فيه (المزامير ١٠٤ — ٢٦) ومثال : דוֹ :

בְּרִיתִי וְעֵדֹתִי דוֹ אֲלַמְּדֵם

أن حفظ بنوك عهدى وشهاداتى التى أعلمهم إياها (المزامير ١٣٢—١٢)

ومثال דוּ :

הֲלוֹא יְהוָה דוּ חָטָאנוּ לוֹ

أى أليس الرب الذى أخطأنا إليه (اشعيا ٤٢—٢٤)

وتستعمل أداة التعريف وهى الهاء הַ — للموصول كما نرى فى المثال الآتى

כֹּל הַהִקְדִּישׁ שְׁמוּאֵל أى كل الذى قدسه صمويل (أخبار الأيام الأول ٢٦ — ٢٨ ، ٢٩ — ١٧ ، عزرا ٨—٢٥ ، ١٠ — ١٧)

جملة الصلة :

قلنا فى معنى الموصول انه هو ما افتقر إلى كلام بعده تصله به ليتم اسما : وهذا الكلام هو عبارة عن جملة الصلة ، وتشترك اللغات الثلاث فى ضرورة وجود هذه الجملة :

العائد :

ويشترط أن تشتمل جملة الصلة على عائد يعود منها إلى الموصول ويكون مطابقاً له فى الإفراد والجمع والتذكير والتأنيث وأصله أن يكون ضمير غيبة : وقد يعدل عنه إلى ضمير المتكلم أو المخاطب إذا كان الموصول نعتا لضمير متكلم أو مخاطب أو خبرا عنه ، وذلك مشاهد فى اللغات الثلاث : وقد جاء فى العربية للمتكلم فى قول على كرم الله وجهه :

أنا الذى سمتن أمى حيدره
ضرغام آجام وليث قسوره

والأصل أن يقول (سمته)

وفى مثل :

وأنا الذى قتّلت بكرا بالقنا
وتركت تغلب غير ذات سنام

والأصل أن يقول قتّل ويكون الضمير للغائب :

وكذلك إذا كان الموصول أو موصوفه خبرا عن مخاطب ويأتى الضمير للخطاب مثل (أنت الرجل الذى قلت كذا)

وأصله أن يقول أنت الرجل الذى قال كذا أى أن يكون الضمير للغائب : وقد يحل الظاهر محل الضمير العائد كقول الشاعر :

سعاد التى أضناك حب سعادا
وإعراضها عنك استمر وزادا

فسعاد الثانية بدل الضمير أى حبها :

لكون ذلك أنكره كثير من العلماء وقالوا لا يجوز إلا للضرورة الشعرية :

وينطبق هذا الكلام على اللغة العبريه كذلك . فجاء الضمير للمتكلم فى مثل

אשר מכרתם אתי أى أنا

يوسف الذى بعتمونى (التكوين ٤٥-٤) والأصل أن تكون אתו أى بعتموه(١).

وجاء الضمير للمخاطب فى مثل

יעקב אשר בחרתיך

أى يعقوب الذى اخترتك (اشعيا ٤١—٨) فقال اخترتك والأصل أن تكون בחרתיו أى اخترته(٢).

وكما عدل عن ضمير الغيبة بضمير المتكلم أو المخاطب فى اللغتين العربية والعبرية كذلك عدل بهما عنه فى اللغة السريانية كما فى مثل

ܐܦ ܐܢܐ ܕܚܙܝܬܘܢ ܐܝܬܝ ܗܘ

أى وأنا أيضاً الذى ترونى وأصله أن يقول (ترونه) ومثل

ܐܢܐ ܚܒܝܒ ܕܒܥܝܬܘܢ

أى أناحبيب الذى تبحثون عنى والأصل أنيقول ، (تبحثون عنه) (القصة السريانية ص٩٠) ومثل

ܐܢܬܘܢ ܐܢܘܢ ܕܦܫ ܪܝܚܗܘܢ
ܒܟܠ ܐܬܪܘܢ

أى أنتم الذى فاح عرفكم فى كل مكان والأصل أن يقال (عرفهم) ،

ܐܢܬ ܗܘ ܕܐܘܕܥܬܢ

أى أنت الذى أخبرتنا والأصل أن يقال (أخبرنا) (أفريم ٤٩٢) :

حذف العائد :

كثر فى العربية حذف العائد من الصلة حتى صار قياسا ، وليس حذفها دون إثباتها فى الحسن ، وقد جاء الأمران فى قوله تعالى : « أهذا الذى بعث الله رسولا » والمراد (بعثه) : وقال فى موضع آخر (كالذى يتخبطه الشيطان من المس) (٣) فأتى بالعائد وهو الهاء فى (يتخبطه)

ولا يحذف هذا العائد إلا بشروط ثلاثة

١ — أن يكون ضميرا منصوباً لاضميرا مرفوعاً ولا مجرورا ، لأن المفعول كالفضلة فى الكلام والمستغنى عنه :

٢ — أن يكون العائد متصلا لا منفصلا لكثرة حروف المنفصل .

٣ — أن يكون على حذفه دليل وذلك أن يكون ضميرا واحداً لابد للصلة منه فتقول (الذى ضربت زيد) فتحذف العائد الذى هو الهاء لأن « الكلام والصلة » لا يتم إلا بتقديره ولو قلت (الذى ضربته

(١) أنظر العدد ٢٢ — ٣٠ ، اشعيا ٤٩ — ٢٣

(٢) أنظر ارميا ٣٢—١٩ ، التكوين ١٥—٧

(٣) البقرة آيه ٢٧٥

فى داره زيد) لم يجز حذف الهاء لأن الصلة تتم بدونه فلا يكون فى اللفظ مايدل عليه كذلك فى السريانية نجد حذف الضمير العائد يتمثل فى الآتى :

١ — إذا كان مفعولا للشيء مثل

ܡܠܬܐ ܕܐܠܗܐ ܕܩܒܠܬ

أى كلمة الله التى تقبلها (أفريم ١٦٦ — ٩)

ܚܘ̈ܒܐ ܘܣܟܠܘ̈ܬܐ ܕܐܘܠܕ ܗܘ ܐܒܕܢܐ

أى الشرور والآثام التى أوجد (ها) الضياع (أفريم ١٧٩ — ١٨)

٢ — إذا كان العائد مجرورا بحرف : ويشترط دخول الحرف حينئذ على صاحب الموصول مالم يكن الباء الظرفية وصاحب الموصول اسم زمان فلا يشترط دخولها فالأول مثل

ܒܕܘܟܬܐ ܗܝ ܕܐܬܟܠܠܘ

أى فى الموضع الذى كُلّلوا فيه

ܠܒܝܬܐ ܕܥܐܠܝܢ

أى البيت الذى تدخلون (٨) . والثانى نحو

ܒܗܘ ܝܘܡܐ ܕܙܩܦܘܗܝ

أى اليوم الذى صلبوه (فيه) .

ܥܕܡܐ ܠܫܢܬܐ ܐܪܒܥܝܬܐ ܕܫܠܝܡܘܢ ܡܠܟܐ ܕܫܪܝ ܠܡܒܢܝܘ

أى إلى السنة. الرابعة للملك سليمان التى ابتدأ (فيها) ببناء :

ونادرا ما يحذف العائد إذا كان التابع اسم فاعل أو اسم مفعول كما فى مثل

ܛܒܬܐ ܗܝ ܕܥܝܕܐ ܗܘܬ ܠܡܬܠ

أى الطيبة التى تعود أن يمنحها (أفريم ٢٠٥—١٩) فنجد أن اسم الفاعل ܥܝܕܐ خال من الضمير :

وفى العبرية يحذف العائد كذلك فى المواضع الآتية :

١ — أن يكون مفعولا للشيء كما فى

أ مثل מְלַאכְתּוֹ אֲשֶׁר עָשָׂה

أى عمله الذى عمل (التكوين ٢—٢)

ب والأصل أن تكون

עֲשָׂהוּ أو עָשָׂה אֹתוֹ

٢ — حينما يكون ضميرا منفصلا يمثل حالة الفاعلية فى الجملة الاسمية مثل

הַמַּיִם אֲשֶׁר מִתַּחַת לָרָקִיעַ

أى المياه التى (هى) من تحت الجلد (التكوين ١—٧) والأصل أن تكون

אֲשֶׁר הֵם

٣ — ويلاحظ الحذف الغالب للضمير العائد حين يكون المسند الخاص بالجملة الوصفية هو فعل القول مثل אֲשֶׁר אָמַר יְהוָה אֹתוֹ אֶתֵּן לָכֶם أى الذى قال الرب أعطيكم إياه (العدد ١٠—٢٩) (١)

٤ — حينما تضاف الجملة البدلية إلى ظرف مكان يحذف الضمير العائد كما فى مثل כִּי כָל-הַיָּמִים אֲשֶׁר בֶּן-יִשַׁי חַי أى لأن كل الأيام التى يعيش (فيها) ابن يسّى (٢)

بعد هذا العرض الذى قدمنا نخلص بالنتائج الآتية :

١ — أصل لفظ الموصول فى اللغة السامية الأم هو على الأرجح الذال والياء فإذا نظرنا إلى اللغة العربية وجدنا أن لفظ الموصول (الذى) هو عبارة عن الذال والياء ، أما (ال) فقد دخلت عليهما — كما يقول النحاة — لمعنى التعريف أو للفظه أو هى زيادة للتحسين .

وإذا كنا نرى أن لفظ الموصول فى اللغة السريانية هو الذال فقط فليس معنى هذا أنه لاتوجد ياء فى الأصل ؛ بل يؤيد كلامى السابق — وهو أن لفظ الموصول فى اللغة السريانية الأم هو الذال والياء — وجودهما معا فى حالة دخول لفظ الموصول على حرف الجر المتصل بضمير الملك — كما ذكرنا آنفا .. فى مثل

ܕܝܠܝ ، ܕܝܠܟ ، ܕܝܠܗܘܢ الخ

وربما تكون قد سقطت هذه الياء فى فترة قديمة من فترات تطور اللغة السريانية وبذلك انفردت الذال فى التعبير عن الموصول فى هذه اللغة .

أما فى اللغة العبرية فنجد أن من الألفاظ المستعملة للموصول זֶה ، זוֹ ، זוּ وهى كما نرى تشترك مع العربية والسريانية فى حرف الذال ، وكما أن التطور اللغوى من السامية الأم إلى السريانية أدى إلى سقوط الياء فكذلك نرجح أنه فى العصور الأولى لتطور اللغة من السامية الأم إلى العبرية قد سقطت الياء ، ثم ألحقت بدلا منها الهاء أو الواو كحركة مد فى فترة تلت الفترة الأولى

وهذا الكلام ينطبق أيضاً على لفظى الموصول فى العربية (ذا ، ذو)

٢ — تشترك العربية والعبرية فى استخدام أداة التعريف للتعبير عن الموصول ، أما السريانية فلا تستخدمها حيث تختلف فى

---

(١) أنظر كذلك العدد ١٤ ، صموئيل الأول ١٧٩ ، ملوك أول ٢٩٨

(٢) أنظر كذلك التكوين ٦٤٥، التثنية ٤٦١ ، ٧٩ ، ملوك أول ٤٤١١

المفرد عنها فى الجمع وهى فيها تلحق الاسم بخلاف العربية والعبرية فهى فيهما سابقة عليه :

٣ — تشترك السريانية والعبرية فى أن لفظ الموصول كان يستخدم فى البداية للدلالة على الإشارة ثم استخدم للموصول بعد أن ضعفت دلالته الإشارية . وأرى أن لفظ الموصول فى العربية يندرج تحت هذا القول حيث أن الأصل فى الحالين (الإشارة والموصول) واحد وهو الذال ، وحيث أننا نرى أن اسم الإشارة فى بعض الحالات يعبر عن الموصول كما فى (أمنت وهذا تحملين طليق) :

٤ — تشترك اللغات الثلاث فى وجوب وجود جملة للصلة ليكتمل المعنى بها ، وأن تشتمل تلك الجملة على عائد يعود على الموصول ويكون مطابقاً له فى الإفراد والجمع والتذكير والتأنيث ، كما تشترك أيضاً فى وجوب أن يكون العائد ضمير غيبة وكلها قد تستثنى هذا الشرط وتعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم أو المخاطب .

وأخيراً نجد أن تلك اللغات تشترك فى حذفها العائد تبعاً للشروط التى ذكرناها آنفاً :

أهم المراجع

1. Brockelmann Grundriss der vergleiche nden Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin, 1908.

2. Gesenius, Hebraische grammatik, Leipzig, 1899.

3. Noldeke, Syriae Grammar, Translated from German by, Crichton, London, 1904.

— أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى

— المفصل — القاهرة — مكتبة الخانجى ١٣٢٣ هـ

— جمال الدين بن محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصارى ، أوضح المسالك إلى ألفيه ابن مالك — القاهرة — دار الكتب العربية ١٣٣٤ هـ :

— محمد بن مالك الطائى — شرح ابن عقيل على متن ألفيه ابن مالك — القاهرة — مطبعة السعادة ١٣٤١ هـ

زاكية محمد رشدى

التراث اللغوي وكلمة "حتى" عندنا وعند غيرنا

للدكتور عمر فروخ

أحب أن أبدأ هذا البحث بدءا خفيفاً في ظاهره .

حينما أبدأ ، في أول العام المدرسي ، درس « تاريخ العلوم عند العرب » في الصف الأعلى من كلية الآداب وفي الصف الأعلى من المرحلة الثانوية – أبدأ بالجملة التالية:

ليس هنالك علم عربي وعلم غير عربي . هنالك علم واحد ، وهنالك فلسفة واحدة : علم وفلسفة إنسانيان ؛ ولكننا نحن نقول : علم يوناني وفلسفة يونانية لذلك العلم ولهذه الفلسفة المدونين بلغة يونانية .

إن فيثاغورس اليوناني (ت ٥٠٣ق .م) يقول عن نفسه ؛ إنه أخذ كتاب توصية من التورانس (الحاكم المستبد) في جزيرة ساموس إلى فرعون أحمس الخامس (٥٧٠ – ٥٢٦ ق . م) حتى يستطيع أن يدخل إلى الهياكل ويتعلم من الكهنة المصريين . ثم إن الشكل الهندسي المشهور باسم « نظرية فيثاغورس » ، ولفظه : « إن مساحة المربع المنصوب على وتر المثلث القائم الزاوية مساو لمجموع مساحتي المربعين المنصوبين على الضلعين الباقيين من ذلك المثلث » ، إنما هو نظرية أشورية أقدم من فيثاغورس ، وكانت تعرف عند الأشوريين باسم نظرية السلم . إن السلم المستند إلى جدار يمثل وتر المثلث القائم الزاوية . ثم إن الجدار الذي يستند إليه السلم وسطح الأرض الذي يقوم عليه ذلك السلم يلتقيان عند قاعدة الجدار على زاوية نفرضها زاوية قائمة .

وكذلك إذا أنا وصلت في علوم التعاليم أو العلوم العددية (وهي التي تسمى عندنا الرياضيات ، وفي مصر تدعى الرياضة) ثم انتهيت إلى الكلام على الغناء أو الموسيقى قلت أيضا : ليس هنالك موسيقى عربية ثم موسيقى أجنبية عن العرب . هنالك موسيقى فحسب، إنك إذا شددت وترا على لوح من خشب رقيق ثم نقرته وأنت في مدينة بيروت مثلا ، وبعدئذ حملت هذا الوتر المشدود على ذلك اللوح إلى الصين ونقرته هنالك كما كنت قد نقرته

(*) ألقي البحث في الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ٨ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٣ من مارس ١٩٨٢ م

فى مدينة بيروت ، فهل يختلف نغمه ذلك من نغمه فى مدينة بيروت ؟

والقول الصواب : إن هنالك أنغاما ألفها العرب فسميت أنغاما وألحانا عربية ، بينما ألف الهنود أنغاما وألحانا أخرى ناشئة من نقر الوتر الواحد فسميت ألحانا هندية . وليس هذا القول قولى أنا ، بل هو قول قد ورد فى رسائل إخوان الصفا . أما المثل الذى أريد أنا أن أقدمه فهو : أن جماعات من العرب أنفسهم قد أصبحوا يألفون ألحانا كانت تسمى أجنبية من فرنسية وإنكليزية وأميركية وزنجية ، ثم أخذوا يرقصون عليها أو يطربون لها طربا أكثر مما كانوا يطربون لألحان قالوا عنها من قبل إنها عربية ، وقد أحب موسيقار مشهور أن يفتخر فذكر — أو ذكر قوم عنه — أنه «يطعم» أغانيه بألحان يونانية . غير أن هذه الألحان التى سموها يونانية لا يمكن أن تلائم الأغانى العربية إنما هى فى الأكثر ، وفى حالها الراهنة ، قد تحدرت من ألحان تركية تحدرت هى بدورها من ألحان فارسية متأثرة بالغناء العربى الإسلامى .

ثم أرانى أكاد أقول : ليس هنالك لغة عربية ولغة غير عربية . هنالك لغة واحدة مرت فى كل أمة فى ثلاثة أطوار من الطور الأول الطبيعى المنطقى والقائم على الحركات والأصوات إلى الطور الثانى الاجتماعى الذى أخذ فيه كل قوم يجعلون لتلك الحركات ولتلك الأصوات الأولى معانى لم تكن لها فى الطور الأول . ثم يأتى الطور الثالث الغنائى أو الموسيقى حينما يحاول الناس أن يغلبوا سهولة اللفظ أو عذوبته على القاعدة الحازمة ، إذا كان فى تلك القاعدة الحازمة شىء من الجفاف أو من العسر أو التنافر فى اللفظ .

وفيما يلى عدد من الأمثلة على غاية من الإيجاز :

١ — من الطور الأول الطبيعى المنطقى :

لا يزال كثير من الناس إذا التقوا بأناس آخرين — وكان بعضهم لا يعرف لغة بعضهم الآخر — حاولوا أن يتفاهموا بعدد من الحركات (كما يتفاهم الخرس فيما بينهم فيقصون أخبارا وحكايات أو يعالجون أمور السياسة بطريقة تدعو الناس القادرين على النطق إلى شىء كثير من العجب) . وكذلك لا يزال عندنا جميعا بقايا من تلك الأصوات فى طورها القديم يتفاهم بها الصغار والكبار ، كأصوات الزجر والحض والاستحسان والاستهجان وما إلى ذلك . وأحب هنا أن أذكر من لغة الصغار صوت «نن» أو «ننى» بمعنى الطعام . ولفظ «نان» (بألف مفخمة) يدل على الخبز فى اللغة الفارسية .

٢ — من الطور الثانى الاجتماعى :

حينما يطالع أحدنا شيئا من اللغات الشمالية فى أوروبة (كالدانمركية والأسوجية والنروجية) وهى لغات لم تفترق إلا

فى مطلع القرن العشـرين للميلاد — يجد أنها لا تكاد تفترق إلا فى أشياء يسيرة من صيغ الكلمات ثم فى كثرة الإعراب فى بعضها أو قلته فى بعضها الآخر — أما السبب الأساسى فى افتراقها ؛ فإنما جاء من العنصر الاجتماعى الذى جعل للصوت الواحد فيها من قبل أوجها مختلفة من الأداء عند التلفظ بها .

ويجدر بالعرب أن يشكروا الله تعالى على أن عندهم « لاما » للتعريف واحدة تدخل على الاسم المذكر وعلى الاسم المؤنث فى الإفراد وفى الجمع . ومع ذلك فإن نفرا منا لا يستطيعون أحيانا أن يفرقوا بين اللام القمرية واللام الشمسية . أما إذا نحن أتينا إلى اللغة الآيسلندية — تلك الجزيرة المتطرفة فى الشمال الغربى من قارة أوروبة — فإن أداة التعريف وحدها تحتاج عندهم إلى كتاب كامل .

فى اللغة الإنكليزية أداة واحدة للتعريف فى صورة هجائها ، ولكن لها لفظين : لفظا إذا هى سبقت اسما يبدأ بحرف صحيح ثم لفظا آخر إذا هى سبقت اسما يبدأ بحرف علة . وفى اللغة الفرنسية ثلاث أدوات للتعريف : واحدة تدخل على الاسم المذكر المفرد وثانية تدخل على الاسم المؤنث المفرد وثالثة تدخل على الاسم إذا كان جمعا . ثم تكثر مشاكل لام التعريف فى اللغة الفرنسية إذا هى دخلت على اسم يبدأ بحرف علة أو بالهاء . ولكلمة عظم (مفرد عظام) فى اللغة الفرنسية مشكلة قائمة بنفسها ؛ كيف نلفظها إذا سبقتها أداة تنكير أو أداة تعريف ثم كانت هى مفردا أو جمعا .

وفى الإيطالية نحو عشرة أشكال لأداة التعريف لا أخوض الآن فى أوجه الاختلاف بينها .

أما إذا نحن وصلنا إلى أداة التعريف فى اللغة الألمانية فحدث عن الأرض والبحر والجو ولا حرج . إن أداة التعريف فى اللغة الألمانية تتقلب فى صور كثيرة لتلائم الاسم الذى يأتى بعدها فى أحواله المختلفة إذا كان مذكرا أو مؤنثا أو مفردا أو إذا كان جمعا . ونعود إلى هذا الاسم نفسه لنراه من حيث إعرابه : فى حالة الرفع أو النصب أو الجر أو الإضافة ، ففى اللغـة العربية إعراب واحد للاسم المجرور وللاسم المضاف إليه ، أما فى الألمانية فللجر علامة وللإضافة علامة أخرى . ثم تبدو فى ذلك كله مشكلتان أخريان : إن حركة الجر فى الاسم المؤنث المجرور غير الحركة التى تظهر على الاسم المذكر المجرور ثم تختلف أواخر الكلمات (فى تلك الأحوال المختلفة من الإعراب والتصريف) عند التنكير وعند التعريف . وأنا لا أريد أن أطيل عليكم حتى أستوفى الكلام على ثمان وأربعين حالة للام التعريف فى اللغة الألمانية . ومع ذلك فإن الطفل الألمانى لا يشكو من النحو فى لغته ، كما يشكو اليوم نفر من كبرائنا من النحو العربى . ولقد أخذ نفر من العرب — مع

الأسف الشديد — يجرون الأسماء الخمسة أو بعض الأسماء الخمسة، مجرى واحدا فى الإعراب. ونحن نشكر الله على أنهم لم يعرفوا الاسم السادس.!

وفى هذا الطور الثانى الاجتماعى افترقت معانى الكلمات باختلاف مواطن المتكلمين فأصبح لكل لفظ عند كل قوم معنى مستقل إن لفظة « بور» العربية الدالة على الأرض غير المزروعة تدل فى اللغة الهولندية على «الفلاّح» (بتشديد اللام) وكذلك لفظة« نور» التى تدل فى اللغة العربية على الضوء والضياء واللمعان تدل فى اللغة الألمانية على الاكتفاء ويقابلها فى العربية كلمة « فقط» وفى الألمانية لفظ هو شبايت (بترقيق الفتحة على الشين وتسكين الياء والتاء : spät) ومعناه «التأخّر» يدل فى اللغة الألبانية (بالباء مكان الميم) على الاستعجال (طلب السرعة من الآخرين).

واللفظ « تير» يدل فى الإنكليزية على «الدمع» وفى الألمانية على «الحيوان» وفى الفرنسية على « إطلاق النار« وعلى »الجذب » وعلى غير ذلك. « والريم » فى اللغة العربية هو الغزال الأبيض والمحبوب الجميل، كما قال شوقى :

ريم على القاع بين البان والعلَم
أحلّ سفك دمى فى الأشهر الحُرُم

أما فى الفرنسية فإن كلمة « ريم » معناها « القافية » (فى الشعر) والاستشهاد على هذا الباب من اللفظ الواحد فى اللغات المختلفة شرحه يطول.

غير أنى أحب أن أورد هنا اختلاف المفسرين فى موقفهم من عدد من الكلمات وردت فى القرآن الكريم، أعربية هى أم غير عربية، مثل : درهم، دينار، قنطار عليّون، كرسىّ، جهنم. إن نفرا من المفسرين جمعوا بين المذهبين فقالوا : هى كلمات غير عربية فى الأصل، ولكن لما جرت على اللسان العربى فى صيغ عربية أصبحت عربية كالكلمات العربية الأصيلة سواء بسواء.

٣ — من الطور الثالث الفنائى أو الموسيقى :

ولما استقرت اللغة على قواعدها المنطقية الطبيعية (فى طورها الأول) ثم على المعانى الاجتماعية للكلمات (فى طورها الثانى) — وهذا ما نسميه « مجازا» ، كإطلاق لفظ «الشمس» مثلا على المرأة الجميلة، وهو فى المعجم اسم للجرم السماوىّ المنير الذى نراه من أرضنا نهارا — وجد العرب فى لغتهم العربية، كما وجد آخرون فى لغاتهم أن عددا من القواعد المنطقية يفقد اللغة شيئا من السهولة فى اللفظ ومن العذوبة عند التكلم، فلجأوا إلى قوانين الغناء أو قواعد الموسيقى يطبقونها على كلامهم ثم يخالفون فى ذلك منطق العقول فى سبيل جمال الألفاظ.

إن الإيطاليين يحبّون تضعيف الحروف فهم يقولون مثلا : فتّوريا مكان فيكتوريا ويقولون فتّورا (مكان فكتور factur

الفرنسية) ، ونحن نقول في هذه الكلمة في اللغة العربية : « فاتورة » وأحسب أن الكاف لا تأتي قبل التاء في كلمة إيطالية بينما عدد من اللغات كالفرنسية والإنكليزية والأسبانية يتقبل توالى هذين الحرفين بالرضا .

وعندنا ، نحن العرب ، في الصرف والنحو أبواب عناوينها : الإدغام والإعلال والإبدال والممنوع من الصرف ثم نصب جمع المؤنث السالم بالكسرة بدل الفتحة . ومن الحق أن تجمع هذه الأحوال كلها في باب واحد يسمى « باب الموسيقى في اللغة » .

نحن نقول ، مثلا : ضَرَبَ يضرب وعرض يعرض ونزل ينزل وقصد يقصد . ولقد كان من الحق أن نقول : رَمَيَ يرميُ — كما يقول الأحباش — ولكننا اخترنا أن نقول : رمى يرمِي . ثم نحن نعترف أو نقر على أنفسنا بأن عملنا هذا الذى هو « إعفاء الياء من الحركة الخاصة بها » إنما هو لاستثقال الضمة والكسرة خاصة على الياء . نحن نقول مثلا : لن يَرْمِيَ ، ولكننا لا نقول : رَمَيَ . وكذلك نقول : لم يستحيِ ، ولا نقول لم يَرْمِيْ كيلا نجمع في هذه الكلمة ياء وسكونا (أى مداً ووقفا أو حركة قصيرة على حركة طويلة كما يقول نفر من الدارسين باللغات الأجنبية) كل هذا لا تفسير له منطقياً إلا أن نقول إن العرب يستسهلون ذلك .

وأريد أن آتي هنا بمثلين على ذلك من القرآن الكريم :

أولا — إن كلمة « أشياء » ممنوعة من الصرف . واختلف علماء النحو في تعليل ذلك المنع من الصرف في « أشياء » اختلافا كبيرا ، ثم لم يأتوا في جدالهم الطويل بكلام مقنع .

إن هذه الكلمة « أشياء » وردت في القرآن الكريم مفردة غير مضافة مرّة واحدة في قوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . . » (٥ : ١٠٤ سورة المائدة)، ورأيي أن هذه الكلمة منعت هنا من الصرف للموسيقى فقط . ولو أننا صرفناها في هذا الموضع لوجب أن نقول : «.. عن أشياءٍ إن ...»فتتوالى في هذا التعبير القصير ثلاث نونات ساكنة . وهذا يسمى في علم التجويد « الأنأنة» (كما كانوا يقولون لنا ونحن صغار) ، وهذا مكروه في القراءة .

وأصبح منع كلمة أشياء في هذا الموضع من القرآن الكريم قاعدة أو إضافة على القاعدة في الأصح ، فقال المقنع الكندى (وهو شاعر إسلامى متقدم ، قبل أيام عبد الملك بن مروان قبل سنة ٦٥ للهجرة — ٦٨٥ للميلاد) :

يعاتبني في الدين قومي ، وإنما
ديُونيَ في أشياء تُكسبهم حمدا

ثانيا — تبدأ سورة « الشمس» من القرآن الكريم (ذات الرقم ٩١ في المصحف) بقوله تعالى (بعد البسملة) : |

«والشمس وضحاها — والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها . . (إلى قوله تعالى :

ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها كذبت ثمود بطغواها . . . »

ولو أن الآيات الثلاث الأخيرة ، وردت فى النسق التالى :

قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسسها . كذبت ثمود بطغواها .

لاختلف السجع ثم جاءت أربع عشرة آية على قافية مؤسسة (يسبق على رويها – على الهاء فى تلك القافية – ألف) وآية واحدة فى ذلك غير مؤسسة . فأبدلت السين الثانية فى كلمة « دسّسها » ألفاً للتخفيف ، كما قالوا ، أى مجاراة للقوافى الباقية ، أى للموسيقى .

ونأتى الآن إلى « كلمة حتى » .

منذ حين جرى ، فى إحدى جلسات هذا المجمع ، بحث فى تركيب شاع استعماله على أقلام نفر من المعاصرين لنا وتقع فيه كلمة « حتى » وقوعا عده نفر منا غريبا فى الاستعمال الفصيح . وذلك مثل قولهم : جاء القوم حتى كبارهم .

ومن متابعة النظر فى هذا الاستعمال فى عدد من الكتب الحديثة وفى الصحف ندرك أن هذا الاستعمال ، فى تركيبه الحاضر ، والذى عده نفر منا غريبا وخاطئا ، إنما جاء من النقل (أى من الترجمة) عن اللغة الإنكليزية لكلمة « even » ومن الغريب فعلا أن تكون اللفظة الإنكليزية «even» واللفظة العربية « حتى » تتقاربان فى أمور كثيرة . فلنبدأ بالكلام على اللفظة الإنكليزية :

من الغريب حقا أن يكون علماء اللغة الإنكليزية قد وقفوا من كلمة « even » موقفا شبيها جدا بموقف الحريصين منا على صفاء اللغة العربية من كلمة « حتى » فقد جاء فى معجم أوكسفورد الكبير (٣ : ٣٣٣ – ٣٣٦) نحو ثلاث صفحات ونصف صفحة من القطع الكبير وبالحرف الدقيق ، وكان مما فيها مايلى :

كثر ورود هذه اللفظة فى الكتب الحديثة وفى تعابير بعيدة عن الاستعمال القديم المألوف ، وهو استعمال يشبه وجها من وجوه استعمال كلمة même فى اللغة الفرنسية . هذا التعبير (الإنكليزى) الحديث يحمل معنى هو «ذكر حالة متطرفة من حكم عام» ، كقولنا مثلا :

« فلان يجادل حتى فى الحقائق البادية للعيان » .

هذا التعبير (الإنكليزى) ليس موجوداً فى اللغات التيوتونية ، أى فى اللغات الألمانية والهولندية والدنمركية وأخواتها . إن اللفظ نفسه موجود فى اللغة الألمانية ، ولكنه يستعمل استعمالا فصيحاً وفى غير المعنى المقصود من الاستعمال الحديث فى اللغة الإنكليزية . ففى الألمانية والهولندية تستعمل اللفظة « eben » اسماً وصفة للدلالة على الاستواء (كاستواء صفحة الجدار ، مثلا) كما تستعمل ظرفاً بمعنى « الآن » أو « حديثاً » (فى الوقت الحاضر) .

واعتراض علماء اللغة من الإنكليز على هذه اللفظة « even » أنها تستعمل فى الكتب الحديثة على أنها « حرف ابتداء » .

أما الذى دعانى إلى عقد هذا الفصل — مع مقدمته الطويلة — فيما يتعلق بتراثنا اللغوى أو بالتراث اللغوى عامة ، أننا نجد نفراً من الكتاب المعاصرين لنا يستعملون لفظة « حتى » حرف جر أو حرف نصب (أو حرف جر ينتصب الفعل المضارع بعده بأن مضمرة) ثم يستعملونه أيضاً « حرف ابتداء » على غرار ما يرد عليه هذا الحرف فى اللغة الإنكليزية .

* * *

ولعل علماء اللغة من الإنكليز لم يكونوا على حق حينما قالوا : إن هذا الاستعمال لكلمة « even » حديث عندهم ، فلقد ورد هذا التعبير عند شكسبير (فى مطلع حياة اللغة الإنكليزية ستمائة وأربعا وعشرين مرة ، وكان فيها أمثلة كثيرة تشبه الاستعمال الحديث لتلك الكلمة عندهم . ثم إننا نجد هـــذا الاستعمال نفسه اثنتى عشرة مرة فى الترجمة الإنكليزية للتوراة والإنجيل) .

ولا أرى فائدة من إيراد الجمل الإنكليزية هنا . ولكن من المفيد أن نعلم أن هذه الكلمة الإنكليزية المقابلة لكلمة « حتى » (فى استعمالها المتأخر عن القرآن الكريم عندنا) يمكن أن يحل محلها عندهم : مع أن — لو أن — ولا سيما .

* * *

ونعود إلى كلمة « حتى » عندنا .

هذه الكلمة كانت محيرة للفراء يحيى ابن زياد (ت ٢٠٧ هـ) شيخ النحاة الكوفيين حتى قال — أو روى عنه أنه قال — : أموت وفى نفسى شىء من « حتى » .

ولفظ « حتى » عربى يقابله فى السريانية « عدامو » ، وتكون عند السريان ، كما تكون عندنا أيضاً ، حرف عطف وحرف جر .

(ا) فإذا كانت حرف عطف (لاسم على اسم ، لا لفعل على فعـــل ولا لجملة على جملة) وجب أن يكون بعضها جزءاً مما قبلها ، نحو : « مات الناس حتى الأنبياء » (لأن الأنبياء جزء من الناس) .

(ب) أما إذا كانت « حتى » حرف جر وجب أن يكون للدلالة على الانتهاء إلى غاية . فلا يجوز مثلا أن يقال : « سرت الليل إلى نصفه » (لأن نصفه داخل فى الليل الذى ذكرت أنك سرته) . ولكنك تقول : سرت الليل إلى الفجر (لأن الليل ينتهى بطلوع الفجر) .

أما فى اللغة العربية فإن استعمال « حتى » أوسع مدى .

كلمة حتى فى الاعصر المتوالية :

فى الجاهلية :

لقد مررت ببصرى على المعلقات السبع (كما جمعها الزوزنى) وعلى ديوان بشر ابن أبى خازم (بتحقيق عزة حسن — ونشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى دمشق) وعلى ديوان عروة بن الورد (بتحقيق عبد المعين المالوحى — ونشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، دمشق) وعلى ديوان الأعشى (بشرح محمد محمد حسين — المكتب الشرقى للنشر والتوزيع ، بيروت ١٣٨٨ هـ — عام ١٩٦٨ م) . ويجدر بمن يريد التوسع فى هذا الموضوع أن يرجع إلى ما تبقى من الشعر الجاهلى فى غير هذه الكتب التى ذكرتها هنا .

* تأتى « حتى » فى الشعر الجاهلى حرف جر بمعنى « إلى أن » :

— فمن ذلك أنها تدخل على الفعل الماضى مطلقاً ، فقد قال امرؤ القيس فى معلّقته :

ففاضت دموع العين منى صبابة
على النحر حتى بل دمعى محملى

وقال بشر بن أبى خازم (ديوانه ١٨٤) :

ولقــد خبطن بنى تميم خبطة
. . . .
حتى ســقيناهم بكأس مرة
مكروهة حُسُواتُها كالعــلقم

— كما تأتى مقيدّة بالحرف « إذا » على أنه أداة شرط ، وعليه قول زهير فى معلقته :

رعوا ظمأهم حتى إذا تم أوردوا
غماراً تفرّى بالسلاح وبالدم

ويبدو أن دخول « حتى » على « إذا » الشرطية كثير ، فقد وردت مراراً فى معلقة لبيد ، من ذلك مثلا ، قوله :

حتى إذا سلخا جُمــادى ستة
جزْأً فطـــال صيامه وصيامهـا

ومثل ذلك قول الأعشى (ديوانه ٦٧) :

حتى إذ لمع الدليل بثوبه
سُقِيت وصَبّ رواتُها أشوالهـا

— وكذلك تدخل حتى على الفعل الماضى المقيّد بإذا الشرطية التى تليها « ما » الزمانية ، كقول الأعشى (الديوان ٢٩١) :

ركَدت عليه يومَهـــا
شمس بحــرٍّ شِهـابهـــا
حتى إذا مـــا أُوقِـــدت
فالجمـــر مثل ترابهـــا
كلّفـــت عـــانسة أمـــو
نـــاً فى نشـــاط هبـــابهـــا

وتدخل « حتى » على الفعل المضارع فينتصب بعدها بحرف النصب المضمر «أن ». قال عمرو بن كلثوم فى معلّقته :

ورثنـــا المجـــد قد علمت معـــدّ
نطـــاعن دونه حتى يبينـــا

وقال عروة بن الورد (الديوان ٣٠) :

وإن جارتى ألْوَتْ رياح ببيتها
تغافلت حتى يستر البيتَ جانبُه

وكذلك قال بشر بن أبى خازم (الديوان ص ٥٧) يخاطب ناقته :

لما تخالجت الأهواء قلت لها :
حق عليك دُؤوبُ الليل والسّهدُ
حتى تزورى بنى بدر فإنهم
شُمّ العرانين لا سود ولا جُعُدُ

وقال الأعشى فى الغزل (الديوان ص ١٧٥ — ١٧٧) :

لو أسندت مَيْتاً إلى نحرها
عاش ولم ينقل إلى قابر
حتى يقولَ الناس ، مما رأوا :
يا عجباً للميِّت الناشر

* وتدخل « حتى » على الحرف المشبه بالفعل « كأن » . قال بشر بن أبى خازم :

تغالى نبتُه واعتمّ حتى
كأن منابت العَلَجان شامُ

وقال الأعشى (الديوان ٤٠٩) :

تدلت عليه الشمس حتى كأنها
من الحَرّ ترمى بالسكينة قُورُها

* وكذلك تكون « حتى » حرف جر فتدخل على الاسم الظاهر فتجره . قال عروة ابن الورد (الديوان ١٠٢) :

لكل أناس سيِّد يعرفونه
وسيدنا حتى الممات ربيع

فى القرآن الكريم خاصة :

وردت كلمة « حتى » فى القرآن الكريم نحو مائة وأربعين مرّة :

— وردت خمس عشرة مرة قبل الفعل الماضى مطلقاً ، نحو : « . . . وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله » (٩ : ٤٨) ؛ « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا . . . » (٦ : ٣٤) ؛ « فقال : إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب » (٣٨ : ٨٢) .

— وجاءت أربعين مرة قبل « إذا » (الشرطية) الداخلة على الفعل الماضى المثبت نحو : « ... فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا . . . » (٤٠ : ٣٤) ؛ « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم . . . » (٣٤ : ٢٣) ؛ « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » (٤١ : ١٩ — ٢٠) .

— ووردت « حتى » ثلاثاً وسبعين مرة قبل الفعل المضارع المثبت فانتصب الفعل المضارع بعدها بحرف النصب المضمر « أن » نحو : « فلا تقعد معهم حتى يخوضوا فى

حديث غيره » (٤ : ١٤٠) ؛ « . . . حتى يبلغ الكتاب أجله » (٢ : ٢٣٥) ، « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١٣ : ١١) .

— ووردت مرتين فى لفظ واحد ، وجاءت قبل « كان » التامة فى الزمن المضارع المنفى ، وذلك فى قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (٢ : ١٩٢ و ٨ : ٣٩) .

— وكذلك جاءت حتى حرف جر قبل اسم هو « حين » (ست مرات) ، نحو : « فتول عنهم حتى حين » (٣٧ : ١٧٤ و ١٧٨) و (مرة واحدة) فى قوله تعالى : « سلام هى حتى مطلع الفجر » (٩٧ : ٥) .

فى الصدر الأول (أيام الخلفاء الراشدين):

مررت ببصرى على الدواوين التالية : مجموع أشعار الهذليين (الجزء الثانى ، نشره يوسف هل ليبزج عام ١٩٣٣) : ديوان حميد بن ثور (صنعه عبد العزيز الميمنى — القاهرة ، مطبعة دار الكتب عام ١٣٧١ هـ — ١٩٥١ م) ؛ شعر الحطيئة (تحقيق عيسى سابا — بيروت ، مطبعة صادر عام ١٩٥١ م) ، شرح ديوان كعب ابن زهير) القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م) ، ديوان عمرو بن معدى كرب (صنعه هاشم الطعان — وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد) ، ديوان حسان بن ثابت (تحقيق سيد حنفى حسنين — القاهرة الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٧٤ م) ؛ شرح ديوان الخنساء (بيروت ، دار مكتبة الحياة) .

تكون « حتى » حرف جر يدل على الانتهاء إلى غاية (أى بمعنى : إلى أن) . وتدخل « حتى » بهذا المعنى على الفعل الماضى مطلقاً ، وعلى الفعل الماضى المؤكد بالحرف « قد » ، وعلى الفعل الماضى المسبوق بالأداة الشرطية « إذا » الداخلة على فعل ماض أو على اسم ، وعلى الفعل الماضى المسبوق بالأداة الشرطية « إذا » وبالأداة الزمانية « ما » معاً ، قبل فعل ماض أو قبل اسم متمكن أو قبل صيغة من الصيغ أو قبل ظرف . وتدخل « حتى » أيضاً على الفعل المضارع المثبت أو المنفى فينتصب هذا الفعل بالحرف المضمر « أن » . وتدخل أيضاً على « كاد » من أفعال الشروع . وتأتى أيضاً قبل « كأن » . وكذلك تأتى « حتى » حرف ابتداء (وهذا هو المقصود الأول من هذا البحث) .

وفيما يلى شواهد مفردة على الأوجه التى ذكرت :

— قالت الخنساء (الديوان ٥١) :

فبتّ ساهرة للنجم أرقُبُه
حتى أتى دون غَوْرِ النجم أستارُ

— وقال حميد بن ثور (الديوان ٩٥) :

لقد ركبت العصا حتى قد أوجعتنى
مما ركبت العصا ظهرى وأظفارى

— وقال عمرو بن معديكرب فى صفة الحرب (الديوان ١٥٦) :

الحرب أول مـــا تكون فتيّة
تسعى ببزّتهـــا لكل جهول
حتى إذا حَمِيت وشبّ ضرامهـا
عادت عجوزاً غير ذات خليل

— قال الحطيئة (شعر الحطيئة ١١٤) :

كأننى ساورتنى يوم أسألهـــا
عودٌ من الرُّقش ماتصغى لراقيها
حتى إذا ما انجلت عنى قعدت على
حرف تهالَكُ فى بِيدٍ تقاسيها

— وقال الحطيئة أيضاً (ص ١٥٦) :

وكأن رحلى فوق أحقبَ قارح
بالشَّيِّطين تُهـــاقُه التعشيرُ
حتى إذا ما الصبح شَقّ عموده
وعلاه أسطعُ لا يرد منير
أوفى على عُقَــدِ الكثيب
. . . .

— وقال أبو خراش الهذلى (مجموع أشعار الهذليين ٢ : ٧٤) :

أقاتل حتى لا أرى لى مُقاتلاً
وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك

— وقال حسان بن ثابت (الديوان ص ١٢٣) :

يُغشون حتّى ما تَهِرُّ كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

— وقال حميد بن ثور (الديوان ٩٤) :

ليت الشباب عليك الدهرَ مرتجعاً
حتى تعود كثيباً أمُّ صَـــبّار

— وقال حسان بن ثابت (الديوان ص ١٠٩) يصف مقتولا فى إحدى المعارك وملقى أرضاً :

ومجـــدّل لا يستجيبُ الدعـــوة
حتى تزول شوامخ الأعلام.

— وقال حسان بن ثابت أيضا (الديوان ص ٢٩٦) :

(يا) خالةً لك بين قُدْسَ وآرةٍ
تحت البَشام ورُفغهـــاً لم يغسل
تسعى وترقص حول«شىء» حمارها
حتى يكاد يمسها أو يفعلِ

— وقال كعب بن زهير (الديوان ص ١٤٦) :

طليح من التّسعاء حتى كأنه
حـــديثٌ بحُمّى أسأرتْها سلالم

* وتكون « حتى » أيضاً حرف جر يدخل على الاسم المتمكن ، أو قبل الاسم إذا كان ظرفاً .

— قال حسان بن ثابت (الديوان ص ٢١٥ — ٢١٦) فى مديح عثمان بن عفان وأهل الشام :

وقــد رضيت بأهل الشام زافرةً
وبالأمير وبالإخوان إخوانا
إنى لمنهم ، وإن غابوا وإن شهدوا
حتى المماتِ وما سمّيت حسّانا.

– وقال حميد بن ثور (الديوان ١١٧):

فقلت : امكثى حتى يسار، لواننا
نحجُّ . فقالتْ لى:أعام وقابل ؟

– وقال المتنخّل الهذلى (مجموعة أشعار الهذليين ٢ : ٨٣):

فالتطّ بالـبرقة شؤبوبه
والرعد حتى برَقِ الأحول

** وكذلك جاءت حتّى حرف ابتداء عند الحطيئة (ت ٥٩ هـ – ٦٧٨ م). والحطيئة شاعر مخضرم كان فى الجاهلية ثم أدرك الإسلام وأسلم وعاش بعد ذلك مدة طويلة . وإذا كانت وفاة الحطيئة فى السنة التاسعة والخمسين للهجرة فلا يجوز أن يكون قد عاش فى الجاهلية طويلا ولا أن يكون قد قال فى الجاهلية شعراً كثيراً . والبيت التالى أقدم ما مر بى فى هذا المعنى (شعر الحطيئة ص١٠٣):

تركت المياه من تميم بلاقعا
بما قد ترى منها حلولا كراكرا
وحتى سُليمٌ قدْ أبدت شريدهم
ومن قبل ما قتّلت بالأمس عامرا

فى العصر الأموى:

لم أجد ضرورة لاستعراض عدد كبير من الدواوين الأموية للاستشهاد على الأوجه المختلفة التى ترد فيها « حتى » . إننا نستطيع أن نقول : إن « حتى » ترد فى الشعر الأموى فى جميع الوجوه التى جاءت فيها فى شعر صدر الإسلام الأول . ويبدو بوضوح أن أصحاب القواميس قد تنبهوا إلى هذا الوجه الذى عقدتُ أنا هذا الفصل من أجله . ومع ذلك فقد مررت ببصرى على ديوان جميل ابن معمر وديوان عمر بن أبى ربيعة .

جاء فى « تاج العروس » (الكويت ٤ : ٤٨٧ – ٤٨٨):

« حتى » حرف من حروف الجر (مثل): « إلى » ، ومعناه « للغاية » . وهو حرف يخفض . . . (أى) يجر . وقد تكون حرف ابتداء . وفى « الصحاح » : وقد تكون حرف ابتداء يستأنف بها الكلام بعدها ، كما قال (جرير):

فما زالت القتلى تمج دماءها
بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وهو قول جرير يهجو الأخطل (ت ٩٠ هـ) ويذكر إيقاع الجحاف بقومه . . . وفى « المغنى » : والثالث من وجوه « حتى » أن تكون حرف ابتداء ، أى حرفاً تبدأ بعده الجمل ، أى تستأنف ، فتدخل على الجملة الاسمية . . . كقول الفرزدق :

فواعجبا ، حتى كليب تسبّنى
كأن أباها نهشل ومجاشع

غير أن البيت الذى وقعتُ أنا عليه للحطيئة أقدم من بيت جرير بجيل من الدهر على

الأقل ، وهو — من هذه الناحية — أجل قيمة فى تاريخ تطور الكلام .

وهنـــالك شاهد آخر فى شعر عمر ابن أبى ربيعة (ت ٩٥ هـ) يمكن أن يكون أقدم من بيتى جرير والفرزدق ، ولكنه ليس أقدم من بيت الحطيئة ، هو : (شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، ص ١٥٤ — ١٥٥) :

ولقد عصيت ذوى القرابة فيكم
طرّا وأهل الود والصّهر
حتّى مقـــالهم إذا اجتمعوا :
أجننت أم ذا داخل السحر؟

واستعمال « حتّى » فى هذا البيت يشبهه تماماً الاستعمال الإنكليزى المستغرب عنـدهم لكلمة « even »(أى إخراج حكم جزئى من حكم عام)، فبعد أن ذكر عمر بن أبى ربيعة أنه خالف أهل قرابته (من جهة أبيه) وأهل الود (الأصدقاء) والصهر (أقاربه من جهة أمه) ، قال : « حتّى مقالهم » (أى القليل من فعلهم ، بالإضافة إلى ما كان قد ذكره من قبل) .

ولعمر بن أبى ربيعة بيت آخر (شرح ديوان عمر . . . ص ٤٠٠) هو :

ولو أقسمتَ لا يكلّمُ حتى
عُمّر نوح بعيشه ما عصاكا

وبعد : من أين جاء هذا الاستعمال المخالف للمألوف من القاعـــدة العامة، ثم كان عند الإنكليز — فيما بعد — يشبه ما عند العرب من قبل ؟ ليس من المعقول أن يكون العرب قد أخذوا ذلك عن الإنكليز (قبل أن يكون فى الدنيا لغة إنكليزية) . وكذلك لم يكن من الممكن أن يكون الإنكليز قد عرفوا ما عند العرب من هذا الاستعمال الجانبى لكلمة جانبية .

ولكن يبدو أن هذا الاستعمال عندنا قد تسرب إلى اللغة العربية الفصيحة بالطريقة التى تسرب بها مثله إلى اللغة الإنكليزية ، والتى يمكن أن يتسرب أمثاله إلى كل لغة . ومعنى ذلك أن فى كل لغة فصيحة عدداً من التراكيب الشائعة فى اللفظ تفرض نفسها على اللغة الناشئة ولا نجد نحن لها فى قواعد اللغة تفسيراً واضحاً . هنالك بقايا يسمونها فى الفرنسية « غاليّة» (بتشديد اللام والياء معاً : (gallicisme) ، أى صيغاً وتراكيب من لغة تستعمل فى لغة أخرى استعمالا مجانباً ، أى مخالفاً لقواعد اللغة التى انتقلت تلك الصيغ والتراكيب إليها . ويحسن بنا أن نسمى نحن هذه الظاهرة فى لغتنا « الظاهرة الأعرابية » لأن التسمية « ساميات » تسمية خـــاطئة ولا دلالة صحيحة لهـا .

من هذه « الإعرابيات » عندنا : « اللهمّ » و « ليس من مبرّ مصيام فى مسفر » .

إن كلمة « اللهم » مجانبة لكلمة « الله » فى التهجئة . فالشدة فى الكلمة الأولى على اللام الأولى ، وأما اللام الثانية فهى للرسم

وليس لها قيمة هجائية . ولفظ الكلمة « الاهمّ » . وأما الكلمة الثانية « الله » ، فالشدة فيها على اللام الثانية . وأما اللام الأولى فيختلف فيها صانعو الفهارس . إن نفراً من هؤلاء يجعلون اللام الأولى للتعريف فيأتى الاسم عبد الله عندهم بعد عبد الكريم . وهنالك من يجعل كلمة الله « لفظاً واحداً » فيأتى اسم عبد الله عندهم قبل اسم عبد الباسط

ونرجع إلى كلمة «اللهم» . إنها وردت فى القرآن الكريم خمس مرات ثم هى فى هذه المرات الخمس « منادى » ، ولكن لا تسبقها أداة نداء .

وبالرجوع إلى المعجم الكبير (١ : ٤٤٤ — ٤٤٥) نراه يذكر أن نفراً من النحاة قالوا فى تعليل امتناع أداة النداء قبل لفظ « اللهم » راجع إلى أن الميم تنوب عن أداة النداء . ولكن المعجم الوسيط لا يذكر ذلك فى مطلع باب « الميم » .

وفى المعجم الكبير أيضاً أن « اللهمّ » قد دخلت عليها أداة النداء « يا » فى شعر أبى خراش الهذلى. ثم إن هذه اللفظة قد وردت فى صيغة ثانية هى « لاهُمّ » ، وهذا يردنا إلى ما سبق إليه قولى من وجوب الشدة على اللام الأولى أو على اللام الثانية .

ولكلمة « اللهم » استعمال آخر يرد فى وجهين : أحدهما قبل أداة الاستثناء ، نحو : « هذا القول صحيح ، اللهم إلا إذا كان فلان قد أخبرنى الخبر ناقصاً » ، وأعتقد أن هذا الاستعمال صناعى جداً . أما الوجه الثانى ، قبل أداة الجواب ، نحو : « اللهم نعم ، اللهم لا » فتدل — كما يقول المعجم الكبير — على « تيقن المجيب » . غير أنى أرى رأياً آخر هو أن « اللهم » هنا هى « المنادى » التابع للأصل العام . وأنا أفهم التعبير : « اللهم نعم » على أنه اكتفاء من قولنا : « اللهم ، اشهد أن هذا الإيجاب (نعم) » .

وبالرجوع إلى رسالتى « صورة الإسلام فى الشعر العربى من الهجرة إلى وفاة عمر ابن الخطاب » (ليبزغ عام ١٩٣٧ م) نرى أن هذه الكلمة قد وردت فى بيت شعر واحد بروايتين (ص ١٣) :

* اللهم لاعيش إلاعيشَ الآخرة
فاغفرن للأنصار والمهاجرة
* لاهمّ إن العيش عيش الآخرة
فاغفرن للأنصار والمهاجرة

وكذلك يقول عمرو بن سليم الخزاعى :

* اللهم إنى ناشدٌ محمدا *

ولكنّ هذا البيت يروى فى صيغة ثانية « يا ربّ ، إنى ناشد محمّدا » . هذا بالإضافة إلى أن هذا « اللفظ » ورد (بحسب دراستى السابقة) فى السنوات الأربع الأولى من الهجرة وعند شعراء من المدينة .

وشئ آخر :

إن البيت الذى يورده المعجم الكبير لأبى خراش الهذلىّ :

* إنى إذا ما حدث ألمّا *

* دعوت يا اللهم ، يا اللهما *

أصله (مجموعة أشعار الهذليين ٢ : ٧٨) :

إنى إذا ما لَمَمٌ ألمّا
دعوت: يا للهمّ، يا للهم
لا همّ، هذا رابع إن تمّا
أتمه الله ، وقد أتمّا
إن تغفر، اللهم، تغفر جمّا
وأى عبد لك ما ألمّا

غير أن هذه الأشطر منحولة لأبى خراش (راجع ص ٧٥) . غير أننى لا أعرف إذا كانت هى لغير أبى خراش ثم نسبت إليه ، أو أنها منحولة بمعنى أنها قيلت فيما بعد ثم نسبت إلى أبى خراش . ويلفت النظر أن هذه ستة أشطر ورد فيها اسم الجلالة خمس مرات فى أربع صيغ : يا اللهم — لا همّ — الله — اللهم . ولعل فى ذلك شيئاً من الصناعة النحوية .

فى العصر العباسى وما بعده :

ثم كثر استعمال « حتى » حرف ابتداء . وقد اتفق أن مررت أنا بعدد من الشواهد ، ولكنى لم أستعرض ديواناً معيناً ولا مجموع شعر معيناً . وقد لاحظت أن هذا الاستعمال كان فى الشعر الأندلسى أكثر منه فى الشعر المشرقى ، أو هكذا يخيل إلى . وسأورد فيما يلى عدداً من الشواهد إيراداً عاماً بلا تعليق. إن استنفاد الشواهد ضرورى قبل التعليق عليها فعسى أن يأتى من يجعل ذلك موضوع دراسة ذات منهج معلوم .

أما الشواهد التى هى بين يدى الآن فهى التى تلى :

— قال أبو نواس ، وهو شاعر مشرقى ، فى الخمّار الذى أخذ منه فى شرب الخمر جميع ثيابه . (رِمته بالكسر من رام يريم : ترك ، فارق) :

فما رِمته حتى أتى دون ما حوت
يمينىَ ، حتى رَيطتى وحِذائى

— وقال الطغرائى (وهو أيضاً مشرقى) :

بَخِلْنَ حتى بإهداء السلام لنا
والبخل فيهن محسوب من الكرم

والأبيات الثلاثة التالية من الشعر الأندلسى

— قال ابن فرج الجيانى :

. . . .
وأستحلى به حتى كروبى

— وقال محمد بن مسعود بن أبى الخصال (الذخيرة ، بيروت ٣ : ٧٩٤) :

تقدح الأيام حتى
فى المودّات القديمة

— وقال أحمد بن جعفر :

طَرِبَ ثنى حتى الجمادَ ترنُّحاً
وأفاض من دمع السحائب أعينا

أرجو أن أكون قد كشفت فى هذه العجالة عن جانب من التراث اللغوى العام الذى لا يخص لغة دون لغة ، بل هو عام فى اللغات كلها .

عمر فروخ
عضو المجمع من لبنان

خصائص العربية فى
نظر ابن درستويه

للدكتور محمد بدوى المختون

تقديم :

كان ابن درستويه عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان الفارسى اللغوى النحوى المكنى بأبى محمد والمتوفى سنة ٣٤٧ هـ - ممن ذهب إلى تهذيب اللغة عن طريق آرائه فى خصائصها ومذهبه فى نشأتها .

ولا بد لى من تعرّف على اللغة وتطورها وتهذيبها فى مدخل يجلّى ذلك .

(١) مدخل البحث

يشمل هذا المدخل ثلاث نقاط :

أ - على رأسها : اللغة العربية وعصورها :

اللغة العربية قديمة فى التاريخ ، أول من تعلمها إسماعيل من جرهم الذين نزل فيهم وصاهرهم ، فلامس العرب وبلغتهم نطق وصار منهم ، وذهب إلى ذلك ابن عباس وأراد بها عربية قريش التى نزل بها القرآن .

وتكاد الروايات تجمع على ذلك ، كما تجمع على الفصل بين العربية التى نزل بها القرآن وبين عربية حمير وقحطان ؛ كما جاء فى أدب الكتاب للصولى : « ... أن أول من تكلم بالعربية إسماعيل عليه السلام فإنما يعنى اللسان الفصيح الذى نزل به القرآن . وعربية حمير وبقايا جرهم غير هذه ليست بفصيحة [١] » كما روى : ليست عربيتنا بعربيتهم ؛ من دخل ظفار حَمَّر . أى ليتكلم بالحميرية .

وقد اختلف فى أصلها وواضعها على أقوال أوجزها فيما يلى :

١ - أن الواضع هو الله سبحانه وتعالى أخذا من الآية « وعلّم آدمَ الأسماء كلها » البقرة آية ٣١ وهو قول ابن عباس وارتضاه ابن فارس فى (الصاحبى) فى باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح .

ومذهب أبى على الفارسى الذى يعتبر معاصرا لابن درستويه ، وذلك رأى ابن درستويه أيضا ، والأشعرى وأتباعه وابن فورك أبى بكر محمد بن الحسن المتكلم الأصولى الأديب النحوى واعظ أصبهان والمتوفى سنة ٤٠٦ هـ . أما ابن جنى تلميذ أبى على الفارسى فقد استعرض المذاهب فى ذلك وناقشها وعلّق على الرأى القائل بأنها حكاية الأصوات المسموعات من حنين الريح ، ودوىّ الرعد ، وخرير الماء .... الخ بقوله : « واعلم فيما بعد أنى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع ، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغوّل على فكرى ، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك علىّ جانب الفكر ... فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توفيقا من الله سبحانه وأنها وحى .. وإن خطر لى خاطر فيما بعد يعلق الكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به

---

(١) أدب الكتاب ص ٣١ طبع السلفية .

وبالله التوفيق » [1] .

٢ - أن الواضع البشر ، وإليه ذهب أبو هاشم ومن تابعه من المعتزلة ، فهى اصطلاح إذن .

٣ - أن ابتداءها وقع بالتعليم من الله سبحانه ، وباقيها بالاصطلاح .

٤ - أن ابتداءها وقع بالاصطلاح وباقيها بالإلهام ، وهو رأى ابن إسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى المكنى بأبى إسحاق والمتوفى سنة ٤١٨ هـ وهو عكس الرأى الثالث ، إلا أن الثالث أقرب تمشيا مع العقل وسنة الطبيعة من هذا الذى قبله .

٥ - أن الألفاظ دلّت بذواتها وطبيعتها على المعانى وهو مذهب عباد بن سليمان الصيمرى .

وممن قال قديما بالتوقيف أفلاطون ، فى حين قال سقراط بالعلاقة الطبيعية بين اللفظ والمعنى . ولهذا نجد ابن جنى فى الخصائص يقول فى باب « إمساس الألفاظ أشباه المعانى » : « وهذا موضع شريف نبّه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول .

قال الخليل : كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة فقالوا صرّ ، وفى صوت البازى تقطيعا فقالوا صرصر . وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان إنها تأتى للاضطراب والحركة نحو الغليان .. فقابلوا بتوالى حركات الأمثال توالى حركات الأفعال قال ابن جنى : وقد وجدت أشياء كثيرة من هذا النمط ، من ذلك المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير والزعزعة كالقلقلة .. وكذلك جعلوا تكرار العين نحو فرّح وبشّر ، فجعلوا قوة اللفظ لقوة المعنى ، وخصّوا بذلك العين لأنها أقوى من الفاء واللام ... ومن ذلك قولهم : الخضْم لأكل الرطب ، والقَضْم لأكل اليابس ، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس ... » . أما الجمهور فجوزوا كل واحد من هذه الأقوال السابقة من غير جزم بأحدها » . [1]

ولكل من هذه الآراء أدلته ، وردود عليها وأمور مترتبة على ذلك ، كوجود اللغة دفعة واحدة ، أو مجزأة ، وتطورها أو عدم تطورها ، وجواز الاشتقاق منها أو منعه إلى أشياء كثيرة من نحو هذا ، وإنى أميل إلى أن فى

(١) انظر الخصائص ٢ / ١٥٢ فما بعدها . والمزهر طبعة صبيح ١ / ٣١ ، ٣٢ والبلغة ص ١١ - ١٥

اللغة عنصرا من الإلهام هو ما يعبر عنه بالحسّ اللغوى ، يظهر حين النطق ببعض الكلمات نطقا صحيحا من غير الوقوف من قبلُ على حقيقتها ، وكذلك فى قياس الطفل بعض عمليات التصغير ، والصفات وغيرها .

وقد عرضت هذه الآراء موجزة لما يترتب على ذلك من قيم عملية ، إذ الذين يقولون بالتوقيف يمنعون القلب فى اللغة مطلقا ، فى حين يجوز فيها على القول بالتوفيق والاصطلاح ، وكذلك رتّب ابن درستويه القول بإبطال القلب والزيادة والترادف والأضداد فى اللغة ، على أنها إلهام وتوقيف . وكذلك الذين ينفون الصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى يقولون بوقوع الأضداد فى اللغة وهكذا . والحق أن الكلام فى نشأة اللغة ضرب من الحدس ونوع من الاستطراد .

والعربية تعدّ أقرب اللغات السامية إلى الأصل الذى تشعبت عنه ، ذلك لانعزال أهلها فى جزيرتهم وحرص العربى على لغته وحفاظه على نقائها واعتزازه بها ، إلا أنها بالرغم من ذلك لم تقف جامدة أمام مرّ العصور ، فقد طرأ عليها ما غيّر معالمها ووسع دائرتها من ناحية ، وجعلها ثابتة من ناحية أخرى .

وهذا ما جعل المؤرخين لها يقسمونها إلى عصور جاهلية وإسلامية وفروعهما فقسمها جورجى زيدان إلى ثمانية أدوار منها ثلاثة ترجع إلى الزمن والخمسة الباقية إلى الألفاظ ذاتها . وأرى أن هذه التقسيمات عديمة الجدوى ؛ لتداخل عصور اللغة وإن تبعت فى تطورها الظروف التاريخية والاجتماعية والحضارية ، ذلك لأن التطور اللغوى قد تبدو جذوره فى عصر ما ونتائجه فى عصر لاحق ، كما أن الكسب اللغوى يكون ضئيلا عادة وخاصة فى العربية ، إذ تقابله خسائر من ناحية أخرى (١)

ورغم اعتراضى على تقسيمها إلى عصور فقد ارتضيت تقسيمها إلى الجاهلية والإسلامية حيث كان الإسلام ثورة حقيقية فى كل شئ ، ولبروز أثرها واتساع الزمن فيها مما سمح بالتطور ، على أن الزمن أرفع من المكان فى مرتبة التجديد ، فالخلاف بين جيلين فى مكان واحد أوضح منه بين جيل واحد فى مكانيين مختلفين .

والجاهلية والإسلام دوران من أدوارها عند جورجى زيدان . وكانت هناك مظاهر للغة فى

(١) اللغة كائن حى . طبع الهلال ص ٩ ، ٣٣ ، ٣٤ .

هذه العصور منها : دخول الأعجمى فيها ، والتغيير فى بعض الألفاظ ، وسعتها بعوامل النمو من قبل القلب والنحت والاشتقاق والقياس والإبدال وما إليها ، وسأتكلم عن هذه الآثار أوجلّها على الرغم من وجود الظاهرة الواحدة فى أكثر من عصر ، وسأنص على العصر ما أمكن ذلك ، مع تعداد العوامل التى دعت إلى هذه الآثار على وجه التقريب ، من عوامل خارجية وسياسية واجتماعية ، وأخرى ترجع إلى اللغة ذاتها ووسيلة توارثها . وأخيرا إلى عوامل بلاغية .

(٢) تطور العربية

هذا عن أصلها وأقسامها ، أما عن تطورها - والتطور سلاح ذو حدين - فأبدأ بأثر العوامل السياسية والاجتماعية والخارجية فأجد من ذلك :

أ - احتكاك اللغات وأثره : إذ اللغة ما هى إلاّ إنعكاس للضمير البشرى ، وهى ظاهرة اجتماعية ككل ظواهر الاجتماع ، كائن حى ينمو ويتكاثر ويتولد ، ولهذا تطورت لغتنا فى حدّى التطور بالنقص والكمال النسبيين ، فكان تطورها مظهرا لتطور الجماعة ، فلم يكن العرب بمعزل محكم عن الأمم الأخرى ، فقد تاجر تجار مكة مع الآراميين فى دمشق ، ومع الفرس فى الحيرة والمدائن ، ومع سبأ وحمير فى اليمن ، وكانت الآرامية من أهم لغات النصرانية التى اعتنقها بعض القبائل العربية ، وكانت منها اللغات الحبشية أيضا[1] .. الخ فقد وجد أن نقش النمارة فى الحرة شرق جبل الدروز يتأثر خطه بالخط النبطى و معلوم أن قريشا أهل تجارة كما حكى عنهم القرآن ، كانوا يسافرون شمالا إلى الشام والعراق ومصر ، وجنوبا إلى بلاد اليمن وشرقا إلى بلاد فارس وما وراءها وغربا إلى بلاد الحبشة قال تعالى « لإيلاف قُريش إيلافهم رِحْلَة الشتاء والصَّيْف . فليَعبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ . الذى أطْعَمَهم مِن جُوعٍ وآمنَهم مِن خَوْفٍ »[2] .

وكانت الكعبة قبلة الهنود والفرس والأنباط واليمنيين والأحباش والمصريين ، عدا من نزحوا إليها من جالية اليهود والنصارى ، فاقتبس العرب منهم وعرّبوا وخاصة فى القرنيين الأول والثانى قبل الإسلام بنزول الحبشة والفرس فى اليمن والحجاز على أثر استبداد ذى نواس ملك اليمن الذى كان يهوديا [3] .

(١) اللغة كائن حى . طبع الهلال ص ٩ ، ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) اللغة كائن ص ٣٠ - ٣٢ .

مما قصه القرآن فى سورة « البروج » فامتزجت لغة العرب بلغات هؤلاء واستعارت وأعارت ، واقتبست من لغة الفرس أكثر من سواها حتى قيل بفارسية كثير من الألفاظ وإن كانت فى الحقيقة غير فارسية . وفى فجر الإسلام وقُبَيْله دخلت مصطلحات فى أغراض متعددة كالديوان والرزق والمرزبان والفرسخ .

ومن الألفاظ الدينية : الدين والجُناح والمجوس والنيروز ، ومن ألفاظ ما يستورد من فارس : الصولجان والمسك والديباج والاستبرق والإبريسم . ومن أقدم ما دخلها من اليونانية : إبليس والقرطاس . أما الألفاظ اللاتينية فدخلت اليونانية ثم أخذتها الآرامية ومنها إلى العربية كالصراط والميل والقصْر والقنطار والدينار . ومن طريق الحبشية : الإنجيل ، والقلم ، ومن الفارسية الدرهم ، وبعض ما نظن أنه حبشى جاء عن طريق العربية الجنوبية كخوخة ومشكاة وسكة . وبعض الألفاظ الآرامية دخلت عن طريق الحبشة كقدوس وتابوت وجهنم ، كما دخلها ألفاظ أكّادية كالدّين بمعنى القضاء والحكم ، والسبت ، وسطر بمعنى كتب ، والتلميذ والجص ومن السوهرية الهيكل ، والآسى : الطبيب ، والكرسى [1] وغير ما سبق كثير مما ظهر فى شعر الأعشى كقوله :

وعَلال وظلال بارد
وفَليج المسك والشاهسفرنْ [2]

وهو نوع من أنواع الرياحين وهو الملكى وفارسيته شاهسفرمْ . وقد نزل القرآن – فى غالبه – بلغة قريش حيث تضافرت عوامل دينية وسياسية واجتماعية على سيادتها وتوحيد اللغة ممثلة فيها ، كما جرى فى أسواق العرب مما يحتاج إلى لغة موحدة فكانت لغة قريش إذ كانوا أهل سدانة البيت والمشرفين على شئون الحجيج من سقاية ورفادة وما إليهما ، ولما لهم من سطوة وقوة ، ولتخيرّهم من اللغات واللهجات أحسنها حتى قيل «ارتفعت قريش فى الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضّجع قيس ، وعجرفية ضَبّة ، وتلتلة بَهْراء » . [3]

فالعنعنة قلب الهمزة عينا يقولون فى أنّ عنّ كما فى شعر ذى الرمة ، والكشكشة

(١) المصدر السابق ٣٤ - ٣٨ وهامش ٣٥ ، ٣٧
(٢) مختار الشعر الجاهلى ٢ / ٢١٧
(٣) المجالس تحقيق هارون ص ..١ القسم الأول . ذخائر العرب والمزهر ١ / ٢١١

ونسبت إلى قبيلة أسد: إبدال الكاف شينا نحو عليش فى عليك وجاءت فى شعر المجنون :

فعيناك عيناها وساقك ساقها

سوى أن عظم الساق منش دقيق

أو هى إلحاق الكاف بالشين نحو عليكش فى عليك ، والكسكسة نسبت إلى ربيعة وهى وصل كاف بالسين عليكس . والتلتلة كسر حروف المضارعة كتِعلمون ، والتضجع الإمالة والخفض . والعجرفية التقعرّ فى الكلام وهى لغات مذمومة ومنها التكلع والغمغمة والطمطمانية واللخلخانية والفراتية .

وفى القرآن القليل من اللهجات الأخرى واللغات نحو الرفث بمعنى الجماع لمذحج ، وأفيضوا بمعنى انفردوا لخزاعة ، والمسجور : الممتلئ لعامر بن صعصعة ، والبغى : الحسد لتميم. وقسورة : الأسد لأزد شنوءة ... الخ كما جاء فيه ما وافق اللهجات الأخرى كموافقته النبطية فى « هَيْتَ لكَ » بمعنى هلمّ ، والفارسية فى الإستبرق بمعنى الديباج الغليظ والرومية فى الرقيم : الكلب أو اللوح ، أو الدواة . والسريانية فى : سَرِيًا : أى جَدْوَلا ، والحبشية فى مشكاة بمعنى الكوة إلى غير ذلك من لغات ثقيف والعمالقة وسدوس وسعد العشيرة وهذيل وغيرها [١] .

وقد رتبت القبائل حسب نصيبها من الألفاظ القرآنية ترتيبا تنازليا فكانت :قريش، هذيل ، كنانة ، حمير ، جرهم ، تميم وقيس عيلان ، أهل عمان وأزد شنوءة وخثعم وطيئ ومذحج ومدين وغسان . بنو حنيفة وحضرموت وأشعر ، أنمار وخزاعة وبنو عامر ولخم وكندة ، سبأ وأهل اليمامة ومزينة وثقيف : وأخيرا العمالقة وسدوس وسعد العشيرة . وهذا الإحصاء يؤيد أفصحية القبائل التى ذكرها الفارابى فى نصه عن جمع اللغة وهو نص مشهور ، قال فى أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعًا ، وأبينها إبانة عما فى النفس . والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم أتكل فى الغريب وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض

(١) انظر اللغات فى القرآن رواية إسماعيل بن عمرو ، ورسالة فيما ورد فى القرآن من لغات القبائل لأبى القاسم بن سلام على هامش الجلالين طبع الحلبى .

كنانة وبعض الطائيين . ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لامن لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ... »[1] .

ب - الإسلام : حدّث عنه ولاحرج ، فهو الحدث الأعظم الذى غير مجرى الحياة العربية فى عقائدها وعاداتها وسياستها ، شمل هذا التغيير فيما شمل اللغة فوسعها بما جد من مصطلحات شرعية كالفاسق والمنافق والصلاة والزكاة والحج وغيرها مما صار حقيقة شرعية له مفهوم خاص فى الإسلام فليس المفلس الذى عليه كذا وكذا أو الذى لا يملك كذا ، ولكنه قيس بعيار الإسلام فهو الذى ليس له حسنات الخ . كما أمات الإسلام ألفاظا جاهلية كالمرباع والنشيطة والفضول بموت معانيها ، وقد جاءت فى الشعر الجاهلى :

لك المرباع فينا والصفايا

وحكمك والنشيطة والفضول

أشياء يصطفيها الرئيس لنفسه دون القوم ، وقد أبقى الرسول بعض الصفايا ، وكذلك « أبيت اللعن » لأنها تحية الجاهلية أى أبيت أن تأتى ما تلعن عليه على سبيل الدعاء ، عم صباحا أو مساء وأبدلهم منها بالسلام . كما فرق الرسول فى حديث له بين تحية الموتى وتحية الأحياء . فكان التغيير إذن فى المفردات والأساليب على السواء ، بل حرم الشعر الدينى عند العرب وروايته فلم يبق منه إلا ما اتفق وروح الإسلام ، كما فى شعر أمية بن أبى الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة الإيادى ، ومن على شاكلتهم من المتحنفين ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قصيدة الأفوه الأزدى التى مطلعها :

إن تَرَى رأسى فيه نَزَع

وشَواتى خَلّة فيها دُوار

لما فيها من ذكر إسماعيل عليه السلام .

واستدعت العلوم العربية المستحدثة ، والإسلامية بطبيعتها مصطلحات كالسجود والركوع والإيلاء والظهار والتعزير والإباق الخ ومصطلحات لغوية مما فى النحو والعروض والإعراب كالرفع والنصب والخفض ، والبلاغة

---

(١) المزهر تحقيق أبى الفضل ٢١١/١ ، ٢١٢

من مجاز وحقيقة وغير ذلك مما اقتضته الدواوين ورسوم الملك كالكتابة والحجابة والإدارة والحسبة والجباية والخراج والتوقيع وهذا قُلّ من كُثْرْ .

ولم يقف أثر الإسلام عند الحد من ألفاظها فى ناحية ، والتوسع في ناحية أخرى ، فقد دأب الرسول صلى الله عليه وسلم على تغيير الألفاظ المستقبحة إلى ألفاظ أضدادها ، ومعلوم بداهة أن التغيير استغرق زمنا حتى رسخ فى الأذهان واعتادته الألسنة بل ربما بقى الأصل وبديله، القديم والحديث جنبا إلى جنب، فسميت يثرب المدينة لأنها من التثريب واللوم (تاج العروس : ثرب وطيبة) وجاء وفد فقال لهم النبى من أنتم فقالوا: بنو غيان، فقال : بل أنتم بنو رشدان . وقال سعيد بن المسيب أراد النبى أن يغير اسم جدى ويسميه (سهلا) فأبى وقال لا أغير اسما سمّانى به أبى فما زالت فينا تلك الحزونة بعد (القاموس: ابن حزن) . وراشد بن عبدربه السلمى كان اسمه (غاوى بن عبدالعزى) فسماه النبى راشد بن عبدربه . وقبيلة « بنو الزنية » وفدوا على النبى . . فقال لهم بل أنتم بنو الرشدة ، وسمى زيد الخيل بزيد الخير، وكرهت التسمية ببعض الألفاظ قال الكميت :

فأما الأزد أزد أبى سعيد

فأكره أن أسمّيها المَزونا

كما غير العرب بعض الألفاظ من أجل التطير ، فحولوا (الدفينة) إلى (الدُّثَينة) قال النابغة النبيانى :

وعلى الرميثة من سكين حاضر

وعلى الدثينة من بنى سيّار

يروى وعلى الدمينة ، والدُّثينة بزينة الدفينة وهى منزل لبنى سليم(1) .

جـ - جمع اللغة وسعة اللهجات : ظلت الأمة العربية متعصبة فى أيامها الأولى وخاصة عند الأمويين إلى أن جاءت دولة العباسيين فقامت على أكتاف الفرس فى بدءها والأتراك فى آخرها ، وقام الصراع بينهم خلالها ، فتوغلت الحضارة الفارسية بمستحدثاتها وتطورت اللغة ، وجاء جامعو هذه اللغة فوجدوا أنفسهم أمام لغة موحدة هى لغة قريش ولهجات أقوام يحيطون بها فجمعوا كل ما سمعوه ولم يفرقوا بين لهجة ولهجة ، ولا بين قبيلة وقبيلة إلا من حيث احتفاظها

(١) أنظر شرح شواهد المغنى ١٠٨ وتاج العروس : زنى ، مزن فالمزون قرية بعمان يسكنها اليهود والملاحون ، وتاج العروس : دثن ومعجم ما استعجم ٩٢٥/٣ ، ٥٤٣/٢ ومعجم البلدان ٢٦/٤ ، ٢٧ .

بنقاء اللغة وعدم مخالطة الأجانب أو لصفاء لغتها وتخير ألفاظها كما فى لغة قريش وقد مضى نص الفارابى فى ذلك من قبلُ . وقد شغفوا بتقديس اللغة وادّعاء اتساعها حتى قال الشافعى : كلام العرب لا يحيط به إلا نبى . ذلك القول الذى استحسنه ابن فارس فى الصاحبى[1] . بل ذهبوا يتفاخرون بذلك قال ابن فارس فى باب أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها : « . . . وإن أردت أن سائر اللغات يبين إبانة العربية فهذا غلط ، لأنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد وأين لسائر اللغات من السعة ماللغة العرب »[2] ثم نقل كلام بعض العلماء عن الاستعارة والتمثيل فى القرآن وأنه لا يمكن نقله إلى لغة أخرى لهذا! . وما نقله ابن فارس هو فى الحقيقة لابن قتيبة فقد تناوله فى مشكلة . ثم ضرب ابن فارس الأمثلة المختلفة لما اختصت به لغة العرب من قلبهم الحروف عن جهاتها ، وتركهم الجمع بين الساكنين والإدغام والترادف الذى ألف العسكرى بسبب منه كتابه «الفروق اللغوية» وبعض التعبيرات الخاصة بهم ، مما عده العرب ميزات وخصائص للعربية ، وعدّه الطاعنون عليهم من عيوب اللغة مما انتهزه الشعوبيون أيما انتهاز فعابوا على اللغة هذا الترادف والقلب والتضاد وما إلى ذلك ، وقد جاء مثل ذلك الفخر بسعة العربية وفضلها عن أبى حيان فى مقابساته : المقابسة ٨٨ وبمعيار العلم الحديث لا تفضل لغة لغة إلا بمقدار وفائها بحاجة أصحابها ، وهذا ما حدا ابن درستويه إلى رأيه فى هذه الخصائص . فمما يدل على تمسكهم بغنى العربية ذلك السيل الجارف من الترادف الذى أهمل كثير من أسبابه الأساسية ، ونظر فيه إلى الألفاظ بحالتها الراهنة دون ما نظر إلى التطور اللغوى وما بين الألفاظ من فروق قد نسيت ، مما جعل اللغة تسير من ظاهرة التخصيص والدقة إلى ظاهرة التعميم فى المفهوم والمضمون . وسار العلماء فى هذا المضمار تكثرًا وحذارا من أن يقال أهملوا شيئا مما أثبته السابقون فانظر مقالة ابن الأنبارى وأبى حاتم السجستانى والصاغانى[3] كما رأى ابن السيد

(١) ص ١٨ .
(٢) ص ١٢ فما بعدها .
(٣) رسائل الصاغانى مخطوط رقم ٣٣٦ لغة تيمور ص ٢٢١ ، ٢٤٥ وأضداد الأنبارى ص ١١ .

فى الاقتضاب شرح أدب الكاتب ، رغبة فى التزيد أن القول بإبطال الأضداد كلام لايصح أن يتشاغل به ، وهى نزعة جمود حرمتنا من آراء تراثية قديمة لو نقلها على عهدة قائلها لأفدنا منها الكثير، وقد كرر هذه النزعة عند مناقشته لابن جنى فى القضم والخضم قال :

« فإذا كان الأمر على هذا السبيل كان التشاغل بما تشاغل به ابن جنى عناء لا فائدة فيه » (الاقتضاب ص ١٥٨ ، ١٦٢)

فنزعته إذن - رغم سعة علمه وفضله - التكثر من الأضداد والجمود على القديم ومحاربة الجديد والاعتراض دون إقامة الدليل إلا جوابه التقليدى السلبى «لايصح التشاغل به» فالمحافظون وقفوا فى سبيل التجديد وقد صرح ابن درستويه بالاقتداء بالسابقين وإن كان عن غير اقتناع فقد قال : « وقد ألحق بعض ذلك قوم من النحويين بكتبهم فى الهجاء وإن لم يكن مما يلحق بها ، فرأينا ألا نخلى كتابنا هذا من طائفة مما ذكروا وما تركوا مما يجرى ذلك المجرى » [1] .

دعا العلماء إلى ذلك حب التفاخر وأرادوا إهمال الدارسين لكتب من قبلهم لتسود كتبهم ، وإلى جوار ذلك كانت نزعة القول بضياع كثير من اللغة قال ابن فارس فى باب القول على أن لغة العرب لم تنته إلينا بكليتها وأن الذى جاءنا عن العرب قليل من كثير ، وأن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله :

« ذهب علماؤنا أو أكثرهم إلى أن الذى انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل »[2]

وعقب على ذلك بالاستحسان وضرب الأمثلة . وهاتان النزعتان ، نزعة التكثر والجمع للغة ، ونزعة الذهاب إلى ضياع أكثرها جعلتا العلماء يتلمسون ما ذهب من اللغة وكان لهم من هذا خير ملجأ يلجئون إليه فى تعليلهم ما يقولون كما فعلوا فى تناولهم لفظ الجدف والجدث[3] . بل أول بعضهم اللغة نفسها وألفاظها لتتمشى مع فهمهم المجانب للصواب قال ابن قتيبة عند تفسير قوله تعالى « وذا النون إذ ذهب مغاضبًا » الأنبياء آية ٨٧ :

« قال أبو محمد : يستوحش كثير من الناس أن يلحقو بالأنبياء ذنوبًا ويحمله التنزيه لهم عليهم السلام على مخالفة كتاب الله

---

(١) كتاب الكتاب له ص ٧٦ - الطبعة الثانية

(٢) الصاحبى طبع السلفية ص ٣٤ .

(٣) تاج العروس : جدف

واستكراه التأويل ، وعلى أن يلتمسوا للألفاظ المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة التى لا تخيل عليهم ، أو على من علم منهم أنها ليست لتلك الألفاظ بشكل ولا لتلك المعانى بلفق »[1] .

د - أثر المذاهب والأفكار : كما كان لاختلاف الأفكاروالمذاهب الإسلامية أثرها كذلك فى اللغة ، فالأندلسيون يسمون النرجس البهار واسمه فى اللغة : العَبهَر . والزمخشرى مثل المعتزلة يرى أن جعل بمعى خلق ، ففى الأساس له : جعل الله الظلمات والنور : خلقهما ، وأرادها بهذا المعنى فى خطبة كشافه [2] كما جعلوها أيضا بمعنى بيّن لا بمعنى فعل ، قال الشاعر :

جعَلنالهم نهْجَ الطريق فأصبحوا

على ثَبَت مِن أمرهم حَيْث يَمَّموا [3]

وجعل الزمخشرى « لن » للنفى مع التأكيد والتأبيد ، توصلا إلى نفى رؤية الله تعالى وفى تاج العروس : لن : « ... ولا تفيد توكيد النفى ولا تأبيده خلافا للزمخشرى فيها فى قوله تعالى « لَنْ ترانى » وهما دعوى بلا دليل ، وفيه دسيسة اعتزالية ، حملته على نفى الرؤية على التأبيد ، ولوكانت للتأبيد لم يقيد منفيها باليوم فى قوله تعالى « فلنْ أكلّم اليومَ إنْسيًا » مريم آية ٢٦ ولكان ذكر الأبد فى قوله تعالى « ولَنْ يَتَمنَّوه أبداً » البقرة آية ٩٥ تكرارا والأصل عدمه » .

هـ - الحياة والموت فى اللغة : سبق شيء من ذلك فى الكلام عن أثر الإسلام واللغة ظاهرة اجتماعية يعتريها ما يعترى الأحياء من صحة أو اعتلال وموت ، فقد هجرت على مر الأيام ألفاظ ولغات ورفضت أصول لبعض الكلمات ، وأباحوا للشاعر عند الضرورة مراجعة هذه الأصول المرفوضة . هذا وغيره زاد العربية وآدابها تعقيدا ، فقد كان بعض النحاة يرى أن الكلمة تروى على ماهى عليه وأن ذلك أيسر من الرجوع إلى الأصل ، فقول الشاعر :

أرى عينى ما لم ترأياه - يقول فيه الزجاج إنه رُدَّ إلى أصله ويرى المازنى أن يروى بغير همز تخفيفا :ما لم يرياه - لأن ارتكاب الزحاف عنده أيسر من الرجوع إلى الأصل . فاستعمال الأصل المرفوض عندهم داخل فى باب الضرورة

---

(١) القرطين للكنانى ٢/ ٢١ ، ٢٢ طبعة أولى للخانجى
(٢) حياة الحيوان للدميرى ١/ ١٥٨ نقلا عن تاريخ ابن خلكان وغيره .
(٣) ظهر الاسلام ٤٢ .

كقول الشاعر : وصاليات ككما يؤثفين [1] - وكذلك قول له رؤبة : بلالُ خير الناسِ وابن الأخير - وعليا . وجه ابن جنى قراءة « الأشرّ » بتشديد الراء « سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » وقال إنه الأصل المرفوض [2] . واماتت العرب ماضى يدع ويذر ولم تستعمل المصدر من الأفعال : نذر بالشئ وعسى وليس استغناء عنها بأن والفعل [3] كما أميت الثلاثى من اكلأز [4] وقللت من استعمال حبّ وأكثرت من أحب ، ثم أبقت « محبوب » دلالة على حبّ الثلاثى .

كل هذا عقّد قواعد اللغة ، خاصة عندما قعدت القواعد بعيدة عن أصلها اللغوى ، ودارت الفصاحة عندهم على كثرة الاستعمال ، فكانت القواعد للموجود دون المفقود مع أن المفقود قد يكون هو الأفصح ، كما رأى ابن درستويه ذلك أخذا من مدلول لفظ «الفصاحة» فالعرب عنده قد تستغنى بفصيح عن فصيح آخر ، بل إنها أى الفصاحة عنده ما أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس وهو مذهب قد انفرد به ، كما أن هناك عوامل بلاغية أثرت فى اللغة منها :

المجاز ، وأعنى هنا معناه العام ، فثمت نصوص تشير إلى أن العرب لم يفرقوا بين الحقيقة والمجاز ولم يقسموا لغتهم إلى حقيقة ومجاز الا فى عصر متأخر قال ابن تيمية : فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنما اشتهرت فى المائة الرابعة ، وظهرت أوائله فى المائة الثالثة ، وما علمته موجوداً فى المائة الثانية ، إلا أن يكون فى أواخرها [5] . ومن أجل هذا حدث خلط بين الحقيقة والمجاز حيال القرآن نفسه وأحاديث الرسول فحينما نزل قوله تعالى « وكُلُوا واشْرَبُوا حتّى يَتبيَّن لكم الخَيْطُ الأبيضُ مِن الخَيْط الأسْود من الفَجـرْ . » روى عن عدى بن حاتم قال : عمدت إلى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتى فنظرت إليهما فلم يتبين لى الأبيض من الأسود فأخبرت النبى عليه السلام بذلك فقال : إنك لعريض القفا ، أى سليم القلب ؛ لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته - إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل [6] ومن أجل هذا ونظائره نجد أبا عبيدة على حق فى

(١) شرح شواهد المغنى ١٧٢ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ (٢) المحتسب المخطوط ٣٠٨ (٣) المصدر السابق ١٧٧
(٤) تاج العروس : كلمة (٥) فى القول ص ٦٩ نقلا عن كتاب الأيمان لابن تيمية ، وانظر المجمع العلمى المجلد ٣١ ج ١ /١٢٣ ، ١٢٣
(٦) تفسير النسفى ١/٧٥ البقرة آية ١٨٧

وضعه كتاب « مجاز القرآن » والرضى فى المجازات النبوية ؛ فقد ضحك الصحابة حينما جاءت الرسول امرأة مسنة فقالت إنى يتيمة ، فرد عليهم الرسول ضحكهم وقال كل النساء يتامى ، أى ضعيفات ، ذلك لأن الحقيقة كانت تتبادر إلى الذهن دون المجاز ومن ثم احتاج المجاز إلى القرينة . وفى خبر الحجاج مع ليلى الأخيلية أنه حينما أنشدته قصيدة لها وبلغت أحد أبياتها قال له الحجاج : قاتلها الله ، ما أصاب صفتى شاعر منذ دخلت العراق غيرها ، ثم قال يا غلام : اذهب بها إلى فلان فقل له : اقطع لسانها قال فذهب فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها فأمر بإحضار الحجام فالتفتت إليه وقالت له : ثكلتك أمك أما سمعت ما قال : وإنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة والبرّ . فبعث إليه يستبينه فاستشاط الحجاج غضبا وهم بقطع لسانه [1] . وحسبك أن هذا حدث فى العصر الأموى الذى كان شديد التعصب للعرب والعربية ، مع أن العرب ورد عنهم من المجاز الكثير ، وتناقله عنهم الرواة ، وظهر واضحا فى الشعر والأدب فقد أنشد العسكرى فى كتاب الأوائل :

يَسْقُون آبالَهم بالنار
والنارُ قد تَشفِى من الأُوَار

وقالوا نارُها نجارُها . [2] كما نشأت أساليب اتسع فيها ، فتنوسى أصلها وكانت لمناسبات خاصة ، من ذلك « رفع عقيرته بالغناء » وأصل ذلك أن رجلا قد عقرت رجله فكان يضعها على الأخرى راحة لها ويغنّى ، فقيل هذا التعبير فى الغناء،ومثل ذلك ما كان يرتبط بالعادات العربية القديمة ، فقد كانوا يقولون للمعرس : بان ، وقد بنى بأهله . [3] وحسبك أن تتبع الألفاظ : الراوية ، الوغى ، القحبة ، النجو ، الغائط ، الظعينة ، المجد ... الخ [4] لتدرك تطور اللغة وأن كل كلمة تحمل معها تاريخها ، مما ينبىء عن احتياجنا إلى المعجم الكبير . ونحن أمام هذه الألفاظ والتعابير بين أمرين : العلم بأصلها أو الجهل به ، فمما نعلم مبدأ استعماله الكناية فأول من سبق إليها فى الشعر الجعدى بقوله :

أكنى بغير اسمها وقد علم اللهُ خفيّات كُلِ مُكْتَتم [5]

وقد تقدم عمر بن الخطاب الأ

(١) الجليس والانيس مخطوط المجلس الحادى عشر وشرح شواهد المغنى / ٢٠١
(٢) المصدر السابق ١٠٨
(٣) درة الغواص ٤٥ او المنتخب من كنايات البلغاء للجرجانى ١٦
(٤) تاج العروس : روى والصناعتين ٦
(٥) شرح شواهد المغى ٢١٠

يشبّب رجل بامرأة إلا جلده فكنى حميد بن ثور عن المرأة بالسَّرحة فى شعره فقال :

أبىَ اللهُ الا أنّ سَرحة مالك
على كل أفنان العضاه تَروقُ
وهل أنا إنْ علّلت نفسى بسَرْحة
مِن السَّرحْ مأخوذ علىَّ طريقُ [1]

و «مات حتف أنفه» وهم كأسنان المشط[2] من قول الرسول وأوّلياته .

و « أسقط فى يده » تعبير إسلامى .

والحطيئة أو من قال «أعط القوس باريها» [3] وخالد بن برمك أول من كنى عن السؤال بالزوار، حتى قال فى ذلك يزيد بن خالد الكوفى المعروف بابن حَبيبات الشعر [4] وإن كان الصولى ذكر هذا الخبر وأسند القول للمساور بن النعمان ، لا خالد بن برمك ، وذكر شعر زياد الأعجم فى ذلك [5] . وهذا الخبر وإن حمل تضاربا فى إسناده يلقى الضوء على مصدر هذه التسمية . وهكذا بشئ من الصبر نعرف تاريخ الكلمات ونقف على السر فيما عُدّ شاذا ونلمس بُعد نظر ابن درستويه فى التطور اللغوى ، وأن اللغة كانت بحاجة إلى التهذيب وما زالت وحقًا فَعلَ .

النادرة والمثل :

ولا ننسى أثر النادرة والمثل فى اللغة فالصيفَ ضيعتِ اللبن يقال للمذكر والمؤنث بصيغة واحدة ، قال الحريرى فى درته : ويقولون للندّ المتخذ من ثلاثة أنواع من الطيب مثلث والصواب فيه مثلوث ... وأصل هذا الكلام مأخوذ من قولك ثلثت القوم فأنا ثالث وهم مثلوثون . قال الشيخ الإمام رحمه الله : وقرأت فى بعض النوادر أن إبراهيم بن المهدى وصف لنديم له طيب ندّ اتخذه وأتاه بقطعة منه فألقاها فى مجمرة ووضعها تحته فخرجت منه ريح فى أثناء تجمره فقال : ما أجد هذه المثلثة طيبة فقال : أى فديتك قد كانت طيبة حين كانت مثلثة فلما ربّعَها خبثت . قال الشيخ الإمام رحمه الله : وإنما قلت مثلثة لأن النادرة تحكى على الأصل ، ولا يغير ما فيها من اللحن ، ولا من سخافة اللفظ ، ولهذا قال بعضهم : إن ملحة النادرة فى لحنها وحرارتها فى حلاوة مقطعها » [6] . وذلك لأن العرب كانت تعتز بالنادرة وتجعل لها حرمة فلا تتطرق إليها يد الإصلاح ولا يعاب صاحبها

---

(1) المصدر السابق ١٤٣ ، ١٤٤
(2) السابق ١٨١ والكنايات ١١٩
(3) شرح شواهد المغنى ١٦٣ نقلا عن شرح الكامل للبطليوسى
(4) الكنايات للثعالبى ٤٢ ، ٤٣
(5) الكنايات للثعالبى ٤٢ ، ٤٣
(6) درة الغواص ٨٣

بهذا الخطأ . وكذلك لا تغير الأمثال ، ولهم في ذلك تعليل لطيف،قيل للقومسي : لم تقبل النادرة ولا ترد؟ فقال : كأن المعنى في هذا القول أن النادرة ليست مملولة لأنها غير معهودة ولا مرددة ، فهي لا تستحق الردّ ، ألا ترى أنها تعهد إذا قدرت ، ولها حرمتان تقدمنها : حرمة الغريبة وذمام الزائرة البعيدة ، فهي لذلك ليست كأخرى قد عهدت وملّت وقلّيت »[1] . فهذا القول يدل على أنهم يجعلونها ضيفا وزائرة وغريبة بينهم لها حرمة لا تمسّ وقد أوضح ابن درستويه أن للأمثال هذه القداسة [2]. وقد عقد السيوطي في مزهره فصلا للأمثال ذكر فيه أقوالا للصولي وغيره في هذا الشأن . قال المرزوقي في شرحه للفصيح : « المثل جملة مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها ، من غير تغيير يلحقها في لفظها ، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني ، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها ، واستجيز من الحذف في ضرورات الشعر ما لا يستجاز في سائر الكلام » وقال أيضا : « من شرط المثل ألا يغير عما يقع في الأصل عليه » [3].

وعلى هذا الأساس قيل : « أجناؤها أبناؤها » أي الذين جنوا على هذه الدار بالهدم هم الذين كانوا بنوها ، ولهذا ظن أبو عبيد أن المثل هو : جُناتها بُناتها لا أبناؤها، لأن فاعلا لا يجمع على أفعال إلا أن يكون هذا من النوادر لأنه يجئ في الأمثال ما لا يجئ في غيرها. وقالوا : أعط القوس باريها، بتسكين الياء وإن أصلها الفتح والتحريك[4].

وقالوا « هالك في الهوالك » وعسى الغوير أبؤساء ، في المجالس المذكورة للعلماء كثير من مثل هذا لجأ إليه المتناظرون [5]»

الازدواج :

ولا ننسى أثر الازدواج والاتباع في اللغة فَحيْصَ بَيْصَ ، الكلمة الثانية واوية جاءت بالياء للاتباع ، هذا الازدواج الذي قد يغير مبنى الكلمة وصيغتها إلى مبنى كلمة أخرى قد تضادها في المعنى ، فقد ضموا الدال من حدث حين قرنوها بقدم لأجل المجاورة والمحافظة

---

(١) المقابسات . مقابسة ٦٩ (٢) انظر رسالتي للدكتوراه « ابن درستويه اللغوي »

(٣) ، (٤) المزهر صبيح ١ /٣٨٨ ، ٢٨٩

(٥) تاج العروس : فرس ، والمجالس المذكورة لوحة ٣٠ ومجالس أبي مسلم مخطوط ٥٩ بدار الكتب المصرية رقم ٩٠٥٨ أدب .

على الموازنة ، وقد نطقت العرب بعدة ألفاظ غيرت مبانيها لأجل الازدواج وأعادتها إلى أصولها عند الانفراد فقالوا الغدايا والعشايا ، وهنأني ومَرَأني ، وفعلت به ما ساءه وناءه ، وهو رجْس نجْس وهو أهيس أليس . وقد نقل عن النبى (صلى الله عليه وسلم) ألفاظ راعى فيها حكم الموازنة فقال للنساء المتبرِّزات فى العيد : «أرجعن مأزورات غير مأجورات» وقال فى عوذته للحسن والحسين رضى الله عنهما : «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة [1] ».. الخ وقياسها ملمةٌ ، وقياس الأولى موزورات من الوزر وهو الذنب . هذا وابن درستويه يسمى الازدواج بالاتباع أحيانا ، وابن فارس يفعل ذلك ففى مقدمة كتابه « الاتباع والمزاوجة » يفرق بين ما يسمى ازدواجا وبين ما يسمى إتباعا أو سجعا ، وجمع بين الازدواج والاتباع[2] . كما أن هناك عوامل ترجع إلى طبيعة اللغة ذاتها ورموزها ووسيلة توارثها وتناقلها منها :

أ - طبيعة الحروف :

لقد تناولت الألسنة اللغة عن طريق الإرث والرواية الشفهية جيلا بعد جيل ، لأن الكتابة لم تكن فاشية فيهم ، وإن وجد فى الجاهلية بعض الكاتبين ، فها هو ذا الرسول يفتدى بعض أسرى المشركين فى أول غزوة غزاها بأن يعلم كل أسير يكتب عشرة من المسلمين الكتابة والقراءة ، خاصة وقد حث القرآن عليها فى أول ما نزل من القرآن « اقرأ بأسْم ربِّكَ الذى خَلَق » ، نعم كان هناك كتاب للوحى كعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان وأُبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت ، وخالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير ، وزيد بن أرقم بن عبد يغوث ، والعلاء بن عقبة ، وعبد الله بن الأرقم ، وحذيفة بن اليمان [3] . وقد ساعدت الأمية الرواة على الافتعال ووجدوا مجالا رحبا رغبة فى التفاخر ، واستغل العلماء اختلاف الرواة أشنع استغلال ، فعقَّدوا بذلك قواعد العربية وعلومها ، فكثير من شواهد النحو تسقطها الرواية ، ويظهر ذلك بصفة خاصة عند المبرد الأديب النحوى فى تعقبه لشواهد سيبويه فى الكتاب .

هذه الكتابة العربية مدعاة لاختلاط

(١) درة الغواص ٤٥ - ٤٧ .
(٢) الإتباع والمزاوجة مخطوط رقم ٥٥ لغة مش دار الكتب الورقات ٥٠ - ٥٢ .
(٣) العقد الفريد وعلى هامشه زهر الآداب ٢ / ٢٠٤ .

الحروف لتشابهها فى الطبيعة كالباء مع التاء، والثاء والياء والسين مع الشين والصاد مع الضاد،والطاء مع الظاء والعين مع الغين وهكذا ، وانعدمت فيها الحركات أول الأمر ، مما كان مدعاة للتصحيف والتحريف ، ولما اخترع الشكل كان نقطا ، فكان اختلاط السين بالشين ذا أثر كبير فى العربية لذا ألف صاحب القاموس كتابه « تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين » تتبع فيه أوهام المجمل فى نحو ألف موضع . ووجدت كتب للفروق بين الضاد والظاء وهكذا . فاختلاط لفظى سمل وشمل كان من نتيجته أن قيل : سمل بين القوم أصلح بينهم ، وسمل بينهم أفسد ، فعدّ من حروف الأضداد ، وفى رأيى أن الأول شمل أى جمع ما تفرق لأن فى الصلح جمعا ، فقد روى بيت قيس بن الخطيم :

أنىّ سَرَيْت وكنت غير سروب

وتقرّبُ الأحلامُ غير قريب

بالباء على رواية ابن دريد ، وبالياء سريت على رواية غيره . وفرق بين معنى السارب الذاهب على وجهه فى الأرض ، والسارى : السائر بالليل . وبيت كعب بن زهير :

لكنها خُلّة قد سِيط من دَمِها

فجْعٌ وولَعٌ وإخْلافٌ وتَبْديل

جوزوا قراءته بالشين المعجمة : شيط ، كما روى بيت المتلمس بالوجهين :

أحارثُ إنالو تُشاط دماؤُنا

تزايَلْنَ حتىّ لا يَمسّ دمٌ دَما

وكذلك بيت عمرو بن أذينة :

لقد علمتُ وما الإشْراف من خُلُقى

أنّ الذى هو رِزْقى سَوْفَ يأتينى

بالسين والشين ، وقول الشاعر :

أعلّمه الرماية كلّ يوم

فلما اسْتَدّ ساعدُه رَمانى

روى بالمعجمة بمعنى الاشتداد ، والرواية الصحيحة بالمهلة، استد من السداد الذى هو الصواب . وسمّت العاطس وشمته من هذا الباب، فمن أهملها دعاله بالبقاء على سمته ، ومن أعجمها دعا له بأن يسلب عنه شامتوه أى لا يصيبه شئ فيشمت به عدو . وكذلك الشطرنج بالمهملة لأنه يجعل أسطرا وبالمعجمة لأن اللاعبين يقتسمون القطع شطرين والشطر النصف [1] ، وإن كان هذا يدخل تحت تلعب العرب بالمعرّب من الأسماء كإبراهيم وإبراهام

(١) شرح بانت سعاد ٣٢ ، ٣٣ .

وإبرهم ... الخ ، وروى بيت الفرزدق هكذا :

وإنّ الذى يسْعَىَ لِيُفْسِدَ زَوْجتى
كساعٍ إلى أسْدِ الشَّرى يَسْتَبِيلها

فتعب أهل الأدب والنقد فى تفسير البيت على هذه الرواية ، والصواب روايته يشتبيلها بالشين ، ويؤيد هذا ما جاء فى كتاب الحيوان فقد ورد فيه « يشتُبيلها »[1] بدل يستبيلها ، وفسره بأن معناه يأخذ أشبالها أى أولادها ، وغير ذلك كثير مما تضمنته بطون الكتب كالتصحيف والتحريف للعسكرى ، وكتصحيف المحدِّثين وغيرهما .

وأما عن غير السين والشين فكتصحيف بيت ذى الرمة :

...... فيها الضفادعُ والحِيتانِ تُصْطَخب

– مما جعل أبا على الأصبهانى يقول للأصمعى : أىّ صوت للحيتان يا أبا سعيد ، إنما هو تصطحب بالحاء المهملة ، أى تتجاور[2] » ، وأنشد بلال بن أبى بردة وذو الرمة حاضر – لحاتم طيئ :

لَحى اللهُ صُعْلوكا مُناهُ وهمُّه
من العيْش أنْ يَلقى لَبوسًا وَمُطْعما
يرى الخمس تَعْذيبا وإنْ يَلْقَ شَبعة
يَبتْ قلبُه من شِدة الغمّ مُبْهَما

فأنكر عليه ذو الرمة وقال : إنما هو الخمص من خماصة البطن ، ورد عليه بلال بقوله : كذا أنشدنى رواة طيئ[3] .

وأنشد ابن دأب :

وهُمْ مَنْ ولَدوُا أشْبَوا
بِسرِّ الحَسَبِ المَحْضِ

فقال أسنوا يعنى ارتفعوا . فبلغ ذلك أبا عمرو فقال : أخطأت استه الحفرة ، إنما هو أشبوا أى كفوا ، أما سَمع قول الآخر :

وذو الرُّمْحيْنُ أشْباكَ
من القُوةِ والحَزْمِ[4]

وقد ضرب السيوطى فى مزهره أمثلة كثيرة لما أخذ على العين والصحاح من التصحيف والتحريف[5] .

والتصحيف يكون فى نقط الحروف المتشابهة ، والتحريف أعم ، أوهما مترادفان ، أو أحدهما خاص بالشكل والثانى بالحروف . أقوال .

وفى رأيى أنه ساعد على ذلك ما كان من العرب من حملهم – أحيانا – على الألفاظ لصحة المعانى ، مع ما عرف عنهم من العناية بالألفاظ كذلك – فقد حدث أن أبا العباس المبرد فى مجلس سعيد بن مسلم الباهلى حيث أنشد الأصمعى بيت الحارث بن حلزة :

---

(١) حياة الحيوان للدميرى ١ / ١١ .
(٢) شرح بانت سعاد ٦٩ .
(٣) التصحيف والتحريف للعسكرى ٢١ .
(٤) المصدر السابق ٢٤ ، ٢٥ والذى أنشده ابن دأب هو لذى الإصبع .
(٥) المزهر . صبيح ٢ / ٢٣٧ ، ٢٤١ وما بعدهما .

عَنَتاً باطلا وظُلما كما تُعـ

ـتزعن حَجْرة الرَّبيض الظباءُ

فقلت له إنما هو تعتر من العتيرة ، والعتر : الذبح ، فقال الأصمعى تعز أى تضرب وتطعن بالغزه وهى الحربة وجعل يصيح ويشغب، فقلت له تكلم كلام النمل وأصب ، والله لو نفخت فى شبّور يهودى وصحت إلى التنادى ما نفعك شئ ولا كان إلا تعتر ولا رويته أنت بعد اليوم إلا تعتثر فقال الأصمعى والله لا رويته بعد هذا اليوم إلا تعتز (١) .

وقد فسر التبريزى معنى العتر فى شرحه للمعلقات عند حديثه عن هذا البيت (٢) .

وقال أبو حاتم السجستانى : قرأ الأصمعى على أبى عمرو بن العلاء شعر الحطيئة فقرأ قوله :

وغَرَرْتَنى وزَعَمتَ أنّكَ لابنٌ بالصيف تامِرِ

أى كثير اللبن والتمر فقرأها : لا تنى بالضيف تامُر بتخفيف الهزة يريد لا تتوانى عن ضيفك تأمر بتعجيل القرى إليه،فقال أبو عمرو : أنت والله فى تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة (٣)

وحتى بعد تعلم العرب الكتابة كانوا يكرهون النقط، على أن الحركات نفسها كانت نقطا فى بادئ الأمر فكان كثير من الالتباس والخلط . وساعد عليه كذلك قرب مخارج بعض الحروف من بعض ، حتى ألفت الكتب فى ذلك :

كالتصحيف والتحريف لأبى أحمد – وكناه بروكلمان أبا على ٢ / ٢٥٠ – الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى المتوفى سنة ٣٨٢ هـ كما جاء فى الرسالة العذراء لابن المدبر : إياك والنقط والشكل فى كتابك ، إلا أن تمر بالحرف المعضل أى الذى تعلم أن المكتوب إليه يعجز عن استخراجه فلأن يشكل علىّ الحرف أحب إلىّ من يعاب بالنقط والإعجام .

وقال المأمون لكتابه : إياكم والشونيز فى كتبكم ، بمعنى النقط والإعجام ، ولذلك قال ابن هانئ :

لم تَرْضَ بالإعْجامِ حيَن كتبْتَه

حتى شَكَلْتَ عَليه بالإعْراب (٤)

والأبيات بتمامها فى أدب الكتاب للصولى (٥) . فكانوا يعتبرون نقط الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه . وحتى القرآن نفسه تطرق الوهم إلى خطأ الكتاب فيه – ولى

(١) المزهر ٢ / ٢٢٥ ، ٢٣٦ .
(٢) شرح المعلقات ٢٦٠ وإنباه الرواة ١ / ٢٢٣ .
(٣) المزهر ٢ / ٢٢٣ .
(٤) الرسالة العذراء ٣٥ فقرة ١٥ .
(٥) أدب الكتاب ٦١.

تحفظ على ذلك – ففى المحتسب لابن جنى : .... ومن ذلك قول ابن عباس أخطأ الكاتب ، إنما هو تستأذنوا يعنى قوله تستأنسوا ، وكذلك يروى عن عبد الله عن أبى : حتى تسلموا أو تستأذنوا وكذلك قرأ ابن عباس[1] » . وفيه أيضا : « ومعنى يؤتون ما أتوا يعطون الشئ فيشفقون ألا يقبل منهم . وحكى عن إسماعيل بن خلف قال : دخلت مع عبيد الله بن عمير الليثى على عائشة (رضى الله عنها) فرحبت به فقال لها : جئتك لأسألك عن آية فى القرآن . قالت أى آية هى ؟ فقال : « الذين يأتون ما أتوا أو يُؤتون ما أتوا » فقالت أيتهما أحب إليك ؟ فقلت لأن تكون يأتون ما أتوا أحب إلى من الدنيا جميعا فقالت سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول « يأتون ما أتوا » ولكن الهجاء حُرِّف [2] .

والمصحف على كتابة عثمان خلا من النقط والشكل ليحتمل وجوه القراءات المأثورة المختلفة .

وقد أرجع جورجى زيدان التصحيف والتحريف إلى قراءة الخطوط وأنه لم يحدث إلا بعد تدوين اللغة [3] . والحق أنه لا يرجع إلى الخط وحده بل قد يرجع بعضه إلى قرب مخارج الحروف ، وبعضه الآخر إلى الاحتمال فى المعنى كما فى استد واشتد وسمت وشمت وأمثالهما ، ماله توجيه صحيح ، أو إلى صعوبة النطق بالحرف وخاصة عند غير العرب إلى غير ذلك من أسبابه . ومعلوم باتساع رقعة الإسلام وجد التعريب والدخيل وفشا اللحن ، وإن كان موجودا من قبل كما سمع الهول يقول عند ما لحن أحد الصحابة « أرشدوا أخاكم فقد ضل » والعرب كانت تجاهده وتكرهه حتى من النساء ، وخاصة الحجاج جاهده من نفسه جهادا وفى ذلك قصص فشاعت تربية ولاة العهد فى البوادئ وقصة إقواء النابغة وإصلاح شعره بالمدينة مشهورة .

وقال أبو بكر « لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فألحن » وقال النبى « أنا من قريش ونشأت فى بنى سعد فأنىّ لى اللحن » . واشتهرت بعض القبائل بالفصاحة وكتب كاتب لأبو موسى الأشعرى إلى عمر : « من أبو موسى » فكتب إليه عمر : سلام عليك أما

(١) المحتسب مخطوط ٢٢٣ من سورة البقرة آية ٢٧ .
(٢) المصدر السابق ٢١٨ .
(٣) اللغة كائن حى ٥٦ – ٥٨ وهامشها
(١) مراتب النحويين ٥ ، ٦ ، وأضداد الأنبارى ٢١٣ ، ٢١٤ والبيان والتبيين ١ / ٨٢ ، ١٢٧ و مجلة الزهراء م ٣٢ ص ٤٥٦ .

بعد : فاضرب كاتبك سوطا واحدا وأخر عطاءه سنة . وأول لحن سمع بالبادية هذه عصاتي وقصص اللحن كثيرة [1] .

الفروق :

كان من دأب العرب الفرق بين المعاني بالشكل بالحركات كالفاعل والمفعول فضحكة بالتحريك للفاعل مبالغة ، وضُحْكة بالسكون للمفعول مبالغة أيضا وسُبَّة وسُبَبَة ، وحمِل بالكسر للمنفصل وحَمل بالفتح للمتصل ، وفرقت بالحركات بين اللازم والمتعدى في نحو كَسَا وكَسِيَ ونحوها فلعبت الحركات دورها في اللغة فقدم يجيء متعديا وهو الكثير كما يجيء لازما قدم بين يديه أى تقدم

قال تعالى « ولا تُقدِّموا بين يَدَيْ الله ورسوله » الحجرات آية ١ وعلى هذا يجوز فتح الدال من لفظ (مقدمة) باعتبار المفعولية لأن الذاكر لها قدمها على غيرها ، وكسرها باعتبار الفاعلية لأنها تقدمت بين يدى المذكور بعدها [2] .

وفرقوا بين المشترك بالمصادر فبغى الشئ إذا طلبه بغية ، وبغى إذا ظلم بغيا بالفتح ، وبغى الضالة بغاية بالضم عن الأصمعى [3] .

وقَنِع يقنعَ قناعة وقَنَع يقنَع قنوعا بمعنيين متضادين ، وكذلك مصدر وجد الضالة ووجد من الحزن أو من الوجدان ... الخ [4]. كما فرقوا بالجمع لاختلاف المعنى فالشجَن بمعنى الحزن جمعه أشجان ، وبمعنى الحاجة جمعه شجون ، وأنشد الجوهرى :

ذكرتُكِ حين استأمَن الوحش والتقَتْ
رفاقٌ من الآفاقِ شَتّى شجُونُها

أراد حاجاتها ، وروى لحونها أى لغاتها . وأنشد :

أنرىَ الزمان كما عَهِدْت بوَصْلكم
يوماً يَجودُ لِتنقضِى أشْجانى

وقولهم الحديث ذو شجون ، أى ذو فنون وأغراض [5].

الحذف والاختصار :

قد حذفت العرب من الكلمة حتى أجحفت بها أحيانا ، فياسين يحتمل أن يراد بها إنسان أو ياسيد إلا أنه اكتفى من جميع الاسم بالسين قال الشاعر :

فياليتنى من بَعدْ ما طاف أهْلها
هَلكتُ ولم أسْمَعْ بها صَوْتَ ياسين

(١) مراتب النحويين ٥ ، ٦ ، وأضداد الأنبارى ٢١٣ ، ٢١٤ والبيان والتبيين ١ / ٨٢ ، ١٢٧ و مجلة الزهراء ٣٢ ص ٤٥٦ .
(٢) المعتبر للزركشى مخطوط دار الكتب رقم ٤٥١ حديث تيمور ص ٤٠٣ .
(٣) تاج العروس : بغى .
(٤) شرح الفصيح لابن درستويه نسختى الخاصة ١ / ١٤١ .
(٥) تاج العروس شجن .

قيل معناه صوت إنسان . وقد حذف الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله « كفى بالسيف شا» أي شاهدا ، ويؤكد ذلك ما ذهب إليه ابن عباس في : حم وعسق ونحو ذلك من أنها حروف من جملة أسماء الله تعالى وهي رحيم وعليم وسميع وقدير ونحو ذلك ، وشبيه به قول الشاعر :

قلنا لها قفي قالتْ قاف - أي وقفت ، فاكتفى بالحرف عن الكلمة [1]. وقولهم قلنا ألاتا : فقالوا ألافا ... الخ .

الاشتقاق :

اشتقت العرب من الفعل ومن الأسماء والجوامد ، فالنيروز بمعنى اليوم الجديد قد اشتقوا منه الفعل كقول على كرّم الله وجهه حينما قدم إليه شئ من الحلوى في يوم النيروز : نيرزونا أكل يوم،وفي المهرجان: مهرجونا كل يوم ، فهذا من المعرّب . وقالوا تحجّر الطين : صار حجرا ،ورآه ضرب رئته وعصاه ضربه بالعصا وسافه بالسيف وساطه بالسوط وأماه السكين سقاه الماء وجلس القوم يجلسون جلسا أتوا الجلس، والمنجد الذى أتى نجدا،قال مروان بن الحكم ونسب لغيره :

قل للفرزدق والسَّفاهةُ كاسْمها

إن كُنتَ تاركَ ما أمرتُكَ فاجْلسِ

ورأيتهم يَعدْون جالسين أي منجدين ، وجلس السحاب أتى نجْدا . وقال ساعدة بن جؤية .

ثم انتهىَ بصرى وأصبح جالسا

منه لنجد طائفٌ متَغرِّبُ

وفي الحديث أنه أقطع بلال بن الحارث معادن القبليا غوريّها وجليسيّها [2]. قال ابن الأثير : وفي كتاب الأمكنة : معادن القلبة . وهكذا ذكر ابن درستويه الاشتقاق من الأب والأم والأخ ... وكل ماسبق كان سببا في الاشتراك والترادف والأضداد وما إليها ، مما كان لابن درستويه به غاية .

تطور الدلالة :

إن دراسة التطور الدلالى بدأها حديثاً بريل أواخر القرن التاسع عشر ، واقتصر في هذه الدراسات على الجانب الذاتي للألفاظ وأغفلت العوامل الاجتماعية والخارجية ، وبدأ يدخل هذا الميدان متخصصون عديدون كعلماء النفس والطبيعة والمشتغلون بالصحافة [3]. وقدْ تناول شيئا من ذلك جورجى زيدان، فأرجع الشتاء في

---

(١) تاج العروس : السين .

(٢) المصدر السابق : نزر ، جلس .

(٣) دلالة الألفاظ ص ٣ - ٦ .

الأصل السامى فى الدلالة إلى « الشرب أو الرىّ أو الصبّ » فهى كذلك فى العبرانية والسريانية إلى اليوم . وكتب فى أصل دلالته على الحفر فى الحجر أو الخشب ، والملح من «ملح أو ملأ» أى نبع الماء . ومرء أصل دلالتها فى اللغات السامية القوة ، ومنها إلى الرياسة ثم إلى الإنسان . ولا زالت فى السريانية تدل على الربّ فقط . والبعل بمعنى الزوج أصل دلالته السيد أو الرب وهكذا أرجع ألفاظ أخرى كالتاريخ وغيره . كما أرجع ألفاظ الترادف وألفاظ الأضداد والمشترك إلى تفرع ألفاظ اللغة ومعانيها بالنمو والتجدد وتكاثر الدخيل [1]. كما تناولها الدكتور على عبد الواحد وافى فذكر العوامل المؤثرة فى تطور الدلالة وأرجعها إلى مبلغ وضوح دلالة الكلمة فى الذهن ، أو أنها ترجع إلى عوامل تتعلق بأصوات الكلمة ، أو إلى عوامل تتعلق بالقواعد ، فقال إن تذكير كلمة « ولد » مثلا فى العربية بمعنى ولد صغير معناها يرتبط فى الذهن بالمذكر ، فأصبحت لا تطلق فى العامية إلا على الولد من الذكور [2]. وعرض لها المرحوم الدكتور أنيس بشكل أوسع ، فتحدث عن ظاهرة التطور وأنها شائعة فى كل اللغات ، ثم عن الحقيقة والمجاز ، ذاكرا من عوامل التطور : الاستعمال وسوء الفهم ، وبلى الألفاظ ، والحاجة ودوافعها ، ثم تحدث عن أعراض التطور الدلالى من تخصيص الدلالة أو تعميمها أو انحطاطها أو رقيها ، أو تغير مجال استعمالها لأسباب ذكرها [3] وحسبك أن تعرف أن أصل كلمة « المجد » هى فى الأصل علف الدابة ، فأنظر كيف صارت من المحسوس إلى المعنوى. ولا شك فى قيمة هذين المرجعين « اللغة والمجتمع » و « دلالة الألفاظ » لأنهما بذلك فتحا فتحا جديدا فى الدراسات العربية ، إلا أن ذلك لا يمنع من إيراد بعض الملحوظات عليهما ، ذلك أن أغلب الاستشهاد فيهما من غير العربية الفصحى سواء كان ذلك عاميا أو أجنبيا ، وهذه الظاهرة أخف فى دلالة الألفاظ منها فى « اللغة والمجتمع » وبخاصة فى ناحية الصوتيات ، فإليها فى الغالب يرجعان التطور، ومن المعروف أن التطور فى العامية أسرع وأشمل وأظهر منه من الفصحى لأسباب معلومة .

---

(١) اللغة كائن حى ص ٤٩ وما بعدها ، ص ٦٠ .
(٢) اللغة والمجتمع ٨٨ - ٩٠ .
(٣) انظر دلالة الألفاظ للدكتور أنيس ١١٨ - ٦٠ .

وسأتناول في البحوث التالية هذا التطور بشيء من التفصيل داخل مجال اللغة الفصحى عند الكلام عن آراء ابن درستويه اللغوية .

ومن أبرز مظاهرها العموم والخصوص، فكثيرا ما انتقل اللفظ من الكل إلى الجزء وعكسه أو من الصفة إلى الموصوف ؛ فاللحم في العربية معناه في اللغات السامية : الطعام عامة ثم خصته العرب في دلالته على أهم أصناف الأطعمة عندهم وهو اللحم ، وصار يدل على الخبز في السريانية .

والأصل في طبخ الدلالة على الذبح ، واللفظان متشابهان فتحول معناها في العربية إلى معالجة اللحم للطعام ، واستعملوا للذبح كلمة تقرب منها . ووجدت أن « أحلبت » بالمهملة معناه أعانت ، قال المرزوقي : وأصله الإعانة في الحلب خاصة ، ثم استمر في الإعانات عامة ، قال : وقد يكون الشيء مختصا في الأصل ثم يصير في العرف عاما ، كما يكون عاما في الأصل ثم يصير مختصا [1] وكلمة الدابة في أصلها لكل ما يدب على الأرض قال تعالى « وما من دابَّة إلاَّ على الله رِزْقُهَا » الآية ، ثم خصها العرف بذوات الأربع وهكذا فخصّت بنوع مما لايعقل ، وهكذا تبادل الخاص والعام التأثير بعضهما في بعض . ومن ثم درّسه الأصوليون .

٣ - تهذيب اللغة

كان هذا المدخل لازما لدراسة آراء ابن درستويه ومواقفه من خصائص العربية ، وما دامت اللغة متطورة خاضعة للمجتمع وما يجرى فيه بحكم أنها ظاهرة من ظواهره ، فهي بحاجة إلى التهذيب والإصلاح ، واليونانيون تناولوا لغتهم بالإصلاح على يد «سقراط» حينما أفقدها السوفسطائيون معانيها بسفسطتهم . كما وضع للإنجليزية حديثا حدود وقواعد وأسس أساسية ، وأظهر من ذلك كله ما حدث في فرنسا في صدر القرن السابع عشر إذ عنوا بتوضيح معاني الكلمة وبتجديد مدلولاتها، وبتفريق ما اقترب معناه حتى كاد يغمّ عليهم أمره ، وبتخصيص الجمل بتعابير مستقلة بعد أن كاد بعضها يكون مشتركا ، تستعمل الجملة الواحدة في معان مختلفة من غير تفريق بينها ، وحصروا كثيرا من المترادفات في معان مختلفة ، بحيث أصبح لكل لفظ منها معنى خاص [2] ذلك ما

---

(١) شرح شواهد المغنى ٧٣

(٢) مجلة المجمع العلمى م ٨ ص ٦٠٢ من السنة الثامنة .

قالة «لانصون» مدير دار المعلمين العليا فى كتابه « تاريخ الأدب الفرنسى » الطبعة الثامنة عشرة .

هذا ما حدث فى اللغات الأخرى ، فماذا حدث فى اللغة العربية ؟ يسعفنا المرحوم أمين الخولى بالحديث عن التطور فيها وأنه الجذر العميق للمنهج العلمى اللغوى ، وأنه يقتضى عملا جادا، وعرض لقضايا تطورية وكان حديثه عاما أشبه بما يسمى اليوم بالتخطيط، ونفى أن تكون معاهدنا الجامعية منها وغير الجامعية قد اتجه إلى شىء من أمر هذا التطور اللغوى ، ورأى أن علم الوضع لاجدوى للأشتغال به اليوم . ونعى على الذين نقلوا من الغرب أن العربية مرت بأربع مراحل مما يسمى « تهذيب اللغة أو تنقيحها » هى : –

١ – ما عمله يعرب بن قحطان

٢ – ما عمله إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام لما أصهرا إلى جرهم .

٣ – ما عملته قريش بمكانها من الجزيرة فى الحرم وانتخابها الأمثل من لغات العرب التى تفد عليها،وبهذه اللغة المهذبة نزل القرآن .

٤ – ما عمله اللغويون فى جمع اللغة من تهذيب قصرها على ما أثر عمن أختاروا الجمع عنهم من خُلّص العرب ومن لا يجاورون الآمم الآعجمية [1] .

ولا أرى – بدورى – وجها لأنكاره ذلك إلا فى المرحلتين الأوليين ، أما الثالثة والرابعة فأقرّ ذلك لما سبق أن قلته من تضافر عوامل دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية على سيادة لهجة قريش التى نزل بها القرآن فى معظمه ، وقد سبق قول الفارابى فى أفصحية بعض القبائل ، وفى ارتفاع لغة قريش - عن اللغات المذمومة ، وفى تخيرها الأعذب والأسهل . بل أضيف إلى المرحلتين الأخيرتين مرحلة ثالثة هى ماسماها « يوهان » « مبدأ تنقية اللغة » ذلك المذهب الذى أسهم فيه ابن درستويه بنصيب الأسد حينما هاله أمر اللغة وما آلت إليه ، كما سبق أن أوضحت ، واستغلال الشعوبيين لذلك ، وكذلك الخلط فى ما سمى « خصائص العربية » وما دخلها حينئذ على يد الفرس وعوام الشعب ، فهب ينافخ عنها آخذا بيدها ، مهذبا ، كما تشذب الشجرة لتورق وتثمر، فأزال عنها ما هو كالميت منها ، ورد كل شىء إلى أصله ، وأثبت تطورها ، ومحا عنها الوصمة التى رمتها بها الشعوبية،

(١) محاضرات عن مشكلاح تياتنا اللغوية لأمين الخولى طبعة ١٩٥٨ ص ٤١ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٩ .

فألف رسالته إلى نجيح الطولونى فى تفضيل العربية ، وبكتابه كتاب الكتاب فى الحفاظ على اللغة وصيانتها مما أسهم به فى مجال نقد النشر . وصنف فى إبطال الأضداد ، وإبطال الترادف فى كتابه فعل وأفعل ، ليحدد بذلك المعانى وليرجع كل لفظ إلى لغة معينة أو إلى أصله ، وألف فى إبطال الزيادة فى الكلام وغير ذلك ، وإن فقدت هذه الكتب فقد جاء منها أمثلة فى شرحه للفصيح ونقل فيه عنها لأنه كما يبدو كان آخر مؤلفاته ، ومن قبله فعَل ثعلب فحدد ما تخطىء فيه العامة وما لا تخطىء فيه . مما صار مقياسا للصواب اللغوى فى عصره وما بعد عصره إلى غير ذلك من كتبه .

فلابن درستويه فضل السبق فى التهذيب اللغوى عامة ، فقد قام منذ عشرة قرون تقريبا بما طالعتنا به فرنسا إبراز لغتها فى القرن السابع عشر الميلادى ، أى بعد عمل ابن درستويه بما يقرب من ثمانية قرون .

وهأنذا الآن أقوم بدراسة الخصائص اللغوية على ضوء آرائه فيها مبينا وجه الحسن والقبح فيما ترك لنا من مذاهب لغوية ونحوية فقد أعمل فكره ونظره حيث كان من النظارين كما وصف بذلك ، مع اعتبار ميزتين هامتين فى آرائه هما :

١ - تهذيب اللغة الذى لحظه الأزهرى حينما سمىّ معجمه التهذيب .

٢ - تطورها واعتبارها كائنا حيا يعتريه ما يعترى الأحياء من ضعف وقوة وحياة وموت وفقر وغنى ، كما اعتبر فيشر فى معجمه الكبير .

وإن امتد الأجل ذكرت آراءه النحوية الخاصة وما انفرد به دون النحاة ، وعرضت لجملة آرائه من خلال شرحه لفصيح ثعلب .

والله الموفق ..

(للبحث بقية)

محمد بدوى المختون

ظاهرة
دخول حروف الجر بعضها مكان بعض
عرض - تحليل - نتائج

الدكتور حسين محمد محمد شرف

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ المبعوث خاتما للنبيين ورحمة للعالمين ، وبعد فإن حروف المعانى فى لغتنا العربية الخالدة قد ظفرت باهتمام علماء العربية منذ بدء الاشتغال بعلومها فى أواخر القرن الأول الهجرى ، وأوائل القرن الثانى ، وما زال موضع اهتمام الباحثين والدارسين إلى يومنا هذا ، فألفت فيها الكتب الخاصة بها ، وعقدت لها الفصول والأبواب فى أمهات الكتب ، وعولجت فى ثنايا كثير من المؤلفات .

ومن العلماء الذين أفردوها بمؤلفات خاصة بها ، وآثارهم بين أيدينا :

- أبو الحسن على بن عيسى الرمانى " النحوى (ت ٣٨٤ هـ) فى كتابه " معانى الحروف " .
- أبو الحسن على بن محمد الهروى النحوى (ت ٤١٥ هـ) فى كتابه " الأزهية فى معانى الحروف " .
- أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد المالقى (ت ٧٠٣ هـ) فى كتابه " رصف المبانى فى شرح حروف المعانى "
- أبو محمد حسن بن قاسم بن عبد الله المرادى (ت ٧٤٩ هـ) فى كتابه " الجنى الدانى "

وممن أفرد الحروف بمؤلفات ، ولم تصلنا بعد :

- أبو الحسن على بن حمزة الكسائى إمام نحاة الكوفة (ت ١٨٣ هـ) ذكر ذلك صاحب بغية الوعاة ١٦٤/٢
- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٦ هـ) ذكر ذلك صاحب إنباه الرواة ٢٥٢/٣ .

وغيرهما كثير .

ومن العلماء الذين عقدوا لها الأبواب والفصول فى كتبهم :

- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) فى كتابه " الغريب المصنف "
- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) فى كتابه " أدب الكاتب " .
- أبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢ هـ) فى كتابه " الخصائص " .
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) فى كتابه " الصاحبى "
- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى (ت ٤٣٠ هـ) فى كتابه " فقه اللغة وأسرار العربية "

- علي بن إسماعيل بن سيده (ت ٤٥٨ هـ) في كتابه " المخصص "
- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في كتابه " المفصل وشرحه
لموفق الدين بن علي المشهور بابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ) .
- أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة (ابن الشجري) (ت ٥٤٢ هـ) في كتابه " الأمالي الشجرية " .
- عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) في كتابه " الكافية في النحو " وشرحه لرضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (ت ٦٨٦ هـ) .
- جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) في كتابه " مغني اللبيب "
- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في كتابه " البرهان في علوم القرآن " .
- الإمام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) في كتابه همع الهوامع شرح جمع الجوامع .

ومن العلماء الذين عرضوا لها في ثنايا كتبهم ، وفي أكثر من مكان من هذه الكتب :
- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر " سيبويه " (١٨٠ هـ) في الكتاب
- أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي " الفراء " (٢٠٧ هـ) في كتابه " معاني القرآن " .
- أبو العباس محمد بن يزيد " المبرد " (٢٨٥ هـ) في كتابه " المقتضب"

وقد شملت دراسة هؤلاء العلماء وغيرهم " حروف المعاني " من جوانب مختلفة فدرسوها :
- من حيث ما تدخل عليه .
وجعلوا مايصلح للدخول على الأسماء والأفعال " مشتركا " وربطوا بين الاشتراك وعدم التأثير الإعرابي غالبا ، وجعلوا مايدخل على الفعل وحده أو الاسم وحده " مختصا " وربطوا بين الاختصاص والتأثير الإعرابي بشرط ألا يُنزَّل الحرف المختص منزلة الجزء من الاسم والفعل، ومما ينزل من الحروف منزلة الجزء فلا يعمل، لام التعريف مع الاسم ، وحرف التنفيس مع الفعل .
- ومن حيث ما تؤديه من معان مع غيرها من أقسام الكلمة .
- ومن حيث تعدد معانيها .
- ومن حيث اشتراك أكثر من حرف في أداء معنى واحد .

- ومن حيث استعمالاتها .
- ومن حيث أثرها الإعرابي فيما تدخل عليه .
- ومن حيث دخول بعض هذه الحروف مكان بعض، أو نيابة حرف منها عن حرف آخر في معناه .

وسوف يقتصر عملي في هذه الدراسة المتواضعة على بحث مسألة دخول بعض حروف الجر مكان بعضها الآخر ، أو بعبارة أخرى نيابة حروف الجر بعضها عن بعض . وتتلخص دراستي لها فيما يأتي :

بيان المراد من دخول حرف جر مكان حرف جر آخر .
عرض أكبر قدر يمكنني الوقوف عليه من الأمثلة التي وردت في القرآن الكريم، والحديث الشريف ، والشعر العربي ، والمحكي عن العرب ، والتي على أساسها وجدت هذه الظاهرة .
موقف علماء العربية من دخول حرف جر مكان حرف جر آخر .
كيف وفق القائلون بمنع ذلك بين وجهة نظرهم وبين هذه النماذج الكثيرة والمتنوعة التي تشهد لغيرهم .
جهود القائلين بالمنع في توجيه الأمثلة موضوع الدراسة .
غاية البحث ونتيجته .

وبعد، فهذه الخطوط العريضة لتلك الدراسة التي عزمت على تقديمها في الصفحات الآتية متوكلا على الله ، مستمدا منه الهدى والسداد ، وتحقيق الغاية والمراد إن شاء الله تعالى .

مفهوم دخول بعض حروف الجر مكان بعض*

إذا تأملنا أساليب لغتنا العربية ممثلة فى القرآن الكريم، والحديث الشريف ، وكلام العرب شعره ، ورجزه ، ونثره ، وطبيعة استخدام هذه اللغة لأفعالها تبين لنا ما يأتى :

- أن من أفعال العربية أفعالا ترفع الفاعل وتتجاوزه بنفسها وطبيعتها إلى نصب المفعول به، ومن هذه الأفعال : فتح ،طلب - فهم .
يقولون : فتح القادم الباب . طلب الباحث الحقيقة . فهم السائل الإجابة .
- وأن من أفعالها أفعالا ترفع الفاعل ، ولا تتعداه إلى نصب المفعول به بنفسها وطبيعتها . ومن هذه الأفعال : ذهب . جلس . خرج .

لا يقولون : ذهب الطالب المكتبة . جلس المريض المقعد . خرج المصلى المسجد .
فإذا أرادوا تعدية هذه الأفعال ، وما على شاكلتها إلى المفعول به رفدوها بحرف من حروف الجر ، وأوصلوها به إليه ، وعاملوا الفعل القاصر مع حرف الجر معاملة الفعل المتعدى بنفسه إذا كان فى معناه .
فقالوا : ذهب الطالب إلى المكتبة ، جلس المريض على المقعد ، خرج المصلى من المسجد . وناسب كل فعل من هذه الأفعال التى تصل إلى المفعول به بمساعدة حرف من حروف الجر حرف خاص به يلتقى الفعل معه فى معناه الأصلى ، فيستقيم التركيب ، ويقبل الاستعمال .

---

* انظر فى ذلك :
- سيبويه ٤١٩/١ : ٤٢١ ، ٢٦٨/٣ - ٤١٢ ، ٢١٧/٤ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٣١ تحقيق شيخى الأستاذ عبد السلام هارون .
- المقتضب ٣١٧/٢ : ٣١٩ تحقيق شيخى المرحوم محمد عضيمة .
- الخصائص ٢٠٧/٢ : ٣١٥ تحقيق شيخى المرحوم محمد على النجار .
- ابن يعيش على المفصل ٨/٨ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ٥٠٠ .
- الأزهية فى علم الحروف للهروى .
- مغنى اللبيب لابن هشام ١٠٢/١ - ١٠٣ .
- الجنى الدانى فى حروف المعانى .
- حاشية الخضرى على شرح " ابن عقيل " ٢١٥/١ .
- همع الهوامع ١٥٣/٤ .

ومن هذا : التقاء الحرف " إلى " الذى يدل أصلا على الانتهاء مع الفعل " ذهب " والحرف " على " الذى يدل أصلا على الاستعلاء مع الفعل جلس والحرف ". من " الذى يدل أصلا على الابتداء مع الفعل " خرج " فيما تقدم من أمثلة .

وقد يتعدد الفعل مع معانى الحرف التى تتبادر منه ، ويستعمل فيها استعمالا حقيقيا بطريق الاشتراك اللفظى - إذا سلمنا بقول من يقول بذلك - ومن هذا :

دلالة الحرف " من " على : الابتداء ، والتبعيض ، والبيان .

ودلالة الحرف " الباء على : الإلصاق ، والإستعانة ، والسببية .(١)

وإذا قال النحاة : إن كل قبيل من الأفعال القاصرة يختص بقبيل من الحروف الرافدة الموصلة فإن واقع اللغة يؤكد وجود تداخل بين هذه الأفعال ومشاركة بعضها بعضا فى هذه الحروف الرافدة التى دخل بعضها مكان ما يناقضه أو يخالفه من الحروف فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وفصيح الكلام العربى شعره ونثره :

ومن ذلك دخول الحرف " إلى " الذى يدل على الانتهاء مكان الحرف " من " الذى يدل على " الابتداء " فى قول " ابن أحمر " يصف الناقة :

تَقولُ وَقَدْ عالَيتُ بالكُورِ فَوقَها .. أيُسْقَى فلا يَرْوَى إِلَىّ ابنُ أحمرا(٢)

أى " فلا يروى منى " .

ومن ذلك دخول " الحرف " الباء - الذى يدل على " الإلصاق " مكان الحرف " عن " الذى يدل على المجاوزة فى قول الله - عز وجل - " سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذابٍ وَاقِعٍ "(٣)

أى: " عن عذاب واقع " .

---

(١) من النحاة من يقول : إن لحرف الجر معنى أصليا واحداً ، وإليه ترجع كل المعانى التى انشعبت عنه .

(٢) المخصص ٦٦/١٤ - الجنى الدانى ٢٧٥ " مغنى اللبيب ٧٠/١ ، ٧١ ، همع الهوامع ١٥٥/٤ .

(٣) سورة المعارج آية ١ ، وانظر فى ذلك : تهذيب اللغة ٦١٤/١٥ - الصاحبى ١٣٣ - فقه اللغة ٢٢٧ - المخصص ٦٥/١٤ - الرضى على الكافية ٣٢٨/٢ - امالى الشجرى ٢٧٠/٢ - الجنى الدانى ١٠٥ - المغنى ٩٨/١ - البرهان ٢٥٧/٤.

ومن ذلك دخول الحرف " على " الذى يدل على " الاستعلاء " مكان الحرف " فى " الذى يدل على "الظرفية " فى قول الله ــ عز وجل ــ : وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا " (١)
أى : " فى حين غفلة من أهلها "

ومن ذلك دخول الحرف " عن " الذى يدل على المجازة " مكان الحرف " فى " الذى يدل على "الظرفية" فى قول " الأعشى ميمون بن قيس "

وَآسِ سَرَاةَ الحَيِّ حَيْثُ لَقِيتَهُمْ .. وَلَاتَكُ عَنْ حَمْلِ الرِّبَاعَةِ وَانِيَا (٢)

أى :"فى حمل الرباعة "
ومن ذلك دخول الحرف " فى " الذى يدل على"الظرفية" مكان الحرف " على " الذى يدل على " الاستعلاء " فى قول الله عز وجل ــ : " وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ" (٣)
أى : " على جذوع النخل " .

ولهذه الأمثلة وغيرها مما لايكاد يحاط به لكثرته كانت ظاهرة استعمال حروف الجر بعضها مكان بعض التى يدور البحث حول دراستها .
وقد وقف علماء العربية منها موقف مؤيد لها مسلم بوقوعها ، وموقف منكر لها مؤول لما جاء من أمثلتها :

---

(١) من الآية ١٥ سورة القصص ، وانظر فى ذلك : المخصص ١٤/٦٧ ــ أمالى الشجرى ٢/٢٦٨ ــ المغنى ١/١٢٦ ــ الهمع ٤/١٨٦ ــ البرهان ٤/٢٨٤

(٢) ديوان"الأعشى " ٣٢٩ وانظر فى ذلك : الجنى الدانى ٢٦٣ ــ المغنى ١/١٣٠ همع الهوامع ٤/١٩١.

(٣) من الآية ٧١ سورة طه ،وانظر : الغريب المصنف ٢٣١/أ . ــ المقتضب ٢/٣١٨ــ تهذيب اللغة ١٥/٢٨٣ــالخصائص ٣/٣١٣ ــ معانى الحروف للرماني ٩٦ ــ الأزهية للهروى ٢٦٧ ــ الجنى الدانى للمرادى ٢٦٦ ــ المغني ١/١٤٥ ــ البرهان ٤/٣٠٣ .

وبدافع من موقف علماء العربية تجاهها واختلافهم فى أمرها كانت هذه الدراسة التى سرت فيها على النهج الآتى :

- اختيار الحروف : إلى – الباء – على – عن – فى – اللام – من ، لدراسة الظاهرة .
- عرض المعنى الأصلى أو المعانى المتبادرة لكل حرف منها فى إيجاز ، ثم عرض قدر واف من أمثلة نيابة هذه الحروف بعضها عن بعض ، يستوفى جوانبها ويمثل استقراء شبه تام لما جاء من أمثلتها فى العربية .
- تفصيل موقف علماء العربية من دخول حروف الجر بعضها مكان بعض .
- عرض ماتوصل إليه المانعون لذلك من تأويل وتخريج . إلى جانب ما من الله تعالى – علىّ به من ذلك .
- احتكام الباحث إلى أمثلة الظاهرة ما أول منها وما بقى من غير تأويل ، وطبيعة لغتنا العربية فى التوصل إلى رأى متواضع فيها .

الحروف المختارة

وأمثلة دخول بعضها مكان بعض
" إلى " (١)

تدل " إلى " الجارة أصلا على انتهاء الغاية مطلقا : زمانية ، مثل قول الله – عز وجل – : ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ " (٢)
أو مكانية مثل قوله – عز وجل – : " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى "(٣)، ويتوقف دخول مابعدها فيحكم ماقبلها على ما يؤيد ذلك من قرائن ، فإذا لم توجد القرينة رجح عدم دخول مابعدها في حكم ماقبلها .

ومما قيل فيه بدخول " إلى" مكان حرف آخر من حروف الجر

أ – دخول " إلى " مكان " الباء " (٤)

١ – قال الله – عزوجل – : " وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ "(٥)
أي " بشياطينهم " .
٢ – وقال الله – عز وجل – : أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ "(٦)
أي : " بنسائكم " .
٣ – وقال النابغة الذبياني :
فَلَا عَمْرُو الَّذِي أَثْنَى عَلَيْهِ .. وَمَا رَفَعَ الْحَجِيجُ إِلَى آلَالِ(٧)
أي : " بآلال " وآلال : جبل بعرفة .

---

(١) سيبويه ٢٣١/٤ – المقتضب ١٣٩/٤ – تهذيب اللغة ٤٢٧/١٥ – ابن يعيش على المفصل ١٤/٨ – الرضى على الكافية ٣٢٤/٢ – المغني ٦٨/١
(٢) من الآية ١٨٧ سورة البقرة .
(٣) من الآية ١ سورة الإسراء .
(٤) الأزهية ٢٧٤ – أمالي الشجري ٢٦٨/٢ – ابن يعيش ١٥/٨ – همع الهوامع ١٥٦/٤
(٥) من الآية ١٤ سورة البقرة .
(٦) من الآية ١٨٧ سورة البقرة .
(٧) الأزهية ٢٧٤ – الديوان : ٩٧ بيروت وفيه إلال " بكسر الهمزة .

٤ ـ وقال كثير بن عبد الرحمن :
وَلَقَد لَهَوْتُ إِلَى الكَوَاعِبِ كَالدُّمَى .. بِيضِ الوُجُوهِ حَدِيثُهُنَّ رَخِيمُ (١)
أى " لهوت بالكواعب "

ب ـ دخول " إلى " مكان " فى " (٢)

٥ ـ قال الله ـ عز وجل ـ : " اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ " (٣)
أى " فى يوم القيامة " .

٦ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : " فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (٤) ".
أى " فى أن تزكى "

٧ ـ وقال " النابغة الذبيانى زياد بن معاوية " :
فَلَا تَتْرُكَنِّي بِالوَعِيدِ كَأَنَّنِي .. إِلَى النَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ القَارُ أَجْرَبُ (٥)
أى " فى الناس " .

٨ ـ وقال " طرفة بن العبد البكرى " :
وَإِنْ يَلْتَقِ الحَيُّ الجَمِيعُ تُلَاقِنِي .. إِلَى ذِرْوَةِ البَيْتِ الكَرِيمِ المُصَمَّدِ (٦)
أى " ذروة البيت الذى يصمد إليه "

٩ ـ ويقال : " جلست إلى القوم "
أى " فيهم " (٧)

---

(١) الأزهية ٢٧٤ ـ أمالى الشجرى ٢ : ٢٦٨
(٢) الخصائص ٣٠٩/٢ ـ الأزهية ٢٧٣ ـ المخصص ٦٥/١٤ ـ أمالى الشجرى ٢٦٨/٢ ـ الرضى على الكافية ٣٢٤/٢ ـ الجنى ٣٧٤ ـ المغنى ٧١/١ ـ البرهان ٣٣٤/٤ ـ ـ الهمع ١٥٤/٤ ـ ١٥٨/٤ ـ الإتقان فى علوم القرآن ١٩٩/١
(٣) من الآية ٨٧ سورة النساء .
(٤) الآية ١٨ سورة النازعات .
(٥) ديوان النابغة ٢٤ ط بيروت ـ الأزهية ٢٧٣ ـ المخصص ٩٥/١٤ ـ أمالى الشجرى ٢٦٨/٢ ـ الرضى على الكافية ٣٢٤/٢ ـ الجنى الدانى ٣٧٤ ـ المغنى ٧١/١ همع الهوامع ١٥٤/٤ .
(٦) ديوان طرفة ٣٩ ط بيروت ١٩٥٣ برواية " الرفيع " مكان " الكريم " ـ معانى الحروف ١١٥ ـ الأزهية ٢٧٤ ـ أمالى الشجرى ٢٦٨/٢ ـ الرضى على الكافية ٣٢٤/٢ .
(٧) المخصص ٦٥/١٤

جـ ـ دخول " إلى " مكان " اللام "(١)

١٠ ـ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : "وَيَهدِى مَن يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقِيم (٢)" .

أى : " لصراط مستقيم " .

١١ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : قَالُوا نَحنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأسٍ شَدِيدٍ وَالأمرُ إلَيكِ (٣)"

أى :"والأمر لك "

١٢ ـ وقال " الشماخ بن ضرار " .

فَالحَقُّ بِبَجلَةَ نَاسِبْهُم وَكُن مَعَهم .. حَتَّى يُعِيرُوكَ مَجدًا غيرَ مَوْطُودِ

وَاترُكْ تُرَاثَ خُفَافٍ إنَّهُم هَلَكُوا .. وَأَنتَ حَيٌّ إلى رِعلٍ وَمَطرُودِ (٤)

أى : " لرعل ومطرود " وهما قبيلتان .

د ـ دخول " إلى " مكان " من " (٥).

١٣ ـ قال " ابن أحمر الباهلى " :

تَقولُ وَقَد عَالَيتُ بِالكُورِ فَوقَهَا ..

أَيُسقَى فَلَا يَروَى إلَىَّ ابنُ أَحمَرَا (٦)

أى : " فلا يروى منى " .

هذا وقد جاءت " إلى " مكان " مع " وتركتُ أمثلة ذلك لاختلاف النحاة فى حرفية " مع " .

---

(١) الصاحبى" لابن فارس " ١٧٩ الجنى الدانى ٣٧٤ . ـ المغنى ٧١/١ ـ البرهان ٢٣٤/٤ ـ همع الهوامع ١٥٤/٤ ـ الإتقان ١٩٩/١ .

(٢) من الآية ٢٥ سورة يونس . (٤) من الآية ٣٣ سورة النمل .

(٤) الصاحبى ١٧٩ ـ ١٨٠ ورواية الديوان ٢٥ ط القاهرة ١٣٢٨ هـ ـ والحق بنجلة " مكان " فالحق ببجلة " وكذا : "أوانت حيا " مكان " وأنت حى "

(٥) المخصص ٦٦/١٤ ـ الجنى الدانى ٣٧٥ ـ المغنى ٧١/١ ـ الهمع ١٥٥/٤

(٦) المخصص ٦٦/١٤ ـ الجنى الدانى ٣٧٥ ـ المغنى ٧١/١ ـ همع الهوامع ١٥٥/٤ ـ شعر بن أحمر ٨٤ ورواية الديوان .
" يُسقَى " مكان " ايسقى " .

البـاء (١)

تدل "الباء" أصلا على "الإلصاق" حقيقة مثل : مسحت يدي بالثوب ، ومجازا مثل : مررت بحائط العشاق ، ويتبادر من معانيها "الاستعانة" مثل : كتبت بالقلم ، "والسببية" مثل : حججت بتوفيق الله .

ومما قيل فيه بدخول " الباء" مكان حرف آخر
من حروف الجر

أ ــ دخول " الباء " مكان " إلى " .(٢)

١٤ ــ قال الله ــ عز وجل ــ : وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجن"(٣)
أى : أحسن إلى " .

ب ــ دخول " الباء " مكان " على "(٤)

١٥ ــ قال الله ــ عز وجل ــ : " وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُم مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ "(٥)
أى : " على قنطار " و " على دينار " .

١٦ ــ وقال الله ــ عز وجل ــ : " وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ "(٦)
أى : " مروا عليهم " .

١٧ ــ وقال " راشد بن عبد ربه السلمى " :
أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ .. لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ(٦)
أى : " على رأسه " .

---

(١) سيبويه ٢١٧/٤ ــ المقتضب ١٤٢/٤ ــ تهذيب اللغة ٦١٤/١ ــ المخصص ١٤/٦٥ ــ ابن يعيش على المفصل ٢٢/٨ــ الرضى على الكافية ٣٢٧/٢ ــ المغنى ٩٥/١ ــ همع الهوامع ١٥٦/٤ ــ

(٢) المغنى ٩٨/١ ــ همع الهوامع ١٥٩/٤ ــ الإتقان ٢٠٧/١ .

(٣) من الآية ١٠٠ سورة يوسف .

(٤) الصاحبى ١٣٤ــ ١٣٥ ــ المخصص ٦٩/١٤ ــ الأزهية ٢٨٥ ــ أمالى الشجرى ٢٧١/٢ فقه اللغة وأسرار العربية ٢٢٨ ــ الجنى الدانى ١٠٦ ــ المغنى ٩٨/١ ــ البرهان ٢٥٧/٤ ــ همع الهوامع ١٦١/٤ ــ الإتقان ٢٠٧/١

(٥) من الآية ٧٥ سورة آل عمران . (٦) سورة المطففين آية ٣٠

(٦) الصاحبى ١٢٥ ــ فقه اللغة ٢٢٨ ــ أمالى الشجرى ١٧١/٢ ــ المغنى ٩٨/١ ــ همع الهوامع ١٦١/٤ ــ الجنى الدانى ٦١ .

١٨ ـ وقال " عمرو بن قميئة " :
بِوُدِّكِ مَاقومي عَلَى أن تَرَكْتِهِم ... سُلَيْمَى إذا هَبَّتْ شَمالٌ وَرِيحُها (١)
أى : " على ودك قومى " ، وهى زائدة .

جـ ـ دخول " البـاء " مكان " عن " بعد السؤال وغيره : (٢)

١٩ ـ قال الله ـ عز وجل ـ " وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا " (٣) .
أى : " عن الغمام "
٢٠ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ " ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٤) "
أى : " فاسأل عنه خبيرا " .
٢١ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم " (٥) .
أى : وعن أيمانهم " .
٢٢ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ " حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ، وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ " (٦) .
أى : " عن الله "
٢٣ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ " (٧) .
أى "وعن أيمانهم " .
٢٤ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ " سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ " (٨)
أى " عن عذاب " .
٢٥ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : " يَأَيُّهَا الإنسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ " (٩)
أى : " عن ربك " .

---

(١) الأزهية ٢٨٥ ـ المخصص ٦٩/١٤ ـ الديوان ٢٣ تحقيق الأستاذ حسن كامل الصرفى ط القاهرة : ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م .
(٢) تهذيب اللغة ٦١٤/١٥ ـ ٦١٥ الصاحبى ١٣٣ ـ المخصص ٦٥/١٤ ـ فقه اللغة ٢٢٧ ـ أمالى الشجرى ٢٧٠/٢ ـ ٢٧١ الرضى على الكافية ٣٢٨/٢ ـ المغنى ٩٨/١ ـ البرهان ٢٥٧/٤ ـ همع الهوامع ١٦١/٤ ـ الإتقان ٢٠٧/١ ـ تأويل مشكل القرآن ٥٦٨ ـ الأزهية ٢٨٤ ـ الجنى الدانى ١٠٥ .
(٣) الفرقان آية ٢٥ (٤) ـ من الآية ٥٩ سورة الفرقان .
(٥) من الآية ١٢ سورة الحديد (٦) من الآية ١٤ سورة الحديد
(٧) من الآية ٨ سورة التحريم (٨) المعارج آية ١
(٩) الانفطار آية ٦

٢٦ ــ وقال " النابغة الجعدى " :

سَألَتْني بِأُناسٍ هَلَكُوا .. شَرِبَ الدَّهرُ عَلَيهم وَأكَلْ (١)

أى : " عن أناس "

٢٧ ــ وقال " النابغة الذبيانى " :

كَأنّي وَرحلي وقد زال النهارُ بِنَا

بذي الجَليلِ عَلى مُستَأنِسٍ وَحَدِ (٢)

أى : " وقد زال النهارُ عنا " ومعنى زال النهار : انتصف .
الجليل : واد قرب مكة .

٢٨ ــ وقال " عنترة بن شداد العبسى " :

هَلاّ سألتِ الخيلَ يَا ابنةَ مَالكٍ

إن كُنتِ جَاهلةً بِما لَم تَعلَمي (٣)

أى : " عمّا لم تعلمى " .

٢٩ ــ وقال " علقمة بن عبدة " :

فَإن تَسألوني بِالنِّساءِ فَإنَّني

بَصيرٌ بِأدواءِ النِّساءِ طَبيبُ (٤)

أى : " عن النساء " .

٣٠ ــ وقال " عمرو بن أحمر الباهلى " .

تُسائِلُ بابنِ أحمَرَ مَن رَآهُ

أعارَت عينُهُ أم لَم تَعارَا (٥)

أى : " عن ابن أحمر " .

٣١ ــ وقال " المفضل النكرى " :

وَسائِلَةٍ بِثَعلَبَةَ بنِ سَيْرٍ

وَقَد عَلِقَت بِثَعلَبَةَ العَلاقِ (٦)

أى : " وسائلة عن ثعلبة " .

٣٢ ــ وقال " الأخطل "

دَع المُعَمَّرَ لا تَسألْ بِمَصرَعِهِ

وَاسألْ بِمَصقَلَةَ البَكرِيِّ مَا فَعَلا (٧)

أى لا تسأل عن مصرعه . واسأل عن مصقلة .. ما فعلا .

٣٣ ــ ومنه قولهم : سألت به ، إنما أراد عنه (٨)

وجاء في المخصص ١٤/ ٦٥ : "ومهما رأيت الباء بعد سألت أو ساءلت فاعلم أنها موضوعة موضع "عن"."

---

(١) الأزهية ٢٨٥ــ شعر النابغة الجعدى ٩٢
(٢) أمالى الشجرى ٢/ ٢٧٠ ــ ٢٧١ ــ الأزهية ٢٨٥ ،ديوان النابغة ٣٩ ورواية الديوان : " بيوم الجليل " .
(٣) أمالى الشجرى ٢/ ٢٧٠ ــ ٢٧١ ــ ديوان عنترة ١٤٩
(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٦١٤ ــ المخصص ١٤/ ٦٥ وفيه " طب " مكان "بصير" ــ همع الهوامع ٤/ ١٦١ ــ ديوان علقمة الفحل ١٣ عن محقق الهمع.
(٥) المخصص ١٤/ ٦٥ ــ شعر ابن احمر ٧٦
(٦) الصاحبى ١٣٣ ــ الاصمعيات ٢٣٥ ــ اللسان " سير " .
(٧) المخصص ١٤/ ٦٥ ــ ديوان الاخطل ١/ ١٥٧ ط دمشق .

د ـ دخول " الباء " مكان " في " مع النكرة والمعرفة :(١)

٣٤ ـ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا فِيهِ "(٢)

أي : " للذي في مكة " .

٣٥ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ " وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ "(٣)

أي :"نصركم الله في بدر " .

٣٦ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ"(٤)

أي : " يأتمرون فيك " .

٣٧ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : " وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ "(٥)

أي : "وفي الليل " .

٣٨ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : " وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ "(٦)

أي : " في الأسحار " .

٣٩ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : " إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ "(٧)

أي : " نجيناهم في سحر " .

٤٠ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : " بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ " (٨)

أي : في أيكم " .

٤١ ـ وقال " الأعشى ميمون بن قيس " :

مَا بُكَاءُ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ .. وَسُؤَالِي وَمَا تَرُدُّ سُؤَالِي(٩)

أي : " في الأطلال " .

---

(١) تهذيب اللغة ٦١٤/١٥ ـ الصاحبي ١٣٤ ـ الأزهية ٢٨٦ ـ المخصص ٦٧/١٤ ـ فقه اللغة ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ـ أمالي الشجري ٢٧١/٢ ـ الرضي على الكافية ٣٢٨/٢ الجنى الداني ١٠٤ ـ المغني ٩٧/١ ـ همع الهوامع ١٥٨/٤ ـ الإتقان ٢٠٧/١ البرهان ٢٥٦/٤ ـ ٢٥٧ .

(٢) من الآية ٩٦ سورة آل عمران . (٤) من الآية ٢٠ سورة القصص .

(٣) من الآية ١٢٣ سورة آل عمران . (٥) الآيتان ١٣٧ ـ ١٣٨ الصافات .

(٦) الذاريات " آية ١٨ . (٧) من الآية ٣٤ سورة القمر .

(٨) القلم آية ٦

(٩) تهذيب اللغة ٦١٤/١٥ ـ الصاحبي ١٣٤ وفيه : فهل " مكان " وما " المخصص ٦٧/١٤ ـ فقه اللغة ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ـ الرضي على الكافية ٣٢٨/٢ ـ الديوان ٦ ط بيروت ـ ١٩٥ .

٤٢ ـ وقال " الشماخ بن ضرار " يصف عيرا وأتنه :

وَهُنَّ وُقوفٌ يَنتَظِرنَ قَضاءَهُ .·. بِضاحي غَداةَ أمرَهُ وَهُوَ ضامِزُ (١)

أي : " في ضاحي غداة " .

٤٣ ـ وقال " الآخر " :

وَلَيلٍ كأنَّ نُجومَ السَّمـا .. ءِ بِهِ مُقَلٌ رَنَّقَت لِلهُجـوعِ (٢)

أي : " فيه "

٤٤ ـ وقال : آخر :

إنَّ الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثلُها .. أخَواىَ إذ قُتِلا بِيَومٍ واحِدِ (٣)

أي " في يوم واحد " .

٤٥ ـ وَمِن هَذا قَولُهُم : " لا خَيرَ بِخَيرٍ بَعدَهُ النّارُ " (٤)

قيل : إنَّها بمعنى " في " أي : " في خير "

ه ـ دخول " الباء " مكان " اللام " (٥)

٤٦ ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : " إنَّكُم ظَلَمتُم أنفُسَكُم بِاتِّخاذِكُم العِجلَ " (٦)

أي : " لاتخاذكم العجل " .

ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : " فَبِظُلمٍ من الَّذينَ هادُوا " (٧)

أي : " لظلم من الذين هادوا " .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢٥٦/٤ ـ ٢٥٧ اللسان ـ ضمز ـ الديوان ١٧٧ ط دار المعارف وفيه " عداة " مكان " غداة " .

(٢) جاء غير منسوب في فقه اللغة وأسرار العربية ٢٢٨ ،ولم أهتد إلى قائله.

(٣) جاء غير منسوب في أمالي الشجري ٢٧١/٢ ـ الأزهية ٢٨٦ ،ولم أهتد إلى قائله .

(٤) المغني ١٠٢/١

(٥) المخصص ٦٩/١٤ ـ همع الهوامع ١٦٠/٤ ـ البرهان ٢٥٦/٤ ـ الجنى الداني ١٠٤

(٦) من الآية ٥٤ سورة البقرة .

(٧) من الآية ١٦٠ سورة النساء .

٤٨ ـ وقال الله سبحانه وتعالى ـ : " فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِه "(١)
أى : " أخذنا لذنبه " .

٤٩ ـ وقال " لبيد بن ربيعة العامرى " :
غُلْبٌ تَشَذَّرُ بِالذُّحُولِ كَأَنَّهَا .:. جِنُّ البَدِيِّ رَوَاسِيًا أَقْدَامُهَا(٢)
أى : تشذر للذحول " والمعنى تتهيأ للثأر
وجاء فى الجنى الدانى ١٥٤ ولم يذكر الأكثرون باء التعليل استغناء
بباء السببية ؛ لأن التعليل والسبب عندهم واحد .

(٣)
و ـ دخول " الباء " مكان " من " .

٥٠ ـ قال الله ـ عز وجل ـ : " وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ "(٤)
أى : وامسحوا من رؤوسكم " .

٥١ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ(٥)"
أى : " عينا يشرب منها " .

٥٢ ـ وقال " عنترة " :
شَرِبَتْ بِمَاءِ الدُّحْرُضَيْنِ فَأَصْبَحَتْ .. زَوْرَاءَ تَنْفِرُ عَنْ حِيَاضِ الدَّيْلَمِ(٦)
أى : " شربت من ماء " .

٥٣ ـ وقال " أبوذؤيب خويلد بن خالد الهذلى " :
شَرِبْنَ بِمَاءِ البَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ .. مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ(٧)
أى : " شربن من ماء البحر " .

---

(١) من الآية ٤٠ سورة العنكبوت .
(٢) المخصص ٦٩/١٤ ـ اللسان شذر ـ الديوان ١٧٧ دار صادر ببيروت .
(٣) الصاحبى ١٣٣ ـ المخصص ٦٧/١٤ ـ فقه اللغة ٢٢٧ ـ أمالى الشجرى ٢٧٠/٢ ـ الرضى على الكافية ٣٢٨/٢ ـ المغنى ٩٨/١ ـ همع الهوامع ١٥٩/٤ ـ ١٦٠ ـ الإتقان ٢٠٧/١-البرهان ٢٥٧/٤ ـ تأويل مشكل القرآن ٥٧٥ ـ الأزهية ٢٨٣ ـ الجنى الدانى ١٠٦ .
(٤) من الآية ٦ سورة المائدة .
(٥) من الآية ٦ سورة الإنسان .
(٦) الصاحبى ١٣٢ ،والديوان ١٤٧ ،ورواية المخصص ٦٧/١٤ ، وأمالى الشجرى ٢٧٠/٢ : " شربن " تأويل مشكل القرآن ٥٧٥ ـ الأزهية ٢٨٣ .
(٧) المخصص ٦٧/١٤ وفيه : " تصيدت " ـ أمالى الشجرى ٢٧٥/٢ ـ المغنى ٩٨/١، همع الهوامع ١٥٩/٤ ورواية الديوان ٥١ :" تروت بماء البحر " وعلى هذا لا دليل فيه ـ تأويل مشكل القرآن ٥٧٥ ـ الأزهية ٢٨٤ ـ الجنى الدانى ١٠٧

٥٤ – وقال " عمر بن أبى ربيعة " وينسب لجميل بن معمر ، وغيره :

قَلثَمْتُ فَاهَا آخذًا بقُرُونِها .. شربَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الحَشْرَجِ (١)

أى : " من برد ماء الحشرج " .

هذا وقد دخلت "الباء" مكان " مع " فى القرآن الكريم ، والشعر العربى وما حكى عن العرب ، ولم أذكر أمثلته لاختلاف النحاة فى حرفية " مع " .

---

(١) الجنى الدانى ١٠٧ – المغنى ٩٨/١ – همع الهوامع ١٥٩/٤ – ديوان عمر بن أبى ربيعة ٨٣ نقلا عن محقق الهمع ، اللسان حشرج منسوبا لعمر بن أبى ربيعة وعلق عليه بقوله : قال "ابن برى " البيت لجميل بن معمر ، وليس لعمر بن أبى ربيعة .
قلت : لم أقف على البيت فى ديوان جميل بن معمر " ط بيروت ١٩٥٣ ، ووجده محقق الجنى الدانى فى شعر عمر بن أبى ربيعة ملحقات الديوان ٤٨٨ وشعر عروة بن أذينة ٤٠٩ .

" علـــــــــى "(١)

على الجارة حرف يدل أصلا على الاستعلاء الحقيقى ، مثل قول الله ـ عز وجل ـ " وعَلَيهَا وَعلَى الفُلكِ تُحمَلُونَ "(٢) أو الاستعلاء المجازى ، مثل قوله ـ سبحانه وتعالى ـ : تِلكَ الرُّسُلُ فَضَّلنَا بَعضَهُم على بَعضٍ "(٣)

وممــــــــا قيل فيه بدخول " على " مكان حرف آخر من حروف الجــــــــر

أ ـ دخول " على " مكان " الباء " : (٤)

٥٥ ـ قال الله ـ عز وجل ـ : " حَقِيقٌ عَلَى أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ(٥) " أى : " حَقيقٌ بِقَولِه الله " وقرأ " أُبَىُّ بنُ كَعْب .. رضى الله عنه بها (٦)

٥٦ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : " وَمَا هُوَ عَلَى الغَيبِ بِظَنِينٍ (٧) " فى قراءة " ابن كثير " و " ابى عمرو " و " الكسائى " و " رويس " بالظاء المشالة .

أى بظنين بالغيب " .

٥٧ ـ وقال " امرؤ القيس بن حجر الكندى " وينسب لغيره :

بِأَىِّ عَلاقَتِنا تَرغَبـــــو .. نَ عَن دَم عَمروٍعَلى مرثـــد (٨)

أراد : " ترغبون عن دم " عمرو" بدم " مرثد"

---

(١) سيبويه ٤ / ٢٣٠ ـ معانى القرآن للفراء ٣٦٨/١ ـ المقتضب ٤٦/١ ـ ٤٣٦/٤ ـ معانى الحروف ١٠٧ : ١٠٩ ـ الأزهية ٢٧٧ : ٢٧٨ المخصص ٦٥/١٤ : ٦٨ ـ ابن يعيش ٣٧/٨ ـ الرضى على الكافية ٣٤٣/٢ ـ المغنى ١٢٥/١ ـ الجنى الدانى ٤٤٤ همع الهوامع ١٨٥/٤ .

(٢) المؤمنون آية ٢٢ .

(٣) من الآية ٢٥٣ سورة البقرة .

(٤) معانى الحروف ١٠٨ ـ الخصائص ٣١٢/٢ ـ الأزهية ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ـ المخصص ٦٨/١٤ أمالى الشجرى ٢٦٩/٢ ـ المغنى ١٢٦/١ ـ الجنى الدانى ٤٤٥ ـ الهمع ١٨٧/٤

(٥) من الآية ١٠٥ سورة الأعراف .

(٦) نسب الفراء القراءة فى معانى القرآن ٣٨٦/١ لعبد الله ، أراه ابن مسعود ومعانى القرآن ــــ أقدم مصدر نقلت عنه هذه القراءة ،

(٧) التكوير آية ٢٤ وانظر إتحاف فضلاء البشر ٤٣٤

(٨) الديوان بشرح الأعلم ٣٤٦ ط الجزائر ١٣٩٤ هـ ـ الأزهية ٢٧٧

٥٨ – وقال " عوف بن الخرع " :
شدّوا المطى على دَليلٍ دائبٍ .. من أهل كاظمة بسيف الأبحرُ (١)
أى " بدليل دائب " .

٥٩ – وقال أبو ذؤيب الهذلى " :
وكأنّهن ربابة وكأنه .. يَسَرٌ يُفيضُ على القداح ويَصدَع (٢)
أى يفيض بالقداح " .

٦٠ – وقال " عمر بن أبى ربيعة " :
فقالت على اسم الله أمرُك طاعةٌ
وإن كنتُ قد كُلّفتُ مالم أُعَوَّد (٣)
أى : " فقالت باسم الله " .

٦١ – " رميتُ على القوس " يُريدون : بالقوس .
٦٢ – " جئت على حال حسنة " يريدون : بحال حسنة (٤).
٦٣ – " اركب على اسم الله " يريدون : باسم الله (٥) .

---

(١) الخصائص ٣١٢:٢ – اللسان كلل – الاقتضاب ٤٤٩ عن شيخى المرحوم محمد على النجار .
(٢) الأزهية ٢٧٧ – المخصص ٦٨/١٤ – أمالى الشجرى ٢٦٩/٢ – ديوان الهذليين ٦/١ المعانى الكبيرة ١١٧١/٣ .
(٣) معانى الحروف ١٠٩ – الديوان ١١٣ ط بيروت دار صادر
(٤) معانى القرآن للفراء ٣٨٦/١ .
(٥) المخصص ٦٨/١٤ – أمالى الشجرى ٢٦٩/٢ – المغنى ١٢٦/١ – الجنى الدانى ٤٤٦ وعن محققه أدب الكاتب ٥٤٤ – منهج السالك ٢٥٠ .

ب ــ دخول " على " مكان " عن " (١).

٦٤ ــ قال " القُحَيف العُجَيلى " يمدح " حكيم بن المسيب القشيرى " :

إذا رَضِيَت عَلَىَّ بَنُو قُشَير .. لَعمرُ اللّهِ أعجَبَنِى رِضاهـا (٢)

أى : " إذا رضيت عنى " .

٦٥ ــ وقال " عدى بن زيد " وينسب لرجل من الأنصار " .

فى لَيلةٍ لَا نَرَى بِهَا أحَدًا .. يَحكِى عَلَينَا إلَّا كَواكِبُهـا (٣)

أى : " يحكى عنا " .

٦٦ ــ وقال : دوسر بن غسان اليربوعى " .

إذا ما امرُؤٌ وَلَّى عَلَىَّ بِـوُدِّه

وَأدبَرَ لَم يُصدَر بإدبـارِه وُدِّى (٤)

أى : " ولى عنى " .

٦٧ ــ وقال " حميد الأرقط " :

أرمِى عَلَيها وَهِى فَرعٌ أجمَع (٥)

أى : " أرمى عنها " .

---

(١) سيبوية ٢٢٦/٤ ، معانى القرآن ٣٨٦/١ ــ الغريب المصنف ورقة ٢٣١/أ ــ المقتضب ٣١٨/٢ : ٣١٩ ــ الخصائص ٣١١/٢ ــ الأزهية ٢٧٦، ٢٧٧ ــ المخصص ٦٥/١٤ أمالى الشجرى ٢٦٩/٢ ــ الجنى دانى ٤٤٥ ــ المغنى ١٢٦/١ ــ همع الهوامع ١٨٦/٤ ــ الرضى على الكافية ٣٤٠/٢ ــ البرهان ٢٨٦/٤ .

(٢) الغريب المصنف ٢٣١/أ ــ المقتضب ٣١٨/٢ ــ ٣١٩ ــ الخصائص ٣١١/٣ ــ ٣٨٩ ــ المخصص ٦٥/١٤ ــ أمالى الشجرى ٢٦٩/٢ ــ المغنى ١٢٦/١ ــ همع الهوامع ١٨٦/٤ ــ الرضى على الكافية ٣٤٢/٢ ــ البرهان ٢٨٦/٤ ــ الأزهية ٢٧٧ ــ الجنى الدانى ٤٤٥ .

(٣) المغنى ١٢٦/١ وجاء فى ديوان عدى بن زيد ١٩٤ رابع أربعة أبيات نسبت له ولغيره .

(٤) الخصائص ١١١/٢ ، الاقتضاب للبطليوسى ، وشرح أدب الكاتب للجواليقى ٣٥٥ عن محقق الخصائص .

(٥) ابن سيبويه ٢٢٦/٤ ــ الخصائص ٣٠٧/٢ الأزهية ٢٧٦ ــ المخصص ٦٥/١٤ ــ أمالى الشجرى ٢٦٩/٢ وعن محقق الأزهية أمالى المرتضى ٣٥١/١ .

وحكى عن العرب :

٦٨ – " رميت على القوس " يريدون : عن القوس (١)

٦٩ – " رضيت عليك " يريدون : عنك (٢)

جـ – دخول " على " مكان " في " : (٣)

٧٠ – قال الله – تبارك وتعالى – : " وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ (٤) "

أي : " في ملك سليمان " .

٧١ – وقال الله – عز وجل – : " وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا (٥)

أي : " في حين غفلة " .

٧٢ – وقال " الأعشى " :

وَصَلِّ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى
وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا (٦)

أي : " في حين العشيات " .

وحكى عن العرب :

٧٣ – " أتيته على عهد فلان " يريدون : في عهده (٧)

٧٤ – " كان هذا على عهد فلان " يريدون : في عهده (٨)

د – دخول " على " مكان " اللام " (٩)

٧٥ – قال الله – جل وعلا – : " وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ " (١٠)

٧٦ – وقال الله – تبارك وتعالى – : لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ " (١١)

أي : " لهدايته إياكم " .

---

(١) معاني القرآن ١/٣٨٦ .

(٢) الغريب المصنف ورقة ٢٣١/ أ .

(٣) معاني القرآن ١/٦٣، ٣٢٤ – الأزهية ٢٧٥ – المخصص ١٤/٦٧ – أمالي الشجري ٢/٢٦٨ – الجنى الداني ٤٤٥ – المغني ١/١٢٦ – همع الهوامع ٤/١٨٦ – البرهان ٤/٢٨٤ – الاتقان ١/٢١٤ .

(٤) من الآية ١٠٢ سورة البقرة .

(٥) من الآية ١٥ سورة القصص .

(٦) سيبويه ٣/٥١٠ – المقتضب ٣/١٢ – الأزهية ٢٧٥ – أمالي الشجري ٢/٢٦٨ ، وعلى رواية سيبويه والمقتضب – والديوان ١٣٧ لا شاهد فيه ورواية الديوان للشطر الأول ∴ وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ∴

(٧) الأزهية ٢٧٥ – أمالي الشجري ٢/٢٦٨ .

(٨) المخصص ١٤/٦٧

(٩) المخصص ١/٦٦ – ٦٨ – الجنى الداني ٤٤٥ – المغني ١/١٢٦ – البرهان ٤/٢٨٤ الهمع ٤/١٨٧ – الإتقان ١/٢١٤ .

(١٠) من الآية ١٨٥ سورة البقرة .

(١١) من الآية ٣٧ سورة الحج .

٧٧ ـ وقال " عمرو بن معديكرب "

عَلامَ تَقولُ الرُّمحُ يُثقِلُ عاتِقي

إذا أنا لَم أَطعُن إذا الخَيلُ كَرَّتِ (١)

أى : " لِمَ تَقول " .

٧٨ ـ وقال " الراعى " :

رَعَتْهُ أَشهُرا وَخلاَ عَليها

فَطارَ النَّيُّ فيها وَاستَطارا (٢)

أى : " خَلا لَها " .

وحُكِى عَنهُم :

٧٩ ـ " صِفْ عَلَىَّ " يريدون : صِفْ لِى (٣).

هـ ـ دخول " على " مكان " من " (٤):

٨٠ ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : " فَآخَرانِ يَقومانِ مَقامَهُما مِنَ الذين استَحَقَّ عَليهِم الأَولَيانِ (٥)"

أى : " منهم الأَولَيان " . والذى فى معانى القرآن ٣٢٤/١ " فيهم " ولم أجده فى غيره .

٨١ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : " وَإِن مِنكُم إِلاَّ وَارِدُها كَانَ عَلى رَبِّكَ حَتماً مَقضِيّاً (٦)" .

أى : " كان الورود حتما مقضيا من ربك " .

٨٢ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : " وَالَّذِينَ هُم لِفُروجِهِم حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلى أَزواجِهِم أَو مَا مَلَكَت أَيمانُهُم "(٧).

أى : " إلا من أزواجهم " .

٨٣ ـ وقال الله ـ جل وعلا ـ : " الَّذِينَ إِذا اكْتَالُوا عَلى النَّاسِ يَستَوفُونَ "(٨)

أى : " إذا اكتالوا من الناس " .

---

(١) المغنى ١٢٦/١ ـ الديوان ٥٥ ط مجمع اللغة العربية بدمشق .

(٢) المخصص ٦٦/١٤ ـ اللسان خلا .

(٣) المخصص ٦٨/١٤ .

(٤) معانى القرآن ٢٣١/٢ ـ ٢٤٦/٣ ـ الأزهية فى علم الحروف ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ـ المخصص ٦٨/١٤ . أمالى الشجرى ٢٦٨/٢، ٢٦٩ ـ الجنى الدانى ٤٤٥ ـ المغنى ١٢٦/١ ـ همع الهوامع ١٨٦/٤ ـ البرهان ٢٨٥/٤ ـ الإتقان ٢١٣/١ .

(٥) من الآية ١٠٧ سورة المائدة .

(٦) مريم آية ٧١

(٧) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة المؤمنون .

(٨) المطففين ـ آية ٢ .

٨٤ ـ وقال " أُبو المُثَلَّم الهُذَلى " يصف كَتيبة :

مَتى ماتُنكِرُوها تَعرِفوهـــــــا
عَلى أَقطارِها عَلَقٌ نَفِيـــــــــثُ(١)

أى " من أقطارها " . والعلق : الدم الجامد .

نفيث : منفوخ .

(١) ديوان الهذليين ٢٢٤/٢ ونسب فى المخصص ٦٨/١٤ لصخر الغى الهذلى ، والبيت لأبى المثلم يرد على " صخر " ـ ولأبى المثلم نسب فى الأزهية ٢٦

" عـــــــن " (١)

عن الجارة حرف يدل أصلا على المجاورة والبعد ، يقال : رمى عن القـــوس ، أى قذف عنها بالسهم وأبعده ، وبها يعدى عدد من الأفعال مثل ، عـــدل ونهى ، ونأى ، يقال : نأى عن الشر أى ابتعد عنه .

ومما قيل فيه بدخول " عن " مكان حرف آخر من حروف الجـــر

أ ـ دخول " عن " مكان " الباء " (٢)

٨٥ ـ قال الله ـ عز وجل ـ " وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى " (٣)
أى : ما ينطق بالهوى " .
٨٦ ـ وقال " امرؤ القيس " :
تَصدُّ وتُبدِى عَن أَسيلٍ وَتَتَّقِـــى
بِناظِرةٍ مِن وَحشِ وَجرَةَ مُطفِـــلِ (٤)
أى " تصد بأسيل " .

وحُكى عن العرب :
٨٧ ـ " رميت عن القـــوس " يريدون : بالقـــوس (٥)
٨٨ ـ " قمت عن أصحابـــى " يريدون : بأصحابـــى (٦)

---

(١) سيبويه ٢٢٦/٤ ـ معانى الحروف ٩٥ ـ الأزهية ٢٧٩ ـ المخصص ٦٥/١٤ ـ شرح المفصل ٣٩/٨ ـ الجنى الدانى ٢٦٠ ـ المغنى ١٢٩/١ ـ همع الهوامع ١٨٩/٤ ـ الرضى على الكافية ٣٤١/٢ .
(٢) معانى القرآن ٢٨٦/١ ـ معانى الحروف ٩٥ ـ الأزهية ٢٧٩ ـ المخصص ٦٥/١٤ ـ أمالى الشجرى ٢٦٩/٢ ـ البرهان ٢٨٧/٤ ـ الجنى الدانى ٢٦٣ ـ المغنى ١٣٠/١ ـ الهمع ١٩٠/٤ ، ١٩٢ .
(٣) النجم آية ٣ .
(٤) الأزهية ٢٧٩ ـ المخصص ٦٥/١٤ ـ الجنى الدانى ٢٦٥ ـ الديوان ٧٥ ـ بشرح الأعلم الشنتمرى .
(٥) معانى القرآن ٣٨٦/١ ـ الأزهية ٢٧٩ .
(٦) الجنى الدانى ٢٦٤ نقلا عن رصف المبانى .

ب ـ دخول " عن " مكان " على "(١)

٨٩ ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ " فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٢)

أى : " على ذكر ربى " .

٩٠ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : " وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ "(٣)

أى : " على نفسه " .

٩١ ـ وقال " ذو الأصبع العدوانى " :

لاهِ ابنُ عَمِّكَ لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ
عَنِّي وَلا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْزُونِي (٤)

أى : " لا أفضلت فى حسب على " .

٩٢ ـ وقال " قيس بن الخطيم " :

لَو أَنَّكَ تُلْقِي حَنظَلاً فَوقَ بَيْضِنا
تَدَحْرَجَ عَن ذِي سامِهِ المُتَقارِبِ(٥)

أى : " على ذى سامه " ـ السام : عروق الذهب ، الواحدة سامة .
وبه سمى " سامة بن لؤى .

ج ـ دخول " عن " مكان " فى " (٦)

٩٣ ـ قال " الأعشى ميمون بن قيس " :

وَآسِ سَراةَ الحَيِّ حَيثُ لَقِيتَهُم
وَلا تَكُ عَن حَمْلِ الرِّباعَةِ وانِيا (٧)

أى : " فى حمل الرباعة " .

---

(١) سيبويه ٤/٢٢٦ ـ التقريب المصنف ورقة ٢٣١/أ ـ تهذيب اللغة ٣/٢١٦ ـ ٢١٧ ـ معانى الحروف ٩٥ ـ الأزهية ٢١٩ ـ المخصص ١٤/٦٧ ـ أمالى الشجرى ٢/٢٦٩ ـ الجنى الدانى ٢٦٢ ـ البرهان ٤/٢٨٦ ـ المغنى ١/١٢٩ ـ الهمع ٤/١٩٠

(٢) ص آية ٣٢ . (٣) من الآية ٣٨ سورة " محمد " .

(٤) تهذيب اللغة ٣/٢١٦ ـ معانى الحروف ٩٥ ـ الأزهية ٢٧٩ ـ المخصص ١٤/٦٧ ـ أمالى الشجرى ٢/٢٦٩ ـ الجنى الدانى ٢٦٢ ـ المغنى ١/١٢٩ ـ الهمع ٤/١٨٩ .

(٥) المخصص ١٤/٦٧ ـ الديوان ٨٦ ط بيروت ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

(٦) الجنى الدانى ٢٦٣ ـ المغنى ١/١٣٠ ـ الهمع ٤/١٩١ .

(٧) الجنى الدانى ٢٦٣ ـ المغنى ١/١٣٠ ـ الهمع ٤/١٩١ الديوان ٣٢٩ .

د ـ دخول " عن " مكان " اللام "(١):

٩٤ ـ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : " وَمَا كَانَ استِغفَارُ إبراهِيمَ لأَبيهِ إلاّ عَن مَوعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاهُ "(٢)
أى : لِمَوعِدة وعدها إياه " .

٩٥ ـ وقال الله ـ جل وعلا ـ : " وَمَا نَحنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنا عَن قَولِكَ "(٣)
أى : " لقولك " .

هـ ـ دخول " عن " مكان " من "(٣)

٩٦ ـ قال الله ـ عز وجل ـ : " وَهُوَ الّذى يَقبَلُ التَّوبةَ عَن عِبَادِه ، وَيَعفُو عَن السَّيِّئَاتِ "(٤)
أى : " يقبل التوبة من عباده " .

٩٧ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : " أُولَئِكَ الّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنهُم أَحسَنَ مَا عَمِلُوا "(٥)
أى : " نتقبل منهم " .

٩٨ ـ وقال " ساعدة بن جُؤَيَّة الهذلى " :

أَفَعَنكِ لا بَرقٌ كَأَنَّ وَمِيضَهُ
غَابٌ تَشَيَّمهُ ضِرامٌ مُثقَبُ(٦)

أى : " أَفَمِنكِ " .

وحُكِى عنهم :

٩٩ ـ " عنك جاء هذا " يريدون : منك (٧)
١٠٠ ـ " أخذت هذا عنك" يريدون : منك (٨)

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢٨٧/٤ ـ الجنى الدانى ٢٦٣ ـ المغنى ١٢٩/١ ـ الهمع ١٩٠/٤ ـ الإتقان ٢١٤/١.
(٢) من الآية ١١٤ سورة التوبة . (٣) من الآية ٥٣ سورة هود .
(٣) الغريب المصنف ورقة ٢٣١/أ ـ تأويل مشكل القرآن ٥٧٧ ـ تهذيب اللغة ٢١٦/٣ الأزهرية ٢٧٨ ـ المخصص ٦٥/١٤ أمالى الشجرى ٢٦٩/٢ ـ البرهان ٢٨٧/٤ ـ المغنى ١٣٠/١ ـ الهمع ١٩٢/٤ ـ الإتقان ٢١٤/١.
(٤) من الآية ٢٥ سورة الشورى (٥) من الآية ١٦ سورة الأحقاف .
(٦) الغريب المصنف ٢٣١ /أ ـ تهذيب اللغة ٢١٦/٣ وفيه " تَسَمَّهُ ضرام مُوقد " المخصص ٦٥/١٤ وفيه " تسمه" ورواية الديوان ١٧٢/١ : " أفمنك " وعلى هذا لاشاهد فيه . (٧) الغريب المصنف ٢٣١/أ .
(٨) تأويل مشكل القرآن ٥٧٧ وجعلها سيبويه ٢٢٧/٤ على أصلها من الدلالة على المجاوزة ، فقال وتقول : أخذت عنه حديثا ، أى عدا منه إلىّ حديث .

" فـــــــــي "(١)

حرف الجر " فى " يدل أصلا على الوعاء والظرفية قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ " غُلِبَتِ الرُّومُ فى أدنَى الأرضِ وَهُم مِن بَعدِ غَلبِهِم سَيَغلِبونَ فى بِضْعِ سِنِينَ " (٢) وتقول : الرجل فى الدار ، واللص فى الحبس ، وتدل على الظرفية الحقيقية كما مثل ، والمجازية مثل قوله الله ـ تبارك وتعالى ـ : " وَلَكُم فى القِصَاصِ حَيَاةٌ (٣) " .

ومما قيل فيه بدخول " فى " مكان حرف آخر من حروف الجر

أ ـ دخول الحرف " فى " مكان " إلى "(٤) :

١٠١ ـ قال الله ـ عز وجل ـ : " أَلَم تَكُن أَرضُ اللَّهِ واسِعةً فَتُهاجِروا فِيها " (٥)

أى : " فتهاجروا إليها " .

١٠٢ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : جَاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ ،فَرَدُّوا أَيدِيَهُم فى أفوَاهِهِم " (٦)

أى : " فردوا أيديهم إلى أفواههم .

١٠٣ ـ وقال " علقمة بن عبدة " :

طَحَا بِكَ قَلبٌ فى الحِسانِ طَروبُ
بُعَيدَ الشَّبابِ عَصرَ حانَ مَشِيبُ (٧)

أى : " طحا بك قلب إلى الحسان " .

---

(١) سيبويه ٢٢٦/٤ ـ المقتضب ١٨٤/١ ـ ٤ /١٣٩ ـ معانى الحروف ٩٦ ـ الأزهية ٢٦٧ ـ المخصص ٦٦/١٤ ـ أمالى الشجرى ٢٦٧ ـ شرح المفصل لابن يعيش ٢٠/٨ شرح الكافية للرضى ٣٢٧/٢ ـ الجنى الدانى ٢٦٦ ـ المغنى ١٤٤/١ ـ البرهان ٣٠٣/٤ ـ الهمع ١٩٢/٤ .

(٢) سورة الروم الآيات ٢ ، ٣، ٤ (٣) من الآية ١٧٩ سورة البقرة

(٤) الأزهية ٢٧١ ـ المخصص ٦٦/١٤ ـ أمالى الشجرى ٢٦٧/٢ ـ الجنى الدانى ٢٦٧ المغنى ١٤٦/١ ـ البرهان ٣٠٣/٤ ـ الهمع ١٩٣/٤ ـ الإتقان ٢١٧/١ .

(٥) من الآية ٩٧ سورة النساء (٦) من الآية ٩ سورة إبراهيم

(٧) أمالى الشجرى ٢٦٧/٢ .

- دخول الحرف " في " مكان " الباء ": (1)

١٠٤ - قال الله - عز وجل - : " فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ " (٢)

أي : " يذرؤكم به " .

١٠٥ - وقال " زيد الخير " :

وَيَرْكَبُ يَوْمَ الرَّوْعِ فِيهَا فَوَارِسٌ
بَصِيرُونَ فِي طَعْنِ الأَبَاهِرِ وَالْكُلَى (٣)

أي : " بصيرون بطعن الأباهر " .

١٠٦ - وقال " الأعشى ميمون بن قيس " :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَةً
فَإِذَا تُنُوشِدَ فِي الْمَهَارِقِ أَنْشَدَا (٤)

أي" تنوشد بالمهارق "

١٠٧ - وقال الآخر :

وَخَضْخَضْنَ فِينَا الْبَحْرَ حَتَّى قَطَعْنَهُ
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ غِمَارٍ وَمِنْ وَحْلِ (٥)

أي : " خضخضن بنا البحر " .

١٠٨ - وقال ثالث :

وَأَرْغَبُ فِيهَا عَنْ عُبَيْدٍ وَرَهْطِهِ
وَلَكِنْ بِهَا عَنْ سِنْبِسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ (٦)

أي : " أرغب بها " .

١٠٩ - وقال الراجز : نَلُوذُ فِي أُمٍّ لَنَا مَا تُغْتَصَبْ (٧).

أي " نلوذ بأم " أمّ هنا . جبل من جبلَيْ طيّئ .

---

(١) معاني القرآن ٢٢/٣ - تهذيب اللغة ٥٨٣/١٥ - الخصائص ٣١٣/٢ - الأزهية ٢٧١ - ٢٧٢ - المخصص ٦٦/١٤ - أمالي الشجري ٢٦٧/٢ - ٢٦٨ - الجنى الداني ٢٦٦ - ٢٦٧ - المغني ١٤٦/١ - الهمع ١٩٣/٤ - الإتقان ٢١٧/١ .
(٢) من الآية ١١ سورة الشورى .
(٣) الأزهية ٢٧١ - المخصص ٦٦/١٤ - أمالي الشجري ٢٧٨/٢ - الجنى الداني ٢٦٦ - ٢٦٧ - المغني ١٤٦/١ - الهمع ١٩٣/٤ .
(٤) المخصص ٦٦/١٤ - اللسان والتاج "رهق" - الديوان ٢٢٩ وفيه " بالمهارق "
(٥) الخصائص ٣١٣/٢ - الأزهية ٢٧٢ - المخصص ٦٦/١٤ - وعن محقق الخصائص الاقتضاب ٤٣٧ أدب الكاتب ٣٥٨ .
(٦) تهذيب اللغة ٥٨٣/١٥ .
(٧) الخصائص ٣١٤/٢ برواية تغتصب " بالغين المعجمة على البناء للمجهول يصفها بالمنعة ، وفي المخصص ٦٦/١٤ " تعتصب " اى لا تشد عليها العصابة .

١١٠ ـ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : " حَتَّى إِذَا كُنتُم فِى الفُلكِ وَجَرَينَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ "(٢)

أى : " حتى إذا كنتم على الفلك " .

١١١ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : " فَلأُقَطِّعَنَّ أَيدِيَكُم وَأَرجُلَكُم مِن خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُم فِى جُذُوعِ النَّخلِ "(٣)

أى : " على جذوع النخل " .

١١٢ ـ وقال الله ـ جل وعلا ـ : " فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَن حَولَهَا (٤)" .

أى : " من على النار " .

١١٣ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : " أَم لَهُم سُلَّمٌ يَستَمِعُونَ فِيهِ فَليَأتِ مُستَمِعُهُم بِسُلطَانٍ مُبِينٍ (٥)" .

أى : " يستمعون عليه " .

١١٤ ـ وقال " عنترة " :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فى سَرحَةٍ
يُحذَى نِعَالَ السِّبتِ لَيسَ بِتَوأَمِ (٦)

أى : " كأن ثيابه على سرحة " .

١١٥ ـ وقال " سويد بن أبى كاهل "

هُم صَلَبُوا العَبدِىَّ فى جِذعِ نَخلَةٍ
فَلا عَطَسَت شَيبَانُ إِلَّا بِأَجدَعَا (٧)

أى : " على جذع نخلة .

١١٦ ـ وقالت امرأة من العرب :

وَنَحنُ صَلَبنَا النَّاسَ فى جِذعِ نَخلَةٍ
وَلا عطست شَيبَانُ إلا بِأَجذَعِ (٨)

أى "على جذع نخلة "

وحُكى من العرب :

١١٧ ـ لا يدخل الخاتم فى أصبعى .. يريد : لايدخل على أصبعى ، أولا يدخل أصبعى فيه (٩)

(١) الغريب المصنف ٢٣١/أ ـ تأويل مشكل القرآن ٥٦٧ ـ المقتضب ٣١٨/٢ ـ تهذيب اللغة ٥٨٣/١٥ ـ الخصائص ٣٠٣/٣ ـ معانى الحروف ٩٦ ـ فقه اللغة للثعالبى ٢٣٦ ـ الأزهية ٢٦٨ ـ المخصص ٦٤/١٤ ـ أمالى الشجرى ٢٦٧/٢ ـ البرهان ٣٠٣/٤ ـ الجنى الدانى ٢٦٦ ـ المغنى ١٤٥/١ ـ الهمع ١٩٣/٤ ـ الإتقان ٢١٧/١

(٢) من الآية ٢٢ سورة يونس . (٣) من الآية ٧١ سورة طه .

(٤) من الآية ٨ سورة النمل . (٥) من الآية ٣٨ سورة الطور .

(٦) تأويل مشكل القرآن ٥٦٧ ـ تهذيب اللغة ٥٨٣/١٥ ـ معانى الحروف ٩٦ ـ الخصائص ٣١٢/٢ ـ المخصص ٦٤/١٤ ـ المغنى ١٤٥/١ ـ الديوان ١٥٢.

(٧) تأويل مشكل القرآن ٥٦٧ ـ المقتضب ٣١٨/٢ ـ الخصائص ٣١٢/٢ ـ فقه اللغة ٢٣٦ ـ الأزهية ٢٦٨ ـ المخصص ٦٤/١٤ ـ أمالى الشجرى ٢٦٧/٢ ـ المغنى ١٤٥/١

(٨) شرح المفصل لابن يعيش ٢١/٨ ولعل المرأة تدعو هى الأخرى على شيبان ـ كما دعا " سويد بن أبى كاهل " .

(٩) الغريب المصنف ٢٣١/أ ـ المخصص ٦٤/١٤ .

د ـ دخول الحرف " فى " مكان " عن " : (١)

١١٨ ـ قال الله ـ عز وجل ـ : " وَمَن كَانَ فى هَذِهِ أَعمَى فَهُوَ فى الآخِرَةِ أَعمَى " (٢)

أى : " فهو عن الآخرة أعمى "

هـ ـ دخول الحرف " فى " مكان " اللام " (٣) :

١١٩ ـ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : " لَولَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُم فِيمَا أَخَذتُم عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤) " :

أى : " لمسكم لما أخذتم فيه " .

١٢٠ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : " قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمتُنَّنِى فِيهِ " (٥)

أى : " لمتننى لأجله .

١٢١ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : " لَمَسَّكُم فِيمَا أَفَضتُم فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (٦)

أى : " لمسكم لما أفضتم فيه " .

١٢٢ ـ وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " دَخَلَت امرَأَةٌ النَّارَ فِى هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا " (٧) .

أى : " لأجل هرة " .

١٢٣ ـ وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " فى النَّفسِ مائةٌ مِنَ الإِبلِ " (٨) .

أى : " للنفس " .

١٢٤ ـ وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " الحُبُّ فى اللَّهِ والبُغضُ فى اللَّهِ مِنَ الإِيمان (٩) " .

أى : " الحب لله والبغض لله .

---

(١) البرهان ٣٠٤/٤ ـ الإتقان ٢١٧/١ .

(٢) من الآية ٧٢ سورة الإسراء .

(٣) البرهان ٣١٢/٤ ـ الجنى الدانى ٢٦٦ ـ المغنى ١٤٥/١ ـ الهمع ١٩٤/٤ ـ الإتقان ٢١٧/١ .

(٤) الأنفال آية ٦٨ . (٥) من الآية ٣٢ سوره يوسف .

(٦) من الآية ١٤ سورة النور .

(٧) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق باب إذا وقع الذباب ١٠٠/٤ ط تركيا . صحيح مسلم كتاب الكسوف باب ماعرض على النبى صلى الله عليه وسلم ـ ص ٩٠٤ دار عيسى الحلبى .

(٨) سنن النسائى ـ كتاب القيامة باب ٤٦ ج ٥٢/٨ ـ تنوير الحوالك على موطأ مالك كتاب العقول باب ج ٥٨/٣

(٩) صحيح البخارى كتاب الإيمان باب ١ ج ٨/١ سنن أبى داود كتاب السنة باب ٣ حديث ٤٥٩٩ ج ٦/٥ مسند أحمد ١٤٦/٥ .

و - دخول الحرف " فى " مكان "من " (١).

١٢٥ - قال الله - جل وعلا - : " وَيومَ نَبعَثُ فى كُلِّ أُمَّةٍ شَهيدًا عَلَيهِم " (٢)
آى : " من كل أمة شهيدا " .

١٢٦ - وقال " امرؤ القيس " :

وَهَل يَعِمَنْ مَنْ كانَ أَحدثُ عَهدِهِ
ثلاثِينَ شَهرًا فى ثَلاثةِ أَحوالِ (٣)

أى : " من ثلاثة أحوال." .

١٢٧ - وقال " امرؤ القيس" كذلك :

ألا أيُّها اللَّيلُ الطَّويلُ ألا انْجَلِى
بِصُبحٍ وَما الإصباحُ فيكَ بِأَمثَلِ

أى : " منك بأمثل " .

---

(١) الأزهية ٢٧١ - المخصص ٦٨/١٤ - البرهان ٣٠٣/٤ - الجنى الدانى ٢٦٧ - المغنى ١٤٦/١ - الهمع ١٩٣/٤ - الإتقان ٢١٧/١ .

(٢) من الآية ٨٩ سورة النحل .

(٣) الخصائص ٣١٣/٢ - المخصص ٦٨/١٤ - الجنى الدانى ٢٦٧ - المغنى ١٤٦/١ - الديوان ٩٩

(٤) الجنى الدانى ٢٧١ وهى رواية الديوان ٨١ بشرح الأعلم الشنتمرى ط الجزائر .

" الكــــــــــاف "(١)

حرف الجر " الكاف " يدل أصلا على التشبيه ،قال الله تعالى ـ : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ"(٢) وتقـــول: الجندي كالأسد " .

ومما قيل فيه بدخول " الكاف الجارة " مكان حرف آخر من حروف الجــــــــــر

أ ـ دخول حرف " الكاف " مكان " على " (٣):

١٢٨ ـ قال الله ـ عز وجل ـ : " فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ "(٤)
أى : " فاستقم على ما أمرت "(٥)
وحُكِى عن العــــــرب :
١٢٩ ـ كيف أصبحت ؟ فيقول : كخير ، يريد : على خير (٦)
١٣٠ ـ كن كما أنت ، يريد : على ما أنت عليه (٧)
١٣١ ـ دعه كما هو ، يريد : دعه على ماهو عليه (٨)

---

(١) سيبويه ٢١٧/٤ ـ معانى القرآن ٤٦٦/١ المقتضب ٧٧/١ ـ ١٤٠/٤ ـ معانـــــى الحروف ٤٧ ـ شرح ابن يعيش على المفصل ٤٢/٨ ـ شرح الرضى على الكافيـــــة ٣٤١/٢ ـ المغنى ١٥١/١ ـ الهمع ١٩٤/٤ .
(٢) سورة إبراهيم آية ٢٤ .
(٣) الجنى الدانى ١٣٦ ـ المغنى ١٥٢/١ ـ الهمع ١٩٥/٤ ـ الأزهية ٢٩٠ .
(٤) من الآية ١١٢ سورة هود .
(٥) الأزهية ٢٩٠ نقلا عن " الأخفش " فى كتاب " المسائل
(٦) الجنى الدانى ١٣٦ ـ المغنى ١٥٢/١ ـ الهمع ١٩٥/٤ وانظر معانى القرآن ٤٦٦/١ وحكاه دليلا على زيادة الكاف .
(٧) همع الهوامع ١٩٥/٤ .
(٨) الأزهية ٢٩٠ .

ب ـ دخول حرف " الكاف " مكان " اللام "[(١)]:

ودخلت الكاف مكان اللام سواء لحقتها ما الزائدة أو المصدرية أم لم تلحقها ؟

١٣٢ ـ قال الله ـ عز وجل ـ : " كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيكُمْ آيَاتِنَا "[(٢)] .

أى : " لِأجل إرسالى فيكم رسولا منكم " .

١٣٣ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : " وَاذكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُمْ مِن قَبلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ [(٣)] " .

أى : " لهدايتكم " .

١٣٤ ـ وقال الله ـ جل وعلا ـ : " قَالُوا يَامُوسى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُم آلِهَةٌ " [(٤)] .

أى : " لأجل آلهتهم " .

١٣٥ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : " وَيكَأَنَّهُ لا يُفلِحُ الكَافِرونَ "[(٥)]

أى : " لعدم فلاحهم " .

وحُكِى عن العرب :

١٣٦ ـ " كما أنه لا يعلم ، فتجاوز الله عنه " يريدون : " لأنه لايعلم[(٥)] "

---

(١) سيبويه ١٤٠/٣ ـ الجنى الدانى ١٣٥ ـ المغنى ١٥١/١ ـ الهمع ١٩٤/٤ ـ ١٩٥ ـ البرهان ٣١٠/٤ ـ الإتقان ٢١٨/١ .

(٢) من الآية ١٥١ سورة البقرة .

(٣) من الآية ١٩٨ سورة البقرة .

(٤) من الآية ١٣٨ سورة الأعراف .

(٥) من الآية ٨٢ سورة القصص .

(٥) الحكاية فى سيبويه ١٤٠/٣ لبيان أن "ما" لم تكف " الكاف " عن العمل فى "أنَّ"

تصـــويبات

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٥٦	٥	المجازة	المجاوزة
٥٩	١٥	أى ذروة	أى فى ذروة
٦٠	٨ هـ	بن أحمر	ابن أحمر
٦٣	٨ هـ	—	المخصص ١٤/٦٥
٦٩	٤ هـ	الكبيرة	الكبير
	٨ هـ	محققه	محقق
٧٠	١ هـ	سيبوية	سيبويه
٧٠	٣ هـ	الجنى الرانى	الجنى الدانى
٧٠	١٣ هـ	ابن سيبويه	سيبويه

(للدراسـة بقيـة)

ظاهرة دخول حروف الجر بعضها مكان بعض

عرض - تحليل - نتائج

(الجزء الثاني)

للدكتور حسين شرف

((اللام)) [1]

اللام الجارة تدل أصلا على الملك[2] متل : الكتاب لخالد ، والسيارة لعمرو ، وجعل بعصهم أصل معانيها الاختصاص[3] متل : الجنة للمؤمنين ، وجعل بعضهم الاستحقاق معناها الذى لايفارقها مثل « النار للكافرين » وواقع استعمالها فى العربية يبين أنها من حروف الجر التى كثرت معانيها .

ومما قيل فيه بدخول « اللام » مكان حرف آخر من حروف الجر

(أ) دخول « اللام » مكان « إلى »[4]

١٣٧ ـ قال الله ـ عز وجل ـ : « رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلإِيمَانِ »[5] .

أى : « إِلَى الإِيمَانِ » .

١٣٨ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[6] .

أى . « إِلَى مَانُهُوا عَنْهُ » .

١٣٩ ـ وقال الله ـ جَلَّ ثناؤه ـ « إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ »[7]

أى . « وَجَّهْتُ وَجْهِىَ إِلَى الَّذِى » .

١٤٠ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ . « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا »[8]

أى . « هَدَانَا إِلَى هَذَا »

١٤١ ـ وقال الله ـ جل وعلا ـ : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ »[9]

أى : « سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ » .

---

(١) سيبويه ٤ / ٢١٧ ـ معانى القرآن ١ / ٢١٢ ـ ٢١٣ ـ تأويل مشكل القرآن ٥٦٩ ـ المقتضب ١ / ١٧٧ ـ معانى الحروف ٥٥ ، ٥٦ ـ شرح المفصل لابن يعيش ٨/٢٥، ٢٦ شرح الرضى على الكافية ٢/٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ـ الجنى الدانى ١٤٣ ـ المغنى ١ / ١٧٥ الهمع ٤ / ٢٠٠

(٢) سيبويه ٤ ـ ٢١٧ ، المقتضب ١ / ١٧٧

(٣) شرح المفصل ٨ / ٢٥

(٤) تهذيب اللغة ١٥ / ٤١٣ ـ الأزهية ٢٨٧ ـ المخصص ١٤ / ٦٨ ـ أمالى الشجرى ٢ / ٢٧١ الرضى ٢ ـ ٣٢٩ ـ البرهان ٤ / ٣٤٠ ـ الجنى الدانى ١٤٥ ـ المغنى ١ / ١٧٧ ـ الهمع ٤ / ٢٠٢ ـ الإتقان ١/٢٢٢

(٥) من الآية ١٩٣ سورة آل عمران

(٦) من الآية ٢٨ سورة الأنعام

(٧) من الآية ٧٩ سورة الأنعام

(٨) من الآية ٤٣ سورة الأعراف

(٩) من الآية ٥٧ سورة الأعراف

١٤٢ - وقال الله - عز وجل - . « قُلِ اللهُ يَهدِي لِلحَقِّ أَفَمَن يَهدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ . »[1]

أي : « قُلِ اللهُ يَهدِي إِلَى الحَقِّ » .

١٤٣ - وقال الله - تبارك وتعالى - « وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى »[2] .

أي : « يجري إلى أجل » .

١٤٤ - وقال الله - جل وعز - . « أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيرَاتِ وَهُم لَهَا سَابِقُونَ »[3] .

أي : « وَهُم إِلَيهَا سابقونَ » .

١٤٥ - وقال الله - سبحانه وتعالى - . « وَالشَّمسُ تَجرِي لِمُستَقَرٍّ لَهَا »[4] .

أي « إلى مستقر »

١٤٦ - وقال الله - جل ثناؤه - . « فَلِذَلِكَ فَادعُ وَاستَقِم كَمَا أُمِرتَ »[5]

أي : « فإلى ذلك . . »

١٤٧ - وقال الله - تبارك وتعالى - : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحَى لَهَا »[6] .

أي . « أوحى إليها » .

١٤٨ - وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . « سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه »[7]

أي . « استمع إلى من حمده » .

(ب) دخول « اللام » مكان « على »[8] .

١٤٩ - قال الله - عز وجل - . « ذَلِكَ لِمَن لَم يَكُن أَهلُهُ حَاضِرِي المَسجِدِ الحَرَامِ »[9] .

---

(١) من الآية ٣٥ سورة يونس

(٢) من الآية ٢ سورة الرعد - ١٣ سورة فاطر - ٥ سورة الزمر .

(٣) المؤمنون آية ٦١ .

(٤) من الآية ٣٨ سورة يس .

(٥) من الآية ١٥ سورة الشورى .

(٦) الزلزلة آية ٥

(٧) صحيح البخاري كتاب الأذان باب متى يسجد من خلف الأمام ١ - ١٧٢ - صحيح مسلم كتاب الصلاة باب متابعة الإمام والعمل بعده الحديث ١٩٩ ج ١ / ٣٤٥ - سنن أبي داود كتاب الصلاة باب الإمام يصلي من قعود الحديث ٦٠١ ج - ١ / ٤٠١ مسند أحمد ١/ ٦٥ ، ١٠٢ ، ٢٧٠

(٨) تأويل مشكل القرآن ٥٦٩ - الأزهية ٢٨٧ - المخصص ١٤ / ٦٦ - أمالي الشجري ٢ / ٢٧٢ - الرضي ٢ / ٣٢٩ - البرهان ٤ / ٣٤١ - الجنى الداني ١٤٦ - المغني ١ / ١٧٧ الهمع ٤ / ٢١٢ - الإتقان ١ / ٢٢٢

(٩) من الآية ١٩٦ سورة البقرة .

أى « ذلك على من لم يكن » .

١٥٠ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ :
« وَإِذَا مَسَّ الإِنسانَ الضرُّ دَعانا لِجَنبِهِ »[1]

أى : « دَعانَا عَلَى جنبه »

١٥١ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ
« أُولَئِكَ لَهُم اللَّعْنَةُ وَلَهُم سُوءِ الدَّار »[2]

أى . « أُولئك عَلَيهم اللعنة »

١٥٢ ـ وقال الله جل وعلا ـ « إِنْ أَحسَنْتُم أَحسَنْتُم لأَنفُسكُمْ وَإِن أَسَأْتُم فَلَهَا »[3]

أى : « وإن أسأتُم فعليها »

١٥٣ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ
« إِذَا يُتلَى عَلَيهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذقانِ سُجَّدًا »[4]

أى « يخرون على الأذقان »

١٥٤ ـ وقال الله ـ جل ثناؤه ـ
« ويَخِرُّونَ لِلأَذقان يَبكُونَ وَيَزِيدُهُم خُشوعاً »[5] .

أى « ويخرون على الأذقان » .

١٥٥ ـ وقال الله ـ جل وعلا ـ
« فَلَمَّا أَسلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِين »[6]

أى . « على الجبين » .

١٥٦ ـ وقال الله ـ عز وجل ـ : « يَوم لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُم وَلَهُم اللَّعنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار »[7] .

أى . « وعليهم اللعنة »

١٥٧ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى .
« وَلَا تَجهَرُوا لَهُ بالقَول كَجَهر بَعضِكُم لِبَعضٍ »[8] .

أى : « لا تجهروا عليه . . » .

---

(١) من الآية ١٢ سورة يونس
(٢) من الآية ٢٥ سورة الرعد
(٣) من الآية ٧ سورة الإسراء .
(٤) من الآية ١٠٧ سورة الإسراء .
(٥) الإسراء آية ١٠٩
(٦) الصافات آية ١٠٣
(٧) من الآية ٥٢ سورة غافر .
(٨) من الآية ٢ سورة الحجرات .

١٥٨ ـ وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعائشة ـ رضى الله عنها · «اشْتَرِطى لَهُم الوَلَاءَ »[1].

أى · « عليهم » .

١٥٩ ـ وقال « الأشعث بن قيس الكندى وينسب لغيره .

تَناوَلتُ بالرُّمحِ الطَّويل ثِيابَهُ
فَخرَّ صَرِيعًا لِليَدَين وَللفَمِ[2]

أى . « على اليدين وعلى الفم »

١٦٠ ـ وقال الآخر :

كَأَنَّ مُخَوَّاها عَلَى ثَفِناتِهَا
مُعَرَّسُ خَمسٍ وَقَّعَتْ لِلجَناجِنِ[3]

أى · «وَقَّعَت على الجناجن الثَّفنات .مايقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ واحدتها ثفنة ، والجناجن · عظام الصدر ، وقيل أطراف الأضلاع مِمَّا يلى الصدر ، واحدها جَنجَن وجِنْجِنَة ؛

وحُكِىَ عن العرب :

١٦١ ـ « سقط لوجهه »

ويريدون : على وجهه[4] »

١٦٢ ـ « سقط فلان لفيه »

ويريدون : على فيه[5] .

(ح) دخول « اللام » مكان « عن »[6]

١٦٣ ـ قال الله ـ عز وجل ـ « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَو كَانَ خَيرًا ما سَبَقُونا إِلَيهِ »[7] .

أى : عن الذين آمنوا » :

١٦٤ ـ وقال الشاعر :

كَضَرائر الحَسناءِ قُلنَ لِوَجهِهَا
حَسدًا وَبُغضًا إِنَّهُ لَدَمِيمُ[8]

أى · « قلن عن وجهها » .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المكاتب باب استعانة المكاتب ٣ / ١٢٧ – صحيح مسلم كتاب العتق باب إنما الولا لمن أعتق، الحديث ١٥٠٤ ح ٢ / ١١٤٣ – تنوير الحوالك على موطأ مالك كتاب العتق باب مصير الولاء لمن أعتق ٣-٨

(٢) الأزهية ٢٨٨ – المخصص ١٤ / ٦٦ – أمالى الشجرى ٢ / ٢٧١ – المغنى ١ / ١٧٧

(٣) المخصص ١٤ / ٦٦ .

(٤) الأزهية ٢٨٧ – أمالى الشجرى ٢ / ٢٧١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ٥٦٩ .

(٦) الرضى على الكافية ٢ / ٣٢٩ – البرهان ٤ / ٣٤٢ – الجنى الدانى ١٤٦ – المغنى ١ / ١٧٨ – الهمع ٤ / ٢٠٣ – الإتقان ١ / ٢٢٢ .

(٧) من الآية ١١ سورة الأحقاف

(٨) الجنى الدانى ١٤٦ – المغنى ١/١٧٩ – الهمع ٤/٢٠٤ – وقال محقق الهمع« نسب لأبى الأسود الدؤلى – ديوانه ٢٣٢

(د) دخول «اللام» مكان «في»[1] :

١٦٥ ـ قال الله ـ جل وعلا ـ : «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاريبَ فِيهِ»[2]

أي : «في يوم» .

١٦٦ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : «فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ»[3] .

أي : «إذا جمعناهم في يوم . . .» .

١٦٧ ـ وقال الله ـ جل وعلا ـ : «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ»[4] .

أي : «لا يجليها في وقتها إلا هو» .

١٦٨ ـ وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً»[5] .

أي . «في يوم القيامة . . .» .

١٦٩ ـ وقال الله ـ عزوجلّ ـ : «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ»[6]

أي «في أول الحشر» .

١٧٠ ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : «يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي»[7] .

أي : «في حياتي الدنيا» .

وحُكي عن العرب .

---

(١) معاني القرآن ١/ ٢٠٢ - الصاحبي ١٤٨ - الأزهية ٢٨٨ - أمالي الشجري ٢/ ٢٧٢ - الرضي على الكافية ٢/ ٣٢٩ - البرهان ٤/ ٢٤١ ، ٢٤٢ - الجنى الداني ١٤٥ - المغني ١/ ١٧٨ - الهمع ٤/ ٢٠٣ - الإتقان ١/ ٢٢٢ .

(٢) من الآية ٩٥ سورة آل عمران .

(٣) من الآية ٢٥ سورة آل عمران .

(٤) من الآية ١٨٧ سورة الأعراف .

(٥) من الآية ٤٧ سورة الأنبياء

(٦) من الآية ٢ سورة الحشر .

(٧) الفجر آية ٢٤

١٧١ – « مضى لسبيله »

يريدون : « فى سبيله » [1].

– دخول « اللام » مكان « من » [2]

١٧٢ – قال « جرير بن عطية الخطفى »

لَنَا الفَضْلُ فى الدنْيَا وَأَنفُكَ رَاغِمٌ
وَنَحنُ لَكُم يَومَ القِيامَةِ أَفضَلُ [3]

أى : « ونحن أفضل منكم يوم القيامة »

وحُكِى عنهم :

١٧٣ – « سمعت لزيد صياحاً » .

يريدون : من زيد صياحاً » [4]

---

(١) المغنى ١ / ١٧٨

(٢) الأزهية ٢٨٨ – منهج السالك ٢٤٥ – الجنى الدانى ١٤٧ – المغنى ١ / ١٧٨ – الهمع ٤ / ٢٠٣

(٣) الجنى الدانى ١٤٨ – المغنى ١ / ١٧٨ – الهمع ٤ / ٢٥٣ – الديوان ٤٥٧ ط القاهرة – ١٣٥٣ هـ .

(٤) الأزهية ٢٨٨ – المغنى ١ / ١٧٨ – الهمع ٤ / ٢٠٣ وفى الأخيرين : « سمعت له صراخاً » .

« من »[1]

من الجارة حرف يدل أصلا على ابتداء الغاية مكانية باتفاق مثل قول الله – جل وعلا – سبحانَ الَّذي أَسْرَى بعَبده لَيلاً من المسجد الحرام إلى المسْجدالأقصَى »[2] وزمانية – على الأرجح – مثل قول الله – عز وجل – لا تَقُمْ فِيه أبدًا لَمَسجدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقوَى مِن أولِ يَومٍ أَحقُّ أن تَقومَ فِيه »[3] ومايُنزَّلُ منزلة ابتداء الغاية مثل قوله – صلى الله عليه وسلم – : من « محمد » عبد الله ورسوله إلى « هرقل » عظيم الروم[4].

ومما يتبادر من معانى « من » بغير تناوب : التبعيض « مثل قول الله » – تبارك وتعالى – : « لَن تَنالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون »[5]. و « تبيين الجنس » مثل قول الله – عز وجل – : « فَاجتَنِبُوا الرِّجسَ مِنَ الأَوثانِ »[6]

والبعض يرجع كل معانيها إلى الابتداء كما هو معلوم.

ومما قيل فيه بدخول « من » مكان حرف آخر من حروف الجر

(أ) دخول « من » مكان « إلى »[7] :

١٧٤ – قال « الأعشى » :

أَأَزمَعْتَ من آلِ لَيلى ابتِكارًا
وَشَطَّت عَلى ذِي نَوًى أَنتزَارا ؟[8]

أى : أأزمعت إلى آل ليلى » .

---

(١) سيبويه ٤/٢٢٤ – المقتضب ١ / ١٨٢ – ٤ / ١٣٦ – معانى الحروف ٩٧ – شرح ابن يعيش على المفصل ٨ / ١٠ – ١٤ – شرح الرضى على الكافية ٢ / ٣٢٠ – ٣٢٢ – الجنى الدانى ٣١٤ – المغنى ٢ / ١٤ – ١٨ – الهمع ٤ / ٢١١ : ٢٢١ .

(٢) من الآية ١ سورة الإسراء .

(٣) من الآية ١٠٨ سورة التوبة .

(٤) صحيح البخارى كتاب بدء الوحى باب ٦ حدثنا أبو اليمان ١ – ٦ وانظر مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ١٠٩ لمحمد حميد الله ط بيروت ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

(٥) من الآية ٩٢ سورة آل عمران .

(٦) من الآية ٣٠ سورة الحج

(٧) سيبويه ٤ / ٢٢٥ – معانى الحروف ٩٨ – وعزاه إلى الأصمعى – ابن يعيش ٨ / ١٣ – الجنى الدانى ٣١٧ – المغنى ٢ / ١٦ – الهمع ٤ / ٢١٤ .

(٨) معانى الحروف ٩٧ – اللسان « زمع » التاج « زمع » .

١٧٥ – وتقول : رأيته من ذلك الموضع . «تجعله غاية رؤيتك»(١) .

(ب) دخول « من » مكان « الباء »(٢) .

١٧٦ – قال الله – سبحانه وتعالى – :

« لَهُ مُعقِّباتٌ مِن بَين يَدَيهِ وَمن خَلفِه يَحفَظونَهُ مِن أمر اللهِ »(٣) .

أى . « يحفظونه بأمر الله » .

١٧٧ – وقال الله – عز وجل – . « يُلقِى الرُّوحَ مِن أمرهِ عَلَى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ »(٤)

أى . « يلقى الروح بأمره » .

١٧٨ – وقال الله – تبارك وتعالى –

« وَتَراهُم يُعرَضون عَليهَا خاشِعينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرفٍ خَفيٍّ »(٥)

أى : « ينظرون بطرف خفى » .

١٧٩ – وقال الله – جل وعلا – : «تَنزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بإذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أمرٍ »(٦) .

أى : « بكل أمر » .

(ح) دخول « من » المكفوفة بما « مكان » « ربما »(٧) .

١٨٠ – قال الفرزدق همام بن غالب » :

وَإنَّا لَمِمَّا نَضرِبُ الكَبشَ ضَربَةً
عَلَى رَأسِه وَالحَربُ قَدلَاحَ نارُهَا(٨)

أى « وإنا لربما نضرب »

١٨١ – وقال « أبو حية النميرى » .

وإنَّا لَمِمَّا نَضرِبُ الكَبشَ ضَربَةً
عَلَى رَأسِهِ تُلقِى السنَانَ مِنَ الفَمِ(٩)

أى . « وإنا لربما نضرب » .

---

(١) سيبويه ٤ / ٢٢٥ – الجنى الدانى ٣١٧ – المغنى ٢ / ١٦ – الهمع ٤ / ٢١٤

(٢) معانى القرآن ٢ / ٦٠ – تأويل مشكل القرآن ٥٧٤ – المقتضب ٢ / ٣١٨ – معانى الحروف ٩٨ – الأزهية ٢٨٢ – أمالى الشجرى ٢ / ٢٧٠ – البرهان ٤ / ٤٢٠ – الجنى الدانى ٣١٨ – المغنى ٢ / ١٦ – الهمع ٤/٢١٤

(٣) من الآية ١١ سورة الرعد

(٤) من الآية ١٥ سورة غافر .

(٥) من الآية ٤٥ سورة الشورى .

(٦) سورة القدر آية ٤

(٧) سيبويه ٣ / ١٥٦ – المقتضب ٤ / ١٧٤ – أمالى الشجرى ٢ / ٢٤٤ – الهمع ٤ / ٢١٥ وعزاه صاحب الهمع للسيرافى ، وابن خروف ، وابن طاهر ، والأعلم

(٨) الديوان ١ / ٣٤٨ ط بيروت ، ونقله شيخى المرحوم محمد عبد الخالق عضيمة عن الخزانة ٤ / ٢٨٢ ، هامش المقتضب ٤ – ١٧٤

(٩) سيبويه ١ / ١٥٦ – المقتضب ٤ / ١٧٤ – أمالى الشجرى ٢ / ٢٤٤ – مغنى اللبيب ٢ / ١٠ – الهمع ٤ / ٢١٥ .

ويقال :

١٨٢ – « إنى مما أفعل » على معنى « ربما أفعل »[١] .

(د) دخول « من » مكان « على »[٢] :

١٨٣ – قال الله – جل وعلا – . « « وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ »[٣] .

أى : « نصرناه على القوم » .

(هـ) دخول « من » مكان « عن »[٤] :

١٨٤ – قال الله – عز وجل – . « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ »[٥] .

أى : « عن الطيب » .

١٨٥ – وقال الله – تبارك وتعالى – : « يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ »[٦] .

أى : « فى غفلة عن هذا » .

١٨٦ – وقال الله – جل وعلا – « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »[٧] .

أى . « عن ذكر الله » .

١٨٧ – وقال الله – سبحانه وتعالى – : « الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ »[٨] .

أى . « أطعمهم عن جوع »

ويقال .

١٨٨ – أطعمه من جوع ، وكساه من عرى ، وسقاه من العَيْمة .

---

(١) المصادر السابقة هـ ٩ ص ١٤٣

(٢) تأويل مشكل القرآن ٥٧٧ – الصاحبى ١٨٢ – فقه اللغة للثعالبى ٢٣٧ – الأزهية ٢٨٢ – البرهان ٤ / ٤٢٠ الجنى الدانى ٣١٨ – أمالى الشجرى ٢ / ٢٧٠ – المغنى ٢ / ١٦ – الهمع ٤ / ٢١٤ – الإتقان ١ / ٢٣٠ .

(٣) من الآية ٧٧ سورة الأنبياء

(٤) سيبويه ٤ / ٢٢٧ – العريب المصنف ٢٣١ – أ – تأويل مشكل القرآن ٥٧٨ – تهذيب اللغة ٣ – ٢١٦ – معانى الحروف ٩٨ – الأزهية ٢٧٨ – المخصص ١٤ / ٦٥ – البرهان ٤ / ٤٢٠ – الجنى الدانى ٣١٦ – المغنى ٢ / ١٦ الهمع ٤ = ٢١٤ – الإتقان ١ / ٢٣٠ .

(٥) من الآية ١٧٩ سورة آل عمران

(٦) من الآية ٩٧ سورة الأنبياء .

(٧) من الآية ٢٢ سورة الزمر

(٨) سورة قريش آية ٤ .

يريد : « عن جوع »[1]

١٨٩ – حدثني فلان من فلان

يريد : « عن فلان »[2]

١٩٠ – « رميت من القوس »

يريد : « عن القوس »[3].

١٩١ – « لهيت من فلان ».

يريد : عن فلان[4]

١٩٢ – « أخذته منكم ».

يريد : « عنكم »[5]

(و) دخول « من » مكان « في »[6].

١٩٣ – قال الله – عز وجل – « قُل أرأيتُم شُركاءَكُم الذينَ تَدعونَ مِن دُونِ اللهِ أَروني ماذا خَلَقُوا مِن الأَرض »[7]

أي « ماذا خلقوا في الأرض »

١٩٤ – وقال الله – تبارك وتعالى – « يا أيُّهَا الذينَ آمنوا إذا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَومِ الجُمعَةِ »[8]

أي نودي للصلاة في يوم الجمعة »

(ز) دخول « من » مكان « اللام »[9]

١٩٥ – قال الله – عز وجل – « يَجعَلون أَصابعَهُم في آذانِهِم مِن الصَّواعقِ حَذَرَ المَوتِ »[10]

أي : « لأجل الصواعق ».

١٩٦ – وقال الله – تبارك وتعالى – : « وَإِنَّ مِنهَا لَمَا يَهبِطُ مِن خَشيَةِ اللهِ »[11].

أي « لأجل خشية الله ».

١٩٧ – وقال الله – جل وعلا – : « مِن أَجلِ ذَلِكَ كَتَبنا عَلَى بَنِي إسرائيلَ »[12]

أي : « لأجل ذلك ».

---

(١) سيبويه ٤ / ٢٢٧ – البرهان ٤ / ٤٢٠ – والعمدة . تهوه اللس .
(٢) الغريب المصنف ٢٣١ / أ – تأويل مشكل القرآن ٥٧٧ – تهذيب اللغة ٣ / ٢١٦ – المخصص ١٤ / ٦٥ .
(٣) معاني الحروف ٩٨
(٤) الغريب المصنف ٢٣١ / أ – تأويل مشكل القرآن ٥٧٧ – المخصص ١٤ / ٦٥
(٥) المخصص ١٤ – ٦٥
(٦) تأويل مشكل القرآن ٥٧٧ – البرهان ٤ – ٤٢٠ – الجنى الداني ٣١٩ – المغني ٢ / ١٦ الهمع ٤ / ٢١٤
(٧) من الآية ٢٣ سورة فاطر .
(٨) من الآية ٩ سورة الجمعة
(٩) البرهان ٤ / ٤١٩ – الجنى الداني ٣١٥ / المغني ٢ – ١٥ – الهمع ٤ / ٢١٤ – الإتقان ١ / ٢١٠
(١٠) من الآية ١٩ سورة البقرة (١١) من الآية ٧٤ سورة البقرة .
(١٢) من الآية ٣٢ سورة المائدة .

١٩٨ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ :

« مِمَّا خَطِيئَاتِهِم أُغرقوا فَأُدخِلوا نَارًا » (١) .

أي . « لخطيئاتهم »

١٩٩ـ وقال الله ـ جَلَّ وعلا ـ

« الذى أَطعَمهُم مِن جُوعٍ » (٢) .

أي : « لجوع » .

وقد سبق ذكر هذه الآية مثالا لمجيء « من » بمعنى « عن » .

٢٠٠ـ وقال « امرؤُ القيس بن حجر الكندى » وينسب لغيره

وَذلِكَ مِن نَبإٍ جَاءَنى
وَخُبِّرتُهُ عَن أَبى الأَسوَدِ (٣) .

أي « وذلك لنبأ جاءنى »

٢٠١ـ وقال « الفرزدق » .

يُغضِى حَياء وَيُغضَى مِن مَهابَتِه
فَلا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبتَسِمُ (٤)

أي « وَيُغضَى لمهابته » .

(ح) دخول « من » مكان « مذ » (٥) :

قال « زهير بن أبى سلمى » .

٢٠٢ـ لِمن الدِّيارُ بقُنَّةِ الحِجْرِ
أقوَيْنَ مِن حِجَجٍ وَمِن دَهرِ (٦)

أي « مذ حجج ومذ دهر »

وحُكى عنهم .

٢٠٣ـ ما رأيته من سنة .

يريدون : مذ سنة (٧)

---

(١) من الآية ٢٥ سورة نوح

(٢) من الآية ٤ سورة قريش

(٣) مغنى اللبيب ٢ / ١٥ والبيت ثالث قصيدة لامرئ القيس بن حجر الكندى فى ديوانه ٣٤٥ بشرح الأعلم ط الجزائر .

(٤) مغنى اللبيب ٢ / ١٥ والديوان من قصيدة للفرزدق يمدح زين العابدين على بن الحسين ٢ / ١٧٩ ط بيروت .

(٥) الغريب المصنف ٢٣١ / أ ـ المخصص ١٤ / ٦٥

(٦) الغريب المصنف ٢٣١ / أ ـ المخصص ١٤ / ٦٥ الديوان ٨٦ والبيت مطلع قصيدة له يمدح « هرم بن سنان » .

(٧) الغريب المصنف ٢٣١ / أ .

تفصيل موقف علماء العربية من دخول
حروف الجر بعضها مكان بعض

إن ما أمكن وقوفى عليه من أمثلة العربية التى يشير سياقها إلى ظاهرة دخول حرف جر مكان حرف جر آخر (٢٠٣) مائتا مثال وثلاثة بيانها كالآتى

١٠٥ مائة مثال وخمسة من القرآن الكريم.

٥ خمسة أمثلة من الحديث الشريف

٦٢ اثنان وستون مثالا من الشعر والرجز.

٣١ واحد وثلاثون مثالا من المحكي عن العرب.

وهذه الأمثلة وغيرها مما جاء فى لغتنا العربية هى التى أثارت قضية نيابة حروف الجر عن بعضها وكان موقف علمائنا الأوائل وسلفنا الفاضل من هذه القضيه كموقفهم من أغلب قضايا العربية. فلم يتفقوا عليها، ولم تلتق كلمتهم على رأى واحد فيها، وانقسموا فريقين.

الفريق الأول جمهور نحاة الكوفة، ومن رأى رأيهم من علماء البصرة والعلماء المتأخرين الذين أخذوا عن المدرستين وقد سلم هذا الفريق بدخول حرف الجر — أو حروف الصفات كما سماها — بعضها مكان بعض فيدخل حرف الجر « إلى » الذى يدل أصلا على « الانتهاء » مكان حرف الجر « فى » الذى يدل أصلا على الظرفية ومن ذلك قول الله — عز وجل — : « اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُم إلى يَوم القيامة »(١).

ويدخل حرف الجر « فى » الذى يدل أصلا على « الظرفية » مكان حرف الجر « اللام » الذى يدل أصلا على « الملك » ومن ذلك قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — : « الحبُّ فى اللهِ والبغضُ فى الله من الإيمان »(٢). ويدخل حرف الجر

---

(١) من الآية ٨٧ سورة النساء

(٢) صحيح البخارى كتاب الإيمان باب ١ ح ١ — ٨ ؛ سنن أبى داود كتاب السنه باب ٣ الحديث ٤٥٩٩ ج ٥ — ٦

« الباء » الذى يدل أصلا على « الإلصاق » مكان حرف الجر « من » الذى يدل أصلا على الابتداء ، ومن ذلك قول « عنترة »

شربت بماء الدُّحْرُضَين فأصبحت
زوراء تنفر عن حياض الديلم[1]

ويدخل حرف الجر « من » الذى يدل أصلا على « الابتداء » مكان الحرف « عن » الذى يدل أصلا على « المجاوزة » ومن ذلك قولهم : « حدثنى فلان من فلان » يريدون عن فلان »[2] .

وأيد هذا الفريق وجهة نظره بما يأتى .

١ ــ واقع الاستعمال اللغوى . وتؤكد وجود هذه الأمثلة الكثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف . والشعر العربى . والمحكى عن العرب

٢ ــ دلالة السياق فى هذه الأمثلة على مساواة حرف الجر الملفوظ به فيها مع حرف جر آخر غير ملفوظ به فى معناه ، واستقامة الأسلوب والمعنى عند وضع الحرف غير المستعمل أصلا فى المثال مكان الحرف المستعمل ، ويوضح ذلك

دلالة السياق على مساواة الحرف « فى » مع الحرف « من » فى إفادة الابتداء من قول « امرئ القيس » .

وهل يعمن من كان أحدث عهده
ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال[3]

واستقامة المعنى والأسلوب عند وضع الحرف « من » مكان الحرف « فى » الذى جاء على لسان الشاعر .

٣ ــ دلالة الاستعمال اللغوى دلالة قطعية صريحة على دخول حرف جر مكان حرف جر آخر بوجود أمثلة عربية فصيحة وُصِل فيها الفعل بالحرف غير الملفوظ به.

فيستدل هذا الفريق على دخول حرف الجر « الباء » مكان « على » فى قول

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٥٧٥ - الصاحبى ١٣٢ - الأزهية ٢٨٣ - المخصص ١٤/ ٦٧ - أمالى الشجرى ٢ / ١٧٠ الديوان ١٤٧

(٢) الغريب المصنف ٢٣١ / أ - تأويل مشكل القرآن ٥٧٧ - تهذيب اللغة ٣ / ٢١٦ - المخصص ١٤ / ٦٥

(٣) الخصائص ٣/٣١٣ - المخصص ١٤/٦٨ الجنى الدانى ٢٦٧ - المغنى ١ - ١٤٦ - الديوان ٩٩ .

الله – عز وجل – : « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ »[1]

يقول الله – تبارك وتعالى – « قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ »[2]

فقد وُصِل الفعل « آمن » بالحرف « على » مرتين في الآية

ويستدل على دخول حرف الجر « على » مكان « عن » في قول « القحيف العقيلي »

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ
لعمرُ اللهِ أعجَبَنِي رِضَاهَا[3]

يقول الله – جل وعز – « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ »[4]

وفي الآية وُصِل الفعل « رضي » بالحرف « عن » مرتين

ويستدل على دخول حرف الجر «اللام » مكان الحرف « على » في قول الله – سبحانه وتعالى – « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »[5] .

يقول الله – جل وعلا – « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »[6]

وفي الآيه وُصِلَ الفعل « أساء » بالحرف « على » .

٤ – القول بدخول حرف جر مكان حرف جر آخر

يحقق مرونة اللغة والتوسع فيها ، ويعفي من التأويل والتخريج الذي يتأتى عن قرب حينا ، ومع تكلف حينا . وقد يستعصي تخريج بعض الأمثلة ، فيسلم إلى القول بالشذوذ

الفريق الثاني : جمهور نحاة البصرة الذين يقصرون كل حرف من هذه الحروف

---

(١) من الآية ٧٥ سورة آل عمران

(٢) من الآية ٦٤ سورة يوسف

(٣) الغريب المصنف ٢٣١ – أ – المقتضب ٢ / ٣١٨ – الخصائص ٢ / ٣١١ – المخصص ١٤ / ٦٥ – وقد سبق تخريج الشاهد قبل هذا بما هو أشمل

(٤) من الآية ٨ سورة البينة

(٥) من الآية ٧ سورة الإسراء

(٦) سورة فصلت آية ٤٦

على معنى أصلي واحد ، إنيه يعود ماتشعب من معان . ويمنعون نيابة بعضها عن بعض قياساً . وهي في هذا كحروف النصب وحروف الجزم .

ويرون أن القول بالنيابة بين هذه الحروف يؤدى إلى خلل واضطراب ؛ لأننا إذا سلمنا بدخول الحرف « الباء » مكان « من » في إفادة التبعيض صح وقوعه موقعه . وجاز أن نقول : قبضنا بالدراهم ونحن نريد قبضنا من الدارهم وإذا سلمنا بدخول الحرف « عن » مكان « على » في إفادة الاستعلاء ، صح وقوعه موقعه ، وجاز لنا أن نقول : ريد عن الفرس ، ونحن نريد على الفرس وهكذا مما لا تقبله اللغة ، ولا تسلم به .

لهذا رأى جمهور علماء البصرة قصر حرف الجر على معنى أصلي واحد ، ومنع نيابة حرف جر عن حرف جر آخر ، وعزوا التوسع في استعمال بعض الحروف إلى ضرب من ضروب البلاغة والجمال يقتضيه المقام ، ويمكن الوقوف عليه عن طريق التعمق في الفهم ،والتأنى في النظر ، وجدُّوا ما أمكنهم الجد في تخريج ماجاء من أمثلة يوحى ظاهرها بتعدد المعانى . ودخول حرف مكان آخر . وسلكوا إلى ذلك عدة سبل . منها مايتجه بالتخريج إلى الفعل ، ومنها ما يتجه به إلى الحرف . ومنها مايتجه به إلى الأُسلوب نفسه . وعلى هذه السبل الثلاث خرَّجوا أغلب ماجاء في العربية من أمثلة ، وقصروا الحرف على معناه الأصلي وما استعصى عليهم أمر تخريجه قالوا فيه : بدخول حرف مكان حرف على سبيل الشذوذ

١ ــ ومن أمثلة التخريج عن طريق التصرف في الفعل .

ــ تضمين الفعل المعدى بغير حرفه معنى فعل آخر يشاركه في معناه ، ويتعدى بالحرف المذكور إيذاناً بتوافق الفعلين في المعنى وتوسعاً في اللغه

ومن ذلك تخريج قول الله ــ عز وجل « أُحِلَّ لكم لَيلةَ الصّيام الرَّفثُ إلى نِسَائِكُم »[1] والذى يقول الكوفيون ومن قال بقولهم ــ فيه : إن « إلى » نائبة

(١) من الآية ١٨٧ سورة البقرة .

مناب « الباء » لأن الرفث مصدر الفعل « رفث » الذى يعدى بالباء ولا يعدى بإلى .

ويرفض البصريون وجهة نظر الكوفيين ويقولون : لما كان الرفث هنا بمعنى الإفضاء والفعل أفضى يعدى بالحرف « إلى » . رفدوا مصدر الفعل « رفث » بحرف الجر « إلى » إشعاراً بأنه فى معناه[1] .

– حمل الفعل المذكور مع حرف جر لا يصل به إلى الاسم بعده على نقيضه إذا كان مما يرفد بهذا الحرف . وذلك أمر تعارف عليه العرب ، وله نظائر كثيرة فى كلامهم .

وعلى ذلك خرجوا قول « القحيف العقيلى » :

إذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيرٍ
لَعمرُ اللهِ أَعجَبَنِى رضاها [2]

الذى يقول الكوفيون – ومن قال بقولهم – فيه : إن « على » نابت مناب « عن » لأن الفعل « رضى » يرفد بالحرف « عن » فيقال : رضى عنه ، ولا يقال : رضى عليه

ويرفض البصريون ذلك ويقولون : لما كان الرضى بمعنى الإقبال . استعمل الشاعر الحرف « على » مكان « عن » ويقول بعضهم بقول « الكسائى » إمام الكوفيين : لما كان الفعل « رضى » ضد الفعل « سخط » (الذى يصل بالحرف « على » حمل الفعل « رضى » على نقيضه « سخط ») وعداه بالحرف « عن » حملا للشيء ، على نقيضه ، كما يحمل على نظيره[3] .

– حمل الفعل المذكور مع حرف جر لا يصل به فيما يصد من معنى خاص على فعل آخر يصل بالحرف المذكور ويفيد معنى عاماً يدخل تحته معنى الفعل المذكور ، ووضع الخاص موضع العام متعارف عليه ، وله نظائر فى كلامهم ، وعلى هذا خرجوا قول الله – تبارك وتعالى – « وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُم وَإِنْ كُنتُم مِن قَبلِه لَمِنَ الضَّالِّينَ »[4] .

---

(١) الخصائص ٢ / ٣١١ – الكشاف ١ / ٣٣٨ – ابن يعيش ٨ / ١٥ – التسهيل فى علوم التنزيل ١ / ٧٢ .
(٢) سبق تخريج الشاهد ص ١٤٩ وغيرها .
(٣) الخصائص ٢ / ٣١١ ، ٣٨٩ / المغنى ١ / ١٢٦ – الهمع ٤ / ١٨٧ .
(٤) من الآية ١٩٧ سورة البقرة .

الذى يقول الكوفيون – ومن قال بقولهم – فيه إن « الكاف » نابت مناب « اللام »

ويرفض البصريون ذلك ويخرجون الآية بطرق منها « أنه لما كان الذكر والهداية يشتركان فى أمر واحد وهو الإحسان عومل الفعل « اذكر » معاملة الفعل « أحسن » ووضع الخاص موضع العام لخصوصية فيه

– صلاحية الفعل للوصول بالحرفين معاً . عن طريق الاستعمال . لا عن طريق النيابة ودخول حرف مكان آخر ، ومن ذلك قول الله – جل وعلا – . « وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ » .

الذى يقول الكوفيون – ومن رأى رأيهم فيه إن « الباء » دخلت مكان « إلى »

ويرفض البصريون النيابة . ويخرجون الآية . ومن تخريجهم لها : صلاحية الفعل أحسن للوصول بالحرفين « الباء » و « إلى » يقال أحسن به ، وأحسن إليه . وأساء به وأساء إليه (٣)

٢ – ومن أمثلة التخريج عن طريق التصرف فى الحرف .

– الحرف باق على معناه من إفادة المعنى الأصلى ، ومن ذلك قول الله – جل وعلا – « فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ . وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ (٤) » .

الذى يقول الكوفيون – ومن وافقهم – فيه إن « فى » نابت مناب « على »

ويرفض البصريون ذلك ويرون أن الحرف « فى » باق على أصله من إفادة الظرفية . وأن الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور كأن يسع الجذع ويوضع التمحص فيه » (٥) .

(١) المغنى ١ / ١٥١

(٢) من الآية ١٠٠ سورة يوسف

(٣) الكشاف ٢ / ٣٤٤ – التسهيل لعلوم التنزيل ٢ / ١٢٩ ، وفى الصحاح حسن « وأحسنت المعونة »
وانظر المحكم « حسن » ٣ / ١٤٤ أساس البلاغة « حسن » اللسان « حسن » التاج « حسن »

(٤) من الآية ٧١ سورة طه .

(٥) الخصائص ٢ / ٣١٢ ، ٣١٣ – ابن يعيش على المفصل ٨ / ٢٠ ، ٢١ – الرضى على الكافية ٢ / ٣٢٧ – البرهان ٤ / ٣٠٣ – المغنى ١ / ١٤٥ – الهمع ٤ / ١٩٤ .

- الحرف دال على معنى من معانيه المتبادرة منه التى لا تقتضى نيابة حرف عن آخر .

ومن ذلك قول الله ـ جل ثناؤه ـ « قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ » (١)

الذى يقول الكوفيون ـ ومن قال بقولهم ـ فيه . إن الحرف « من » فى قوله تعالى « من الأرض » ناب مناب « فى » (٢)

ويرفض البصريون ذلك . ومما جاء عنهم فى تخريجه إن « من » فى الآية لبيان الجنس ، وهو من معانيها التى لا تقتضى نيابة (٢)

- الحرف الموجود ليس حرفاً من حروف الجر . وإنما هو حرف آخر من حروف المعانى . ولا نيابة فيه ، ومن ذلك قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » (٣)

الذى يقول الكوفيون ـ ومن وافقهم ـ فيه إن « الكاف » نابت عن « اللام » وأن المعنى أعجب لعدم فلاح الكافرين .

ويرفض البصريون ذلك . ومن تخريجهم له أن الكاف ليست كلمة قائمة بنفسها . وإنما هى حرف بنية من الأداة « كأن » والكلام معها مستأنف (٤)

- الحرف زائد ـ هذا عند تسليمنا بالزيادة ـ ولا مجال فى المثال لنيابة حرف عن آخر . ومن ذلك قول الله ـ تبارك وتعالى ـ « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ، بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ » (٥) .

الذى يقول الكوفيون ومن وافقهم فيه إن « الباء » دخلت مكان « فى »

ويرفض البصريون ذلك . ومما جاء فى تخريجه إن « الباء » فى الآية زائدة فى المبتدأ للتوكيد ومعنى الآية ـ والله أعلى وأعلم ـ . أيكم المفتون (٦)

(١) من الآية ٤٠ سورة فاطر .
(٢) الأمير على المغنى ٢ / ١٦
(٣) من الآية ٨٢ سورة القصص .
(٤) سيبويه ٢ / ١٥٤ ـ الكشاف ٢ / ١٩٢ ـ المغنى ١ / ١٥١ ـ التسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ١١٢
(٥) الآيتان ٥ / ٦ سورة القلم
(٦) الكشاف ٤ / ١٤٠ ـ التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٣٧ ـ الإتقان ١ / ٢٠٨

٣ـ ومن أمثلة التخريج على أساس الأسلوب .

ـ تعلق الجار والمجرور بمحذوف يبقى الحرف على أصله ، ويُحمل الجار والمجرور ضميراً لتعلقه به ، ومن ذلك قول الله عز وجل ـ : « فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى »(١) .

الذى يرى الكوفيون ـ ومن وافقهم أن « عن » حلت فيه مكان « على » ويرفض البصريون ذلك ،ويخرجون الآية ، ومما جاء من تخريجهم تعلق الجار والمجرور بحال محذوفة والتقدير : منصرفاً عن ذكر ربى (٢) .

ـ حرف الجر داخل على مضاف حذف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، فبقى الحرف مع المضاف إليه بعد حذف المضاف ، وهو على أصله . ومن ذلك قول « عوف بن بن الخرع »

شَدُّوا المَطِىَّ عَلَى دَلِيلٍ دَائبٍ ~~مِن أهلِ كَاظِمَة بسيفِ الأبحُرِ~~

الذى يرى الكوفيون ـ ومن وافقهم ـ أن « على » فيه نابت مناب « الباء » أى بدليل .

والبصريون يرفضون ذلك ويخرجون البيت ، ومما جاء من تخريجهم له : أن « على » جارة لمضاف محذوف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، والمعنى : شدوا المطى على دلالة دليل دائب ، فحذف المضاف «دلالة » لدلالة لفظ « الدليل » بعده عليه ، ويعرب الجار والمجرور فى محل نصب حالاً من الضمير فى شدوا(٣) .

ـ الأسلوب يقتضى استعانة فعل بحرف لايرفد به لتحقيق غرض بلاغى ، ومن ذلك قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ : « فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ »(٤) .

يرفض البصريون قول الكوفيين فيه ، نيابة « فى » مناب « على » ويرون أن إيثار الحرف « فى » للإشعار بسهولة صلبهم

---

(١) من الآية ٣٢ سورة ص .

(٢) الكشاف ٣ / ٣٧٣ ـ البرهان فى علوم القرآن ٤ / ٢٨٦ ـ المغنى ١/ ١٢٩

(٣) الخصائص ٣ / ٢١٢

(٤) من الآية ٧١ سورة طه سبق الاستشهاد بها ص ١٥٢

ويسر أمره على « فرعون » وما يوحى به الحرف « فى » من يسر وسهولة لايوحى به الحرف « على » الذى يدل على رفع وعلو يصعب ويشق[1]

أقول تلك وعيرها طرق حرحوا بها ماجاء من أمثله يفهم طاهرها نيابة حرف حر مناب حرف حر آحر . وما عز عليهم تخريجه قالوا فيه بالنيابة عن طريق الشذود .

ومن الكتب التى اهتمت بعرص جهود المصريين فى تأويل ما أولوه وتحريج ماحرجوه :

- معانى الحروف لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى .

- الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى فى الفصل الذى عقد لذلك ح ٢ / ٣٠٦ -

- تفسير الكشاف لأبى القاسم حار الله محمود بن عمر الزمخشرى ت ٥٣٨ هـ

- شرح المفصل لموفق الدين يعيش ابن على بن يعيش النحوى ٨- ٧ ، ٥٤

الجنى الدانى لحسن بن قاسم بن عبد الله المرادى

- شرح كافية ابن الحاجب لرضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذى النحوى ٢ / ٣١٩ ، ٣٤٤ .

- مغنى اللبيب جمال الدين عبد الله ابن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصارى .

- البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى

- همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطى ٤/ ١٥٣ . ٣٠٦

- التسهيل لعلوم التنزيل للإمام المفسر محمد بن أحمد بن جزى الكلبى .

وعلى هذه المصادر التى ذكر صاحب كل منها ماوقف عليه من تخريجات المصريين وموافقيهم . اعتمدت فى استقراء هذه الجهود فى التخريج . وتقديمها فى الصفحات التالية .

---

(١) البرهان ٤ / ٣٠٣ .

جهود علماء البصرة فى تخريج الأمثلة
التي يدل السياق فيها على الداخل

أرى ضرورة الوقوف على جهود علماء البصرة القائلين بعدم دخول حروف الجر بعضها مكان بعض فى تخريج الأمثلة التى عرضتها ، وطبيعة هذا التخريج من حيث يسره وقرب تأتيه ، أو تكلفه ووعورة الطريق إليه ، وتعرف ماتم لهم تخريجه ، وما بقى من غير تأويل وتوجيه فكان حكمهُ دخول حرف مكان حرف على سبيل الشذوذ حتى تكون النتائج المستخلصة من الدراسة قائمة على الحيدة التامة متسمة بالموضوعية الكاملة .

وقد عرضت هنا الأمثلة بترتيبها ، وأرقامها التى سبقت من قبل ليسهل الرجوع إليها مكتفياً من المثال بالتركيب موضع الظاهرة ، وذكر توجيه واحد – فى أكثرها – مما ذكر علماء البصرة له أكثر من تخريج واكتفيت بما جاء من ذكر للمصادر والمراجع عند عرض الأمثلة ، وما سبقت الإشارة إليه من مصادر – عرضت بعضها ، وبينت موقف العلماء منها – من إعادة ذكرها هنا حتى أتجنب الإطالة والتكرار

م*	التركيب	التوجيه
	« إلى »	
١	وإذا خلوا إلى شياطينهم	الفعل « خلا » يعدى بإلى والباء ، يقال : خلوت بفلان وإليه
٢	الرفث إلى نسائكم	حمل « رفث » على أفضى « لأنه فى معناه وعداه « بإلى » .
٣	رفع الحجيج إلى ألال	(لعله ضمن « رفع » معنى « حمل » فوصله « بإلى ») **

(*) الأرقام هنا غير مسلسلة لأنها أرقام الأمثلة التى وجدت لها «تأويلا» واحتفظت بأرقامها السابقة ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة

(**) ما بين الحاصرتين من تخريج الباحث وعليه تقع تبعة ما فيه من قصور

م	التركيب	التوجيه
٤	لهوت إلى الكواعب	(لعله ضمن « لها » معنى « مال » فوصله بالحرف إلى) .
٥	ليجمعكم إلى يوم القيامة	حمل « يجمع » على « يضم » لأنه فى معناه ووصله بالحرف « إلى »
٦	هل لك إلى أن تركى	ضمن قوله هل لك إلى كذا معنى أدعوك إليه وعداه « بإلى » .
٧	كأنى إلى الناس مطلى به القار	ضمن قوله « مطلى » معنى مبغض ، ووصله بالحرف « إلى » .
٨	تلاقنى إلى ذروة البيت الكريم	« إلى ذروة » متعلق بمحذوف أى تلاقنى متسبباً إلى ذروة » .
٩	جلست إلى القوم	(جلس إلى القوم توحى بحاجتهم إليه وإفادته لهم ، وهو بهذا قد دخل إلى عقولهم وقلوبهم)
١٠	ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم	(فيه هديته إلى كذا ، وهديته لكذا بمعنى أرشدته) .
١١	والأمر إليك	قيل : إنها لانتهاء الغاية ، أى : والأمر منته إليك .
١٢	وأنت حى إلى رعل ومطرود	(رواية الديوان . . أو انت حيا إلى رعل ومطرود . .) .

م	التركيب	التوجيه
	« الباء »	
١٤	وقد أحسن بى	ضمن الفعل « أحسن » معنى « لطف » فعداه بالباء .
١٦	وإذا مروا بهم يتغامرون	(الفعل « مر » يعدى بالباء ، وعلى يقال مر به وعليه ، أى اجتاز)
١٩	تشقق السماء بالغمام	الباء للسببية ، أى شقت السماء بالغمام بسبب طلوعه منها
٢٠	فاسأل به خبيرا	الباء داخلة على مجرور محذوف ، أى بسؤاله خبيرا
٢١	يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم	جاء فى تفسير « بأيمانهم » أى يحملونه بأيمانهم فيبسط نوره قدامهم . جمع يمين .
٢٣	نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم	سبق ماجاء فى تفسير « بأيمانهم » أى يحملونه بأيمانهم ، جمع يمين
٢٤	سأل سائل بعذاب واقع	ضمن سأل معنى « دعا » أى دعا داع بعذاب واقع »
٢٦	سألتنى بأناس	ضمن « سأل » معنى « اهتم واعتنى » وقيل . الباء للسببية
٢٨	سألت الخيل . بما لم تعلمى	ضمن « « سأل » معنى « اهتم » وتحفظ ابن هشام على تعميم القول بأن كل « باء » بعد السؤال للسببية المغنى ١ـ٩٨) .
٢٩	فإن تسألونى بالنساء	الباء السببية ، والمعنى بسبب النساء .

م	التركيب	التوجيه
٣٠	تسائل بابن أحمر	(رواية الديوان . رُبَّتَ سائل عنى حفى
٣١	وسائلة بثعلبة	ضمن « سائلة » معنى « مهتمة ومعتنية
٣٢	لاتسأل بمصرعه	ضمن «لاتسأل» معنى « لاتهتم » وقيل : الباء للسببية
٣٣	سألت به	ضمن « سأل » معنى « اعتنى » .
٣٦	إن الملأ يأتمرون بك	الباء السببية ، أى يأتمرون بسببك .
٤٠	بأيكم المفتون	الباء زائدة
٤٥	لا خير بخير بعده النار	الباء زائدة
٤٦	ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل	السببية والتعليل متقاربان
٤٧	فبظلم من الذين هادوا	السببيه والتعليل متقاربان .
٤٨	فكلا أخذنا بذنبه	السببية والتعليل متقاربان .
٤٩	تشذر بالذحول	ضمن « تشذر » معنى تتوعد « فعداه بالباء .
٥٠	وامسحوا برؤوسكم	الباءُ للاستعانة والمعنى وامسحوا رؤوسكم بالماء . وقيل : زائدة .
٥١	عينا يشرب بها عباد الله	الباءُ للاستعانة والمعنى : يشرب بها عباد الله الخمر
٥٢	شَرِبن بماء الدحرضيين	ضمن « شرب » معنى « روى » فعداه بالباء .
٥٣	شربن بماء البحر	(رواية الديوان · تروت بماء البحر ثم ترفعت . .) .
٥٤	شرب النزيف ببرد ماء	ضمن « الشرب » معنى « الرى » .

م	التركيب	التوجيه
	« على »	
٥٥	حقيق على أن لا أقول	ضمن « حقيق » معنى « حريص » فعداه بالحرف « على » .
٥٨	شدوا المطى على دليل	« على » داخلة على مجرور محذوف ، والتقدير : « على دلالة دليل » .
٦١	رميت على القوس	(يقال : رمى عن القوس ، ورمى عليها ، لأنه إذا رمى عنها جعل السهم عليها ولا يقال رمى بها فى هذا المعنى . ويقال رميت بالسهم)
٦٣	اركب على اسم الله	الجارى والمجرور متعلق بمحذوف والتقدير معتمداً على اسم الله .
٦٤	إذا رضيت على .	حمل الفعل « رضى » على نقيضه « سخط » معدى بالحرف على ، وقيل : ضمن معنى « عطف » الذى بمعناه
٦٦	تولى على بوده	ضمن « ولى على بوده » معنى « استهلكه على » « وأفسده » (أو حمل « ولى » على نقيضه أقبل) .
٦٧	أرمى عليها وهى فرع	(« على » على أصلها ، لأنه إذا رمى عنها جعل السهم عليها)
٦٨	رميت على القوس	« على » على أصلها ، لأنه إذا رمى عنها جعل السهم عليها .

م	التركيب	التوجيه
٦٩	رضيت عليك	حمل الفعل « رضى » على نقيضه « سخط » أو ضمنه معنى « عطف » .
٧٠	ما تتلو الشياطين على ملك سليمان	ضمن « تتلو » معنى « تتقول » فعداه بالحرف « على »
٧٥	ولتكبروا الله على ما هداكم	ضمن « التكبير » معنى « الحمد » أى ولتكبروا الله حامدين على ماهداكم .
٧٦	لتكبروا الله على ما هداكم	ضمن « تكبروا » معنى « تحمدوا » فوصل بالحرف « على »
٨١	كان على ربك حتما مقضيا	يمكن تعلق الجار والمجرور بمحذوف ، أى كان الورود واجباً على ربك أوجبه على نفسه
٨٢	إلا على أزواجهم	ضمن « حافظون » معنى « قاصرون » فوصله بالحرف « على » .
٨٣	اكتالوا على الناس	ضمن « اكتالوا » معنى « تحاملوا » وعداه بالحرف « على »
	« عن »	
٨٥	وما ينطق عن الهوى	ضمن « ينطق » معنى « يصدر » فوصل بالحرف « عن »
٨٦	تصد وتبدى عن أسيل	ضمن الفعل « تبدى » معنى تكشف ، أى تكشف الغطاء عن وجه أسيل

التوجيه	التركيب	م
الفعل رمى هنا يعدى بالأحرف · الباء - على - عن . غير أنه مع على وعن يختلف عن معناه مع الباء .	رميت عن القوس	٨٧
الجار والمجرور متعلق بمحذوف،والتقدير . منصرفاً عن ذكر .	أحببت حب الخير عن ذكر ربى	٨٩
ضمن « يبخل » معنى « يرغب » فوصل بالحرف « عن » .	يبخل عن نفسه	٩٠
ضمن « أفضل » معنى « انفرد »فوصل بالحرف « عن » .	لا أفضلت فى حسب عنى	٩١
الفعل « ونى » يعدى بالحرفين « عن » و « فى » ومعنى ونى عنه: جاوزه ولم يدخل فيه .	ولاتك عن حمل . . وانيا	٩٣
الجار والمجرور متعلق بمحذوف ، أى إلا صادرا عن موعدة .	إلا عن موعدة	٩٤
الجار والمجرور متعلق بمحذوف يعرب حالا والتقدير · صادرين عن قولك .	بتاركى آلهتنا عن قولك	٩٥
الجار والمجارور متعلق بمحذوف يعرب حالا ، أى . صادرة عن عباده .	يقبل التوبة عن عباده	٩٦
(رواية الديوان : أفمنك لابرق . .) .	أفعنك لابرق	٩٨

التوجيه	التركيب	م
	« فى »	
« فى » على أصلها ، والمراد تمكن واستقرار الأيدى فى الأفواه .	فردوا أيديهم فى أفواههم	١٠٢
« فى » على أصلها ؛ لأنه جعل التدبير كالمسع للبث والدرء والتكثير .	يذرؤكم فيه	١٠٤
« فى طعن » متعلق بمحذوف ، أى لهم دراية وحذق فى طعن »	بصيرون فى طعن الأباهر	١٠٥
« فى » داخلة على مجرور محذوف ، أى فى سيرنا .	وخضخضن فينا البحر	١٠٧
ضمن « نلوذ » معنى « ندخل » فعداه بالحرف « فى » .	نلوذ فى أم لنا	١٠٩
«فى» تفيد الظرفية أى استقر وجودكم وتمكنكم فى الفلك	حتى إذاكنتم فى الفلك	١١٠
ضمن « الصلب » معنى الاستقرار والتمكن فوصل « صلب » بالحرف « فى » .	ولأصلبنكم فى جذوع النخل	١١١
«فى»داخلة على مجرور محذوف ، أى من فى مكان النار .	بورك من فى النار	١١٢
« فيه » متعلق بمحذوف ، أى يستمعون صاعدين فيه .	أم لهم سلم يستمعون فيه	١١٣

م	التركيب	التوجيه
١١٤	كأن ثيابه فى سرحة	« فى » على أصلها ، لأن ثيابه إذا كانت على السرحة ، فقد صارت السرحة موضعاً لها .
١١٥	صلبوا العبدى فى جذع نخلة	ضمن « صلب » معنى « استقر وتمكن » ووصله بالحرف « فى »
١١٦	صلبنا الناس فى جذع	ضمن « صلب » معنى « استقرو تمكن » ووصله بالحرف « فى » .
١١٧	لايدخل الخاتم فى أصبعى	على سبيل القلب .
١٢٣	فى النفس مائة من الإبل	فى الظرفية تقديراً ، أى فى قتل النفس فالقتل متضمن للدية تضمن الظرف للمظروف .
١٢٤	الحب فى الله والبغض فى الله	« فى » داخلة على مجرور محذوف ، أى الحب فى رضاء الله والبغض فى رضائه .
١٢٦	فى ثلاثة أحوال	« فى » داخلة على مضاف محذوف ،أى فى عقب ثلاثة أحوال
١٢٧	وما الإصباح فيك بأمثل	(الرواية المشهورة : منك بأمثل .
	« الكاف »	
١٢٨	فاستقم كما أمرت	الكاف للتشبيه ، أى فاستقم استقامة مثل الاستقامة التى أمرت بها .

م	التركيب	التوجيه
١٢٩	كخير	الكاف داخلة على مضاف محذوف ، أى كصاحب خير .
١٣٣	واذكروه كما هداكم	من وضع الخاص موضع . العام والكاف للتشبيه
١٣٥	ويكأنه لايفلح الكافرون « اللام »	الكاف جزء من بنية الحرف « كأن » .
١٣٧	ينادى للإيمان	الفعل ينادى يصل باللام ، وإلى ، يقال : ناداه له وإليه
١٣٨	لعادوا لما نهوا عنه	(يقال . عاد إليه . رجع . وقد عاد له بعد ماكان أعرض عنه) .
١٤٠	هدانا لهذا	الفعل هدى يصل باللام وإلى ، يقال : هداه لكذا وإلى كذا
١٤١	سقناه لبلد ميت	اللام على أصلها ، أى لأجل بلد ميت ليس فيه حياة لسقيه
١٤٢	قل الله يهدى للحق	الفعل يهدى يصل باللام ، وإلى ، والآية دليل ذلك
١٤٣	كل يجرى لأجل مسمى	الفعل يجرى يصل بالحرفين . « إلى » و « اللام »
١٤٤	وهم لها سابقون	اللام تفيد التعليل أى فاعلون السبق لأجلها ، أو سابقون الناس لأجلها

م	التركيب	التوجيه
١٤٥	والشمس تجرى لمستقر لها	الفعل « يجرى » يصل بإلى ، ويصل باللام
١٤٦	فلذلك فادع	اللام للتعليل . أى فلأجل التفرق ولما حدث بسببه . فادع .
١٥٢	وإن أسأتم فلها	(حمل الفعل « أساء » على نقيضه أحسن ، فوصله باللام » .) .
١٥٣	يخرون للأذقان سجدًا	اللام للاختصاص ، وتفيد اختصاص الذقن والوجه بالخرور .
١٥٤	ويخرون للأذقان يبكون	اللام للاختصاص كسابقه .
١٥٩	فخر صريعاً لليدين وللفم	اللام للاختصاص ، وتفيد اختصاص اليدين والفم بالخرور
١٦١	سقط لوجهه	(لعل اللام للاختصاص ، وتفيد اختصاص الوجه بالسقوط) .
١٦٢	سقط فلان لفيه	(اللام للاختصاص ، وتفيد اختصاص الفم بالسقوط) .
١٦٣	وقال الذين كفروا للذين	اللام على أصلها من إفادة التعليل ، وقيل على حذف مضاف ، أى لطائفة .
١٦٥	جامع الناس ليوم	اللام داخلة على محذوف ، أى لحساب يوم ، أو لجزاء يوم .
١٦٦	جمعناهم ليوم	اللام على أصلها من إفادة الاختصاص وتفيد اختصاص اليوم بالجمع .

م	التركيب	التوجيه
١٦٨	ونضع الموازين القسط ليوم القيامة	اللام داخلة على محذوف، أى لأهل يوم القيامة .
١٧٠	قدمت لحياتى	اللام للتعليل ، أى قدمت لأجل حياتى الآخرة .
	« من »	
١٧٨	ينظرون من طرف خفى	قيل : إنها على أصلها من إفادة الابتداء .
١٨٣	ونصرناه من القوم	ضمن « نصر » معنى « منع » فوصله بالحرف « من » .
١٨٥	كنا فى غفلة من هذا	« من » على أصلها من إفادة الابتداء .
١٨٦	للقاسية قلوبهم من ذكر الله	« من » على أصلها من إفادة الابتداء ، وقيل للتعليل ، لأن قلوبهم تقسو لذكر الله.
١٨٧	أطعمهم من جوع	قيل ، إن « من » على أصلها من الابتداء لأن الجوع ابتداءُ الإطعام .
١٨٨	أطعمه من جوع	من على أصلها من إفادة ابتداء الغاية ؛ لأن الجوع ابتداءُ الإطعام .
١٩١	نهيت من فلان	(الفعل يعدى بالحرفين « من » و «عن»
١٩٣	ماذا خلقوا من الأرض	« من » هنا لبيان الجنس
١٩٤	نودى للصلاة من يوم الجمعة	من هنا لبيان « إذا » وتفسير له .
١٩٥	يجعلون .. من الصواعق	من على أصلها من إفادة الابتداء ، لأن الصواعق ابتداءُ لوضع الأصابع فى الأُذن .

التوجيه	التركيب	م
من لابتداء الغاية ، أى ابتداء الكتابة نشأ من أجل ذلك .	من أجل ذلك كتبنا	١٩٧
« من » على أصلها من إفادة الابتداء ، أى الإطعام من أجل الجوع .	الذى أطعمهم من جوع	١٩٩
(يروى البيت « مذحجج ومذدهر ») ويمكن أن يكون الجار داخلا على محذوف أى من أجل مرور حجج وشهر	أقوين من حجج ومن دهر	٢٠٢

تلك هى الأمثلة التى وقفت على تخريج لها فيما رجعت إليه من كتب اللغة والنحو والتفسير ، ودواوين الشعر وعددها (١١٨) مائة وثمانية عشر مثالا من مائتى مثال وثلاثة أتيح لى جمعها .

وإذا أمكن تخريج ما بقى من أمثلة أو بعضه ، فإن الذى لا شك فيه أن من الأمثلة التى جاءت فى لغتنا العربية أمثلة عز تأويلها ووصل إلى حد التعسف تخريجها ، فسلم ، جمهور علماء البصرة – ومن وافقهم على القول بعدم نيابة حروف الجر بعضها عن بعض – بورود هذه الأمثلة على سبيل الشذوذ .

نتائج الدراسة

ـ ثبت لى من خلال دراسة حروف الجر مستعملة فى لغتنا العربية أن لكل حرف من الحروف معنى أصلياً له وُضع ومن أجله حسب فى قاموسها اللغوى ، ومن ذلك دلالة الحرف « من » على الابتداء ، والحرف « إلى » على الانتهاء ، والحرف « على » على الاستعلاء ، والحرف « عن » على المجاوزة ، و « الباء » على الإلصاق وهكذا

ـ وثبت لى كذلك من خلال تتبع استعمال هذه الحروف فى لغتنا العربية الفصحى أن الحرف قد تتبادر منه معان أُخرى ـ ليست معنى أصلياً لحرف آخر ـ يوحى بها السياق ، ويعرب عنها المعنى العام ، ومن ذلك

دلالة الحرف « من » على « التبعيض » وعلى « بيان الجنس »

ودلالة الحرف « الباء » على السببية وعلى « الاستعانة » .

وهكذا

وأرى أنه لا ضير علينا إذا سلمنا بذلك سواء علينا أرُدَّت هذه المعانى إلى المعنى الأصلى أم لم ترد ، وكانت دلالة الحرف على هذه المعانى من قبيل المشترك اللفظى .

ـ وثبت لى أيضاً من واقع استعمال هذه الحروف فى لغتنا العربية الفصحى ، وبأمثلة دخلت فى عداد المئات أن الحرف قد يأتى مستعملا فى أُسلوب يدل ظاهر سياقه دلالة واضحة على أن معنى الحرف فى هذا الأُسلوب ليس المعنى الأصلى له ، وليس معنى من المعانى المتبادرة منه ، وإنما هو معنى من المعانى التى وضع لها حرف آخر يناقضه أو يخالفه ومن ذلك :

دلالة الحرف « على » الذى وضع للاستعلاء على معنى المجاورة الذى وضع له الحرف « عن » .

ودلالة الحرف «إلى» الذى وضع للانتهاء على معنى الابتداء الذى وضع له الحرف « من »

ودلالة الحرف « فى » الذى وضع للظرفية على معنى الاستعلاء الذى وضع له الحرف « على » وهكذا .

والاستعمال الأخير هو الذى شدد جمهور البصريين فى منعه قياساً ، وأولوه ، أو قالوا بشذوذه وهو الذى أجازه جمهور الكوفيين ومن وافقهم من البصريين

وإذا كان لى رأى متواضع فى هذه الدراسة اعتمدت فيه أساساً على تتبع الظاهرة ، وجمع أمثلتها ، وقول شيوخ نحاة البصرة والكوفة ومن جاء بعدهم مستعيناً بأمهات الكتب فى ذلك فإننى أرى .

أولا : أن علماء الكوفة لا يقولون بدخول حروف الجر بعضها مكان بعض دخولا مطلقاً ، ولا يقبلون من هذا إلا ما وافق السياق ، واستقام معه المعنى يُؤكد هذا ويقويه أن جميع ما وقفت عليه من أمثلة تصح عبارتها ويستقيم معناها إذا وضع الحرف غير المذكور مكان الحرف المذكور وإلا لزمهم ما يقوله « البصريون » من أن القول بنيابة حروف الجر بعضها عن بعض يؤدى بنا إلى أن نقول ما يأتى

أ الراكب عن الفرس ، ونحن نريد عليه

كتبت على القلم ، ونحن نريد به .

وهكذا .

ثانياً : أرى أن ما يعترض عليه جمهور علماء البصرة من نيابة بعض حروف الجر عن بعض إنما هى النيابة المطلقة التى يترتب عليها أن نقول «أخذت على الكيس» ونحن نريد «منه» ، يؤكد هذا ويقويه تلك الجهود التى بذلت فى تخريج هذه الأمثلة تخريجاً يبقى الحرف المذكور على معناه ، ثم تسليمهم فى نهاية المطاف بنيابة بعضها عن بعض شذوذا عند تعسف التخريج حينا وخروجه عن الطاقة أحياناً .

أقول – والله أعلى وأعلم – لا يريدون بالشذوذ الخطأ وإنما يريدون ما خالف قياسهم ولم يصل إلى الكثرة التى تلتقى مع وجهة نظرهم والكثرة من وجهة نظرى نسبية ، وما لم يرد له تخريج من الأمثلة كثير

ثالثاً : صرح كثير من شيوخ علماء البصرة ، وعلماء الكوفة ومن جاء بعدهم آخذا عن المدرستين باستعمال حرف جر مكان حرف جر آخر – أعنى بصرف النظر عن إمكانية تخريجه أو عدمها ومن ذلك

(أ) صرح « سيبويه » رحمه الله – بدخول « عن » مكان « من » فقال «وأما» « عن » فلما عدا الشيء ، وذلك قولك : أطعمه عن جوع جعل الجوع منصرفاً

تاركاً له قد جاوزه ، وقال . قد سقاه عن العيمة (العيمة شهوة اللبن) . وكساه عن العرى وقد تقع « من » موقعها أيضاً ، تقول · أطعمه من جوع ، وكساه من عرى ، وسقاه من العيمة »[1] .

ونقل عنه كذلك دخول «على» مكان «عن» فقال « قال » أبو عمرو : سمعت أباريد يقول رميت عن القوس ، وناس · رميت عليها »[2] .

(ب) وصرح « الفراء » رحمه الله — بدخول « الباء » فى موضع « على » فقال · « ويقرأ · «حقيق على أن لا أقول» وفى قراءة « عبد الله » حقيق بأن لا أقول على الله ، فهذه حجة من قرأ « على » ولم يضف ، والعرب تجعل « الباء » فى موضع « على » · رميت على القوس وبالقوس وجئت على حال حسنة ، وبحال حسنة[3]

(ج) وصرح « ابن قتيبة » رحمه الله — بدخول « عن » مكان « على » فقال : « وقال » قيس بن الخطيم يصف جيشاً كثيراً :

لو انَّك تُلقِى حَنظلاً فَوقَ بَيضِنا
تَدحرَج عَن ذِى سامه المتقارب

يقول · لو ألقيت حنظلا على بيضهم لتدحرج عليه ، يريد · جرى فوقه ، ولم يسقط إلى الأرض . . و « عن » بمعنى « على »[4] .

(د) وصرح « المبرد » رحمه الله — بدخول حروف الإضافة بعضها مكان بعض ، فقال · « كما تدخل (حروف) الإضافة بعضها على بعض فمن ذلك قوله — عزوجل — : « يَحفَظونَه مِن أمرِ اللهِ » أى بأمر الله . وقال « وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخل » أى « على » ، وقال : « أَم لَهُم سُلَّمٌ يَستَمِعون فيه » أى عليه[5] .

(هـ) وصرح « ابن جنى » — رحمه الله — بإمكانية دخول حرف جر مكان حرف جر آخر

---

(١) سيبويه ٤ / ٢٢٦ — ٢٢٧
(٢) سيبويه ٤ / ٢٢٦
(٣) معانى القرآن ١ / ٣٨٦
(٤) المعانى الكبير ٢ / ٨٩١ · ٨٩٢
(٥) المقتضب ٢ / ٣١٨

عند صحة الاستعمال واستقامة المعنى ، فقال « ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا . لكنا نقول إنه يكون بمعناه فى موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له ، فأما فى كل موضع وعلى كل حال فلا[1] »

(و) وصرح « الرضى » — رحمه الله — بإقامة حروف الجر بعضها مقام بعض ، فقال : « وإقامة بعض حروف الجر مقام بعض غير عزيزة »[2]

وسلم كذلك بإقامة حرف جر مقام حرف آخر عند تعذر التخريج والتأويل ، فقال « واعلم أنه إذا أمكن فى كل حرف يتوهم خروجه عن أصله وكونه بمعنى كلمة أخرى أو زيادته أن يبقى على أصل معناه الموضوع هو له ، ويضمن فعله المعدى به معنى من المعانى يستقيم به الكلام فهو الأولى بل الواجب[3] .

ومما صرح به هؤلاء العلماء من إقامة حروف الجر مقام بعض صرح به آخرون

رابعاً من كل ما تقدم أستطيع أن أقول إن العرب توسعوا فى استعمال حروف الجر ، فأوقعوا الحرف على معناه الأصلى ، وعلى بعض المعانى التى تتبادر منه ويسوغها المقام ، وعلى بعض المعانى التى وضع لها غيره من الحروف التى تناقضه فى معناه والتى تخالفه ، وتنطق بصحة ذلك مئات الأمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وفصيح الكلام العربى

وبهذا اعترف علماء العربية من البصريين والكوفيين ثم خضع جمهور كل من المدرستين لمنهج مدرسته التى اختطته لنفسها فى تقعيد قواعد العربية ، فطبق جمهور علماء الكوفة منهجهم الذى يقوم على التسامح والتوسع ، وسلموا فى يسر بإقامة حروف الجر مقام بعضها عند أداء المعنى من غير ما سدود أو خروج على المألوف ، وأعفوا أنفسهم مشقة التأويل والتخريج وطبق جمهور علماء البصرة منهجهم الذى يؤثر الدقة والاطراد والقياس ، فقالوا بالمعنى الواحد للحرف الواحد ، وحاولوا

---

(١) الخصائص ٢ / ٣٠٨

(٢) الرضى على الكافية ٢ / ٣٢١

(٣) الرضى على الكافية ٢ / ٣٤٥

إثبات ذلك فى كل مثال يفهم من ظاهره التعدد وما وقفوا أمامه عادوا فقالوا فيه بالنيابة شأن علماء الكوفة ثم وسموه بالشذوذ .

وعلى هذا يكون الخلاف بينهما خلافاً لفظيًّا ، أبقى الكوفيون الفعل على أصله وتصرفوا فى الحرف ، وحاول البصريون إبقاء الحرف على أصله ، وتصرفوا فى الفعل وتخريج المثال من جانبهم تسليم منهم بأن الحرف فيه توسع لا محالة

وأرى أنه لا ضير على اللغة من توسع لجأ إليه أصحابها الفصحاء وهم أدرى بها ، وأفقه الناس بخصائصها ، فأقاموا بعض حروف الجر مكان بعض ، وما وجدناه من ذلك وأمكن تخريجه فى يسر ولطف خرجناه ابقاء للحرف على أصل معناه ، وما عز تخريجه سلمنا فيه بإقامة حرف مكان حرف بغير شذوذ تسليماً بالاستعمال العربى ، وتفادياً لتخريج قد يخطىء الصواب إليه ، وتوفيقاً بين المدرستين.

ولا أرى ما رآه بعض الإخوة الأفاضل من أن القول برأى نحاة الكوفة - فى هذه الظاهرة - يمثل تسامحاً ضاراً بلغتنا القومية فى حاضرها ومستقبلها لما يفضى إليه من مشكلات لغوية ، واضطراب فى البيان[1] لأن علماء الكوفة - فيما أرى - لا يوافقون على استعمال حرف مكان حرف فى كل موضع وعلى كل حال ، وإنما يسلمون بما سلم به « ابن جنى » وهو استعمال حرف مكان حرف آخر بمعناه فى موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

(بقى هذا السؤال هل نقف عند حد ما سمع منها أو يبقى باب استعمالها مفتوحاً لمن يريد التعبير ؟) .

أرى :

* تفصيل وجود معنى أصلى واحد للحرف إليه يرجع الذى انشعب منه ما أمكن ذلك .

* جل من يتحدث العربية اليوم حتى فى مهدها الأول - توارت سليقتهم ، وبررت لكنتهم ، وامتنع عليهم الفصيح .

(١) من القائلين بذلك الأخ الدكتور / محمد حسن عواد فى كتابه تناوب حروف الجر فى لغة القرآن ١٣ ط / الأردن ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

* الأمثلة التى تساقلها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل حتى عصرنا تقف عند لغة عصر الاحتجاج وليس بينها أمثلة عليها طابع التحديث .

وهـذه وغيرها اعتبارات تميل بى إلى إيثار الوقوف عندما سمع منها وإذا قبل شىء من تسامح ، قبل فى أضيق الحدود لمن صقلت ملكته ، وصفت قريحته ، وارتفعت لغته ، وامتلك ناصية البيان .

وأسأل الله – جل وعلا – فى آخر هذه الدراسة المتواضعة أن أكون قد وفقت فيها إلى شىء من سداد ، وأن ينفع بها العباد ، ويجزل عليها الثواب إن شاء الله .

حسين شرف
الخبير بالمجمع

من مصــادر الدراسة ومراجعها

م	الكتاب	المؤلف	مكان الطبع	تاريخ الطبع
١	إتحاف فضلاء البشر	الدمياطى	القاهرة	١٣٥٩ هـ
٢	الإتقان فى علوم القرآن	السيوطى	القاهرة	
٣	الأُزهية فى علم الحروف	الهروى	دمشق	١٤٠١هـ ١٩٨١م
٤	أساس البلاغة	الزمخشرى	بيروت	١٣٩٩هـ ١٩٧٩م
٥	الأصمعيات	الأصمعى	القاهرة	١٣٨٣هـ ١٩٦٣م
٦	أمالى الشجرى	ابن الشجرى	بيروت «تصوير»	
٧	إنباهُ الرواة	القفطى	القاهرة	١٣٧١هـ ١٩٥٢م
٨	البرهان فى علوم القرآن	الزركشى	القاهرة	
٩	بغية الوعاة	السيوطى	القاهرة	
١٠	تأُويل مشكل القرآن	ابن قتيبة	القاهرة	١٤٠١هـ ١٩٨١م
١١	التسهيل فى علوم التأْويل	ابن جَزِى	بيروت «تصوير»	١٣٩٣هـ ١٩٧٣م
١٢	تنوير الحوالك على موطأ مالك	السيوطى	القاهرة	
١٣	تهذيب اللغة	الأزهرى	القاهرة	١٣٨٤هـ ١٩٦٤م
١٤	الجنى الدانى فى حروف المعانى	المرادى	بغداد	١٣٩٦هـ ١٩٧٦م
١٥	حاشية الخضرى على «ابن عقيل»	الخضرى	القاهرة	١٣٠٥هـ
١٦	الخصائص	ابن جنى	القاهرة	
١٧	ديوان شعر	الأخطل عيات	دمشق	١٣٩٩هـ ١٣٨٩هـ
١٨	ديوان شعر	الأعشى «ميمون»	بيروت	١٩٥٠م
١٩	ديوان شعر	ابن أحمر الباهلى	دمشق	

م	الكتاب	المؤلف	مكان الطبع	تاريخ الطبع
٢٠	ديوان شعر	امرؤُ القيس	الجزائر	١٣٩٢هـ ١٩٧٢م
٢١	ديوان شعر	جرير بن عطية	القاهرة	١٣٥٣هـ
٢٢	ديوان شعر	جميل بن معمر	بيروت	١٩٥٣م
٢٣	ديوان شعر	زهير بن أبي سلمى	القاهرة	١٣٦٣ هـ ١٩٤٤ م
٢٤	ديوان شعر	الشماخ بن ضرار	القاهرة	١٣٢٧ هـ
٢٥	ديوان شعر	طرفة بن العبد	بيروت	١٩٥٣ م
٢٦	ديوان شعر	عدى بن زيد	بغداد	١٣٨١ هـ ١٩٦٥ م
٢٧	ديوان شعر	عمر بن أبي ربيعة	بيروت	١٩٦٨ م
٢٨	ديوان شعر	عمرو بن قميئة	القاهرة	١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م
٢٩	ديوان شعر	عمرو بن معد يكرب	دمشق	
٣٠	ديوان شعر	عنترة بن شداد	بيروت	١٩٥٣ م
٣١	ديوان شعر	الفرزدق همام ابن غالب	بيروت	
٣٢	ديوان شعر	قيس بن الخطيم	بيروت	١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م
٣٣	ديوان شعر	لبيد بن ربيعة	بيروت	
٣٤	ديوان شعر	النابغة الجعدى	دمشق	١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م
٣٥	ديوان شعر	النابغة الذبياني	بيروت	
٣٦	ديوان شعر	الهذليون	القاهرة	١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م
٣٧	سنن أبي داود	أبو داود سليمان	دمشق	١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م
٣٨	سنن النسائى	النسائى عبد الرحمن	القاهرة	

م	الكتاب	المؤلف	مكان الطبع	تاريخ الطبع
٣٩	شرح ابن يعيش على المفصل	يعيش بن على	القاهرة	
٤٠	شرح الرضى على الكافية	رضى الدين الاستراباذى	تركيا	١٣١٠هـ
٤١	الصاحبي	أحمد بن فارس	القاهرة	
٤٢	صحيح البخارى	البخارى محمد ابن إسماعيل	تركيا	١٩٨١م
٤٣	صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج القشيرى	القاهرة	١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م
٤٤	الغريب المصنف	أبو عبيد بن سلام	مخطوطة	
٤٥	فقه اللغة	أبو منصور الثعالبى	بيروت	
٤٦	الكتاب	سيبويه « هارون »	القاهرة	١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م
٤٧	الكشاف	الزمخشرى	القاهرة	١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م
٤٨	اللسان	ابن منظور	القاهرة ـ الأميرية	
٤٩	المخصص	ابن سيده	القاهرة الأميرية	
٥٠	مسند أحمد	أحمد بن حنبل	القاهرة	
٥١	معانى الحروف	الرمانى	جده	١٤٠١ هـ ١٩٨١م
٥٢	معانى القرآن	الفراء	القاهرة	١٩٥٥ م
٥٣	المعانى الكبير	ابن قتيبة	حيدرأباد	
٥٤	المقتضب	المبرد	القاهرة	١٣٨٨ هـ ١٩٥٥ م
٥٥	همع الهوامع	السيوطى	الكويت	١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م

رد على دعوى يدعيها اللغويون الغربيون تتصل بالزمن في اللغة العربية (*)

للدكتور البدراوي زهران

تكتسب هذه القضية أهميتها من أنها نموذج لنوع من الصراع الفكري في ميدان استأسد فيه طائفة من المستشرقين وأصبحت كلمتهم هي العليا التي لا ترد وآراؤهم مناط استشهاد وموضع احتجاج وعَضَّدَ موقفهم في هذه القضية أن ظاهر كلامهم يستهوي العقل. فالقضية تتصل بالساميات وهي مسرح نشاطهم ومجال أبحاثهم وفي الغالب يقبل المتخصص آراءهم ولا يفند أقوالهم ومن هنا جاءت أهمية موقف العقاد ليؤكد من وجهة نظرنا حقيقة أنه ليس كل ما يراه هؤلاء في هذا المجال غير قابل للرد أو التعقيب .

والقضية مؤداها أنه شاع بين اللغويين المختصين بدراسة تواريخ الألسنة في الغرب - أن اللغات السامية ناقصة في دلالة الزمن - أي في دلالة الأفعال علي الأزمنة - ومنها اللغة العربية، علي تفاوت بينها وبين الفروع الأخري من الأرومة المشهورة باسم اللسان السامي أو لسان الساميين ويناقش العقاد القضية مناقشة علمية تحليلية قائمة علي التحليل اللغوي المنبثق من داخل اللغات نفسها وهو ما يعرف في علم اللغة الحديث بـ Intra Ianguages .

ويبين من خلال بحثه كما يتراءى لنا أنهم حكموا حكما متعجلا غير مبني علي دراسة دقيقة.

فهو يرجع هذه الدعوة إلي العجلة عندهم وإلي عدم التريث في البحث، وذلك أنهم صدقوا أوهاما توهموها عن العربية . يقول : **وربما ساغ هذا القول عن اللغة العربية في عقول المتعجلين من مصدقيه، لأنهم توهموا أن هذه اللغة نشأت في صحراء خاوية لا قيمة للوقت عند أهلها، فلا جرم أن تخلو من التوقيت الدقيق في تمييز الأفعال والأحداث.** (١) .

(*) ألقي العقاد بحثه في هذه القضية في الجلسة العلنية المسائية لمؤتمر المجمع بدار الجمعية الجغرافية المصرية في ١٦/١٢/١٩٥٧م تحت عنوان الزمن في **اللغة العربية** . وقد رأيت أن أعيد عرضها في ضوء علم اللغة الحديث.

(١) الزمن في اللغة العربية ص٣١. وانظر كتاب «لغتنا الشاعرة» للعقاد .

ثم يشرع في بيان فساد هذا الوهم الذي لا يثبت أمام نظرة محققة في التاريخ ولا في اللغة، وفي أناة وتؤدة يبين أن اللغة العربية (١) قد اشتملت علي وسائل للتمييز بين الأوقات علي نحو لم يوجد في لغة غيرها ويحلل القضية من جانبين: جانب يتصل بطبيعة الحياة البدوية العربية ، وجانب يتصل بالتحليل الداخلي للغة من حيث تصريف الأفعال والأزمنة ومباني الجمل وغير ذلك من نحو مفردات اللغة الدالة علي الزمن.

ثم يُبين أن اللغة العربية تستوفي الدلالة علي الإحساس بالزمن في مختلف مواضعه ومناسباته، بأسلوبيها المعروفين في اللغات ويعني بهذين الأسلوبين :

أسلوب الكلمات المستفادة من التصريف والاشتقاق. أو من الأدوات المصطلح علي تخصيصها لمعانيها.

وأسلوب التعبيرات التي تدخل في عداد الجمل والتراكيب.

ومن الأسلوب الأول الصيغ التي تأتي من تصريف الفعل للدلالة علي المستقبل الإنشائي كفعل الأمر. فإنه في اللغة العربية مخصص بصيغته لهذا المعني بغير لبس في الزمن ولا الفاعل. فيقول العربي: **اكتب** .

ويفهم من ذلك أن الكتابة مطلوبة للمستقبل غير حاصلة حتما ، فإذا عبر المتكلم بالإنجليزية عن هذا العمل فترجمة «اكتب» فيها كلمة (wriet): وهي تدل علي مجرد الكتابة بغير زمن محدود ولاتتخصص لمعني الأمر إلا إذا قيل (Dowrit) أو (You should write) أو (You should write)(١) ويندر في اللغات الغَرْبية ما يشتمل علي تخصيص أدق من هذا التعميم.

والصيغة العربية ذات دلالات متعددة لا تؤديها اللغات الأخري إلا بصيغ متعددة ومعناه أن العربية في هذا محكمة (٢).

أما الاسلوب الآخر وهو أسلوب الدلالة علي الزمن والتعبيرات التي تدخل في عداد الجمل والتراكيب، فكل ما أمكن

(١) أي يدخل ضمن مباحث علم اللغة الاجتماعي .

(٢) هذه القضية تظهر واضحة في الدراسات الحديثة من خلال علم اللغة التقابلي – Contratative analysis في مجال تحاليل البنيات النجوية – انظر كتابنا : علم اللغة التقابلي الباب الثاني الدراسات النحوية في مجال التحليل التقابلي البنيات النحوية .

التعبير عنه بهذا الأسلوب في لغة من اللغات فهو ممكن في اللغة العربية في سهولة - كسهولتها أو أسهل منها.

فقد ينسب القول مثلا إلي أحد من الناس كأنه عادة ، كأن يأتي بها في غير زمن محدود فيقول المتكلم بالانجليزية

(He was always saying

he used to say

ويقول العربي: أنه كان يقول، أوانه تعود أن يقول، أو أنه طالما قال، ولاتختلف العبارات فلي صحة الدلالة، ولا في التحديد الزمني، ولا في الإطلاق من هذا التحديد ولا في الإطالة والإيجاز.

غير أن اللغة العربية فيها ما يدل علي التطور والارتقاء وعلي النضج العقلي والرقي الفكري وهذا ما يكشف عنه البحث في أجروميتها وننظر إلي الأفعال من وجهة الأجرومية، فنري أن أوضاعها في اللغة العربية أدل علي التطور والارتقاء من لغات أخري تحسب في طليعة اللغات دقة وأداء للمعاني الذهنية.

على نحو ما تكشف عن ذلك الدراسات التقابلية وذلك راجع إلى عوامل تشير إليه دلائل متعددة والقرائن التي تكشف عن ذلك كثيرة فمن علامات التطور في اللغات أن الفعل الماضي فيها هو الاصل ويأتي الفعل المضارع بالتصريف . وفي لغات أخري من أرقي اللغات. (١)

يشيع استعمال المضارع «أولا» ويأخذون منه الماضي بإضافة حرف أو مقطع أو تغيير الصيغة وفي نظرة العقاد للتدرج الزمني في اللغت حكم علي أن العربية أدق وأرقي فالماضي هو الأصل في اللغة العربية وفي هذا دلالة علي النضج العقلي والرقي الفكري لأن الإنسان البدائي يتخذ من الحاضر المشاهد (المضارع) البداية ثم يعبر عن الماضي بإضافة علامة. أما العربية فتأخذ من الماضي بداية للتطور حتي تستقر بقية الصيغ يقول في ذلك:

«فالإنسان البدائي يتكلم كأنه يصور علي الطريقة الهيروغليفية (٢) فيرسم الحاضر المشاهد في أثناء العمل فهو مثلا إن أراد أن يعبر عن الكتابة فيرسم إنسانا في أثناء عمل الكتابة. أي في الزمن الحاضر المضارع للرؤية فإذا أراد أن يعبر عن المضي أضاف إلي الصورة علامة تدل حدوثها فيما مضي أو اضاف إليها صورا تتم معناها بما يفهم منه

(١) الزمن السابق ص ١٣٩.

(٢) السابق.

إسنادها إلي وقت مضي. ولكن اللغة العربية تغلب فيها صيغة الماضي ويؤخذ منها المضارع بحرف يدخل عليها وإنماتتم غلبة الصيغة الماضوية بتطور يتدرج في الارتقاء حتي تستقر الصيغتان - صيغة الماضي وصيغة المضارع - علي هذا التقسيم وهنا اضافة وافادة إلى علم اللغة التاريخي وعلم اللغة العام .

وعلامة أخري تدل علي تطور اللغة العربية في هذا الاتجاه وهي أن التفرقة بين الأمنيين فلسفية منطقية. فضلا عن كونها تفرقة نحوية.

ففي كثير من اللغات المعدودة من أرقي اللغات ينقسم الفعل إلي ماض وحاضر ومستقبل pas. present and future علي حين أن الحاضر شيء نبحث عنه فلا نجده أو نجده علي الدوام متصلا بالاستقبال لا ينفصل عنده لحظة منهما أقصر اللحظات لأنه ما من لحظة منها تقصر إلا وهي كافية أن تدخله في حكم ما كان وليس ما هو حاضر الآن. فالحاضر جزء من اثنين إما ماض وإما مستقبل.

وهذا الفارق الدقيق ملحوظ في تقسيم الأفعال العربية لأنها ماض ومضارع يدل علي الحال متصلا بالاستقبال. ولا يكون الفعل إلا للحال والاستقبال. أويكون الزمن فيه مضارعا للزمن السائر الذي لا يستقر علي قرار وهذه غاية في الدقة تحسب للعقل العربي[1] .

وقد فطن لهذه الحقيقة عالم من علماء الأجروميات والمباحث اللسانية لمؤلفه الدكتور أوتوجسبيرين(otto jespreson)[2] يقول إن لنا - علي الاصح - أن نقول إن الزمن ينقسم إلي جزءين: ماض ومستقبل. وبينهما حد الانفصال وقت حاضر كأنه النقطة الهندسية التي لا طول لها ولا عرض ولا.. ارتفاع.. ولكنها

---

(١) يعتبر العقاد من مقاييس ارتقاء اللغات الدلالة علي الزمن في أفعالها في سائر ألفاظها ويربط بين علامات الدلالة علي الزمن وعلامات الدلالة من خلال رأيه في نشأة اللغات ويري العقاد أن اللغات تنشأ علي نحو قريب من نشأة الكتابة علي الطريقة الهيروغليفية أي طريقة الدلالة بالأشكال المرسومة. فالإنسان يعبر عن الكتابة بنقشه أشكالا علي حجر ويدل بذلك علي مجرد حدوث الفعل في غير زمن محدد فإذا أراد أن يدل علي وقت الفعل أشار إليه بعلامة مضافة تفهم منها البعد والإدبار والبعد والإقبال او الاستمرار والاستغراق وهذا لابد فيه من علامات صوتية أو جسدية للتفرقة بين حالات الزمن المختلفة ما هو كائن وما سيكون وما هو معلق علي شرط ومن هنا يظهر ارتقاء اللغة من علامات الزمن في أفعالها . إن اللغة التي تدل علي الزمن بعلامات مقدرة في الفعل أعرق دائما من اللغة التي تخلو من تلك العلامات وبمقدار علامات الدلالة تكون العراقة والارتقاء والعربية فيها ما ليس في غيرها مما يثبت ارتقاءها.

(٢) Otto jesperesen, language itd naturem Deevelopment and origin .

علي الدوام منسوبة إلي المستقبل (١) .

فـإذا أراد المتكلم في لغـة العـرب أن يذكر المستقبل بشتي معانيه فهو موجود بمعني الاستمرار بشتي معانية وهو موجود بمعني الإنشاء واستحداث الفعل علي الطلب.

فصيغة المضارع تدل علي الحال والاستقبال وصيغة المضارع مسبوقة بالسين تدل علي المستقبل القريب ومسبوقة «بسوف» تدل علي المستقبل البعيد (٢).

١ ـ المجاوية بين طلب الفعل وحدوثه داخل في دقة الزمن في العربية.

٢ ـ وأفعال المطاوعة.

٣ ـ ودلالة المفعول المطلق.

٤ ـ وأفعال الدعاء والرجاء.

يقول في ذلك: «وصيغة الأمر تدل علي: **أفعل** مطلوب في المستقبل يقترن بالزمن عند حصوله: أمرته ففعل، وهذه المجاوية بين طلب الفعل وحدوثه مألوفة في اللغة العربية. تتمثل في أفعال المطاوعة التي لانظير لها في كثير من اللغات(٣) .

فإذا وقع الحدث في الزمن فله صيغ متعددة تؤكد هذا التحقيق كما يقال: أمرته فأتمر. ورسمته فارتسم وقطعته فانقطع. وكسرته فانكسر.

ومن قبيل هذا التوكيدات للحدوث أو طلب الحدوث في الزمن ـ دلالة المفعول المطلق علي حين تقول. فعلته فعلا وصنعته صنعا إلي أشباه ذلك في مواضعه وبواعيه من التعبير والتوكيد.

ومن علات التطور أفعال الدعاء والرجاء فإنها في هذه اللغة العربية غاية في الدقة تحسب من قبيل التمييز المنطقي أو الفلسفي في هذا الباب.

فالمعني غالب علي اللفظ في أفعال الدعاء والرجاء « يقول القائل (صحبتك السلامة) و (حفظك الله) و (رعاك الله).. ولا يحتاج الفعل هنا إلي النقل من

(١) التفاتة في غاية الأهمية من الناحية الفلسفية والواقعية من خلال التعمق في فكرة الزمن في أجروميات اللغات تشير إليها جعل الماضي هو الأصل في اللغة العربية فالحاضر لا يكاد يذكر فالزمن ماضٍ ومستقبل – والعبد بين مخافتين لا يدري ما الله صانع به فيهما بين ماضٍ قد انقضى ومستقبل لا يدري ماذا له فيه. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) السابق.

(٣) على نحو ما تثبت ذلك الدراسات التقابلية في علم اللغة .

صيغة الماضي إلي الحاضر. لأن المعني بالبداهة معلق بالاستقبال. وفي بقائه علي صيغة الماضي ما يشعر بقوة الأمل في الاستجابة كأن ما يرجي أن يكون قد كان ولاشك أن هذاالمعني مقصود لأنه لم يأت عن عجز في اللغة. ولا يمتنع علي قائل أن ينقله إلي صيغة المضارع إذا شاء .

والشرط والنفي في العربية له دلالة علي الزمن ويلحقه الغربيون في أجروميـاتهم بالكلام علي الزمن في الأفعال فهو لحق معقول لأن الشرط والنفي يفيدان ما يحدث وما لا يحدث في زمن من الأزمان.

يقول العقاد : ومن المعلوم أن قد أستوفي الشرط والنفي في اللغة العربية الزمن أيما استيفاء.. فكان من أدوات الشرط :

١ ـ ما يفيد الاحتمال الضعيف.

٢ ـ ومنها ما يفيد الاحتمال القوي كما قال إن حدث هذا . وإذا حدث هذا .

٣ ـ ومنها ما يفيد الاحتمال مع الغرض والتقدير.

٤ ـ وقد يفيد الامتناع حين تستخدم «لو» في مواضعها .

٥ ـ ومنها ما يفيد الشرط المعلق علي توقيت منتظر.

٦ ـ أو متفق عليه كالشرط بـ «متي».

٧ ـ ومنها ما يربط السببية أو النتيجة العقلية علي الإطلاق الذي لا يتقيد من الأزمان كـ «مهما» و «أيان» و«أنّي» و كـ «لو» في بعض الأحوال.

أما النفي ففيه دقة دلالة زمنية في اللغة العربية.

فالنفي بـ «لم» مقصور علي نفي الحدوث. وهو بالبداهة لا يكون إلا لزمن ماض لأننا لا نتكلم عن شيء حدث قطعا أو لم يحدث إلا إذا كان الكلام علي ما مضي ولهذا لا نحول الفعل من صيغة المضارع إلي صيغة الماضي بعد «لم» ويقول العربي ما حدث هذا ولا يقول «لم حدث هذا » لأن «ما» تدخل علي المضارع فتفيد نفي «الانبغاء لانفي الحدوث .. ومن قال: «ما يحدث هذا «فإنه يعني أن هذا لا ينبغي أن يحدث ولا يعقل أن يحدث وهذه وظيفة أخري في العربية يفهمها الناطق بها . وقد يلاحظ هذا علي الفعل الماضي الذي تسبقه «ما» فإن نفي الوقوع هنا لا يخلو

من نفي الانبغاء ومن قال مثلا: ما فاه فلان بهذا الكلام فكأنه يقول: «حاشاه أن يفوه به» وهذا هو الفارق بين «ما» التي تدخل في الماضي والمضارع لأنها تدل إلي جانب معني الوقوع علي نفس الشيء لأنه لا ينبغي أو لا يعقل أولا يقع في الحساب . انظر الوظائف التي تؤديها الصيغ في العربية (١) .

أما إذا نفي الحدوث مع انتظاره في المستقبل فصيغة المستقبل هنا لازمة ولهذا يقول العربي «لَمَّا» يحدث هذا وهو يترقب أن يحدث بعد قليل أو كثير.

وتحويل صيغة الفعل في هذا لا يتأتي جزافاً لأنه يتكرر حينما اقتضاه المعني فنقول مثلا «إن حدث هذا وإذا حدث هذا ومتي حدث هذا» لأن الاستقبال مفهوم بالبداهة».

واذا دخلت أداة نفي علي الفعل المضارع فهي في حقيقتها مانعة للحدوث لا نافية للحدوث ومن قال : «لن يئوب القارظان ولن تشرق الشمس من المغرب فهو يقرر امتناع ذلك لسبب عنده قاطع يمنعه وليس هذا من قبيل النفي في الصيغ الماضوية.

انظر وظيفة في الصيغ في الدلالة علي الزمن (٢).

فالفعل يتأثر بموقعه من الأداة النافية فليس هو منقطعا عن العلاقة الزمنية بل هو متأثر بها في لفظه ومعناه فلم يفعل «غير» لن يفعل وغير ما يفعل وهو اختلاف يدل علي ارتباط العلاقة الزمنية بعلاقة الإعراب.

ويخلص العقاد إلي أن اللغات التي تتكلم بها أرقي الأمم لم تشتمل علي تصريفات أو صيغ مصطلح عليها للدلالة علي الزمن خلت منها اللغة العربية أو من نظائرها وإنما ترد الشبهة عليهم من وجود عناوين للأزمنة المعلقة عندهم لا توجد لها نظائر في اللغة العربية مثل الافعال المساعدة وهذه الأزمنة المعلقة يعبرون عنها في بعض اللغات الأوروبية بالأفعال المساعدة مع الفعل أو اسم الفاعل أواسم المفعول وأن اللغة العربية لم تخل من مثلها فنقول مثلا عن أحد : لعله يكون مصورا كبيرا لو نشأ قبل عصره أو لعله يكون في مثل هذه الأحوال قد نجح لو نشأ بعد حين.. إلي أشباه هذه التعبيرات التي يسهل استخدامها في اللغة العربية وليست هي في اللغات الأخري مخصصة بوضع أصيل من أوضاع التصريف والاشتقاق. ولكنها تعبيرات طارئة تتيسر محاكاتها

---

(١) انظر الصيغ الشكلية ووظائفها الدلالية في كتابنا مبحث في قضية الرمزية الصوتية القسم الثاني – قوة اللفظ في قوة المعنى – وغيره – (نشر دار المعارف) وانظر حديثا في علم اللغة التاريخي باب الدراسات الصرفية والنحوية – نشر دار المعارف وانظر كتابنا العمد كتاب في التصريف لعبد القاهر الجرجاني – نشر دار المعارف .

(٢) انظر ما سبق .

عندنا في كل معني من معانيها وأن ما يظنه الغربيون من دلالة دقيقة علي بعض الأزمنة لا تعد كذلك ولا دخل لها بالدقة في أزمنة اللغة وإنما هي أمور يمكن صياغتها أو صياغة أمثلة لها في العربية ونحن نستعملها.

في دراسة أسلوبية لبعض الأدباء نستخلص من نماذجها ما لا حصر له من الأمثلة بل إن هناك أمثلة لنماذج إذا ترجمت لا يدرك حقيقة مقصودها الدخلاء علي اللغة.. وقد يأتي التعبير مخالفا لقصد القائل مع استعمال الفعل المساعد في أشيع اللغات الأوروبية، كما يظهر من ترجمة هذه الجملة العربية: قلت له من أنني سأذهب غداً «فإنهم يترجمونها بالإنجليزية:

Isaid to him yesterday that I should go tomorrow

ويجوز للسامع أن يفهم من هذا التعبير أن الذهاب واجب أو أنه حاصل حتما، في حين أن المتكلم لا يعني ذلك، بل يعني أنه ينوي أن يذهب ولا يقيد ذلك بالوجوب أو الجزم بالحدوث وهذا اللبس أوجده الفعل المساعد في الإنجليزية الذي يعدونه من حسنات لغاتهم وليس في التعبير العربي شيء يدعو إلى هذا اللبس وسببه عدم وجود هذا الفعل المساعد لأن السين حرف واحد. وقد يستغني عنه فيقال له أمس أنني «أذهب غدا» أو «ذاهب غدا» «فيفهم السامع ما أراده القائل فما اعتبروه عندهم دقة وعدوه نقصا في العربية فإن الدليل الحي والعمل التطبيقي يثبت عكسه».

ومن الأمثلة علي ذلك باب المبني للمجهول فعندنا ما معناه أن دقة الزمن عند الناطقين بالعربية فرضتها الطبيعة علي نحو ما ظهر من تصريف أفعالها وفي صياغة تعبيراتها وفي المفردات الخاصة بالزمن فيها.

ولهذا وجدت كلمات البكرة والضحي أو الغدوة والظهيرة والقائلة والعصر والأصيل والمغرب والعشاء والهزيع الأول من الليل والهزيع الأوسط والموهن والسحر والفجر والشروق.

ويكاد التقسيم علي هذا النحو أن ينحصر بالساعات علي صعوبة التفرقة بين هذه الأوقات في كثير من اللغات الأخري إلا بالجمل أو التراكيب فانظر لغة مفرداتها تؤدي وظيفة تراكيب لغة

أخـري أيهـمـا أدق في بابه في هذا المجال؟!

إن هذه الدلالات التي تدل عليـهـا كلمـات مـفردات لا يوجد لها نظير في غـيـرها من تلك اللغـات إلا بالجـمل والتـراكـيب لهي دلالة علي الدقـة ومثله الاهتـمـام بالزمن الذي أبداه الاهتـمـام بفصول العـام والحديث عن العـام بما يظن أنه من المتـرادفـات ومـا هو من المترادفات ولهذا وجدت أسماء المواسم والفصول جميعا، ووجدت معها ثلاثة أسـمـاء مـخـتلفـة الدلالة للدورة حـول الشـمس في مـصطلح الفلكيين. فـهي السنة، وهـي العـام، وهـي الحـول، ولكل منها موضعه في التعبير .

ووجدت في اللغة كلمة اليوم والنهار والليل. ولم تنقـسم إلي يوم وليل بدون تفرقة بين معني اليوم ومعني النهار.

بل لهذا وجدت للأوقات كلمات مختلفة علي حـسب الطول والقـصـر في المدة فالمدة شاملة لجميع المقادير من امتداد الزمن. وتنطوي فيها اللحظة أو اللمحة للوقت القـصـيـر والبـرهة والردح للوقت الطويل.. والفترة للمدة المعترضة بين وقـتين والحين للزمن المقـصـود المعين والعهد للزمن المعهود المقترن بمناسباته والزمن للدلالة علي جنس الوقت كيفما كـان. والدهر للمدة المحيطة بجـمـيع الأزمنة والعهود والأحيان.

إن مثل كل هذا الإحساس بالزمن لا تصوره الكلمات في لغة من اللغات التي نفهمها - أو نفهم عنها - علي صورة أدق من هذه الصـورة ولا أدل علي الفـوارق بين أجـزائها ولا غـرابة في ذلك لو أراد الباحثون أن يلتمسوا السبب الذي يبطل العـجب فـالزمن الماضي مـهم عند أبناء البادية العربية في كل عهد من عهوده. لأنه مستودع المفاخر والأنساب والثارات والسـوابق والذكـريات... وليس من المصـادفـة أن يسـمي التـاريخ هنا باسم الأيام، وأن يعرف لكل يوم أثره فيما كان وفيما سيكون. (١)

وان عناية الناطقين بالعـربيـة بالزمن الحاضـر بأجزائه وتقسيماته لعـوامل تتصل بطبيعة حياتهم كذلك.

ثم ينتـهي إلي أن أي لغـة من اللغـات

---

(١) السابق ص٣٨.

يعيبها علي الأغلب الأعم نقصان في المفردات ونقص في أصول التعبير والنقص في المفردات مستدرك لأنها تزداد بالاقتباس والنقل والتجديد. وما من لغة إلا وهي فقيرة لو سقط منها مالم يكن فيها قبل قرنين أما النقص المعيب حقا فهو نقص الأصول والقواعد الأساسية في تكوين اللغة وهذا ليس في العربية وقد نسبه لها علماء الساميات الغربيون عن خطأ وعدم إلمام وإنه لنقص خطيرلوصحت نسبته إليها، ولكنه بحمد الله غيرصحيح علي نحو ما ثبت بالدراسة والتحليل ويحق لنا أن نقول :

إن هذه اللغة العربية لغة الزمن بأكثر من معني واحد: لغة الزمن لأنها تحسن التعبير عنه. ولغة الزمن لأنها قادرة علي مسايرة الزمن في عصرنا هذا وفيما يلي من عصوره.

وقد هدفت من وراء عرض هذه القضية إلي أمرين:

أما أولهما فلأبين بالدليل العلمي أن أقوال المستشرقين في شأن العربية والساميات هي آراء قابلة للنقض والرد وأن أعرف الناس بالعربية الناطقون بها والمتخصصون فيها من أبنائها.

وأما ثانيها فلأبين أن أعمال الرواد في هذا المجال مازالت مشاعل يستضاء بهاوأن علينا أن ننقب عن جهودهم وأن نفيد أجيال الحاضر والمستقبل بها.

ولأبين أن أصول علم اللغة ثابتة في أعمال علماء العربية في القديم والحديث.

والله من وراء القصد..

البدراوي عبدالوهاب زهران
عميد كلية الأداب بقنا
والخبير بالمجمع

ظاهرة الربط في التركيب والأسلوب العربي

للدكتور تمام حسان

أولا : سيكولوجية الظاهرة :

تتصل ظاهرة الربط بناحيتين من نواحي النشاط العقلي هما التعرف والتذكر . فأما التعرف فيتعمد على إدراك المعالم والقرائن وأما التذكر فيتصل أكثر ما يتصل بالتداعي والترابط . وفي كلا الحقلين : حقل القرائن وحقل التداعي لابد من وجود الدوال والمثيرات وهي بصورتيها داخلة في نطاق ظاهرة الربط . ولقدرة الإنسان على التعرف حدود كما أن لاستطاعته التذكر حدودًا كذلك . وهذه الحدود تجعل من المستحسن أن نكثر من القرائن الدالة على موضوع التعرف ، ومن المثيرات المؤدية إلى التذكر بحيث يكون بعض ذلك نافلة وزيادة على المطلوب ونستطيع أن نضرب الأمثلة على ذلك :

إذا سألك سائل عن عنوان تعرفه بالوصف دون أن تذكر اسم الشارع ورقم المنزل فإن المعتاد في هذه الحالة ألا تكتفي بذكر اسم الحي ولا متعرجات الطريق وإنما تذكر له من المعالم ما ينبغي للسائل أن ينحدر عنده إلى اليمين أو إلى الشمال فتقول له مثلا : إذا بلغت ثالث تقاطع في هذا الشارع فستجد عمارة مبنية على الطراز العربي وتحتها محل لبيع الأدوات المدرسية وإلى يمينها حديقة ، فعندها فانحدر شمالا حتى إذا بلغت كذا وصفاته كذا فانحدر يمينا ، وما تزال تعين له المعالم حتى تصل به إلى المنزل المطلوب ، وعندئذ تكثر من ذكر المعالم الدالة على هذا المنزل أيضا فهو ذو سور له باب حديدي وإلى جانبه مسجد وفيما يقابله من الشارع محل جزار وإلى جانب الجزار

بقال وخضرى وعلى مقربة من هذه المعالم إشارة مرور وهلم جرا . ولقد كان يكفى بعض ذلك للتعرف على العنوان المطلوب ولكن قصور الانتباه الإنسانى يجعل المرء ينسى بعض ما سبق له من ذكر المعالم فيتبع المسئول حيال السائل سياسة يصدق عليها قوله تعالى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » أى أن بعض المعالم قد يضيع من الذاكرة فيكفى المُعْلَم الآخر للدلالة على المطلوب .

والأمر كذلك فى مجال التذكر إذ تجد للذاكرة الإنسانية طاقة محدودة . يعرف ذلك كل من وجد الداعى إلى العودة بفكره إلى الوراء ليخرج من الأحداث الدفينة فى ركام الماضى ما يدعو شىء ما إلى إخراجه والكشف عنه — فحين يحاول المرء ذلك قد لا يظفر بعد النبش والتنقيب فى الماضى بما حاول أن يتذكره . والناس فى كل لحظة ينسون ما مر بهم من الوجود والأسماء والعناوين والأرقام وقد يتعذرعليهم أن يذكروا ذلك حتى مع التذكير به . ولكنهم إذا سمعوا لفظاً معيناً أو رأوا شيئاً ما ذا ارتباط بما نسوا أثار ذلك الشىء فى ذاكرتهم مانسوه من قبل فانتعشت ذواكرهم وعادت إليهم صورة الماضى كما كان .

من هنا تشتمل تراكيب اللغة على قرائن تعين على التعرف وتشتمل أساليبها على وسائل تعين على التذكر والأمر فى الحالين يتعلق بظاهرة من ظواهر الاستعمال اللغوى تسمى بالربط سواء فى ذلك أن يكون الربط قرينة من قرائن النحو أو وسيلة من وسائل الأسلوب .وسنرى ذلك واضحاً إن شاء الله فى السطور الآتية . والقرائن النحوية التى يعد الربط واحدة منها

هى : البنية — الإعراب — الربط — الرتبة — التضام — الأداة — النغمة —وفوقها وأعم منها قرينة أخرى هامة يمكن أن نسميها قرينة السياق . ولقد درج معلمو اللغة العربية على أن يعلموا تلاميذهم أن الفاعل فى « طلع البدرُ » إنما سمى فاعلا لأنه مرفوع وقد غفلوا عن أن الرفع وحده (وهو علامة من قبيل قرينة الإعراب) لايكفى للدلالة على الفاعل مادام هنالك

مرفوعات أُخرى غير الفاعل منها النائب عن الفاعل والمبتدأ والخبر واسم كان وخبر إن والتابع المرفوع . وإنما عرف أن « البدر » فاعل بعدد من القرائن التى تضافرت وأعان بعضها بعضاً على بيانه كما تضافرت معالم الطريق من قبل على بيان العنوان المطلوب وتيسير التعرف عليه . والقرائن التى تضافرت لبيان الفاعل هى :

البدر :	اسم	وهذه قرينة	البنية
	مرفوع	» »	الإعراب
	تقدمه فعل	» »	الرتبة
	مبنى للمعلوم	» »	البنية مرة أخرى
	دل على من فعل الفعل	» »	الإسناد وهى قرينة معنوية

وفى « أكرم محمد نفسه » عرفنا أن النفس مفعول به بالقرائن الآتية :

النفس	اسم	وتلك قرينة	البنية
	منصوب	» »	الإعراب
	تعدى إليه الفعل	» »	التعدية

فلولا الاسمية ماكان البدر فاعلاً ولا النفس مفعولا به ولولا تقدم الفعل ماكان البدر فاعلا ، وكذلك الأمر ببناء الفعل للمعلوم وبدلالة البدر على من فعل الفعل ودلالة النفس على من وقع عليه الحدث . أما الرفع والنصب فكلاهما قرينة من القرائن ولا يستقل أحدهما بالدلالة على فاعل ولاعلى مفعول به . ولكننا مع ذلك بحاجة إلى معرفة النفس لمن تكون (أو بعبارة أخرى نحن بحاجة إلى التعرف على نسبة النفس إلى أحد عناصر الجملة) لأننا لو كان لدينا « أكرم محمد نفساً » بدون الهاء لرجح احتمال المعنى أن تكون النفس لغير محمد ومن هنا أصبح من حق النفس أن تضاف إلى محمد . وفى هذه الحالة إما أن فقول : « أكرم محمد نفس محمد » على غرار ما قال الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما

وعلمته الكر والإقداما

وصيرته ملكاً هماما

وعلى نحو ما فى قوله عليه الصلاة والسلام « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع

محمد يدها » أو أن نستبدل بالاسم الظاهر ضمير محمد فنقول : « أكرم محمدنفسه » فنربط النفس بمحمد بواسطة الضمير العائد أو أن نضع (ال) موضع الضمير فنلحقها بأول الكلمة فنقول أكرم محمد النفس إلخ . فهذه الوسائل المذكورة وغيرها تنبئ عن أن النفس نفس محمد وليست النفس غيره . وإذا قلنا تنبئ فإن المقصود أنها تعين على « التعرف » على نسبة النفس إلى من تكون . ونخرج من كل ما تقدم بأن فى تضافر القرائن ما يجعل القدرة على التعرف أكبر وأقوى كما رأينا فى التعرف على الفاعل والمفعول وفى عود الضمير وأن الفرصة سانحة من خلال تعدد القرائن وتضافرها أن تصبح إحداها نافلة زائدة على المطلوب redundant على أنها وهى نافلة لا يتوقف عليها وضوح المعنى تعد توكيدا لضمان التعرف على المعنى ولكنها لكونها نافلة أيضاً تمكن للمتكلم أن يترخص فيها إذا كان ذا سليقة فى اللغة لعدم توقف انكشاف المعنى على وجودها (انظر مبدأ الترخص فى القرائن فى كتاب اللغة العربية معناها ومبناها لصاحب البحث) .

ثانيا : تخطيط الظاهرة :

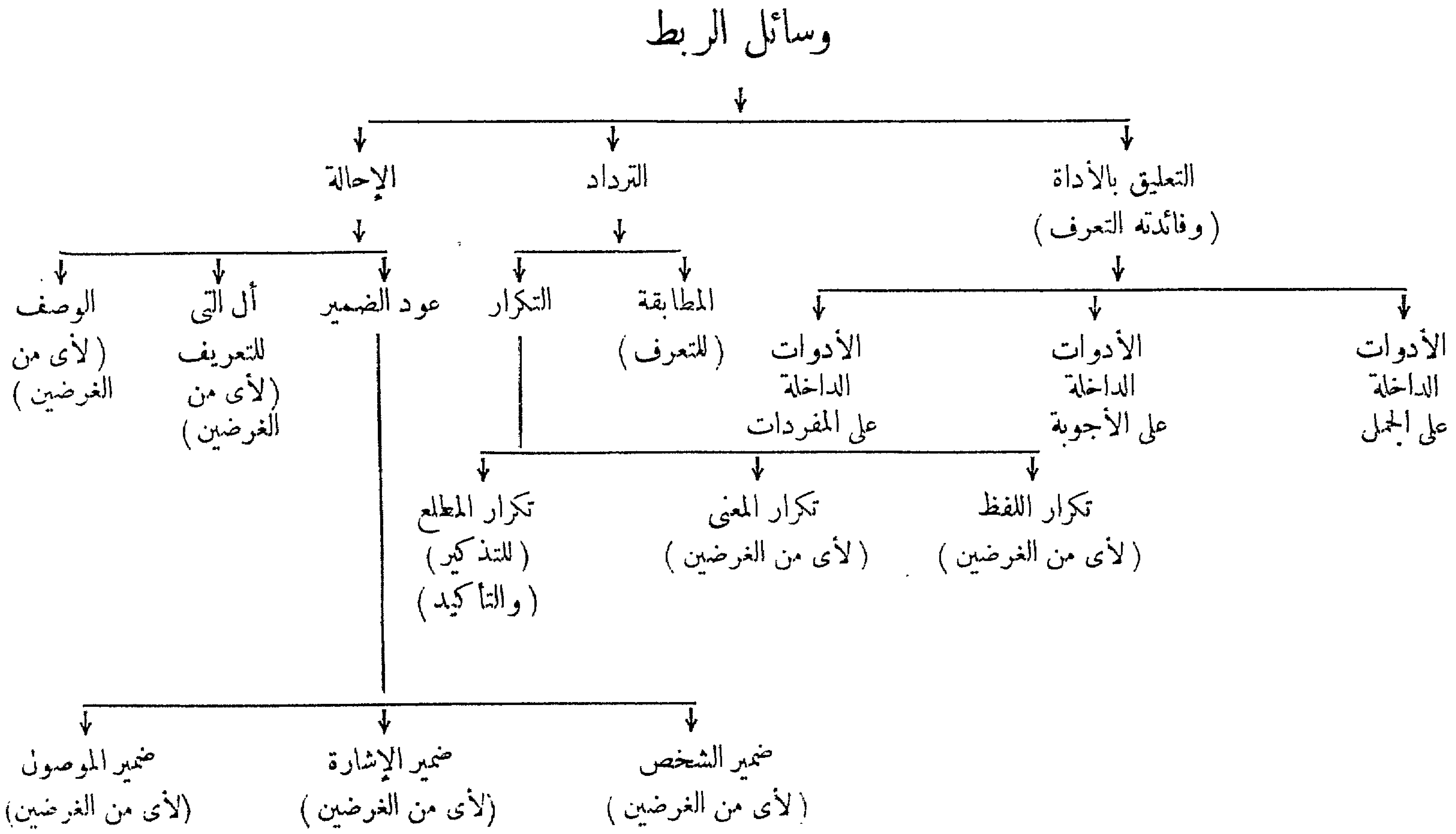

ويتضح من هذا التخطيط أن الربط قد يكون تعليقاً بالأداة وقد يكون إعادة أو ترداداً لعنصر لفظى، وقد يكون إحالة إلى مذكور أو مفهوم سابق. فإن كان تعليقاً بالأداة فإن الأداة قد تكون مما يدخل على الجمل كأداة الشرط أو القسم وقد تكون الأدوات الداخلة على الأجوبة كالفاء الداخلة على جواب الشرط واللام الداخلة على جواب القسم وقد تكون مما يدخل على المفردات كحروف الجر أو واو المعية. وإذا كان الربط ترداداً فقد يكون بإعادة عنصر من عناصر المطابقة كالضمائر وعلامات التثنية والجمع والتأنيث وحروف المضارعة إلخ، وقد يكون بتكرار اللفظ نحو «واتقوا الله ويعلمكم الله» أو تكرار المعنى نحو: «تحيتهم فيها سلام» أو تكرار المطلع نحو: «ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون» أما إذا كان الربط بالإحالة فقد يكون بعود الضمير وقد يكون بأداة التعريف وقد يكون بالوصف. وإذا ذكرت الضمير فإن فهمى له يشمل ضمائر الأشخاص (أنا وأنت وهو وفروعها) وضمائر الإشارة (ذا وذى فروعهما) والضمائر الموصولة (الذى والتى وفروعهما ومَنْ وما وأىّ). فالأول نحو قوله تعالى: «لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين» والثانى نحو «ولباس التقوى ذلك خير» والثالث نحو «وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله» أى جاء المعذرون وقعدوا. وأما «ال» التى للتعريف فنحو قوله تعالى: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى» أى هى مأواه. وأما الوصف فنحو «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» أى ويشف صدوركم. هذا وفيما يلى عرض مفصل بعض التفصيل يعين على تصور ظاهرة الربط على وجهها الذى يراه هذا البحث.

ثالثا: عرض الظاهرة:

قدمنا منذ قليل رؤيتنا للمحمل السيكولوجى للحاجة إلى ظاهرة الربط وإلى فائدتها فى مجالى التعرف والتذكر. دعنا الآن ننظر فى الجانب النظرى اللغوى الذى يتصل بفائدة الربط فى وضوح المعنى،

وسنرى من خلال هذا النظر فائدة كل نوع من أنواع الروابط على حدة . فنبدأ بأدوات الجمل ثم بأدوات الأجوبة ثم بأدوات المفردات ثم بالمطابقة فتكرار اللفظ الخ حتى نستقصى ماعددناه وأحصيناه من أنواع الربط ووسائله ذاكرين لكل نوع منها ما يعزز القول فيه من الشواهد . ومن الأمثلة (إن عز الشاهد) .

١ ـ أدوات الجمل :

تعتمد الجملة العربية فى الأغلب الأعم من صورها على الأداة فلا نكاد نجد منها إلا القليل مما يستغنى عن الأداة . ويتضح ذلك من التخطيط التالى :

أنواع الجمل العربية

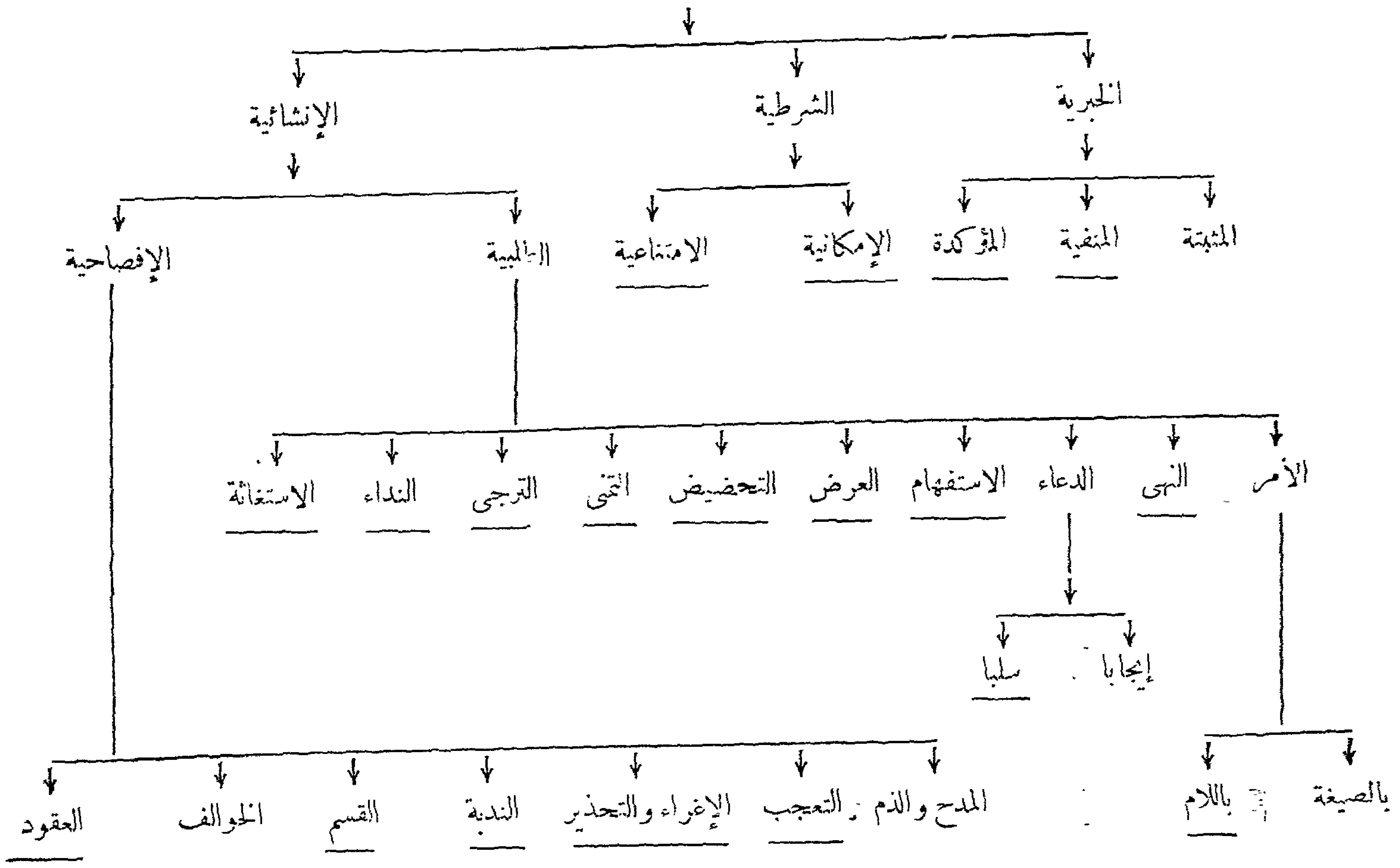

فهذه أربعة وعشرون نوعاً للجملة العربية منها تسعة عشر نوعاً تتقدمها الأداة كما فى الأمثلة التالية .

١ ــ المنفية : وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

٢ ــ المؤكدة : إن الله على كل شئ قدير .

٣ ــ الإمكانية : إنْ تنصروا الله ينصركم .

٤ ــ الامتناعية : ولولا رهطك لرجمناك .

٥ ــ الأمر باللام : وليستعفف الذين لا تجدون نكاحا .

٦ ــ النهى : لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة .

٧ ــ الدعاء سلبا : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

٨ ــ الاستفهام : أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً .

٩ ــ العرض : ألا تحبون أن يغفر الله لكم .

١٠ ــ التحضيض : فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها .

١١ ــ التمنى : يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى .

١٢ ــ الترجى : لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

١٣ ــ النداء : يانوح اهبط بسلام .

١٤ ــ التعجب : فما أصبرهم على النار .

١٥ ــ الإغراء : عليك بالصبر والصلاة .

١٦ ــ التحذير : إياك واتباع الهوى .

١٧ ــ الاستغاثة : يالله لعبده المسكين .

١٨ ــ الندبة : واحرَّ قلباه ممن قلبه شبم .

١٩ ــ القسم : فورب السماء والأرض إنه لحق .

لم يبق إذا من الجمل العربية ما يستغنى عن الأداة إلا المثبتة والأمر بالصيغة والمدح والذم والخوالف (أسماء الأفعال وأسماء الأصوات) والعقود . هذا وإن لبعض الجمل التى تعتمد على صدارة الأداة صوراً بغير أداة كما فى الإغراء والتحذير نحو : « ناقة الله وسقياها » وفى التعجب نحو : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن المقصود

بجمل العقود تلك الجمل التي تفيد الالتزام ن أي نوع كالتعبير عن الإيجاب والقبول مثلا .

ويتمثل الربط بالأداة فى أن معناها ينسحب على كل ما دخل فى حيزها من عناصر الجملة أى أن كل ما دخل فى حيز النفى مثلا فهو منفى واشتراك عناصر الجملة فى معنى النفى الحادث بسبب تقدم الأداة يجعل الأداة سبباً فى هذا الاشتراك بمعنى أنها ربطت بين عناصر الجملة بتشريكها فى معنى النفى فأحكمت الصلة بين هذه العناصر فلم يعد يخرج عن معنى النفى منها شىء إلا أن يكون ذلك بأداة استثناء أو استدراك أو نحوهما مما يدخلنا فى نقاش نوع آخر من أنواع الأدوات يتجه معناه فى اتجاه الربط النحوى ولكنه يفيد التفريق المنطقى .

والتأكيد ينصب على إسناد المسند إلى المسند إليه فيعطى الإسناد قوة لم تكن له من قبله ومن هنا يربط أواصر الجملة وأداة الشرط فيها إفـادة ترتب الجواب على الشرط وفى إفادة الترتب ربط بين عنصرى الجملة ويصدق ذلك على نوعى الشرط ولولا اللام المكسورة مع المضارع المجزوم ماكان المضارع صالحا لإفادة الأمر وفائدة لا الناهية أنها تجعل المضارع المجزوم يفيد عكس ما أفاده مع اللام فينصب الأمر مع اللام والنهى مع « لا » على إيقاع ما تضمنه المضارع من الحدث من حيث ينتسب هذا الحدث إلى فاعل يوقعه وإلى مفعول يتقبله إلخ فالربط بهما عام فى جملتهما وليس خاصاً بالحدث مبرأ من صلاته بالعناصر الأخرى فى الجملة ،والدليل على ذلك أن المقصود هو « إيقاع » الحدث وليس الحدث من جهة أنه « حدث » .

والإيقاع إنما يكون من فاعل على مفعول فى ظرف معين لسبب معين إلخ .

يقال ذلك أيضاً لبقية الجمل الطلبية لأن فيها جميعها طلب إيقاع حدث معين فالاستفهام طلب الإجابة والعرض طلب الاستجابة والتحضيض طلب الموافقة والتمنى طلب وقوع مالا يقع والترجى طلب وقوع الممكن والنداء طلب الإقبال والاستغاثة طلب الإغاثة . وفى كل ذلك طلب « وقوع » أحداث معينة وهذه الأحداث أوقعها فاعل

ووقعت على مفعول لسبب ما فى ظرف ما. فالأداة فى جميعها ينصب معناها على نسبة كل عنصر فى الجملة إلى العنصر الآخر وهذا معنى كونها رابطة.

أما الجمل الإنشائية غير الطلبية فهى الجمل الإفصاحية. ومعنى كونها إنشائية أنها تنشىء معنى ليس له وجود خارجى ومن ثم لايحتمل الصدق والكذب وهى بهذا المعنى تشارك الجمل الطلبية فى معناهما وهو الإنشاء ولكنها تنفرد عن أختها الطلبية بأنها لاتفيد طلب إيقاع حدث وإنما تفصح عن حالة أو موقف فى النفس. فالذى يمدح أو يذم أو يتعجب أو يندب أو يقسم أو يقبل ما عرض عليه لايبغى بما يقول أكثر من عرض موقفه النفسى على السامعين والإفصاح عن هذا الموقف. ثم لايفهم من قوله هذا « طلب إيقاع » ولا يترتب عليه « وقوع ». ومع هذا تصدرت الأدوات بعض هذه الجمل التى لها طابع الصيحات كالتعجب والإغراء والتحذير والندبة أو طابع التوكيد كالقسم وإنما عددنا الأداة رابطة فى هذه الجمل القصيرة الأنماط لأنها لو لم تكن لما كان المعنى فلو حذفت لوجب التعويض عن حذفها كما « رباه » إذ قامت الألف والهاء دليلا على « يا » المحذوفة.

٢ ــ ادوات الأجوبة :

إذا نظرنا إلى واحد من الأجوبة وليكن جواب الشرط وجدنا القاعدة تنص على اقترانه بحرف الجواب إذا لم يصلح الجواب أن يكون شرطا وذلك بأن يكون جملة اسمية أو طلبية أو مبدوءة بفعل جامد كعسى وليس، أو منفية بما أولن، أو مصدرة بقد أو بأداة تنفيس وهى السين وسوف؛ ولعل السبب فى اقتران الجواب بالحرف هنا أنه يكون فى بعض حالاته عرضة للبس إذا لم يذكر الحرف فى صدر الجواب، فإذا تأملنا قوله تعالى: « من عمل صالحا فلنفسه » ثم تصورنا حذف الفاء من الجواب لوجدنا شبه الجملة (وهو هنا شبه جملة اسمية تقديرها فعمله لنفسه يصلح صفة للمفعول (صالحا) الذى قبله أى أن صورة التركيب من غير حرف الجواب تؤدى إلى اللبس (وهو تعدد احتمالات المعنى دون مرجح). وعلى الرغم من أننا قد نجد صوراً أخرى من الأجوبة لايتطرق إليها اللبس عند حذف الحرف كما فى قوله تعالى: « وإن

أطعتموهم إنكم لمشركون) فاللغة تحرص على الاطراد قدر حرصها على أمن اللبس ومن هنا طردت اقتران الجواب بحرفه فى كل الحالات ما ألبس منها وما لم يلبس .

وقد انعكس ذلك على تراكيب الإخبـار بالذى والألف واللام نحو : «واللذان يأتيانها منكم فآذوهما» ونحو «والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة» إذ اقترن الخبر فى الحالين بالفاء لوقوعه جملة طلبية ولعل سبب ذلك أن من الموصولات مانقل إلى معنى الشرط نحو «من» و «ما» و «أى» وهذه الموصولات لنقص حروفها عن الثلاثة عوملت معاملة أدوات الشرط وصدق على جوابها مايصدق على جواب «إن» الشرطية من حيث اقتران الجواب بالحرف . ولما كانت «الذى» و «التى» وفروعهما و «ال» من الموصولات أيضا عومل خبرها معاملة جواب «من» و «ما» و «أى» اللاتى للشرط للسببين الآتيين :

(ا) أن بين الذى والألف واللام علاقة من حيث الأصل هى علاقة الموصولية وأن الذى والألف واللام لاتصلح أى منهما للنقل إلى الشرطية لزيادة الذى على الثلاثة ولاقتران الألف واللام بصفـة صريحة لاتصلح أن تكون جملة شرط .

(ب) أن لجملة الشرط ولجملة الإخبار بالذى والألف واللام كلتيهما معنى سلبيا يفهم منهما باللزوم العقلى يشبه مايسميه الأصوليون «مفهوم المخالفة» ففى قولنا :

من تأنى نال ماتمنى .

الذى يتأنى ينال مايتمنى .

المتأنى ينال مايتمنى .

مفهوم سلبى مشترك بين هذه الجمل هو أن الذى لايتأنى لاينال مايتمنى . فلما قام الشبه من جهتين بين الشرط والإخبار بالذى والألف واللام سلكت اللغة بخبر الذى وأخواتها مسلكها بأجوبة الشرط فلزم اقتران خبر الذى والألف واللام بالفاء فى المواضع التى يقترن فيها جواب الشرط بالفاء أيضا . والمراد فى الحالين أن يتم الربط بين صدر الجملة وعجزها .

وقد يقال شيء قريب من ذلك في جواب «لو» و «لولا» من حيث اقتران جوابهما باللام في مواضع معينة في قولنا «لولا زيد لهلك أخوه» يؤدى حذف اللام من الجواب إلى لبس شبيه بما كان في قوله تعالى : «من عمل صالحا فلنفسه» إذ لو حذفت اللام فأصبحت الجملة «لولا زيد هلك أخوه» لظل السامع ينتظر الجواب ، أى «لحدث كذا» . كأن يقال مثلا : «لولا زيد هلك أخوه ماجزع أو لما جزع» وهكذا اطردت اللام في كل جواب موجب (أى غير مقترن بحرف النفي) . والأمر كذلك بالنسبة إلى اقتران جواب القسم عند الإيجاب باللام أو بإنَّ أو بقد ، وعند السلب بما أو بلا أو بإنْ .

ومن الأدوات الداخلة على الجمل لتربطها بما سبقها واو الحال ، وهى تلزم إذا خلت جملة الحال من وسيلة أخرى للربط كالضمير العائد إلى صاحب الحال وذلك كقولك : «ولد محمد وقد انتهت الحرب العالمية الثانية» أو «جاء خالد والشمس تغرب» . وبذلك تصبح واو الحال هى الرابط الوحيد الذى يربط جملة الحال بماعداها . ورتبة الواو دائما قبل جملة الحال كما أن رتبتهما معا (الواو والجملة) التأخر عما وقعا فى حيزه. ومن الحالات النادرة التى تقدمت فيها جملة الحال المقترنة بالواو عن الحدث الملابس لها مانجده فى قوله تعالى فى سورة هود (٣٨) : «ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه» ، لأن سخريتهم نشأت عن اشتغاله بصناعة الفلك مع جهلهم بسبب اشتغاله بذلك وليس بقربه ماء تسير فيه الفلك .

ومن الروابط مانعرفه باسم الموصول الحرفى وهى الأدوات ذات الاختصاص بالدخول على الجمل لربطها بمحيطها من النص كالحروف المصدرية وهى أنْ وأنَّ وما ولو واللام نحو :

عزم التلميذ على أنْ يجدّ فى المذاكرة .

وقد علم أنَّ الجد سبيله إلى النجاح .

«ودّوا ماعنتّم» .

«ودوا لو تدهن فيدهنون» .

«يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم» .

وقد تلحق بهذه الأدوات أدوات أخرى مثل كى التى للتعليل وإذًا ونحوهما مما لايليه إلا الجمل . وتبدو قيمة هذه الأدوات فى الربط إذا تصورنا الكلام الذى وردت فيه بدونها . فلو حذفناها من الكلام لأصبح الكلام مهلهلا رث المظهر غير مقبول ولادال على المعنى المقصود ؛ إذ لا يأذن الاستعمال العربى بدخول الفعل على الفعل إلا فى حالات خاصة مثل دخول كان وأخواتها وأفعال المقاربة على الخبر عند استتار الاسم أو عند عدم الضمير المستتر كما فى حالة ليس إذ يمكن أن نقول : « ليس يقوم زيد » . فليس فى « ليس » ضمير مستتر كالذى فى قولنا :

إن أباك كان يفعل الخير .

إن صديقك مازال يكن لك الود .

إن قيساً ظل يحب ليلى حتى مات .

إن زيدا أصبح يخشى الفقر حتى صار إلى البخل .

قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف .

بهذا يتضح لنا أن هذه الروابط ذات أهمية تركيبية خاصة فى السياق العربى وأن السياق لايمكن أن يستغنى عنها .

٣ ــ أدوات المفردات :

حين عرّف النحاة الحرف قالوا : « الحرف ما دل على معنى فى غيره » فإذا علمنا أن غير الحرف فى عرفهم إما أن يكون اسما أو فعلًا أصبح تعريفهم للحرف كأنه ينص على أن الحرف ما أفاد معنى فى الاسم أو فى الفعل أو فيهما معا . وإذا تأملنا الاحتمال الثالث وهو أنه يفيد معنى فيهما معا وجدنا خير تعريف للحرف أنه يدل على علاقة بين الاسم والاسم نحو « النظافة من الإيمان » أو بين الاسم والفعل نحو « قاتلوا فى سبيل الله » ؛ أو بين الفعل والفعل نحو « قام فخرج زيد » . والحروف الداخلة على المفردات منها حروف الجر والاستثناء والمعية ، والعطف ... إلخ . فأمّا حرف الجر فهو يفيد علاقة بين مجروره ومتعلقه . فإذا قلنا : « صدق محمد فيما قال » فقد جعلنا الحدث الذى فى « صدق » وهو الصدق مظروفا فى المصدر المؤول من « ما » و « قال » وهو القول وهكذا تتحمل « فى » معنى العلاقة الرابطة بين الصدق والقول وفى قوله تعالى : « واسألوا الله من فضله » كانت وظيفة « من » أن تجعل السؤال

يبدأ غايته من الفصل أو على الأصح ينطبق على بعض الفصل فتكون « من » بالمعنى الأول لابتداء الغاية وبالمعنى الثانى للتبعيض . وإذا قلنا : « إن رأى فلان يصدر عن تجربة » فقد جعلنا لحرف الجر « عن » معنى العلاقة بين المصدر الذى فى « يصدر » وبين التجربة وهذه العلاقة هى علاقة المجاوزة . وهكذا نرى أن الربط بحرف الجر بين المجرور والفعل هو فى الواقع ربط بين المجرور ومعنى الحدث الذى فى الفعل ومن هنا قد يرى البعض أن العلاقة هنا قد تنحل إلى أن تكون علاقة بين اسمين أحدهما المجرور وثانيهما المصدر المفهوم من الفعل . وتتضح ضرورة الربط بحرف الجر بصفة خاصة حينما يكون الفعل الذى يتعلق به الجار والمجرور لازما . فلو وازنا بين قولنا :

« قرأ التلميذ الدرس فى الفصل » وقولنا : « جلس التلميذ فى الفصل » لوجدنا الجار والمجرور فى الحالة الأولى أقل خطرًا فى تركيب الجملة منه فى الحالة الثانية لأنه فى الحالة الأولى بيان للظرفية ولكنه فى الحالة الثانية بيان ظرفية ووسيلة تعدية . ومن ثم نجده يلخص علاقتين فى وقت معًا .

وحرف الاستثناء يدل على علاقة بين اسمين أحدهما مخرج منه والثانى مخرج . أى أن العلاقة التى يعبر عنها حرف الاستثناء هى علاقة الإخراج . فإذا دخل حرف الاستثناء على ما ظاهره الجملة فإن المراد بها هو المفرد لأنها إمَّا أن يتقدمها موصول حرفى يصيرها إلى التأويل بالمصدرية وإما أن تكون فى الأصل جملا حالية ووصفية مستثناة من حال أعم . فالأول نحو قولنا : « ماقصَّر زيد إلا أن يكلف بما لا يطيق » فالتقدير « إلَّا تقصيرا ملابسًا لعدم الطاقة » والثانى نحو « دخلت المسجد الحرام فما وجدت رجلًا إلَّا يصلى أو يطوف » والتقدير « ما وجدت رجلًا إلَّا رجلًا مصليًا أو طائفًا » .

وحرف المعية أو واو المعية تربط بين متلازمين أحدهما مدخولها والثانى معنى المصدر الذى فى الفعل . فإذا قلت : « سر ويمين الطريق » كان المعنى : « ينبغى أن يكون السير ملازمًا ليمين الطريق

ولكن هذه الواو تحت تسمية أُخرى قد تربط بين حدثين فى نحو « لا تأْكل السمك وتشرب اللبن » . فالنهى هنا منصبّ على مصاحبة أحد الحدثين للآخر وإذا صح أن يكون النهى منصبًّا على المصاحبة صح أيضًا أن وظيفة «لا الناهية» منصبة على وظيفة « واو المصاحبة » أى أن النهى متجه إلى إلى فكرة « الربط أو الجمع » بين الحدثين مع تعبير الوار عن هذا الربط .

ويربط حرف العطف بين المتعاطفين مع اختلاف فى المعنى بين حرف وحرف من حيث مطلق المشاركة أو الترتيب أو التراخى والتعقيب ... إلخ . وإذا نظرنا إلى هذا الاختلاف فى المعنى بين حروف العطف وبخاصة عندما يكون معنى الحرف نفى المشاركة كما فى « لا » ؛ و « بل » و « لكن » أدركنا أن فكرة الربط فى السياق تتجاوز فكرة المشاركة ومايتفرع عنها من ترتيب أو تعقيب أو غيرهما . فالربط علاقة أعم من علاقتى الإيجاب والسلب لأنها وسيلة لإحكام الصلة بين عناصر السياق فحسب ومن هنا يصبح معناه تركيبيًّا لا دلاليًّا (سيانتيكيًّا) أما الإيجاب والسلب فأَدنى درجات معناهما أن يكونا من أضرب أساليب الجملة العربية (المثبتة والمنفية) والمعروف أنه لابد من الربط أيًّا كان الأُسلوب النحوى أما أعلى درجات الإيجاب والسلب فتدخل فى الدلالة المعجمية كالذى لاحظه النحاة فى تحليل قول الشاعر : « عافٍ تغيَّر إلَّا النؤىُ والوتدُ » إذ بررواْ النؤى والوتد بأَن الاستثناء فى قوة المنفى الناقص لأَن الفعل « تغيَّر » معناه : « لم يبق على حاله » .

ولا يفوتنا هنا أن بعض مايدخل على المفردات يدخل على الجمل كذلك كشأْن حروف الاستثناء والعطف ، وكواو المعية التى تسمى عند الدخول على الجملة « واو المصاحبة » . فالفرق بين الواوين فرق فى التسمية والاختصاص أما المعنى وأما إعراب مدخولهما فواحد لأَن مابعدهما منصوب سواءٌ أكان اسمًا أو فعلًا .

الترداد :

ومن الربط مايكون بالترداد . والمقصود بالترداد إما المطابقة وإما التكرار . وسنحاول فيما يلى أن نلقى بعض الضوء على كل منهما .

٤ ــ المطابقة :

للمطابقة محاور من المعانى العامة تدرك من خلالها يمكن أن نتبينها من الجدول الآتى :

الشخص	العدد / النوع	مفرد		مثنى		جمع	
		معرفة	نكرة	معرفة	نكرة	معرفة	نكرة
متكلم	مذكر						
	مؤنث						
مخاطب ...	مذكر						
	مؤنث						
غائب	مذكر						
	مؤنث						

وقد يكون الشخص صاحب ضمير تكلم أو خطاب أو غيبة وقد يكون صاحب اسم ظاهر كما قد يكون الحاضر مشاراً إليه ، والغائب موصولاً . وإذا أحصينا المربعات التى حدثت فى الجدول السابق من تقاطع المحاور وجدناها ستة وثلاثين مربعاً فإذا ضربناها فى إمكانات الحضور والغيبة التالية :

الإمكانات

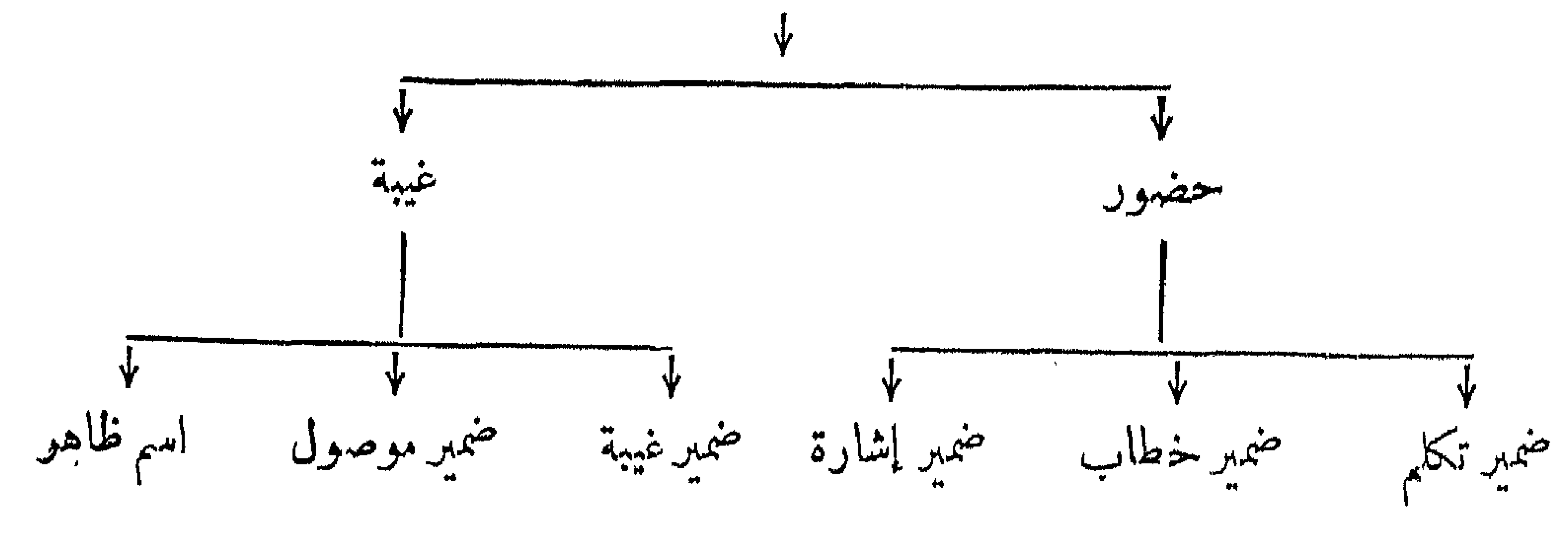

لازداد العدد أضعاف ذلك . على أن ذلك ليس مناط القول فى المطابقة وإنما أردنا بالكلام فيها أن نبين كيف كانت بين ظواهر الربط .

إذا قلنا : « الأخوان التوأمان يتشابهان » لاحظنا فى تركيب العبارة ما يلى :

١ ـ فى الاسم والوصف ألف تثنية وفى الفعل ألف اثنين .

٢ ـ فى الاسم والوصف تذكير وللفعل إسناد إلى مذكر (لاحظ ياء المضارعة) .

٣ ـ لام التعريف التى فى الاسم تقابل « أل » الموصولة التى فى الوصف .

٤ ـ الاسم الظاهر والوصف ناسبهما ابتداء المضارع بياء الغائب .

٥ ـ لمّا كان الاسم مرفوعًا رفع الوصف كذلك .

معنى هذا أن التثنية والتذكير والغيبة قد امتدت على الكلمات الثلاث التى تكونت منها الجملة وأن التعريف والرفع شركة بين الاسم وصفته . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الموصوف وصفته قد تشاركا فى جميع ألقاب المطابقة المعبرة عن محاورها وأنهما فوق ذلك تشاركا فى الإعراب . ما مغزى هذه الشركة ؟ مغزاها أن أحدهما ينتمى إلى الآخر أى أن بينهما ربطًا يجعل أحدهما لا ينفك فى الفهم عن الاخر والدليل على ذلك ما نراه عندما نهدر أى محور من محاور المطابقة التى سبقت منذ قليل . وإليك هذا الإهدار بالترتيب التى أوردنا به هذه المطابقات :

١ ـ الأخ التوأمان يتشابهان

= إهدار التثنية .

٢ ـ الأخوان التوأمان تتشابهان

= إهدار التذكير .

٣ ـ الأخوان توأمان يتشابهان

= تحولت الجملة إلى جملة أخرى غير مرادة .

٤ ـ الأخوان التوأمان تتشابه

= إهدار الغيبة والتثنية .

٥ ـ الأخوان التوأمين يتشابهان

= إهدار الإعراب .

ففى ١ ، ٢ ، ٤ تحولت الجملة إلى لغو كما تحولت فى ٣ إلى معنى آخر وفى ٥ إلى صورة مرفوضة ربما قبلها النحاة تحت

عنوان « قطع النعت » . وإذا أردت أن ترى إهدار كل المطابقات فى وقت معًا فإليك ذلك فى الجملة الآتية (ونأسف لتسميتها جملة) .

الأختان توأمين تتشابه .

هذا هو المقصود باتخاذ المطابقة وسيلة من وسائل الربط .

٥ ـ التكرار :

للتكرار أكثر من صورة واحـدة فقد يكون تكرارًا للفظ وقد يكون تكرارًا للمعنى كما قد يكون تكرارًا لمطلع الجملة لأداء غرض أسلوبى ما . والتكرار إنما يكون للتذكر أو للتعرف الذى كان غرض الأدوات .

(أ) تكرار اللفظ :

إن تكرار اللفظ فيما يبدو هو الأصل فى الربط (من حيث كان التكرار خير وسيلة للتذكير بما سبق) وأنه إذا عدل عنه فإنما يعدل لأحد سببين :

الأول : كراهية الرتابة والإملال الذى يترتب على التكرار بصفة عامة وربما دخل هذا فى قبيل كراهية توالى المثلين أو المتقاربين فى اللغة العربية وتبدو هذه الكراهية فى التحول إلى إدغام المثلين وإدغام المتقاربين والتخلص من التقاء الساكنين وكراهية توالى الواو والياء وسبق إحداهما بالسكون وكراهية توالى النونات فى نحو لتبلوُنّ وتوالى التاءات فى نحو « ولا تنابزوا بالألقاب » ، وكما فى بناء الماضى على السكون نحو ضربْت لكراهية توالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة .

ومعنى ذلك أن الذوق العربى يكره الرتابة والتكرار .

الثانى : استعمال مبدأ « الاختصار » وهو فرع على القاعدة العامة التى عنوانها « طلب الخفة » فكما أن اللغة استعملت علامة التثنية والجمع تجنبًا لتكرار المتعاطفات فقالت : « قائمون » بدلًا من « قائم وقائم وقائم ... إلخ » وقالت : « عربى » فجعلت ياء النسب اختصارًا لعبارة « منسوب إلى ... » وجعل ياء التصغير فى « رجيل » اختصاراً لكلمة « صغير » وهلم جرًّا . كما فعلت العربية ذلك اختصرت التكرار فى الربط فدلت

على المكرر بضمير أو بأل أو إشارة ، أو نحو ذلك .

ولكن قد يدعو داع تركيبي أو أسلوبي إلى تكرار الاسم للوصول إلى الربط . انظر إلى قوله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » (البقرة ٢٨٢) وتصور إحداث الربط في الآية بواسطة غير التكرار نحو : واتقوا الله وهو يعلمكم فإن ما بعد الواو سيكون أقرب إلى معنى جملة الحال وذلك غير مراد لأن المراد معنى يقرب من معنى الشرط وانظر إلى قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاءُ وتنزع الملك ممن تشاءُ وتعز من تشاءُ وتذل من تشاءُ » (آل عمران ٢٦) ، فلو تصورنا أن الذى آتاه الله الملك هو « ا » وأن الذى نزع منه الملك هو « ب » وتصورنا الربط بالضمير فقلنا : تؤتى الملك من تشاءُ وتنزع الملك منه ما كان ذلك هو المقصود . ولأن الملك الثانى غير الأول ، فلا يجوز أن يكون النص : تؤتى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وليس مطابقًا للمقصود أيضًا أن يقال : وتعز من تشاءُ وتذله : ومن هنا كان الربط بالتكرار (أى تكرار اللفظ) أمرا لا عوض عنه .

انظر أيضًا إلى قوله تعالى : « فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد » (الفجر ٢٥ ، ٢٦) . فالمعروف أن لفظ « أحد » في الحالتين نكرة واقعة فى سياق النفى وأن وضع النكرة هذا الموضع يجعلها مفيدة للعموم . فلو تصورنا فى مكان « أحد » الثانية ضميرًا لما أجزأ فى الإفادة بالدلالة على معنى العموم وهو المقصود . وفى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم » (الحجرات ١٢) لو تصورنا الضمير فى موضع « الظن » الثانى لاحتمل الضمير العود إلى « كثير » كما احتمل العود إلى « الظن » وهذا لبس يتنزه عنه القرآن .

(ب) تكرار المعنى :

إنما يكون تكرار المعنى مع إجمال الأول وتفصيل الثانى فإذا قلت مثلًا : « عقيدتى لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله » فإن العقيدة مجملة تشمل مدلول هذه العبارة كما تشمل أن محمدًا رسول الله ، وأن هناك بعثا وحسابًا وجنة أو نارًا ... إلخ . وأما جملة « لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله »

فهى من تفصيل الأول ومن ثم كان المعنى مكررًا .

وليس يطعن فى كون الثانى عين الأول أنه أخص منه لأن الغرض الأسلوبى انتقاد من بين سائر مايصدق عليه أنه عقيدة وأعطاه من الاهتمام ماجعله مساويًا للأول فى القصد . وكذلك قولك : فلسفتى فى لحياة أطرق الحديد وهوساخن أو شعارى :

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم .

ومن ذلك قوله تعالى : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » (يونس ١٠) ففى هذه الآية الكريمة ثلاث جمل يقوم الربط فى كل واحدة على تكرار المعنى وهذه الجمل هى :

١ - « دعواهم فيها
سبحانك اللهم » .

٢ - « وتحيتهم فيها
سلام » .

٣ - « وآخر دعواهم
أن الحمد لله رب العالمين » .

ولايضر مع ذلك أن بدىء الخبر فى الجملة الأخيرة بأن المخففة من الثقيلة التى لايذكر اسمها معها لكونه ضميرا مستترا والتى تحل مع مابعدها محل المصدر (أى تؤول مع مابعدها بالمصدر).

ج) تكرار المطلع :

وتكرار المطلع وسيلة أسلوبية إما للتأكيد وإما للتذكير (راجع الكلام عن التعرف والتذكر فى أول هذا البحث) وهو إما أن يكون بتكرار اللفظ كما هو أو مع تعديل طفيف أو يكون إشارة إلى المطلع أو وصفا له كما يبدو من الشواهد الآتية :

١ - من التكرار للتأكيد قوله تعالى :

* « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون » (الروم ١٤) .

* « ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون » (الجاثية ٢٧) .

* « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » (النور ٢٤ ، ٢٥) .

* « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلًا . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يومًا على الكافرين عسيرًا » .
(الفرقان ٢٥ ، ٢٦)

٢ ـ ومن التكرار للتذكير بعد طول المطلع قوله تعالى :

* « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

(البقرة ٨٩)

* « ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد » (البقرة ٢٥٣) .

* « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » (آل عمران ١٨٨)

* « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » (النحل ١١٠) .

* « ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

(النحل ١١٩)

٣ ـ ومن الإشارة إلى المطلع دون تكرار له قوله تعالى :

* « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

(يونس ٥٨)

وهو من قبيل التوكيد لا التذكير .

٤ ـ ومن التكرار مع تعديل طفيف قوله تعالى :

* « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » (النحل ١٠٦) .

* « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ... (النور ٣٦ ، ٣٧) .

وهذا الشاهد الأخير أولى أن يكون من قبيل التأكيد .

٥ ـ ومن التكرار بواسطة وصف المطلع قوله تعالى :

* « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق

وقولهم قلوبنا غلف (بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلًا) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلّا اتباع الظن وما قتلوه يقينًا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا وإنْ من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا) فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ... » (النساء ١٥٥ – ١٦٠).

فقد وصف النقض والكفر والقتل ، وما تكرر من القول فجعل كل أولئك ظلمًا وجعل الظلم تلخيصًا لما تقدم وتكرارًا له للتذكير به . هذا وقد اشتملت الآية على جمل معترضة وضعناها بين الأقواس وكان الاعتراض بهذه الجمل ردًّا على دعويين من دعاوى اليهود :

الأولى : أن قلوبهم غلف فكان الرد بالجملة المعترضة شرحًا لسوء حالة قلوبهم.

الثانية : أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله فكان الرد تكذيبًا لهم وبيانًا لما حدث ولشكوكهم حتى في دعاوى أنفسهم وتأكيدًا أنهم لم يقتلوه أبدًا ويقينًا أن ذلك لم يحدث منهم . جاء كل ذلك في صورة اعتراض جعل المسافة بين الجار والمجرور (بما نقضهم) وما عطف عليه وبين المتعلق مسافة طويلة تدعو إلى التذكير بالمطلع بواسطة تكراره بالوصف .

الاحالة :

الفرق بين الإحالة وتكرار المعنى أن تكرار المعنى يكون من خلال جملة ملفوظة كلها أو مقدر بعضها وقد اجتمعت الصورتان في قوله تعالى : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام » لأن خبر الدعوى جملة ملفوظة وخبر التحية جملة حذف أحد ركنيها .

أما الإحالة فمعظم صورها من قبيل مبدأ « الاختصار » حيث هي عود الضمير إلى مرجع أو إشارة إلى ذلك المرجع أو وصف له

تعود على السائلين كما تصلح أن تعود على الإخوة ولو لم يكن هناك ما يرجح عودها على أحد المرجعين لقيل « إذ قال إخوته . . . » ولكن فى الآية عنصرا آخر يدل على أن القائلين هم الإخوة لأنهم قالوا « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا » فهذا الأب ليس أبا السائلين الذى سألوا النبى صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا بحكم المنطق معاصرين للنبى محمد عليه الصلاة والسلام فلا يمكن أن يكون الأب أباهم لأن بينه وبينهم عشرات القرون على الأقل . وبذلك أمن اللبس وعرف أن الأب أبو الإخوة فرجع الضمير إليهم وهم الأبعدون .

٢ ـ الاشارة الى المرجع :

حين قسمت الكلم تقسيما جديدا فى كتاب « اللغة العربية معناها ومبناها » ضممت ضمائر الأشخاص والإشارات والموصولات تحت قسم واحد اسمه « الضمير » اعتمادا على قول ابن مالك فى تعريف الضمير :

وما لذى غيبة أو حضور
كأنت وهو سم بالضمير

فجعلت الدلالة على الغيبة دلالة « هو » و « الذى » وفروعهما وجعلت الدلالة على الحضور معنى « أنا » و « أنت » و « هذا » وفروعها .

ولو أن النحاة الأقدمين رأوا رأيى فى هذه الضمائر لكشفوا عن ظواهر ندت عنهم كظاهرة الربط بالموصول مثلا وهى التى سنوردها بعد قليل تحت رقم ٣ ولأدركوا سر اتخاذ الإشارة رابطا وقد اعترفوا له بوظيفة الربط فليس القول بالربط باسم الإشارة جديدا وقد مثلوا له بقوله تعالى : « ولباس التقوى ذلك خير » (الأعراف ٢٦) وذلك فى قوة قولك : « هو خير » إذ تحكم للضمير « هو » بأنه ضمير فصل إن كان لا محل له من الإعراب فلا سبيل إلى إنكار قيمته فى الربط ولا فى التأكيد. ويغرينى هذا الموضع بشىء من الاستطراد أعتذر له مقدماً؛ ذلك أن المفسرين فيما أعلمه قد فسروا لفظ « لباس التقوى » بملابس التقوى ولست أدرى إن كان للتقوى ملابس خاصة بها والأمر فى رأيى يمكن أن يخضع للقواعد الصرفية

إذ من المعلوم أن صيغة الماضي « فَاعَلَ » لها مصدران كما يقول ابن مالك :

لفاعل الفِعال والمفاعلة

وغير مامر السماع عاد له

فالفعل « لابس » له مصدران أحدهما « اللباس » والثاني « الملابسة » وبذلك يكون تفسير الآية والله أعلم « وملابسة التقوى خير » .

أما استعمال لفظ « لباس » دون كلمة « ملابسة » فإذا نظرنا إليه من الناحية البلاغية والأسلوبية فإن ذهبنا به مذهب المفسرين فإنه يصبح من قبيل المشاكلة ومثل ذلك ما في قوله تعالى : « وجزاءُ سيئة سيئة مثلها » (الشورى ٤٠) إذ أطلق لفظ « سيئة » وقصد «العقاب» للمشاكلة اللفظية .

أما إذا ذهبنا به المذهب الآخر الذي يجعل اللباس مصدراً فإنه يصبح من قبيل الجناس وهو أوضح المعنيين . وفي القرآن الكريم شواهد أخرى على الربط بالإشارة نذكر منها :

* « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » (الشورى ٤٣) .

* « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار » (البقرة ٣٩) .

* « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة » (البقرة ٨٢) .

* « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار »(الأعراف ٣٦) .

* « والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم » (الحج ٥١)

* « وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب » (ص ١٣) .

* « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة » (البلد ١٧ - ١٨) .

٣ - الربط بالموصول :

لم يشر أحد من قبل إلى هذا النوع من الربط وإن سبقت الإشارة إليه بفهم آخر تحت عنوان « الإظهار في مكان الإضمار » فالملحظ الذي لحظه البلاغيون

وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » (البقرة ٢٤ – ٢٦)فالمعنى فأزلهما هو أى إبليس الذى سبق ذكره .

ومن هذا القبيل أيضاً :

* « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » (النساء ٧٦) أى فقاتلوهم .

* « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » (التوبة ١٢) أى فقاتلوهم .

* « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » (التوبة ١٤) أى ويشف صدوركم .

رابعا : خاتمة :

يمكن أن نلخص نتائج هذا البحث أى النقط المبتكرة فيه على النحو التالى :

١ – أن للربط جانباً سيكولوجيا يوثق صلته بنوعين من أنواع النشاط العقلى هما التعرف والتذكر .

٢ – أن للربط اتجاهى تطبيق أحدهما تركيبى نحوى والآخر أسلوبى بلاغى .

٣ – أنه يبدو أن الأصل فى الربط أن يكون بتكرار اللفظ وأن العدول عن ذلك إلى الربط بالإحالة جاء نتيجة تطبيق مبدأ الاختصار الذى هو فرع على مبدأ طلب الخفة .

٤ – أن النحاة عرفوا الربط بالأداة والربط بالمطابقة والربط بتكرار اللفظ والمعنى والربط بالإشارة وأل ولكنهم غفلوا عن الربط بالوسائل الآتية :

(أ) الربط بتكرار المطلع لأن طول المطلع قد يشتمل على أكثر من جملة واحدة والبحث النحوى لا يتعدى الجملة الواحدة إلا فى حالات محدودة كعطف الجمل مثلا .

(ب) الربط بالموصول وإن اعترف البلاغيون بهذه الظاهرة تحت عنوان آخر هو « الإظهار فى موضوع الإضمار » .

(ج) الربط بالوصف وقد غفل عنه الفريقان النحوى والبلاغى .

٥ ـ أن الإضمار لايتم إلا مع المطابقة في اللفظ والقصد وأن هذه الفكرة مأخوذة عن التوليديين فلا تعتبر من ابتكار هذا البحث وإن كان للبحث فضل تطبيقها على اللغة العربية لأول مرة .

أرجو أن يكون هذا البحث قد ألقى بعض الضوء على هذه الظاهرة الهامة من ظواهر التركيب والأسلوب العربي .

والله سبحانه ولي التوفيق ومنه العون .

تمام حسـان
عضو المجمع

فى التركيب اللغوى (*)

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

(٤)

تراكيب بين القبول والرفض

أولاً :

أشار سيبويه إلى بعض التراكيب القبلية غير الصحيحة نحوياً ، وحكم عليها بأنها قليلة أو خطأ أو قبيحة ، أو قليلة خبيثة ، فيقول بعد عرضه لبعض التراكيب " وهذا بعيد لا تكلّم به العرب ولا يستعمله منهم ناس كثير " (١) وقوله معلقاً على بعض التراكيب " أعلم أن ناساً من العرب يغلطون فيقولون : إنهم أجمعون ذاهبون (٢) ... " وكان سيبويه يرى أنه من الضرورى تحكيم سنن العرب فى كلامها حين النظر إلى اللغة ، كما كان يجوّز التركيب الواحد فى لهجة دون لهجة أخرى (٣) ، وفى عرضه التراكيب يهدم بالسماع عن الخليل ويونس ، ثم يعرض ما سمعه على كلام العرب ، ومن ذلك قوله : ليس فى الدنيا عربى يرفع (٤) ... أو قوله : ولا يكاد عربى يقول (٥) ... أو قوله : وليس كل العرب تتكلم بها (٦) ، " وليس كل العرب تعرف هذا (٧) " ، أو قوله : ولم نسمع عربياً يقوله (٨) " .

وأرى أن سيبويه عندما رفض بعض هذه التراكيب كان ينظر إليها من مستوى الفصحى ، لكن لو نظر إليها من

---

(١) الكتاب ٢ / ٤١١ ط : هارون .

(٢) ٢ / ١٥٥ وانظر : التراكيب غير الصحيحة نحوياً فى الكتاب د . محمود ياقوت . دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية .

(٣) الكتاب ٢ / ٣١٧ ط : هارون . (٤) الكتاب ٣ / ٢١ هارون (٥) الكتاب ٢ / ٤٠٠ هارون .

(٦) الكتاب ١ / ٤٧٤ بولاق . (٧) الكتاب ٢ / ١٠٣ بولاق .

(٨) انظر : فهارس سيبويه ٦٣ فما بعدها للشيخ عضيمة .

(*) نشر القسم الأول فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة . الجزء ٧٢ من ذى الحجة ١٤١٣ هـ – مايو ١٩٩٣ .

«مستوى لغات العرب» فلا يصح أن يحكم بخطئها ، وكان هدف سيبويه وغيره التقنين لفصحى ، كما أن الحكم على هذا التركيب بالخطأ وغيره أنها لم ترتق عندهم إلى درجة اللهجات القوية فى الجزيرة العربية حتى تثبِّت أقدامها جنباً إلى جنب مع اللهجات القوية للقبائل المشهورة .

وأحياناً كثيرة يقبل التراكيب كقوله : سمعنا العرب الفصحاء ، سمعت رجلاً من أهل البادية ، قال قوم ترضى عربيتهم ، سمعنا ناساً من العرب (١) .

وقد مال سيبويه حين تكلم عن الخلاف النحوى فى بعض التراكيب بين الحجاز وتميم إلى أن التميمية أقيس الوجهين (٢) وقد تابعه فى ذلك طائفة من اللغويين (٣).

أما ابن جنى فيقول : " ألا ترى أن لغة التميميين فى ترك إعمال « ما » يقبلها القياس ،ولغة الحجازيين فى إعمالها – كذلك – لأن لكل واحد من القومين ضرباً من القياس يؤخذ به ، ويخلد إلى مثله ، وليس لك أن ترد إحدى اللغتين لصاحبتها ، لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها ، لكن غاية مالك فى هذا أن تتخيرإحداهما فتقدمها على أختها ، وتعتقد أن أقوى القياسين ، أقبل لها وأشد أنسابها فأما ردّ إحداهما بالأخرى فلا " (٤) .فابن جنى يرى أن كل اللغات حجة ، مهما اختلفت ، وإذا تكلم إنسان على قياس لغة منهما أصاب ولم يخطىء ،ويرى أبو حيان الأندلسى : أن كل لغة منها يقاس عليها (٥) ، ويقول أبو عثمان المازنى " ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم"(٦) ومع ذلك ، فهناك لغة أقوى قياساً ، وهناك لغة أضعف قياساً يقول ابن جنى:

---

(١) انظر : فهارس كتاب سيبويه للشيخ عضيمة .
(٢) الكتاب ١ / ٤٠٣ و ٢٨ ط . بولاق .
(٣) الخصائص ١ / ١٢٥ و ١٦٧ وابن يعيش : شرح المفصل ١٣٢ فما بعدها .
(٤) الخصائص ٢ / ١٠ .
(٥) المزهر : ١ / ٢٥٨ .
(٦) المنصف : ١ / ١٨٢ .

فأما أن تقل إحداهما وتكثر الأخرى – جداً فإنك تأخذ بأوسعهما رواية، وأقواهما قياساً (١). فلغات القبائل يمكن القياس عليها جميعاً وبناء الأحكام على نصوصها، غير أن هناك لغة أجود فى القياس من لغة، وأفصح فى الاستعمال، وأشيع فى القبائل.

ولهذا لا يكاد يختلف االتركيب فى القبائل عنه فى اللغات العربية الأخرى، إلا فى نزر يسير، لأن ظواهر التركيب فيها أقل الظواهر اللغوية تطوراً وتغيراً. فالتراكيب فى لغات القبائل متقاربة من «حيث أنماطها وأشكالها». ويقول ابن جنى فى معنى ذلك " ومع هذا فليس شىء مما يختلفون فيه – على قلته وخفته – إلا له من القياس وجه يؤخذ به، ولو كانت هذه اللغة حشواً مكيلاً، وحشواً مهيلاً لكثر خلافها وتعادت أوصافها(٢) ". بل من الصعب أن نحكم على تركيب ما بالخطأ، لأن المعاجم ربما أغفلت هذا التركيب والنص عليه، رغم وروده فى كلام عربى أو فى لهجة قبيلة عربية، أو قد نجد له وجهاً فى العربية يخرّج عليه.

والدكتور تمام يلفت النظر إلى حقيقة منهجية يتضمنها موقف النحو العربى من التصويب والتخطئة، فيشير إلى الصواب والخطأ فى عرف النحاة لا ينبغى أن يفهما على إطلاقهما، ولا أن يتم الانتقال من الحكم بأحداهما إلى الحكم بالآخر فجأة، ولا أن يفصل بينهما خط مستقيم على أحد جانبيه الصواب وعلى الآخر الخطأ، ذلك أن موقف النحو العربى من ذلك يبدو من حيث التداخل فى الفهم كألوان الطيف، لا يدرى المرء أين يبدأ لون منها وأين ينتهى، وربما تعارض اللونان منها، وربما أبطل لون أثر لون، بل ربماوقف البصر عند نقطة بين لونين فلا يدرى أينسبها إلى هذا اللون أو ذاك، ومرجع هذا كله إلى طبيعة البناء النظرى لنظام النحو العربى، ففيه أصول مجردة

---

(١) الخصائص : ٢ / ١٠ .

(٢) الخصائص : ١ / ٢٤٣ فما بعدها .

هى دائمــاً نقطة البــداية فى التــحليل ، سواء منها ما كـان أصل وضع وما كان أصل قـاعـدة ، وإذا كـانت هذه الأصــول النظرية بحكم مفارقتها للاستعمال تتسم بالاطراد التام ، فإن الاستعمال لا يمكن أن يستقيم على سمتها ، ومن هنا يأتى الاستثناء من الأصول حيناً والاستدراك عليه حيناً آخر ، ليكون من هذا وذاك قواعد فرعية تتسم بالعدول عن الأصل ، فتنشأ بها درجة من درجات الصواب لا تتفق مع أصول اللغة ، فتكون هذه الدرجة كلون جديد من ألوان الطيف ، يختلف عما جاوره ويتداخل معه " (١) .

ومن هنا يمكن أن يباح الترخص فى تركيب بعض القبائل العربية التى اختلفت مع الفصحى والعرف الشائع فى التراث، كما أن لها مستوى يختلف عن مستوى الفصحى ، وقد ورد الترخص عن العرب فى استعمالها اللغوى فهو إذن درجة من درجات الصواب ، وما دام كذلك فلا يصح أن يوصف بالخطأ لأن المترخص صاحب لغة ، وإذا كان بعض النحاة قد رمى بعض تراكيب القبائل بالندرة والقلة والشذوذ ، فلا يعنى هذا أن التركيب غير فصيح ، وذلك استناداً على أصل شامل من أصول النحاة أنفسهم حين يقررون ← أن " الشذوذ لا ينافى الفصاحة " (٢) فلم يعد مقبولاً الآن أن نخطىء التراكيب القبلية اللغوية التى جرت على ألسنة القبائل ، لمجرد مخالفتها للغة المشهورة ، فكل ما يشيع من وجوه التراكيب يكفى فى قبوله أن نجد شاهداً أو نجد له تخريجاً وإن كان مرجوحاً ، ومن الخطأ أن يخطىء النحاة أصحاب اللغة ، ولو كان كلام أهل هذه اللغة خارجاً عن القياس ، فالقواعد النحوية لاحقة للنص لا سابقة عليه ، يقول ابن ولّاد : " الذى للنحوى أن يفعله أن يمثل ويعتلّ لما جاء عن العرب فأما أن يردّه فليس ذلك له (٣)" ويقول أيضاً " لابد من متابعتهم « أى العرب » إذا كان « النحوى » يريد التكلم

---

(١) بحوث لغوية وأدبية ٨ فما بعدها و ٢١ فما بعدها ، معهد اللغة العربية بجامعة أم القرى .

(٢) الأصول : ٢٢٤ د . تمام ، ط. الدار البيضاء .

(٣) الانتصار لابن ولاد : ١٢٠ فما بعدها .

بلغتهم دون ما يطرد لنا ويحسن من مقاييسنا (١) قال أبو منصور الحمشاذى ليس لأحد منا أن يعيب على الآخر فيما هو خلاف لغته ، كذلك لغات العرب فى اختلافها " (٢) .

كما أن التراكيب الشاذة عند الغرب ليست منبوذة ، بل هى صيغ قوية بقيت خارج القاعدة ولم تستسلم لقوة القياس ، بل فرضت نفسها بخصائصها الفردية ، وهى وإن شذت بالمفهوم الصحيح ، إلا أنها تحفظ ولا يقاس عليها ، على أن قبول التراكيب أو رفضها يخضع للمستوى الصوابى فهو الذى يقوم على أساسه الحكم بالصحة والخطأ ، وسبب الاختلاف بين اللغويين فيما يجوز من التراكيب ومالا يجوز يعود سببه إلى تحديد المستوى الصوابى ، فالأصمعى كان يقول أفصح اللغات ويلغى ما سواها . ،أما أبو زيد فيجعل الشاذ والفصيح واحداً فيجيز كل شىء قيل ، كما كان يتسع فى اللغات (٣) ، وقد كان البصريون لايقيسون إلا على المشهور الشائع ، أما النادر فلا يقاس عليه ، والكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شىء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه(٤) ، وهكذا لم يتفق كثير من اللغويين على مقياس محدد يقوم على أساسه الحكم بالصحة أو الخطأ ، فمنهم من سلك مسلكاً متشدداً بالوقوف على ما سمع ، وعدم الاعتراف إلا بالأفصح ، ومنهم من يرى أن من يتكلم بلهجة من لهجات العرب ، أو يقيس عليها ،ولو كانت نادرة أو رديئة فهو مصيب غير مخطىء(٥).

فمقياس الصواب والخطأ مختلف عند المتشددين وعند المتساهلين كما أن

(١) الانتصار : ٣٢٧ فما بعدها .
(٢) الرد على الانتقاد على الشافعى فى اللغة ٦٠ للبيهقى ، تحقيق ، د. عبد الكريم بكار . ط. بريدة / السعودية .
(٣) انظر : المزهر ١ / ٢٣٣ وطبقات النحويين واللغويين ١٨٢ للزبيدى .
(٤) الاقتراح ٨٤ ط حيدر آباد .
(٥) لحن العامة ٤٧ د. عبد العزيز مطر .

القدماء ربطوا الصواب والخطأ بفكرة البداوة والحضارة ، وطالعونا بقوائم القبائل التى يؤخذ عنها ، والتى لا يؤخذ عنها ، وحين جاءوا إلى تطبيق هذه الأسس كانت لهم مواقف غريبة مثل : تخطئة بعض القراءات التى لم تتفق مع قواعدهم ، وتخطئة بعض الشعراء الذين عاشوا فى عصور الاستشهاد ، وأخيراً إجازتهم فى العربية ماليس منها اعتماداً على القياس النظرى الذى لا تسنده مادة لغوية أو استقراء .

والحق أن مقاييس الصواب والخطأ مقاييس متغيرة متجددة ، فما هو خطأ اليوم قد يكون صواباً غداً والعكس صحيح ، فمجمع اللغة فى القاهرة قد أقر كثيراً من التراكيب والألفاظ فأصبح صواباً ما كان بالأمس خطأ ، وكثير من الأساليب الخاطئة قد تحقق لها النصر إذا بدأ فى استعمالها عالم مرموق ، أو ممن لهم مكانتهم الاجتماعية والثقافية ، بل إن كثيراً من الاستعمالات والتراكيب الخاطئة دخلت اللغة عن طريق القياس الخاطىء ، ويشفع لها أنها انحراف نحو منطقة نفوذ الكثرة وتحوّل إلى اتجاه جديد (١) ، ولابد فى الصواب والخطأ من ربطهما بالعرف اللغوى للجماعة اللغوية ، فلا يصح أن نتكلم عن الصواب والخطأ دون أن نربطها بالمستوى الكلامى الذى ينتمى إليه المتكلم ، وما يروى عن الشيخ حمزة فتح اله حين غادر قطار السكة الحديدية نادى أحد المكارين قائلاً له : يا مكارىّ ! إيتنى بحمارٍ جَمَزَىَ ! فلم يفهم الرجل مراده ، وتركه وانصرف ، وهنا حلّتْ العقوبة بالشيخ حين هرول إلى داره ماشياً قائلاً :

مشيناها خطاً كُتبتْ علينا
ومَنْ كُتبتْ عليه خطاً مشاها

فالشيخ قد جانب الصواب اللغوى بهذا المقياس ، وإن كان قد تكلم باللغة الفصحى لأن المستوى الصوابى معيار لغوى يرضى عن الصواب ويرفض الخطأ فى الاستعمال فى ظل مقياس اجتماعى

(١) محاضرات فى علم اللغة ١٢٩ ، د. أحمد مختار ١٩٦٨ .

يفرضه المجتمع اللغوى على الأفراد ويرجع الأفراد إليه عند الاحتكام فى الاستعمال (١) .

على أن الأخطاء اللغوية تفيدنا كثيراً عند دراستها ، لأن بعضها يصور لهجات قبلية ، فقد رمى الإمام الشافعى بالخروج عن استعمال العربية الفصحى فى بعض التراكيب ، وغاب عن ناقديه أن الفصاحة ليست على درجة واحدة ، فمنها ما هو خلاف بين العرب أنفسهم ، فاستعمل الشافعى لغة وعدل عن الأخرى وأحياناً يستعمل اللغتين معاً ، كما عيب عليه أشياء لغوية لأنها لم ترد فى كتاب العين للخليل بن أحمد ، ظناً منهم أن ما لم يذكره الخليل ليس من لغة العرب ، كما استعمل الشافعى لغات قليلة ولما كانت أصول العربية مرنة ولهجاتها مختلفة ، فقد سمح للشافعى أن يتنقل فى استعماله بين الفصيح والأفصح والكثير والقليل والغالب والنادر ، وإذ كنا وجدنا مَن يعترض على بعض استعمالات الشافعى اللغوية فإننا وجدنا كثيراً مَنْ دافع عن لغة الشافعى مؤيداً دفاعه بأقوال أئمة العربية وعلمائها ، واللغة لاشك أدقّ من قواعدها والذوق أصدق من أجروميتها ، واللغة أولا وأخيراً هى أوسع من معجماتها ، ولا تعدو المسألة فى النهاية أن يكون الشافعى قد استعمل لغة قومه فى الحجاز وهى فى بعض استعمالاتها مخالفة لما عليه الجمهور أحياناً ، فالشافعى مصيب ، لأنه صور لغته ، والمغلِّط غالط . وممن رد على منتقدى الإمام فى مسائل العربية الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى (٢) .

وقد غاب على المنتقدين للشافعى فى لغته : أنه أقام فى بطون العرب عشرين سنة يأخذ أشعارها ولغاتها ، ولزم هذيلاً وهى من أفصح العرب فتعلم كلامها ولغتها ، وأصبح كلامه حجة فى اللغة كما يقول ابن حنبل ، ويقول الأصمعى : صححت أشعار الهذليين على شاب من

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ٦٧ ، د. تمام حسان .

(٢) وذلك فى كتاب « الرد على الانتقاد على الشافعى فى اللغة » تحقيق د. عبد الكريم بكار ط : بريدة . السعودية .

قريش يقال له : محمد بن إدريس ، وقال غلام ثعلب : سمعت ثعلبا يقول : إنما توحّد الشافعي باللغة لأنه من أهلها ، وإذا كانت هذه نشأة الشافعى بين أقحاح العرب هى التى جعلته من أفصح العرب بياناً وأنداهم لساناً ، أفيصح أن يجعل قول مَن هو دون الشافعى حجة عليه (١) ! ؟ وإذا نظرنا إلى الشريعة وعلاقتها باللغة معروفة – عرفنا أن كل ما ليس قطعياً من الأحكام هو أمر قابل للاجتهاد ، وإذا كان يقبل الاجتهاد فهو يقبل الاختلاف ، وقد روى عن الشافعى قوله : " رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، وهذا الاحتمال من الجانبين – احتمال الخطأ فى رأى المجتهد واحتمال الصواب فى رأى غيره – هو الذى يقرب المسافة بين الطرفين ، وهذا من إنصاف الشافعى وسعة علمه ورحابة أفقه ، ومن هنا يمكن أن نقول : بإمكان تعدد الصواب . لكن ابن جنى له مقولة أخرى حين يرى " أن العربى الخالص لا يجرى على لسانه لحْنٌ وكل ما تسمع منه فهو اللغة العربية ... فلا يخطأ واللغة ما نطق به " (٢) والحكم بالخطأ أو اللحن فى الإعراب أو التركيب لابد أن يسبق بمعرفة تامة بلغات العرب ، فأغلب ما نسب إلى الخطأ وجد له نظير من لغات العرب ، أو سند من قواعد بعض النحاة ، وكثير من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين يرجع إلى أن أحد الفريقين إنما يعتمد فى رأيه على لغة من لغات العرب لم يعتمدها الفريق الآخر، فمن ذلك :

١) التعجب من البياض والسواد دون غيرهما من الألوان والخلاف فى ذلك بين البصريين والكوفيين(٣).

٢) تقديم حرف الاستثناء فى أوّل الكلام (٤) .

---

(١) انظر : المصدر السابق « مقدمة المحقق » .

(٢) انظر : المفضل فى شرح أبيات المفصل ٣٣٣ للسيد بدر الدين الحلبى .

(٣) الخلاف بين النحويين ٢٥٢ د. السيد رزق الطويل ، الفيصلية ، مكة ، ط. أولى .

(٤) المرجع السابق ٢٦٠ .

٣) إهمال « أنْ » مع استحقاقها العمل – لهجة عربية ، ورأى المدرستين (١) .

٤) فى نداء الاسم المحلى بأل ، والخلاف فى ذلك بين البصريين والكوفيين (٢) .

٥) حذف « أن » فى خبر عسى ، من الضرورات عند البصريين وكلام سيبويه جوازه (٣) فى الكلام .

٦) إلغاء « كان وظن » مع التقدم ، فقد نقل عن الكسائى أن « كان » ملغاة ولا عمل لها ، ووافقه ابن الطراوة .

٧) كما أن ابن الطراوة أجاز حذف الجار إذا تعين وأجاز : بريت (٤) القلمَ السكينَ .

٨» كما أجاز ابن الطراوة تعريف التمييز (٥) .

٩) كما أجاز ابن الطراوة نصب الجزأين بعد : إن وأخواتها ، بل جعله مقيساً (٦) .

١٠) ومنع نصب المفعولين متقدمين فى باب « ظننت » ولا مفر من رفعهما على الابتداء والخبر وإلغاء العامل . ويقابل آراء ابن الطراوة أخرى معارضة (٧) .

١١) قال الأزهرى : وخطأ بعضهم قول من يقول : فلان يستأهل أن يكرم أو يهان ، بمعنى يستحق وأضاف " أما أنا فلا أنكره ولا أخطيء من قاله ، لأننى سمعت أعرابياً فصيحاً من بنى أسد يقول لرجل شكر عنده يداً أُولِيَها: تستأهل يا أبا حازم ما أوليت ، وحضر ذلك جماعة من الأعراب فما أنكروا قوله " (٨) . وما يزال

---

١) المرجع السابق ٣٣٧ . (٢) المرجع السابق ٢٦٤ (٣) المرجع السابق ٣٦٠ .

(٤) أبو الحسين بن الطراوة ٩٠ د. محمد البنا . ط. دار الاعتصام . ط. الأولى – القاهرة .

(٥) المرجع السابق ٩٣

(٦) المرجع السابق ٩٧

(٧) التهذيب ٦ / ٤١٨ « أهل » ، اللسان ١١ / ٣٠ « أهل » ط. بيروت .

(٨) العربية الصحيحة ١٥٦

هذا التركيب يعيش فى اللهجات المعاصرة المصرية والعراقية وغيرها مع تسهيل الهمزة وكسر حرف المضارعة .

١٢) منع بعضهم تركيب « هب أنى فعلت كذا » والصواب صحته وسمع ولا مانع منه قياساً واستعمالاً ، والدليل : ما روى فى الحديث من مسائل الميراث المسماه «الحجرية أو الحمارية»[1] فقد اعترض أحدهم على عمر بن الخطاب لعدم توريثه من أبيه بقوله : هب أن أبانا كان حماراً، هب أن أبانا كان حجراً.

وفى العصر الحديث يذهب مجمع اللغة المصرى إلى التيسير والترخص والأخذ ببعض الآراء المرجوحة ، والاعتماد على بعض اللهجات القديمة لتجويز ما منعه النحاة أو توسيع ما ضيقوه ، ومن قراراته فى النحو والتركيب :

(أ) يجوز أن يقال : عطشانة وغضبانة وأشباهها ، ومن ثم يصرف (فعلان) وصفا ، ويجمع على (فعلان) ومؤنثه (فعلانة) جمعى تصحيح ، فيقال : سكرانون وسكرانات . وقد اعتمد المجمع فى إجازته على تأنيث (فعلان) لبنى أسد [2] .

(ب) قياسية النعت بالمصدر ، وكان النحاة يذهبون إلى أنه – مع كثرته – مقصور على السماع[2]

(ج) يجيز المجمع ما يجرى على الألسنة من حذف (ابن) من الأعلام المتتابعة مثل (سافر محمد على حسن) وتضبط على أحد وجهين :

١ – يعرب الأول بحسب موقعه ويجر ما يليه بالإضافة .

(١) فى أصول اللغة ١ / ٨٠ مجمع اللغة العربية . القاهرة .

(٢) فى أصول اللغة ٢ / ١٦٠ .

٢ – تسكن الأعلام كلها إجراء للوصل مجرى الوقف[١] .

ومن خلال ما سبق نرى تطور التراكيب من القديم إلى الحديث وفى أثناء مسيرتها نرى بناء الجملة العربية يشتمل على ظواهر لاتكاد توجد فى الضوابط التى استخرجها النحاة من لغة القرون الأولى ، بل نجد ظواهر شائعة فى النثر العربى الحديث لايكاد يعرفها الاستخدام القديم ، مما يؤكد تطور هذه التراكيب عبر القرون [٢] .

ثانيـــا :

ويجب أن نشير هنا إلى تعدد الوجوه الإعرابية فى التركيب ، وسنجد أنماطا منه كثيرة فى الحديث عن لهجات القبائل على مستوى النحو والتركيب ، وتعدد الأوجه الإعرابية يستمد صحته من جهل بالموقف اللغوى ، وقد كان بعض النحاة يحاولون بتوجيهاتهم المختلفة أن يقدموا عدة احتمالات افتقدت الموقف اللغوى فى حال النطق ، فمثل قوله تعالى : "وإن تخالطوهم فإخوانكم "[٣] . حيث ترفع كلمة (إخوانكم) على تقدير ضمير (فهم) كأنك قلت : فهم إخوانكم ، يقول الفراء : ولو نصبته كان صوابا ، يريد : فإخوانكم تخالطون[٤] ، تكون كلمة (فإخوانكم) جملة فعلية ، وعلى التقدير الأول – جملة اسمية ، ولكن لابد أن يختلف المعنى على كل : فإذا كان التركيب (فهم إخوانكم) فالمعنى أن هذا شئ ثابت مقرر ، وإذا كانت (فإخوانكم تخالطون) فالمعنى أن لابأس من استحداث هذه السنة الحميدة مع إخوانكم .

ومن التراكيب السطحية التى لها ثلاثة معان مختلفة قوله تعالى :

" يُريكم البرقَ خوفاً وطمعا" [٥] ، فيحتمل :

١ – المصدرية : يريكم البرق فتخافون خوفا وتطمعون طمعا.

---

(١) المرجع السابق ٣ / ١٧٠

(٢) اللغة العربية عبر القرون ٧٧ فما بعد ها د / محمود حجازى ، دار الكاتب العربى ١٩٦٨ (القاهرة) .

(٣) البقرة آية : ٢٢٠ (٤) معانى القرآن : ١ / ١٤١ فما بعدها للفراء . (٥) الرعد ١٣ .

٢ - الحالية : يريكم البرق خائفين وطامعين .

٣ - المفعول لأجله : يريكم البرق لأجل الخوف والطمع .

وهناك تراكيب كثيرة في التراث لها أكثر من معنى وأكثر من بنية عميقة (١) ،

وقد أثبت علم اللغة النفسي أن فهم الجملة ذات المعاني المتعددة يستغرق وقتا أكثر من الجمل ذات المعنى الواحد على الرغم من أن السامع قد لايلحظ إلا معنى واحدا من معانيها ، لأن السامع حين يستخلص معنى الجملة فإنه يقوم بعملية تحليل لهذه الجملة كي يتوصل إلى بنيتها العميقة ومن ثم إلى معناها . (٢)

من ذلك قول المتنبي :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدتْ ...

... لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلا

١ - فـ (لها) جار ومجرور متعلق بوجدت ، لكن فيه تعدى فعل الظاهر إلى ضميره المتصل كقولك (ضربه زيد) وذلك ممتنع .

٢ - أو يكون صفة في الأصل لسُبُلا فلما قدم عليه صار حالا منه ، كما أن قوله (إلى أرواحنا) كذلك ، إذ المعنى : سبلا مسلوكة إلى أرواحنا.

٣ - أما الإعراب الثالث فهو أن تقدره جمعا للهاة كحصاة وحصى ، ويكون (لها) فاعلا بوجدت ، والمنايا مضافا إليه ، ويكون إثبات اللهوات للمنايا استعارة ، شبهت بشئ يبتلع الناس ، ويكون أقام (اللها) مقام الأفواه لمجاورة اللهوات للفم ، ويصف ابن هشام الإعراب الأخير بأنه غريب (٣) .

فإذا كانت الاحتمالات الإعرابية تسير وراء المعنى وتخدمه فلا بأس بحيث لا تتعداه إلى الشكل والصنعة إذ المحافظة على المعنى أولى (٤) .

---

(١) العربية والغموض ٢٢٠ د . حلمي خليل . ط أولى

(٢) المرجع السابق ٢٢١

(٣) مغنى اللبيب ١ / ٢٢٢ فما بعدها . تحقيق محيى الدين . ط المدنى . القاهرة .

(٤) الهمع ١ / ٨

وغياب الموقف والمقام وما يصاحب الكلام المنطوق من علو الصوت أو انخفاضه أو الضغط على بعض الكلمات دون بعض ، مظهر تشكك وخلط واضطراب وتميع فى أداء التركيب ، بل يحول تعدد الوجوه بين مضمون الفكر ، وبين الإبانة عن ذلك المضمون ، ولهجات القبائل التى قمنا بدراستها جاءتنا مكتوبة لامنطوقة غاب فيها ماسبق أن ذكرناه من المواقف والسياقات وما يصاحبهما ، ولذلك يحاول بعض النحاة عرض احتمالات إعرابية فى التركيب الواحد من غير مقتض لتعدد المواقف ، وسترى أمثلة لهذا (١) ، أما إذا كان الموقف محددا ، فإن التركيب يقتضى وجها واحدا لاغير .

وتطالعنا الاحتمالات الإعرابية المسرفة فى التركيب ، وهى لاتفرق بين وجه قوى أو ضعيف أو قريب أو بعيد ، ثم ترى التوالد العجيب للاحتمالات الإعرابية يدور فى عمليات حسابية مجردة لا حس فيها ولا حياة ، وهى أشبه بالتجريدات العقلية والافتراضات الذهنية والتمحلات التى لا تمس الواقع اللغوى وأحيلك إلى مصدرين :

أولهما : رسالة لأبى جعفر النحاس(٢) . (ت ٣٣٨ هـ) فى إعراب قول سيبويه (هذا باب علم ما الكلم من العربية) وقد أوصل النحاس احتمال وجوه الإعراب فى قول سيبويه السابق إلى بضعة وأربعين احتمالا ، أما أبو سعيد السيرافى (ت ٣٦٨ هـ) فقد أوصل(٣) . احتمالات وجوه الإعراب فى قول سيبويه السابق إلى خمسة عشر احتمالا .

وأما الآخر : فهو أبو على الفارسى (ت ٣٧٧ هـ) فى (أقسام الأخبار) (٤) . وسترى فيها عجبا للاحتمالات الإعرابية فى التركيب وهى

---

(١) انظر : الباب الثانى (التركيب) فى كتابنا (اللهجات العربية فى التراث) ج ٣ ط : تونس

(٢) مخطوطة ضمن مجموعة فى مكتبة شهيد على باشا بتركيا تحت رقم ٢٧٤٠

(٣) شرح السيرافى سيبوية ١٣٧ نحو مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٤) نشرت فى مجلة المورد العراقية المجلد ٧ عدد ٣ / ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

ذهنية عقلية مجردة ليس وراءها معنى . أما إعرابه لقول سيبويه السابق فقد أوصله إلى خمسين وجها ، ثم يقول فى آخرها : وقد تبلغ هذه الوجوه ستين وتزيد على السبعين إذا استقصى التفريع فيها ... وإيثار الاختصار أولى ...

أما ابن العريف : ففى مسألة واحدة خرجها بلغت من وجوه الإعراب ألفى ألف وجه وسبعمائة ألف وجه وأحدا وعشرين ألف وجه وستمائة وجه فى جملة واحد(١)

ولا أريد أن أجعل من استشهادى هذا منبرا للتشهير بالقدماء لكن الجهود التى بذلوها – وهم فيها مشكورون – ستظل خاضعة للنظر ، كما أننا لا نريد أن نزن مناهجهم بمعايير القرن الذى نعيش فيه الآن ، وإلا ظلمناهم .

وقد يجلب التعدد والاحتمالات صورا من صور الغموض الذى ينشأ من استغلاق المعنى بسبب عدد الجمل الأساسية والفرعية وطولها ووقوع مكوناتها فى غير موضعها الطبيعى من التركيب نتيجة للتقديم والتأخير والتعريف والتنكير الحذف (٢) . والإضافة والفصل والوصل واضطراب عوة الضمائر ومواقع الكلمات والأدوات وترتيبها ، كما وردت نماذج فى التركيب ذات أنواع وأنماط عدة ، بعضها أمكن تفسيره أو تأويله على وجه الوجوه غير المشهورة فى عرف الأقدمين كالتبادل بين الحروف ، واستعمال حرف مكان آخر ، واستعمال الفعل اللازم متعديا ، أو جعل المتعدى إلى واحد متعديا لاثنين ، أو يكون المتعدى لاثنين متعديا لواحد بنفسه وللآخر بحرف الجر .

وكما يكون التركيب بين الجمل يكون

---

(١) الأشباه والنظائر ٣ / ١٣٥ . طه عبد الرءوف سعد . مصر .

(٢) انظر : الحذف فى المثل العربى . د . عبد الفتاح الحموز . دار عمان الأردن ط ١ وفى كتب (الأمثال) يكثر : الحذف فى كثرة غامرة فقد تحذف بعض المرفوعات أو المنصوبات أو المجرورات ، وكذلك الجمل ، كما يكثر فى (الأمثال) التقدير والتأويل والحمل على المعنى ، وترجع أهميتها فى التركيب إلى أن كثيرا منها جىء به لخروجه عما يقتضيه الأصل النحوى وقياسه . وهى فى ذلك تشبه التراكيب اللغوية فى القبائل العربية . إلا أنها وردت فى (الأمثال) خالية من العزو .

كذلك فى المفردات والأدوات ، فالتركيب فى الأدوات النحوية يزيل المعنى الاستقلالى لكل منها ، ويكسبها بعد التركيب حكما (١) . جديدا ، وكما يغنى التركيب عن العطف والتكرار فإنه كذلك يبطل عمل الأداة مثل (إن وأخواتها ورب) إذا تركبت مع (ما) ، وينقل بعض الأدوات من حال إلى حال مثل (إذ) فهى ظرف ، ولما تركبت مع (ما) أصبحت حرفا من حروف الجزاء ، و(عليك وإليك) حرفا جر، وبعد التركيب انتقلا إلى حيز (اسم الفعل) و (مكانك ودونك) ظرفان ، وبعد التركيب انتقلا إلى اسم الفعل .

وغموض التركيب كما وقع فى الفصحى المكتوبة – وقع فى اللهجات العربية القديمة منطوقة ومكتوبة ، وتمثل هذا فى ظاهرتى الوقف والابتداء والفواصل والإعراب وما يصاحب التركيب من تنغيم وتلوين صوتى في أدائه ، وقد وقع فى اللهجات القديمة هذا الغموض أيضا بسبب الاحتمال فى الدلالة فلا يعرف القارئ أى الدلالات المقصودة ، كما يقع بسبب الصور المجازية وخفاء دلالتها لمخالفتها لما جرى عليه العرب أو العرف اللغوى ، ومن هذا الباب : التعريض بمعنى عدم التصريح المباشر بأمر معين واللجوء ليس فقط إلى لفظ مغاير أو تحسين اللفظ بل إلى الكذب المباح ، ومن ذلك أن الخليفة زياد بن عبد الملك قد مرض ، ودخل عليه القاضى شريح فلما خرج سأله أحدهم : كيف تركت الأمير : قال : تركته يأمر وينهى . فقال : إن شريحا صاحب عويص ، فسألوه ، فقال : تركته يأمر بالوصية وينهى عن البكاء ، يعنى : أنه يحتضر(٢) كما أن (القوصرة) إناء من قصب يرفع فيه التمر إلى البوادى ، وهناك رجز يقول : أفلح من كانت له قوصره ∴ يأكل منها كل يوم تمره .

أراد بالقوصرة هنا : المرأة ، وبالأكل : النكاح (٣) .

(١) انظر : الأدوات : كائن وحبذا ، وكذا ، حيهل ، فى كتب : حروف المعانى .

(٢) المحظورات اللغوية ٧٢ د. كريم حسام الدين . ط١ / الانجلو المصرية .

(٣) السابق ٧٨

كما وقع الغموض نتيجة للترادف والمشترك اللفظى والأضداد وغيرها ، لأنها تؤدى إلى التعدد والاحتمال فى المعانى [1] .

وظهر الغموض أيضا فى التركيب النحوى بسبب (اللبس) ، وكثيرا ما تسللت ظاهرة اللبس إلى التركيب ، لأن العربية تواجه كثيرا من المعانى النحوية بالقليل من القرائن اللفظية ، وتواجه العديد من معانى الجمل بثلاثة أنواع من التراكيب (الخبر والإنشاء والشرط) وتواجه الكثير من العلاقات النحوية بالقليل من صور التضام (كالموصوف وصفته والمضاف والمضاف إليه ، وإذا كثرت المعانى وقلت وسائل التعبير عنها أصبح المعنى عرضة للتعدد بالنسبة للمبنى الواحد ، وإذا لم يكن هناك قرينة من لفظ أو معنى أو حال تعين أحد المعانى المحتملة وذلك هو (اللبس) [2] .

وإذا قال النحوى : فيها إعرابان ، فهو يعنى بقوله (فيها لبس) ومن حق كل نص أن يكون فيه إعراب واحد ، كما تصلح الأداة لأكثر من معنى من ذلك أن تقول : ما أسعدنى هذه الليلة . فهو صالح للاستفهام والتعجب ولكن العربية قادرة على مراوغة اللبس ، ولهذا زادت حرف الجر (من) للفرق بين الحال والتمييز فى نحو قولهم : لله دره من فارس ، فالموضع التبس فيه التمييز بالحال فأتوا (بمن) لتخصصه للتمييز ، فإذا قلت : لله دره فارسا - جاز أن تعنى فى هذه الحال ، فلما كان يقع فيه لبس مشتبهين فصل بينهما بدخول (من).

كما تحذف الفاء مع معطوفها للدلالة إذ لا لبس كقول الحق : فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر[3] . أى : فأفطر فعليه عدة من أيام أخر ، فحذف (أفطر) والفاء الداخلة عليه وابن مالك أشار إلى ذلك بقوله :

---

(١) العربية والغموض ٢٢٩ ، د . حلمى خليل . ط . الأولى .

(٢) مقالات فى اللغة والأدب ٣٠٤ فما بعدها ، د . تمام حسان ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م جامعة أم القرى .

(٣) البقرة / ١٨٤

والفاء قد تحذف مع ما عطفت .·.
والواو إذ لا لبس وهى انفردت [١] .

فالعربية ولهجاتها أمكنت التغلب على هذا اللبس فى التراكيب بالقرائن لفظية كانت أو معنوية أو حالية . فوضوح المعنى فى التركيب أو أمن اللبس غاية لا يمكن التفريط فيه ، لأن اللغة الملبسة لا تصلح واسطة للفهم والإفهام .

للبحث بقية

أحمد علم الدين الجندى

الخبير بالمجمع

(١) انظر أمثلة أخرى فى (مواضع اللبس عند النحاة والصرفين ١٨ فما بعدها) د. زين كامل الخويسكى . ط أولى . اسكندرية .

قبل يكون ... وقبل أن يكون

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

ألقت إلى المقادير يوما عبء الحديث عن الشاعر العربى المصرى تميم ابن المعز لدين الله الفاطمى فى معرض الحديث جملة عن مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى. والأمير تميم هذا شاعر له وزنه ، ظلمته الأيام حينا ، ثم حاولت إنصافه بأخرة من الزمان ، فظهر ديوانه الضخم سنة ١٩٥٧ عن دار الكتب المصرية محققاً بجهود عالمين جليلين هما أستاذنا المرحوم أحمد يوسف نجاتى ، وزميلنا فى مجمع اللغة العربية المرحوم الأستاذ محمد على النجار :

وتميم هذا هو الذى يقول عنه ابن الأبار الأديب الشاعر المؤرخ الأندلسى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ وصاحب « الحلة السيراء » : (شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع ولا مدافع وكان فيهم كابن المعتز فى بنى العباس : غزارة علم ، ومعاناة أدب ، وحسن تشبيه ، وإبداع تخييل ، وكان يقتفى آثاره ويصوغ على مناحيه فى شعره أشعاره) .

ولقد كان من حظى أن أقرأ ديوان تميم بن المعز كله من ألفه إلى يائه بيتاً بيتاً ، فقادتنى الألفة إلى التعرف إلى ملامح مميزة يكاد يتفرد بها الأمير تميم من دون شعراء مصر فى العصر الفاطمى . وإن كان بعضهم حاول أن يشركه فيها . ووجدت لشاعرنا تعابير خاصة لعل فيها من مصر آثاراً عليه بعد أن قدم من المهدية والمنصورية فى تونس سنة ٣٦٢ هـ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره فى صحبة والده المعز لدين الله الفاطمى .

وما أكثر ما كان تميم يمد المقصور ويقصر الممدود فى شعره على هيئة تلفت نظر قارئ شعره ، وما أكثر ما كان يصل همزة القطع ويقطع همزة الوصل كقوله فى مدح والده :

أأحصى أياديه ومن بعضها أنا
أم انعت جدواه ومن بعضها قدرى

وما أكثر ما كان شاعرنا يحذف المشبه الموصوف مع ما يبدو فى ذلك من غرابة كقوله :

تفتر عن كالجمان منتظم
يصافح اللثم بارداً خصرا

ويريد أن يقول : تفتر عن ثغر كالجمان . وما أكثر ما كان يلجأ شاعرنا تميم إلى

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات مؤتمر الدورة الخامسة والأربعين (جلسة الأربعاء غرة ربيع الآخر سنة ١٣٩٩ هـ ، الموافق ٢٨ من فبراير سنة ١٩٧٩ م) .

لغة « أكلوني البراغيث » فيلحق علامة التثنية والجمع بعامل الفاعل ونائب الفاعل، كالذي صنعه عبد الله بن قيس الرقيات في مرثيته لمصعب بن الزبير حيث يقول :

تولى قتال المارقين بنفسه
وقد أسلماه مبعد وحميم

كما أنشده ابن عقيل رقم ١٤٣، والأشموني رقم ٣٥٦، وابن هشام الأنصاري المصري في أوضح المسالك رقم ٢٠٩ ، وفي شرحه لشذور الذهب رقم ٨١ . وكالذي صنعه الشاعر أبو فراس الحمداني في قوله :

نتج الربيع محاسنا
ألقحنها غرُّ السحائب

بدلا من قوله : ألقحها غر السحائب . وإن كان أبو فراس ممن لا يحتج بشعره على قواعد اللغة ومفرداتها لأنه مولد . وإن كانت هذه اللغة أعني لغة أكلوني البراغيث هي لغة جماعة من العرب يلحقون علامات التثنية والجمع بالفعل المسند إلى المثنى والجمع كما يلحق جميع العرب علامة التأنيث .

وأظهر ما وجدته من غرائب التعبير عند شاعرنا تميم بن المعتز هو حذف (أن) المصدرية عقب الظرف (قبل) . كقوله من أبيات في شعر الشكوى، وليس عجيبــاً أن يشكو الأمراء وأبناء الخلفاء من زمان لاتنقطع الشكاة منه لدى غني أو فقير :

عداني عن الشكوى إلى الناس أنني
عليل ، ومن أشكو إليه عليل
ويمنعني الشكوى إلى الله علمه
بجملة ما ألقاه قبل أقول

ونستطرد هنا إلى إباء الأمير تميم وكبريائه وعزة نفسه ، فهو يجد أسباب الشكوى ولكن كبرياءه ، لاتسمح له بالإفصاح حتى إلى خالقه ، فالله عالم بكل ما يلقاه فلا حاجة به إلى القول ، والناس كلهم شركاء له في آفة الضعف البشرى ، فما جدوى الشكوى من عليل إلى عليل ؟

ولقد ألفنا وألف الناس فيما يقرءون ويحفظون ويتحدثون أن يقول القائل (قبل أن أقول) : لا أن يقول : (قبل أقول) بحذف أن المصدرية التي يسبك منها ومن الفعل بعدها مصدر يقع مضافا إليه للظرف : قبل . ويقدر هكذا : قبل القول .

ولقد تكرر حذف أن المصدرية هذه بعد الظرف (قبل) عند شاعرنا تميم . فنجده مثلا في قصيدة يمدح بها أخاه الخليفة العزيز بالله الفاطمي يقول :

ولست أرضى من الأمور بما
لا أجد المكرمات ترضاها

واسمع فعندى من كل صالحة
ألطف أسرارها وأخفاها
لأدعى الفضل قبل يشهد لى
به أدانى الدنى وأقصاها

فهو لا يقول كما يقول سائر الناس : لأدعى الفضل قبل أن يشهد لى، بل يقول : قبل يشهد لى ، فيحذف أن المصدرية التى نألف ورودها فى كثير جداً من منظوم الكلام ومنثوره بعد الظرف الزمانى المكانى : (قبل) .

وإذا تتبعنا « قبل » فى القرآن الكريم وهو أعلى مثل فى الصحة اللغوية وعلو الاستعمال وجدناها إما مضافة أو مقطوعة عن الإضافة لفظاً لا معنى ، أو مقطوعة عن الإضافة لفظا ومعنى .

والمضافة لها أحوال سنتحدث عنها عما قليل . أما المقطوعة عن الأضافة لفظا لامعنى فكقوله تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد) آية رقم ٤ سورة الروم. وقد قرأها السبعة على الضم ،وقدره ابن يعيش على أن الأصل فى الكلام: من قبل كل شىء ومن بعده . ورأى ابن هشام الأنصارى أن الأنسب للمقام أن يقدر : من قبل الغلب ومن بعده ، تمشياً مع سياق الكلام فى قوله تعالى : «ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض» ، فحذف المضاف إليه لفظاً ونوى معناه فاستحق البناء على الضم :

أما المقطوعة عن الإضافة لفظاً ومعنى فاستشهدوا لها من القرآن بقراءة : (لله الأمر من قبل ومن بعد) بالجر والتنوين لقطع النظرعن المضاف إليه لفظا ومعنى . وشاهده من الشعر قول يزيد بن الصعق :

فساغ لى الشراب وكنت قبلا
أكاد أغص بالماء الحميم

وإن كان « العينى » قد نسبه خطأ لعبد الله بن يعرب . فالظرف هنا منون منصوب لأنه قطع عن الإضافة فى اللفظ ، ولم ينو المضاف إليه :

أما « قبل » المضافة فى القرآن الكريم فيدل التتبع على مايأتى : (١) إما مضافة إلى اسم الإشارة «هذا » كقوله تعالى فى سورة هود : (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا) . وقوله فى السورة نفسها : (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) . وقوله تعالى فى سورة مريم : (ياليتنى مت قبل هذا). وقوله فى سورة الواقعة : (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) . (٢) وإما مضافة إلى اسم ذات كقوله تعالى فى سورة الرعد : (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة)أومصدرصريح أومؤول ، فالصريح كقوله تعالى فى سورة النساء :(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) . وقوله فى سورة مريم : (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) أى قبل أن تطلع الشمس وقبل أن تغرب . والمصدر المؤول

يكون من (أن) المصدرية المذكورة وفعلها الذى يلى (قبل) على أن يكون المصدر المؤول من أن والفعل مضافا إليه للظرف « قبل » . ولقد جاء هذا الاستعمال فى القرآن كله على تسعة وعشرين موضعاً . كقوله تعالى فى سورة النساء : (من قبل أن نطمس وجوها) ، وقوله فى سورة الأعراف : (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم) ، وقوله فى سورة إبراهيم : (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) ، وقوله فى سورة المجادلة : (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) وتأويل هذه المصادر هو على الولاء : من قبل طمس الوجوه ، آمنتم به قبل الأذن لكم ، من قبل إتيان يوم ، فصيام شهرين متتابعين من قبل التماس (٣) وإما أن تكون « قبل » مضافة إلى الضمائر الآتية : ضمير المفرد المخاطب كقوله تعالى: فى سورة البقرة (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) . ضمير المخاطبين كقوله تعالى فى سورة البقرة : (اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم) . ضمير المتكلمين كقوله تعالى فى البقرة : (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) . ضمير الغائب المفرد ، كقوله فى سورة البقرة : (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) . ضمير الغائبة المفردة ، كقوله فى سورة الرعد : (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم) . ضمير الغائبين كقوله تعالى فى سورة يوسف : (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . ضمير ياء المتكلم كقوله تعالى فى سورة آل عمران : (قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات) .

ومن تتبعنا للمواضع التسعة والعشرين فى القرآن التى جاء فيها المصدر مؤولا من أن المصدرية والفعل بعد الظرف (قبل) نرى أن القرآن جرى على ذكر أن لا حذفها أو إضمارها ، كما جاء فى شعر تميم بن المعز الفاطمى . فالقرآن جرى على عبارة (قبل أن يكون) لا عبارة : (قبل يكون) .

ومعلوم أن (أن) المصدرية كما جاء فى شرح شذور الذهب ، وفى المغنى لابن هشام ، وفى حاشية الصبان ، وفى المقرب لابن عصفور تضمر وجوباً فى مواطن ، كما تضمر جوازاً فى مواطن أخرى نص عليها النحاة. فبعد اللام التعليلية ، ولام العاقبة التى تسمى أيضاً لام الصيرورة أو لام المآل ، واللام الزائدة الواقعة بعد فعل متعد يجوز إظهار أن المصدرية وإضمارها . وقد ورد الإضمار والإظهار فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وقوله فى سورة الزمر . (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) . أما لام الجحود المسبوقة بكون منفى فيجب إضمار أن بعدها ، كقوله تعالى فى آل عمران : (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) ، وكذلك تضمر أن المصدرية وجوباً

بعد : كى التعليلية التى بمنزلة اللام ،ولا يجوز التصريح بأن بعدها إلا فى الشعر لضرورة، على حين يجيز الكوفيون إظهارها عموماً فى الشعر والنثر. أما حروف العطف الأربعة: أو، الواو، الفاء ، وثم ، فمنها مالا يجوز معه إظهار أن وهو الحرف : أو . ومنها ما لا يجب معه الإضمار وهو حرف : ثم ،والباقى وهو الفاء والواو يجوز معهما إظهار أن وإضمارها .

وإذا حذفت أن المصدرية فى غير المواضع المنصوص عليها فى كتب النحو بطل عملها فلا تنصب المضارع ، فإذا نصبته كان ذلك شاذاً ولا يقبل منه إلا مانقله العدول كما جاء فى حاشية الصبان على شرح الأشمونى . ومن ذلك قراءة بعضهم : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) سورة الأنبياء. بنصب الفعل يدمغ . ومنه قول طرفة بن العبد :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فقد نصب الفعل: أحضر ، على الرغم من إضمار أن التى لا يُعملها الكثيرون لأن العامل الناصب ضعيف كالجار والجازم ، والعامل الضعيف لا يعمل إلا إذا كان مذكوراً فى اللفظ فإذا حذف لم يبق له عمل . ومن ذلك ماجاء فى المثل : (خذ اللص قبل يأخذك) بالنصب، أو قبل يأخذك بالرفع على رأى البصريين

ويبدو أن الإمام الشافعى قد تأثر بلهجة بعض قبائل العرب من حيث حذف أن المصدرية قبل الفعل المضارع ، وبعد الظرف : (قبل) . فتصادفنا فى كتابه الرسالة وهو مشهور موثق أمثال هذه العبارات: عليه يتعلم الصلاة ، بدلا من أن عليه أن يتعلم الصلاة . وقبل تكمل الصلاة . بدلا من قبل أن تكمل ، قبل يحل عليك بدلا من: قبل أن يحل عليك. (انظر صفحات ٤٩ ، ٢٦٥ ، ٥٨٢ من الرسالة بتحقيق المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر) .

ويعد استعمال الإمام الشافعى لأمثال هذه اللهجات العربية توثيقاً لها ،ومساندة لصحتها. ومن هنا صح للشيخ أحمد محمد شاكر أن يقول فى هذا الصدد :(لغته — يعنى الإمام الشافعى — حجة، لفصاحته وعلمه بالعربية .. وأصل الربيع من كتاب الرسالة أصل صحيح ثابت غاية فى الدقة والصحة . فما وجدناه مما شذ عن القواعد المعروفة أو كان على لغة من لغات العرب لم نحمله على الخطأ ، بل جعلناه شاهداً لما استعمل فيه) .

ومن هنا أيضاً نرى الأستاذ المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة يتحدث فى كتابه عن (الإمام الشافعى) قائلا : (ولقد كان مع استحفاظه لأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وحفظه لكتاب الله تعالى قد اتجه إلى التفصح فى العربية، ليبعد كل البعد عن العجمة وعدواها

التي أخذت تغزو اللسان العربي بسبب الاختلاط بالأعاجم في المدائن والأمصار . وقد خرج في سبيل هذا إلى البادية ولزم هذيلا) .

ويقول الإمام الشافعي نفسه عن نفسه كما جاء في (مناقب الشافعي) للفخر الرازي : (إني خرجت من مكة فلازمت هذيلا بالبادية ، أتعلم كلامها ، وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، أرحل برحيلهم ، وأنزل بنزولهم ؛ فلما رحلت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار) . وإذا ما احتجنا إلى شاهد آخر غير الشافعي على الشافعي ، فإنا نرى الأصمعي اللغوي الراوية المعروف يقول : (صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس) يعني الإمام الشافعي . وقد التقط المرحوم الأستاذ مصطفى منير أدهم — والد الزميل د . إبراهيم الدمرداش — هذه الشهادة فرواها في محاضرته عن (رحلة الإمام الشافعي إلى مصر) التي ألقاها في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٨ بدار الجمعية الجغرافية بشارع قصر العيني ، وطبعها في مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٣٠ وأسعدني بأنه أهداها إلى يومئذ ، كما أسعدني نجله الزميل الدكتور إبراهيم بإهدائي — من أشهر — نسخة أخرى من طبعة جديدة لها ؛

ومن الأمثلة على حذف أن المصدرية التي استشهد بها ابن هشام في مغني اللبيب ، والصبان في الحاشية ، وابن عقيل في الشرح ، والإمام أحمد بن عبد النور المالقي المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ، وابن عصفور في المقرب قول بعضهم : (مره يحفرها) أي أن يحفرها ، وقول بعضهم : (لابد من يتتبعها) . وإن كان صاحب المقرب قد عد هذا من نادر الكلام .

فالإمام الشافعي قد أفاد من أمثال هذه اللهجات واستعملها في كتاباته وأدارها على ما كان يحرره بمصر ، وخاصة أنه دخل مصر سنة ١٩٩ هـ . ومات ودفن بها سنة ٢٠٤هـ . وقد كان رضي الله عنه قد كتب كتابه (الرسالة) لعبد الرحمن بن مهدي قبل أن يجيء إلى مصر ، ولكنه أعاد كتابتها بهذا البلد الطيب من جديد .

ويبدو أن هذه اللهجات التي ارتضاها الإمام الشافعي وأكثر استعمالها في كتبه ورسائله قد لقيت من علماء مصر وأدبائها ومؤرخيها وشعرائها ترحيباً وقبولا . فنجد الحسن بن زولاق مؤرخ مصر في القرن الرابع الهجري يلجأ في كتابه المشهور : (أخبار سيبويه المصري) — وهو غير سيبويه النحوي — إلى حذف أن المصدرية في المواضع التي لم ينص فيها النحاة واللغويون على حذف . كقوله : (فما قدرنا نقابله) أي أن نقابله . وقوله (فعقد على أبيه لا يعمل الصرف) أي أن لا يعمل الصرف . وقوله : (فقال : اذهب عافاك الله لا أراك ، على تأتي بعدها) يريد : على أن تأتي بعدها . وقوله : (لاشتهيت تصفع نفسك) يريد : لاشتهيت

أن تصفع . . . وقوله : (احتاج أحفظ) يريد أحتاج أن أحفظ . وقوله : (فمنها أنه طلب منى حماراً يركبه فتهاربت منه خوف يطوف عليه) يريد خوف أن يطوف عليه . وقوله : (على شريطة تعطيني من ديني خمسمائة دينار) يريد : على شريطة أن تعطيني . وقوله : (ياسيدى : أخاف لايقبل منى) بدلا من : أخاف أن لا يقبل منى . (انظر صفحات ١٦ — ٢٥ — ٢٩ — ٣٩ — ٤٨ — ٥٠ — ٥٥ — ٥٦) من كتاب أخبار سيبويه المصرى . ونجد الكاتب المؤرخ أبامحمد عبد الله البلوى — وهو مصرى يرجع بنسبه إلى قبيلة بلى بالحجاز وكان معاصراً للدولة الطولونية . . نجده فى كتابه (سيرة أحمد بن طولون) الذى حققه المرحوم محمد كرد على . يميل إلى حذف أن المصدرية فيقول : (أريد أخاطب الأمير) بدلا من : أريد أن أخاطب الأمير .

ونجد الشاعر الشامى المشهور ابن حيوس من رجال القرن الخامس الهجرى يحذف أن المصدرية بعد الفعل : أراد . كقوله من قصيدة يمدح بها أمير الجيوش :

أراد يرينا الله جاهلك عنـــده
ومن منك أولى بالمحبة والزلفى

ويبدو أن العوام فى مصر والشام والعراق وجدوا فى حذف أن المصدرية استئناساً بمجيزى الحذف فى اللغة المكتوبة ، فنرى عند شاعر زجال عراقى اسمه ابن جابر البغدادى من رجال القرن السابع الهجرى استعماله لأن المضمرة بعد (لابد) فى قوله نقلا عن الجزء الثانى من فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى :

لابد تظهر بين الناس
قلندرى محــلوق الرأس
تلبس عوض دا الــكتان
وحلتك من صوف خرفان
أو دلق أو تصـــبح عريان

وتدل وثائق البردى المكتشفة فى مصر والتى نشرها العلامة أدولف جروهمان فى مصر سنة ١٩٣٤ ، سنة ١٩٥٢ — على أن حذف أن المصدرية قبل المضارع فى غير مواطن الحذف المعروفة كان ظاهرة سائدة فى الكتابات العربية على أوراق البردى ، سواء أكانت تلك الكتابات مدونة بالحروف العربية أم بحروف قبطية ، وسواء أكانت مكتوبة بعبارة عامية فيها بعض الفصيح ، أوبعبارة فصيحة مشوبة بالعامية . ومن ذلك ماجاء فى وثيقة كتبت فى القرن الرابع الهجرى وفيها هذه العبارة : (فكيف تسمح نفوسهم يسلفـــوا شيء ويأخذوه وقت الغلة) . بدلا من : (فكيف تسمح نفوسهم أن يسلفوا) .

ويظهر أن هذا الحذف وجد قبولا عند العامة لسهولته ولإيجاز الكلام فيه :

وليس عجيباً أن يهتم العامة فى مصر بحذف أن المصدرية قبل مضارعها وأن يرتضوها

لهم لغة سهلة فى الكتابة وفى الخطاب ، ولكن العجيب أن يهتم الشعراء بهذه اللهجة أو اللغة التى اختارها الإمام الشافعى وآثرها على اللغة العالية فى إثبات أن . وقد رأينا الشاعر تميم ابن المعز فى القرن الرابع الهجرى يرضى عن هذه اللهجةويكررها فى مواطن من شعره حيث كان له عنها مندوحة . ونجد شاعراً مصريا آخر من الأشراف الطالبيين هو الشريف العقيلى الذى اختلف فى وجوده بين القرنين الرابع والخامس قد ارتضى هذه اللهجة كما ارتضاها تميم بن المعز من قبل ، فنجد فى ديوانه الذى نشره زميلنا المرحوم الدكتور زكى المحاسنى فى مصر قوله :

فكن لداعى التـــقى مجيبــــا
من قبـــل تدعى فلا تجيب

بدلا من قوله : من قبل أن تدعى .

ونجده فى موطن آخر يقول فى خمرية له :

فاسبق الشمس قبل تبدو بشمس
سرها فى غمامة الكأس جهر

بدلا من قوله : فاسبق الشمس قبل أن تبدو .
ونجده فى موطن ثالث يقول فى إحدى خمرياته النيلية :

فاشرب على مذهب أزهـــاره
من ذهب فى فضة يجرى
قبـــل يريك الصبح بلـــوره
يلمع فى فيروزج الفجر

بدلا من قوله : قبل أن يريك الصبح بلوره .

ولا يقف حذف أن المصدرية فى مصر قبل الفعل أو قبل الفعل وبعد الظرف (قبل) عند شعراء القرن الخامس الهجرى : فنجد الظاهرة تمتد عند شاعر مصرى يمنى من رجال القرن السادس هو ظافر الحداد الأسكندرى المتوفى سنة ٥٢٩ هـ كما جاء فى أكثر المصادر ، وسنة ٥٦٣ هـ كما ذكر ابن تغرى بردى الأتابكى فى وفيات سنة ٥٦٣ .فنجد له من قصيدة فى حالة النسيان التى كانت تعترى أبا عامر قوله : من قبل يبسم أو تنهل عيناه . . بدلا من أن يقول : من قبل أن يبسم أو تنهل عيناه .

على أن بعض شعراء الشام قد حلا لهم أن يجاروا بعض شعراء مصر فى هذه الظاهرة التى أشاعها الإمام الشافعى باستعمالها فى نثره منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، فجاء الشعراء بعد ذلك وارتضوا استعمالها فى غير ضرورة على توالى العصور . ويصادفنا من هؤلاء الشعراء الشاعر ابن حيوس الدمشقى المتوفى سنة ٤٧٣ هـ والذى نشر ديوانه المغفور له الأستاذ خليل مردم بك رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٧١ هـ (سنة ١٩٥١م). . فنرى هذا الشاعر يقول من قصيدة فى مدح أمير الجيوش :

لازلت تحكم فى الأنـــام مخولا
ملكاً يزول الدهر قبـــل يزول

بدلا من أن يقول : يزول الدهر قبل أن يزول . وليس معنى اختيار ابن حيوس لهذه اللغة أنه غضَّ نظره عن إثبات (أن) بعد الظرف (قبل) ، فإنه كان يراوح بين الاستعمالين ، كقوله من قصيدة عينية يمدح بها أمير الجيوش :

ربعت له الأملاك قبل رضاعه
وتزعزعت من قبل أن يترعرعا

ولعل زملاءنا الأفاضل هنا من أهل المغرب الكرام يسرهم أن يعلموا أن هناك شاعرين يتصحف اسمهما على الناس باسم (ابن حيوس) الدمشقى من أهل المشرق العربى . أحدهما مغربى من فاس ، والآخر أندلسى من أشبيلية . أما الأول فهو : عبد الله بن محمد ابن حبوس بالباء التحتية الموحدة المخففة ، وقد نبه إلى التصحيف فيه ابن خلكان . والناس يصحفونه إلى ابن حيُّوس بالمثناة المشددة . وهو غلط كما نبه عليه صاحب الوفيات (انظر وفيات الأعيان ج٢) .

أما الثانى الأندلسى فقد ورد اسمه فى معاهد التنصيص لعبدالرحيم العباسى بعد ترجمته لابن حيوس الدمشقى . وهو من غرائب التصحيفات ، وصوابه : ابن حنون بنونين ، أولاهما مخففة كما جاء فى « المغرب » لابن سعيد المغربى ، وقد تنبه إلى ذلك الدكتور عبد العزيز الإهوانى ، ونبه عليه المرحوم خليل مردم بك .

ولقد وجدنا الشعراء فى العصور المتأخرة يتخففون كثيراً من حذف (أن) المصدرية بعد الظرف (قبل) . ولعلهم وجدوا فى الحذف شيئاً لم يألفوه فى الاستعمال الغالب ، فآثروا أن يجروا على اللغة الشائعة الغالبة . ولكنا نصادف عند الشاعر المهجرى الكبير (إيليا أبو ماضى) — وهو يمثل تيارات الشعر الجديدة فى المهجر الأمريكى الشمالى — نزوعه بعض الحين إلى اللغة التى ارتضاها الإمام الشافعى فى حذف (أن) بعد الظرف (قبل) ، كقوله من قصيدة رائعة فى أثر الغربة فى بلاد المهجر الشمالى :

قالت : أينسى النازحون بلادهم
ماهاج حزن القلب غير سؤالها
الأرض سوريا أحب ربوعها
عندى ولبنان أعز جبالها
والناس أكرمهم على عشيرها
روحى الفداء لرهطها ولآلها
تشتاق عينى قبل يغمضها الردى
لو أنها اكتحلت ولو برمالها ؟

كما أن الشاعر المهجرى الصديق زكى قنصل من شعراء العروبة فى المهجر الجنوبى بالأرجنتين ينفرد من بين الشعراء العرب فى أمريكا اللاتينية بحذف (أن) المصدرية

معنى (كاد) في الإثبات والنفي

للدكتور أحمد الحوفي

يتردد الفعل (كاد) مثبتا تارة ومنفيا تارة ، فما معناه فى الحالين ؟

أوثر ألا نتعجل الجواب ، بل نستأنس أولا بآراء النحاة ، ثم نعتمد على القرآن الكريم وعلى الشعر القديم فى تعرف الدلالة الحقيقية للفعل كاد فى الإثبات وفى النفى .

أولا (فى النحو) :

١ ـ قال جمهور النحاة إن كاد وكرب وأوشك وضعت للدلالة على قرب الخبر ، وإن كان قربه لا يستلزم وقوعه ، بل قد يستحيل وقوعه كما فى قوله تعالى : « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » .

فإذا قال قائل : كاد زيد يبكى ، فمعناه قارب زيد البكاء ، أى أن مقاربة البكاء ثابتة ، ولكن البكاء نفسه منتف .

وقد عبّر الفراءُ والأزهرى عن هذا بأن إثبات كاد نفى ، أى نفى لوقوع الخبر ، لأنك إذا قلت : كدت أبلغ إليك ، فمعناه أنك قاربت البلوغ ولم تبلغ .

٢ ـ أما كاد المنفية نحو قولنا : لم يكد الثمر ينضج ، فمعناه عند الجمهور أنه لم يقارب النضج ، أى أن المقاربة منفية ، والنضج نفسه منتف انتفاءً أبعد من قولنا : كاد الثمر ينضج ، وبهذا فسر الأخفش قوله تعالى : « إذا أخرج يده لم يكد يراها » بأنه لا يراها .

على حين أن الفراء والأزهرى يذهبان إلى أن نفيها إثبات ، فإذا قلت : ما كدت أبلغ إليك ، فمعناه أنك قد بلغت[1] .

(١) شرح الأشمونى ٢ / ٩١ ـ ١٠٣ وشرح ابن يعيش ٧ / ١٢٤ ولسان العرب ب مادة "كيد" .

ثانيا (كاد فى الاثبات) :

(أ) فى القرآن الكريم

١ - قال تعالى : « ولما رجع موسى إلى قومه غضبانَ أسفًا قال : بئس ما خَلَفْتمونى مِنْ بَعْدِى ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ ربكم ؟ وأَلْقَى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يَجُرُّهُ إليه ، قال : ابنَ أُمَّ إنَّ القوم استضعفونى ، وكادوا يقتلوننى ، فلا تُشْمِتْ بِىَ الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين »[١] .

فما معنى كاد هنا ؟

المعنى أننى لم آل جهدا فى معارضتهم ووعظهم وإنذارهم ، لكنهم غلبونى على أمرى ، ولم يبق إلا أن يقتلونى ، وقد قاربوا ذلك .

٢ - وقال سبحانه : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه فى ساعة العُسْرة مِنْ بَعْدِ ما كاد يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءُوف رحيم »[٢] .

فقد كان المسلمون فى غزوة تبوك فى ضيق شديد ، لأن رواحلهم قليلة ، وأزوادهم ضئيلة ، وكان ماؤهم نَزْرا ، حتى إنهم نحروا الإبل واعتصروا فروثها ، وكان الحر شديدا ، ولهذا كادت قلوب بعضهم تنصرف عن ثباتها على الإيمان ، أو تنصرف عن اتباع رسول الله فى الخروج معه فى تلك الغزوة .

ومعنى هذا أن قلوب هذا الفريق لم تزغ ، بل قاربت أن تزيغ .

٣ - وقال تعالى : « وإن كادوا لَيَفْتِنونك عن الذى أَوحَيْنا إليك لتَفْتَرِىَ علينا غيره ، وإذًا لا تَّخذوك خليلًا . ولولا أن ثَبَّتْناك لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلًا »[٣] .

وذلك أن ثقيفا أو قريشا عرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يسلموا لكنهم اشترطوا شروطا ، ولولا أن الله تعالى ثَبَّت النبى وعصمه لقارب أن يميل إلى الرضا بشروطهم ، لشدة رغبته فى إسلامهم .

٤ - وقال سبحانه : « وقالوا اتَّخذَ الرحمنُ ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السماوات يتَفَطَّرْنَ منه ، وتَنْشَقُّ

(١) سورة الأعراف ١٥٠

(٢) سورة التوبة ١١٧

(٣) سورة الإسراء ٧٣ - ٧٤

الأرضُ ، وتَخِرُّ الجبال هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا للرحمن ولدا »[١] .

أى أن نسبتهم ولدا إلى الله تعالى كلمة شنيعة فظيعة ينكرها العقل السليم ، وتبرأُ منها الجمادات ، وتوشك أن تنفطر وتنشق وتخر من هول هذه الفرية وبطلانها .

٥ - وقال تعالى : « الله نورُ السماوات والأرض ، مَثَلُ نوره كمِشْكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجةُ كأنها كَوكَب دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتها يضىءُ ، ولو لم تَمْسَسه نار ، نورٌ على نور ، يَهدِى الله لنوره من يشاءُ ، ويَضْرِبُ الله الأَمثالَ للناس ، والله بكل شىءٍ عليم »[٢] .

أى أن الزيت بسبب صفائه وبريقه ولمعانه يقارب أن يضىء من غير نار .

٦ - وقال سبحانه : « أَلم تر أَن الله يُزْجِى سحابا ، ثم يُؤَلِّف بينه ، ثم يَجْعَلُهُ رُكاماً ، فترى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خلاله ، ويُنَزِّلُ من السماءِ من جبال فيها مِنْ بَرَدٍ ، فيصيب به مَنْ يشاءُ ، وَيصْرِفُه عَنْ مَنْ يشاءُ ، يكاد سَنَا بَرْقه يَذْهبُ بالأَبصار »[٣] .

ومعنى هذا أن ضوء البرق يقرب من أن يخطف الأَبصار ، ولا يخطفها .

٧ - وقال تعالى : « وإذا رأَوك إنْ يتَّخذونك إلا هُزُوًا . أَهذا الذى بَعَثَ اللهُ رسولا ؟ إنْ كاد ليُضِلُّنا عن آلهتنا لولا أَنْ صَبَرْنا عليها ، وسوف يَعْلمون حين يرون العذابَ مَنْ أَضلُّ سبيلاً »[٤] .

ويتبين من الآية أن النبى عليه الصلاة والسلام بذل أقصى جهده فى دعوتهم إلى الإسلام ، مع عرض المعجزات عليهم حتى شارفوا أن يتركوا دينهم ويسلموا ، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم .

٨ - وقال سبحانه : « وأَصبح فؤادُ أُمِّ موسى فارغا ، إنْ كادتْ لتُبْدِى به ، لولا أَنْ ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين »[٥] .

---

(١) سورة مريم ٨٨ - ٩١ (٢) سورة النور ٣٥ (٣) سورة النور ٤٣
(٤) سورة الفرقان ٤١ - ٤٢ (٥) سورة القصص ١٠

أى أن أم موسى لما سمعت بوقوع موسى فى يد فرعون طار صوابها من شدة الجزع حتى قاربت أن تجهر بأن موسى ابنها ، لولا أن الله تعالى ألهمها الصبر لتكتم الخبر ، ولتكون من المصدقين بوعد الله لها فى قوله « إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

أو أنها حينما سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه كادت من شدة فرحها تبوح بأنه ابنها ، لولا أن الله ثبتها وألهمها الصبر .

(٢) فى الشعر :

١ - قال أبو صخر الهذلى :

تكاد يَدِى تَنْدَى إذا ما لمستُها
وينبت فى أطرافها الورق النَّضِرُ[(١)]

فهو يصور سعادته إذا لمستها يده بهذه الصورة ، وهى أن يده تقرب من الإيراق الجميل .

٢ - وقال قيس بن ذَرِيح :

وَعَذَّبه الهوى حتى براه
كَبْرِى القَيْنِ بالسَّفَنِ القداحا
وكاد يذيقه جُرَعَ المنايا
ولو سَقَّاه ذلك لاستراحا[(٢)]

أى أن الحب هزله وقارب أن يسقيه جرع الموت ، وهو لم يسقه إياها ، لأنه لو شربها لاستراح ، وما قال ولو سقاه ذلك لاستراح .

٣ - وقال رجل من بنى جَعْدة :

إذا دعا باسمها داعٍ لِيَحْزُنُنى
كادتْ له شُعْبَةٌ من مهجتى تَقَعُ[(٣)]

أى أوشكت وقربت أن تقع .

٤ - وقال رجل من قيس :

وفيهن مِنْ بُخْتِ النساءِ رِبَحْلَةٌ
تكاد على غُرِّ النساءِ تَرُوقُ[(٤)]

فهى فى نظره لم تفق النساء الحسان ، بل قاربت أن تفوقهن ، وهو بهذا التعبير صادق ، لأنه يعلم أنها لم تفق النسوة الحسان جميعا .

ثالثا (كاد فى النفى) :

(١) فى القرآن الكريم

١ - قال تعالى : « قالوا الآنَ جئتَ بالحق . فذبحوها ، وما كادوا يفعلون »[(٥)] :

أى أن قوم موسى تباطأوا فى ذبح البقرة ، وتلكأوا ، وأطالوا فى أسئلتهم

(١) الأمالى ١ / ١٤٩

(٢) الأمالى ١ / ١٦٢ القين : الحداد . السفن جلد أو حجر ينحت به الشىء ويسحج القدح .

(٣) الأمالى ٢ / ٢٧٣ . (٤) الأمالى ١ / ١١٨ بخت وربحلة : المراد ضخمة ممتلئة . (٥) سوره البقرة ٧١

عن صفاتها ، وهم يقصدون التهرب من ذبحها ، حتى إن حالتهم كانت تدل على أنهم لم يقاربوا الاستجابة والطاعة ، ثم بعد هذا كله اضطروا إلى ذبحها .

ففى الآية الكريمة معنيان ، لكل منهما حاله وزمانه .

وأغلب الظن أن الذين ذهبوا إلى أن نفى كاد إثبات فهموا أن قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » تصوير لحالة واحدة فى زمان واحد ، أى أنهم ذبحوا البقرة فعلا ولكن بعسر ومشقة .

والحق أن الإثبات لم يفهم من قوله تعالى « وما كادوا يفعلون » بل فهم من قوله سبحانه « فذبحوها » فالنفى الداخل على الفعل كاد ما زال نفيا ، ويحسن أن استأنس هنا بما قاله الطبرى والزمخشرى .

أما الطبرى فإنه قال : وما كادوا يفعلون ، أى أنهم كادوا لا يفعلون ، لأنهم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة ، لغلاء ثمنها ، ولخوف الفضيحة على أنفسهم حينما يظهر قاتل القتيل الذى اختصموا فيه[1]

وأما الزمخشرى فقال : وما كادوا يفعلون ، استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها ، وما كادت تنتهى أسئلتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم[2] .

٢ – وقال تعالى : « قل كلٌّ مِنْ عند الله ، فما لهؤلاء القومِ لا يكادون يفقهون حديثا[3] » .

وذلك أنهم زعموا أن ما أصابهم من خير ونعمة منسوب إلى الله ، وما أصابهم من قحط وشر منسوب إلى رسول الله ، وهم مبطلون فى زعمهم ، لأن الله تعالى هو الفعال ، وهو الذى يبسط الأرزاق ويقبضها ، فما بالهم لا يقاربون أن يفهموا فيعلموا هذه الحقيقة ؟ وليس المراد أنهم فهموها بعسر .

٣ – وقال سبحانه : « واستفتحوا وخاب كلُّ جبارٍ عنيد ، مِنْ ورائه

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٨١
(٢) تفسير الزمخشرى ١ / ٧٥
(٣) سورة النساء ٧٨

جهنم ، ويُسْقَى مِنْ ماءٍ صديد ، يتجرَّعُه ولا يكاد يُسيغه ، ويأتيه الموتُ مِنْ كل مكان ، وما هو بمَيِّتٍ ، ومِنْ ورائه عذابٌ غليظ [1] » .

أي أنه يتجرع الصديد ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون إساغته إذن ؟

ويفهم من الآية أن الإساغة لم تقع مهما يكن عسرها .

٤ ـ وقال تعالى : « حتى إذا بلغ السَّدَّيْن وجد مِنْ دُونِهما قوما لا يكادون يفقهون قولا [2] » .

أى أن ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين وجد من دونهما قوما لا يقاربون أن يفهموا الكلام ، ولهذا يتم التفاهم معهم بالإشارة ونحوها ، فهم مثل البكم ، لأن لغتهم غريبة على ذى القرنين ، ولأن لغته مجهولة لهم .

٥ ـ وقال سبحانه : « والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقِيعة ، يَحْسَبُهُ الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجَدَ الله عنده فَوَفَّاه حسابه ، والله سريعُ الحساب . أو كظلمات فى بحرٍ لجِّيٍّ يَغْشاه موجٌ مِنْ فوقه موجٌ مِنْ فوقه سحاب . ظلماتٌ بَعْضُها فوق بعض ، إذا أخرَجَ يَدَه لم يَكَدْ يراها ، ومَنْ لم يجعل اللهُ له نوراً فما له مِنْ نور [3] » .

فى هاتين الآيتين وصف لظلمات متراكمة ، إذا أحاطت بإنسان وأخرج فيها يده لم يقارب أن يراها .

وهذا هو الذى يتناسب والظلمات الموصوفة ، وهو أبعد فى نفى الرؤية ، لأن الذى لا يرى قد يقارب أن يرى ، أو يرى رؤية ضعيفة ، ولكن الذى لا يقارب أن يرى لا يرى شيئا ما ، وهذا هو المراد من الآية الكريمة ، ويعززه تشبيه أعمال الكفار بالسراب ، فإن السراب لا حقيقة له ، ثم شبهت أعمالهم بالظلمات المتراكمة التى لا تهدى إلى شيء ولا يمكن أن يُرَى فيها شيء .

٦ ـ وقال سبحانه على لسان فرعون : « أم أنا خيرٌ من هذا الذى هو مَهِينٌ ، ولا يكاد يُبين [4] » .

---

(١) سورة إبراهيم ١٥ ـ ١٧

(٢) سورة الكهف ٩٣

(٣) سورة النور ٣٩ ـ ٤٠

(٤) سورة الزخرف ٥٢

فقد زعم فرعون لقومه أنه خير من موسى عليه السلام ، ووصفه بالضعف والحقارة وبالعجز عن الإبانة .

(٢) فى الشعر :

١ ـ قال ذو الرُّمَّة :

إذا غَيَّر النأىُ المحبين لم يَكَدْ
رسيسُ الهوى من حب مَيَّةَ يبْرَح[(١)]

يريد أنه إذا أضعف الفراق الحب فى قلوب المحبين فإن حبى لم يقارب الضعف والتغير .

وهذا أدل على ثبات حبه من أن يقول لم يبرح حبها قلبى ، فقد يكون حبها باقيا فى قلبه وهو ضعيف أو قريب من الزوال ، ولا يطاوعنا الأسلوب إذا أردنا أن نفهم البيت على أن النفى إثبات ، لأن المعنى يصير حينئذ إذا تغير المحبون جميعا تغيرت ، وهذا غير ما قصده الشاعر .

٢ ـ وقال قيس بن ذُرَيح أو قيس المجنون :

وما كاد قلبى بعد أيامَ جاوزَتْ
إلىَّ بأجراع الثُّدىِّ يَريعُ[(٢)]

أى أن عقله بعد رحيل محبوبته لم يقارب العودة إليه ، وليس المراد أنه عاد ، لأن عودته مهما تكن عسيرة لا تتفق والصورة الغزلية التى يقصدها .

٣ ـ وقرأ أبو على القالى على أبى بكر بن دُرَيْد :

وقد لان أيامُ اللِّوَى ثم لم يكد
من العيش شىءٌ بعدهنَ يَلينُ[(٣)]

فهو يصف الحياة فى أيام اللوى باللين ، ويصفها بعد أيام اللوى بالقسوة والجفاف وبأنها لم تقارب اللين ، ولا يريد أنها لانت مهما يكن لينها ضعيفا ، وهذا هو الذى يلائم ضيقه بالحياة بعد أيام اللوى .

٤ ـ وقال المرَّار بن مُنْقذ :

وإذا تمشى إلى جاراتها
لم تكد تَبْلُغُ حتى تَنْبَهِرْ[(٤)]

---

(١) رسيس الهوى : ثابته .
(٢) الأمالى ١ / ١٣٦
(٣) الأمالى ١ / ١٦١
(٤) المفضليات ١ / ٨٩

أى أنها ذات جسد ممتلىء ، وذات نعيم ، فإذا مشت من دارها إلى دارجارتها تلاحق نفسها سريعا ، وأدركها الإعياء قبل أن تصل .

رابعا (النتائج) :

تبين من الآيات القرآنية الكريمة ومن النصوص الشعرية ما يأتى :

١ - (كاد) فعل يدل فى حالة الإثبات على مقاربة الخبر ، ولا يدل على وقوعه فى أية صورة من الصور .

٢ - أما (كاد) الفعل المنفى فإنه ينفى مقاربة الخبر ، ولهذا كان الخبر المنفى بعده أبعد من المنفى بدونه ، فقولنا : لا أكاد أصدق هذا الخبر أوغل فى نفى التصديق من قولنا : أكاد أصدق هذا الخبر .

وهذا يخالف ما ذهب إليه الفراء والأزهرى فى قولهما إنك إذا قلت : ما كدت أبلغ إليك ، فمعناه أنك قد بلغت ، ويؤكد ما ذهب إليه الأخفش وغيره فى فهم ما بعد نفى كاد على أنه أوغل فى نفى الخبر منه بغيرها .

٣ - أما دخول النفى على خبر كاد نحو قضيت أياما فى بلد كاد فيه المطر لا ينقطع ، فإننى لم أجده فى نص موثوق به ، ولكن النحاة أجازوه ، والقياس لا يمنعه ، والمعنى حينئذ أن المطر قارب ألا ينقطع ، فالنفى منصب على الانقطاع لا على مقاربة الانقطاع .

وقد روى بيت زهير بن أبى سلمى :

صحا القلب عن سلمى وقد كان لا يسلو

وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

بوضع كاد بدلا من كان .

وجاء فى تفسير الطبرى قوله : عن ابن عباس فذبحوها وما كادوا يفعلون ، يقول كادوا لا يفعلون[1] .

والفرق بين قولنا : ما كاد المطر ينقطع وقولنا : كاد المطر لا ينقطع ، أن النفى فى الجملة الأولى منصب على مقاربة الانقطاع ، أما النفى فى الجملة الثانية فهو منصب على الانقطاع نفسه ، ولهذا كان النفى فى الأولى أوغل من النفى فى الثانية .

ومعنى هذا أن الخبر المنفى بنفى يسبق كاد أبعد من الخبر المنفى بنفى يجىء بعدها .

احمد الحوفى
عضو المجمع

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٨١

في الإعراب ومشكلاته

للدكتور أحمد علم الدين الجندي

(١)

مقـــدمة :

مما لا يتطرق إليه الشك أن أبا الأسود الدؤلي كان أول من وضع اللبنة الأولى في العربية وهي شكله للقرآن الكريم عن طريق النقط ، فكأنه أول من أعرب القرآن بالنقط ، والدليل على ذلك روايات عدة في كتب الطبقات : منها ماجاء عن السيرافي من أن زياداً أرسل إلى أبي الأسود وقال له : اعمل شيئا تكون فيه إماماً ينتفع الناس به وتعرب به كتاب الله ، فاستعفاه من ذلك ، حتى سمع أبو الأسود قارئا يقرأ : « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام في رسوله فقال : ماظننت أن أمر الناس صار إلى هذا فرجع إلى زياد فقال : أنا أفعل ماأمربه الأمير ، فليبغني كاتبا لقناً يفعل ماأقول فأتي بكاتب من عبد القيس ، فلم يرضه فأتي بآخر فقال له أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف ، فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنة ، فاجعل مكان النقطة نقطتين[١] « كما ذكر السيوطي : أنه أول من نقط المصحف[٢] ، وكان عند ابن سيرين مصحفاً نقطه يحيي بن يعمر »[٣] ، وكان أول من نقط المصاحف ، كما ذكر الداني أن المبتدئ بالنقط هو نصر بن عاصم[٤] الليثي ، ويظهر أن العلماء الثلاثة ساهموا في إعراب المصحف ، إلا أنني أرجح أن أبا الأسود كان أولهم ، للروايات التي تسوقها كتب

(١) أخبار النحويين البصريين : ١٢ ، مراتب النحويين : ١٠ أبو الطيب اللغوي : كتابه النقط والشكل لأبي عمرو الداني : ١٢٤ — ١٢٥ دمشق .

(٢) المزهر : ٢ - ٣٩٨ .

(٣) المقنع للداني : ١٢٥ دمشق .

(٤) كتاب النقط والشكل للداني : ١٢٥ دمشق .

الطبقات[1]، ولما عثر عليه من مصحف مخطوط فى مسجد عمرو بن العاص فى مدينة الفسطاط، وهذا المصحف يعد أقدم مصحف فى العالم،وأنه جمع الشكل الذى وضعه أبو الأسود ،وقد رسم بمداد أحمر وبنفس الطريقة التى نسبها الرواة إلى أبى الأسود ، كما أن هذا المصحف جمع عملا آخر لنصر بن عاصم وهو نقط الإعجام وقد رسم فى المصحف بمداد أسود[2]. فهذا يدل على أن عمل أبى الأسود كان إعراب القرآن بوسيلة النقط ، وأن عمل عاصم كان نقط إعجام للحروف ، للتفرقة بين ماتشابه منها فى اللحن. ولاأريد أن أفيض فيما إذا كان هذا النقط قد ابتكره أبو الأسود أم أنه استمده من نحاة السريانيين ، فلهذا مقام آخر ، وإنما الذى أريد أن أنتهى إليه هو أن تلك الخطوة الجريئة من أبى الأسود تلاها وصحبها ملاحظات ، وتجمع للأشباه والنظائر من المرفوعات والمنصوبات والمجرورات ، ولاشك أن العلاقة وثيقة بين نقط النص القرآنى — والذى يشير إلى الإعراب فى عمل أبى الأسود — وبين النحو الذى بأيدينا الآن ذلك الذى يحث على الإعراب فى كل صفحة من صفحاته ؛ إذ أنهم خافوا على القرآن الكريم من أن يمتد إليه اللحن ، وهو فيه أشد خطرا ، وأبشع جرما، ولهذا فزع أبو الأسود عندما سمع من يقرأ «إن الله برئ من المشركين ورسوله[3]» بكسر اللام فى رسوله، وفى رواية أن الأعرابى قال : إن يكن الله برىء من رسوله فأنا أبرؤ منه[4]، وماروى عن يونس أنه قال: قال الحجاج لابن يعمر : أتسمعنى ألحن على المنبر ؟ قال : الأمير أفصح من ذلك فألح عليه فقال : حرفاً ، قال : أيا ؟ قال : فى القرآن . قال الحجاج : ذلك أشنع له، فما هو ؟ قال : تقول :« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم[5] » إلى قوله عز وجل «أحبّ » فتقرؤها « أحبُّ » بالرفع ، والوجه أن تقرأ بالنصب على خبر كان ، قال : « لاجرم : لاتسمع لى لحنا أبداً ، فألحقه بخراسان »[6] وهذا يدل على أن اللحن عار ، بدليل أن الحجاج نفى يحيى بن يعمر إلى خراسان ، لأنه أنف أن يطلع له رجل على لحن .

(١) طبقات النحويين واللغويين : أبو الأسود الدؤلى ، المقنع ١٢٥ الدانى .

(٢) اللغة والنحو : ٢٣٦ حسن عون .

(٣) سورة التوبة آية ٣

(٤) نزهة الألباء ٧

(٥) سورة التوبة آية : ٢٤

(٦) طبقات النحويين واللغويين : ٢٢ للزبيدى ، وأخبار النحويين البصريين : ١٨ للسيرافى ، نزهة الألباء ١٠٠

ومن أجل هذا قال النبي (ص) «أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن»[*] كما روى أن رجلا لحن بحضرة النبي (ص) فقال: أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل»[1] كما روى السيوطي أن النبي (ص) قال: أنا من قريش، ونشأت في بني سعد، فأنى لي اللحن[2] »فإذا وصلنا إلى عهد أبي بكر نسمعه يقول « لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فألحن[3] » « فإذا جاء عهد عمر رأيناه يقول لقوم استقبح رميهم « ماأسوأ رميكم فيقولون: نحن قوم متعلمين، فيقول عمر: لحنكم أشد على من فساد رميكم[4] »كما روى أن كاتبا كتب إلى عمر «من أبو موسى الأشعرى» فكتب عمر إلى أبي موسى: « أن قنّع كاتبك سوطا[5] »، وروى عن ابن المغيرة عن أبي عبيدة قال: مرّ أبو عمرو بن العلاء فإذا أعدال مطروحة مكتوب عليها « لأبو فلان، فقال أبو عمرو: يارب: يلحنون ويرزقون[6] ». فإذا جئنا إلى عصر بني أمية وجدنا أن الخطأ في الإعراب من أقبح الهجنة، فعبد الملك بن مروان كان يستسقط من يلحن، قال العيني: «استأذن رجل من علية أهل الشام عليه، وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ياغلام، غطها، فلما دخل الرجل فتكلم لحن، فقال عبد الملك: ياغلام، اكشف عنها الغطاء، ليس للاحن حرمة»[7] ومما ساقه ابن عبد ربه أن عمر بن عبد العزيز كان جالساً عند الوليد بن عبد الملك، وكان الوليد لحانا فقال: ياغلام، ادع لى صالح، فقال الغلام: ياصالحا. قال له الوليد: انقص ألفا فقال عمر: وأنت ياأمير المؤمنين فزد ألفا[8]! واحتج على عبد الملك بلحن الوليد هذا، فقد ذكر ابن عساكر أن عبد الملك قال لرجل من قريش: « إنك لرجل لولا أنك تلحن » فقال: «وهذا ابنك الوليد يلحن» قال عبد الملك: لكن ابنى سليمان لايلحن « قال الرجل وأخى فلان لايلحن[9] » وقرأ يوما على

(*) الأضداد ٢١٣ لابن الأنبارى .
(١) الخصائص : ٢ - ٨ ، إرشاد الأريب : ١ - ٨ .
(٢) المزهر : ٢ - ٣٩٧
(٣) المرجع السابق .
(٤) الأضداد : ٢١٣ لابن الأنبارى
(٥) الخصائص : ٢ - ٨ ، المزهر : ٢ - ٣٩٧
(٦) إنباه الرواة : ٢ - ٣١٩ للقفطى
(٧) تاريخ آداب العرب : ١ - ٢٤٥
(٨) العقد الفريد : ٢ - ٢٩٩ .
(٩) فى أصول النحو للأفغانى : ١٢ هامش .

المنبر «ياليتها كانت القاضية» وضم التاء ، فقال عمر بن عبد العزيز (وكان تحت المنبر) ياليتها كانت عليك وأراحتنا منك[1]! » فإذا ماجاء عصر الدولة العباسية ، نرى اللحن يزحف وينشر وتتعدد صوره وأشكاله ، بل إنه هدد الفصحى ، ونظرة واحدة إلى العقد الفريد والبيان والتبيين ، والمعجم فى بقية الأشياء للعسكرى ، وكتب الطبقات تريك حشداً من اللحن.ولم يكن اللحن مقصورا على طبقة معينة ، ولكنه شمل العلماء ورجال الدين ، فأبو حنيفة — كان فى الفتيا ولطف النظر واحد زمانه، وسأله رجل يوما فقال له : ماتقول فى رجل تناول صخرة فضرب بها رأس رجل ، فقتله أتقيده به؟ قال: لا ، ولو ضربه بأبا قبيس[2]، والحق أن هذه القولة من أبى حنيفة يمكن أن نجعل لها تخريجا فى العربية ، وأنها جاءت على لهجة من يلزم الأسماء الخمسة الألف فى جميع أحوالها ، كما نجد لحنا للإمام الكبير مالك بن أنس (٩٠ — ١٧٩ هـ) من يقول : أىُّ مطراً ، بدلا من : أى مطر . حتى إن الأصمعى ليدهش من صدور مثل هذا عنه ، وهو حجة ثقة ، نجد جرف اللحن أيضا فقيها من رجال المدينة وهو ربيعة بن أبى عبد الرحمن (المتوفى ١٣٦) إذ كان يخلط فى الإعراب[3]، ولم يكن اللحن مقصوراً على هؤلاء جميعا ولكنه شمل ميدانا آخر — ميدان القراء — حيث اتهمهم النحاة باللحن فى القرآن ؛ فالنحاة يخطئون ابن عامر مقرىء الشام ونافع مقرىء المدينة ، وحمزة مقرىء الكوفة ، والقعقاع ، وابن مسعود ، والحسن البصرى ومعاذ الهراء .

حركة تنقية اللغة :

ومن هذا العرض الوجيز نرى أن اللحن قد شمل البيئات والأفراد على اختلاف مشاربها ومنازلها ، فشمل الأمراء ، والفقهاء والشعراء ، وأخيرا القراء ، والحق أن اللحن له صور عدة ، اخترت منها الأمثلة السابقة وهى كلها تتعلق (بالإعراب) إذ أن اللحن فى الإعراب كان أول ماظهر عند العرب ، بعكس لحن الموالى الذى اتجه أولا إلى تحريف الأصوات العربية ، يؤيد ذلك قول أبى الطيب « واعلم أن أول مااختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعراب[4]» كما يظهر أن هذا اللحن فى الإعراب قابلته حركة قوية ، ولاسيما بعد أن انتشر فى جميع الأوساط فى المنازل

---

(١) المرجع السابق .
(٢) العقد الفريد : ٢ - ٣٠١ ، البيان والتبيين : ٢ - ٢١٢ .
(٣) العربية : ٦٩ يوهان فك .
(٤) مراتب النحويين : « أبو الطيب .

والمدارس والمساجد وبين الخاصة أنفسهم تـلك الحركة هي حركة تحصين اللغة وتنقيتها التي تمثلت أول أمرها في نقـط القرآن أو إعرابه ، ثم إعجامه ، فالنحو الذى وضعه أبو الأسود ليس هو النحو الذى نراه ونلمسه الآن ، مملوءا بالمهاترات والمشاحنات ، والجدل ، والمنطق والعلل ولكنه نحو أيسر مما نراه لايجاوز الحفاظ على قراءة القرآن ، حتى لاتنحرف فيه الألسنة ، ثم أعقبته أعمال بعد ذلك كملت خطاه .

سلطان النحاة ونفوذهم :

وكانت وظيفة النحو أن يطارد اللحن ويشن عليه غاراته ، ولكن هذا النحو أخذ يمد سلطانه حتى تصدى لعلماء العربية ، وشعراء الجاهلية ، وأخيرا امتدت يده إلى القراء ، المشهود لهم بالثقة ، والذين تلقوا قراءتهم عن صاحب الرسالة (ص) وكان أكثر هجومهم وتخطئتهم في ميدان الإعراب ، حتى اشتد الجدل بينهم أنفسهم فيه ، فمن ذلك أن ابن أبي إسحق كان يقرأ « ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » بالنصـــب ، وكان يقرأ «الزانية والزانى»[1]« والسارق والسارقة [2]» بالنصب وهو خلاف ماقرأ به القراء[3] .إذ قرءوا بالرفع كما كان يقرأ عيسى بن عمر «هؤلاء بناتى هن أطهر لكم»[4] بنصب أطهر ، وأبو عمرو[5] ينكرها عليه ، وكان عيسى وأبو عمرو يقرآن « ياجبال أوبى معه والطير[6] » بالنصب ويختلفان في التأويل وكان عيسى يقول : هـو على النداء كما تقول : يازيد والحارث لما لم يمكنه ويا الحارث ، وقال أبو عمرو : لو كان على النداء لكان رفعا ، ولكنها على إضمار وسخرنا[7] الطير ، كما تطاول النحوى عيسى بن عمر الثقفى(١٤٩هـ) فخطّأ النابغة في قوله.

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة
من الرقش في أنيابها السم ناقع[8]

وذكر أنه يجب أن يكون في غير الضرورة : ناقعاً . كما خطأ عنبسة بن معدان المهرى (١٠٠ هـ) الفرزدق أيضاً[9]. وهذا أحد النحاة عبد الله بن أبي إسحق الحضرمى النحوى

---

(١) سورة النور آية : ٢٤
(٢) سورة المائدة آية : ٥
(٣) طبقات النحويين واللغويين : ٢٧ للزبيدى .
(٤) سورة هود آية : ٧٨
(٥) طبقات النحويين : ٣٦ للزبيدى .
(٦) سورة سبأ آية : ١٠
(٧) طبقات اللغويين : ٣٦ للزبيدى .
(٨) طبقات الزبيدى : ٣٥ ، كتاب سيبويه : ١ - ٢٦١ ط بولاق .
(٩) أخبار النحويين البصريين : ١٨ - ١٩ ، الموشح : ١٠٤ للمرزبانى .

(١١٧ هـ) وكان كعيسى بن عمر يطعن على العرب [١] فى لغتهم ، إذ كان يقدم القياس ويأخذ بالعلل ، كما يقف من العرب موقف العداوة والبغضاء – ويعيب على الفرزدق فى مديحه ليزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام – تضربنا
بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا يُلقى وأرجلنـــا
على زواحف تُزجى مخّها ريرُ [٢]

وبلغ الفرزدق أن الناس يهمسون بأنه قد أقوى ، ولم يبلغه أن الذى اتهمه بالإقواء هو ابن أبى إسحق ، فقال الفرزدق : مابال هذا الذى يجرّ خصيبيه « يعنى ابن أبى إسحق » لا يجعل له بحيلته وجهاً ؟ فلما علم أن ابن أبى إسحق صاحب الطعن عليه قال : والله لأهجونه ببيت يكون شاهداً على ألسنة النحاة فهجاه بقوله :

فلو كان عبد الله مولىً هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا [٣]

ويظهر أن جمود النحاة وتعنّتهم هذا قد أوجد فى أول الأمر ثورة عليهم من العرب وشعرائهم . يظهر هذا حين أنشد الفرزدق قصيدته التى يقول فيها :

إليك أمير المؤمنين رمت بنـــا
هموم المنى والهوجل المتعسف
وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال إلا مسحتاً أو مجلفُ [٤]

فقال له ابن أبى إسحق : على أى شىء رفعت مجلفاً؟ فأجابه الفرزدق فى سخرية : على ما يسوؤك وينوؤك ، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا . وإجابة الفرزدق تشير إلى منهج يراعى المستوى الصوابى الاجتماعى أما المنهج الآخر الذى يراعيه المستوى الصوابى النحوى فهو منهج النحاة ، ويرى الدكتور تمام حسان أن المنهج اللغوى الحديث يعترف بالمستوى الصوابى الأول ، وينكر المستوى الصوابى الثانى لأنه معايير باحث خلقها بنفسه ، ويريد أن يفرضها فى الاستعمال [٥] ، ولقد طلب النحاة العلل والمقاييس لتصحيح قول الفرزدق حتى جهدوا ، وأرى أن الفرزدق لم يخطئ بدليل أن أبا عمرو بن العلاء قال للفرزدق أصبت وهو جائز على المعنى [٦] ، ورحم الله ابن قتيبة حيث قال : أتعب

---

(١) طبقات الزبيدى : ٢٦

(٢) المرجع السابق .

(٣) مراتب النحويين : ١٢

(٤) الشعر والشعراء : ٢٣ ط المعاهد .

(٥) اللغة بين المعيارية والوصفية ١١ دكتور تمام حسان .

(٦) نزهة الألباء ١٣ .

الفرزدق أهل الأعراب ، فقالوا وأكثروا ، ولم يأتوا بشيء يرتضى ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به احتيال وتمويه [1] ، وكان النحاة بالتحامهم مع الشعراء فى تلك المعارك الحامية يريدون أن يتثبتوا من مدى صلاحية معاييرهم وقواعدهم التى فرضوها ، ولا شك أن كثيراً من النحاة كانوا يتقعرون حتى تستغلق أفهامهم ، ويستبد بهم جمود القريحة والصنعة والتكلف ويظهر هذا من سؤال وجهه الجاحظ إلى أبى الحسن الأخفش قائلا له : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ ... قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلّت حاجاتهم إلىّ فيها ، وإنما كانت غايتى المنالة [2] . وبهذا ضيق النحاة على أنفسهم وعلى غيرهم حتى ضاق النحو بنفسه لتعقد أبوابه ، وأخذ رد الفعل الإيجابى لهذا الضجر تقديم مقترحات لإصلاح النحو وتيسيره ، ونقد مناهج النحاة ، ومن أول من تصدى لذلك :

١ – ابن ولاّد المصرى (القرن الرابع) .

٢ – أبو العلاء المعرى (القرن الخامس).

٣ – ابن حزم الأندلسى (القرن السادس).

٤ – ابن مضاء القرطبى (القرن السابع) .

وهكذا أصبحنا لا نتصفح ورقة من النحو إلا وجدنا خلافاً فى الإعراب ، فالكسائى يقرأ بحضرة الرشيد أبيات أفنون التغلبى ومنها :

أبلغ حُبيباً وخلل فى سراتهم
أن الفؤاد انطوى منهم على حزن

إلى أن قال :

أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به
رئمان أنف إذا ماضُنّ باللبن

ففتح نون رئمان – وكان الأصمعى حاضراً فقال : هى رئمان بضم النون ، فأقبل عليه الكسائى وقال له : اسكت ما أنت وهذا ؟ يجوز رئمانٌ ورئمانَ ورئمانِ بالرفع والنصب و الجر [3]. فالنحاة فى هذا قد نسوا المعنى لحرصهم على هذا الإعراب ، حتى كان النحو عندهم غايته الإعراب ، وهم بهذا قد ضيقوا حدوده حين اهتموا بالأحوال المختلفة من : رفع ونصب وجر من غير فطنة لما يتبع هذه الأوجه من أثر فى المعنى ، يجيزون فى الكلام وجهين أو أكثر من أوجه الإعراب ، ولا يشيرون إلى ما يتبع كل وجه من أثر فى رسم المعنى وتصويره ، وبهذا يشتد جدلهم ويطول احتجاجهم ثم لا ينتهون إلى كلمة فاصلة [4] .

---

(١) الشعر والشعراء ٢٣ . إحياء النحو إبراهيم مصطفى ط ١٩٥١ ٩٤ .

(٢) الحيوان ١ – ٩١ فما بعدها . تحقيق عبد السلام هارون .

(٣) مغنى اللبيب ١ – ٤٤ ، وانظر : خزانة الأدب . الشاهد ٩٠٦ .

(٤) إحياء النحو ٨ .

تفسير ظاهرة الاعراب :

قام خلاف بين علماء العربية فى دلالة الحركات على المعانى الإعرابية أو عدم دلالتها ، وأول من أشار إلى ذلك الخليل[1] . وممن ذهب إلى أن الحركات دوال على معان أبو القاسم الزجاجى ت ٣٣٧ ﻫ فى كتابه : الإيضاح[2] فى علل النحو حيث يقول : إن الأسماء لما كانت تعتورها المعانى ، فتكون فاعلة ومفعولة ، ومضافة ومضافا إليها ولم تكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الإعراب فيها تنبىء عن هذه المعانى .

ويذهب قطرب ت ٢٠٦ ﻫ إلى أن العرب : « إنما أعربت كلامها ؛ لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج[3] فلما وصلوا وأمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ، ليعتدل الكلام » فمذهب قطرب أن الحركات الإعرابية لامعنى لها ،بل جىء بها تخفيفا ، وقد انفرد قطرب بهذا الرأى ، والأصل دخول الإعراب فى الكلام ، ليفرق بين المعانى ، وعلماء العربية على هذا .

لكن منهج البحث عند جمهور النحاة تنكب هذا الطريق حين فسر هذه الحركات تفسيرا فلسفيا فى ضوء العامل ، والأثر والمؤثر ، والمعلول والعلة ، وشغلوا عن دلالة الحركات ودلالتها على المعانى ، حتى صار الإعراب وهو دليل المعانى يدرس بمعزل عن تلك المعانى ، وحرصوا على أن يتقن المعرب مصطلحات الإعراب وعباراته من غير إشارة إلى الارتباط بين المعانى والإعراب ؛ ولهذا كان يهيب ابن جنى بالنحاة أن يتركوا المعنى على ماهو عليه ، وأن يصححوا أوجه الإعراب من غير مساس[4] بالمعنى نفسه .

وإحقاقا للحق يجب أن نشير إلى أن فئة من نحاة القرآن كانت تلحظ هذا الارتباط ، وهاهو الفراء فى معانيه عند تفسير قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » يقول : لو نونت فى (ذائقة) ونصبت الموت كان صوابا ، وأكثر ماتختار العرب التنوين والنصب فى المستقبل ، فإذا كان معناه ماضيا لم يكادوا يقولون إلا بالإضافة[5] ؛ فالفراء يشير إلى اختلاف الحركات باختلاف المعانى مضيا واستقبالا[6] .

---

(١) كتاب سيبويه ٢ / ٣١٥ بولاق .

(٢) ص ٦٩ تحقيق : مازن المبارك ط دار العروبة ، وانظر الأشباه والنظائر ١ / ٧٦ فما بعدها . للسيوطى .

(٣) الإيضاح ٧٠ .

(٤) انظر الخصائص ٢٩٢ ط الهلال .

(٥) انظر معانى القرآن للفراء عند تفسير : « كل نفس ذائقة الموت » .

(٦) انظر المصدر السابق عند تفسير : إن الله بالغ أمره ، وقوله : « هل هن كاشفات ضره » .

الاعراب فى الفصحى والساميات :

ولكن هل هذا الإعراب كان مراعى فى الفصحى ؟ وهل فى الساميات مثل هذا الإعراب الذى نراه فى عربيتنا ؟

يرى V. Renan أن الإعـــراب فى العربية لايـــوجد له نظير فى أى أخت من الأخوات السامية اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية فى العبرية والآرامية والحبشية[١] ، ويذهب المستشرقون ومنهم : ولين Wallin وفلبي Phillippi ونـــولدكه Noöldeke ثم بروكلمان Brokelmann إلى أن الإعراب خاصية سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكدية ، والإعراب فيهما أقدم من ٢٥٠٠ سنة ق.م. أى أن عمـــره أكثر من خمسة وأربعين قرنا ، وبهذا يرد على زعم من ينكر الإعراب عند العرب أو من يرى فى الإعراب ظاهرة لاتتلاءم مع الحضارة[٢] . ولايشارك العربية فى الإعراب من اللغات الحية إلا الألمانية ، أما اللغات الآرية الحديثة — وتشمل معظم لغات أوروبا الحديثة — فقد خلت من حالات الإعراب ، هذا وقد امتدح الإعراب فى العربية نفر من المستشرقين منهم : بروكلمان حيث يرى أن لغة الشعر العربى تميزت بثروة عظيمة من الصور النحوية ، وقد بلغت من حيث دقة التعبير عن علاقات الإعراب والنحو ذروة التطور فى اللغات السامية « ولوى مسينون ، ويوهان فك » حيث يقول الأخير : لقد احتفظت العربية الفصحى فى ظاهرة التصرف الإعرابى بسمة من أقدم السمات اللغوية التى فقدتها جميع اللغات السامية باستثناء البابلية القديمة قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي[٣] .

يؤكد ذلك ماساقه د . رمضان عبد التواب من نصوص قانون حمورابى ١٧٩٢ — ١٧٥٠ ق . م المدون باللغة البابلية القديمة — بين فيها تماثل الإعراب بينها وبين العربية ، فالفاعل مرفوع والمفعول منصوب ، وعلامة الرفع الضمة وعلامة النصب الفتحة وعلامة الجر الكسرة كما فى العربية[٤] . هذا ، وقد حملت لغة النقوش العربية البائدة بذور الإعراب ، وقد رمز إلى الإعراب فى تلك النقوش بحروف تلحق بآخر الكلمة ، ومن ذلك ماجاء فى نقش النمارة : ونزدو — فالواو علامة الرفع عندهم : وهرب مذحجو — فألحق الواو بالكلمة أيضا مع أنها فى حالة النصب ، لأنها مفعول به وقد وقع عليها الفعل : وملك معدو — فالواو فى الاسم ذكرت

---

(١) فقه اللغة ١٣٠ وافى .

(٢) نحو عربية ميسرة ١٢٣ / د . فريحة . بيروت .

(٣) العربية ٣ يوهان فك .

(٤) فصول فى فقه العربية ٢٣٩

للإعراب[1] ، كما حملت الإعراب لهجة (أزد السراة) وهى لهجة عربية قديمة حيث يقولون : جاء زيدو ، ورأيت زيدا ، ومررت بزيدى ، فالواو والياء يمكن أن تكون دليل الإعراب فى تلك اللهجة ، وأنهم فعلوا ذلك لحرصهم على بيان الإعراب ولاسيما عند الوقف[2] . ولاشك أن هذه آثار ضئيلة إذا ماقيست بالإعراب فى عربيتنا . والذى أرجحه أن الإعراب عنصر أساسى من عناصر الفصحى ، وموجود فيها قبل وضع النحو العربى على الصورة التى نراها الآن ، على أن الإعراب لم يصل إلى تلك الدرجة الدقيقة الكاملة إلا بعد مراحل ، وربما كانت الألفاظ المعربة فى العربية فى وقت ما مبنية على السكون ، ثم تطورت إلى مرحلة جديدة نحو الإعراب ، وكان ذلك قبل الإسلام بوقت طويل ، واللغة العربية لاتشذ فى هذا الباب عن عالم الأحياء ، والاجتماع ، إذ اللغة كائن حى من جهة واجتماعى من جهة أخرى .

على أن الأعراب فى باديتهم فى الزمن الأقدم لم يعرفوا قواعد الإعراب كعلم له مصطلحاته العلمية بدليل أن أعرابيا سئل : أتجُرُّ فلسطين ؟ فقال : إنى إذن لقوى ! فقيل له : أتهمز إسرائيل ؟ فقال : إنى إذن لرجل سوء ! ، فالأعرابى البدوى فهم : الجر والهمز لغويا لابمعناها الاصطلاحى العلمى المعروف للنحاة .

وأميل إلى أن نحاة البصرة والكوفة قد زادوا فيه شيئا كثيرا ، ولاسيما فى دقة القواعد وتشعبها ، فاتسع الإعراب كلما احتدم النزاع بين المذاهب النحوية ، وكثرت الأوجه الإعرابية فى كل كلمة ، فالإعراب أثر لعامل إن وجد فيها ونعمت ، وإلا وجب تقديره ، فكل حركة لابد لها من عامل ، كما أن كل حادث لابد له من محدث .

وقد كانت المناظرات بين علماء النحو من أسباب التوسع فى الإعراب ، وخلق أنماط جديدة منه ، فالمناظرة التى وقعت بين الكسائى والأصمعى — كانت خلافا على الإعراب فى كلمة — أجاز فيها الكسائى الأوجه الإعرابية الثلاثة[3] ، وكذلك كانت المناظرة بين الكسائى وسيبويه فى المسألة الزنبورية[4] . وقد لعبت فيها السياسة دورا خطيرا ، وكذلك غيرها من المناظرات النحوية كالتى وقعت بين الرياشى وثعلب ، أو بين المبرد وثعلب ، وأكثرها يشترك فيها الإعراب الذى أتقنه وزاد فيه وغيرّه هؤلاء جميعا .

---

(1) تاريخ اللغات السامية ١٩٠ ولفنسون ، تاريخ العرب ٧ / ٢٧٣ فما بعدها . جواد على .
(2) شرح السيرافى على سيبويه ٥ - ٤١٦ مخطوط بالتيمورية ٢٨ نحو .
(3) معجم الأدباء : ترجمة الكسائى .
(4) طبقات اللغويين ٦٩ للزبيدى .

واستمع إلى المعرّى يثير مشهدا لأحد النحاة حيث اتهم بتغيير الإعراب وتبديله « وكنت رأيت فى المحشر شيخا لنا كان يدرس النحو فى الدار العاجلة يعرف بأبى على الفارسى وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون : تأولت علينا وظلمتنا . منهم : يزيد بن الحكم الكلابى وهو يقول : ويحك !! أنشدت عنى هذا البيت : برفع الماء — يعنى قوله :

فليت كفافاً كان شرّك كلّه
وخيرك عنى ماارتوى الماء مرتوى

ولم أقل إلا الماء بالنصب[1] .

والحق أن للنحويين دخلا كبيرا فى اللغة التى بين أيدينا ، وأنهم خلقوا أشياء وأمثلة لم تعرفها العرب ، وعمموا مالم تعممه العرب ، والواقع أن هناك فروقا كبيرة بين اللغة كما حكيت عن العرب ، وكما قعدها النحاة .

بين الحركات والحروف فى الاعراب

لمحة تاريخية :

توهم القدماء من علمائنا ضآلة قيمة الحركات ، وأنها أمر ثانوى بالقياس على الحروف وفى هذا القول بعض المغالاة ، فللحركات خطورتها فى تنويع أصل كل معنى وعن طريقها يتحقق تغاير المعنى الصرفى ، كما أنها تمثل عنصرا هاما فى كل من : النبر فى الجانب الصرفى ، والتنغيم فى الجانب النحوى ، زد على ذلك أنها تكوّن قمم مقاطع فى العربية ، ومكانتها أخيرا فى العروض العربى لاتنكر حيث حلت مكانا مرموقا فى موازين الشعر[2] .

وتاريخ الحركات جزء هام من تاريخ الكتابة العربية فى عصورها الإسلامية غايتها تصوير كل صوت برمز كتابى يدل عليه ، وفى العربية نجد أنماطا من الحركات المختلفة من بسيطة ومزدوجة (Diphtong) وممطولة ومخطوفة أو مختلسة ، على أن الحركات وهى الأهم فى موضوعنا يمكن أن ترتبط بنظرية نحويى العربية الذين يرون أن الحركات الأساسية هى التى بواسطتها تحرك نهاية الكلمة فى حالات الإعراب ، غير أنه يوجد إلى جانب هذه الحركات حركات أخرى نشأت بتأثير الحرف الصامت سابقا أو لاحقا ، مع بعض العوامل الأخرى ، على أن هذه

---

(١) رسالة الغفران ١٥٢ فما بعدها . المعرى . تحقيق : بنت الشاطىء : ١٩٥ .

(٢) انظر كتابنا : « نحو القلوب الصغير » ص : ١٩٠ ط الدار العربية للكتاب بتونس ، وفى هذا الكتاب أثبت أن للحركات قيمة هامة أخرى فى الجانب الصوفى وخلعت عليها تسمية مبتكرة باسم (صوفية الحركات) ، أو (أخلاقية الحركات) .

الحركات والسكنات عندما تتقاصف على الصيغة تؤلف نمطا منسجما يتواكب مع المعانى الوظيفية ، وفيضا غامرا من اختلاف الأوجه وديناميكية الانتقال من صيغة إلى أخرى مما يعد نمطا فريدا لسياسة الحركات الذى يتوج التمدن اللغوى الحضارى للأمة العربية(١) .

على أننا لا ننكر صعوبة تاريخ الحركات فى سائر اللغات العربية الجاهلية لأن أبجديتنا أبجدية حروف صامتة تهمل الحركات وأمثالها من ضغط ونبر وتنغيم ، كما أن مخالفة الكتابة للنطق كثيرا ما يكون مصدرها تطور الصوت فى الكلمة ، ونشاهد ذلك فى رسم المصحف الشريف ، والساميات أخوات العربية حيث نشاهد فى العبرية (صان) ونطقها (صون) وكذلك (راش) بمعنى رأس ، ونطقها (روش) .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نرى أن بعض قدماء النحاة لم يوفقوا حين ظنوا أن الحركات ليس لها من الأهمية ما للحروف ، فقد زعموا أن حركات العلة أعراض ، والحروف الساكنة جواهر وأصول ثم دخلوا فى متاهات ومشكلات منها :

١ ـ محل الحركة من الحرف : أما سيبويه فيذهب إلى أن الحركة تحدث بعد الحرف ، وقال غيره : معه وذهب غيره إلى أنها تحدث قبله ويذكر ابن جنى ابتداء تلك القضية فيقول « واعلم أن الحركة التى يتحملها الحرف لا تخلو أن تكون فى المرتبة قبله ، أو معه ، أو بعده(٢) » .

والفارسى على رأس الذين يرون أن الحركة تحدث مع الحرف(٣) على أن ابن جنى يستنكر أن تكون الحركة فى المرتبة قبل الحرف(٤) .

ونحاتنا فى هذا الخضم العريض تتناحر آراؤهم وتتشاجر فعندما يقررون أن الحركات أضعف من الحروف نرى أن الصواب قد جانبهم فى ذلك ، إذ الدراسات الحديثة قد أثبتت أن جميع الحركات القصيرة والطويلة مجهورة ، وأنها أقوى فى الوضوح السمعى من الأصوات الساكنة(٥) .

٢ ـ ثم تراهم ينقضون مبدأهم فيقررون أن الحركة أصل للإعراب وأن حرف المد فرع عنها وذلك فى قول ابن جنى « فالألف والياء والواو فى جميع هذه الأسماء الستة دواخل على الفتح والكسر والضم ، ألا تراها تفيد من الإعراب ما تفيده الحركات : الضمة والفتحة والكسرة . . . وإنما الموضع فى الإعراب للحركات ، فأما الحروف فدواخل عليها(٦) .

---

(١) انظر مقالنا فى مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٩ .
(٢) سر الصناعة : ٣٢ . (٣) السابق : ٣٧ .
(٤) انظر أدلته فى سر الصناعة ص : ٣٢ . (٥) نحو القلوب الصغير : ١٨٤ دكتور أحمد علم الدين الجندى
(٦) الخصائص : ٣ / ١٣٥ تحقيق الأستاذ محمد النجار . دار الكتب المصرية .

وإذا كان نحاتنا يرون أن الحركات أضعف من الحروف لأن الحركة فى حقيقتها ناقصة لأنها لاتقوم بنفسها وهى محتاجة لكى توجد إلى حامل هو الحرف. ثم إن الحركات جزء من شئ آخر سابق عليها وهو الحرف التام الكامل ، وابن جنى يقرر ذلك حين يقول : « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهى الألف والواو والياء فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث : الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة : الألف الصغيرة ، والكسرة : الياء الصغيرة والضمة : الواو الصغيرة وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة »[1] .

فنص ابن جنى يؤكد أن الحركات أبعاض لهذه الحروف ، وإذا كان كذلك فكيف تنقلب الفكرة عندهم رأسا على عقب حين يقررون أن أصل الإعراب أن يكون بالحركات كما قالوا أيضا بأن الحروف أقوى من الحركات وأصل لها ، وفى الإعراب نقضوا عهدهم أيضا حين قالوا بأن حروف المد فرع أو دواخل على الحركات وهى الضم والفتح والكسر . على أنه لافرق بين الحركات وحروف المد إلا فى الكمية من وجهة نظر الدرس اللغوى الحديث ، وعلماء العربية الأقدمون يذهبون إلى مثل ذلك أيضا ، حيث يقرر ابن جنى ذلك فيقول : « ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذى هو بعضه »[2] فكأن الحركات حين تشبع تنشأ الحروف ، وكان على النحاة من خلال هذا الفهم أن يعتصموا بأن الإعراب لايكون إلا بالحركات وحدها لاغير حتى لايثيروا بلبلة واضطرابا وتناقضا فى مسائل النحو كما سنرى ، لأنه ليس بين الإعراب بالحركات والحروف من فرق إلا فى الكم ، أما فى الكيف فهى هى : الحركات أصوات مد قصيرة والأحرف أصوات مد طويلة ، والواو التى زعموا أنها علامة رفع فرعية ليست إلا ضمة مشبعة ، والياء ليست إلا كسرة مشبعة ، والألف كذلك ليست إلا فتحة مشبعة ، فالفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو ، ولكن النحاة شقوا على أنفسهم وعلى غيرهم حين ذكروا علامات أخرى للإعراب سموها العلامات الفرعية ، وجعلوها نائبة عن العلامات الأصلية ،وسيقابلك حشد من آرائهم المتصارعة فى الإعراب بالعلامات الفرعية . وعلى سبيل المثال فالأسماء الستة تراهم يختلفون فى إعرابها إلى مذاهب قددا :

١ ــ أن الواو والألف والياء فيها حروف إعراب ، والإعراب مقدر فيها كما يقدر فى الأسماء المقصورة . وهذا قول سيبويه .

---

(١) سر الصناعة : ١٩ ، وانظر : الأشباه والنظائر ١ / ١٧٢ للسيوطى . القاهرة .

(٢) سر الصناعة : ٢٠ .

٢ – أنها معربة من مكانين بالحروف والحركات التى قبلها ، وهو رأى الكوفيين .

٣ – أن هذه الحروف حروف الإعراب وعلامته فالواو بمنزلة الدال والضمة فى نحو : قاتل الجند، والياء بمنزلة الدال والكسرة فى نحو : أتيت على الجند والذى جعلهم يقولون بذلك : أن حروف العلة لو سقطت اختلفت معانى هذه الأسماء ، فهى كحروف الإعراب ، توجد بوجوده ، وتزول بزواله فهى كسلامته .

٤ – وذهب بعض النحويين إلى أن هذه الأسماء إذا كانت فى موضع رفع كان فيها نقل بلا قلب ، وإذا كانت فى موضع نصب كان فيها قلب بلا نقل ، وإذا كانت فى موضع جر كان نقل وقلب .

٥ – وذهب بعضهم إلى أن الياء والواو والألف نشأت عن إشباع الحركات (١) وهذا الرأى قريب من رأى المحدثين اللغويين حيث يرون أن اختلاف وقوع النبر هو السبب فى مطل هذه الحركات أو تقصيرها فلو قلت : (أخوك) كان النبر على المقطع الثانى (خو) أما (أخك) بدون مطل فالنبر على المقطع الأول (أ) .

ومثل هذا الخلاف يطالعنا فى باب التثنية والجمع كذلك بين البصريين والكوفيين ، وبين أفراد كل فريق منهم ، فيذهب سيبويه إلى أن الألف والواو والياء هى حروف الإعراب ، وذهب أبو الحسن الأخفش ، وأبو العباس المبرد ومن تابعهما إلى أنها تدل على الإعراب وليست بإعراب ولا حروف إعراب ، وذهب أبو عمر الجرمى إلى أن انقلابها هو الإعراب وذهب قطرب والفراء والزيادى إلى أنها هى الإعراب (٢) .

والذى ورط النحاة فى قولهم : الإعراب بالحروف فرع عن الإعراب بالحركات التى هى أصول – ما يذهبون إليه دائماً من القول بالأصل والفرع فى كل مشكلة تقابلهم ، ولهذا يعج النحو العربى ، وتطالعك نظرية الأصول والفروع التى ترتبط بمنهج أصول الفقه فى كل باب من أبوابه ومن ذلك :

١ – باب من غلبة الفروع على الأصول (٣) .

٢ – حمل الأصول على الفروع .

٣ – باب فى المستحيل وصحة قياس الفروع على فساد الأصول (٤) .

---

(١) أسرار العربية لابن الأنبارى ١ / ٤٤ فما بعدها ط د مشق ، واللمع لابن جنى : ١٠١ فما بعدها وانظر التحقيق للدكتور حسين شرف ط ١٩٧٨ والرضى على الكافية ١ / ٢٧ ، وشرح المقدمة النحوية لابن باب شاذ ٥٨ فما بعدها .

(٢) سيبويه ١ / ٤ ط بولاق ، وأسرار العربية : ٥١ ، واللمع لابن جنى : ١٠٣ وانظر المحقق ، وشرح المقدمة النحوية لابن باب شاذ : ٦٤ تحقيق د . أبو الفتوح شريف ط ١٩٧٨ .

(٣) الخصائص ١ / ٣٠٠ .

(٤) الخصائص ٣ / ٣٢٨ .

٤ ــ مراجعة أصل واستئناف فرع .

٥ ــ نقض الأصول وإنشاء أصول غيرها منها(١) .

٦ ــ مراجعة الأصل الأقرب دون الأبعد .

٧ ــ مراعاة الأصول تارة وإهمالهم إياها أخرى . وقد تكثر الفروع وتطرد حتى تصير كالأصول فتشبه الأصول بها .

٨ ــ حط الفروع عن الأصول .

٩ ــ هجر الأصل حتى بعد النطق شذوذا .

١٠ ــ قد يكون للشيء أصلان (٢) والأصول لاتحتاج إلى علامات ، وإنما تحتاجها الفروع ، كما نرى هذه الأصول فى جزئيات الفصول والأبواب النحوية مثل قولهم :

١ ــ لماذا كان(٣) الأصل فى الخبر الإفراد ؟ ومتى يأتى الخبر على خلاف الأصل؟

٢ ــ لماذا كانت إلا هى الأصل فى الاستثناء ؟

٣ ــ لماذا كان الأصل فى الأفعال التصرف ، ولماذا كان الأصل فى الأفعال الدلالة على الحدث والزمان ؟

٤ ــ لماذا كان الفعل أصلا للاسم فى الصحة والإعلال ؟

٥ ــ الأصل فى الأسماء التذكير ، والتأنيث فرع عليه .

٦ ــ الحذف للجزم أصل للحذف للنصب .

٧ ــ الباء هى الأصل فى حرف القسم .

٨ ــ النكرة أصل والمعرفة فرع عليها .

٩ ــ وحسبنا أن نختم هذا بما يتصل بموضوعنا (الإعراب ومشكلاته) ونشير إلى قضيتين :

أولاهما : قولهم : الأصل فى الإعراب أن يكون بالحركات ، والإعراب بالحروف فرع عليها . وإنما كان الإعراب بالحركات هو الأصل لثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن الإعراب دال على معنى عارض فى الكلمة ، فكانت علامته حركة عارضة فى الكلمة لما بينهما من التناسب .

والثانى : أن الحركة أخف من الحرف وأقل منه ، وهى كافية فى الدلالة على الإعراب ، وإذا حصل الغرض بالأخف الأقل ، فلا يتكلف غيره ، ولذلك كثرت الحركات فى بابها ، وقل غيرها مما أعرب به ، وقدر غيرها بها ، ولم تقدر هى به(٤) .

---

(١) الخصائص : ٣ / ٢٢٧ .

(٢) الأشمونى : ٤ / ٢١٢ .

(٣) ألاحظ اهتمام النحو التقليدى بالعلة : لماذا **كان** ؟ فلم يكن يلاحظ ويستقرىء ويفسر تفسيراً يقوم على الحقائق اللغوية ، بل كان نحواً معيارياً صورياً لا يركز على **الاستعمال** اللغوى كما هو .

(٤) انظر شرح المفصل ١ / ٥١ .

والثالث : أن الحرف من جملة الصيغة الدالة على معنى الكلمة اللازم لها ، فلو جعل الحرف دليلا على الإعراب ، لأدى الأمر إلى أن يدل الشيء الواحد على معنيين ، وفى ذلك اشتراك ، والأصل أن يخص كل معنى بدليل . وإنما أعرب المثنى وجمع المذكر والأسماء الستة بالحروف لأمر اقتضاه ، فأعربوا المثنى وجمع المذكر بالحروف للفرق بينهما وبين المفرد ، ولم يعكس الأمر ليكون الأصل للأصل والفرع للفرع ، فإن الحركات أصل للحروف ، والمفرد أصل للمثنى والجمع(1) .

وثانيهما : قولهم : هل حركات الإعراب أصل لحركات البناء ، أو حركات البناء أصل لحركات الإعراب ، وقد اختلف النحاة فى ذلك :

فذهب بعضهم إلى أن حركات الإعراب هى الأصل ، وأن حركات البناء فرع ، لأن الأصل فى حركات الإعراب أن تكون للأسماء وهى الأصل ، فكانت أصلا ، والأصل فى حركات البناء أن تكون للأفعال والحروف وهى الفرع فكانت فرعا .

وذهب آخرون إلى أن حركات البناء هى الأصل ، وحركات الإعراب فرع ، لأن حركات البناء لا تزول ولا تتغير ، وحركات الإعراب تزول وتتغير وما لا يتغير أولى أن يكون أصلا مما يتغير(2) .

ولا تعجب بعد ذلك أن تجد خلطا بين كثير من النحويين فى علامات كل من حركات الإعراب والبناء حيث أطلق بعضهم ألقاب الإعراب على ألقاب البناء والعكس(3) .

والأعجب مما سبق أن البصريين والكوفيين عندما وضعوا أصولهم وفروعهم فى النحو لم يلتزموا تلك الأصول والفروع عند التطبيق ، فقد ناقض كل فريق (أصله)(4) وكان ذلك سببا من أسباب التضارب والتناقض والتخالف والتشابك فى مسائل العربية .

ونظرية الأصل والفرع وافدة على النحاة من أصول الفقهاء ، فقد تحدث الأحناف والشافعية عن الأصول والفروع ، واهتم بها أبو حنيفة ومدرسته ، ومعلوم أن تأثير الفقه وأصوله فى النحو كان قويا منذ العصور الأولى فقد كان النحاة ينظرون إلى الفقه وأصوله على أنه علم نابع من الفكر الإسلامى الخالص ، ولهذا رأينا كثيراً من النحاة

---

(1) انظر حواشى النحو المطولة ، والأشباه والنظائر ٢ - ٢٢ للسيوطى . ط القاهرة ، القواعد الكلية د . غريب نافع ، نشر : مكتبة الأزهر سنة ١٩٧٥

(2) أسرار العربية لابن الأنبارى : ٢٠ ط دمشق ، وانظر الأشباه والنظائر ١ - ١٥٩ القاهرة .

(3) معانى الفراء ٢ / ٣٥ ، ٤٠ والمقتضب ٤ / ٤ ، ٨٣ .

(4) الإنصاف مسألة : ٥ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٥ .

يتأثرون بالفقهاء ويشاركونهم من أمثال : أبو عمر الجرمى ، والفراء، والسيرافى ، حتى إن الجرمى والسيرافى كانا يقعدان للفتيا ، والخليل بن أحمد النحوى يصرح فى أمكنة كثيرة باقتباسه نصوصا فقهية لأبى حنيفة يؤكد بها مسائل فى النحو والعربية[1]، ومحمد ابن الحسن ألف كتابا فى الإيمان ضمنه مسائل فقهية مبنية على أصول النحو والعربية ، وابن جنى فى الخصائص يتأثر فى مسائله النحوية بالفقهاء وعلماء الأصول[2]. وكذلك كتب ابن الأنبارى كالإنصاف ولمع الأدلة ، وتأليف السيوطى كالهمع والاقتراح والأشباه والنظائر ، فهى مبنية على أشباهها من كتب الفقهاء، ونرى أن يكون منهج النحو نابعا من اللغة ويعود على اللغة دون السماح لأى فكر آخر غير لغوى أن يتدخل .

والدراسات النحوية الحديثة لا تعترف بفكرة الأصل والفرع كما فسرها النحاة إذ أنها ترى أن فهم اللغة يخضع للشكل والوظيفة في العربية كثير من الوظائف كوظيفة الفاعل والمفعول والمبتدأ وكل وظيفة تتخذ لها طريقة شكلية تعبر عنها ، فشكل الفعل مع الفاعل يختلف شكله مع نائب الفاعل ، وهذا الشكل لا يقتصر على الحركات الإعرابية بل يتسع ليشمل الترتيب بين الكلمات مثل : التقديم والتأخير ، وغيره من القرائن التى تظهر من سياق الكلمات السابقة واللاحقة .

وفكرة الاعتماد على القرائن فى فهم التعليق النحوى ينفى عن النحو : كل تفسير ظنى أو منطقى ، كما ينفى أصالة بعض الكلمات فى العمل وفرعية الأخرى[3] كما أن مسائل الأصل والفرع بالصورة التى تخللت جزئيات ومسائل النحو العربى مرفوضة لأن اللغة لها خصائصها وسماتها التى تختلف عن خصائص وسمات القياس المنطقى الجدلى الذى تأثر به النحاة ، وقضية (الأصالة والفرعية) لا ترتبط بمقاييس ثابتة عند علماء النحو العربى ، ومن هنا اضطربت الآراء والمشارب فما يعتبره نفر منهم أصلا يعتبره الآخرون فرعا لهذا الأصل . ونظرية الأصل والفرع ترتبط أولا وأخيراً بالقياس الذى فرض سلطانه على النحو ونرجح أن تعتمد القضايا النحوية على الاستقراء . ولهذا أرى إلغاء فكرة نيابة الحروف عن الحركات لبنائها على الأصالة والفرعية ، ويكون إعراب الأسماء الستة بالحركات الثلاث مع مدها ، أما جمع المذكر فالضمة فيه علم الرفع وعلم الإسناد والواو إشباع ، والكسرة علم الجر والإضافة والياء إشباع . وأغفل الفتح لأنه ليس بإعراب ، فلم يقصد إلى أن يجعل له

(١) كتاب العين : ٢٨٥ تحقيق الدكتور عبد الله درويش .

(٢) الخصائص : ١ / ١٦٣ فما بعدها ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ .

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان ص ٢٣٣ .

علامة خاصة ، لأنه إذا أريد إلى أن يجعل نصبا وأتى له بالفتحة اشتبه بالمثنى ، ولهذا أغفل الفتح فيه ، وجعلت الصيغة المستعملة فى الإضافة هى صيغة المنصوب[1] أما المثنى فالألف فيه ليست علامة للرفع ؛ لأن الضمة وحدها هى علم الرفع ، أما الألف فهى للتثنية لا غير ، وإذا أريد رفعه بالضمة فيجب أن تزول الألف ، وبزوالها يزول المعنى فتركت الكلمة وهى مسند إليها — بلا علامة تدل على الإسناد ، فاذا أريد أن يكون مضافا إليه استعين بالياء — وهى جزء من الكسرة ، وممطولة لها ، وأبقيت الفتحة الدالة على ألف الاثنين قبلها ، وتحقق فى الصيغة إذن : دلالتها على التثنية ، ودلالتها على الإضافة .

أحمد علم الدين الجندى

(للبحث بقية)

(١) إحياء النحو : ١١١ ط ١٩٥١ .

(٢) انظر : فى النحو العربى ٩٠ د . مهدى المخزومى . ط . أولى . بيروت .

فى الإعراب ومشكلاته

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

(٢)*

أدلى المستشرقون بدلوهم فى تفسير حركات الإعراب واختلفوا مذاهب قددا فى ذلك ، وأقرب هذه الآراء إلى الصواب وأولاها بالدرس ماكتبه «وليم رايت» و «كارل بروكلمان» حيث رجحا أن اللغة السامية الأم كانت تفرق بين حالة الرفع باللاحقة (u) وحالة الجر باللاحقة (i) وحالة النصب باللاحقة (a) على أن الأصل لكل لاحقة غير معروف على وجه الدقة ، ويمكن أن يرجح أن أصل الفتحة (ha) ، وهى ضمير إشارة مستعمل فى اللغات السامية ، ولم يزل فى الحبشية يلحق بالأعلام فى حالة النصب كما يمكن أن تكون حالة الرفع مشتقة من الضمير (ho) أما علامة الجر فظاهر مشابهتها بياء النسب التى حذفت وبقيت الكسرة قبلها وقد نقد أستاذنا «إبراهيم مصطفى» ماذهب إليه المستشرقون ورأى أنهم تأثروا بنظام لغاتهم ، وسبيل الإعراب والتصريف فيها ويرى أن العربية لها منهج فى الإعرب مخالف لمناهج اللغـات الغربيـة إذ العربية تدل بالحركات على المعانى المختلفة من غير أن تكون تلك الحركات أثراً لمقطع أو بقية من أداة[1] .

وكما اختلف المستشرقون حول تفسير حركات الإعراب نرى اختلافا آخر بين علماء العربية وإليك آراءهم :

أولا : بينا فى مقال سابق[2] أن الخليل كان أول من ذهب إلى أن الحركات الإعرابية دوال على المعانى ثم تبعه فى هذا علماء العربية القدامى[3] . ويذهب قطرب ٢٠٦ هـ من القدامى على أنه لاصلة بين حركات الإعراب والمعنى ، حيث يقول : إنما أعربت العرب كلامها لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان فى الوصل والوقف

(*) نشر المقال الأول فى مجلة المجمع ، الجزء الثانى والأربعون .

(١) إحياء النحو ٤٣ فما بعدها .

(٢) انظر مقالنا : فى الإعراب ومشكلاته قدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(٣) سيبويه ٢ / ٣١٥ بولاق ، والإيضاح للزجاجى ٦٩ . وشرح الكافية ١ / ٢٠

وكانوا يبطئون عند الإدراج فلما وصلوا وأمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام[1] .

هذا وقد احتج المخالفون له ردا عليه : لو كان كما زعم (قطرب) لجاز خفض الفاعل مرة ، ورفعه أخرى ونصبه وجاز نصب المضاف إليه ، لأن القصد فى هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام ، وأى حركة أتى بها المتكلم أجزأته فهو مخير فى ذلك ، وفى هذا فساد للكلام وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم :

هذا ، وقد علل (قطرب) اختلاف الحركات عندما اعترض عليه النحاة بقولهم . فهلا لزموا حركة واحدة ، لأنها مجزئة لهم إذ كان الغرض إنما هو حركة تعتقب سكونا ؟ فقال : لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم فأرادوا الاتساع فى الحركات وألا يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة[2] :

ومن ذهب من المحدثين مع قطرب أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه « من أسرار اللغة » فالحركة الإعرابية لا مدلول لها عنده[3] ، وإنما يؤتى بها نوصل الكلمات بعضها ببعض وتخلصاً من التقاء الساكنين[4] : والذى يعين الحركة عنده أحد عاملين .

أولهما : طبيعة الصوت وإيثاره لحركة معينة كإيثار حروف الحلق للفتحة :

وثانيهما : انسجام تلك الحركة مع ما يجاورها من حركات[5] وهو ما يسمى "Vowel Harmony"

وأن الذى يحدد معانى الفاعلية والمفعولية عنده يرجع إلى عاملين :

أولهما : نظام الجملة العربية والموضع الخاص لكل من هذه المعانى اللغوية فى الجملة .

وثانيهما : ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات .

وقد تكفل بالرد عليه كثير من تلاميذه مستدلين بالشواهد الكثيرة التى تشير إلى الحركات الإعرابية وأثرها فى المعانى من الفاعلية والمفعولية وغيرهما[6] ، كما حشد بعضهم شواهد وأدلة من الساميات تؤكد أن الإعراب كان فيها كما كان فى العربية الفصحى[7] .

وهناك سؤال مؤداه :

أكان قطرب أول من نادى بهذا الرأى أم سبقه سابق من النحويين ؟

---

(١) الإيضاح ٧٠ . (٢) الإيضاح ٧١ .

(٣) من أسرار اللغة ١٥٨ ط لجنة البيان العربى نشرة : الأنجلو المصرية .

(٤) من أسرار اللغة ١٧٠ . (٥) من أسرار اللغة ١٧٥ — ١٧٦ — ١٨١ .

(٦) مدرسة البصرة النحوية ٣١٢ فما بعدها . دكتور عبد الرحمن السيد ط أولى ، مدرسة الكوفة ٢٤٩ فما بعدها د . مهدى المخزومى ، دراسات فى فقه اللغة ١٢٨ فما بعدها د . صبحى الصالح ، دمشق ١٩٦٠ .

(٧) انظر قضية الإعراب . للدكتور رمضان عبد التواب فى مجلة المجلة . السنة العاشرة . العدد ١١٤ .

يرى بعض الباحثين[1] أن الخليل بن أحمد سبق قطرباً بهذا الرأى مستدلا بقول سيبويه : زعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل التكلم به[2] ، فالحركات عند الخليل إنما هى زوائد جيئ بها ليتوصل بها إلى النطق بالحروف وليس العامل مؤثراً فيها ، ولا علاقة لها بالمعنى وإيضاحه كما يفهم من النص .

والذى نميل إليه أن سيبويه عندما نسب ذلك إلى الخليل بصورة الزعم لم يكن يتحدث عن الإعراب والبناء ، كما أن هذا الرأى لا يتفق مع أراء الخليل وفكره ، لأنه يربط دائماً بين الحركة الإعرابيـة ومعنى معين[3] ، بل كان يقلب الجمل على وجوهها التى يحتمل أن يكون العرب قصدوا إليها ، ليقف على المعانى المختلفة التى تدل عليها هذه الوجوه ، فمن ذلك ماروى عنه من قولهم : مررت به المسكين . والمسكين يرفع وينصب ويجر ، يرفع على إضمار هو : كأنه لما قال : مررت به . قال : هو المسكين ، كما يقول مبتدئاً : المسكين هو . وينصب على إضمار فعل فيه معنى الترحم ، ويجر على اعتباره بدلا من الضمير المجرور[4] :

فهذه الوجوه من الحركات الإعرابية المتعددة إنما حدثت فى رأى الخليل ، لأن المعانى متعددة كذلك . والحركات فى النص السابق لها أثرها فى المعانى التى تضمنتها الجملة ، وأخيراً فإن الزجاجى عندما تناول دلالة العلامات الإعرابية على معانيها يقول : هذا قول جميع النحويين إلا قطرباً. فهو لم يستثن غير قطرب . ولو كان الخليل يقول بمقولة قطرب لذكره الزجاجى مقترنا بقطرب[5] .

ثانيا : أضاف ابن الطراوة (ت ٢٥٨هـ) عاملا جديداً ، لم يعهده النحاة فى عوامل النصب ، سماه : القصد إليه . ومصدر هذا الرأى عنده أن بعض المعمولات من الأسماء والأحداث قد يقصد إلى ذكرها خاصة من غير حاجة إلى الإخبار عنها . أو تسليط عامل لفظى عليها ، ومثل لهذا بقوله «سبحان الله» فان (سبحان) اسم ينبئ عن العظمة . فوقع القصد إلى ذكره مجرداً عن التقييدات بالزمان أو بالأحوال ، ولهذا وجب نصبه كما يجب نصب كل مقصود إليه بالذكر نحو ويل زيد ، وزيداً ضربته فى الاشتغال ، والمفعول المقدم : زيداً ضربت ، والمنادى : ياعبد الله . فلا علاقة للعامل بهذا المنصوب ، والاسم هنا (قصد) ذكره فحسب ، وليس شرطا أن يكون مبنياً عليه فيكون مبتدأ : أو واقعاً عليه فيكون مفعولا به ، وما يراه ابن الطراوة وثيق الصلة بالجانب البلاغى وهو : الاهتمام أو التخصيص وهما عين

(١) مدرسة البصرة النحوية ٣٠٦ .

(٢) الكتاب : ١ / ٣١٥ بولاق .

(٣) الكتاب ١ / ١٨٧ فما بعدها ، ٤١٣ .

(٤) الكتاب ١ / ٢٥٤ ..

(٥) أنظر قرينة العلاقة الإعرابية ٢٥٤ دكتور محمد حماسة (مخطوط بمكتبة دار العلوم) .

(القصد إليه) عند ابن الطراوة . (انظر فى هذا : أبو الحسين بن الطراوة وأثره فى النحو (٧٤ – ٧٦) د . محمد البنا . ط دار الاعتصام بالقاهرة) .

ثالثاً : وهى فكرة أستاذنا إبراهيم[1] مصطفى ، وتقوم أساساً على أن[2] حركات الإعراب ليست أثراً لعامل من العوامل بل هى دوال على معان فى تأليف الجمل وربط الكلام ، فالضمة علم الإسناد ودليل على أن الكلمة المرفوعة يراد أن يسند إليها ويتحدث عنها . وأما الكسرة فإنها علم الإضافة وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها سواء أكان هذا الارتباط بأداة أو بغير أداة كما فى : كتاب محمد ، وكتاب لمحمد . ولا تخرج الضمة ولا الكسرة عن الدلالة على ما أشرنا إليه إلا أن يكون ذلك فى بناء أو فى نوع من الاتباع .

أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شىء بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التى يراد أن تنتهى بها الكلمة كلما أمكن ذلك .

فللإعراب الضمة والكسرة فقط وليستا بقية من مقطع ولا أثراً لعامل من اللفظ بل هما من عمل المتكلم ليدل بهما على معنى فى تأليف الجملة ونظم الكلام .

ورابعاً : أن الهمزة لما كانت تتعدد وظائفها فى الكلام أضافوها إلى الأفعال فى أولها أو فى آخرها حتى لقد أضيفت إلى الفعل الواحد فى بعض الحالات فى أوله وفى آخره معا مثل : اذهبا (= إى + ذهب + آ) و : افعلى (= أى + فعل + أى) . فاذا جئنا إلى الحالات الإعرابية مثل قولنا : جاء الرجل . ورأيت الرجل . ونظرت إلى الرجل ، ففى المثال الأول (= الرجل + أو) وفى الثانى (= الرجل = آ) وفى الثالث (= الرجل + أى) ويمكن تحليل الأفعال الآتية :

افعلوا = اى + فعل + أو .

افعلا = اى + فعل + آ .

أفعلى = اى + فعل + إى .

فالضمة التى لحقت بالاسم : مبتدأ أو أو خبراً أو فاعلاً هى نفسها الضمة التى لحقت بالفعل . فحركات الإعراب الثلاث فى الاسم والفعل واحدة فالضمير الذى التصق بالاسم هو نفسه الذى التصق بالفعل .

ويرى الباحث أن الضمير مع الفعل ظهر على صورة ضمة أو كسرة أو فتحة فى مثل : أذهب أو . أذهب إى . اذهب آ ، ليعرف السامع من هو المقصود بفعل الذهاب ، ثم انتقل هذا الضمير مع الفعل إلى الاسم فكان مبتدأ مؤخراً فى قولك : صغير أو مريض أو . . . على معنى صغير هو مريض هو .

(١) كان يسميه العقاد (سيبويه العصر » أما الدكتور طه حسين فكان يسميه « الفراء : مقدمة احياء النصوص (ل) .

(٢) احياء النحو : ٥٠ .

ثم يرى الباحث أن ظاهرة تحريك أواخر الألفاظ قد نشأت لدى الفريق الذى كان الضمير عنده هو الهمزة، وهذه الهمزة نفسها نراها فى العربية ولهجاتها قد تحولت أو أبدلت أو خففت أو ذابت ولم يبق إلا حركتها تلك الحركة التى تدل عليها ، ولهذا اختلف فى نطق الهمزة فهى عند قبيل : آ ، وعند بعض آخر : أى . وعند آخرين (أو — o)وعند فريق (أو — ü) ويظهر والله أعلم — أن الحركات التى نشأت عن صوت الهمزة كما سبق قد التقت واختلطت وتفاعلت — فكان العربى ينطق بهذه الحركات كلها فى وقت واحد بدون تمييز بينها ، وبعد فترة زمنية خضعت لقاعدة (التخصص) فأخذت تلك الحركات المختلفة تبحث لها عن عمل تختص به ، حتى استقرت كل واحدة منها فأصبحت تدل على مجموعة من حالات الإعراب ، وليس معنى ذلك أن الحركات الإعرابية قد تخصصت فى وقت واحد ، ومن المحتمل أن بعضها تخصص قبل بعض ، ومما يؤكد ذلك وجود حركة الضمة فى أواخر الألفاظ البابلية من الأفعال والأسماء على السواء فقد كانوا يقولون (من الأفعال) (ومن الأسماء) :

(من الأفعال)	(من الأسماء)
سخنو : سخن	حرتو : حرية
صرمو : صرم (قطع)	ايدو : يــد
قلفو : قلف (قشر)	ملاحو : ملاح

على حين نجد الفتحة فى السريانية الشرقية — العراقية بوجه عام — هكذا :

ايــدا : يــد .

حــروتا : حرية .

ملاحو : مــلاح .

وأما فى السريانية الغربية — الشامية بوجه عام — فكانت تنطق حركة آخر الاسم بين الفتحة والضمة هكذا :

ايــدو (ido) .

حروتو (hjrouto) .

وفى الغربية نجد الضمة أقوى الحركات فالذين يتكلمونها كانوا أكثر عددا وأعز جانبا من الجماعات الأخرى ، ولذا اختصت بالمسند إليه حتى المفعول به مازال يرفع إذا تألفت الجملة منه ومن الفعل (فى حالة المبنى للمجهول) . أما إذا اجتمع الفاعل مع اسم آخر فى الجملة الفعلية ، فإن الفتحة هى التى تتولى الاسم الطارئ ، من المفعولات والحال وغيرها . أما حالة الجر فهى التى تنحصر فى الإضافة وبضعة حروف .

وخلاصة رأى الباحث فى حركات الإعراب أنها ليست إلا رواسب تطورية من الهمزة فى مختلف حالاتها النطقية : آ . أو ، إى . ثم تغيرت وظيفتها . وما أكثر الرواسب فى حياة البشر الاجتماعية واللغة لاتشذ عن هذا الباب ، فهى كائن حى من جهة ، واجتماعى من جهة أخرى . ومن الرواسب اللغوية زوائد متخلفة من عهد تطورى كانت لها فيه وظيفتها ، ثم تقلبت الأحوال ففقدت وظيفتها أو اعتاضت

عنها بغيرها ، وضرب الباحث عدة أمثلة من عالم الحياة فى المجتمعات والطبيعة وعالم الجغرافيا[1] :

والذى أراه أن الباحث يبدى تفسيرات جزئية لاقدرة لها على إبراز رأى عام ، أو فكرة مكتملة ، كما أنه لم يستطع البرهنة من التراث القديم لتأييد فكرته ، والحق أن بعض القدماء من علماء العربية أشار إلى ما يمكن أن يكون علاقة لما بين الهمزة ــ حين أغلقت المقطع المفتوح آخر الكلمة ــ والإعراب ، ففى كتاب سيبويه : وزعم الخليل أن بعضهم يقول : رأيت رجلأْفهمز[2]. وفى الخصائص أن ابن جنى عزا لبعض العرب همز الألف فى الوقف مثل : هذه حبلأْ ، وهذا سبيلهم وعادتهم حيث يقولون : رأيت رجلأْ ، وهو يضربهأ[3] والهمزة فى : رجلأْ إنما هى بدل من الألف ، التى هى عوض من التنوين فى الوقف ، كما أنها أقفلت المقطع المفتوح ، وربما كان سر هذا أن الألف تهوىٰ فى الفم فآخرها عند أول الهمزة ، فلما كانت تنقطع عند الهمزة جيىء بالهمزة مكانها .

وأرى أن الهمزة تحتاج إلى دراسة واعية لبيان تأثيرها فى القضايا اللغوية بنظرة أشمل وأوسع . وإذا كانت الهمزة هى الأصل كما يرى الباحث فى قضية الإعراب ، فإنها كذلك أصل للضمائر ، بدليل أن الضمير (نحن) كان ينطق فى الماضى السحيق بهمزة فى أوله ، وهو كذلك فى العبرية والأرامية القديمة والأشورية ، وضمير الغائب (هو) كان أصل هائه همزة ، واللغات السامية كثيرا ما تحول الهمزة إلى هاء . فأل ــ التعريف فى العبرية هى (هل) ثم لحق اللام إدغام فبقيت الهاء وحدها ، وهل ــ لغة فى ــ أل عند بعض القبائل العربية[4] ، كما أن صيغة أفعل العربية تقابل صيغة : هفعل فى اللحيانية القديمة[5] .

كما أن الباحث فى النهاية تورط حين عقد صلة بين الساميات واللاتينية فى بعض علامات الإعراب .

وخامساً : تقوم هذه الفكرة على أن العرب جعلوا عناصر الجملة مشابهة لعناصر بيت الشِّعر . فخصوا الضمة بالعمدة ليكون مرفوعا (كالعماد) فى الخيمة ، والكسرة بالوسيط

---

(١) انظر مقال الأستاذ عبد الحق فاضل بعنوان (أسرار الضمائر) بمجلة اللسان العربى عدد : ٥ فى أماكن متفرقة .
(٢) الكتاب ٢ / ٢٨٥ بولاق .
(٣) الخصائص ٢ / ١٧ سر الصناعة ١ / ٨٤ .
(٤) ومن تبادلهما : إبرية : هبرية ، أياك : هياك ، هيا : من حروف النداء : أيا ، أرحت : هرحت . أما والله : هما والله . درأ علنا : دره علينا . بمعنى طلع . إبدال أبى الطيب ٢/٥٦٨ فما بعدها . دمشق . وكتاب الإبدال لابن السكيت ٨٨ ، ٨٩ تحقيق د . حسين شرف . القاهرة .
(٥) لغات النقوش ، مؤتمر مجمع اللغة العربية . الجلسة ٦ مارس ١٩٦٢ .

ليكون مجرورا (كالطنب المشدود) والفتحة بالفضلة ، إشعارا بضآلة الدور الذى تؤديه فى قيام الجملة الصحيحة . شأنها فى ذلك شأن (الوتد الصغير) .

ولعل صاحب هذه الفكرة ينظّر لنشأة حركات الإعراب بما كان من أمر الخليل ابن أحمد عندما وضع علم العروض حين استمد مصطلحاته (الأوتاد والأسباب والفواصل) من عناصر خيمته الشعرية . (والحركة) النشطة هى عماد الحياة البدوية والرعوية ، وفى نظر الباحث أن الجملة العربية وضعت على مثال (الخيمة) العربية ، فإذا كانت الخيمة تحتاج إلى مادة أساسية هى (النسيج والجلد) فإن الجملة كذلك تحتاج إلى مادة أساسية هى (الفعل أو ما فى معناه) وكما احتاجت الخيمة بعد قيامها إلى عناصر ثانوية لتثبيتها هى (الطنب والأوتاد والأسباب) فالجملة كذلك تحتاج إلى مايشبه هذه العناصر الثانوية فى شكل حروف وأسماء مجرورة ومنصوبة .

ويحاول الباحث[1] أن يكشف عن سر حركات الإعراب بربطها بالفعالية . فالعماد للفعالية الشديدة التى تقابلها حالة الرفع فى الأسماء ، والوسيط للاسم المجرور ، والفضلة لكل ماعدا ذلك . أما فى الأفعال فالفعالية الشديدة تقابلها حالة الرفع والفعالية الخفيفة تقابلها حالة النصب . وانعدام الفعالية تقابلها حالة الجزم .

وفكرة الباحث عن حركات الإعراب تتأثر فى جانب منها بالأستاذ إبراهيم مصطفى ، وفى بعضها الآخر بالقدماء ، وجانب منهـا يحيطه الغموض والوهن . كما أنها مغرقة فى التشبيه حين ربط العلامة الإعرابية بغيرها من ظواهر الحياة المتبدية .

وسادساً : كما أن بعض الدارسين يرى ربطا بين الحركات فى العربية وبين الإنسان فى عالمه فهو إما مؤثر وإما متأثر ؛ أو إما أن يقوم بالحركة بنفسه وإما أن تحصل له من غيره ممن يعيش معه ، أو من عناصر الطبيعة من : رعد ومطر ونار . . والعربى لما رأى فى عالمه أبعاداً ثلاثة بنى لغته على ثلاث حركات أيضاً :

١ – حركة الفتح ، أى التأثير على العالم الخارجى . وهو عمل صادر عن الإرادة مثل : ضرب وقتل وخرج وقطع . وأكل . وفتح ، ودخل ، وكلها أفعال مفتوحة العين ؛ لأن الفتحة تدل على العمل الصادر عن الفاعل بإرادة منه حقيقة أو مجازا .

٢ – ثم حركة الكسر أى التأثر الذى يحصل للفاعل من طرف العالم الخارجى . فالكسر والخسر والقصر والخزل كلها تعنى حصول الشىء للفاعل المغلوب المقهور . فالفعل المكسور العين يدل على كل مايحصل

---

(١) انظر : المفتاح لتعريب النحو : ١٦٩ فما بعدها . محمد الكسار . دمشق .

للفاعل بدون إرادة منه حقيقة أو مجازا مثل : مرض وحزن وعطش وعلم وفرح . وسقم وغرق وجزع » .

٣ ـ ثم حركة الضم (والطم والتم) وكلها تدل على التجمع والكثرة والدوام والثبات ، مثل : حسن وكبر وصغر وقرب وشرف . وكلها بمعنى حصول الشيء للفاعل لاحصولا طارئا أو مؤقتا .

ثم ينتقد الباحث فكرة الثقل والخفة فى الحركات عند القدماء ، ويرى أنها فكرة ناقصة لأنها مبنية على ظاهر اللفظ لاعلى باطنه المحرك الذى هو النشاط العصبى الدماغى بالنسبة إلى تحكم الإنسان فى كلامه[١] .

وعلماء العربية يرون أن الضم أثقل وأقوى من الكسر والفتح[٢]، ولهذا كان الضم قوة لأنه علامة الإسناد الذى يحقق الارتباط بين المسند والمسند إليه، وأن الفتحة أعذب أخواتها وألينها وأخفاها ، أما الياء فضعيفة بالاستفال والرخاوة . ويقول ابن الجزرى[٣] «وأسفل المستفلة الياء» وقد ساق ابن جنى فى المحتسب[٤] نصا دقيقا بيّن فيه كيف تؤثر الصيغة حركة على أخرى كلما ازدادت الحركة شبها بالمعنى . وهو فى هذا لايقل لحاً عن المحدثين من علماء اللغة فى الحركات وصلتها بالمعانى ومساوقتها لها . يقول ابن جنى : غلافى (قوله) : غلوا ، وغلا (السعر) : يغلو غلاء ، فصلوا بينهما فى المصدر ، وإن اتفقا فى الماضى . . . فلما اتفق اللفظان والمثالان فى الماضى والمضارع خالفوا بين مصدريهما ليكون ذلك الخلاف بين مثاليهما أنفسهما فقالوا غلوا وغلاء[٥] . نعم ، وخصوا (غلا) فى (القول) بالغلو لأن لفظ (فعول) أقوى من لفظ (فعال) للواوين والضمتين ، وضعف الألف والفتحتين . وذلك لأن الغلو فى (القول) أعلى وأعنى عندهم من (غلاء) السعر ، ألا ترى إلى قول الله تعالى «تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا» وقال تعالى « ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم » وأما غلاء السعر فلا يدخل النار ولايحرم الجنة .

ثم إنهم قالوا : غلت القدر تغلى غليانا ـ فلما صغر هذا المعنى فى أنفسهم أخذوه من الياء ، لأنها تنحط عن الواو والضمة إلى الياء والكسرة . (أى فى المضارع : تغلى) . فإن قلت : فقد قالوا : علوت فى (المكان) أعلو علوا ، وعليت فى الشرف علاء فجعلوا الشرف دون ارتفاع النصْبة . قيل لم يجف الشرف عندهم ولا تبشع تبشع الكفر

---

(١) اللسان : المجلد : ١٠ الجزء الأول ص : ٧٠

(٢) المحتسب ٢ / ٢٩٩ ط المجلس الأعلى ، والإنصاف ١/ ١٤ ط ٤ ، وأسرار العربية لابن الأنبارى ص : ٣١ والتصريح : ١ / ٥٩

(٣) النشر : ١ / ٢٠٢

(٤) ٢ / ١٣٩

(٥) المحتسب : ٢ / ١٣٩ ط المجلس الأعلى .

والغلو فى القول المعاقب عليه والمنهى عنه فلانَ جانبه ونعمُ وعذبُ فى أنفسهم فبنوه على (فعِل) لتنقلب الواو ياء ، ومصدره على (الفعال) لعذوبته بالفتحتين والألف .

وابن جنى ينصح الباحث عندما يقبل على تلك الدراسة أن يكون رفيقاً رقيقاً حيث يقول : « وهذه أماكن إن رفقت بها ، وسانيْتها وتأنيَّتها ... أولتْك جانبها وأركبتك ذروتها وقبلتك لها ضيفاً وبسطتك يداً وسيفا ، وإن أخلدت بها إلى ضد هذا أخلدتْ بك إلى ضده ، فتلافيا ورفقاً لا مغالاةً ولا خُرقا[1] .

ولهذا لم يوفق الباحث حين وجه نقده إلى علماء العربية ظانا أن (الحركات) عندهم مبنية على ظاهر اللفظ وحده كما يقول ؛ فنص ابن جنى السابق يلحظ بالحركات أدق الخلجات وأخفى الأسرار حين جعل الصيغة تؤثر حركةعلى أخرى كلما ازدادت الحركة شبها بالمعنى ، يؤكد ذلك ماروواه الجاحظ من أن الناس سمعوا ابن ضحيان الأزدى وهو من أشراف قومه يقرأ «قل يأيها الكافرون » «قل يأيها الكافرين» «فلما سئل عن ذلك اللحن قال لسائله : إنى أعلم القراءة فى ذلك ولكننى لا أجل أمر الكفرة . وكأنه يشير إلى حالة الخفض وهى أدنى أحوال الإعراب ومراتبه لأن الاسم فيها يكون فى أدنى منزلة من الكلام ، بعكس الرفع فهو عند النحاة أعلى مراتب الإعراب وأسناها ولا كيان للكلام بدونه ولا غناء له عنه أليس كما يقولون إنه «علم الإسناد » وكان ابن يعيش يسميه «أول الحركات»[2] فمذهب العرب فى الحركات والحروف مبنى على الحس وقائم على (نظرية التأثير) حيث رأى النحاة فى الكلمةالمفردة تفاعلا ، يقول الخليل « إن بعض الحروف أشد من بعض وأقوى جرسا . فإذا اجتمع حرفان قدموا الأقوى» .ويقول سيبويه : «وللحرف الأقوى تأثير فى الضعيف حتى إذا قدم عليه فلا يزال يؤثر فيه حتى يزحزحه عن مخرجه الأصلى ويحوله إلى حرف أقرب ما يكون إليه[3] . . . . » .

كما رأى النحاة فى الجملة أن كلماتها يتأثر بعضها ببعض ، فالكلمة تعمل فى جارتها الرفع أو النصب أو الجر : وهذا التأثير فى الكلمة المفردة أو الجملة هو مفتاح صناعة الإعراب .

ويقول عالم مصرى وهو ابن بابشاذ (توفى١٠٧٧م) الدلالة دلالتان ــ دلالةتدل دلالةالذات ودلالة تدل دلالةالإعراب ، فدلالةالذات هى التى تدلعلى ذات الشئ فى

---

(١) المحتسب ٢ / ١٤٠ ط المجلس الأعلى وانظر كتابنا « نحو القلوب : ١٧٥ ط تونس » .
(٢) شرح المفصل ٣ / ٨٦
(٣) الكتاب : ٢ / ٢١٥

نفسه ، ودلالة الإعراب هى التى تدل على عوارضه التى تعرض فيه ألا ترى أنك إذا قلت : ما أحسنْ زيدْ ، يفهم من زيد معنى الشخصيـة وهى ذاته ولا يعرف ما قصدت من المعانى من : نفى الإحسان عنه أو إثباته الحسن له ، أو الاستفهام عن ذلك فإذا أردت إثبات الحسن على طريق التعجب قلت : ما أحسن زيدا — بالنصب ، وإذا أردت الاستفهام جررت زيدا ورفعت أحسن فقلت : ما أحسن زيد ، فهذه معان ثلاثة لم يفرق لك بين كل واحد منها وبين الآخر إلا الإعراب(١).

فالعلامة الإعرابيـة قرينة تطرأ على الكلمة لتدل على معنى العمدية والفضلية والإضافة(٢) ، ويردد ابن يعيش رابطا بين حركة الإعراب ووظائف الكلمات فى التركيب فيقول « وكل واحد من الرفع والنصب والجـر علم على معنى من معانى الاسم التى هى الفاعلية والمفعولية والإضافة(٣) .

ولو أن علامات الإعراب لا تدل على معنى لجمدت كما جمد اسم الإشارة (حبذا) و(نعم وبئس) فلايقال : ينعم لأن أصل الفعل يدل على الحدث فى الماضى ولكن هنا ضاع الزمن وضاع الإسناد فانتقل من الإخبار عن زمن خاص ومخبر عنه خاص إلى التكلم عن النفس ، ولذلك قالوا : إن هـذا الأسلوب إنشائى وهو لايتصرف تصرفاً تاماً(٥) .

وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم «لايقتل قرشى صبراً بعد اليوم » فمن رواه جزماً أوجب ظاهر الكلام للقرشى ألا يقتل إن ارتد ولا يقتص منه إن قتل ، ومن رواه رفعاً التأويل إلى الخبر عن قريش أنه لايرتد أحد منها عن الإسلام فيستحق القتل .

ولو أن قارئاً قرأ : فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون . . . وترك طريق الابتداء بإنا ، وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب أن بالقول كما ينصبها بالظن لقلب المعنى عن جهته وأزاله عن طريقه وجعل النبى (ص) محزونا لقولهم : إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وهذا كفر ممن تعمده وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به(٦) .

فإذا قلت : هذا كريم أحسن منه عالم . فإن رفعت كريماً وعالماً كان المراد بهما شخصين اثنين أحدهما كريم والآخر عالم ،

---

(١) شرح المقدمة النحوية لابن باب شاذ ص : ٧٦ تحقيق الدكتور أبو الفتوح شريف ط ١٩٧٨ .
(٢) شرح الكافية : ١ / ٢٠ .
(٣) شرح المفصل ١ / ٧٣ .
(٤) مجلة المجمع : ١٠ / ٥٣ .
(٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة « ص ١١ فما بعدها ، تحقيق السيد صقر .

ولكن العالم أحسن من الكريم ، وإذا نصبتهما كانا شخصا واحدا عالماً وكريماً لكنه فى كرمه أحسن منه فى علمه .

فالنصوص السابقة لم يتغير شيء من تركيبها غير علامات الإعراب ، ولكن المعنى التركيبي قد تغير ، فترك الإعراب يوقع السامع فى الاشتباه واللبس فى فهم الجملة .

سابعا : نظرية تضافر القرائن :

ونحدد معالم هذه النظرية فيما يلى :

(١) أن العلامة الإعرابية قاصرة عن التفريق بين المعانى ، فليس الفرق بين الحال والتمييز إلا أن أحدهما مشتق والآخر جامد أما الحركة فواحدة فيهما فلا يمكن التفريق بينهما بها ، وما كان للفتحة هنا أن تفرق بين المعنيين لوجودها فى كلتا الحالتين ، فكان لا بد من الاستعانة بوسيلة أخرى تجيز عجز العلامة الإعرابية . والعلامة الإعرابية لا تستطيع أن تفسر لنا كل ما حمل عليها ، وإلا فما دور العلامة الاعرابية فى :

الأسماء المفردة المضافة لياء المتكلم ، والأسماء المقصورة وهى لا تظهر عليها علامات الإعراب والأسماء المنقوصة فى حالتى الرفع والجر؟ وما دور العلامة الإعرابية فى اتفاق أكثر من حالة فى علامة إعرابية واحدة ، كاتفاق الفاعل والمبتدأ والخبر واسم كان ، وخبر إن ، واتفاق المفاعيل كلها والحال والتمييز واسم إن وخبر كان ، والمنادى غير المفرد العلم فى النصب واتفاق المضاف إليه والاسم المجرور بحرف الجر ، وتابع المجرور فى الجر فهل العلامة الإعرابية وحدها قادرة على التمييز بين هذه المعانى ؟

والحقيقة أن العلامة الإعرابية وحدها لا تنهض بالعبء الملقى عليها ، وهى فى الواقع نتيجة قرائن أخرى ، لا نعطيها حقها من الاهتمام حرصا على العلامة الإعرابية ، فالإعراب واحد من الأشياء التى تحدد المعنى الوظيفى وليس وحده الذى يحدد المعنى .

والإعراب فى بعض الحالات قد لا يكون فاصلا بين المعانى ، وهنا تلجأ اللغة إلى وسائل أخرى للفصل بين المعانى ، وقد ذكر ابن جنى منها :

الرتبة : أى التقدم والتأخر والمطابقة والسياق ودلالة الأحوال : ويرى ابن جنى أن كلا من هذه علامة تقوم مقام الإعراب فى الفصل بين المعانى ، وفى هذا يقول ابن جنى : « فإن قلت : فقد تقول ضرب يحيى بشرى فلا تجد هناك إعرابا فاصلا ، وكذلك نحوه ، قيل : إذا اتفق ما هذه سبيله مما يخفى فى اللفظ حاله ، ألزم الكلام من تقديم الفاعل وتأخير المفعول ما يقوم مقام بيان الإعراب ، فإن كانت هناك دلالة أخرى من قبل المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير نحو : أكل يحيى كمثرى : لك أن تقدم وأن تؤخر

كيف شئت ،وكذلك ضربتْ هذا هذه ، وكلم هذه هذا ، وكذلك إن وضح الغرض بالتثنية أو الجمع ، جاز لك التصرف ، نحو قولك: أكرم اليحْييان البُشْريَيْن ، وضربَ البشريين اليحيون ، وكذلك لو أومأت إلى رجل وفرس ، فقلت : كلم هذا هذا فلم يجبه، لجعلت الفاعل والمفعول أيهما شئت ، لأن فى الحال بيانا لما تعنى ، وكذلك قولهم : ولدت هذه هذه . من حيث كانت حال الأم من البنت معروفة غير منكورة ، وكذلك إن ألحقت الكلام ضربا من الإتباع جاز ذلك التصرف لما تعقب من البيان، نحو: ضرب يحيي نفسه بشرى ، أوكلم بشرى العاقل معلى ،أو كلم هذا وزيدا يحيي [1]» .

فتلك القرائن الكثيرة فى النص السابق تغنى عن قرينة الإعراب ، كما أن المعانى تحتاج فى الكشف عنها إلى قرائن أخرى غير الإعراب وحده ، والعلامة الإعرابية قرينة من القرائن اللفظية فى الجملة ولكن النحاة نسبوا كل تغير فى المعنى فى مستوياته المختلفة إلى تغير العلامة الإعرابية فأعطوها بذلك اهتماما فوق ماتستحق .

وكان ابن خلدون على حق عندما وصف الإعراب فى عهده بأنه « بعض أحكام اللسان» . ومعنى كلمته القيمة أن الإعراب ليس كل شىء فى أحكام اللسان[2].

والحق أن الانصراف إلى العلامات الإعرابيـــة وحدها — هو الذى أدى إلى ماصار إليه أمر النحو من تعقيد .

إن الحالات التى تفقد فيها العلامات الاعرابية وظيفتها فى الدلالة على المعانى الوظيفية تتخذ لها اللغة وسائل أخرى هى التى تسمى (بالقرائن) تعين على جلاء المعنى ، ومبدأ (القرائن أو تضافر القرائن) أشار إليه أسلافنا النحاة [3] ، كما أشار إليها ابن خلدون يقول : لم يفقد منها) (لغة هذا العهد) إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد ، لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعانى بأعيانها ، ويبقى ماتقتضيه الأحوال ويسمى (بساط الحال) محتاجا إلى مايدل عليه ، وكل معنى لابد وأن تكتنفه أحوال تخصه ،فيجب أن تعتبر تلك الأحوال فى تأدية المقصود ، لأنها صفاته . . . وأما فى اللسان العربى فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات فى تراكيب الألفـــاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب ، وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة[4]» .

---

(١) الخصائص ١ / ٣٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٣٩١ تحقيق وافى ط ٢ .

(٣) شرح المفصل ١ / ٩٤ ، شرح الكافية ١ / ٧٢ . الأشباه والنظائر ١ /٢٦٦ .

(٤) الملكة اللسانية فى نظر ابن خلدون — ١٥٠ د . محمد عيد .

وليست الأحوال والكيفيات فى تراكيب الألفاظ إلا القرائن التى منها : التقديم والتأخير وهى قرينة الرتبة ، والحذف وهو مظهر من قرينة التضام ، وحركة الإعراب وهى قرينة العلامة الإعرابية ، والحروف غير المستقلة وهى قرينة الأداة . ويقول ابن خلدون فى موضع آخر : ولاعبرة بقوانين النحاة فى ذلك ، وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم ماعدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر (ساكنة) ويتميز عندهم الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب[1] » .

فحركات الإعراب عنده يستغنى عنها بالقرائن ، والقرائن معنوية ولفظية ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة على جانب من الأهمية أهملت فيها العلامات الإعرابية اعتمادا على غيرها من القرائن[2] .

بهذا ظهر أن العلامة الإعرابية وحدها لا يمكن أن تكون محط التمييز بين المعانى المختلفة وأنها وحدها لا تكفى فى كشف العلاقات وتحديد المعنى الوظيفى ، وذلك أن الكلمات المقصورة أو المحكية تختفى فيها دور العلامة الإعرابية ، كما أن العلامة الإعرابية قد تسقط ترخصاً عند أمن اللبس ، لأسباب صوتية أو تناسق موسيقى .

هذه النظرية السابقة نسج خيوطها ، وكون لحمتها وسداها ، وكان صاحب الفضل فى لمحها والتخطيط لها العالم الجاد الدكتور تمام حسان ، فكان جريئاً فى أدب ، فاصلاً فى رفق ، بالغاً محز الصواب فى غير التواء[3] .

وقد لخص هذا العالم ما قام به حيث :

(١) أحصى القرائن النحوية معنوية ولفظية ، وتقديم دراسة لكل واحدة منها .

(٢) إنشاء مبدأ هام وهو مبدأ تضافر القرائن .

(٣) إنشاء مبدأ آخر أهم وهو جواز إهدار القرينة عند أمن اللبس .

(للبحث بقية)

أحمد علم الدين الجندى

---

(١) المقدمة ٤ / ١٤٣٦ فما بعدها تحقيق د . وافى ط ٢ .

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ٢٣٥ .

(٣) انظر كتابه : «اللغة العربية معناها ومبناها ، والقرائن النحوية» ، وهو بحث نال به الدرجة الأولى من المكتب الدائم للتعريب بالرباط

في الإعراب ومشكلاته

(٣)

للدكتور احمد علم الدين الجندى

كان الأقدمون من علماء العربية يرون أن كل واحد من الرفع والنصب والجر علم على معنى ، فالرفع علم على الفاعلية والإسناد . . . والنصب علم على المفعولية ، والجر علم الإضافة[1] .

وملاحظاتنا على رأى القدماء هى :

أولا :

إن المتتبع لنصوص العربية يرى أن المسند إليه فى الجملة ليس كون الكلمة مبتدأ أو فاعلا ، وليس كونها مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة ، وإنما الذى يحدده هو المعنى وحده ، ولهذا يمكن أن تكون الفتحة علامة إعراب ، بل علامة إسناد كالضمة ، وهذا مالا يراه علماؤنا القدامى .

وانظر النصوص الآتية :

١ — قول الله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة »[2] .

٢ — وقوله جل شأنه : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا[3] » .

٣ — وقوله عزوجل : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا »[4] .

٤ — وقوله تعالى : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى »[5] .

فالفتحة فى الآية الأولى علامة إسناد فى (مثلا) بدليل أن المعنى لايتم لوحذف (مثلا) شأنها فى ذلك مثل قوله تعالى : «ياأيها الناس ضُرِب مثل فاستمعوا له» ف «مثل» فى الآية هذه مسند إليه ، وهو مرفوع ، كما أنه مسند إليه فى الآية الأولى وهو منصوب ، وفى الآية الثانية مناط الإسناد فيها الظرف وهو منصوب كذلك «ليلا ونهارا»

---

(١) شرح المفصل ٧١/١ فما بعدها .

(٢) سورة النحل الآية : ١١٢ .

(٣) سورة نوح الآية : ٥

(٤) سورة النمل الآية : ٥٢

(٥) سورة النساء الآية : ١٤٢

وفى الآية الثالثة تجد مركز الدائرة ، والمقصود الحقيقى بالإسناد هو (الحال) خاوية ،وهى منصوبة كذلك ومفاد المعنى استنباط العبرة من خواء البيوت ، لامن كونها موجودة ، إذ كان الخواء وحده هو دليل إهلاك هؤلاء[1] .

وفى الآية الرابعة وقعت الحال عمدة ، إذ المعنى كما ترى يتوقف عليها ويفسد بحذفها، ومن هذا نرى أن المعنى هو الذى يحدد المسند إليه من غير نظر إلى الحركة ضمة أو فتحة ،فالحال فى الآية الثالثة يجب ذكرها ، كما يجب ذكرها أيضا فى الآية الرابعة إذ لو حذفت لانهدم المعنى ، ولأن ما يحتاج إليه المعنى كان عمدة وإلا فلا ، دون تفريق بين مرفوع أو منصوب . فالمفعول وغيره من الفضلات يستوى مع الفاعل وغيره من المرفوعات (العمد)من حيث إن كلا منهما له وظيفته فى التركيب ،فلا يغنى الفاعل فى التركيب عن المفعول . كما لا يغنى العكس .والمعنى مع تضام المفعول يتغير قبل تضامه ،ولذلك كان عبد القاهر الجرجانى لا يرى أهمية لأحدهما عن الآخر ، لأن لتضام كل منهما غرضا وفائدة ، فلا فرق عنده بين منصوب ومرفوع .لأن كل ضميمة التركيب لها قيمتها المحددة بغض النظر عن كونها عمدة أو فضلة[2] فالرفع ليس علم الإسناد وحده ، بل وجدنا كلمات غير مرفوعة يسند إليها مثل : اسم إن واسم لا ، فإنهما غير مرفوعين مع أنهما مسند إليهما ومتحدث عنهما . كما أن من المرفوعات كلمات لايسند إليها أو يتحدث عنها كالمنادى — فإنه مرفوع فى بعض أحواله ،وهو غير متحدث عنه، فنوع الحركة لاقيمة له فى الإسناد وسواء كانت موجودة أو غير موجودة .انظر قوله تعالى : «فأوجس فى نفسه خيفة موسى» فالإسناد لايتم إلا بتمام الكلمتين (خيفة) و(موسى) إذ المعنى لايتم إلا بهما ، مع أنه لاحركة على كلمة (موسى) فالاستدلال بالمعنى فى تحديد المسند إليه هو الأولى والأبقى[3] .

فالمعنى هو الذى يخصص للألفاظ مكانها فى النظام النحوى ، فإذا وجدت الإعراب والمعنى متجاذبين ،هذا يدعوك إلى أمر ، وذاك يمنعك منه ، فاحتكم إلى الذوق والحس والبصيرة ،وابن جنى يدعوك إلى التمسك (بعروة) المعنى ، وعليك أن تلتمس تصحيح الإعراب[4] إذا كان

---

(١) مجلة المربد ص ١٢٤ سنة ١٩٧٠ م .
(٢) التضام فى النحو العربى ١١٩ رسالة ماجستير بدار العلوم تأليف محمد صلاح الدين .
(٣) المرجع السابق ص ١٢٥ .
(٤) الخصائص ٣/٢٢٥ .

الإعراب مخالفا لتفسير المعنى، ومما يصور تشاحن الإعراب والمعنى قول النحاة: «هذا تفسير معنى لا تفسير إعراب[1]» وكثيرا ما يقول ابن هشام: «وهذا تقرير لأجل الصناعة دون المعنى[2]».

وعبد القاهر الجرجاني سنّ سُنّة في الدراسات النحوية تجاوز بها علامات الإعراب إلى ما وراءها من وضع الكلمة في الجملة، وموضع الكلمة من الجمل فكان نحوه نحواً من معاني البلاغة. وإذا كان صاحب الإعراب يعتمد على عقله، فإن صاحب المعاني يعتمد على ذوقه وكشفه، وهذا أبو علي الفارسي النحوي قد كان كثيرا ما يتردد في التوجيه النحوي بين الإعراب والمعنى أو بين النحو والذوق، وكان يقول: (قسمة الأعشى) يريد بيته المشهور:

فقال ثكل وغدر أنت بينهما
فاختر ومافيهما حظ لمختار[3]

والفرق بينهما أن تقدير الإعراب لابد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية، وتقدير المعنى لاتضره مخالفة ذلك. والنحوي الذي يرى وجها من الإعراب بعيدا عن المعنى هو نحوي لم يتمثل غايته، ولم يعرف صناعته، إذ المعاني هي المقاييس الحقيقية التي تقاس بها الأشياء، وشهادة المعنى دائما أصدق من شهادة الحس.

والنحاة المتأخرون كانوا يفرقون بين العمد والفضلات، فالعمد ركن الإسناد، وماعداها تبع لها، ولابد من وجودها في الجملة لتؤدي معنى تاما، فإذا لم يوجد العمدة وجب تقديره، أما الفضلات فاسمها يدل على قلة خطرها في المعاني والأغراض، يؤكد ذلك قول ابن يعيش:

«اعلم أنه قدم الكلام في الإعراب على المرفوعات لأنها اللوازم للجملة والعمدة فيها، والتي لاتخلو منها، وما عداها فضلة يستقل الكلام دونها[4]».

فابن يعيش وغيره من النحاة المتأخرين يفرقون بين المرفوعات والمنصوبات: والعمد والفضلات، أما في أول عهد النحو ونشأته فلم تكن التفرقة واضحة، ودليلنا على ذلك أن سيبويه كان يسمى النائب عن الفاعل بالمفعول، والمبتدأ والخبر في باب (ظن) بالمفعولين، ويطلق لفظ الخبر على الحال[5].

كما أن المفعول به في صيغة التعجب عمدة إذ حذفه يخل بسلامة التركيب، وعلماء البلاغة يرون أن متطلبات الموقف اللغوي هي التي تحكم على مايسمى عمدة أو فضلة، فإذا

---

(١) مغنى اللبيب ١ / ١٦٧ تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد، والأشباه والنظائر للسيوطي: ٢ / ١٧٦ ط حيدر أباد.

(٢) المغنى ١ / ٢٢٩.

(٣) انظر كتابنا «نحو القلوب الصغير» ٢٠٤ ط تونس.

(٤) شرح المفصل ١ / ٧٤.

(٥) الكتاب ١ / ١٤، ١٨، ١٩.

اقتضت ظروف القول أن يذكر المفعول فلا بد من ذكره ، وإلا صار الكلام خلواً من الفائدة . والمهم عندهم المعنى والإفادة سواء حصلت بوجود ركنى الإسناد (الفعل والفاعل ، المبتدأ والخبر أو أحدهما) أو بإحدى المكملات دون وجود أحد طرفى الإسناد فقد جاءت الإفادة بالمصدر وحده دون إسناد شيء آخر إليه ، وأغنى عن الفعل وفاعله فى قولك : شكرا وحمدا[1] كما أن بعض الجمل يتكون من كلمة واحدة ، تؤدى معنى كاملا كقولنا : لا ، صه ، وا أسفاه ، فقد أفادت دون حاجة إلى تقدير ركن أو إسناد ، كما أن الواقع اللغوى يومئ إلى الفائدة بالنطق ببعض الصيغ : كالحال وحده أو التمييز كذلك دون وجود المسند والمسند إليه.

وترتب على فهم النحاة أن اعتبروا الفاعل من حيث كونه ركنا فى الإسناد أقوى أصالة من المبتدأ والخبر ، لأنهما يجوز حذفهما ، أما الفاعل فلا يجوز حذفه لأنه أصل (العمد وأشرفها) .

والقول بالقوة والضعف ، والشرف والخسة ليس من منهج النحو فى شيء وحسبنا أن تعبر اللغة العربية عن الفاعل بالاسم المرفوع وترك ما وراء ذلك من الأوهام والظنون .

ثانيا :

- إذا كان النحاة ، يرون أن الرفع علم الفاعلية ، والنصب علم المفعولية ، والجر علم الإضافة ، فإننا نرى أن هذه العلامات الثلاث غير كافية للتعرف على وظيفة الكلمة فى الجملة ، وكان على النحاة إيجاد علامة رابعة لمعنى المشاركة والمطاوعة : وبيان ذلك :

إذا قلت : نازع خالد عليا — فكل منهما فاعل ومفعول به فى وقت واحد فإذا رفعت (خالد) ، لأنه فاعل ، فلماذا لم تنصبه ، لأنه مفعول به فى الوقت نفسه ؟

وإذا نصبت (على) ، لأنه مفعول به ، فلماذا لم ترفعه ، لأنه فاعل فى الوقت نفسه ؟

وإذا قلت : تنازع خالد وعلى — فرفعتهما ، لأنهما فاعلان ، فلماذا لم تنصبهما ، لأنهما مفعولان فى الوقت نفسه ؟ تلك هى المشاركة ؟

أما المطاوعة فكقولك : شعبت الزجاج فانشعب الزجاج ، وقدت الجواد فانقاد الجواد ، فهنا فعلان : الأول — قدت وهو المتعدى ، وفاعله المتكلم ، وأثره القيادة ، والثانى — انقاد وفاعله الجواد ، وقد حصل له أثر القيادة وهو الانقياد .

---

(١) التضام فى النحو العربى ٢٧٩ ، ٢٨٢ .

وكل من الزجاج والجواد فاعل ومفعول في وقت واحد ، فإن رفعناهما ، لأنهما فاعلان ، فلماذا لم ننصبهما ، لأنهما مفعولان ؟ وفي كتب التراث أمثلة صالحة . لهذا :

١ – يقول الشاعر يصف أفعى :

قد سالم الحياتُ منه القدمَا
الأفعوانَ والشجاعَ الشجعما[١]

برفع الحيات ونصب الأفعوان ، ورواية أخرى بنصب الحيات والقدم معا ، لأن كل واحد منهما مفعول بالآخر ، فالحيات مسالَمة ، كما أن القدم مسالِمة ، فكل منهما صالح للفاعلية والمفعولية ، والذى يصحح لك هذا المعنى قوله (سالم) ، لأن (فاعَل) لا يصح إلا من اثنين – على سبيل المقابلة – فكأن الحيات وإن كانت مسالمة أن تداس فكذلك القدم من أن تؤذى ، فعلى هذا يتوجه نصب الحيات ، وما بعدها نصب على البدل ، ولو رفع الحيات بفعلها ، ونصب الأفعوان ، بإضمار فعل كان جائزا[٢] .

٢ – وقول أوس بن حجر[٣] :

تُواهق رجلاها يداها ورأسُه
لها قتب خلف الحقيبة رادفُ

فجعل كل واحد يفعل بصاحبه ، لأن اليدين مواهِقتان ، كما أنهما مواهَقتان وباب المفاعلة يكون من اثنين ، كل واحد منهما يفعل بصاحبه وهو كقولك ؛ قاتل زيد عمرو ، لأن كل واحد في المعنى فاعل بصاحبه وفي شرح أبيات سيبويه للنحاس[٤] : رفع الرجلين واليدين ، لأن كلا منهما قد واهق[٥] الآخر ، فهما الفاعلان ، ولولا ذلك لنصبهما جميعاً » .

ولهذا كان على النحاة وضع علامة إعرابية لتلك الحالة الجديدة التي تخلط فيها الإعراب وماع واضطرب ، إذ الأصل في الإعراب أن يلزم مهيعا واحداً ، والدليل على هذا التخليط أن الشاهدين السابقين وغيرهما نراها حينا في كتب الضرورة ، وحينا يجيزونها

---

(١) يصف رجلا بخشونة القدمين وغلظ جلدها فالحيات لا تؤثر فيهما . والشجاع ضرب من الحيات . والشجعم : الطويل . وانظر خزانة الأدب ٥٦٩/٤ ط بولاق .

(٢) سيبويه ١/١٤٥ بولاق ، ١/٢٨٧ تحقيق عبد السلام هارون . والخصائص ٢ /٤٣٠ ، ضرائر الشعر ١٠٧ تحقيق د . محمد زغلول سلام ، د . محمد مصطفى هدارة . ط منشأة المعارف بالاسكندرية . ٨٠ ط تونس تحقيق: المنجي الكعبي . والإفصاح الفارقي ٣٣٨ تحقيق سعيد الأفغاني : نشرة : بنغازى ، وشرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام ص ٨٢ ط أولى سنة ١٣١٧ هـ .

(٣) في وصف حمار وحش يجرى وراء أتان ، فرجلاها أي مؤخرتا قوائمها توافقان يدى هذا الحمار الذى يضع رأسه خلفها في سيره . فرأسه كأنه قتب لها خلف حقيبتها : أي عجزها .

(٤) ص ١٣١ ط : حلب ١٩٧٤ .

(٥) التواهق : الموافقة في السير والتباري فيه .

وأن من «كلام العرب نصب الفاعل ورفع المفعول ، وعكس ذلك ، أو نصب الفاعل والمفعول معا، أو رفعهما معا ، وكل ذلك إذا أمن اللبس [1] ، وقد سمى السيرافى هذا :« تغيير الإعراب عن وجهه [2] » .

ثالثا :

إن فهم القدماء من أن الرفع علم على الفاعلية ، والنصب علم على المفعولية ، والجر علم الإضافة ، فهو وإن فهم على علاته كان مشتملا فى طيه على ما ينقضه ، ذلك أن الضمة إن دلت على الإسناد فإنها علامة على عدد من الأبواب كالمبتدأ والخبر والفاعل ونائب الفاعل واسم كان وخبر إن ولكل من هذه الأبواب معنى وظيفى يختلف عن معانى الأبواب الأخرى ، ولو كانت الضمة وحيدة فى الدلالة على أحد هذه الأبواب لما صح لها أن تدل — فى نفس الوقت — على الأبواب الأخرى؛لأن العلامة الواحدة لا تدل على أكثر من معنى واحد ومثل هذا الكلام يقال عن الكسرة والفتحة .

ومن هنا كان لابد أن يكون للعلامة الإعرابية ضمائم أخرى تتعاون معها على تحديد معنى الباب النحوى الخاص ، ومن هذه الضمائم : الرتبة ، والأداة ، والبنية الصرفية والمعنى العام ، والتطابق[3] .

وهذا الرأى ينفى نظرية العمل والعامل فى النحو ، لأن التعليق يحدد بواسطة القرائن معانى الأبواب فى السياق ويفسر العلاقات بينها على صورة أوفى وأفضل ، والخلاصة أن التعليق هو الفكرة المركزية فى النحو وفهمه بدقة يقضى على نظرية العوامل[4] .

فالقرائن عند صاحب هذا الرأى وهو الدكتور تمام تغنى عن العوامل ، بل وتنفى ما قالوه ، عن قوة بعض العوامل وضعفها كما تنفى التعليل والتأويل ، الأمر الذى جعل مسائل النحو تتشعب وتزدحم وتتناقض وليس هناك مجال لمثل هذا فى حدود مبدأ تضافر القرائن التى قال بها النحاة ، ثم إن العوامل لا توضح إلا قرينة واحدة فحسب وهى قرينة العلامة الإعرابية ، فكانت الحركات قاصرة عن تفسير المعانى النحوية والعلاقات السياقية ، فهناك الإعراب بالحذف والإعراب المقدر للتعذر والثقل ، والمحل الإعرابى للجمل ، وجميع هذا لا تظهر عليه الحركة الإعرابية الظاهرة ، ويرى الدكتور تمام أن النحاة أعطوا العلامة الإعرابية اهتماما فوق ما تستحق، فبنوا نحوهم كله عليها ، وهو عمل يتسم بالمبالغة لأننا إذا بنينا النحو عليها فقد اهتممنا بدور أحد الممثلين على المسرح دون بقية الأدوار :

(1) شرح قصيدة بانت سعاد ٨٢ .
(2) شرح السيرافى على سيبويه (باب تغيير الإعراب عن وجهه) ج ١ رقم ٥٢٨ بالتيمورية (نحو) .
(3) حوليات دار العلوم ١٩٦٩ (أمن اللبس) للدكتور تمام حسان .
(4) اللغة العربية ١٨٩ د . تمام حسان .

ويرى الدكتور تمام أن فكرة القرائن توزع اهتمامها بالقسطاس بين (قرائن التعليق) ولا تعطى العلامة الإعرابية أكثر مما تستحق ، والقرائن جميعها مسئولة عن أمن اللبس[1] ، وعن وضوح المعنى ، ولا تستعمل واحدة منها بمفردها للدلالة على معنى ما ، وإنما تتضافر كلها لتدل على المعنى النحوى[2] :

فالعلامة الإعرابية تكشف عن المعنى النحوى فى حدود كونها قرينة واحدة تعمل مع القرائن الأخرى الكثيرة ، وهدف القرائن جميعها كشف اللبس عن المعنى فمبدأ تضافر القرائن يفسر التعليق النحوى كله ، على حين لا يفسر العامل النحوى منه إلا قرينة واحدة هى العلامة الإعرابية .

والحق الذى نميل إليه أن العامل والإعراب هما المحور الذى تدور حوله نظرية النحاة العرب ، وأن الإعراب أثر يجلبه العامل وكان هذا مجالا خصبا للتخمين والتأويل والتخيل ، وكان هذا أيضا من أسباب نقد العلماء لنظرية العامل ، إلا أن النقاد تخبطوا كما تخبط النحاة ، فقد رفض النقاد (العامل) النحوى ، وأقاموا مكانه عاملا آخر هو (المتكلم)[3] ، واللغة ليست ملكا للفرد وإنما هى ملك للمجتمع .

من الجانب القرآنى لتطبيق منهج القرائن النحوية :

وهذه نصوص تطبيقية أهملت فيها العلامة الإعرابية اعتمادا على غيرها من القرائن وقد اخترت هذه النصوص من القرآن الكريم وقراءاته ، ويمكنك أن تجد نصوصا كثيرة من الشعر والنثر على السواء :

١ ــ «قالوا : إن هذان لساحران»[4] بتشديد (إنّ) وهى قراءة سبعية قرأ بها نافع وابن عامر وأبو بكر وغيرهم[5] ، فقد تضافرت قرائن البنية والتضام والرتبة فأمن اللبس فأهدرت القرينة اللفظية وهى العلامة الإعرابية ولم يعد لها من الأهمية ما يحتم الاحتفاظ بها لتكون هناك مناسبة صوتية فى هــذان ساحران يريدان ؛ والقرآن يحرص عليها لأنها مطلب من مطالب الأسلوب الأدبى كما استعان القرآن بها على تأكيد المعنى بوفاء الإيقاع وكماله الموسيقى الذى تحقق بصوت المد (آ) فى (هذان) ولا يتحقق بالحيف عليه وانتقاصه بالصوت (أىْ) فى : إن هذين) .

والنظرة الموسيقية تؤكد تأثر الصيغة بجرس الحروف وتناسب الأصوات ، ولا تأبه لمخالفتها قواعد النحاة الذين يعنيهم الشكل والقالب دون ما وراء ذلك من : لطائف وإشارات ، وأحاسيس ، وأسرار .

---

(١) أمن اللبس فى العربية محذور ، ومن ثم وضع له مايزيله . الأشباه والنظائر ٣٠٠/١ ط حيدر آباد .
(٢) اللغة العربية ٢٣٢ .
(٣) انظر الخصائص ١٠٩/١ .
(٤) سورة طه الآية ٦٣ .
(٥) الإتحاف ٣٠٤

هذا ، وقد استغل النحاة فى تخريج الآية الكريمة مذاهب لم تخل من التعسف والتكلف منها :

(أ) أنها لغة بلحارث بن كعب وغيرهم

(ب) إن : بمعنى (نعم) .

(ج) أصلها : إنه هذان لهما ساحران .

(د) أنه لما ثنى (هذا) اجتمع ألفان ألف هذا وألف التثنية فوجب حذف واحدة منهما لالتقاء الساكنين ، فمن قدر المحذوفة ألف هذا ، والباقية ألف التثنية قلبها فى الجر والنصب ياء ، ومن قدر العكس لم يغير الألف عن لفظها .

(هـ) أنه لما كان الإعراب لا يظهر فى الواحد وهو (هذا) جعل كذلك فى التثنية ، ليكون المثنى كالمفرد ، لأنه فرع عليه[1] .

وقريب من هذا كله ما قاله ابن كيسان عندما سئل عنها فقال : نجعلها مبنية فقال له إسماعيل القاضى : فما علة بنائها ؟ قال ابن كيسان: لأن المفرد منها « هذا » وهو مبنى ، والجمع — هؤلاء — وهو مبنى فتحمل التثنية على الوجهين[2] .

(و) وبعضهم يرى أن الأصل فى اسم إن — الرفع ، وأنه وقع فى القرآن والحديث والشعر ، وفى إعراب القرآن المنسوب للزجاج أنه وصف القراءة بأنها جاءت على الأصل الذى ينبغى أن يكون[4] .

(ز) وأخيرا يدفعون هذه القراءة ويرفضونها حين أخذوا بشبه حول كتابة المصحف واتخذوا ذلك دليلا على وقوع اللحن فى القرآن مستدلين برواية سعيد بن جبير من أنه قال : فى القرآن أربعة أحرف لحن: والصابئون ، والمقيمين ، فأصدق وأكن من الصالحين ، إن هذان لساحران .

وما روى من أنه لما فرغ من كتابة المصحف أتى به عثمان ونظر فيه فقال : أحسنتم وأجملتم ! ، أرى فيه شيئا من لحن ستقيمه العرب بألسنتها[5] . وهذه شبه مردودة .

ومما يؤكد رفض النحاة لهذه القراءة أنهم يعدلون الشواهد الشعرية ويتلعبون

---

(١) انظر : شذور الذهب ١ / ٧٤ ، وحاشية الشيخ عبادة ، والحجة لابن خالويه ٢١٧ بيروت ، المواهب الفتحية ٢/٨٢ ، الكشف ٢ / ١٠٠ مكى القيسى . دمشق تحقيق د . محيى الدين رمضان .

(٢) ابن كيسان النحوى ١٥٢ د . محمد البنا دار الاعتصام .

(٣) ٣/٩٣٣ .

(٤) انظر إحياء النحو ٦٤ إبراهيم مصطفى .

(٥) المقنع للدانى ١١٨ ، ومعانى الفراء ١/١٥٦ .

برواياتها ، لأنها أشبهت وناظرت الآية السابقة فى إيقاعها النغمى ، واعتقدوا أنهم بهذا قد أراحوا أنفسهم ، مع أن الروايات المخالفة من حقها أن تعيش وأن تروى[1] .

٢ — « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا » بضم التاء ، وهى قراءة أبى جعفر إتباعا لحركة الجيم[2] .

فقد تضافرت القرائن وأمن اللبس فأهدرت العلامة الإعرابية واستهلك الإعراب بحركة الإتباع ، والنحاة يرمون هذا الإتباع بالضعف[3] ، على الرغم من أنه يحقق تسقا صوتيا ، ومن أجله ترخص فى العلامة الإعرابية .

٣ — « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله[4] » بنصب اسم الجلالة مع أنه الفاعل ، وترخص فى العلامة الإعرابية لأمن اللبس ، وفهم المعنى ، يؤكد ذلك قول ابن مالك :

ورفع مفعول به لا يلتبس
مع نصب فاعل رووا فلا تقس

٤ — « وأما الغلام فكان أبواه مؤمنان » وهى قراءة أبى سعيد الخدرى[5] برفع (مؤمنان) فقد تضافرت قرائن : البنية والرتبة والتضام ؛ فأمن اللبس وأهدرت العلامة الإعرابية ، لتحقق تسقا صوتيا بين الاسم والخبر .

٥ — « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون » حيث رفع الصابئون ، فقد تضافر من القرائن : التبعية ، والأداة وهى (واو العطف) فأمن اللبس وترخص فى العلامة الإعرابية .

٦ — « فتلقى آدم من ربه كلمات » بنصب آدم ، ورفع كلمات ، فقد تضافرت قرينة الإسناد والتعدية بين : تلقى وكلمات . فأمن اللبس وترخص فى العلامة الإعرابية .

٧ — « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات » برفع إبراهيم ونصب ربه . فقد تضافرت قرينة الاسناد والتعدية ، فأمن اللبس وأهدرت العلامة الإعرابية .

٨ — « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع الله ونصب العلماء . فقد تضافرت قرينة الإسناد والتعدية وأمن اللبس ، فأهدرت العلامة الإعرابية ، كما حدث الترخص فى الظاهرة الإعرابية فى ظواهر : الإدغام ، وإسكان آخر المعرب المتحرك

---

(١) انظر هذه الشواهد فى سيبويه : ١/٢٨٧ ط هارون ، اللسان ، ١٥ / ٢٣٩ ، والشعر والشعراء ١/١٣٢ تحقيق شاكر ، مقدمتان فى علوم القرآن : كتاب المبانى ٢٧٧ ، وابن يعيش ٣/١٢٨ ، والقرطين لابن مطرف ٢/١٠ ، والهمع ١ / ٤٠ ، والدرر اللوامع ١ / ١٤) .

(٢) البحر المحيط ١ / ١٥٢ .

(٣) انظر الكشاف : البقرة آية ٣٤ .

(٤) وهى قراءة يزيد بن القعقاع : المحتسب ١ / ١٨٨ .

(٥) المحتسب ٢ / ٣٣ .

وحذف نـون الرفع من المضـارع المرفوع ، وعدم جزم الفعل فى موضع الجزم ، وجزم المضارع فى غير مواضع الجزم ، وغيرها[1] .

وستجد أمثلة كثيرة لا حصر لها من الأحاديث الشريفة[2] والأمثـال : والشعر العربى ، وجميع ما وسمه النحاة بالشذوذ ، والضرورة ، والندور ، والضعف والقلة واللحن ، والخطأ ، ومما لا يقاس عليه ، كل ذلك يمكن أن يفسر بالترخص فى قرينة ما ، وإغناء غيرها عنها ، إلا أن النحاة وجدوا فيه مجالا خصبا للتأويل ، والتقدير ، والحذف[3] ، وكما ترخص فى العلامة الإعرابية عند أمن اللبس يمكن أن يترخص فى غيرها من القرائن : ومن ذلك : قرائن الرتبة والصيغة والمطابقة والربط والتضام والأداة والنغمة[4] .

رابعا :

أما رأى الأستاذ إبراهيم مصطفى من أن الرفع علم الإسناد ، والكسرة علم الإضافة والفتحة علم لما ليس بإسناد ولا إضافة فهى ليست علامة إعراب ولادالة على شئ فملاحظاتنا عليه :

١ – إذا كان للضمة عمل ، وللكسرة كذلك ، وكل منهما يشير إلى معنى ويرمى إلى هدف ، فلماذا سارت الفتحة فى طريق مخالف عن أخواتها ، حيث لم نجد لها معنى ولا هدفا ، إن الواقع والتفكير لا يقر ذلك ، ورأى أستاذنا إبراهيم

---

(١) انظر مقالاتى بمجلة المجمع الأجزاء : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) انظر إعراب الحديث النبوى لأبى البقاء العكبرى ت ٦١٦ هـ بتحقيق عبد الإله نبهان ط دمشق ١٩٧٧ م . والعكبرى يميل إلى القياس النحوى ، ويخرج الروايات المخالفة للقواعد بعدة طرق منها :
أولا : اللجوء إلى التأويل لكي يوافق الحديث القاعدة النحوية (انظر : إعراب الحديث ص ٧ ، ٩ ، ١٠) .
ثانيا : أو يفترض رواية أخرى للحديث تخدم القاعدة النحوية (ص ١١) .
ثالثا : أو يخرج الرواية المخالفة القاعدة النحوية بعدة أوجه (ص ٢٣ ، ٤٨) .
رابعا : وقد يصف رواية بالخطأ (ص ١١١ ، ١١٣ ، ١٣٦) .
وانظر كتاب : شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى. ط دار العروبة . لترى فيه علاقة الحديث النبوى بالقواعد النحوية والمخالفة بينهما . انظر (ص ١٧ – ٤١ / ٩٧ فما بعدها ، ١٣٣ فما بعدها ، ١٧٨ ، ١٨١ .
وانظر فى مغنى اللبيب ١/٣٥ ط مصطفى محمد، قول الرسول «إن قعر جهنم سبعين خريفا» لترى التأويل والتخريج.
وفى المصادر الحديثية السابقة نجد :
١ – تغيير الإعراب عن وجهه . ٢ – وضياع الحركة الإعرابية .
٣ – روايتان مختلفتان واحدة تثبت قاعدة على حين تنفيها الأخرى .
٤ – تعدد وجوه الإعراب .

(٣) انظر المحتسب ٢/٣٣ .

(٤) اللغة العربية معناها ومبناها ٢٠٥ فما بعدها .

مصطفى متأثر إلى حد ما برأى قطرب حيث سلبها الأخير دلالتها اللغوية ، وجردها وحرمها من المعنى ، وهى فكرة معيارية ، كما وقع فيما عابه على النحاة القدماء حيث أول اسم (إن) المنصوب ورأى أن حقه الرفع ، ويرى أن النحاة أخطأوا فهم هذا الباب فوقع فى التأويل الذى عابهم من أجله ، ولأحكامه وفروضه كان عرضة لسهام الناقدين وفى مقدمتهم صاحب كتاب « النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة »[1] :

٢ ـ افترض كذلك أن الفتحة أخف من الحركات كلها ومن السكون أيضا ، وأرى أن السكون أخف من الحركة ، وذلك أن الفتحة شروع فى ألف ، والضمة شروع فى واو ، والكسرة شروع فى ياء. أما السكون فليس شروعا فى حرف آخر ، فالحرف إذا نطقنا به محركا فقد نطقنا بحرف وشرعنا فى آخر ، وإذا نطقنا به ساكنا لم ننطق إلا بذلك الحرف ، إذن فالحرف المتحرك حرف وبعض حرف ، والحرف الساكن حرف فحسب ، والحرف وبعض حرف أثقل من الحرف وحده ، إذن فالسكون أخف من الحركة ولو كانت الحركة فتحة :

ويظهر أن أستاذنا إبراهيم مصطفى تأثر بمنهج القدماء فى ذلك وعلى رأسهم سيبويه حيث يقول : وأما ما توالت فيه الفتحتان فإنهم لا يسكنون منه ، فلا يقولون فى جمل (بفتح الجيم) جمل (بسكونها)[2] :

وأرى أن سيبويه والسيرافى قد جانبهما الصواب ، فقد خفف المفتوح بعض القراء[3] ، والقراء أعدل وأقوم ، فالسكون أخف من الفتح ، لأن السكون يختصر المقاطع فيوفر المجهود ، وبذلك وردت قراءة أبى السمال وأبى المتوكل وأبى الجوزاء (الجمل) بفتح الجيم وإسكان الميم وذلك فى قوله تعالى : « حتى يلج الجمل »[4] :

تقييم لفكرتى (العامل وتضافر القرائن)

(١) جعل النحاة العلامة الإعرابية نظرية كاملة سموها (العامل) ، والعامل يفسر العلامات الإعرابية ، والعامل عند القدماء إما مؤثر حقيقة وهذا هو المشهور فى كتب النحو ، وإما أنه علامة وأمارة فحسب : ويرى فريق آخر أن ما أطلق عليه اسم العامل لا عمل له مطلقا ، والعامل الحقيقى هو المتكلم ، وهذا رأى ابن جنى[5] ويرى نفر أن العامل ليس اللفظ ولا المتكلم وإنما هو الله ، ويرى الشيخ محمد عرفة أن العوامل

---

(١) ومؤلفه الشيخ محمد عرفة ط السعادة ـ مصر .
(٢) شرح السيرافى على سيبويه ٤١٦/٥ مخطوط بالتيمورية ، والكتاب ٢٥٨/٢ ، ٢٨١ .
(٣) المحتسب ٢٠٧/١ .
(٤) الأعراف الآية ٤٠ .
(٥) الخصائص ١٠٩/١ فابعدها .

ليست هي التي رفعت ونصبت وجرت، وإنما هي التي أوجبت هذه العلامات ، وهذا الإيجاب أثرها لايتخلف عنها[1] ، وهو تفسير لايخلو من الافتراض .

وكما اختلف النحاة في العامل اختلفوا كذلك في العمل نفسه :

(أ) أنه الأثر اللفظي الذي يوجد في الكلمة من حركة أو حرف أو سكون أو حذف .

(ب) أن مقتضى العامل هـو نفس الاختلاف ، وهو معنى عقلي ،لأنه ليس هذه الحركات والحروف بل الاختلاف نفسه.

(ج) أن مقتضى العامل هـو توارد المعاني المختلفة من فاعلية ومفعولية وإضافة وإذا كان النحاة يرون في العوامل ألفاظا مؤثرة فإنهم يرون في المعمولات ألفاظا متأثرة ،فإذا رأوا في اللغة معمولات بلا عوامل اضطروا إلى الاعتراف بوجود عوامل خفية لها تأثير ظاهر ، أو رأوا عوامل بلامعمولات ، اضطروا إلى القول بالحذف ،أو التقدير ليسلم لهم مافهموه من معنى العامل والعمل، ومن هنا اضطر المنهج النحوي إلى: الحمل أو القياس أو التقدير[2].

فقد قاسوا الفعل على الفعل ، وعلى الاسم وعلى الحرف ، وقاسوا الحرف على الحرف وعلى الفعل وعلى الاسم .

ثم تظهر قضية الأصالة والفرعية مرتبطة بالعمل .فالأفعال أصل في العمل ، وكذلك الحروف المختصة لها أصالة في العمل[3] وترتب على هذا أن الحرف غير المختص لايعمل. وأن الحرف المختص يعمل . ولكن قاعدتهم تلك وهم أصحابها ، لم تسلم لهم عندما أرادوا تطبيقها في جزئيات النحو[4] .

كما أسرفوا على أنفسهم حين حكموا النظر العقلي في خلافاتهم حول أمور العامل مثل :

١ ـ اختلافهم حول العامل في المستثنى (الإنصاف المسألة ٣٤) .

٢ ـ اختلافهم في عامل النصب في المفعول به (الهمع باب المفعول به) .

٣ ـ اختلافهم في رافع الفعل المضارع (الهمع ١ ـ ١٦٥ ،شرح المفصل ٧ ـ ١٢ ، الإنصاف المسألة ٧٤) .

---

(١) النحو والنحاة ٨٣ .

(٢) الحذف والتقدير ١٤٠ رسالة ماجستير مخطوطة للدكتور علي أبو المكارم . مكتبة دار العلوم .

(٣) الأشباه والنظائر ١ / ٢٦٢ .

(٤) الأشباه والنظائر ١/٢٦٣ ط حيدر آباد. كما أن النحاة وضعوا للعامل والمعمول والعمل شروطا وأوصافا، ولكنهم لم يسيروا وفقها . انظر ابن يعيش ١/٨٤ ، الإنصاف : المسألة ٨٣ ، ٧٨ .

٤ – اختلافهم حول رافع المبتدأ والخبر . . . إلخ .

٥ – مايترتب على العمل من قوة العامل الأصلي وضعف العامل الفرعي .

والنحاة في كل هذا يرتكزون على النظر العقلي في إصدار أحكامهم ، وبعدهم عن الواقع اللغوي . وهذه القضية أسرف فيها علماء النحو دون اعتبار للنص اللغوي ، وما يحمل من دلالات .

(٢) كما أن ظاهرة الحذف والتقدير ارتبطت في النحو بنظرية العامل أيضا ، وقد حذف من الكلام العربي أكثر من جملة ، أو جملة أو بعض أجزاء الجملة ، وتحت هذه الكليات التي حدث فيها الحذف آلاف من الجزئيات حتى أنك لاتجد بابا من أبواب النحو يخلو من ظاهرة الحذف والتقدير والتأويل ، على أن أكثر صور الحذف إنما كان هدف النحاة منه تصحيح قواعدهم في نظرية العامل ، ولهذا اختلفوا في تحديد المحذوف ونوعه ومركزه : فقد أكثروا من التقدير والحذف والتأويل :

(أ) في قوله تعالى : «قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي[1] » .

فيرى سيبويه إعراب أنتم فاعلا لفعل محذوف دل عليه مابعده ، والتقدير : لو تملكون تملكون ، فلما حذف الفعل : تملكون ، انفصل الضمير :

أما الكوفيون : فيعربونها مبتدأ ، ويعربها غيرهم فاعلا بالفعل الموجود بعده ، وآراء أخرى يضيق المقام عنها ، لكن الزمخشري ذو الحس اللغوي المرهف يرى أن (أنتم) فيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ[2] ، وكأنه يشير من طرف خفي إلى الإعراض عن الخلافات الإعرابية المتكلفة السابقة .

(ب) قالوا بحذف العامل في التحذير والإغراء ، والمنصوب على الاختصاص ، والحقيقة لاحذف ، ولاتقدير ، فإذا قلت : نحن المصريين عبرنا القنال . بالنصب . فمعناه تخصيص المصريين بالعبور ، في مقابل : نحن المصريون عبرنا القنال : بالرفع حيث لاتخصيص ، فلما اختلف المعنى كان النصب على المخالفة – وهذا رأي الكوفيين – ثم إن أمثال تلك الأساليب لايضرها مخالفة قواعد النحاة من العمل والعامل والحذف والتقدير ، لأن لها طريقا خاصا عبرت عنه لغة العاطفة والانفعال .

على أن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن العربي ماكان يحذف إلا إذا كان الحذف أبين لمراده ، وأنطق بحجته من الذكر ، فالذي يحذف يكون أنطق مايكون إذا لم ينطق ،

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٠ .

(٢) الكشاف ٢/٥٤٣ الاستقامة – ط الثانية .

وأتم ما يكون بيانا إذا لم يبن[1] . والنحاة عندما حذفوا أو قدروا كانوا على أصول مقررة فقاسوا النظير على النظير ، واستدلوا بالحاضر على الغائب ، ورأوا المحذوف فى المذكور ، تهديهم ملاحظة بارعة[2] .

ثم هو لون من ألوان التعبير ، وخصيصة من خصائص العربية ، فحين تقرأ قوله تعالى « وآتينا ثمود الناقة مبصرة »[3] تفهم للنظرة الأولى أن : مبصرة بمعنى ذات بصر ، وأن تجعلها حالا من الناقة ، لكن الفهم السديد حين ينظر فى الآية يجدها «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها » فالمذهب القويم : أن تكون مبصرة صفة لموصوف محذوف تقديره : آية ؛ إذ الكلام فى الآيات لافى النوق ، فالناقــة حين ذكرت هنا ذكرت لأنها آية لا لأنها ناقة وكفى[4] .

على أن النحاة عندما حذفوا أو قدروا فهم متفقون مع أحدث النظريات المعاصرة حيث اعترف (التحويليون) بما رآه علماؤنا القدامى من ظاهرة الحذف والتقدير ،وهذا يتفق مع فكرتهم فى أن النحو ينبغى أن يربط (البنية العميقة ببنية السطح) والبنية العميقة تمثل العملية العقلية فى اللغة[5] .

والنظرة السديدة التى أميل إليها أن الحذف لايكون إلا حيث يتطلبه المعنى ، على أن يكون بقدر ، كما يجب أن يراعى الموقف والظروف المحيطة به ، وملاحظة الواقع اللغوى ،فلا أقر الحذف الذى قال به النحاة فى قولهم :

(أ) كل رجل وضيعته ، لأن الواو بمعنى : مع .

(ب) لعمرك لأفعلن.وأرى أن جملة لأفعلن هى الخبر ، كما أنها أغنت عن جواب القسم .

(ج) كما حذفوا الخبر فى قوله تعالى « أكلها دائم وظلها » وأرى أنه لاداعى لهذا الحذف ، لأنه مفهوم ، وادعاء الحذف – كما رآه النحاة فيما سبق – متكلف ، لأنه حذف صناعى .

(٣) إن قضايا العامل ومايتصل به تدل على البراعة العقلية والذهنية[6] ، لأن العقل منشؤها حيث غذاه المنطق لا اللغة ولا النص ، فهى معايير فرضها النحاة مستمدة من النظر العقلى ، والقوانين والقواعد ، لكن اللغة مسلك اجتماعى ، وكثيرا مايتعارض مسلك اللغة مع هذه العقلية المعيارية . على أن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن الجانب العقلى فى النحو هو الأهم لكى نصل منه إلى (البنية العميقة) وهى

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٦ عبد القاهر . ط المنار . (٢) من قضايا اللغة والنحو ٩٢ على النجدى .
(٣) الإسراء ٥٩ . (٤) نحو القرآن ١٣٠ مقال منشور بمجلة المجمع للأستاذ على النجدى ج ٣٤ .
(٥) النحو العربى ١٥١ د . عبده الراجحى .
(٦) انظر : الهمع للسيوطى . والإنصاف لابن الأنبارى ، وشرح التسهيل لأبى حيان .

التي تعبر عن المعنى ، وقد ربط (تشومسكى) صاحب هذه النظرية بنظرته إلى التركيب الإنسانى وأصوله العميقة ، قال ذلك حين نادى بنظرية عامة للغة تصدر عن اتجاه عقلى، حيث يرى أن السطح يعكس مايجرى فى العمق من عمليات تختفى وراء الوعى ، والحركات العقلية فى الفكر الإنسانى تؤكد قيمة اللغة فى الحياة ، وأن تناولها ينبغى أن يراعى هذه القيمة وأن اعتبار اللغة عملا للعقل يعنى أن للغة جانبين :

أولها : داخلى ، والثانى : خارجى .وكل جملة يجب أن تدرس من الجانبين ولاسيا مايتصل بالفكر أو العقل ، وعلى هذا فالنقد الذى وجهه الوصفيون إلى النحو التقليدى، وهو الذى وجه بعد ذلك إلى النحو العربى ليس مقبولا الآن ؛ لأن المدرسة الوصفية ترفض ماوراء المادة وتهتم بالواقع اللغوى، والمدرسة التحويلية الأمريكية تؤكد وجهة نظر أسلافنا من النحاة العرب ، وضرورة العودة إلى جهودهم ، حين اهتموا بقضية (المعنى) باعتبار اللغة المنطوقة على (السطح) صورة تعكس « عمليات عقلية » عميقة ، لامناص من فهمها لمعرفة الطبيعة الخلاقة فى اللغة ، وأن هذا المنهج أقرب إلى طبيعة الإنسان حيث أصوله العميقة فى التركيب[1] .

(٤) ومما أخذ على منهج النحاة القدامى أنهم أخطئوا كذلك فى تحديد الصلة بين العامل والمعمول على أنها صلة (تلازم وتأثير) حتى فى الحركات ، إذ يلزم من وجود العامل وجود معمول له ، يؤثر فيه ، ويلزم من وجودهما معا وجود أثر للعمل ، فالإعراب أثر من آثار العوامل التى أكسبها النظر العقلى مظهر العلة وقوة السبب ، والعوامل مؤثرات حقيقية — كما قال الرضى — ، وأثرها الحركات والسكنات ، إنهم لما رأوا الإعراب عوارض تتبدل بتبدل التراكيب قالوا: عرض لا بد له من محدث ، وأثر لابد له من مؤثر ؟

والوصفيون ينكرون نظرية نحاة العرب القدامى ، لأنها تصدر عن تصور عقلى ، ولهذا لا يرون أن تكون الحركة الإعرابية أثرا للعامل النحوى ونتيجة لوجوده، وهذا يتفق ومحاولة ابن مضاء[2] حيث رفض القول بتأثير الكلمات بعضها فى بعض ، ويرى الوصفيون أن منشأ فكرة التأثير والتأثر هذه هو المنطق الإغريقى ، فهى فكرة فلسفية دخيلة على اللغة ، والبحث فى اللغة يجب أن يكون لغويا خالصا، ولهذا ففكرة التأثير والتأثر مرفوضة لا يؤذن لها بالدخول فى منهج البحث اللغوى[3] .

---

(١) النحو العربى ١١٢ فما بعدها بتصرف .
(٢) الرد على النحاة : ٨٥ فما بعدها .
(٣) أصول النحو ٢٧٣ د . محمد عيد ط عالم الكتب .

وابن جني حين يقول في الخصائص : فأما في الحقيقة ، ومحصول الحديث ، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره ، وإنما قالوا لفظي ومعنوي لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ للفظ ، أو باشتمال المعنى على اللفظ. فالعلاقة — التي أثرت في الشكل الإعرابي وجعلتها تؤثر حركة على أخرى هي نفسها (العامل) وليس الفعل — هو العامل في مثل قولك : ضرب سعيد جعفرا : ويعلق ابن جني على هذا قائلا : فإن — ضرب — لم تعمل في الحقيقة شيئا ، وهل تحصل من قولك : ضرب — إلا على اللفظ بالضاد والراء والباء على صورة (فَعَلَ) — فهذا هو الصوت ، والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوبا إليه الفعل[1].

فابن جني هنا يسير في ركاب الوصفيين الذين يرفضون العامل النحوي ، لكن ظهر في العصر الحديث مذهب يؤيد علماء النحو القدامى ، وهو مذهب Chomsky (تشومسكي) الذي ربط (البنية العميقة) (ببنية السطح) : والبنية العميقة عنده تمثل العملية العقلية في اللغة ودراسة هذه البنية تقتضي فهم العلاقات لا باعتبارها وظائف على المستوى التركيبي وإنما باعتبارها علاقات للتأثر والتأثير في التصورات العميقة ، فقضية العامل التي رفضها الوصفيون تعود إلينا مرة أخرى في المنهج التحويلي بصورتها القديمة في النحو العربي[2].

فتشومسكي يؤيد النحو العربي القديم المبني على منهج وأسس عقلية ، والنحو القديم عندما بنى علاقاته في العلامات الإعرابية على مبدأ (التأثير والتأثر) كما رأى القدامى كان يقترب من الطبيعة الإنسانية .

وماذا على النحاة إذ جعلوا في جملة (الشمس طالعة) مثلا عاملا معنويا هو الابتداء ، كما جعلوا في جملة (كانت الشمس طالعة) عاملا لفظيا هو كان ؟ أليس التعميم في الحكم على الأشياء يقتضي ذلك ويستدعيه ؟ أو ليست الطبيعة وهي سر الكون ومصادره تؤثر في الموجودات بعوامل ظاهرة حينا وخفية حينا آخر ؟ وهكذا ينعى الأستاذ على النجدي على من عارض العامل بأن النحاة قد اجتهدوا وسموا تأثير الكلمات في الحركات عوامل فهل عليهم من إثم[3] ؟ .

والحق الذي أميل إليه أن ظاهرة التأثير والتأثر في الإعراب ليس مردها المنطق الإغريقي — كما رأى بعض المحدثين — لأننا لا نعلم نحويا لازم عالما منطقيا في القرنين الأول والثاني ، والنحو في بدايته لم يتأثر بالفكر الخارجي وإن كنا نرجح أن الدرس النحوي مثل القرن الأول قد تأثر بالمنهج الكلامي[4].

---

(١) الخصائص : ١/١٠٩ .
(٢) النحو العربي ١٤٩ د . عبده الراجحي .
(٣) من قضايا اللغة والنحو ١٠٦ .
(٤) انظر الكتاب ١/٢٧٦ بولاق .

وكثيرا ما يصرح ابن جني في كتابه الخصائص[1] ، بأنه تأثر فيه بمنهج علم الكلام والفقه ، وهما من العلوم الأصيلة في الفكر الإسلامي ، وساعد على ذلك أن نفرا من النحاة الأولين كان على اتصال بالمنهج الكلامي ، ولهذا أرجح أن الخلاف الذي دار بين النحاة في (موجد) الحركة الإعرابية ليس إلا تطبيقا نحويا لمشكلة في (علم الكلام) فمذهب ابن مضاء من (موجد) الحركة الإعرابية ليس إلا تطبيقا لمذهب (الجهمية) ، ومذهب جمهور النحاة حيث يرون أن (موجد) الحركة الإعرابية ظاهرة أو مقدرة هو (العامل) نفسه ، يمتد إلى أصل (قدري معتزلي) ، على حين يتميز موقف ابن جني — حين رأى أن العامل هو المتكلم بمضامة اللفظ ومصاحبته — بالتوسط ، فيحاكي بتوسطه هذا موقف متأخري المتكلمين من (أشاعرة وما تريدية) .

فالمشكلة ليست في جوهرها سوى قضية خلق وإيجاد منشؤها مصادر إسلامية لا يونانية ، ولا ضرر أن يتأثر النحاة بعلماء من ميادين مختلفة ، فقد تأثر (دي سوسير بدور كايم) و (ادوارد سابير بفرانز) ، وتأثر (بلومفيلد بالسلوكيين)، و(تشومسكي بديكارت والعقليين) .

على أن النحو حين شب وترعرع تضافرت عليه الثقافات المختلفة ، فحرثت في أبوابه وفصوله حتى تشعب ، ووقع تحت تأثير الثقافات المختلفة الوافدة من هنا وهناك فظهر على وجهه الغلو والتكلف في العلل، ومد القياس ، وتشقيق القضايا ، وتفتيق الجزئيات وظهور المقولات ، وهي منافذ تسلل منها النفوذ الإغريقي وغيره إلى النحو العربي .

ويرى صاحب نظرية تضافر القرائن أن الحركات الإعرابية هي من تأثير القيم الخلافية بين وظائف الكلمات في الجمل، واختلاف وظائفها في السياق ، فاختلاف الوظيفة هو السبب في الرفع والنصب والجر ، ثم قال : والقيم الخلافية لا تعمل وإنما تراعي وهي فروق سلبية ، لا عوامل إيجابية ، ومعنى ذلك أن القيم الخلافية بين أبواب النحو سبب في اختلاف حركات الإعراب. فالاختلاف بين وظيفة الفاعل ووظيفة المفعول في الجملة أدى إلى رفع الأول ونصب الثاني[2] .

وكان من الجائز العكس لولا أن المصادفة العربية لم تجر على النحو الذي جرت عليه .

ويفهم من النص السابق :

١ — أن القيم الخلافية تحل محل العامل في النحو القديم ، وفهمها يعتمد على العلاقات بين الكلمات والجمل لا على أساس التأثير والتأثر كما رأى علماء النحو .

---

(١) الخصائص ١/٢ ، ٣٤٨ / ٦٢ .

(٢) مناهج البحث في اللغة ٢٠٦ ، ٢٠٧ د . تمام حسان الأنجلو .

٢ – أن العلامات الإعرابية ليست من آثار العامل – كما رأى علماء العربية القدامى – فليس عند صاحب تضافر القرائن عامل أو معمول يؤثر أو يتأثر ، وإنما حركات الإعراب عنده مظهر من مظاهر العربية فى توزيع الوظائف اللغوية والقيم النحوية :

٣ – أن حركات الإعراب عنده هى من تأثير القيم الخلافية .

٤ – أنه رفض تأثير العامل ، ومع ذلك قبل تأثير القيم الخلافية ، فاستبدل تأثيرا بتأثير :

٥ – أنه يرى أن القيم الخلافية لا تعمل وإنما تراعى ، وهى فروق سلبية لا عوامل إيجابية . والأسلوب يظهر عليه التناقض ، فإذا كانت لا تعمل ، فكيف تراعى ؟ وإذا كانت تراعى فكيف تكون سلبية ؟

والدكتور تمام يعترف فى شجاعة بأن القدماء كشفوا عن تضافر القرائن وهى لب نظريته ، بل اعترفوا بها وألموا بها إلماما خفيفا ، وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجانى حيث أشار إلى قرينة (التعليق) فأشار إلى تعاون القرائن النحوية فى تحديد المعنى النحوى[1] ولكن النحاة قصروا حيث لم يسلكوا هذه النظرية فى نظام واحد كالذى حاوله صاحب النظرية ، كما لم يبينوا تضافر القرائن للكشف عن المعنى النحوى ، والدليل على هذا أنهم شغلوا بالشذوذ والقلة والندرة ونحوها عن جواز إهدار القرينة عند أمن اللبس : وعبد القاهر الجرجانى لم يكن أول من أشار إلى هذه النظرية كما يرى الدكتور تمام ، ولكننى عثرت على نص لسيبويه يؤكد أنه لمح ذلك حيث يقول : إن الأفعال لما كانت دليلا على ما مضى وما لم يمض من نحو : الذهاب والجلوس والضرب فإنها تعمل فى الحدث نحو : ذهب ذهابا ، والزمان نحو : ذهب أمس ، والمكان نحو : ذهب فرسخين ، من حيث إنها تدل على الحدث والزمان وتتطلب المكان ، فلما كانت دالة عليها ، وطالبة ، لها فقد تعلقت هذه وارتبطت بها[2] »

والتعليق فى قول سيبويه هو التعليق نفسه الذى يقصده الدكتور تمام ، ولكن د. تمام استطاع ببصيرة نافذة ، وحس لغوى أصيل ، وذوق مرهف أن يجعل ذلك أساسا لنظرية تناولت النسيج النحوى كله ، وليس لموضع أو جانب محدد ، كما فعل سيبويه وغيره من النحاة .

ومن هنا رأيت وضع حدود مركزة فاصلة بين نظريتى العامل النحوى ، وتضافر القرائن النحوية أو التعليق أو القيم الخلافية ، وهى بمعنى واحد :

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ١٨٨ .

(٢) الكتاب ١٦/١ فما بعدها ط بولاق .

(أ) أحيانا تكون العلامة الإعرابية قاصرة عن التفريق بين المعانى النحوية، وفى بعض الحالات لا يكون الإعراب فاصلا بين المعانى، فالفتحة على سبيل المثال وهى علامة إعراب فى المفعول به ومعه، لا تميز بين المعنيين فى قولك: أعطيت المسكين صدقة، وأعطيت والمسكين صدقة. فالواو هى القرينة الوحيدة المميزة بين المفعول به ومعه، فالنحاة لم يحالفهم التوفيق عندما بنوا منهجهم على أساس وحيد هو اختلاف المعانى باختلاف الإعراب، ولهذا لجأت اللغة إلى وسائل أخرى للفصل بين المعانى، ومن هنا كان لابد من وجود قرائن أخرى تتضافر مع قرينة الإعراب فكان لزاما الأخذ بمبدأ تضافر القرائن.

(ب) ارتباط الحركات الإعرابية بالمعنى النحوى فى السياق كان لأمر اعتبارى لا منطقى.

(ج) النظرية الجديدة تغنى عن نظرية العمل والعامل.

(د) القرائن جميعها مسئولة عن أمن اللبس وعن وضوح المعنى، وجميعها تتضافر لتدل على المعنى الوظيفى.

(هـ) مبدأ تضافر القرائن أو القيم الخلافية يفسر التعليق النحوى كله، على حين لا يفسر العامل النحوى منه إلا قرينة الإعراب، ولا مزيد.

(و) النظرية الجديدة تنفى عن النحو ما وقع فيه من القول: بالحذف والإضمار، والتأويل والتعليل[1]، والأصل والفرع، والحكم بالشذوذ والندرة والضعف والقوة والضرورة وتعدد الأوجه الإعرابية، وتفسره فى ضوء مبدأ (تضافر القرائن). وقد كانت الظواهر السابقة من أسباب تضخم النحو وتشعبه وثقل كاهله، وقد عالجها د. تمام تحت مبدأ (الترخص) فرد إليها اعتبارها، وحل جزءا كبيرا من مشكلات النحو، وهذا أفضل من علاج النحاة الأقدمين للظاهرة السابقة حيث اعتبروها شذوذا... إلخ.

(ز) التقط د. تمام خطوط نظريته الجديدة من غضون التراث النحوى القديم، ولذلك كان للنحاة الفضل فى أنهم عبدوا له الطريق، وأضاءوا له مسالكه ودروبه.

---

(١) لاحظ أن التعليل هو أصل العامل، وقد أكثر النحاة عن الحديث فى العلل وأقسامها، وألفوا فيها كتبا مستقلة منها على سبيل المثال: اللباب فى علل البناء والإعراب لأبى البقاء العكبرى.

(ح) إن فكرة د . تمام من وجهة نظرنا تصلح أن تفسر الجوانب الإعرابية وغيرها من الناحية النظرية ، ولكن بقى عليه أن يطبق فكرته عمليا وتعليميا فى النحو والتأليف فى جميع أبوابه على هدى من فكرته ، وعندئذ يكتب لها الخلود والبقاء ، ومع اعترافنا بأن صاحب نظرية القرائن يضع أساس مذهب كامل ناضج فى النحو ، إلا أنه غير ميسر إلا للموهوبين ، إذ يحتاج إلى نوع من البصر النافذ ، والحس اللغوى .

(ط) لا تصلح نظرية د. تمام أن نفسر بها ما يجد من استعمالات تنافى اللغة المعاصرة من خروج على قواعد النحاة فهى مقصورة على تفسير ما وقع ، وتبرير ما حدث من النحاة السابقين وحدهم . ومعنى هذا أن النظرية ليست تشريعا للمستقبل وإنما هى لماضى التراث وحده ، وهى لهذا ينقصها عامل الإطراد ، وهو شرط أساسى لكل نظرية .

(ى) أن تفسير الدكتور تمام لجواز الترخص أو التسمح فى العلامة الإعرابية . مشروط عنده بالاعتماد على فهم المعنى وعدم اللبس ، وهذا صحيح مقرر ، لكن السيوطى يضيف شيئا جديدا حين يقول : وسمع رفع المفعول به ونصب الفاعل ، ونصبهما ، ثم قال : والمبيح لذلك كله : فهم المعنى وعدم الإلباس ، ولا يقاس على شىء من ذلك[1] . فالنحاة أوجبوا قصر مخالفة القاعدة على السماع وأحب أن أضيف شيئا هنا ، وهو أن هذه المخالفات الإعرابية لم تأت عفوا ، وإنما تأتى لغرض معين ، أو هدف متعمد ، ولذلك يجب أن يكون الترخص فيها لغاية أو قصد ، وعلى سبيل المثال كقراءة ابن عبلة ورؤبة : (الحمد لله) بكسر الدال اتباعا لكسرة اللام فحركة الإعراب فيها أهملت لأجل حركة المناسبة ، وذلك حين تضافرت القرائن على وضوح المعنى وأمن اللبس[2] فقد ذهبت الظاهرة الإعرابية وضحت بها القراءة من أجل الظاهرة الصوتية .

وكان على الدكتور تمام أن يضع قانونا لهذا الترخص والتسمح ، حتى لا يكون الباب مفتوحا على مصراعيه لتدخل منه كل المخالفات الإعرابية .

(ك) أن د . تمام عندما وضع نظريته ، نظر إلى النحو نظرة كلية شاملة ، استقرأ منها الظواهر المختلفة ثم تناول الجزئيات على أساس من التحليل

---

(١) المبع ١/١٦٥ .

(٢) انظر المحتسب ١/٣٧ ومعانى القرآن للفراء : ١/٣ ونزهة الألباء : ٢٩١ تحقيق أبى الفضل .

اللغوى القائم على إدراك العلاقة بين هذه الأجزاء المنعزلة، ووضعها فى سياق منظم ، اتضحت منه علائقه وكيفية أدائه لوظائفه وبهذا تصور قوانين التعليق وهى لب نظريته، فكانت محاولته أجرأ محاولة عرفت فى العصر الحديث .

وهى تذكرنى بمن يصوب الهدف من أقرب مكان بمهارة ، فقد أبعدت المحاولة نفسها عن محاولات النحاة وتراكماتهم الذهنية وصرامة منطقهم وتفريعاتهم ، لقد كانت رؤية كلية للنظام كله ، ثم إجراء هندسة جديدة لقضاياه فى نظام جديد . على أن حياة الأستاذ نفسها فيها تفسير لمحاولته ، فديدنه الحصر والربط ورسم الحدود ، ووضع الخطط ، فقد كان ضابطا دافع عن الأرض والعرض فى حرب مقدسة ، فلغته وفكره يتسمان (بالضبط والحصر) وهى لغة العسكريين يؤكد هذا عقله الرياضى ، وتفكيره العميق ، ونظامه الجدولى المنظم الذى اشتهر به فى سنوات دراسته الأولى المبكرة ، ليوضح به مسار العلاقات الفكرية فى جانبها اللغوى .

فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع ثقافته ، واطلاعه العريض على مناهج الغرب وقتله بحثا لمذاهب أسلافنا القدماء وقضاياهم عرفنا كيف كان بحق أرفع المجددين صوتا ، وأصلهم فكرا وأعمقهم فهما ، أما النحاة القدامى ، فعندما بدءوا دراسة النحو كان منطقهم الأول دراسة العلامات الإعرابية فبدءوا بالجزء وانتهوا بالكل ، ولهذا ركزوا اهتمامهم على المثال قبل النظرية ، واقتضى هذا الاتجاه تقطيع الكلمة الواحدة إلى أجزاء عند إعرابها كالتاء فى : قلت (فإنهم) اعتبروها كلمة مستقلة عن الفعل ، واعتبروا الفعل فى هذه الحال (قال) بوجود الألف التى لا وجود لها فى الواقع ، ويدل على ذلك قول النحاة فى إعراب هذه الكلمة : قال من (قلت) فعل ماض[1] .

وكان على النحاة أن يبدءوا دراساتهم بدراسة الجملة واستكشاف العلاقات بين أجزائها والقرائن التى تعمل على تماسكها ، أما نظرية العامل :

(أ) فلم تكن إلا وسيلة توسل بها النحاة إلى تفسير ظاهرة الإعراب .

(ب) والنحاة إذا كانوا قد استفادوا فيها بالمنطق ، فكل العلوم دخلها المنطق واستعانت به فلم لايكون منها النحو ؟

(جـ) لم يقدم أحد نظرية بعد ابن مضاء تخلف نظرية العامل بحق غير د. تمام حتى أن ابن مضاء لم يفكر فى رفض العامل عندما رفضه تفكيرا لغويا ، بل كان نتيجة لأخذ بالمذهب الظاهرى فى الشريعة

---

(١) دراسات نقدية فى النحو ٣ د. أيوب . ط الأنجلو .

(د) نظرية العامل عبّرت عن اللغة أصدق تعبير، ومثّلتها خير تمثيل. وهم عندما قالوا بها فإنما رجعوا إلى تقاليد اللغة وطبيعة الاشتراع، ومقتضيات النصوص من ذلك قول العرب في أمثالهم: اللهم ضبعا وذئبا، إذا كانوا يدعون بذلك على غنم رجل، وإذا سألتهم ما يعنون: قالوا: اللهم اجمع أو اجعل فيها ضبعا وذئبا. وكلهم يفسر ما ينوى [1] فلم يعجزهم الاهتداء إلى العامل، إذا كانوا أصحاب حسن وذكاء.

(هـ) إن فهم فكرة العامل من خلال (التركيب) تقربنا من فكرة (التعليق) الذى قال بها الدكتور تمام إلى حد ما، فهما غير منفصلين، بل هما متلاحمان فى إطار واحد لفهم المعنى النحوى.

(و) إن قضايا النحو العربى القديم قد لقيت قبولا من أحدث المدارس الأجنبية المعاصرة – كما بينا سابقاً – فقد فسرت اللغة الألمانية صورة من التحليل اللغوى فيها، شاهدنا لها مشابه فى نحونا العربى القديم الذى قام على أساس نظرية (العامل) [2] ومعنى هذا أن (نظرية العامل) كانت، ولا تزال صالحة لتحليل الظواهر النحوية فى العربية القديمة، وفى الدرس النحوى الحديث.

وبهذا كشفنا النقاب عن أخطر عملية فى النحو العربى منذ سيبويه حتى الآن ووضعنا الحدود الفاصلة لأهم رأيين من آراء عرفاء العربية وعلمائهم: رأى القدماء المتمثل فى ربط العلامات الإعرابية بالعامل النحوى، ورأى صاحب فكرة القرائن النحوية، أما ما وراء ذلك من الآراء ووجهات النظر فقد ناقشتها فى أثناء عرضها، لأنها لم تقدم غير ملاحظات جزئية.

وكان هدفنا كشف الحقائق، وتقويم الآراء من غير إلصاق عيب بأحد أو مدحه بما ليس فيه، كما التزمنا فى النقد بسرعة الإنصاف، ومراجعة الواقع على حقائق التاريخ.

وكان الحكم أخيراً على أساس من التمحيص والتجرد، خالصا من كل شائبة. خالياً من كل تعصب.

وفى النهاية، إذا كان النحو – كما يقولون – أكثر قداسة [3] من الكتب المقدسة فإن ذلك لا يمنعنا من أن نقبل أى نظرية جديدة بناءة فى منهجه، وتفسيره وإصلاحه، لأن النحو يخضع لما تخضع له اللغة من عوامل الحياة وسنة التطور والله أعلم.

احمد علم الدين الجندى
الخبير بالمجمع
والأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

---

(١) الكتاب: ١–٢٥٥، وانظر أمثالا عربية وردت بروايات إعرابية مختلفة فى الكتاب ١/٢٥٦ تحقيق هارون.
(٢) فقة اللغة فى الكتب العربية: ١٥٨، ١٥٩ د. عبده الراجحى ١٩٧٤ م.
(٣) (الماء أقدس شئ على الأرض، والكتب المقدسة أكثر قداسة من الماء، ولكن النحو أكثر قداسة من الكتب المقدسة) البحث اللغوى عند الهنود ص ٧٣ د. أحمد مختار. بيروت ١٩٧٢ م.

ليس في اللغة "واو" للاستئناف

للدكتور محمد نائل أحمد (*)

ذكر بعض النحاة المتأخرين، وفي مقدمتهم ابن هشام، أن الواو تأتي للاستئناف، وذكروا بعض الشواهد من القرآن الكريم ومن الشعر.

ولقد راجعت مؤلفات المتقدمين كسيبويه وابن جني وابن يعيش، فلم أجد فيها شيئاً اسمه «واو الاستئناف» وإنما تأتي عندهم للعطف أو الحالية أو المعية، فمهمتها عندهم الربط والوصل، وليس القطع والفصل، فكيف غاب عن ابن هشام العالم الفحل، هذا التضارب الواضح بين معنى «الواو» ومعنى «الاستئناف» في اللغة وفي اصطلاح علماء البلاغة .. فان اللغة تقول: الاستئناف — الابتداء، إذ هو مأخوذ من «الأنف» وأنف كل شيء أوله .. وعلماء البلاغة يعرفون الاستئناف بأنه فصل جملة عما قبلها لوقوعها جواباً عن سؤال تضمنته الجملة الأولى، فهو قطع وفصل، لا مكان فيه للواو .. فحين قال يوسف — عليه السلام —: «وما أبرئ نفسي» أثارت الجملة علامة استفهام كبرى تخطر لكل قارئ أو سامع: كيف تنفي عن نفسك البراءة وقد ثبتت بأكثر من شاهد؟ فيكون الجواب: «إن النفس لأمارة بالسوء» (يوسف ٥٢) فالجملة الثانية كأنها ابتداء كلام، إذ السائل عادة يقطع كلام المسئول فيستأنفه هذا بالجواب.

ويبدو أن ابن هشام حاول في كتابه «المغني» أن يتتبع كل المعاني والأفكار التي طافت بعقول العلماء والمتأدبين في عصره، فذكر ما يصح وما لا يصح ذكر «واو التذكر» و «واو المذكورة» و «واو الإنكار» و «واو الثمانية» و «الواو الزائدة» و «واو التعليل»، وغير ها إلى ما يزيد عن عشرة

(*) ألقي في الجلسة العاشرة يوم الثلاثاء ٢٩ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م.

معان لم تعرفها اللغة الفصيحة ولم يثبت منها شيء عند التحقيق .

وسوف لا نناقش هنا إلا واو الاستئناف وحدها .

قال ابن هشام فى مغنيه : ومن أقسام الواو واوان يرتفع ما بعدهما ، إحداهما واو الاستئناف ، نحو «لنبين لكم ونُقِرُّ فى الأرحام ما نشاء » ، ونحو « لا تأكل السمك وتشرب اللبن » فيمن رفع تشرب ، ونحو « من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم » فيمن رفع أيضاً ، ونحو « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، إذ لو كانت واو العطف لانتصب (نقر) ولانتصب أو انجزم (تشرب) ، ولجزم (يذر) كما قرأ الآخرون ، وللزم عطف الخبر على الأمر (أى فى الآية الأخيرة) وقال الشاعر :

على الحكم المأتى يوماً إذا قضى
قضيته ألا يجــور ويقصــد

وهذا (أى البيت) متعين للاستئناف ، لأن العطف يجعله شريكاً فى النفى ، فيلزم التناقض ، وكذلك قولهم : دعنى ولا أعود .اه نص ابن هشام . ج ٢ ص ٣٢ ، طبعة ١٩٢٨

ولقد نقلت كلامه كله ، لتسهل مناقشته جملة ثم تفصيلا .

فلأول نظرة يتبين أنه اعتمد فى رأيه هذا على اختلاف حركة الإعراب وحدها ولم نحاول أن يستوحى المعنى ، وما وراء مخالفة الإعراب من سر ، وما أكثر الأسرار التى يعبر عنها باختلاف الحركة ، من رفع يأتى بعد نصب أو جزم ، سواء فى الأفعال أو فى الأسماء كما سنرى بعد ، حين نعرض نماذج له من كتاب الله .

وفى النظرة الثانية ، نقف عند قوله — تعليقاً على البيت — إنه يتعين فيه أن تكون الواو للاستئناف فان مفهوم هذا النص أن ما سبقه من الآيات لا يتعين فيها ذلك ، إذ قد خرجها العلماء فعلا على العطف ، رافضين هذا الاستئناف ، وبهذا لا يتبقى من شواهده إلا البيت والجملة التى بعده ، على أننا سننظر فيها جميعها ، شاهداً بعد شاهد :

١ — ففى قوله تعالى فى سورة الحج (٥) « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم » .

هناك قراءتان فى (نقر) الرفع والنصب ، فالرفع هو ما اعتمد عليه ابن هشام فى رأيه ، والنصب عطفا على (لنُبَيِّنَ) وفى نفسى شيء من قراءة النصب لأن التعليل الواضح فى (لنبين) لا يتضح فى (نقر) بينما قراءة الرفع هى التى يساندها السياق .

والمتأمل فى الآية يجدها استعملت حرف « ثم » فى العطف سواء فى الأطوار التى سبقت

(نقر) والتى جاءت بعدها : فلم تلجأ إلى الواو إلا عند (نقر) وحدها . أليس فى هذا التغيير إشارة إلى سر قصد إليه النظم؟ أو ليست الواو هنا مع ما بعدها (مما أقر فى الأرحام) ، مما يشير إلى حديث مطوى عن شىء لم يستقر فى الأرحام ..؟ وما أروع القرآن حين يوجز فيشير ، ويكتفى بالإشارة عن العبارة . إن ها هنا حذفاً فى الآية دلت عليه الواو والفعل المرفوع بعدها . يتبين ذلك حين نصوغ الآية بلغتنا نحن هكذا : يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانظروا كيف خلقتم .. إنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، وجعلنا الأرحام تلفظ ما نشاء مما لم تكتب له الحياة ، وتقر ما نشاء مما أردنا له الحياة ثم نخرجكم طفلا ... فالواو عطفت (نقر) على (تلفظ)

وبمثل هذا التقدير فى إظهار ما طواه النظم الكريم ، كان العلماء يقدرون. فهذا ابن قتيبة.. وقد فطن إلى أن القرآن الكريم لا يمكن أن يترجم لفظه ، بل الميسور أن يترجم تفسيره — يقول : (واعلم أنك لو أردت أن تنقل (أى تترجم) قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (سورة الأنفال ٥٨ (، لم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذى أودعته ، حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها وتظهر مستودعها ، فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة ، أو عهد ، فخفت منهم خيانة أو نقضاً ، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم ، وآذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض على استواء (كتاب تأويل مشكل القرآن) ص ١٦ تحقيق السيد أحمد صقر

هكذا كان الأوائل يدركون المطوى ، إيجازاً وإعجازاً فى كتاب الله ، فإنه يحذف ويطوى ، مكتفياً بالإشارة والتلويح عن العبارة والتصريح .

فالعدول عن «ثم» إلى الواو ورفع ما بعدها فى الآية وأمثالها ، إنما هو عطف على محذوف دل عليه السياق ، وما أشبه رفع الفعل هنا برفع الاسم بين المنصوبات فى لفظ «الصابئون» كما سنوضحه فيما بعد .

ومهما يكن فقد رفض شراح ابن هشام أن يوافقوه على أن الواو للاستئناف ، فقال الدماميني : إنها للعطف على الفعل الذى تعلق به الجار والمجرور فى (لنبين) وقدره هكذا (نفعل ذلك لنبين لكم ونقر ...) فعطف نقر على نفعل . بينما رأى الأمير أنها عطف على جملة (فانا خلقناكم) .

٢ — وفى قوله تعالى فى الأعراف (١٨٦) : « من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » قراءتان أيضاً فى «ويذرهم» : الرفع وهى شاهد ابن هشام ، والجزم عطفاً على جواب الشرط ، إذ هو مجزوم محلا وقدره

الزمخشري هكذا : (من يضلل الله لا يهديه أحد ويذرهم) .

ولعل الأقرب من هذا ، أن نقول : إن جملة « من يضلل الله فلا هادي له » هي حكم عام يشمل الخلق جميعاً ، فحين يساق عند الحديث عن قوم بأعينهم يتساءل متسائل : أهؤلاء يضلهم الله ولا يهديهم أحد ..؟ يكون الجواب : نعم ، يضلهم ويذرهم في ضلالهم يعمهون ، وهذا ما عناه الزمخشري حين قال : إن الرفع على الاستئناف — أي الاستئناف البلاغي الذي يعطف الفعل على جواب السائل المحذوف ، وليس استئناف ابن هشام ، على أن الشيخ الأمير يرى أن جملة يذرهم معطوفة على الجملة الشرطية بتمامها ، ومعنى ذلك أنها معطوفة على أية حال ، مجزومة أو مرفوعة وأن الواو للعطف لا للاستئناف .

٣ — وقوله تعالى في آخر سورة البقرة (٢٨٢) : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، جاءت الواو بين جملتين : إنشائية وخبرية ، ويرى ابن هشام أنه لا يجوز عطف هذه على تلك ، وهو الذي عقد فصلا في هذا الكتاب بعنوان (عطف الخبر على الإنشاء وعكسه (ص٧٩ من الجزء الثاني وذكر فيه الخلاف بين النحاة في من أجازه ومن منعه ، وذكر أن ممن أجازه سيبويه والصفار وجماعة من النحاة ، محتجين بقوله تعالى في أول البقرة : (وبشر الذين آمنوا) ، ونقل في تأييد هؤلاء رأي الزمخشري في هذه الآية ، وأنها من عطف جملة المعنى على جملة ما سبقه من عقاب الكافرين ، بل إن ابن هشام عقد عنواناً لعطف المعنى على المعنى ، بل لعطف التوهم . .

فكيف ضيق الأمر في هذه الآية ولم ير فيها عطف المعنى على المعنى ، أو العطف على محذوف — فلقد علمهم الله نظام التعامل في الدين ، حاضرين ومسافرين ، وشدد على الكاتب والشهود ، وكرر لهم الأمر بالتقوى أكثر من مرة .. أفلا يصح تقدير الكلام هكذا : ... فاتقوا الله فيما علمكم من هـذه الأحكام ويعلمكم من غيرها ، فكان تغيير النسق في رفع يعلمكم إشارة إلى هذا المحذوف. ولترتبط هذه الواو ما علمهم قبل بما سيعلمهم بعد .. لا ينبغي أن يفهم القرآن إلا على هذا النسق .

٤ — ثم نأتي إلى البيت الذي أصر على أنه يتعين فيه الاستئناف لا غير :

على الحكم المأتي يوماً إذا قضى
قضيته ألا يجور ويقصد

فان عطف (يقصد) على (يجور) يؤدي إلى التناقض . . . .

ولنا أولا على هذا البيت أكثر من ملحوظة فهو بيت مجهول النسب ، لا يعرف قائله ، ثم هو سقيم الصياغة ركيك ، ثم إن نصف ألفاظه مجتلب بلا فائدة ، ولو أننا عبرنا عنه

لقلنا : (على الحكم إذا قضى ألا يجور) فأدينا المعنى كاملا تاماً فالكلمات (المأتى — يوماً — قضيته — يقصد) زيادة لا حاجة إليها ، فالبيت بهذه الصورة يشك فى أنه مصنوع وصناعته رديئة .

ومع كل هذا ، قد أواحنا الدماميني من أمره ، إذ قال فى حاشيته : يمكن أن الأصل (وأن يقصد) فالواو عاطفة على أن لا يجور ، ثم حذفت أن فارتفع الفعل ، على حد قوله تعالى : « ومن آياته يريكم البرق » ، وتسمع بالمعيدى خير من أن تراه ... ولك أن تقول : إن جملة (ويقصد) عطف على جملة (على الحكم ...) ، كما تقول : على زيد الصلاة ويزكى) .

٥ — ثم مثاله الذى ألحقه بالبيت فى حتمية الاستئناف وهو قولهم : (دعنى ولا أعود) إنما يجرى على الألسنة ، وهو من فصيح الكلام ، ولكن ليست واوه للاستئناف كما يرى ، وإنما هى للعطف ، وقد قدره العلماء هكذا : منك العفو ، ومنى الترك ، على أساس أن هذا القول إنما يصدر ممن أخطأ ويطلب العفو ويعد بألا يعود ، وينبغى أن يعلم أن المخطىء من شأنه .. وهو فى موقف الضعف — ألا يستعمل صيغة الأمر (دعنى) بل حقه أن يقول : تدعنى وأعدك ألا أعود ، أو تدعنى ولا أعود ، وإنما لجأ إلى صيغة الأمر — وإن كان الأمر بمعنى الرجاء هنا — كأنه يتعجل الإفلات من العقوبة ، وكثيراً ما تجرى على ألسنة المخطئين عبارات : أرجوك أتوسل إليك أن تعفو عنى ولا أعود إلى مثلها ، فالجملة الأولى تحمل فى مضمونها خبرا يعطف عليه الخبر بعدها .

* * *

وبعد :

فان لهذه اللغة أساليبها الدقيقة التى تستخدم فى التعبير والتصوير ، وهى فى سبيل الأغراض التى يقصد إليها المتكلم ، تفسح له الطريق بأساليب متنوعة ، يختار منها ما يشاء ، فمن حقه أن يخالف النسق الإعرابى لأداء غرض لا يود التعبير عنه بالكلمة أو الجملة ، ومن حقه أن يحذف بعض الكلام ويشير إليه بحرف العطف ، أو بحرف من الحروف الزائدة ، التى نيط بها أداء هذه الغاية ، نحو : « فبما رحمة من الله لنت لهم » .

ولئن كان ما وصل إلينا من كلام الفصحاء الأول ، لا تشيع فيه الأساليب التى تقوم فيها الإشارة مقام العبارة ، لقد جاءنا من كتاب الله ما لا يكاد يحصى عدداً ، أو تدرك أبعاده إعجازاً وأسراراً .

وليس هذا الذى تقوله هنا استطراداً دخيلا على البحث ، إنما هو فى صميمه ومحتواه ، فما جر النحاة المتأخرين إلى هذه المصطلحات والمسميات الكثيرة المرهقة ، إلا انصرافهم إلى المظهر الإعرابى المتعلق بالحركات ، بينما

كان النحاة القدامى يغوصون وراء المعانى، ويتحسسون ما وراء المخالفة للنسق الإعرابى من أسرار وأغراض، ولو أن النحاة المتأخرين ساروا على خطى المتقدمين لكفونا مئونة مثل هذه الدراسة حول واو الاستئناف وغيرها مما شغل حيزاً كبيراً فى كتب المتأخرين، وحرم النحو من متعة التذوق والخصب فى دراسة الشواهد والنصوص، وساقنا إلى تشقيق هذه الدراسات إلى علوم ثلاثة: النحو والبلاغة والنقد، بينما كان النحو الأول هو هذه الثلاثة مجتمعة. وغفر الله للسكاكى، فهو صاحب هذه البدعة، فقد كان «مفتاحه» هو الذى أغلق الباب فى وجه الدراسات التى بدأها سيبويه وابن جنى والمبرد والجرجانيان: صاحب «الوساطة» وصاحب «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، والتى سجلها الزمخشرى ببراعة واقتدار فى الكشاف «الباحث عن أسرار التنزيل»، وهذه قطرة من بحارهم:

١ – يقرأ الزمخشرى قول الله تعالى فى سورة المائدة (٦٩): «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله باالله واليوم الآخر ...» الآية.

فيرى فى الآية ظاهرتين تخالفان الآية نفسها فى سورة البقرة (٦٢): «رفع الصابئون» هنا، ثم قدمها على النصارى، بينما جاءت هناك منصوبة، ومتأخرة عنهم.. فما السر..؟ ولماذا خالف بين هذه وتلك..؟ ثم يجيب بما يراه السر فى ذلك، فيقول: فائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إذا صح منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدهم غياً، لأنهم خرجوا عن الأديان كلها. (ج ١ ص ٦٣٢).

ثم يستأنس بما قال سيبويه فى قول الشاعر:

وإلا فاعلموا أنا وأنتم
بغاة ما بقينا فى شقاق

إذ قال: قدم «وأنتم» قبل مجىء الخبر «بغاة» ليسارع إلى التنبيه على مشاركتهم فى البغى، إذ لو قال: «أنا بغاة وأنتم كذلك لأفاد أن المتكلم وقومه هم البادئون بالبغى، وأن أولئك جاء بغيهم رداً عليهم، فقدم «أنتم» ليدفع هذا الوهم.

هكذا فهم النحاة الأولون أن المخالفة فى الإعراب أو المخالفة فى الترتيب كلاهما وراءه مغزى وسر، تماماً كالمخالفة فى «نقر فى الأرحام» بعد «لنبين لكم». وكلمة «الصابئون» فى الآية خبرها محذوف، والجملة معطوفة على جملة «إن الذين آمنوا»، كما أن جملة «ونقر» معطوفة على الجملة المحذوفة كما سبق تقديرها (فنسقط من الأرحام ما نشاء ونقر ما نشاء)، أو معطوفة على جملة الفعل الذى تعلق به (لنبين لكم) أى (نذكر لكم ما ذكرنا من أطوار الخلق لنبين لكم قدرتنا،

ونحر :..) ، والواو عاطفة لا استئنافية على كل حال ، والعطف على المحذوف أشهر من أن يذكر .

٢ — ويرى العلماء قول الله تعالى فى قصة بنى إسرائيل فى سورة البقرة (٤٩) : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم » قد فصل « يذبحون » عما قبله ، بينما وصله بالواو فى سورة إبراهيم (٦) فيدركون أن الله تعالى — وهو المتحدث فى البقرة — أجمل العذاب ، ثم فصل ، على حد قوله تعالى : « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين (الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣) ، بينما المتحدث فى إبراهيم هو موسى ، فأراد أن يذكرهم بأنواع العذاب التى كانوا يعانونها ، من اضطهاد وضرب وسجن وتشريد ، ثم خص أشدها وأفجعها وهو ذبح الأبناء .. فلما اختلف المعنيان بالتنوع عطف ، من عطف الخاص على العام ، على حد قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » (الأحزاب ٧) ، ولا يعطف الخاص على العام إلا إذا كان له خصوصية تجعله كأنه نوع مستقل .

ولا أحب أن أستطرد فى ذكر هذه الدقائق التى تراها مبثة فى كتاب الله وفى بعض الشعر ، والتى أغفلها النحو المتأخر ، فابتعد عن أسرارها فى كثير من نظراته ، حتى حكم بزيادة إحدى الواوين فى قوله تعالى فى سورة الزمر (٧٣) : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم » ليكون ما بعد الواو الزائدة هو جواب إذا . قياساً على الآية التى سبقتها إذ كانت (فتحت) فيها هى الجواب ، متغافلا عن النكتة التى ذكرها العلماء فى حذف الجواب فى آية المتقين ، بل اتخذ من الآية شاهداً على أن « الواو » تأتى زائدة ، دخولها كخروجها ج ٢ ص ٣٤ من المغنى .

ومن القضايا التى أجمع عليها الثقاة من أهل اللغة أن القرآن الكريم ليس فيه حرف زائد دخوله كخروجه قط ، وإنما لكل حرف زائد فيه معنى قصد به ، وغرض سيق من أجله ، فكيف يقول بعض النحاة : إن الواو هنا دخولها كخروجها ؟

كما أن من القضايا التى لا جدال فيها ، أن اللغة لا تقبل بحال وضع جملة بجوار أخرى إلا وبين الجملتين نسب وصلة ، وإلا كان الكلام لغواً لا يشبه كلام الناس .. فان قويت الصلة بين الجملتين بأن اتحد معناهما اتحاداً ما ، وجب الفصل ، بأن يمتنع ذكر عاطف بينهما وذلك إذا كانت الجملة الثانية بيانا للأولى أو بدلا منها أو توكيداً لها ، فان ضعفت الصلة بينهما ، بأن تغاير معناهما مع وجود صلة ما تجمعهما وجب الوصل بحرف عطف.

وإنما أذكر هذه القضية الثانية ، مع أنها معلومة ، لأن حديث النحاة عن واو الاستئناف

قد يوهم جواز الانقطاع بين الجمل بينما اللغـة تأباه إباء شديداً وتسقط الكلام إذا بدت فيه رائحة هذا الانقطاع ، ولهذا حوسب الشعراء حساباً عسيراً ، عندما بدت فى أشعارهم جمل لا رابط بينهما ، كالبيت المشهور ، الذى جمع بين مرارة النوى وكرم أبى الحسين :

لا والذى هو عـالم أن النوى
صـبر وأن أبا الحسـين كريم

ومع تقديرى للجهود التى بذلها علماؤنا فى ضبط قواعد هذه اللغة ، مما يشكر لهم ، ولا ينكر ، فأنى لا أجد حرجاً فى تعقب بعض الآراء التى تثقل هذا العلم ولا تفيـده ، والتى يمكن ردها بيسر إلى القواعد والأصول المتسقة مع أساليبها الجميلة والتى فطن إليهـا الفحول القدماء من النحاة وأرباب الذوق .

فقد رأيناهم يردون جميع الشواهد التى أريد بها أن تكون واوها للاستئناف إلى المعنى الأصلى للواو ، وهو العطف ، إما على محذوف دل عليه المقام ، وإما على مضمون الكلام السابق :

* * *

ومن هنا أرى مهمة المجمع وكل مشتغل بعلوم اللغة . مهمة شاقة وواسعة المدى لا فى وضع مصطلحات للعلوم والفنون فحسب ؛ بل فى تخليص هذه العلوم مما يثقلها من التقسيم والتفريع والتنويع ، وليتنا نفكر عملياً وجدياً فى العودة إلى النحو القديم ، ندرسه من خلال النص دراسة تطبيقية لا نظرية تنقد وتعرب وتعلل لما وراء الأساليب من أسرار وأبعاد .. ليتنا .. وكان الله فى عون الحافظين للضاد .

محمد نايل
عضو المجمع

وحدة البنية واختلاف الأنظمة

للدكتور تمام حسان

وحدة البنية وتعدد النماذج

مقـــدمة :

تتحد بنية اللغة وتتعدد النماذج التحليلية التى يعرض الباحثون من خلالها نظام هذه اللغة ، وإنما أتى تعدد هذه النماذج من قبل الأسس النظرية التى يبنى عليها الباحثون أعمالهم ؛ فنهم من ينطلق من بداية فلسفية فيرى اللغة كيانا فلسفيا ؛ ومنهم من يبدأ من المنطق فيراها فكرا منطقيا ومنهم من يخضعها للدين فيسخرها له، ومنهم من يراها كائنا طبيعيا ينمو ويضمحل ومنهم من يراها مظهرا لتصورات ذهنية لاتخضع للوصف ولا للتقعيد وإنما يقول عنها ما يخضع للوصف والتقعيد .

ويتجلى اتحاد اللغة واختلاف النماذج فى عدد من الأمثلة منها ما يتصل باللغات الأوربية التى أخذت النحو فى البداية عن النموذج الذى بناه نحاة اللاتينية ثم تحولوا عن هذا النموذج اللاتينى إلى نماذج أخرى تخضع لتطور الدراسات اللغوية الحديثة .

وإذا نظرنا إلى النماذج المختلفة التى بناها اللغويون للغة الإنجليزية فى الوقت الحاضر وجدنا عددا من هذه النماذج يسود جنباً إلى جنب فى أوساط اللغويين الأمريكيين وإن خضع مجموع النماذج على اختلافها للفكرة التوزيعية أو تفرع عنها . وفى الدراسات العربية كان النموذج البصرى يختلف عن النموذج الكوفى وجاء هذا الاختلاف فى مجال الأصول كما شاع فى مجال الفروع . فقد اختلفت المدرستان حول عدد من الأصول مثل القليل لا يعتد به ، وكثرة الاستعمال تجيز الحذف العطف على الضمير المجرور لا يجوز والأصل فى حروف الجر ألا تعمل مع الحذف ولا يجوز إضافة الشيء إلى نفسه وعوامل الأسماء أقوى من عوامل الأفعال والحمل على الجوار كثير فى كلامهم .. الخ ومن شاء أن يظفر بحشد من أمثلة اختلافهم حول الأصول فليلتمس ذلك فى كتب الخلاف وأشهرها كتاب الإنصاف لابن الأنبارى . ثم أضاف

كتابى : « اللغة العربية : معناها ومبناها » نموذجا آخر إلى نماذج النحو العربى سنعرض له فيما بعد بالتفصيل على قدر ما تسمح المساحة المخصصة لذلك فى هذا العرض .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة من بين هذه النماذج ما دامت تختلف فى مآخذها وتتباعد كبعد ما بين التأويل وظاهر النص . وإن كفاءة أى واحد من هذه النماذج إنما تنبع من قربه من الوفاء بالشروط العلمية التى تعارف عليها العلماء وهى الموضوعية المتمثلة فى الاستقراء الناقص وإمكان التحقق من صدق النتيجة ثم الشمول المتمثل فى الخضوع لمبدأ الحتمية وتجريد الثوابت ثم التماسك المتمثل فى الاعتماد على التقسيم والحرص على عدم التناقض وأخيرا الاقتصاد المتمثل فى التقعيد والاستغناء بالأقسام عن الخوض فى المفردات . تلك هى خصائص العلم المضبوط أو الصناعة كما يسميها تراثنا العربى . والنحو صناعة كما يقول النحاة فلابد أن تتحقق له الموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد . وقد يتحقق له بعض هذه الشروط دون بعض وقد يتحقق له الأكثر دون الأقل أو الأقل دون الأكثر ومن هنا تختلف النماذج قربا وبعدا من الصورة المثالية للنموذج فتتفاوت حسنا وسوءا (أى من ناحية الـ elegance) ومما يوضح التفاوت فى تحقق هذه الشروط ما نلمحه من فارق بين النحو وفقه اللغة . فالنحو صناعة لأنه يتناول ثوابت الأفكار والأقسام وفقه اللغة ليس من قبيل الصناعة لأنه يبحث فى المتغيرات ومفردات الظواهر إذ يتناول علاقة اللفظ المفرد باللفظ المفرد والظاهرة المفردة بالظاهرة المفردة كما يتناول علاقة اللفظ المفرد بالمعنى وعلاقة اللفظ المفرد بالاستعمال ثم لا يصطنع لذلك شيئا من التفسير ولا التعقيد ولا التجريد إلا ما يستعيره استعارة من علوم أخرى كالصرف والأصوات كحين يعالج ظاهرة الاشتقاق أو ظاهرة التأليف مثلا . ومثل ذلك يقال عن الفارق بين البصريين والكوفيين حين ننظر مثلا إلى الأصل البصرى الذى يقول : « القليل لا يعتد به » إذ نرى الكوفيين يعتدون بالقليل فيدنون بذلك من الاعتداد بالمفردات من الظواهر وقد علمنا أن العناية بمفردات الظواهر أشبه بفقه اللغة منها بالنحو .

فإذا وضعنا هذه الحقائق السابقة نصب أعيننا علمنا أن اللغة العربية التى وصفها النحاة يمكن أن تظل على حالها التى تبدو بها فى تراثنا الأدبى ثابتة لا تتغير ثم تحاول الأجيال المتعاقبة من الباحثين أن تكشف عن نظامها بإنشاء النماذج المتعاقبة لهذا النظام دون أن تتأثر هذه اللغة بذلك الاختلاف فى بناء النماذج . وسأحاول فى الصفحات التالية أن أعرض النموذج البصرى الذى أنشأه النحاة ولخصه كتاب سيبويه ثم أعرض بعد ذلك نموذجى الذى تضمنه كتاب « اللغة العربية » سنة ١٩٧٣ . لم أعرض تطبيقا لنموذج النحو التحويلى على اللغة العربية

مأخوذا من كتاب Aspects لتشكوفسكى سنة ١٩٦٥ . وبذلك أرجو أن أضرب المثل لإعادة وصف اللغة العربية فى ضوء علم اللسانيات .

النموذج البصرى :

بنى النموذج البصرى على أسس منهجية معينة يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١ — الكلمة وحدة الجملة ومن ثم كانت هى النواة التى دارت حولها الدراسات الصرفية والمعجمية . أما فى الصرف فقد حددت صيغها وأصولها وزوائدها ومايلحقها من الظواهر المختلفة التى يشملها مصطلح « التغيير » كالإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف الخ وعنيت الدراسات الصوتية بإمداد الصرف بكثير من الحقائق التى استعان بها على دراسة الكلمة ؛ وإنما وقع اختيار النحاة على الكلمة دون الصوت المفرد ودون المقطع ودون المتلازمين لأن الكلمة بحكم تعريفها لفظ مفرد وبحكم دلالتها تدل على معنى مفرد . وهكذا يبدو أن فكرة الإفراد هى التى أعانت على بناء الجملة على الكلمات دون غيرها من وحدات التحليل . أضف إلى ذلك أنها نواة صيغة مفردة وأن اللواصق والزوائد تلصق بها وأن ظاهرة الإعراب فى اللغة الفصحى ارتبطت بالكلمة . فالإعراب عندهم أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل فى آخر الكلمة . وإذا كانت أواخر الكلمات تختلف بحسب المعانى فلا شك أن الكلمة تصلح لأن ينسب إليها استقلال فى بنية اللغة لايمكن أن ينسب مثله إلى الصوت أو المقطع مثلا ، بل لايمكن أن ينسب مثله إلى المتلازمين لأن الإعراب لا ينسب إليهما معا ومن لا يصلحان معا — فى رأى النحاة — أن يكونا وحدة تحليلية قائمة بذاتها ثم إن الكلمة مع ذلك يمكن تقديمها وتأخيرها ويمكن أن تضام الكلمات الأخرى أو تنفصل عنها وبذلك كله يتحقق وجودها النظرى باعتبارها وحدة تحليلية :

٢ — والكلم أقسام ثلاثة : اسم وفعل وحرف . وإن التقسيم مبنى على أساسين أحدهما التمييز بحسب المعنى وثانيهما التمييز بحسب المبنى . فأما من حيث المعنى فالاسم مادل على مسمى والفعل مادل على حدث وزمن والحرف مادل على معنى فى غيره وأما من حيث المبنى ؛ فالأمر واضح من قول ابن مالك :

بالجر والتنوين والندا وأل
ومسند للاسم تمييز حصل
بتا فعلت وأتت ويا افعلى
ونون أقبلن فعل ينجلى
سواهما الحرف . . . .
. . . .

ومع التسليم بأن مثل هذا التقسيم ينبغي أن يأخذ في اعتباره المعنى والمبنى معا على حد ما صنع النحاة ، يحسن أن نشير هنا إلى أن النحاة أحسنوا اختيار المبدأ ولكنهم قصروا بعض الشيء عند إجراء التطبيق ، لأن الاسم في تقسيمهم اشتمل على أمشاج من الكلم بينها اختلاف هام جدا من حيث المبنى إذ لايدل كل اسم عندهم على مسمى لأن المصدر يدل على الحدث ، والوصف يدل على موصوف بالحدث ، والضمير يدل على مطلق حاضر أو غائب، والظرف يدل على اقتران حدثين وأسماء الأفعال تدل على استعمال إفصاحي إنشائي للغة وهكذا نجد أن هناك طوائف من الأسماء لاتدل على مسميات أضف إلى ذلك أن الحرف لايدل على معنى في غيره وإنما يدل على علاقة من العلاقات الرابطة لأوصال الجملة فله معنى وظيفي يعرف به ويساق له وينسب إليه . وحسبنا أن نعلم أن النحاة أنفسهم نسبوا المعاني إلى الحروف وحسبنا أن نقرأ قول ابن مالك :

على للاستعلا ومعنى في وعن
بعن تجاوزا عنى من قد فطن

الخ . والأمر من حيث المبنى يبدى لنا بعض المفارقات أيضا ، فالضمائر لاتقبل التنوين وبعضها لايقبل النداء ولاتدخل عليها « أل » وإن دخل عليها حرف الجر لم يظهر عليها وكذلك الحال في الظروف وأسماء الأفعال . ولقد عد النحاة النواسخ من بين الأفعال وهي ليست متصرفة تصرفا تاما في معظمها وبعضها يأبى علامات الأفعال . وهذا وغيره مما يمكن أن يطلع عليه في كتابي : اللغة العربية : معناها ومبناها ص ٨٢ — ١٣٢ ؟

٣ — حين لاحظ النحاة عدم اطراد صور الاستعمال أدركوا أن محاولة بناء القواعد على أمور غير مطردة أمر غير ممكن وغير مفيد ، وكيف يتبادر إلى ذهن من لايعرف العربية أن النون في « ينبغي » وهي تنطق بضم شفتين والنون في ينفع « وهي من الشفة السفلى والأسنان العليا » والنون في « ينظر » وهي يخرج في نطقها اللسان والنون في « ينقل » وهي تنطق في اللهاة ؛ كل ذلك يؤدى وظيفة واحدة من حيث المعنى ؟ بل كيف يمكن أن يتصور المرء منذ الوهلة الأولى أن « استخرج » و « ع » و « ره » يمكن أن توضع تحت عنوان واحد ؟ بل كيف يمكن أن يضع المرء قاعدة واحده مثل « زيد دنف » و « دنف » في جواب «كيف زيد» ؟ من هنا كان لابد للنحاة أن يعزفوا عن غير المطرد إلى المطرد فإن لم يجدوا المطرد في الاستعمال اخترعوه بالتجريد . وكذلك كانت الحال ؛ فقد اخترع النحاة (أصل الوضع) وبنوا النحو على هذا الأصل . فأما النونات

التى سبق الكلام عنها فأصل وضعها نون مجردة فى الذهن تنسب إلى النطق فى اللثة ، وتتمثل عند نطق النون المفردة وهى ساكنة غير متحركة ولكل حرف من حروف العربية أصل مثلها للنون أصل . والذى يقرأ باب الإدغام فى كتاب سيبويه يجد سيبويه يتكلم عن الأصول والفروع فيعد الأصول تسعة وعشرين ويجعل لها فروعا تصلح فى قراءة القرآن والشعر وفروعا أخرى لا تصلح لذلك وهذه الأصول هى أصول وضع الحروف التى جردها النحاة .

ولكل كلمة أصل وضع كذلك وإنما يعدل بالكلمة عن أصل وضعها بالإعلال أو الإبدال أو النقل والقلب أو الحذف أو الزيادة «فقال» أصلها «قول» وقد عدل بها عن هذا الأصل بواسطة الإعلال إذا تحركت الواو (التى فى الأصل المجرد فى الذهن) وانفتح قبلها فصارت فى الاستعمال الفا وهكذا أعلت عين الكلمة «وكساء» أصل وضعها كساو ، قد وقعت الواو متطرفة أثر ألف زائدة فأبدلت همزة . ويقوم أصلها يقوم بقاف ساكنة وواو مضمومة وقد نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها فسكنت الواو وحياض أصلها حواض وقد وقعت الواو عينا لجمع صحيح اللام قبلها كسرة فقلبت ياء و يجد أصلها يوجد بياء مفتوحة وواو ساكنة وجيم مكسورة وقد وقعت الواو فاء لمضارع فعل من نوع «المثال» فحذفت إذ تحذف من مضارع هذا النوع فى أمره ومصدره ومصغره . و «رجيل» المصغرة أصلها «رجل» زيدت فيها ياء ساكنة للتصغير . كل هذا من الناحية الصرفية . أما من الناحية الاشتقاقية فإن «استغفر» أصلها (غ ف ر) و «جاه» أصلها «و ج ه» و «سمة» أصلها «وسم» و «اذكره» أصلها «ذ ك ر» وهلم جرا .

ولكل جملة أصل وضعها . وقد عرف الجزولى الكلام بأنه «اللفظ المركب المفيد بالوضع» فإذا عرفنا أن الجزولى كان يقصد تعريف «الجملة» عرفنا أن الجملة لها صورة مجردة فى الذهن عند النحاة قد يطابقها الاستعمال وقد يختلف عنها ، وهذا الأصل هو :

الجملة الاسمية : مبتدأ + خبر

الجملة الفعلية : فعل + فاعل (أو نائب فاعل) .

الجملة الشرطية : أداة + شرط + جزاء

جملة الأمر : صيغة الأمر + فاعل إما ضمير متصل ومستتر

جملة النهى : أداة + مضارع + فاعل (إما ضمير متصل أو مستتر)

وهكذا يصبح أصل الوضع أمرا ثابتا من عناصره الأظهار والذكر والاتصال

والرتبة على عكس ماجرى على الجمل الحقيقية فى معمعة الاستعمال من إضمار أو حذف أو فصل أو تقديم وتأخير إلى غير ذلك من مظاهر « التغيير » وهذا الثبات الذى نسبه النحاة لأصل الوضع مكنهم من أن يبنوا قواعد مطردة صارمة بمعزل عن تطور اللغة من عصر جاهلى إلى آخر إسلامى وعن اختلاف القبائل فى استعمال اللغة من الحجاز إلى نجد فلما تم لهم ما أرادوا من بناء القواعد عمدوا إلى قواعدهم المبنية بتجريد الأصول فسلطوها على المسموع من الفصحاء وهو مبنى على السليقة دون التجريد فحين اختلف المسموع عن القاعدة كان بعض النحاة يطعن على العرب ويغلطهم ، وكان بعضهم الآخر يسلم لهم معترفا بما قاله الفرزدق لابن أبى إسحق « علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا » .

وهكذا نرى أن النحاة افترضوا « أصل الوضع » فإذا اتفق المستعمل معه فذلك ، وإلا ادعى النحاة أن هذا المستعمل قد عدل به عن الأصل . فإن كان المعدول به عن الأصل حرفا سمى العدول إدغاما أو إقلابا وإخفاء الخ وإن كان كلمة سمى العدول إعلالا أو إبدالا أو نقلا أو قلبا أو حذفا أو زيادة أو عدلا وإن كان جملة سمى العدول إضمارا أو حذفا أو فصلا أو زيادة أو تقديما وتأخيرا . وكل عدول عندهم كان يتطلب الرد إلى الأصل وهذا الرد إلى الأصل يتم فى ضوء قواعد صوتية أو صرفية أو نحوية ويسمى « التأويل » وإنما اختاروا هذا المصطلح ليدلوا به على قصدهم أن يعملوا على أن « يؤول » هذا المعدول به عن الأصل إلى أصله . فكأنهم أخذوا لفظ « التأويل » من الفعل « يؤول » .

٤ ـ وكذلك جعل النحاة للقاعدة أصلا وسموه « أصل القاعدة » وجعلوه صالحا لأن يعدل بالتركيب عنه إلى قواعد فرعية : فالقاعدة العامة للمبتدأ والخبر تخضع للأصل القائل « الأصل فى المبتدأ التعريف وفى الخبر التنكير » (ابن عقيل ١ / ٢١٦) ، ولكن هذه القاعدة الأصلية يعدل عنها إلى قاعدة أخرى فرعية تقول : « إذا أفادت النكرة فلا يمنع الابتداء بها » (نفس المرجع) وكذلك يقول أصل القاعدة « لا يخبر بالزمان عن الجثة » ولكن هذه القاعدة قد يعدل عنها عند أمن اللبس إلى قاعدة فرعية تقول : « إذا كان الإخبار بالزمان عن الجثة لايذهب بالفائدة جاز » والأمر كذلك بالنسبة للأصل القائل : « أى معربة » والفرع القائل : « تبنى أى إذا أضيفت وحذف صدر صلتها » . وهكذا إذا وقعنا على تركيب تصدق عليه القاعدة الفرعية أمكننا أن نرده إلى أصله (القاعدة الأصلية) بواسطة التأويل إذ ننسبه إلى ذلك الأصل ونعترف به فى ظله ونعده استثناء منه ، وهذا هو تأويل القاعدة

أى الرجوع بها إلى أصلها المنسجم مع ظاهر النص أو الذى يتبادر من ظاهر النص . أما إذا كان تفسير بناء تركيب مايتم فى ضوء أصل لايتبادر إلى الذهن من ظاهر النص فيضطر النحوى إلى « إخراج » التركيب من الأصل القريب الذى ينسجم مع أول فهم للنص إلى آخر غير وارد عليه للوهلة الأولى فذلك نوع آخر من التأويل غير « الرد » يسمى « التخريج » من ذلك مثلا مادار حول قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير » قرأ عيسى بن عمر بنصب الطير وقال إن « الطير » معطوف على محل المنادى أما النحاة الآخرون فمع اعترافهم بقراءة النصب قالوا إن هناك قراءة أخرى بالرفع وإن « الطير » المنصوبة لايمكن عطفها على محل المنادى لتشابه أحكام المنادى — وأحكام تابعه والمعروف أن المنادى إذا اقترن بأل فإنه لاتسلط عليه « يا » وإنما تتوسط « أيها » بينهما . وحين رأى النحاة أن ظاهر النص يشهد بما رآه عيسى بن عمر بحثوا عن معنى آخر يمكن أن ينسجم مع أصل قاعدة أخرى وهى القاعدة العامة للعطف التى يعطف بحسبها غير المنادى فعثروا على ذلك المعنى بأن جعلوا الطير معطوفة على « فضلا » فكأن الله تعالى آتى داود فضلا وآتاه الطير ولكن يشهد لرأى عيسى قوله تعالى « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير » أما هذا الصنيع من القائلين به فيعد « تخريجا » لا « تأويلا » وهكذا يمكن الرجوع إلى أصل الوضع بالرد فقط ، ويمكن الرجوع إلى أصل القاعدة به أو بالتخريج .

٥ — ولقد بنى النحاة نحوهم على قرينة واحدة من قرائن المعنى النحوى وهى العلامة الإعرابية وأقاموا عليها نموذجاً متكاملا سموه « العمل النحوى » أو « العوامل النحوية » وقسموا العوامل إلى لفظية ومعنوية ، وقسموا الإعراب إلى ظاهر وتقديرى ومحلى وأخضعوا الظاهرة كلها لفكرة أصل الوضع . فالأصل فى الإعراب أن يكون بالحركة وأما الحرف فهو فرع عليها وعدول عن الأصل ، والأصل فى الإعراب أن يكون ظاهرا فإذا لم يظهر فذلك عدول عن الأصل يرد إليه بالتقدير ، فإذا كان مالم يظهر عليه الإعراب مقصورا أو منقوصا قدرت الحركة على آخره ، أما إذا كان مفردا مبنيا أو جملة فالمقدر هو المحل . والأصل فى النصب أن يكون بالفتحة وفى جمع المؤنث السالم عدول عن الأصل ، والأصل فى الجر أن يكون بالكسرة وفى الممنوع من الصرف عدول عن الأصل. والأصل فى الإعراب أن يكون للأسماء وفى إعراب المضارع عدول عن الأصل يتطلب التعليل بعلة الشبه كما أن فى بناء الأسماء عدولا عن الأصل بعلة الشبه أيضا لقد ظهر فى صفوف النحاة من ألقى

ظلال الشك على ظاهرة الإعراب وزعم قطرب أن ارتباط الإعراب بالمعنى لايعدو أن يكون من تأصيلات النحاة وتجريداتهم وأعانه على ذلك ما لاحظه من توسع الشعراء والفصحاء فى ارتكاب الضرائر الشعرية مع عدم ذهاب المعنى ، فالقرآن والحديث والشعر وكلام العرب مليء بالتوسع فى أمر العلامة الإعرابية والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى وحسبنا أن نذكر مثالا من كل نوع مما سبق .

فالله تعالى يقول : « إن هذان لساحران » والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن قعر جهنم لسبعين خريفا » والفرزدق يقول :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال إلا مسحتا أو مجلف

والعرب تقول : « خرق الثوب المسمار » برفع الثوب ونصب المسمار . ومعنى هذا أن قطربا لم ينكر وجود الإعراب نفسه ولو أنكره لقام القرآن المتواتر بإعرابه والشعر الذى لايستقيم وزنه إلا مع الإعراب شاهدين على خطل رأيه ووضوح باطله . وإنما زعم قطرب أن هذا الاعراب الذى لا سبيل إلى نفى وجوده لا يرتبط بالمعنى على نحو ماقرر النحاة . ولكن ذلك أيضا لايسلم لقطرب وإن كان بعض المحدثين ومنهم المرحوم الدكتور ابراهيم أنيس قد وقفوا فى صف قطرب وأنكروا الصلة بين الإعراب والمعنى . ولو لم يرتبط الاعراب بالمعنى ماكان هناك فارق فيه بين عبارتى « هذا كاتب ساخر » و « هذا كاتب ساخرا » ومعنى هذا أن الإعراب قرينة من قرائن المعنى النحوى لامراء ، وأن الذى دعا قطربا إلى الوقوف هذا الموقف يمكن تفسيره على نحو آخر كما سنرى من بعد (انظر فكرة الترخص فى هذا البحث) .

٦ - ونظر النحاة فى الزمن النحوى فرأوا أن الأزمنة ثلاثة : ماض وحاضر ومستقبل . ولكن الزمن عندهم ارتبط بالصيغة المفردة ارتباطا تاما حتى قالوا : « إن الفعل دال على الحدث بلفظه وعلى الزمن بصيغته » وكأن المضى عندهم ارتبط بالبناء على الفتح وقبول ضمائر الرفع المتصلة ومن ثم رأيناهم ينسبون المضى إلى « نعم وبئس » وما أفعله « و « هيهات » لتحقق البناء على الفتح فيها وينسبونه إلى « ليس » لهذا ولقبولها ضمائر الرفع المتصلة على الرغم مما يبدو فى معانى هذه الكلمات من بعد عن معنى الزمن فى أساسه ، وارتباط «العبارات» التى هى فيها بمعنى التو واللحظة ، فإذا وجدوا أن السياق ربما أدى إلى معنى زمنى غير الذى نسبوه إلى الصيغة ذهبوا ينسبون المعانى الزمنية إلى الأدوات

كنسبة « القلب » إلى « لم » ونسبة الدلالة على مايستقبل من الزمان إلى « إذا » ونسبة شئ من معنى الحضور إلى « قد » وهكذا حبسوا الدلالة الزمنية للنحو العربى فى هذا النطاق الضيق بسبب انشغالهم بالمفردات وبناء النحو عليها كما سبق أن أشرنا وسنرى من بعد أن الزمن فى اللغة العربية أغنى بكثير مما تصوره النحاة .

نموذج كتاب اللغة العربية (١٩٧٣) :

إنما مثلى بالنسبة لهذا النموذج ومثل البصريين بالنسبة لنموذجهم كمثل رجلين أرادا أن يكشفا عن بنية ضاحية صغيرة من مدينة إذ تتكون هذه الضاحية من ثلاث مجموعات من المبانى . فأما أحد الرجلين (والماثل هنا للبصريين) فقد ركب طائرة عمودية توقفت به فى الجو فوق هذه الضاحية بمسافة قليلة تمكنه من رؤية المبانى المذكورة دون بقية المدينة فاطلع فرأى هذه المبانى من ثلاث كتل (والمثل للاسم والفعل والحرف) فأقر بذلك ورضى به وجعل ذلك فى صلب معلوماته عن الضاحية . وأما الرجل الآخر (والماثل لشخصى المتواضع) فلم يركب الطائرة وإنما قصد إلى هذه الكتل ماشياً فدخلها واحدة بعد الأخرى فوجد كل كتلة منها مكونة من بنايات متلاصقة بحيث لا يدرك من يشرف عليها من الطائرة إلا أنها كتلة واحدة . حين رأى تعدد البنايات فى كل كتلة ذهب يتفرس فى صورة كل منها والغرض الذى تستعمل من أجله ، فخرج من تجربته هذه بزعم أن ما رآه راكب الطائرة ثلاثة أقسام هو فى الحقيقة سبعة أقسام للمبانى لا ثلاثه وهكذا وصل نموذجى الذى بنيته إلى جعل أقسام الكلم سبعة : الاسم — الفعل — الوصف — الضمير — الظرف — الخالفة — الأداة . فالنحاة البصريون أشرفوا على أقسام الكلم من أصولهم المجردة تجريدا عقليا بعد أن التزموا بعبارة قالها على ابن أبى طالب رضى الله عنه « الكلم اسم وفعل وحرف » وطلب إلى أبى الأسود أن ينحو هذا النحو . أما نموذجى فقد بدأ بالاستقراء المنهجى الوصفى المبنى على أسس من المعنى وأسس من المبنى وانتهى إلى هذا النموذج المستقل عن النحو البصرى مع بعض الانتفاع بالمدارس الغربية فوجد ما يلى :

١ — أن ما سماه النحاة : « الاسم » يشتمل فى الواقع على أمشاج من الكلم يختلف سلوك كل منها عن سلوك الآخر فإذا كانت الأسماء تعرف بأل فإن الأوصاف (اسم الفاعل والمفعول والتفضيل والمبالغة والصفة المشبهة) لا تفيدها « ال » تعريفا ولا تخصيصا وإذا كانت الأسماء لا تطلب مرفوعا ولا منصوبا فالأوصاف تفعل ذلك الخ . ثم إذا دلت الأسماء

على مسمى فالضمائر (الموصولية والإشارية والشخصية) تدل على مطلق غائب أو حاضر ولا تقبل بعض العلامات الشكلية كالأسماء وتنتظم في جداول بحسب التكلم والخطاب والغيبة والإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث على عكس الأسماء وتبدو أحيانا في صورة مشبعة وأخرى في صورة مضعفة فإذا أضعفت اتصلت بالكلمة كما تتصل باء الجر أولا مثلا والظرف (انظر المقصود بالظرف في الكتاب المذكور) لا يدل على مسمى ولا تتصل به ال ولا يقبل الجر والتنوين والنداء وهكذا ..

٢ — إن ما سماه النحاة « الفعل » يبدو أيضا في صورة تحتاج إلى كثير من العناية والنظر . لقد اشتمل الفعل على النواسخ التي لادلالة لها على الحدث كما اشتمل على التعجب والمدح والذم ولا دلالة فيهما على الزمن ورصدوا للفعل علامات يأباها كثير مما عدوه من قبيل الأفعال ، فقد نسبوا الفعل إما إلى التعدى وإما إلى اللزوم فيما سبق دلالة على تعد أو لزوم وهلم جرا مما قد يرى بتفصيل أتم في كتاب اللغة العربية : معناها ومبناها ؛

٣ — لم يدرك النحاة المعنى العام الذى تندرج تحته الأدوات جميعا ، وهو معنى الربط والدلالة على العلاقة فساقوا للحرف تعريفا لايكفى فى حد الحرف بخاصة ولا الأداة بعامة إذ قالوا : الحرف ما دل على معنى فى غيره دون أن يذكروا طبيعة الغير ولا طبيعة هذا المعنى . وهكذا حصلنا على تعريف غير جامع ، لأن النواسخ (وسنعدها من الأدوات) تدل على معنى فى غيرها وهو النسخ ، وغير مانع ، لأن الظروف الجامدة المبينة لـ وهى ليست من الأدوات) تدل على معنى فى غيرها وهو اقتران حدثين .

لهذا قام نموذج كتاب اللغة العربية ١٩٧٣ على أساس تقسيم جديد فقسم الكلم إلى : اسم — وصف — فعل — ضمير — خالفة ظرف — أداة .

وفرق بين كل قسم من هذه الأقسام وبين غيره على أساس مزدوج من المعنى والمبنى وهذا التقسيم جزء لا يتجزأ من نظام اللغة العربية كما يتصوره النموذج . والمعروف أن النظام تجريد صامت ساكن غير متحرك وأن هذا النظام إن كان الإطار الذى يرتبط به الاستعمال فإن الفرق بينه وبين الاستعمال فرق ما بين الحسى والمعنوى أو بين الساكن والمتحرك أو بين القانون والسلوك الفردى والمعروف أن الاستعمال اللغوى ، بحكم ماله من دينامية وخضوع لظروف التكلم والمتكلم ، لايمكن أن ينطبق تمام الانطباق على أى نموذج يمكن للباحث فى اللغة أن يجرده تجريدا ؛ ومن هنا ينبغى لصاحب النموذج بعد إنشاء الإطار العام أن يفسر الظواهر المتعارضة مع هذا التأطير . وهكذا وجدت أن ما يسمى

في النموذج اسما ربما ورد في الاستعمال في مواقع يرد فيها الوصف أو الفعل أو الظرف وأن الوصف قد يرد مورد الاسم وأن الفعل قد يرد علما وأن الضمير قد يرد مورد الظرف الخ فأنشأت فكرة النقل أو بعبارة أدق انتفعت بما أشار إليه اللغويون من فكرة النقل فلقد تكلم اللغويون عن ظاهرة النقل بما لاحظوه من تحول الكلمة عن معناها الذى كان لها بأصل الوضع فقالوا إن هذه النقل قد يكون عن طريق المجاز اللغوى الذى علاقته المشابهة كالفصاحة مثلا نقلت عن صفاء اللبن وذهاب رغوته إلى نقاء اللغة وقد يكون بنقل اللفظ من المعنى الخاص إلى العام كالبأس إذ كان يدل على الحرب فنقل إلى الدلالة على الشدة من أى نوع وقد يكون بنقل اللفظ من المعنى الكلى إلى الجزئى مثل « الرث » وكانت تدل على الخسيس بوجه عام فخصصت باللباس والفرش وقد يكون بنقل اللفظ من المعنى اللغوى إلى المعنى الاصطلاحى كالصلاة والزكاة والصوم والحج والحال والتمييز الخ (فقه اللغة للأستاذ على وافى) هذا ما قاله اللغويون والبيانيون. وقد رأيت أن أضيف إلى ذلك نوعا آخر من النقل يشمل أمرين : نقل المبنى من استعمال القسم الذى ينتسب إليه من أقسام الكلم إلى استعمال قسم آخر والثانى نقل نمط تركيب الجملة بلا تغيير فيه من أسلوب إلى أسلوب آخر مثال الأول ما أشرنا إليه منذ قليل من أن الاسم قد يستعمل وصفاً كما في (زيد رجل) لأن النموذج يعرض لخبر المبتدأ أن يكون وصفاً فإذا ورد الاسم مورده تحول إلى وصف ، بل إن النحاة أنفسهم أولوه بالوصف فقالوا : (أى متصف بالرجولة) ومن هذا القبيل قولهم : هذا رجل الساعة وهذا معاوية القرن العشرين وقضية ولا أبا حسن لها . وفى هذا المقام يتحول معاوية وأبو الحسن إلى نكرتين وقد يرد الاسم مورد الفعل كما فى ضربا زيدا مورد الفعل كما فى ضربا زيدا فيتعدى الاسم إلى المفعول وقد يرد مورد الظرف كما فى لقيته ساعة الغروب فتحدثت إليه بعض الوقت وافترقنا زهاء الثامنة مساء وتواعدنا أن نلتقى غدا .

وقد يرد الوصف مورد الاسم كما فى صالح وشاكر ومحمود وأحمد وخليل وغيرها من أسماء الأعلام . كما قد يرد الفعل هذا المورد كما فى يزيد ويشكر ويعيش ويموت ويحيى وتغلب الخ وقد يرد الضمير (وهو فى هذا النموذج يشمل الإشارات والموصولات أيضاً مورد الظرف كما فى هنا وثم والآن (إشارة إلى الحاضر) أما نقل النمط التركيبى للجملة من أسلوب إلى أسلوب فمنه نقل الإثبات إلى الدعاء كما فى « بارك الله فيك » والنفى إلى الدعاء كما فى « لافض فوك» والاستفهام إلى الإنكار نحو : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » وقد التفت النحاة إلى هذا النوع الثانى (نقل

النمط التركيبي) وجعلوه جزءا من نموذجهم ولكنهم غفلوا عن النوع الأول فلم يلموا به إلا إلماما متسرعاً في بابي اسم العلم والتمييز (الأعلام المنقولة والتمييز المنقول) .

وهناك فكرة أخرى كان لابد أن يشتمل عليها نموذج اللغة العربية ١٩٧٣ وهي فكرة تعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد على نحو ما يتعدد المعنى المعجمي للكلمة الواحدة . ولم يغفل النحاة عن هذه الفكرة بل على العكس من ذلك نجدها تمثل العمود الفقري في نوع من أنواع الكتب النحوية مثل مغني اللبيب لابن هشام والجنى الداني لابن أم قاسم ورصف المباني لابن عبد النور المالقي ولكن النحاة مع ذلك لم يعطوا هذه الفكرة ما تستحقه من التنظير فلم يدخلوها في تجريداتهم وتأصيلاتهم وينبغي أن يكون قد اتضح الآن ما أقصده بتعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد فقد يكون المبنى (وهو يساوي ما يقصده المحدثون بلفظ Morpheme) أداة فتتعدد معانيها كما في صلاحية « ما » أن تكون موصولة أو مصدرية أو نافية أو تعجبية أو زائدة . وكما في صلاحية صيغة « فعل » (بفتح فسكون) للمصدر والصفة المشبهة وصيغة فعيل للفاعل والمفعول والمصدر وهلم جرا والفرق بين هذا وبين النقل أن النقل تحول عن جسم إلى قسم فهو مرتبط بأقسام الكلم ، أما هنا فالأمر مرتبط بصورة المبنى الذي يتعدد معناه في داخل قسم بعينه فيتنافى مع فكرة النقل ولكنه قد يمتد على قسمين أو أكثر .

وفي رأي هذا النموذج أن أصل الاشتقاق ليس المصدر كما زعم البصريون ولا الفعل الماضي كما زعم الكوفيون . إنما هو الأصول الثلاثة التي تستعمل في المعاجم على شرط أن تكون مفرقة غير موضوعة في كلمة وأعجب لعبقري كالخليل بن أحمد ؛ إذ نراه أبا المعجميين العرب وسيد النحاة جميعا والمسئول المباشر عن كثير مما نعرفه الآن باسم أصول النحو . كيف اضطرب تفكيره بالنسبة لأصل الاشتقاق . لقد وضع الخليل أصلا للاشتقاق في الصرف في صورة المصدر فقال وقال البصريون معه : إن المصدر أصل الاشتقاق . وحين تصدى للغة في كتاب العين فرع المشتقات لا من المصادر وإنما من الأصول الثلاثة التي تعرفها اليوم باسم أصول المادة فما الفرق بين المادة والاشتقاق ؟ ولماذا لا تكون أصول المادة هي أصول الاشتقاق ؟ الحق أن الصرف لو اعترف بهذه الأصول الثلاثة في التفريع الاشتقاقي لكان أصدق مع نفسه لأن كل التحليلات الصرفية تقوم على افتراض الأصول الثلاثة أصلا للاشتقاق وترعاها في كل التقسيمات سواء في المجرد والمزيد وفي الصحيح السالم والمهموز والمثال والأجوف والناقص واللفيف

المفروق والمقرون في الميزان الصرفي وفي القول بالإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف وفي إسناد الضمائر إلى الأفعال وفي تثنيه الكلمة وجمعها وتصغيرها والنسب إليها . بل إن الأصول الثلاثة معتبرة حتى في أمور تقع خارج نطاق الصرف كالإملاء الذي يفرق بين الألف الواوية واليائية في الكتابة وهلم جرا .

والنحو شبكة من العلاقات السياقية التي تقوم كل علاقة منها عند وضوحها مقام القرينة المعنوية التي قد يعتمد وضوحها على التآخي بينها وبين القرائن اللفظية في السياق والقرائن المعنوية في هذا النموذج النحوي هي قرينة الإسناد (ولها صور) قرينة التخصيص (ولها صور أيضاً) وكذلك النسبة (ولها صورها) والتبعية (ولها صورها) والمخالفة (ولها صورها) (انظر كتاب اللغة العربية معناها ومبناها) وأما صور الإسناد فهي الجمل الاسمية والوصفية والفعلية والأولى والأخيرة معروفتان أما الوسطى فالمعروف أن الوصف قد يذكر له فاعل وقد يتعدى إلى مفعول به وقد يكون له مفعول مطلق فإذا تقدمه أداة نفي أو استفهام بدت الجملة الوصفية جملة أصلية بحيث نجد «أقائم زيد» تقف جنباً إلى جنب مع «أيقوم زيد» «وأزيد قائم» أما إذا تقدمها مبتدأ أو موصوف فإنها تبدو في صورة الجملة الفرعية بحيث تبدو «قائم أبوه» في «زيد قائم أبوه» ولها نفس المظهر الذي لجملة «زيد يقوم أبوه» وهكذا يضيف النموذج جملة ثالثة إلى التراكيب العربية هي الجملة الوصفية وفروع التخصيص كلها علاقات للمنصوبات فالتعدية علاقة المفعول به وقرينته والغائية قرينة المفعول لأجله والمعية قرينة المفعول معه والظرفية قرينة المفعول فيه والتأكيد قرينة المفعول المطلق المؤكد للفعل أي الصارف لمعناه عن احتمال المجاز ، والتحديد قرينة المفعول المطلق المبين للنوع أو للعدد والملابسة قرينة الحال والإخراج قرينة المستثنى والتفسير قرينة التمييز وأما النسبة فهي قرينة الإضافة وهي المعنى الذي ينتظم الجر بالحرف وتتعدد معاني هذه الحروف حتى تكاد تربو على الثلاثين (انظر باب حروف الجر في كتب النحو) وتكون الإضافة على معنى أي حرف منها وليست على معنى اللام ومن وفي ، لاحظ مثلا معنى «عن» في عبارة «تجاوز الحد» ومعنى على في «ركوب الحصان» ومعنى إلى في «بلوغ المدينة» ومعنى «الباء» في «ضرب العصا» وهلم جرا وأما التبعية فقرينة قوامها الرابطة بين عنصرين من عناصر الجملة تجعلهما يقفان على نفس المستوى إزاء نواة الجملة ، والمقصود بالنواة العنصر الفعلي للجملة (الفعل أو الوصف أو المصدر المضاف أو المتعدي) وهذه القرينة تدل على النعت والتوكيد والبيان والنسق والبدل ولا ترتبط

بإعراب معين وإن اعتمدت على المطابقة فى الإعراب .

والمخالفة قرينة إرادة معنى غير إسنادى إذ له نمط يخضع لقاعدة من قواعد الجمل فحين يستعمل النمط نفسه لا على سبيل الإسناد ، يختلف المعنى عما كان فى الإسناد وتشير اللغة إلى هذه المخالفة بالاختلاف فى الإعراب ، فتفرق بين عنصر من التركيب فى حالة الإسناد وبين هذا العنصر فى غير الإسناد بالضمة هنا والفتحة هناك ، قارن لفظ « سلام » فى قوله تعالى : «قالوا سلاما قال سلام قوم منكرون » وكذلك الأمثلة الآتية :

ما أحسن زيد . ما أحسن زيداً !

نحن العرب : نحن العرب نكرم الضيف

فصبر جميل : صبراً جميلا

عليك خطوك . عليك نفسك

العمل العمل (مبتدأ وخبر)

العمل العمل (إنشاء)

سقى لك ورعى . سقيا لك ورعيا

كم عمة لك يا جرير . كم عمة

ولقد جهد النحاة عظيم الجهد فى محاولة تخريج معظم الطائفة الثانية المنصوبة على وجوب الحذف .

إنما كان الجزء الصرفى الذى قدمناه من النموذج تمهيداً ضرورياً للكلام فى الجزء النحوى ؛ ذلك بأن الجانب الصرفى يقوم للنحو قرينتى البينة والربط (والمطابقة داخلة فى الربط) اللتين تؤديان مع غيرهما إلى حراسة المعنى وأمن اللبس ؛ فالنموذج يشتمل على القرائن الآتية :

١ — العلامة الإعرابية . وقد سبقت الإشارة إلى موقف النحاة منها ، وهى تعد إسهاما من النظام الصوتى فى بناء النظام النحوى . ولكن يدخل فيها كذلك عند النحاة تجريد ذهنى لا يتصل بالأصوات وذلك ما أطلقوا عليه الإعراب التقديرى والإعراب المحلى . وقد اتخذ نموذج اللغة العربية ١٩٧٣ ، الذى نحن بصدد الكلام فيه موقفاً معينا من هذا النوع من التجريد الذهنى الذى لا يتفق مع المنهج الوصفى .

وسنشير إلى ذلك بعد قليل :

٢ — البنية الصرفية وهى قرينة يقدمها الصرف إلى النحو وتبدو قيمتها فى الكشف عن المعنى عندما يكون الباب النحوى مشروطاً بشروط بنائية خاصة ؛ كاشتراط بناء الفعل للفاعل مع الفاعل وللمفعول مع نائبه واشتراط الجمود للتمييز والمصدرية مع اتحاد الأصول الاشتقاقية للمفعول المطلق ومع اختلافها للمفعول لأجله وهلم جرا فهنا تكون البنية قرينة المعنى النحوى وهو الفاعلية والمفعولية الخ .

٣ — الربط وهو يتم بطريقتين :

(أ) بغير المطابقة فيكون بالضمير نحو : قابلت الرجل الذى كلمتك عنه . وإعادة اللفظ نحو : واتقوا الله ويعلمكم الله . أو «فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه» أو الألف واللام نحو «فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى» وبالإشارة نحو «ولباس التقوى ذلك خير» وبإعادة المعنى نحو «شعارى لا إله إلا الله» وبالحرف نحو «من عمل صالحا فلنفسه» لأننا لو تصورنا الفاء غير موجودة لكان الجار والمجرور صفة لما قبله وليس جوابا للشرط وهلم جرا .

(ب) بالمطابقة فى الشخص «المتكلم والخطاب والغيبة» أو فى العدد «الإفراد والتثنية والجمع» أو فى النوع «التذكير والتأنيث» أو فى التعيين «التعريف والتنكير».

ووسائل الربط كما نرى تعود إلى العناصر الصرفية .

وهناك قرينتان تعودان إلى علاقة المبنى بالمبنى فى السياق وهما :

٤ — الرتبة وهى إما محفوظة دائما فى النظام والاستعمال فيعرف بها معنى الكلمة ويرتفع بها اللبس وإما غير محفوظة إذ يقررها النظام مبدأ ويتصرف فيها الاستعمال أساويا وهذا النوع من الرتبة هو مجال ما يسميه البلاغيون : التقديم والتأخير أما النوع الأول فلا يحتمل تقديما ولا تأخيرا . وهل تتقدم الصلة على الموصول أو النعت على المنعوت أو المضاف إليه على المضاف أو المجرور على حرف الجر أو المعطوف على حرف العطف ؟

٥ — التضام وهو يشمل التلازم والتنافى والتوارد فأما التلازم فكلام النحاة عن المتلازمين أشهر من أن يعرف به . وذلك حين لا تنفك الكلمتان إحداهما عن الأخرى كالجار والمجرور والعاطف والمعطوف والموصول والصلة وهلم جرا . وأما التنافى فعكس ذلك وهو أن تأبى الكلمة أن تضام الأخرى فالضمير لا يضاف ولا ينعت وحروف الجر تأبى الدخول على الأفعال كما تأبى واو الحال أن تدخل على الماضى دون توسط «قد» وهلم جرا .

أما التوارد فذلك نصيب العلاقات المعجمية من تحديد المعنى النحوى وهو فى اصطلاح هذا النموذج يعنى أن بعض الكلمات تحدد لها الاستعمال مدخولها وإن أطلقه نظام اللغة . فليس فى نظام اللغة ما يمنع إضافة لفظ «جلالة» إلى أى مضاف إليه : ذى جلال ولكن الاستعمال حدد ذلك بلفظ الملك فيقال «جلالة الملك» كما يقال «حنان الأم» وكما يقال : «الأم الرؤوم» و «العالم العلامة» . ولكلمة «صاحب» عدد محدود من الكلمات يمكن أن تضاف إليها عند إرادة التلقيب مثل : صاحب

الجلالة - صاحب المعالى - صاحب الفخامة - صاحب السعادة - صاحب الفضيلة - صاحب النيافة الخ . نحب أن نشير إلى أن تشومسكى قد كشف عن جانب هام فى علاقات التوارد لم أفطن إليه وذلك ما يمكن أن نطلق عليه « قيود التوارد » ترجمة لعبارة Selection restrectioms وقد عاق تشومسكى هذه الظاهرة بالمناسبة النحوية لا بالصحة النحوية .

ولعل الرتبة والتضام من أوغل القرائن فى نظرية التوزيعيين ؛ لأن بيئة المبنى وهى مناط التوزيع عندهم ، إنما تحددها الرتبة وما يتعين بها من موقع (التضام) وما يستعين به من معاقبة أو كما يسمونها Substit ution ويذكر للنحاة العرب أنهم كانوا على ذكر من فائدة المعاقبة فى الكشف عن المعنى وكان من عباراتهم الشائعة قولهم : إن هذا يعاقب ذلك أو لا يعاقبه . فالحرف « قد » مثلا يعاقب « سوف » ولا يعاقب « أن » .

٦ - وهناك قرينة الأداة ، وكان يمكن لها أن تحتسب فرعا على قرينة البنية ، لأن الأداة مبنى على أى حال . لكن الأداة كما تكون قرينة على معنى مدخولها : المفرد تكون قرينة على معنى الجملة وهنا نأتى مرة أخرى إلى فكرة المعاقبة لنقول مثلا إن حرف الجر « فى » لا يعاقب « قد » لأن كلا منهما يدخل على مدخول مختلف ويحل مواقع لا يحل فيها الآخر أو بعبارة التوزيعيين : تختلف توزيعها عن صاحبه وهناك جمل فى العربية تتعين لها أدوات فتكون الأداة قرينة الجملة . وإنه ليبدو أن تعين الجملة بالأداة هو الأغلب الأعم فى العربية ؛ لأننا لا نكاد نجد جملة (فيما عدا الإثبات والأمر بالصيغة) تخلو من أن تتقدمها الأداة ، فهناك أدوات تتقدم جملة النفى وجملة التأكيد وجملة الاستفهام والأمـــر باللام والنهى والتخصيص والتمنى والترجى والنداء والشرط الامتناعى والشرط الإمكانى والقسم والتعجيب الخ وقد يحدث أن تحذف الجملة كلها حين يدل دليل عليها وتبقى الأداة وحدها نائبة عن الجملة المحذوفة وقرينة عليها ، بحكم ما بينهما من التضام . كما فى نحو علام وإلام ، وكنحو : ولو وإن . . . الخ .

٧ - وهناك أيضاً قرينة النغمة فى الكلام المنطوق وهى قرينة هامة لم يقلل من أهميتها عند النحاة إلا أنهم كانوا يعرفون الفصحى فى صورتها المكتوبة الصامتة . ولكننا عندما نلجأ إلى الفصحى ونتخذها وسيلة من وسائل التعبير الشعرى أو الخطابى أو المسرحى أو السينمائى تبدو قيمة النغمة من جديد فى أجلى صورها ؛ فقد تحذف أداة الاستفهام فتحمل النغمة عبء هذا المعنى ؛ كأن تحكى قصة تطاول

أحد الأشخاص على رجل حليم وتصل منها إلى نقطة من نقاط تمام المعنى فيسأل السامع متعجبا : ولم يغضب ؟ وهو يعنى : « أو لم يغضب ؟ » فيحذف الهمزة ويعتمد على النغمة فى أداء المعنى . وقد جاء حذف الهمزة فى قوله تعالى بلسان موسى « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » وقول الكميت :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب
ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب

وقال عمر بن أبى ربيعة :

ثم قالوا : تحبها قلت بهرا
عدد النجم والحصى والتراب

٨ — وهناك قرينة السياق بكل ما يشتمل عليه من اعتبارات الصناعة النحوية والمقام البلاغى ثم ما سماه تشومسكى : قيود التوارد . وتتضح قرينة السياق فى تحديد معنى « إن » من قول الشاعر :

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك
وإن مالك كانت كرام المعادن

فإذ تعدد المعنى الوظيفى للمبنى الواحد يجعل الاحتمال هنا لأحد معنيين : النفى أو كون إن مخففة من الثقيلة دالة على التأكيد . ولا يتعين أحد المعنيين بطبيعة الحال إلا أن يساعدنا السياق على تعيينه . وإذا نظرنا إلى صدر البيت وجدنا الشاعر يفخر بآبائه وعشيرته ، فلو جعلنا « إن » نافية لوقعنا فى التناقض بين الفخر بالقوم والذم لهم فلم يبق إلا أن نعتبر « إن » مخففة من الثقيلة دالة على التأكيد ليستقيم المعنى ، ولن يتسع المقام لتفصيل القول فى قرينة السياق لأنه سيؤدى بنا خارج حدود النموذج النحوى .

إن الذى تقدم من كلام فى القرائن الثمان إنما هو تمهيد للفكرة الرئيسية فى هذا النموذج وهى فكرة تضافر القرائن : لقد أعطى النحاة العرب لإحدى هذه القرائن (وهى العلامة الإعرابية) نصيبا من العناية عظيما أخمل ذكر القرائن الأخرى فبدا النحو العربى وكأنه إعراب خالص وقامت على الإعراب فكرة العامل النحوى التى رأى فيها النحاة قمة نظريتهم ويراها المنهج الوصفى المعاصر أكبر خدعة جازت على ذكاء النحاة العرب على مر العصور وملخص فكرة « التضافر » (التى تصلح عنوانا للنموذج الذى وضعته للنحو) أن المعنى النحوى لا يستعين بقرينة واحدة مهما كان خطرها . وإنما تتعاون القرائن المختلفة وتتضافر على بيان المعنى . فليس الفاعل فاعلا لأنه مرفوع فقط وإنما هو كذلك لأنه :

١ — اسم قرينة البنية .
٢ — مرفوع قرينة الإعراب .

٣ — يقدمه فعل قرينة الرتبة

٤ — مبنى للمعلوم قرينة البنية مرة أخرى

٥ — ودل على من فعل الفعل أو قام بالفعل : قرينة معنوية هى قرينة الإسناد . ولو أنك قرأت هذه القرائن بالترتيب لوجدتها التعريف الذى وضعه النحاة لباب الفاعل ، ولكن الذى أقروا به عند التعريف نسوه عند التطبيق والتحليل وأنت ترى أن الفاعل هنا استبان بخمس قرائن ، إحداها قرينة الإعراب . وكذلك يتبين المبتدأ بأنه الاسم المرفوع المتقدم ، ولو تقديرا ، الذى يخبر عنه بمفرد أو جملة فى حكم المفرد وكل قيد من هذه القيود يكشف عن قرينة . والحال وصف فضلة منتصب يدل على حالة وقوع الفعل . فهذه خمس قرائن أيضاً والتمييز الاسم النكرة الجامد المنصوب الرافع لإبهام مبهم سابق . فهذه ست قرائن تتضافر على بيان التمييز . والمفعول المطلق مصدر منصوب مشارك للفعل فى مادته دال على توكيد أو نوع أو عدد . فهذه أربع قرائن . والمفعول لأجله مصدر منصوب مغاير للفعل فى مادته دال على سبب حدوث الفعل، وهذه أربع قرائن أيضاً تبين المفعول لأجله .

والتضافر يغنى عن القول بالعامل كما هو واضح لأننا إما أن نختص كل واحدة من هذه القرائن بنظرية كنظرية العامل النحوى وهو أمر لا يتفق والاقتصاد العلمى الذى أشرنا إليه سابقاً ولا يفيد عند النظر إلى المعنى أية فائدة بالإضافة إلى أنه يتنافى مع التفكير المستقيم ، وإما أن نجعل القرائن حزمة واحدة فيكون بيان المعنى راجعا إلى اجتماعها وتضافرها فلا فضل لواحدة منها على الأخريات بحيث تستحق تنظيرا إضافيا يخمل ذكرا لأخريات مع الصمت المطبق عن الكلام فى هذه الأخريات إلا عند الضرورة القصوى كحين يتكلمون عن لزوم الرتبة فى « ضرب موسى عيسى » أو شذوذ الحذف (والقرينة هنا هى التضام) فى قول الشاعر .

نحن الأولى فاجمع جمو
عك ثم وجههم إلينا

وتأويل المطابقة فى نحو :

فمن يك أضحى بالمدينة رحله
فإنى وديارنها لغريب

وشذوذ حذف الرابط فى :

من يفعل الحسنات الله يشكرها
. . . .

وهلم جرا . ولكنهم لم يتصوروا تضافر القرائن على بيان المعنى، ولم يجعلوه جزءا من نموذجهم .

ويتفرع على القول بالتضافر مبدأ آخر يذهب بكل ما جاء به النحاة من طعن على العرب الفصحاء ويرد للقراءات الموسومة بالشاذة اعتبارها وذلك هو مبدأ « الترخص » الذى ربما ورد فى التراث تحت عنوان « التوسع » أو الضرورة أو « التوهم » أو غير ذلك من المصطلحات التى تجتمع تحت عنوان « الرخصة » أو الترخص وقبل أن نشرح المقصود بهذا المبدأ ينبغى أن نجعله مقصورا على الفصحاء دون غيرهم ، وهو إذا طبقه المعاصرون منا دخل فى مجال الخطأ .

فالمقصود بهذا المبدأ تفسير ماخالف القاعدة من نصوص التراث وليس دعوة للمعاصرين إلى التوسع فى الاستعمال .

يقول أبو هلال العسكرى فى ص ٢٦ من كتابه (الفروق فى اللغة) « والتوسع يلزم موضعه المستعمل فيه ولا يتعداه » .

والمقصود بالترخص فى القرينة إهدارها عند أمن اللبس اتكالا على أن المعنى مفهوم بدونها فالمعنى يقتضيها فتكون مميزة بدلا من أن تكون هى التى تقتضى المعنى وتميزه، ومن هنا تصبح فائضة وتدخل ضمن مفهوم قول ابن مالك : « وحذف ما يعلم جائز » ونحن نظفر بالترخص فى النص القرآنى وفى الحديث وفى الشعر العربى وفى كلام العرب وحين نظفر به نجده يتناول كل القرائن فلا تستعصم واحدة منها دونه . فمن الترخص فى العلامة الإعرابية : قراءة « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء وقوله صلى الله عليه وسلم « إن مقر جهنم سبعين خريفا » بنصب خبر إن وقول امرىء القيس :

كأن ثبيرا فى عرانين وبله
كبير أناس فى بجاد مزمل

وقول العرب : « جحر ضب خرب » بجر لفظ خرب وهو صفة لمرفوع . ومن الترخص فى البنية الصرفية قوله تعالى :

« والتين والزيتون وطور سينين » أى سيناء وقوله : « سلام على إلياسين » أى إلياس وقوله تعالى « وإبراهيم وميكال » أى ميكائيل وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « جالس إحدى عشرة نسوة » أى امرأة وقول الراجز « الحمد لله العلى الأجلل » أى الأجل ومن الترخص فى المطابقة قوله تعالى : « السماء منفطر به » أى منفطرة وقوله : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت » أى الطواغيت وقوله تعالى : « بل أنتم قوم تجهلون » أى يجهلون وقوله جل شأنه : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » أى خاضعة وقوله صلى الله عليه وسلم « ثم أتبعه ستا من شوال » أى ستة وقول النابغة :

كأنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فجمع التكسير وهو «كواكب» يعامل معاملة المؤنث المفرد لا الجمع . ومن الترخص فى الربط قوله تعالى : «وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا» فحذف الضمير (أى منهم) ويتحتم هذا لأن صاحب الحال هو الضمير فى قلوبهم وليس يوجد غيره مما يصلح أن يكون صاحب الحال . وقوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن ....» أى بعدهم ومن حذف الفاء اللازمة لجواب الشرط قوله عز من قائل : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم ...» ، «والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون» ، «وإذا ما غضبوا هم يغفرون ...» ، «وإن أطعتموهم أنكم لمشركون» ، «ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ...» وقول الشاعر : «من يفعل الحسنات الله يشكرها» . ومن الترخص فى الرتبة كل ما يعرفه النحو مما يسمى «رتبة غير محفوظة» وكذلك بعض الرتب المحفوظة كما فى قول الشاعر :

ألا يا نخلة فى ذات عرق

عليك ورحمة الله السلام

وقوله :

لعن الإله وزوجها معها

هند الهنود طويلة ال ......

وقوله :

ومالى إلا آل أحمد شيعة

ومالى إلا مذهب الحق مذهب

والترخص بالتضام إنما يكون بالفصل بين المتلازمين أو بحذف أحدهما أو الجمع بين المتناقضين ومن ذلك قوله تعالى : «وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم» فبعد لما مضارع تقديره عندهم «ينقص» وقوله صلى الله عليه وسلم : «إن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم» بحذف ما الموصولية وقول الشاعر :

كم بجود مقرف نال الغنى ..

ففصل بين كم الخبرية وتمييزها «مقرف» الذى ما يزال مجرورا بفاصل أجنبى هو الجار والمجرور (بجود) المتعلق بالفعل «نال» وقوله : «ما أنت بالحكم الترضى حكومته» فجمع بين المتنافيين وهما أل والفعل المضارع وأما الترخص فى الأداة فنحو قوله تعالى : «قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف» أى لا تفتأ وقوله تعالى «فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى» أى أهذا ربى ؟ وقوله جل شأنه «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا» فحذفت «أن» المصدرية دون أن يسبق ذكرها ولكن دل عليها نصب المضارع ومعنى المصدر المفهوم من الكلام السابق عليها (وحيا أو من وراء حجاب) . وقول أمرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا

ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لم أبرح . وأما قول عنترة :

« وخلا الذباب بها فليس ببارح عردا »
فالنفى متحقق بذكر ليس قبل الناسخ الذى هو اسم الفاعل من « برح » وأما فى الآية الكريمة « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا . . . » فالمحذوف هو فاء العطف أما فى حيز الشرط فيكون المعنى : ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم فقلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا . . .وأما فى حيز الجواب فيكون المعنى : ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا . . . فالترخص واقع على إحدى الحالتين إذ أن جواب الشرط لا يتعدد هكذا . وأما فى قوله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » فقد وقع الترخص بحذف حرفين هما اللام قبل « أن » ولا النافية بعدها أى : لئلا تميد بكم ومثله فيما يبدو : « إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » وعكس الحذف الزيادة فى قوله تعالى : « حتى إذا جاءها وفتحت أبوابها » وقوله : « لا أقسم بهذا البلد » وأما الترخص فى النغمة فيقع بالقراءة مع الصمت وبالتلحين فى الغناء إذ تحول نغمة الغناء دون تحقق نغمة الكلام .

وفى كل حالة من حالات الترخص السابقة تقوم بقية القرائن المتضافرة بوظيفة حفظ المعنى من اللبس . فلا يضير الترخص شيئا ومما يدل على ذلك أنك قد تستمع إلى التلميذ يقرأ نصا فيخطىء فى النص إعرابا أو بنية الخ . وقد تستمع إلى المذيع يفعل الشىء نفسه ، ولكنك مع ذلك تفهم مايقوله هذا و ذاك فلو كان الخطأ الذى ارتكبه كل منهما بإهدار القرينة يذهب بالمعنى ما فهم كلامه ولو اعتمد المعنى على هذه القرينة التى أهدرها لخفى المعنى ولوقع الكلام فى حدود اللبس . والذى يبدو لى أن القراءات الشاذة فى جملتها يمكن أن تفسر على أساس الترخص وعندئذ لا تكون شاذة لأنها تبدو فى مظهر مألوف درج الكلام الفصيح على الظهور به ولأن الترخص من الكثرة والشيوع فى كلام العرب بحيث لا ينبغى أن يعد شذوذا ثم لأنه مشروط فى كل حالة بأمن اللبس ومن هنا هنا كان يحسن أن يحتل مكانه المشروع من النظرية النحوية وألا تنقطع الأسباب بينه وبين قواعد النحو . ومن أصول النحاة أن « الشذوذ لاينافى الفصاحة » .

أشرنا عند الكلام عن النموذج البصرى إلى أن النحاة نسبوا الزمن النحوى إلى الصيغ المفردة فجعلوا الزمن وظيفة الصيغة وقالوا « إن الفعل يدل على الحدث بلفظه وعلى الزمان بصيغته » ولما كانت صيغ الفعل ثلاثا عند البصريين جعلوا الأزمنه ثلاثة وأعانهم على ذلك اتفاق تقسيمهم مع المفهم الفلسفى لمقولة الزمان . ومن هنا جعلوا الزمن النحوى إما ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا ، وجعلوا للأول صيغة فعل وللثانى والثالث صيغتى يفعل وافعل ولم يتكلموا عن الزمن بالنسبة للمصدر أو للصفات الخمس (اسم الفاعل واسم المفعول

والصفة المشبهة وصيغة المبالغة وأفعل التفضيل) إلا في مجرى القول عن إعمال اسم الفاعل وربما أشاروا في معرض الصفة المشبهة إلى الدوام والثبوت دون تحديد الزمن.

أما في نموذج اللغة العربية ١٩٧٣ فقد آخى بين الزمن والجهة وخرج من ذلك بنظام زمني غني تباهي به اللغة العربية غيرها من اللغات وربما حسن عند هذا أن أوضح المقصود بلفظ الجهة أنها في الأصل فكرة مما تشتمل عليه الدراسات اللغوية الحديثة تحت اسم Aspect ولكنني عندما نظرت إليها في ضوء تركيب النظام النحوي العربي خرجت بفهم لها غير مطابق لما فهمه الغربيون منها إذا وجدت الجهة في لغتنا تقوم بوظيفة تخصيص المعنى كما وجدت أن المعنى الذي تخصصه الجهة إما أن يكون «الحدث» وأما أن يكون الزمن فأما مخصصات الحدث فهي المنصوبات (التي جعلنا قرينتها الشاملة منذ قليل قرينة التخصيص) والمجرورات. ومعنى ذلك أنك إذا قلت: «قرأت» أسندت حدث القراءة إلى نفسك على وجه عام يشمل كل مقروء وكل سبب للقراءة وكل مصاحب لها وكل مكان.

كما يشمل المعنى الحقيقي للقراءة والمجازي لها ونوعها ولا يحدد ملابسة الخ فإذا قلت «قرأت الكتاب» فقد خصصت القراءة بالكتاب ونفيت الصحيفة والمجلة الخ. وإذا قلت «قرأت طلبا للمتعة» فقد خصصت القراءة بسبب ونفيت بقية الأسباب وكذلك الحال في «قرأت وضوء المصباح» «وقرأت قراءة متأنية» و«قرأت جالسا» و«قرأت في الحجرة» الخ. وأما مخصصات الزمن فهي أفكار مثل التجدد والانقطاع والثبوت والدوام والاستمرار والبساطة والمقاربة والشروع والقرب والبعد والتعود ويعبر عن هذه الأفكار بالنواسخ الفعلية (كان وأخواتها وكاد وأخواتها وبعض الحروف مثل قد ولم والسين وسوف إلخ) وبهذه المزاوجة بين الزمن والجهة يصبح الزمن وظيفة السياق بعد أن جعله النحاة وظيفة الصيغة وهكذا نستطيع التفريق بالزمن بين تراكيب مثل كان فعل وكان قد فعل وكان يفعل وقد فعل وما زال يفعل وظل يفعل وفعل وكاد يفعل وطفق يفعل ويفعل وسيفعل وسوف يفعل وسيظل يفعل الخ.

والدليل على أن الزمن النحوي وظيفة السياق أن الأوصاف الخمسة والمصدر لا ينسب إليها الزمن حالة الإفراد ولكنها إذا دخلت معمعة السياق استعانت بقرائن مختلفة على الانتساب إلى زمن بعينه أو من قرأ باب إعمال اسم الفاعل أو إعمال المصدر وإعمال الصفة المشبهة في كتب النحاة وتأمل التراكيب السياقية التي ترد بها هذه المباني أدرك اختلاف الأزمنة بين بعض صورها والبعض الآخر وعرف أن مرجع الدلالة الزمنية في هذه التراكيب إنما هو قرائن السياق لا معنى الصيغة ذاتها.

النموذج التحويلى :

رأينا كيف اختلف النموذجان السابقان فى تصورهما نظام اللغة العربية الفصحى دون أن تتغير اللغة نفسها مما يدل على أن النموذج النحوى هو تصور لنظام اللغة يختلف باختلاف الباحثين فى اللغة وليس هو اللغة نفسها أوحى بها إلى نبى نحوى وإذا رجعنا إلى المثل الذى ضربناه للفرق بين البصريين الذين نظروا إلى الضاحية من الطائرة العمودية وبينى إذ سعيت إليها ودخلت بيوتها وحجراتها أمكننا أن نقول أن النحو التحويلى كما يراه تشومسكى والملتفون حوله لم يدخل بيوت الضاحية ولم يكتف بالطائرة العمودية ليحلق فوق الضاحية من قرب بحيث يراها ولا يرى الضواحى الأخرى وبقية المدينة وإنما حلق تشومسكى فى أجواء الفضاء ليرى المدينة كلها بضواحيها المختلفة (والمثل هنا اللغات الإنسانية جميعاً) وليصفها بما استنبطه من الصفات المشتركة بين الضواحى جميعاً، والمدينة هنا فى جملتها هى اللغة باعتبارها ظاهرة إنسانية أو كما يسميها دى سوسور Le langage والضواحى هى اللغات المختلفة كالعربية والفارسية والتركية. وقد حاول التحويليون أن يوجدوا نحوا عاما لهذه اللغات الإنسانية جميعاً به تتضح كيفية اكتسابها واختزانها وتحويل المختزن إلى الاستعمال. والعلامة تشومسكى تلميذ لهاريس الذى هو تلميذ لبلومفيلد منشئ علم اللغويات التوزيعية فى أمريكا ومن هنا يعتبر النحو التحويلى حفيداً إن لم يكن ابنا مباشرا للنحو التوزيعى. ولكن تشومسكى آخى بين تعاليم بلومفيلد وتعاليم همبولدت ووصفية دى سوسور ومنطقية بور رويال وانتفع مع كل ذلك بالمنطق الرمزى وعلم النفس وأقر على نفسه بالعقلانية فى فهم اللغة.

لقد قال بلومفيلد فى كتابه «اللغة» ١٩٣٣ «كل متكلم يعنى بالتأمل فيما يقول لابد أن يخبرنا».

إن Poor John ran away مركبة من مكونين مباشرين هما Poor John و ran away وأن كلا من هذين بدوره صورة مركبة، وأن المكونات المباشرة لعبارة Poor John هى Poor و John وأن مكونات ran away هى ran و away وهكذا وقع بلومفيلد لأول مرة على مصطلح قدر له أن يؤدى دوراً كبيراً على مسرح الدراسات اللغوية الأمريكية هو مصطلح «المكونات المباشرة»: Immediate Constituents لكنه ترك لتلاميذه من بعده أن ينموا هذه الفكرة ويصلوا بها إلى نتائجها الطبيعية فى اتجاه الكشف عن التراكيب النحوية الملبسة وغير الملبسة ومن خلال اعتماد بلومفيلد وتلاميذه، فى التحليل النحوى، على ظواهر الرتبة والتضام والمعاقبة والموقع جعلوا التوزيع مذهباً لهم وعرفوا به وسمى

تلاميذ بلومفيلد عملهم باسم immediate constituent analysis أو تحليل المكونات المباشرة. وعرضوا هذا التحليل في صور بيانية مختلفة أشهرها الشجرة التي تبدو على النحو التالي :

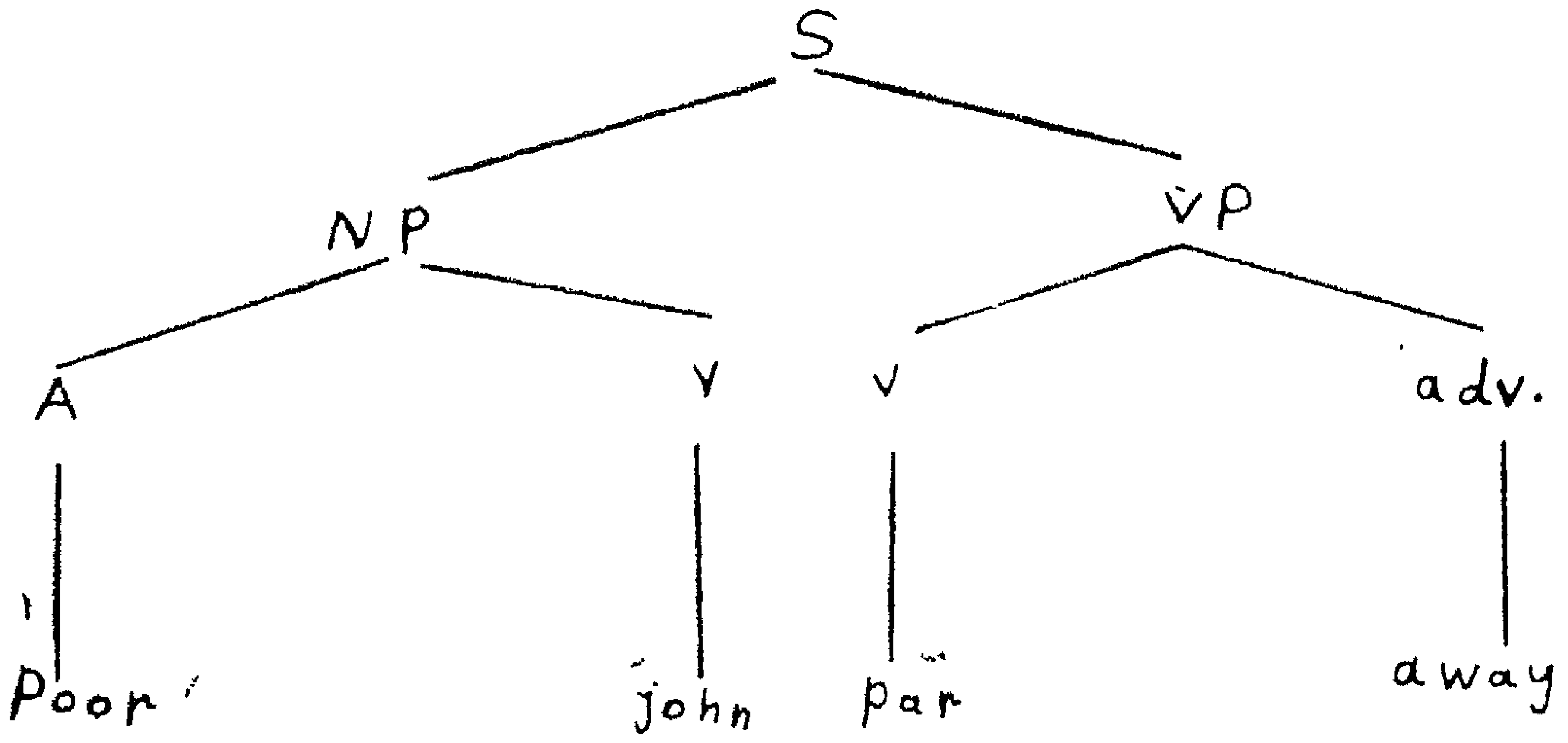

انتفع التحويليون بهذه الطريقة من طرق العرض ولكنهم لم يستخدموها على علاتها وإنما طوروا الإفادة منها بحسب المطالب العلمية لمنهجهم . لقد قيل إن إحدى مميزات النحو التحويلي أنه يمكننا أن نلمح القرابة بين جمل متمايزة من حيث بنيتها السطحية كما نلمح الاختلاف بين جمل متطابقة من حيث هذه البنية السطحية . وهكذا يمكننا أن نعبر بالتحليل النحوي عن طبيعة القرابة بين أزواج من الجمل مثل :

ضرب زيد عمرا ضرب عمرو

علمت زيدا تعلم زيد

قام زيد زيد قام

كما يمكننا أن نستخرج بنيات عميقة متقدمة بالوقف على أماكن مختلفة من قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » إذ يمكن أن يرد على الآية المعاني التالية :

ذلك الكتاب * لا ريب فيه * هدى للمتقين

ذلك الكتاب لا ريب * فيه هدى للمتقين *

ذلك الكتاب * لا ريب * فيه هدى للمتقين *

ذلك الكتاب (لا ريب فيه) هدى للمتقين *

كما يمكننا من أن ندعي معنيين على الأقل لعبارات مثل : « زيارة الأصدقاء سارة » و « دار الكتب المصرية » و « لقد رجا التلميذ المعلم أن يقرأ النص » إذ يأتي اللبس من إضافة المصدر وتحديد المنعوت وتعيين مرجع الضمير على الترتيب فإذا حللنا هذه الجمل بواسطة الشجرة السابقة فربما أدركنا إلام أضيف المصدر وإلام رجع

الضمير وما المنعوث الذى وصفه النعت . وأكثر من ذلك أننا نستطيع من خلال هذه الشجرة أن نولد من معنى الجملة بنيات سطحية أخرى تعبر عن المعنى نفسه مثل : «من السار أن يزورك الأصدقاء» و «دار مصرية للكتب» و « رجاء التلميذ أن يعيد المعلم قراءة النص » .. الخ . غير أن التحويل لا يتم من بنية سطحية إلى بنية سطحية أخرى، وإنما يتولد من البنية العميقة التى يمكن التعبير عنها بطرق مختلفة من خلال أنواع من القواعد التى شرحها تشومسكى بصورة يمكن عرضها بالشكل البيانى التالى :

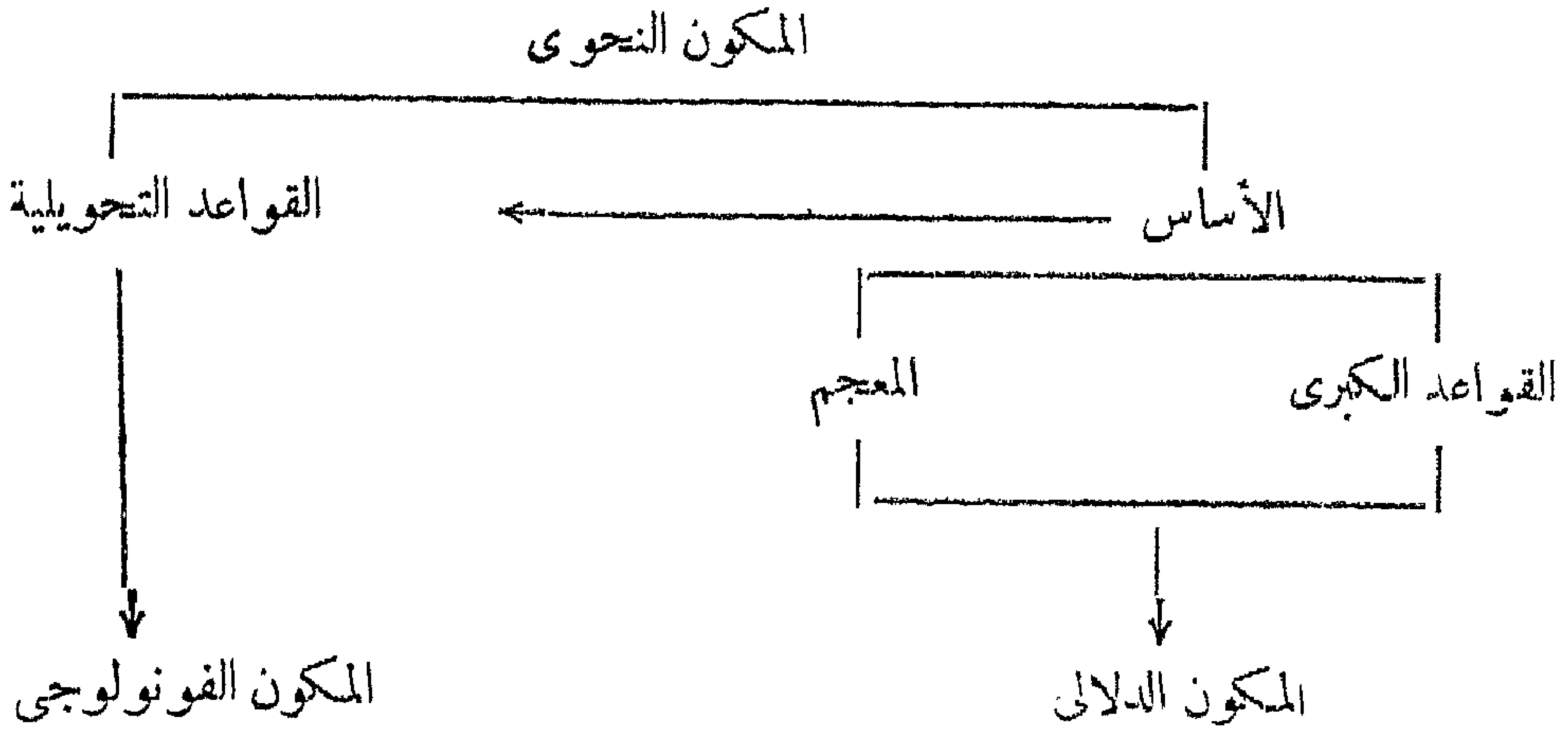

أما القواعد الكبرى فإنها تحدد تخطيط البنية العميقة للجملة على النحو التالى :

S→NP VP أى الجملة ضميمة اسمية وضميمة فعلية

NP→Det N « الضميمة الاسمية » أداة واسم

VP→Anx V « الضميمة الفعلية » مساعد وفعل

ويقرأ السهم كما تقرأ « أى » التفسيرية فى اللغة العربية . هذا هو الجانب الأول من جانبى الأساس، أما الجانب الثانى وهو المعجم فإنه يحدد عددا من السمات المعجمية التى تتصف بها أو توصف من خلالها مداخل المعجم كأن نقول إن لفظ « الرجل » يتسم بأنه اسم معدود (حى — إنسان) فإذا أردنا الجنس أبدلنا « معدود » بعبارة « لا معدود » وفائدة هذه السمات أننا سنرى بعض الأفعال تتخذ فاعلها ومفعولها بشروط خاصة تحددها هذه السمات، فمثلا الفعل « صلى » لا يتخذ فاعلا من النبات أو الجماد أو الحيوان والفعل « بكى » لا يكون فاعله إلا من يصح منه البكاء . فإذا اكتفينا بالقواعد الكبرى والسمات المعجمية فإنها لن تمدنا بالكلمات بذاتها لأنها ليست أكثر من

مجموعة من القواعد والمطالب المجردة ومن ثم تحتاج إلى عنصر دلالى يعيننا على أن نختار المعانى المنسوبة إلى البنية السطحية : وفى الوقت ذاته تعمل مجموعة أخرى من القواعد التحويلية على أن تستعين بالعنصر الفونولوجى من هذا النموذج لتصوغ البنية السطحية المعبرة عن تلك البنية العميقة . وقد تطلب هذا المنهج أن تحدد الضمائم التى تعبر عنها هذه القواعد تحديداً مجردا مثل (NP VP) وأن تصاغ قواعد لاستبدال الضمائر بالأسماء وقواعد لإدماج الجمل الفرعية فى تكوين الجمل الأصلية .

لقد جعلنا الغاية التى نسعى إليها من عرض هذا النموذج أن نرى كيف يمكن أن توصف اللغة العربية الفصحى من خلاله : والذى ينبغى لنا أن نفعله ، لنمهد به الطريق إلى هذا النوع من التطبيق، هو أن نحدد الضمائم فى لغتنا العربية لنعرف ماذا يقصد بالضميمة الاسمية وماذا يراد بالضميمة الفعلية . وأول شيء أن المقصود بالضميمة الاسمية قد يكون واحدا من الأمور الآتية :

الاسم المفرد — الضمير — الاسم الموصوف — المتضايفين — الموصول وصلته — الموصوف وصفته .

أما المقصود بالضميمة الفعلية فهو :

المكون الفعلى (وهو الفعل أو الوصف أو المصدر وما فى حيزه) — المركب الفعلى من ناسخ ومكون فعلى .

أما الجملة الفرعية فقد تقدم لها أنْ أو أنّ أو ما المصدرية أو غيرها من الأدوات المصدرية أو الموصول وقد تكون الجملة بدون مقدمة ولكنها حالة محل المفرد من نوع ما يسميه النحاة : الجمل ذوات المحل ونحب أن نشير إلى أن المصدر الصريح سيعامل معاملة خاصة ، فإذا وقع المصدر الصريح دون مطل أو إضافة عومل كما يعامل الاسم المفرد وإن وقع مضافا أو ممطولا (ذا فاعل أو مفعول) عومل معاملة المصدر المؤول من حرف وجملة . أما الضمير فشرط استبداله من الاسم أن يتحد الاسم الذى حل محله الضمير فى الصورة مع مرجع الضمير وهذا ما يسمى بالتطابق المعجمى Lexical identity ثم أن يشير إلى ما يشير إليه المرجع وذلك هو التطابق الإشارى referential identity

وسنحاول فيما يلى أن نعرض عددا من الجمل بهذا النوع من التحليل ونضيف من خلاله مزيدا من الشرح لتطبيق هذا المنهج على اللغة الفصحى ؛ لاختبار صلاحية هذا المنهج أن يعاد وصف العربية من خلاله :

١ ــ أريد أن أقرأ :

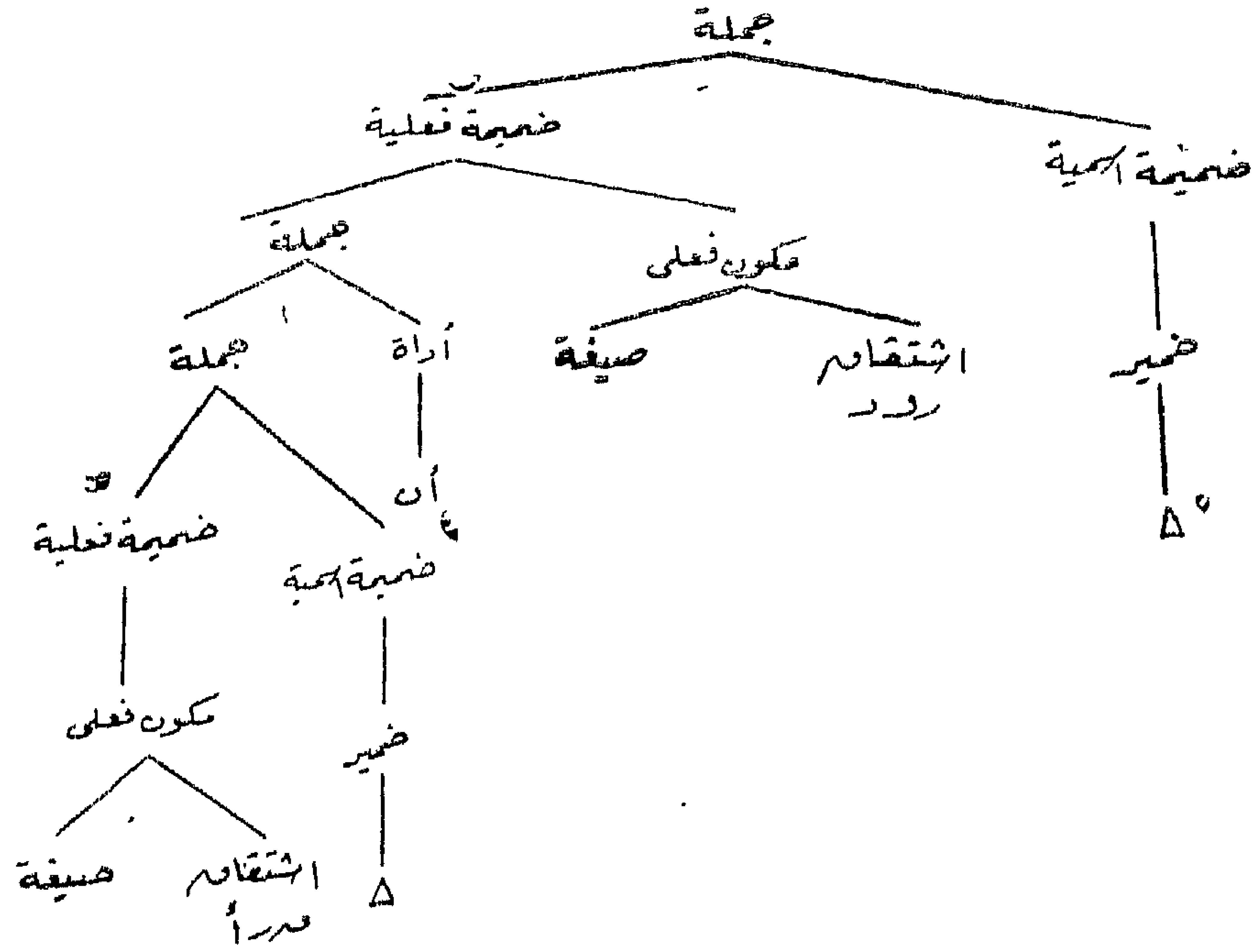

فى هذه الجملة نجد أننا قدمنا الضمير وجعلنا مستترا (ه) قبل الفعل لأن الرتبة فى حساب هذا النموذج إنما هى ظاهرة سطحية أسلوبية فقولك « قام زيد » هى من وجهة نظر النموذج المطروح « زيد قام » والفارق أسلوبى يتعلق بالتقديم والتأخير والأسلوب غير النحو، أما عبارة « المكون الفعلى » ففائدتها أنها تمكننا من أن نضع تحتها فعلا أو وصفا أو مصدرا مضافا أو ممطولا ، ولذلك رصدنا تحتها الاشتقاق لأنه لا يتعدد ويمكن تركه أيضا لإفساح المجال لمختلف المواد الاشتقاقية وتركنا الصيغة غير محددة لتنويع البنية السطحية

ولما رأينا أن الجملة الفرعية تتقدمها أداة أفردنا للأداة فرعا خاصا قبل كلمة « جملة » وبهذا يمكننا أن نعبر عن هذه الجملة بالبنيات السطحية الآتية :

أريد أن أقرأ	أريد القراءة
أنا مريد أن أقرأ	أنا مريد القراءة
أردت أن أقرأ	إرادتى أن أقرأ

وهلم جرا مما يمكن إرجاعه جميعه إلى التخطيط السابق فإذا غيرنا الاشتقاق فى المكون الفعلى الأول إلى (ن و ى) وفى الثانى إلى (ص ل و) فقد نصل إلى جملة « نويت أن أصلى »

٢ – قرأت الكتاب الذى ألفه زيد :

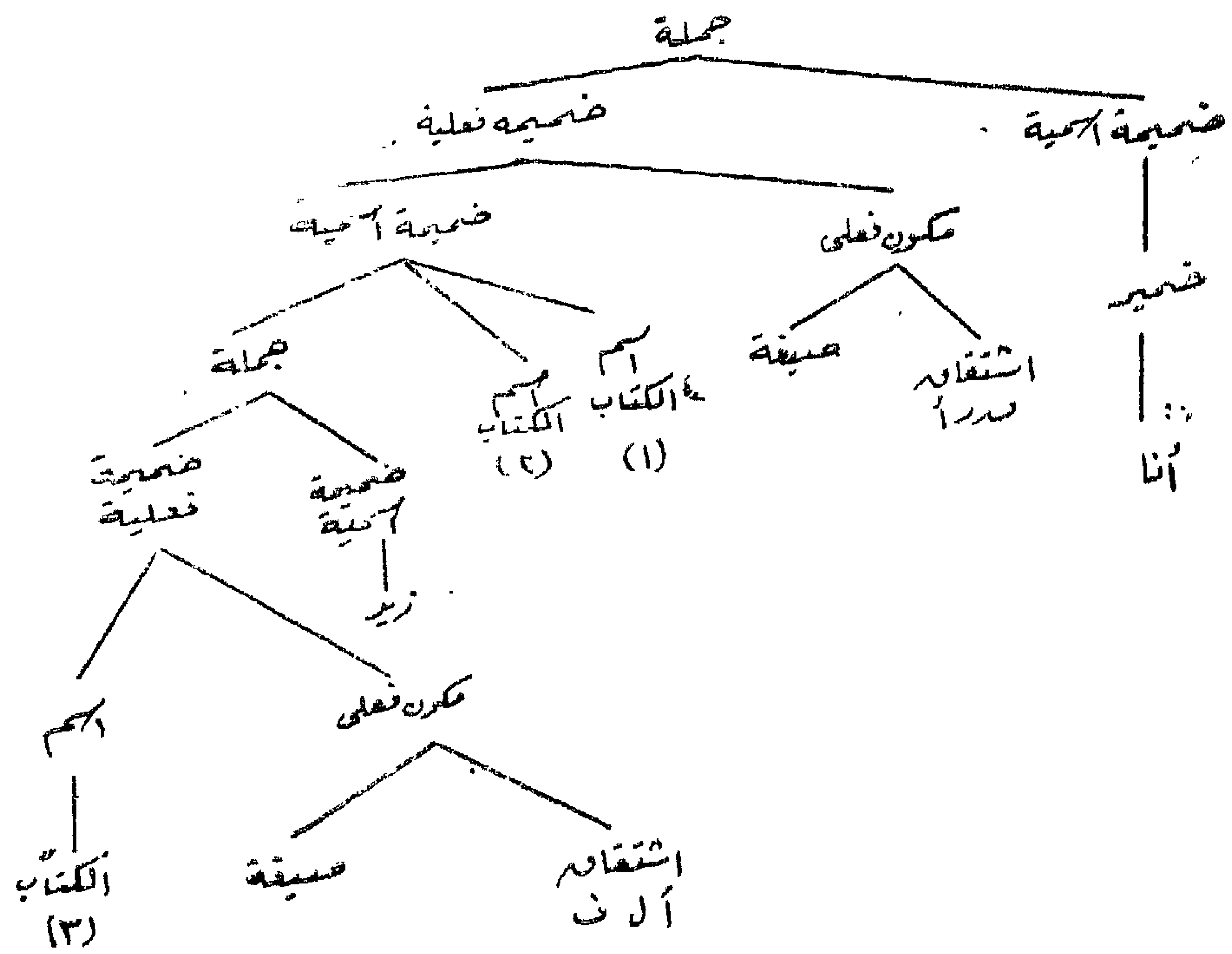

ويتضح من هذا المنشور التحليلي للبنية العميقة أن العناصر النهائية بالترتيب هي :

أنا + ق ر أ + الكتب ١ + الكتاب ٢ + زيد + أ ل ف + الكتاب ٣ .

وبقواعد التحويل نصل إلى ما يأتي :

أنا + ق ر أ تتحول إلى قرأت

الكتاب ٢ تتحول إلى الذى لمراعاة التطابق المعجمي والإشاري بينه وبين الكتاب (١)

الكتاب (٣) تتحول إلى ضمير متصل للسبب نفسه بينه وبين الكتاب (٢)

زيد ألف الكتاب تتحول إلى ألفه زيد بعد وضع الضمير الموصول موضعه

وهذا هو المقصود بالتحويل الذى سمى النموذج باسمه .

٣ ـ ظننت زيدا قائما :

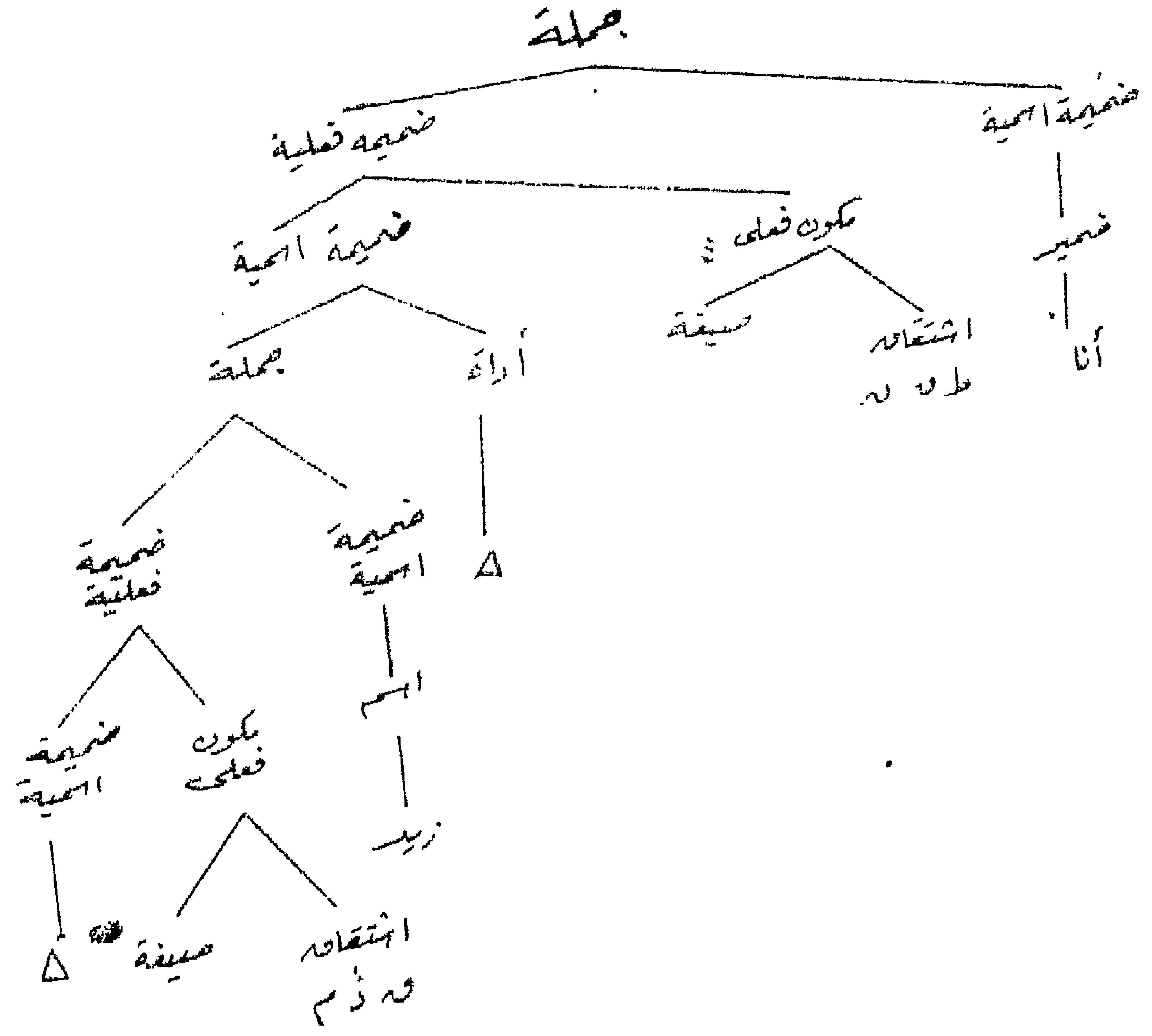

الأداة التى لم تظهر هى (أن) ولو ظهرت لترتب على ظهورها تنشيط قواعد تحويلية أخرى بالنسبة للإعراب . أما عدم ذكر الضميمة الاسمية الأخيرة فمعناه اللزوم مع اللازم والحذف مع المتعدى .

كان زيد قائما :

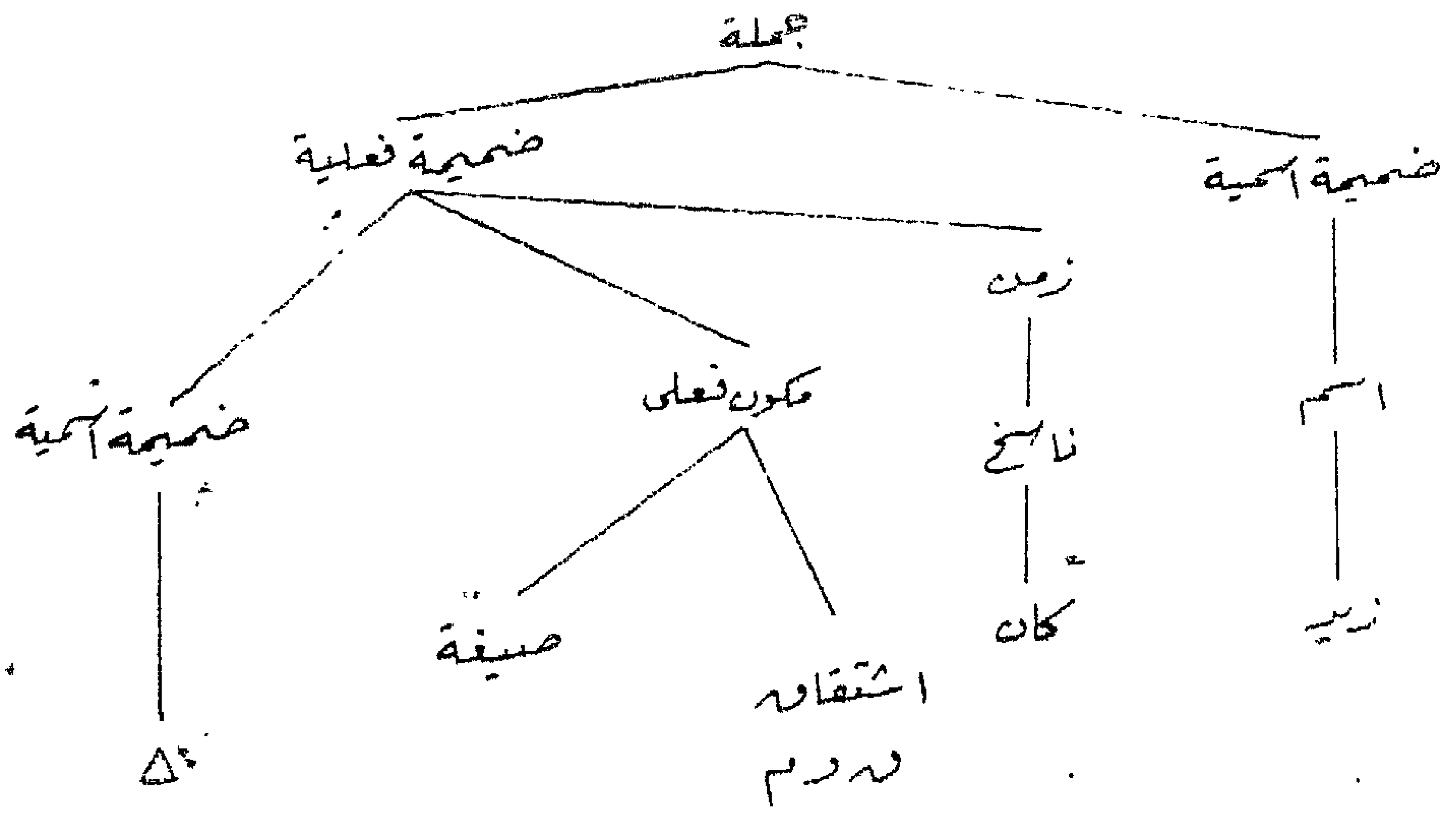

ويلاحظ :

١ ـ أن المركب الفعلى مكون من الناسخ وخبره مفعوله محذوفا كما فى : كان زيد ضاربا عمرا .

٢ ـ أن الخبر بصورته الحاضرة قد يكون لازما كما فى المثال الذى لدينا وقد يكون زيد أبوه قائم :

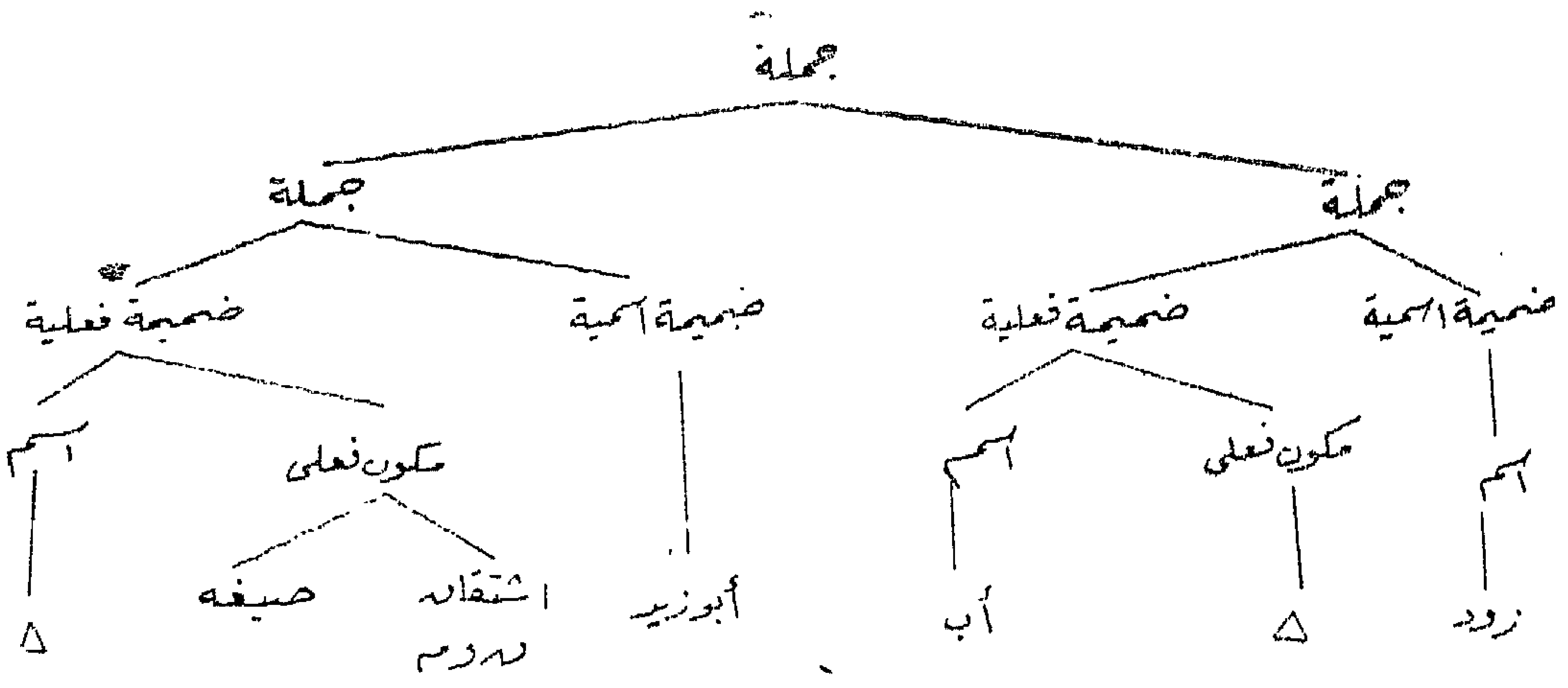

ومعنى هذا التخطيط أن البنية العميقة مكونة من شقين :

(أ) زيد له أب (حيث ترجحت الملكية التى دلت عليها « له »

إلى سكون فعلى = يجوز أو يتخذ ، أو نحوها) .

(ب) أبو زيد قائم .

الله لطيف بعباده :

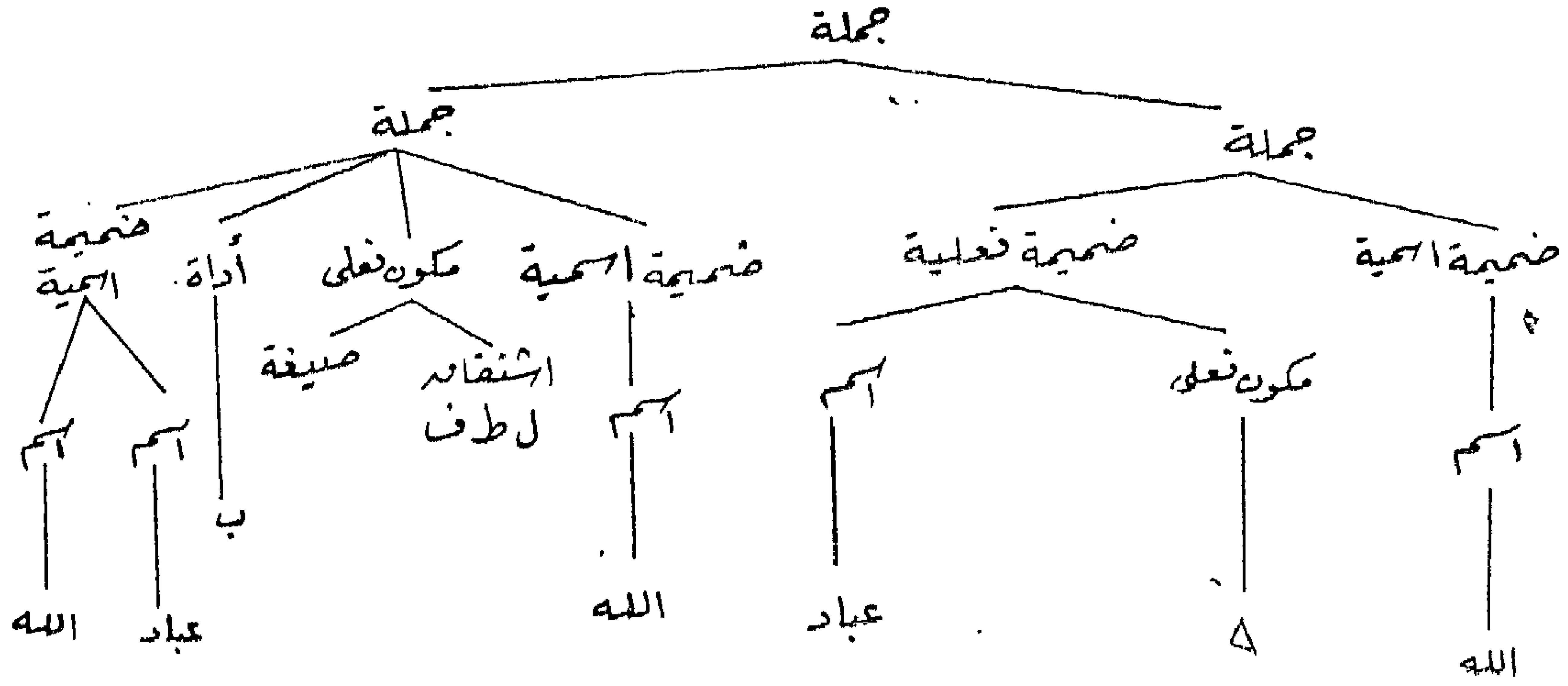

يلاحظ هنا :

(أ) أن الضميمة الاسمية مكونة من اسمين مما يدل على الإضافة .

(ب) أن الاسم الثانى (الله) يتطابق معجميا وإشاريا مع اسم سابق فيتحول إلى ضمير يعود على السابق .

(ج) مرة أخرى تركنا الصيغة خالية لنستطيع أن نضع فيها مايمكن من الأفعال والأوصاف والمصادر .

(د) هنا إذا تكررت الإضافة تعددت الأسماء تحت الضميمة الاسمية كما فى : « الله يغفر ذنوب عباده » .

إن الله غفور رحيم :

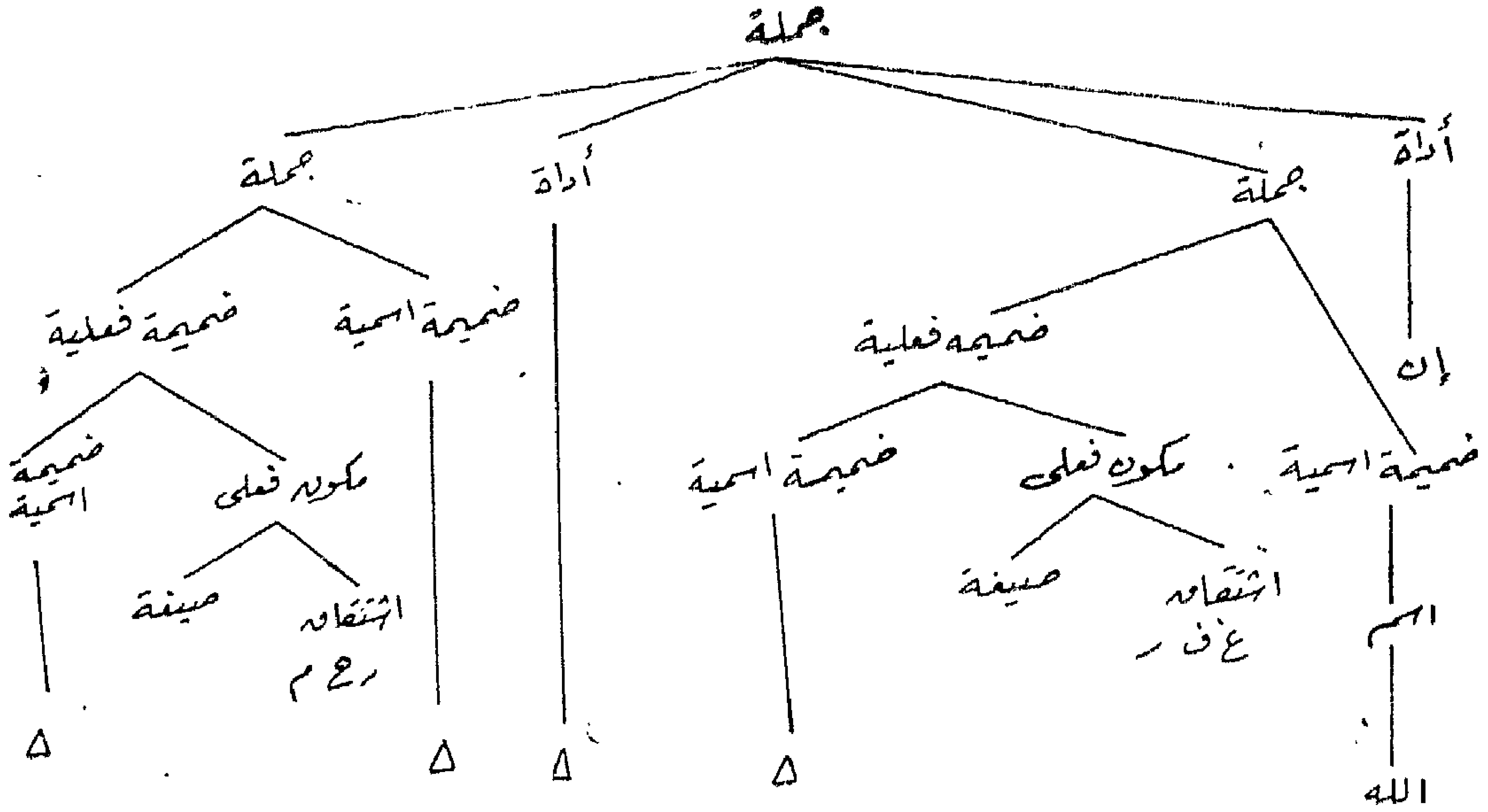

يلاحظ هنا :

(أ) أن المكونين الفعليين من أصل اشتقاق متعد ولكن المفعول لم يذكر (انظر ظننت زيدا قائما) .

(ب) أن البنية السطحية لهذه الجملة من قبيل تعدد الخبر ولكن البنية العمقية جعلت ذلك من قبيل تعدد الجملة أى أن تعدد الخبر عولج بتقدير تعدد المبتدأ أى تعدد الجملة .

(جـ) أن الأداة التى لم تذكر (Δ) هى واو عطف مقدرة فى البنية العمقية .

(د) أن الضميمة الاسمية الأولى فى الجملة الثانية هى لفظ الجلالة أو ضميره وإن لم يذكر .

(هـ) نستطيع أن نغير الأصل الاشتقاقى للمكونين الفعليين فنحصل على بنيات أخرى عمقية لجمل سطحية

مثل : إن الله لطيف خبير

إن الله قوى قدير

إن الله رحمن رحيم

٦ – في الدار زيد :

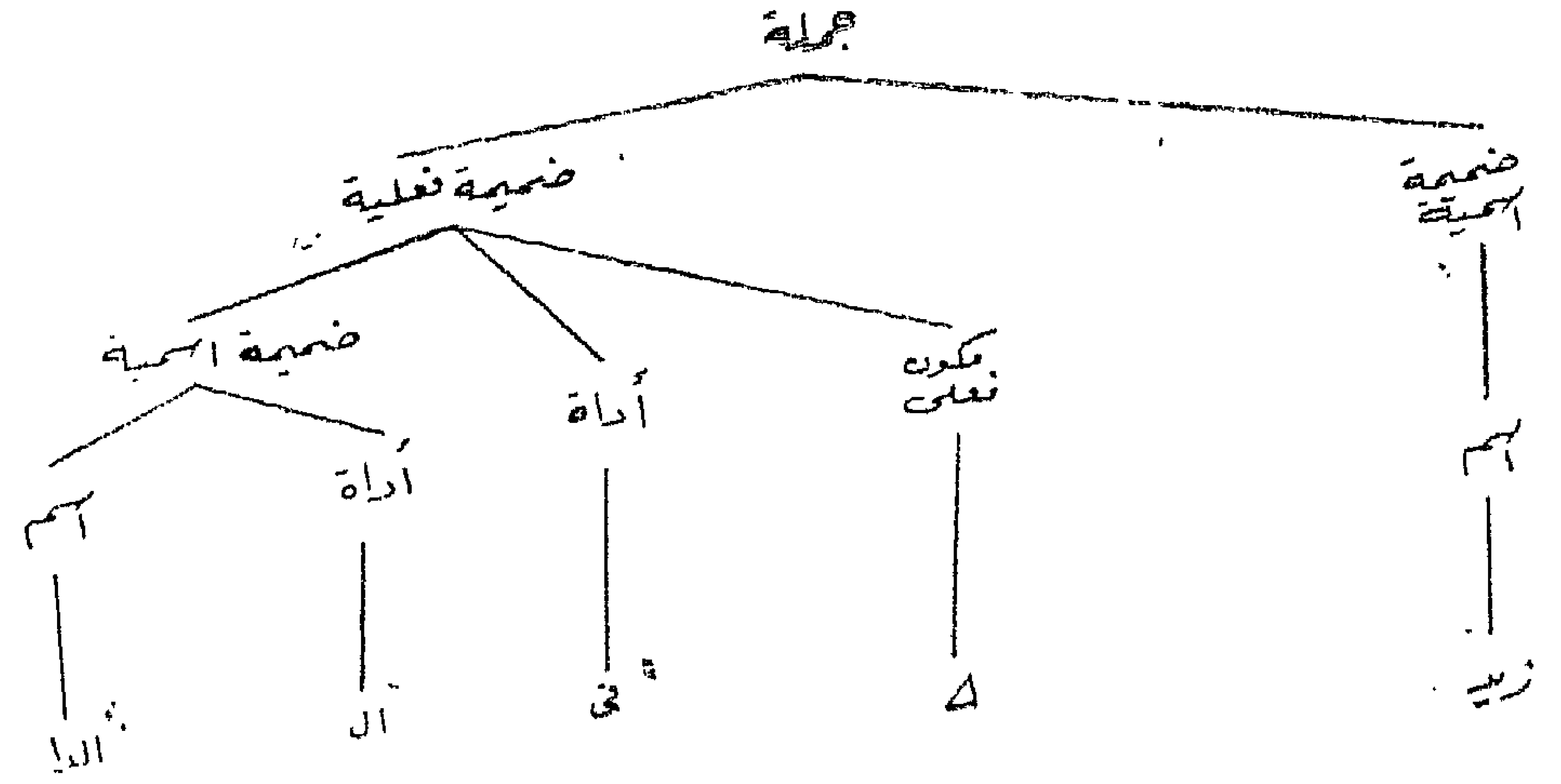

ويلاحظ هنا أن إدخال المكون الفعلى فى الشجرة مع عدم ذكره فى البنية السطحية للجملة يربط الوشائج العميقة بين هذه الجملة وجمل سطحية أخرى مثل :

استقر زيد فى الدار زيد يقرأ فى الدار

زيد مستقر فى الدار ينام زيد فى الدار إلخ

وقد أحسن النحاة العرب صنعا من وجهة نظر هذا النموذج أن قدروا هذا المتعلق عند عدم ذكره واعتبروه محذوفا جوازا وقسموه إلى كون عام وكون خاص .

٧ ـ الرجل الذى يحمل الحقيبة اشترى الكتاب الذى ألفه زيد :

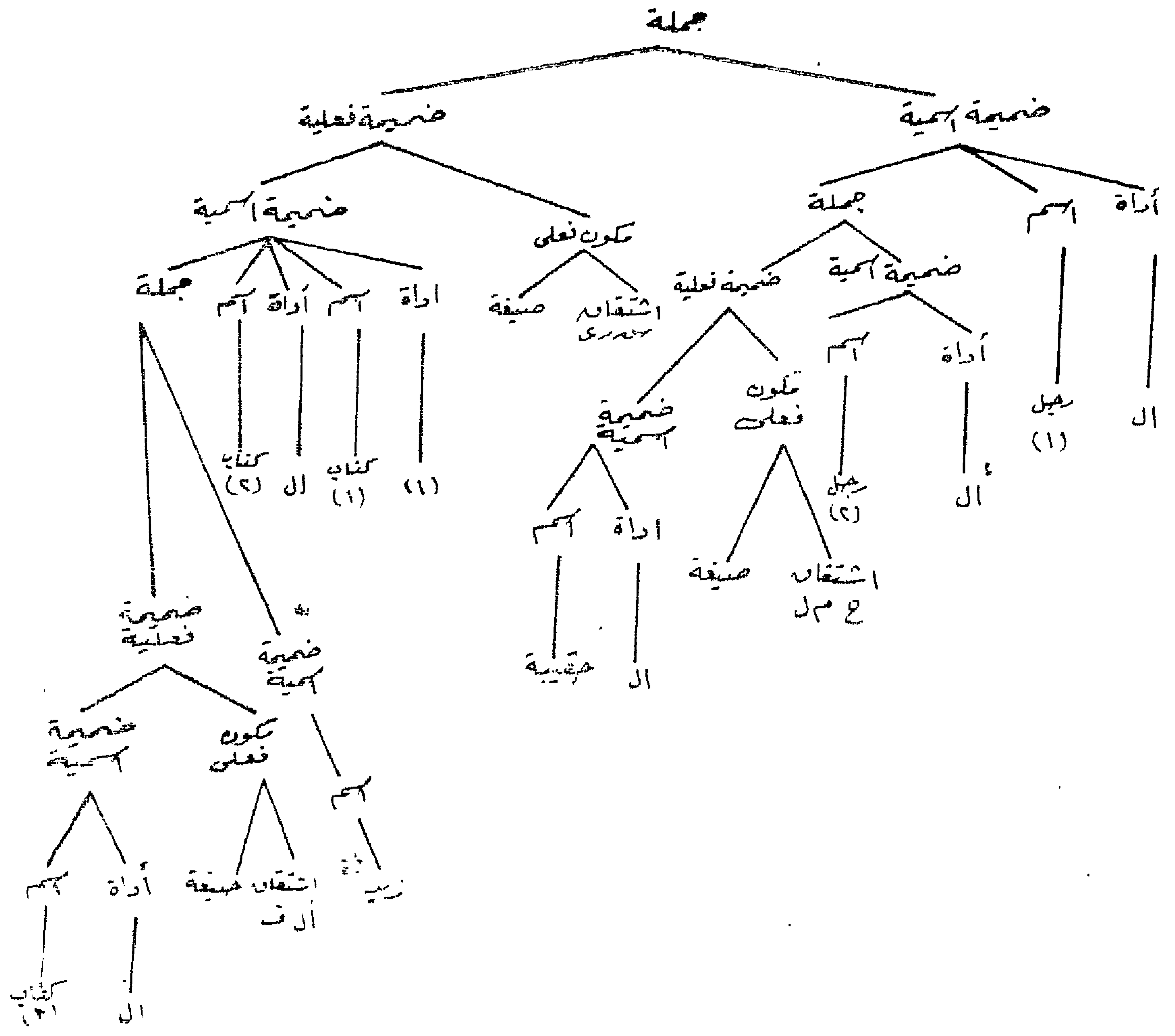

ونلاحظ :

أن الرجل (٢) تحول إلى الضمير الموصول وأن الكتاب (٢) تحول إلى موصول أيضا والكتاب (٣) تحول إلى ضمير المفعول .

وأن هذا التحويل يخضع لقاعدة التطابق الدقيق الذى يشمل التطابق المعجمى والإشارى.

وينبغى أن نعود هنا إلى الإشارة إلى أن التحليل العميق ينتهى بذكر أقسام الكلم من أداة واسم إلخ وأن خصوص الأداة

أو الاسم أو المكون الفعلى يعتمد على تطبيق قيود التوارد المعجمية التى أشرنا إليها عند قولنا لا يسند الفعل يبكى إلا إلى من يصح منه البكاء ثم العنصر الدلالى الذى يمدنا بالمعانى الضرورية للبنية السطحية ثم قواعد التحويل ، ثم العنصر الفونولوجى والذى يعبر بالألفاظ عن هذه المعانى .

والعنصر الذى تحكمه الشروط النحوية (كالتعدى واللزوم الخ) أوالقيود المعجمية (كالإنسان والمعدود الخ) يعتبر عنصرا مركبا مكونا من عدد من الخصائص التى تتطلب أن تراعى وتعتبر هذه الخصائص من القرائن النحوية . وتتدرج هذه الخصائص فى الأهمية بحسب ضرورتها للمعنى فالشروط النحوية إذا لم تراع خرج التركيب عن حدود الصحة أما الشروط المعجمية فإنها إذا لم تراع يظل التعبير قابلا للصحة إذا أمكن تفسيره فى ظل المجاز ، مثال ذلك :

١ — ضرب زيد عمرا . تعبير صحيح ومناسب .

٢ — قد زيد عمرا . تعبير خطأ الجمع بين المتنافيين (قد والاسم)

٣ — جلس زيد عمرا الخطأ أيسر ولكنه قائم بسبب لزوم الفعل مع وجود مفعول .

٤ — أكل زيد عمرا التركيب صحيح نحويا ولكنه مخالف لقيود التوارد المعجمية ويصح تفسيره بالمجاز إذ يمكن للمعنى أن يكون غمطه حقه » .

وهكذا يبدو أن النموذج التحويلى يمكن أن يطبق على اللغة العربية ، ويمكن للغة العربية أن يعاد وصفها لسانيا من خلاله . وقد حرصت على أن أشجر الجمل التى اخترتها لبيان بنيتها العمقية ، ولم أثقل على القارئ أو السامع بإيراد تفاصيل القواعد التى يمكن التعبير بها عن كل جملة وبخاصة لأن بعضها رموز منطقية إن سهلت قراءتها فمن الصعب إبرازها فى الكلام هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يلزمنى أن أعرب هذه الرموز، وهذا التعريب يتطلب الأناة والروية .

تمام حسان

عضو المجمع